

بيار تويي

الانفجار الأكبر

تقرير حول انهيار الغرب 1999-2002

ترجمة

أ. د. محمد بن الطيب   د. عادل النجلاوي

بيار تويي

الانفجار الأكبر

تقرير حول انهيار الغرب

١٩٩٩-٢٠٠٢

ترجمة

أ. د. محمد بن الطيب   د. عادل النجلاوي

الانفجار الأكبر

تقرير حول انهيار الغرب

٢٠٠٢-١٩٩٩

هــذا الكتــاب صــادر عــن مشــروع «مــدّ» للترجمــة الــذي تقــوم عليــه دار أدب للنشــر والتوزيــع ضمــن مبــادرة إثــراء المحتـوى إحـدى مبـادرات مركـز الملـك عبد العزيز الثقافي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الفرنسية لكتاب:

La Grande Implosion
Pierre Thuillier

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

بموجب اتفاق حصري مع:

Librarie Artheme Fayard

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ح دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تويي، بيار
الانفجار الأكبر. / بيار تويي؛ محمد بن الطيب؛ عادل النجلاوي.- الرياض، ١٤٤٢هـ
٥٢٠ ص؛ المقاس ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٦-٠-٩١٦١٨-٦٠٣-٩٧٨

١- الثقافة الغربية أ. بن الطيب، محمد (مترجم) ب. النجلاوي، عادل (مترجم) ج. العنوان
ديوي: ٣٠١,٢٩٥٦ ١٤٤٢/٧٤٥٩

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧٤٥٩
ردمك: ٦-٠-٩١٦١٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م



info@adab.com adab.com @adab
المملكة العربية السعودية-الرياض

إلى آن وأرنو و لور

إلى كاترين وروبار

وفلورانس وباتريك

وفلورانس وجان

إلى هؤلاء وأولئك

الذين أمكن لي الاعتماد عليهم في السنوات العِجاف

المحتويات

مقدمة المترجِمَين ٩

أفكار أوّلية: الإنسان الغربي ٢١

I – الإنسان المتمدّن.. ١٢١

II – الإنسان الاقتصادي.. ١٦٧

III – الإنسان الفاسد ٢١٣

IV – الإنسان التقني.. ٢٥٣

V – الإنسان العالم.. ٤٢٧

قائمة المراجع ٥٠٣

مقدمة المترجِمَين

هذا الكتاب من آخر ما نشر الفيلسوف الفرنسي بيار تويي قبل وفاته، وقد ولد في ٢٦ يوليو ١٩٣٢ وتوفي في ٢٩ سبتمبر ١٩٩٨. تولّى تدريس نظرية المعرفة وتاريخ العلوم في جامعة باريس السابعة، وشارك في تحرير مجلة «**البحث**» (La recherche) منذ إنشائها حتى عام ١٩٩٤، ونشر العديد من الكتب والمقالات حول العلاقة بين العلم والمجتمع. منها:

- **سقراط موظفا، دراسة في الفلسفة الجامعية ونقيضها**، لافون، ١٩٦٩، كمبلاكس، ١٩٨٢.
- **ألاعيب العلم ورهاناته**، لافون، ١٩٧٢.
- **العالِم الصغير مصوّرا**، سوي، ١٩٨٠. (نفد)
- **هل يتولّى البيولوجيون السلطة؟ السوسيولوجيا -موضع تساؤل**، كمبلاكس، ١٩٨١.
- **المغامرة الصناعية وأساطيرها، معارف وتقنيات وعقليات**، كمبلاكس، ١٩٨٢.
- **المعارف الناطقة أو كيف تتحدث الثقافة من خلال العلم**، سوي، ١٩٨٣.
- **من أرخميدس إلى أينشتاين، أوجه الاختراع العلمي الخفية**، فايار، ١٩٨٨.
- **الولع بالعلم، دراسة في أبعاد العلم الثقافية**، فايار، ١٩٨٨.

قام هذا الفيلسوف المختصّ في تاريخ العلوم ونظرية المعرفة في نهاية حياته، بنقدٍ جذري لأيديولوجية العلم والتقنية، التي وُلدت ونمت بين يدي أصحاب

المتاجر، ثمّ اشتدّ عودها في أحضان المقاولين والمهندسين داخل العالم الرأسمالي، مبيّنًا أن في ذلك نُذُرا بتفكّك المجتمع الغربي. صدر هذا الكتاب سنة ١٩٩٥ وقد قُوبل بصمت غريب، ومرّ دون أن يَلتفت المثقفون الغربيون إليه على أهميته البالغة، وهو كتاب عجيب غريب شكلا وأسلوبًا ومحتوى، عرض فيه على سبيل الخيال العلمي والاستشراف المستقبلي والاستباق والتوقع لحدوث كارثة عظمى تحل بالغرب تدمّر حضارته.

أمّا راوي هذه «السردية» المتخيّلة في الكتاب فلم يُعلن عنه، ولكن تتواتر في الكتاب الإحالة على **الأستاذ دوبان** باعتباره العارف بخبايا الأمور والحكيم المفزوع إليه، والشيخ المرجوع إلى ما لديه عند فصل النوازل وحلّ المشاكل وضبط المسائل، وهو جِهة العلم، يهتدي الراوي وفريق بحثه برأيه السديد وموقفه الرشيد، وهو أيضا أحد أبرز محاوريهم.[1] ومدار الكتاب على ما حاق بالحضارة الغربية من سقوط مدوٍّ تخيّل وقوعَه بين سنتي ١٩٩٩ و٢٠٠٢. و لقد أفصح الكتاب عن مضمونه من خلال العنوان الفرعي: «**تقرير حول انهيار الغرب**». يشرح الراوي في المقدّمة كيف أن الغربيين كانوا قد حُذِّروا مرارا ممّا سيؤول إليه

(١) البروفيسور **سيلفستر دوبان** هو شخصية متخيّلة اعتمد عليها المؤلف لينطقها بزبدة أفكاره. وغالبا ما يكون ذلك عند استحصال النتائج الأساسية والتعبير عنها في قالب حِكمي أو مثليّ أو تأليفي في صياغة مسبوكة محبوكة مكتنزة المعنى في الأعم الأغلب. ويبدو أن اختيار تسمية هذا الأستاذ المرجع لم يكن اعتباطيا إذ نجد له في الفرنسية تسمية مقلوبة هي قولهم: pins sylvestres وهو شجر الصنوبر ويتميّز بعلوّه الشاهق وحطبه الصلب المستخدم في البناء، وتستخلص منه زيوت طبية جمّة النفع وهو الشجرة المفضلة في الاحتفال بعيد ميلاد المسيح ولا تخفى الصلة بين هذه المعاني وشخصية دوبان في الكتاب فهي شخصية رفيعة شامخة بناءة حكيمة ولا تخلو من رمزية ومن عمق ثقافي ديني روحي وسموّ أخلاقي. (المترجمان)

أمر حضارتهم من انهيار وفناء واضمحلال بشتّى أنواع الرسائل والتنبيهات. وإنّ كتاب «**الانفجار الأكبر**» لهو ناقوس الخطر، أو هو التنبيه الأخير الذي استبق به الفيلسوف وقوع الكارثة، إذ صدر الكتاب سنة ١٩٩٥، وتوجه به إلى مثقفي عصره وأصحاب القرار فيه، وإن كان في شكل تقرير متخيل وقوعه سنة ٢٠٨١. وحاصل الأمر يتلخص في سؤال: كيف وصل الغربيون إلى هذه المرحلة التي تنذر بالخطر المحدق والشر المستطير؟ هل يمكننا وصف انهيار حضارة عندما نكون جزءا منها؟ هل يمكن إدراك المسارات منذ بداية تشكل الأزمة إلى حين وقوع الكارثة.

عُرف تويي بأنه إبيستيمولوجي ولكنه في هذا الكتاب بدا مستشرفا للمستقبل، ولم تكن قصة فريق البحث الذي أعد تقريرا عن انهيار الغرب إلا مجرد إطار يضفي على الكتاب طابعا قصصيا مشوّقا، ولكن الكتاب ليس قصّة ولا رواية بالمعنى المتداول ولا تنبّؤا بنهاية البشرية، وإنما هو يقين بنهاية طريقة في الحياة، وفشل تصوّر للإنسان وإمعان نظر في أسباب انهيار ثقافة بعينها هي الثقافة الغربية.

قدّم الكتاب غوصا في أعماق التاريخ بحثا عن الأسباب الهيكلية التي ستفضي بالضرورة إلى تلك النهاية المأسوية للحضارة الغربية. هل كان من الحتميّ أن يسقط الغرب في مثل ذلك الفراغ الروحي في نهاية القرن العشرين فينتهي به الأمر إلى الهلاك؟ تأتينا الإجابة من خلال بحث مُضْنٍ طويل دام أربع سنوات أنجزه فريق بحثي تخيّل تويي تشكّله بعد حدوث الكارثة بقرابة قرن من الزمان، واستعمل كلمة Implosion تنبيهًا على أنّ حركة التفجّر كانت من الداخل بخلاف كلمة Explosion التي تعني التفجير بأيادٍ خارجية. حتى لكأن الحضارة الغربية صَرْح تهاوى وانهدم بسبب تناقضات صارخة في منظومتها الفكرية أدّت إلى السقوط والانهيار، فالبناء إذا تصدّع من مواطن متعدّدة يتهاوى كلّه في لحظة لا يمكن تداركها. يمكن للبناء أن يدمّر من خارجه بقصف مدفعي أو جوي أو بكارثة طبيعية

كالـزلازل والبراكيـن والأعاصيـر، ولكن بناء الحضـارة الغربية كان مـآل أمره إلى التداعي والانهيار بسبب تعنّت أهله، فكأن الغربيين قد خرّبوا حضارتهم بأيديهم.

ينبغي أن نقرأ الفصل الأول بكامل الانتباه لكي ندرك أن هذا البناء كان حتميّ الانهيـار مـن الداخل؛ ومرجع ذلك إلى قصة الثقافة الغربية الحديثة: متى نشـأت؟ وكيـف تطـوّرت؟ وعلى أي اختيـارات بُنيت؟ وعلى أيّ مبادئ أُسسـت؟ ذلك أن الاختيـارات الثقافيـة لأي أمـة مـن الأمم هـي التي تتحكّم فـي مسـتقبلها، فالثقافة الغربيـة كسـائر الثقافـات تقـوم علـى أبنية عقليـة ومكونـات فكرية وقيـم أخلاقية واختيارات ثقافية حاسمة. إنّ كلّ ثقافة تنشأ فيشتدّ عودها ثم تنتهي إلى الاضمحلال ثـم تحـلّ محلّهـا ثقافـة أخـرى تكون لهـا الريـادة والسـيادة، وكان الغـرب يمتلك مقومات العمل كلّها والمعارف جميعها لكي يحافظ على بقائه واستمراره، فلماذا تعنّت وعدَل عن السبيل الأقوم وأصرّ على اتّباع النهج المفضي إلى الهلاك؟

كان الحِجـاج في الكتاب ينمـو من فصلٍ إلى فصل، حتى صار الكتاب مثيرًا، يشـخّص فيه المؤلف أمراض العالـم الغربي، ويصـف أدواءه ويعود إلى جذورها، ويرجع إلى بداياتها ويحفر في تاريخها، فيغوص في عصورها الوسـطى مع ميلاد الطبقة البورجوازية الحضرية ودين الاقتصاد وتأليه السـوق، وهو ما فسر بالتدريج جشع النُّخب اللامحدود، والفساد الشامل وهيمنة المال وفتنة الآلة، التي تحولت إلـى معبود فـي خدمة العلـوم والتكنولوجيات، وأنظمة لا روابـط بينها تفضي إلى وباء حضاري حقيقي، حيث يسهم الجميع في الهدم عوض البناء.

فرغ تويي من تأليف هذا الكتاب سنة ١٩٩٥ قبل وفاته بثلاث سنوات ولـم ير بعينيـه خطأ توقعاته، فقد بدت الحضارة الغربية أشـدّ قـدرةً على المقاومة مما كان يبـدو، ولكـن التوقعـات لـم تكـن خاطئةً تمامًـا، فقد أفـاق العالـم يوم ١١ سـبتمبر

٢٠٠١ على أخبار فاجعة ضربت الولايات المتحدة الأمريكية في عقر دارها، وفي بضع سنين اشتدّت الأزمات الاقتصادية في العالم الرأسمالي.

ولا ننكر اليوم بعد وفاة الفيلسوف بأكثر من عشرين عامًا أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، فنحن نراه يحلّل بكامل الدقة الأزمة العالمية التي تحدث الآن أمام أعيننا، فلم يعد بإمكاننا أن نتجاهل اليوم أن المياه تتسرب إلى القارب من جميع الجهات، وأن الغرق وشيك: أزمة المناخ والفقر والمجاعة والتمييز العنصري والحروب والوباء والكوارث المتوقعة.

رغم علم الإنسان الغربي بأنّه محكوم عليه بالفناء، فإنه لا يصدق ذلك حقًا، ومن ثمّ فإنّه غير قادر على تغيير المسار المفضي إلى الهلاك الحتمي. يعود الفضل إلى هذا الكتاب في شرح هذا التناقض من خلال إظهار أن الأزمة الاقتصادية والمالية والتفاوت الفاضح بين شعوب الشمال وشعوب الجنوب، وتغير المناخ ونضوب الموارد الطبيعية، واختفاء الأنواع الحية وتداعي المؤسسات، وفساد المجتمعات وانهيار القيم وشيوع التطرف والإرهاب، وعودة العصبية القبلية والعرقية والنزعات العنصرية والعولمة الوحشية التي تبنيها المجتمعات الغربية، وتدمير الطبيعة ليست ظواهر طارئة يمكن إيجاد الحلول لها بتدابير مخصوصة، ولكنها نتائج طبيعية لمسار ثقافي حضاري خاطئ قام على المادّية والنفعية، وتأسس على عبادة التقدم، ومن ثم فإن المستقبل الكارثي للإنسانية قد بُرمج سلفا.

إن هذا الكتاب عبارة عن تقرير مفصّل يتناول على سبيل الإحاطة الأسباب التاريخية والثقافية والروحية التي أدّت إلى هذا الحدث الكارثي، وهو تقرير موثق، مُرَشَّق بالشواهد والأمثلة والمؤيّدات، وكأنّه يستعرض الأدلّة التي تدين الفلاسفة والعلماء الذين شاركوا -عن وعي أو غير وعي- في وقوع هذه الكارثة الحضارية

الكبرى، من أمثال ديكارت وسان سيمون وكوندورسيه ومونو وغيرهم، ويشهد على التنبيهات والتحذيرات التي أطلقها أمثال فاليري وسوريل ووينر وتوكفيل ودوستوفيسكي الذين لم يألوا جهدا في معارضة مشروع هؤلاء. وتحسن الإشارة في هذا السياق إلى أن المؤلف عوّل على ذلك الكم الهائل من الشواهد، ولكنه اكتفى بذكر أصحابها ومؤلّفاتهم التي رجع إليها وأثبتها في قائمة المراجع دون إحالة في الهامش على المصادر والمراجع ودون تنصيص على الصفحات التي اقتبست منها تلك الشواهد، والمظنون عندنا أنه تساهل في ذلك لأنه لم يتوجه بكتابه إلى الجماعة العلمية فحسب، وإنما توجه به إلى جمهور المثقفين عموما. وإذا علمنا أن الرجل قد توفي بعد نشر الكتاب بثلاث سنوات حمَلَنا الظنُّ على أنه رغب في إصداره على تلك الصورة مبادرة منه إلى تنبيه الناس للقارعة التي ستنزل بهم في المستقبل القريب قبل فوات الأوان، ذلك أن الاعتناء بتدقيق إحالات بذلك الكم الهائل يحتاج إلى وقت ربما لم تكن تسمح به ظروفه، على أن هذه الطريقة في الكتابة دون ضبط المراجع بدقة ليست حكرا عليه، فالفلاسفة والمفكرون في مرحلة من مراحل نضجهم الفكري يستغنون في كثير من الأحيان عن الإحالة على غيرهم. وذلك لما اكتسبوه من مصداقية لدى قرائهم الذين يثقون في أمانتهم العلمية ونزاهتهم الفكرية، فيكتفون بالإحالة على الكتاب في قائمة المراجع ويضعون الشواهد بين ظفرين على نحو ما فعل المؤلف.

يتألف الكتاب من «تأملات أوّلية» تتعلق ببيان أشدّ الأعراض المرضية وضوحا التي حاقت بالغرب، وإبراز علامات التحذير من الانهيار، تليها خمسة فصول تمثّل العناصر الكبرى المكوّنة للحضارة الغربية:

- **الإنسان الحضري**: حيث تشير كلمة «حضري» إلى المدينة بخلاف «وحشية»

الغابات والأرياف.، فقد ولد الغرب الحديث في المدن في نهاية العصور الوسطى، في كنف «البرجوازية» التي تجسّد استبعاد الطبيعة والتخلّق بالأخلاق «الحضرية» و»المتحضّرة» و»المواطنة السياسية» وانسياب حركة البضائع والأموال، وقد امتاز هذا الفصل بالمقارنة الدقيقة بين مآل المدن الغربية ومثيلاتها في الحضارات الأخرى كالحضارة الصينية والمصرية والسومرية واليونانية والإسلامية وغيرها، وهنا كان لمدينة العصر الوسيط شيء يميّزها جوهريا مقارنة بالمدن التي نشأت في أماكن وعصور أخرى.

فكانت مدينة العصر الوسيط تُؤوي عددا من التجار والصيارفة والحرفيين، لكنها كانت تؤوي كذلك كُهّانا ورُهْبانا ونبلاء وكتّاب عدل وقضاة وأطباء وغيرهم. وليس لهذه التركيبة السكانية في حدّ ذاتها أيّ شيء مميّز، ففي الصين أيضا وُجِدت مدن كانت التجارة فيها تحتلّ مكانة مرموقة، ويعيش داخلها سكان يشبهون سكان مدن الغرب، غير أنّ نموّ سكان تلك المدن قد سلك نهجًا آخر ومنحى مغايرا، فالفرق يكمن في المكانة الاجتماعية والثقافية الرفيعة التي يتمتّع بها التجار الغربيون وشركاؤهم، ففي مدن العالم الروماني الإغريقي أو في الصين لم يكن للتجار والحرفيين والصيارفة هذه المنزلة الرفيعة. كانوا أثرياء ولكن ثراءهم لم يُتح لهم أن يكونوا عُنوان حضارتهم. في مقابل ذلك أمّنت الثورة العمرانية في الغرب هيمنة التجّار ورجال الأعمال والصيارفة. ولم يكن ذلك في الميدان الاقتصادي فحسب، وإنما في المستوى الثقافي أيضا. لقد أصبحوا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وعن قصد أو عن غير قصد المبدعين المؤسّسين لنمط عُمراني جديد، لقد فَرَضت أهدافُهم وطرائقُ تفكيرهم وأنماطُ عيشهم نفسَها على الجميع شيئا فشيئا. كانت خصوصية الغرب تكمن هناك، أي في تولّي تاجر العصر الوسيط السلطة داخل المدن بداية من القرن الثاني عشر. كانت مُثل البورجوازي تأخذ

طريقها دائما على نحو أوضح وأعمق أثرا في تأسيس جملة المعتقدات والممارسات التي أطلق عليها أهل الحداثة بعد ذلك اسم "الحضارة". من ثمّ تتراءى لنا حقيقة المدينة الغربية، لقد كانت وسيلة جديدة للانقطاع عن البادية وعن البداوة؛ ذلك أنّ مدن بلدان العالم الأخرى بقيت مرتبطة بالأوساط الريفية التي نشأت فيها، ففي الصين مثلا لم تكن المدينة جسما مستقلا بذاته، وإنما كانت عضوًا ينتمي إلى سياق عام يتكامل فيه الريف والمدينة، وبعبارة أخرى كانت القيم السائدة في المدن نفسها ريفية في جوهرها، فالعقائد والعادات التي تكوّنت في البوادي المجاورة هي التي كانت مهيمنة، وكانت بذلك كفيلة بضمان انسجام ثقافي حقيقي بين أهل المدن وبقية السكّان، وخلافًا لذلك كان التوجّه في الغرب ينحو نحو الفصل الحاسم بين المدينة والبادية، بل وجعلهما على طرَفي نقيض، لقد صارت المدينة في أوروبا في العصر الوسيط تشهد تناميا غير مسبوق، ثمّ أضحت جسما في غاية الخصوصية غريبا كلّ الغربة عن الوسط الذي يحيط به.

- **الإنسان الاقتصادي**: وقد وُلد من رَحِم التجارة حيث تأسست القيم الغربية على العمل بغاية جمع أكبر قدر ممكن من المال، فهو ينظر إلى العالم من منظور مادي خالص؛ فلذلك كان الهوس بـ «الإدارة» و«الربح» و«العائد» و«المنفعة».

- **الإنسان الفاسد**: يؤدي طغيان العقل التجاري وعبادة المال حتماً إلى فساد الناس وانهيار القيم، وسقوط الأخلاق وتدمير المؤسسات في جميع المستويات؛ لأنّ «كل شيء خاضع للبيع والشراء مهما كان ذلك الشيء»، وقد بدا ذلك أمرا طبيعيا باعتباره مشتقا من المعايير الغربية السائدة.

- **الإنسان التقني**: تؤدّي روح المبادرة وعبادة المال إلى تفضيل المصنوعات

على المخلوقات الطبيعة، وإلى سيادة «المهندس» وتشجيع جميع «الاختراعات» و»الابتكارات» ولو كانت مجلبة للمفاسد، وتفضي إلى عبادة الآلة حيث يفرض الغربي في جميع المجالات رؤية «ميكانيكية» للأشياء، إلى درجة أنه يختزل كل شيء (العالم والحياة والحيوانات والإنسان نفسه ومجتمعه) في آلات مادية بحتة جامدة وأخرى حية.

- **الإنسان العلمي**: تتأتّى قوة التقنية ونجاحها في السيطرة على العالم من تحالفها مع العلم الحديث، فلم يكن ذلك التحالف صدفة بل كان ثمرة مسار تاريخي؛ لأن المعرفة الموضوعية التجريبية (بخلاف العلم القائم على التأمّل لدى القدماء والشرقيين) كانت منذ نشأتها خاضعة لتصوّر نفعي، قادها إلى برامج صناعية وعسكرية كبرى، فلم نكن إذن إزاء علم محايد نقيّ؛ لأنّ الغربي يؤمن بأن «العلم» هو الدين الوحيد تقريبًا، حتى إنه يتوقع من «العلوم التقنية» حلّ جميع المشكلات التي ساهمت تلك العلوم في حدوثها! إن هذا البحث فلسفي ينهض بتشخيص البؤس الثقافي للغرب الحالي، وهو بؤس ناجم عن العقلانية العلمية المنبثقة من الديكارتية، ومن التقنية الاختزالية التي تعتبر الإنسان والطبيعة آلة، ومن المادية التجارية القائمة على المنفعة الشخصية، التي أقامتها الطبقة البرجوازية نهاية العصور الوسطى.

كلّ ذلك قاد إلى مجتمع لا روحانية فيه ولا شعر ولا وجدان ولا محبّة، محكومٌ عليه بالتدمير الذاتي. قد يكون من المشروع أن نتساءل بعد هذه الآراء المُرَوّعة عمّا إذا كان من الممكن أن نحلم بـ«نموذج حضاري جديد»، لا يختزل التقدم في الاقتصاد والمنفعة المادية الخالصة، بل يشمل تعزيز العلاقات الإنسانية والأخوّة البشرية والقيم الأخلاقية واحترام متطلبات بقاء النظم البيئية، واستعادة

الروحانية والحياة الشعرية الوجدانية مكانتها الطبيعية في المجتمعات الإنسانية.

إن هـذا الكتـاب -فـي تقديرنـا- دعوة إلى كسـر أنمـوذج الآلـة الاقتصادية والتقنية الغربية الضخمة التي تتقدم بشـكل أعمى، وتحطّم كل شـيء في طريقها، واحتجـاج علـى الفـراغ الثقافـي والعنـف الرمزي المفـروض علـى المجتمعات الغربية. لقد قدّم لنا الفيلسـوف الفرنسي نقدًا علميا فلسفيا رفيع المستوى للثقافة الغربيـة مـن داخلها، وهـو ذو غنى فريد من حيث تنوّع شـواهده وثـراء مراجعه، حاول أن يجيب عن السـؤال الأساسـي الذي لم يجرؤ الغربيون على بسطه وهو: «ما هي طبيعة الإنسـان الذي نريد أن ننشئه؟»

والـذي نراه في هذا الباب أن الحضارة العربية الإسـلامية بمخزونها الروحي العظيـم وقيمها الأخلاقية الكونية، وتراثها الشـعري والأدبـي والعلمي قادرة على إمداد الإنسـانية اليوم بما هي في حاجة إليه من مَدَد روحي يحدّ من شَـطَط المنزع المادي المهيمن عليها.

لقـد كانت ترجمة هـذا الكتاب مغامرة حقيقية والحق يقال، إذ لم يكن سـهل المأخذ يجري على جديلة واحدة، بل كان نسـيجًا ثريا مرشّـقا بشـواهد من مظانّ مختلفـة علميـة وفلسـفية، أدبيـة وشـعرية وأسـطورية، قديمـة وحديثـة، تنتمي في الغالب إلى الحضارة الغربية موضوع الكتاب، ولكنها تنفتح على ومضات مقارنية بينهـا وبيـن الحضارات الأخرى الشـرقية الإسـلامية والمصرية والبوذيـة والهندية والطاوية، وحضارة الهنود الحمر في القارة الأمريكية، وحتى الحضارات القديمة البدائيـة وغيرها. وتشـهد لهذا التنـوع قائمة المراجع التي أحال عليها الفيلسـوف، ولـم يكن ترجمة ذلك كلّه بالأمر الهين فقد واجهتنا صعوبات جمة في ترجمة كثير مـن المصطلحـات والعبارات، قلّبنا فيها النظر طويلا حتى اهتدينا إلى ما رأيناه في غالـب ظننـا مفهومًـا مقبولا مستسـاغا لدى جمهور القـراء باللسـان العربي، وكان

همنا دوما خلال الترجمة أن نوفِّق بين مقتضيات الوفاء للنص الفرنسي من جهة، ومقروئية النص لديهم، ولم يكن ذلك علينا بالأمر اليسير، غير أننا اجتهدنا على قدر القريحة والعلوم في أن يكون الكتاب قريبا من المجال التداولي للقارئ العربي، وحاولنا قصارى جهدنا أن نشرح غوامضه ونذلّل مصاعبه، وأن ننقل ما فيه من معطيات ومعلومات وآراء وانتقادات إلى لسان عربي مبين لا تعسّف فيه ولا استكراه، مع الإشارة إلى أن الكلمات ذات الحروف التاجيّة جعلناها بخط غليظ وذلك لأن الخط العربي لايشتمل على مثل تلك الحروف في الخط الفرنسي، وعادة ما تستعمل في الفرنسية للإشارة إلى أسماء الأعلام أو المدن أو المصطلحات أو الكلمات التي يُراد إظهارها والاهتمامام بها ولفت النظر إليها.

وينبغي أن نشير في هذا السياق إلى أن اختيارنا هذا الأثر لترجمته إلى قراء العربية لا يصدر عن رغبة لدينا في أن نرى الحضارة الغربية تتهاوى ولا نتمنّى ذلك، فقد قدّمت هذه الحضارة ومازالت تقدّم منجزات كبرى انتفعت بها الإنسانية قاطبة. ولئن استمْلَحْنا النَّفَسَ النقدي واستطرفنا العمق البحثي الذي ينهض بحفريات في معارف الغرب وعلومه وثقافته، فلسنا على مذهب الفيلسوف تويي في مبالغاته النقدية للحضارة الغربية التي تصل في بعض الأحيان إلى شيء من التحامل. على أنّ ذلك لم يَحُلْ بيننا وبين الالتزام بنقل أفكاره بدقة وأمانة.

وغاية مأمولنا أن يقرأ القارئ هذا الكتاب فيظنه مكتوبا بالعربية، عندئذ يتبين له مدى الجهد الذي بذلنا والوقت الذي أنفقنا، ونهاية مطلوبنا أن يكون هذا العمل المتواضع مفيدا للثقافة العربية. ولا يفوتنا أن نتوجه بالشكر الجزيل والثناء الجميل إلى فريق **أدب** بقيادة الأخ الفاضل **الدكتور عبد الله السفياني** الذي شرّفنا بأن تولّى بنفسه تدقيق الكتاب وتحريره، وقد كانت لنا معه محاورات ومشاورات تتعلّق

بالنواحي المفهومية والاصطلاحية والتوثيقية عامة وباختيار عنوان الكتاب خاصة، فقد اخترنا معا عنوان: **الانفجار الأكبر** دون **الانفجار العظيم** حتى لا يذهب في ظن القارئ أن الكتاب في علم الفيزياء الفلكية وأنه يتعلّق بالانفجار العظيم (Big Bang)، الذي يُعْتَقَدُ أنّ الكون نشأ عنه، أو **الانفجار الهائل** لأنه مُوهِم بأن الانفجار مادّي وهو مما يحصل في كثير من الأماكن والأوقات، أو **الانفجار الكبير** لأن نعت **الكبير** لا يؤدي معنى الكارثة الحضارية الذي قصد إليه المؤلف، فكان اختيارنا ذاك بعد طول نظر وتأمّل. فلفريق **أدب** ورئيسه منّا خالص المودّة والتقدير لما لقينا منهم من تشجيع وحماس وترحيب بنشر هذه الترجمة، ولهم جزيل الشكر على ما بذلوه من جهود خيّرة في نشر الكتاب للقرّاء في أبهى حلّة فجازاهم الله عن العلم وأهله خير الجزاء.

والله ولي التوفيق.

تونس لسبع خلون من رمضان الكريم سنة ١٤٤٢ من الهجرة النبوية المشرفة الموافق للتاسع عشر من نيسان/ أبريل ٢٠١٩ ميلادية

الأستاذ الدكتور محمد بن الطيب

أستاذ الأدب والحضارة العربية الإسلامية

جامعة منوبة-تونس

الدكتور عادل النجلاوي

أستاذ اللسانيات والأدب والحضارة الفرنسية

جامعة جندوبة-تونس

أفكار أوّلية

الإنسان الغربي

«الشعر أساس المجتمع».

نوفاليس

«إنّ ما يميز فرنسا في حماقتها الحالية هو غياب المشاعر العظيمة،

وفقدان الإحساس الحيّ».

بول فاليري

«إنّي حين أرى الأوروبيين وأستمع إليهم:

أعتقد أنهم لا يدركون معنى الحياة».

أندري مالرو

أفكار أوّليّة
الإنسان الغربي

الباز (أعالي الألب)، جويلية ٢٠٨١.

تشكل سنة ٢٠٧٧ «فريق بحث حول نهاية «الثقافة الغربية» بصفة عفوية، مكوّن في معظمه من شعراء ومؤرخين ومختصين في الإنسانيات، ولم يكن يحمل هذه التسمية ليدّعي لنفسه مكانة علميّة، وإنما ليتمتّع بالمزايا الثقافية الممنوحة لكلّ فريق من هذا القبيل. فقد استفدنا مثلا من المساعدة النشيطة السخيّة التي قدّمها لنا عدد كبير من أهل الاختصاص في الأرشيف والتوثيق، وقد أتيحت لنا جميع التسهيلات بأنواعها (كالتنقلات والتفرّغ واللقاءات مع فرق أو جمعيات لها اهتمامات قريبة من اهتماماتنا وما إلى ذلك).

وخلال أربع سنوات استطعنا أن نجمع المعلومات وأن نفكّر في هذا الموضوع في هدوء ورويّة. وليس لتقريرنا هذا سوى طموح واحد هو استخلاص بعض النتائج التي توصّلنا إليها بصفة مؤقّتة. ونرجو من القارئ أن يغتفر لنا ما فيه من نقائص وإخلالات؛ إذ ستظهر في الأشهر القادمة منشورات متنوّعة تتضمّن إضافات وتدقيقات.

ولم يكن هدفنا الأوّل أن نرْوِيَ مرّة أخرى الأحداث التي أدّت إلى انفجار الغرب، أي ما نسميه اليوم **الانفجار الأكبر**. فكثيرة هي المؤلّفات المتميّزة التي أنْعَمت النّظر في الهزّات والأزمات التي وَسَمت سنوات ١٩٩٩-٢٠٠٢ على

وجـه الخصـوص؛ ولذلك بـدا لنا أن لا جدوى من الرجوع إلـى تلك الانتفاضات والانفجـارات، ولا إلى مشـاهد اليـأس أو العنف التي بلغت ذروتها سـنة ٢٠٠٢. فالأسئلة الكبرى التي قادتنا كانت أعمق من ذلك.

نحن نتوق إلى فهم التاريخ الروحي للغرب: ما هي «الثقافة الغربية الحديثـة» إذن؟ متى نشـأت وكيف نشـأت؟ وعلى أيّ خيارات وأيّ مبادئ وأيّ عقائد كانت قد أُسِّست؟ لماذا آلت إلى الخراب رُويدًا رويدًا؟ لماذا لم يَسْتَبْصر الغربيون قُدومَ الكارثة؟ لماذا لم يتمكّنوا من اجتنابها بأيّ حال من الأحوال؟

سنتبيّن عند قراءة هذه الصفحات أنّ هذه المشكلة قد شغلت أذهاننا باستمرار، بل إنّها قد صارت هاجسًـا لدينا، إذ كيف يحدث أنّ الغرب الذي كانت نُخَبه على غايـة من الذّكاء والعقلانية والعِلْميّة قد اسـتخفّ بتلـك التحذيرات كلّها؟ هل كان مـن المحتوم إذن أن يسـقط في مثل ذاك الخمـود الروحي فينتهي إلى القضاء على نفسه بالهلاك؟

الرأي عندنا أنّه كان هناك ما يشـبه السـرّ، ذلك أنّنا إذا ما احتكمنا إلى الوثائق الكثيرة التي حصلنا عليها، أَلْفَيْنَا أنّ الغرب كان يتوفّر عمليّا على المعلومات كلّها، والمعـارف جميعهـا، وسـائر وسـائل العمل التـي كان يمكـن (مبدئيـا) أن تُتيح له اليقظـة وضمـان البقـاء. فلمـاذا إذن أصرّ على اتّبـاع طريق يفضي بـه -بداهةً- إلى الأسـوأ ؟ فكلّمـا تقصّينـا الثقافـة الغربية وبحثنا عـن خصائصهـا الجوهرية ونقاط قوّتها وضعفها أدركنا - قبل حدوث **الانفجار الأكبر** بزمن بعيد - أنّ كلّ ما ينبغي أن يُقال كان قد قيل.

أمّـا مـا يتعلّـق بالحالة الفرنسـية التي انصـبّ عليهـا اهتمام فريـق بحثنا بصفة خاصـة، فقـد كان الأمـر واضحـا جليّا: فكلّ شـيء تقريبا كان قد قيـل في المظاهر

المثيرة للهُزْء والغرابة المتعلّقة بعبادة التقدّم، وفي السلوك التكنوقراطي المَهُوس، وفي ضرب من الذُهان الظاهر للعيان لدى النُّخب المزعومة التي بُرْمِجت كما تُبرمج الحواسيب، وفي الهيمنة التي لا حدود لها للمؤسسات الاقتصادية والمالية، وفي البحث المَهُوس عن المَكْنَنة والآلية، وفي المظاهر القمعية للعقلانية الغربية، وللعلم الذي كان لا ينفصل عنها، وفي انعدام الكفاءة في قيادةٍ إنسانيةٍ للمؤسسات التي تولّت مسؤوليتَها هيئاتُ التسيير المشهورة (سواء أكانت في مجال الصناعة أم في هياكل الدولة)، وفي ضعف الخيال والإحساس والحماسة، الذي انتهى إلى أن يكون سمة ملازمة لنشاط الأحزاب السياسية كلّها، وفي الصعود الهائل للفردانية، وفي مَصَايِد «ثقافة المعلومات والاتّصال» التي طالما مجّدها علماء الاجتماع والإعلاميون، وفي تفاقم انخرام التوازنات بين الشمال والجنوب، وفي مخاطر الانفجار الخارجي أو الانفجار الداخلي الناجمة عن ضحايا الإقصاء الذين تنامى عدَدُهم.

لقد كُتِبت في هذه القضايا جميعها آلافٌ مؤلَّفَةٌ من الصفحات من قِبَل صحفيين ودارسين وخبراء متميّزين، وربّما لم يكن الغربيون قد شخّصوا -على نحو شامل- العِلل التي يعانون منها كلّها، ولكنّهم وصفوا عددا كبيرا من الأعراض المرَضيّة الحَرِجة.

تلك هي المفارقة التي كنّا قد واجهناها ونحن نستعيد الماضي: لماذا عجز الغربيون عن اتّخاذ الإجراءات اللازمة وقد عاينوا في ثقافتهم أوْجاعا على غاية من الخطورة، بل تناقضات مدمّرة؟ لماذا لم يعمّقوا تحليلاتهم؟ لماذا لم يعيدوا النظر في عوائدهم ومعتقداتهم ومؤسّساتهم؟ لماذا تشبّثوا بالهروبِ إلى الأمام وقد لاحت لهم على وجه العموم مخاطرُه ؟

الحق أنّ الرّاحل الأستاذ دوبان Dupin كان قد حذّرنا من ذلك، ففي رأيه: من الوهـم الاعتقـاد بأنّ ثقافة من الثقافات يمكن لها أن تفِرّ من قَدَرها بمجرّد "صحْوَة الضميـر"، ولْنُذكّـر على هامش حديثنا أنّ سيلفسـتر دوبان Sylvestre Dupin كان شـغوفا بظواهـر الانحطـاط الثقافي. وإذا كان فريـق بحثنا قد رأى النـور، فقد كان ذلـك فـي الغالب بتأثير منه. هل كان حقّا أستاذا؟ لم نعرف ذلـك قطّ، كثيرون منّا علـى أيّة حـال كانت لهم معه محاورات طويلة مفيدة، كانـت هذه الفكرة بالتدقيق غاليـة عليـه: " تُولَـدُ كلّ ثقافة من بعض الخيـارات، وتمضي بخيرها وشـرّها، إلى أقصـى تلـك الخيـارات". وقد كنّـا -بداهةً- ميّاليـن إلى الإيمان بذلـك، ولكن في النهايـة كان استغرابنا عظيما. لماذا أعْـوَزت الغربيين البصيرةُ إلى هذا الحدّ خلال الفترة التي سبقت **الانفجار الأكبر**؟ لم يكن الملاحظون النقّاد قد أبانوا عن أشْراك وضُغـوط وأعْطـاب خطيـرة وتهديدات واضحة فقـط، ولكنّهم كانوا قـد تلقّوْا في ذلـك تنبيهـات جليّة جدّا منذ زمن بعيد؛ فإن رجال السياسـة وغيرهم من أصحاب القـرار في القرن العشـرين -كما نعلم- كان يُسْدِي لهم النصيحـةَ خبراءُ لامِعون؛ فكيف نفسّر سُلوكَهم الرّقيع بل غير المسؤول؟

لقد بسـطنا على أنفسـنا أيضا أسـئلة حول المواطنين العاديين. إنهم يُقاسـون أحيانا أمراضا اجتماعية ثقافية متولّدة عن التعلّق الشديد بالحداثة والتقدّم والإنتاج والاسـتهلاك، فقـد كانـت أمامهـم فُـرَصٌ متعدّدة لكـي يتبيّن لهم كـم كان هاجس المردود [المادي] مدمّرا، ولا ريب في أنّ كثيرين منهم قد لمسوا بوضوح متفاوت مـا فـي النظام الذي كان مفروضا عليهم من قسـوة وجَدْبٍ (من الجانب الإنسـاني المحـض). ولكنّهـم أظهـروا سـلوكا سـلبيا للغايـة، فكانـوا يتذمّرون فـي الغالب ويحتجّـون عندما تبْدو مصالحهم المادية عُرْضة للتهديد، ولكنّهم كانوا في النهاية يتقبّلـون بُـؤسَ "الحداثـة" الروحـيّ بـكلّ سـهولة. فكيف نفسـر غيـاب التعبير عن

الاستياء وحتّى الحرمان غيابا تامّا؟ لماذا انْسَرَبت سنوات كثيرة دون أن تكون هناك معارضة جذرية؟ لِنُكرّر ذلك، لقد كان ينبغي أن ننتظر سنة ١٩٩٩ كي يتحوّل التذمّر إلى غضب حقيقيّ في بعض المناطق الساخنة بالخصوص، وفي سنة ٢٠٠٠ لم يكن أحدٌ بعدُ يتخيّل من الناحية العملية أنّ النّظام يوشك على الانهيار.

لقد بقي الغربيون عشيّة الأحداث المأْسَوِيّة لسنة ٢٠٠٢ مقتنعين - وهذا أمر واقع - بأنّ نمط حياتهم كان تجسيدا مميّزا ونهائيا لـ"الحضارة"، وما يبدو لنا اليوم غير قابل للتصديق أصلاً أنّهم كانوا غير قادرين على إدراك أنّ هذه "الحضارة" قد صارت كقشرةِ الجوْزِ هشاشةً. وقد بيّنَتْ بحوثُنا بوضوح أنّ النخب السياسية والاقتصادية والثقافية في نهاية القرن العشرين، قد تصرّفوا كما لو أنّ خطورة الموقف لا قِبَلَ لهم بها، فاسْتَبْسَلوا في حلّ جملة من المشكلات التي عُدّت "عاجلة" الواحدة بعد الأخرى، دون أن يعيدوا النظر قطّ في المبادئ الكبرى (الصريحة أو الضمنية) التي كانت تقوم عليها ممارساتهم.

ولْنَعْتَرِفْ بأنّنا لم نجد تفسيرا بسيطا لذلك، لقد انتهينا على الأقل إلى إدراك أنّ انحلال الغرب كان قد بدأ قبل **الانفجار الأكبر** بزمن طويل.

إنّ تاريخ ٢٠٠٢ هو تاريخ مناسب على وجه اليقين: إذ يسجّل الفترة التي انهارت فيها المؤسسات الكبرى على نحْوٍ مُذْهل عنيف. ولكنّ مسار التدهور كان قد بدأ قبل ذلك بكثير. فالثقافة الغربية -بعبارة أخرى- كانت ميّتة بعدُ وذلك منذ زمن، فقد أكّد الأستاذ دوبان Dupin " أنّ الغربيين خلال الثمانينات أو التسعينات من القرن العشرين كانوا في الواقع مجرّدين من كلّ ثقافة، إذا ما قبلنا -على الأقلّ- أنّ الثقافة الحقيقية تقتضي سَلَفًا تصوّرا مخصوصا للإنسان وللمجتمع".

ربما كان هذا الحكم مبالغا فيه، ولكنّه لفت انتباهنا إلى أمر مهمّ، إذ في الوقت الذي بدأ فيه الغربيون يحْتضرون، كانوا يتخيّلون أنفسهم يملكون بعدُ وجودا حقيقيا يمثّل "حضارة" ونظاما اجتماعيا وثقافيا. لقد كانوا يدركون أنّ هناك أعْطابًا وصُدوعًا، وكانوا يلاحظون اتساعَ المشكلاتِ وتعدُّدَها (مثل البطالة والانحراف والمخدّرات وغيرها)، ولكنّ المحلّات التجارية كانت تغصّ بالبضائع والبورصة تشتغل والبرامج التلفزيونية تُبثّ للمشاهدين، فكانوا يعتقدون إذن أنّ هذه "الأزمات" كلّها – على حِدّتها – يمكن أن تُحَلّ في إطار المنظومة السائدة.

كان هذا على أيّة حال الاعتقاد الراسخ لدى كلّ الذين ينادون مِلْءَ أشداقهم بـ"الحداثة"، وخير دليل على ذلك أنّ ثائرتهم كانت تثور عندما يَتَجرَّأُ أحدُهم على الحديث عن التدهور والانحطاط، لقد كانوا يرون أن العقول الماضوية والرجعيّة فقط هي التي يمكن أن تفكّر على هذا النّحو، فكانوا يُمْطِرونها عندئذ بوابل من السخرية والشتائم، وكانوا يقولون إنّ ضعاف العقول وحدَهم هم الذين يعتقدون أنّ الرجوع إلى الوراء ممكن، وأنّ المتشائمين المُغرقين في التشاؤم أو الجبناء وحدهم يتحاملون على عبادة الاستهلاك، وإيديولوجيا الإنتاج والتكنوقراطية وغيرها. إنّ أولئك الذين يسميهم الأستاذ دوبان Dupin علماء الاجتماع الخَدَم لم يكونوا آخر من يدافع عن الغرب الجديد بلا قيْد ولا شرْط؛ وإذا ما افترضنا صِدْقَ ما يقولون لم يكن ذلك المجتمع مؤهّلا لإشباع طموحات الناس المشروعة كلّها فحسب، بل كان حيّا مُفْعَما بالتفاؤل. ولن نطيل في الأساليب البلاغية المستهجنة المستعملة في خطابات من هذا النوع، إذ كان من المغالطة أن نبرّر مثلا أسوأ أشكال "الحداثة"؛ وذلك بالحديث عن استحالة "الرجوع إلى الوراء" لأنّ الجميع كانوا يعرفون جيّدا أنّ البشرية لن تعود إلى حالة "بدائية" غير واضحة المعالم، فمن ذا الذي كان يتخيّل ذلك إذن؟ ومن ذا الذي تمنّى أن يَبْعَث من جديد بالمعنى

الحرفي البسيط للكلمة مجتمَعًا من الصيادين وقاطفي الثمار، أو حتّى مجتمعَ أثينا زمنَ بيرقليطس[1] Périclès؟

ولْنُؤكّدْ في مقابل ذلك كلّ ما كان من وعي ساذج ومادّية غليظة في إعلان المبادئ التقدميّة، فكُتّابهم - كما يبدو - لم يعودوا يعرفون ماذا تعني كلمة ثقافة؟ إذ لم يدركوا أنّ مجتمعا من المجتمعات يمكن أن يستمرّ بالاشتغال بطريقة عادية تقريبا في الوقت الذي كان قد فَقَدَ رُوحَه.

والسِّمَة التي تشدّ انتباهنا اليوم كثيرا هي أنّ "الحداثيين" قد بلغوا في تجرّدهم من الإحساس مبلغًا صيّرهم حتّى خلال تسعينات القرن العشرين غير قادرين على التفكير في مصيرهم بطريقة مغايرة لسطحية المصطلحات الاقتصادية أو التكنوقراطية. ومن ثمّ كان تفاؤلهم الواهم: فمنذ أن توفّر لديهم خبراء أكْفاء لحلّ مشكلاتهم وأزماتهم الشهيرة اعتبروا أنفسهم محلّ ثقة كبيرة، لقد غاب عنهم أنّ مجموع النظام فَقَدَ كلّ غاية إنسانية خالصة، أو بصفة أدقّ لم يكن ذلك يعنيهم. أما بالنسبة إلينا فالمسائل الثقافية الأساسية عندنا هي التي تتّصل بالحياة الوجدانية والحياة الروحية، وأمّا بالنسبة إليهم فهذه المسائل لا وجود لها (أو هي ثانوية).

نفهم إذن أنهم كوّنوا فكرة شديدة التبسيط حول ظواهر التدهور. فلا يموت مجتمع من المجتمعات في نظرهم إلا عندما يُدَمَّرُ حسّيّا، لم يفهموا أنّ خراب حضارة من الحضارات يكون في البداية من الداخل. كان الشاعر المتنبّئُ بيار لورو Pierre Leroux - مع ذلك - قد حذّرهم منذ العشريات الأولى من القرن التاسع عشر بقوله: "هناك أناس عُمْيٌ حقّا لا يرون شيئا بالقلب ولا بالفكر، إذ لا

---

(١) **بيرقليطس** Περικλῆς / *Periklễs* إغريقي قديم، كان قائدا للجيش وخطيبا ورجل دولة. عاش في أثينا نحو ما بين سنتي ٤٩٥ و٤٢٩ قبل ميلاد المسيح. (المترجمان)

يـرون إلا بعيْنَـي الـرأس. فلـو سـألتهم عن بابـل وتَدْمُـر هـل وُجِدَتَا وهـل دُمِّرَتا؟ لأجابـوك بنَعَمْ، لأنهم يستطيعون أن يُبْدوا لك الأطـلال المادية وأنقاض البنايات المدفونـة فـي رمال الصحـراء. أمّـا إذا قلت لهـم إنّ المجتمع الحالـي مدمَّر، فلن يفهموك، وسَـيَهْزَؤون بك، لأنّهم يرون من كلّ جانب حقولا مزروعة ومُدُنًا مليئة بالنـاس. (...) إذ لا تحيـن منيّـة مجتمـع مـن المجتمعـات حينما تسـقط الجدران وتنهدم البيوت ويعُمُّ الخرابُ المُدُنَ ويستسلم السكان إلى آخر الاضطرابات التي تسبق نهايـة الإمبراطوريـات. فعندمـا يحـدث ذلك تكـون المجتمعـات حينها قد ماتت".

فـي سـنة ١٨٨٠ أي بعـد ذلك بخمسـين عامًا، كان شـاعر آخر هـو الأمريكي هنـري جـورج Henry George قد جـدّد التّحذير في كتاب عنوانـه **التقدم والفقر**، حيث سجّل أنّ العقائد والعوائد والقوانين والمؤسسات وعادات التفكير لا بُدّ أن يمـرّ عليهـا زمـن طويل حتـى تتفـكّك، إذ يقول:"من السـهل أن نرى كـم إنّ حركة التراجـع التـي تَعْقُبُ فتـرة من التقدم في حضـارة من الحضـارات يمكن أن تكون علـى غايـة من البطء بحيث لا تثير الانتباه، وكيف أنّ التقهقر ذاته من المفترض أن يأخذه بالضرورة معظم الناس مأخذ التقدّم". وقد دعا هنري جورج شأنه في ذلك شـأن بيـار لـورو أهل العصر الحديث إلـى أن لا يُفْتَنُوا بتطـوّر الآلات؛ فلكي نُقدّر عُنْفُـوان ثقافـة مـن الثقافـات لا بدّ أن يكون نظرُنـا ثاقبا، إذ " لا مجـال للخطأ، فقد قُوِّضَتْ أمام أعيننا أُسُس المجتمع نفسها، في الوقت الذي نتساءل فيه كيف يمكن أن تُدَمَّر حضارة كحضارتنا بسـككها الحديدية وصُحُفِها وتيليغرافاتها؟" وفي عام ١٩٣٣ كان الإنكليـزي ألفـرد نـورث ويتهايـد Alfred North Whitehhead قـد أشار بدوره إلى "بوادر التفكك" و"الأحزان الكبيرة" التي بدأت في الظهور بجلاء، لقـد أَفْهَمَنـا في ألفاظ مضبوطة دقيقة أنّ كلّ ثقافة تنحو في فترة من الفترات أو في

أخرى إلى التّحجُّر وإلى الانخراط في مسار تقَهْقُرٍ بطيء، وقد كتب أنّ المظاهر الخارجية يمكن أن تبقى، " ولكنّ قيم الحياة تجري على نقيض ذلك. فلا تبقى من الحضارة إلاّ واجهتها ولا يبقى شيء من حقائقها".

لماذا إذن كانت نُخَبُ الغرب المتأخّر تعتقد أنّها محمولة على الاستهزاء من أولئك الذين يشعرون بقدوم النهاية؟ فقد قال لهم مؤرخون وشعراء وكرّروا القول مرارا: إنّ كل الحضارات مآلها الموت؛ فوَفْقَ أيّ امتياز كان يمكن للغرب أن يفرّ من المصير الجماعي؟ ينبغي لنا أن نلاحظ جيّدا اليوم أنّ رؤية أهل القرن العشرين - رغم حواسيبهم وتقنياتهم وكثرة معارفهم العلمية والتقنية- لم تكن أوضح من رؤية قدماء اليونان وقدماء الرومان أو أهل القرون الوسطى.

يمكن أن نزعم دائما أن الآلهة بصفة عامة لها مُتْعة ماكرة في تضليل الشعوب، فنبوءات كاسندرا Cassandre[1] لم تمنع سقوط طَرْوادة، وكثير من المؤرّخين مثل جوان كوليانو Joan Couliano قد تساءلوا: " من ذا الذي كان يتخيّل من قمّة جبل بلاتين[2] *Palatin* أنّ مصير الإمبراطورية الرومانية إلى الزوال؟ ومن ذا الذي كان يستطيع أن يستبصر من أعلى قصْرٍ حصين أو من كاتدرائيّةٍ فَناءَ العالَم المسيحي الوسيط؟"

ولكنّ مثل هذه الاعتبارات بدت لنا غير كافية، لقد تلقّى الغرب الحديث ما

---

(١) كاساندرا في الأساطير الإغريقية هي ابنة بريام ملك طروادة وكانت محبوبة لأبولو الذي وعدها بنعمة التبصّر إن استجابت لرغباته فوافقت على العرض، لكن ما إن حصلت على الموهبة حتى سخرت من أبولو وطلبه ورفضت تحقيقه. فانتقم أبولو بأن جعل كل تنبؤاتها تكذّب. وهي التي توقّعت أن تدمّر طروادة. (المترجمان)

(٢) جبل يقع في وسط مدينة روما القديمة. (المترجمان)

يكفي من المحاذير، وهو ما ستثبته قراءة هذا التقرير من جهة، ولكنه كان يزعم أنه متنوّر من جهة أخرى. تُثْبِتُ ذلك مئاتٌ من الوثائق، فقد كان السّاسة وخبراء الاقتصاد والتكنوقراط الكبار وصُنّاع القرار عمومًا يعتقدون أنّهم على دراية بذلك، وأنّهم واعون وأكْفاء؛ فعندما نقرأ نصوصَ تلك الحقبة نرى طائفة من الكلمات المفاتيح تَعْرِضُ لذلك بإسهاب، نذكر منها على سبيل المثال: معلومة ورقابة وتوقّع واستشراف ونظام وتخطيط وعقْلنة ومعالجة المخاطر وخطط متوسّطة أو بعيدة المدى وغيرها، ومن المؤكّد أنّ النُّخَب الحاكمة كانت لها مزاعم كبيرة بأنّها الضامنة لبقاء النظام وسعادة الناس في آن، والحقّ أنّها نُخَبٌ قد تجاوزتها الأحداث، فقد تساءل فريق بحثنا: أين موطن الداء إذن؟ كيف افتقرت عقولٌ على غاية من التميّز والاعتزاز بشهاداتها [العلمية] وتقاريرها وإحصائيّاتها إلى الحسّ الثقافيّ والبَصَر بالتاريخ ؟

كان يلزمنا بعض الوقت - وهو أمر علينا أن نسلّم به - لمحاصرة المشكلة، أي لتشكيل فكرة عن الحالة الروحية التي كان عليها الغرب في نهاية القرن العشرين، فمن أيّ جانب سيبدأ بحثنا؟ كيف نفهم "حضارةً" كانت تبدو لنا عقائدُها وعاداتُها في غاية الالتباس والتنافر؟ نلاحظ حيثما كنّا تفاوُتًا هائلا بين الأقوال والأفعال، وكان لدينا في كثير من الأحيان انطباع بأنّنا نواجه ألغازا يتعذّر حلّها، فقد خصّص الغرب -مثَلا- قدْرا وافرا من الذّكاء والجهد لتشْيِيء المادّة كلّها، ولكنّه في الوقت نفسه بدا عاجزا عن مواجهة الأسئلة الأساسية المتعلّقة بمدلول الحياة الإنسانية. ألا يحقّ لنا أن نستغرب؟

من المستحيل بداهةً أن نَصِفَ هنا الأفكار الأوّلية التي اشتغل بها فريق بحثنا على وجه التفصيل، وكم مرّةً ضللنا الطريق، وكنّا أحيانا قاب قوسين أو أدنى من العُدول عن البحث أصلا، ولكنّنا اسْتَعَدْنا الأمل يوم أن أدركنا أنّ بعض الشعراء

في عُقْرِ دار الغرب نفسه كانوا قد شخّصوا أعراض المرض تشخيصا واضحا دقيقا، وقد أثبتت شهادتهم خصوصا فكرةً كان الكثيرون منّا يستشعرون أهمّيتها مفادها: أنّ الغرب إذا كان قد تفكّك ثقافيا فذلك لأنّه قد انتهى إلى فقدان كلّ معنى شعري.

لِنتّفقْ جيّدا على أنّ فكرة الشعر قد حافظت عند العقول الغربية المتميّزة على شيء من المهابة، فقد كان المواطنون يتلقّون في الثانويات شيئا من التعليم الأدبي جعل "الشعر" يمسّهم مسّا رفيقا، فنجد في نهاية القرن العشرين عند بعضهم-- قدرة على استظهار عشرة أبيات لكورناي Corneille أو لفكتور هوجو Victor Hugo. ولكن أيُّ محمول حقيقيّ لهذه الطقوس المُحبَّبة؟ فهل ظلّت الحاجة إلى الشعر أمرا حيويّا في المجتمع الصناعي؟ هل كان الناس يفهمون أنّ مصيرَهم الذّبولُ وأنّ بعضهم سيعتزل بعضا وأنهم سيفقدون - في غياب الشعر - كلّ معنى للحياة الكونيّة؟

تشهد بعض شوارع المدينة بوجود الشعر، ولكنه أصبح عند أرقى "المتحضّرين" وأبرز ممثلي "الحداثة" تَرَفًا هامشيّا دون استثناء، فيمكن القول بـ" أنّ المرْءَ يصير شاعرا عندما يحْلو له ذلك". وهو ما جعل ليون بلوي Léon Bloy يستشيط غضبا:" أتحدّاكم أن تجدوا بورجوازيا لا يصير شاعرا عندما يحلو له ذلك. إنّهم كذلك جميعا بلا استثناء، فالبورجوازي الذي لا يكون شاعرا متى يحلو له ليس أهلا للانتماء إلى نادي البورجوازيين ووجب إقصاؤه مذمومًا إلى حظيرة الفنانين، أولئك العبيد_ أي الشعراء_ في خدمة الآخرين". ومن أسفٍ أنَّ البورجوازي لم يكن شاعرا إلا في بعض المناسبات وخاصة بعد تناول الطعام. ولكن سرعان ما يُعْرِضُ عن تلك "الحماقات" عندما تحين ساعة العمل.

إذن عندما نتحدّث عن الشعر يجْدُر بنا التدقيق، فثمّة شعر من سقط المتاع، وللغرب منه حظّ وافر، فبائع الإعلانات التجارية هو الآخر - وهو أمر نعلمه- لم يكن يتردّد في أن يقدّم نفسه باعتباره شاعر العهد الجديد، وكانت رسالته (على فرض تصديقها) تتمثّل في إبراز مخيال المجتمع الصناعي والأحلام الورديّة لمجتمع الاستهلاك، فعلى سبيل المثال أن تأخذ امرأةً إلى عالم الأحلام هو أن تعدّد لها مزايا مرهم "ضدّ العمر" (لاحظ أنهم لم يجرؤوا حتّى على القول إنّه "ضدّ الشيخوخة"). وأن تدغدغ أحلام الرجال هو أن تعرض على أحدهم سيّارات على غاية من الفخامة، ولكنّ الشعر المغاير الذي يبْدعُ الأساطير الكبرى، وينفخ الروح في الثقافات كان غائبا؛ إذ لم يكن مهرّجو الحداثة يعرفون من الشعر حتى ما كانت تعني الكلمة.

لماذا يكون مجتمع من المجتمعات في حاجة حيوية إلى الشعر؟ لقد شرح ذلك الألماني نوفاليس Novalis منذ سنة ١٧٩٨ في قواعد شديدة الاكتناز (وربما كانت من الاكتناز بحيث لا قِبَلَ لأوروبيي العصر الحديث بفهمها). فمثلا:" يسْمو الشعر بكلّ عنصر متوحّد فيصله وصلا وثيقا بالكلّ". ويترتّب على ذلك ما صار بالنسبة إلينا بديهيا وهو أنّ " الشعر أساس المجتمع". أين عسى أن نجد تحذيرا أشدّ من هذا؟ إذا نسي مجتمع من المجتمعات الشعر أو احتقره، وصار عقيمًا، لا يُبْدع شعرا؛ فإنّه قد أقدم على ركوب مخاطرة مُميتة؛ لأنه قطع العروة الوثقى التي تشدّه إلى الكون؛ إذ يمكن للأشخاص أن يستمرّوا في العيش بيولوجيّا، ولكنّهم يكونون عندئذ محرومين من كلّ ثقافة، يتيهون على غير هُدًى في فراغ روحيّ تامّ. وقد كرّر فريدريك نيتشه Friedrische Nietzsche - وهو شاعر أيضا- النّداء حوالي نهاية القرن التاسع عشر قائلا: " إنّ الأفق المحاط بالأساطير هو وحده الذي يضفي على الحضارة وحدتها. (...) ينبغي أن تكون التمثّلات التي تنشئها

الأسطورة بمثابة الملائكة الحافظين، الذين لا نراهم ولكنّهم حاضرون دوما، يكبر النشْءُ الصغير في رعايتهم. ويضفي الإنسان في ظلها معنى على حياته وصراعه"، ولا أساطير من دون شعراء ولا مجتمع إنساني من دون أساطير، بل قُل: لا ثقافة. فكيف صار تجّار القرن العشرين وصناعيّوه وتكنوقراطيّوه يتخيّلون أنفسهم قادرين على تجاوز عظمة الشعر؟ لقد حُذِّروا -باللّهجات كلّها- من أنّ مجتمعا من المجتمعات لا يكون كذلك حقّا إلاّ إذا كان قادرا على ابتكار تصوّرات مثالية، وأساطير تحرّك الطاقات الفردية وتوحّد النفوس. والحقّ أن هذه الكلمات (وسنعود إلى ذلك) كانت كفيلة بإدخال الرعب عليهم. فَكَلِمَتَا: " نفس" و"مثالي"، قد انقرضتا تقريبا من الخطاب اليومي للناس، وفي حديث الاقتصاديين والمهندسين والعلماء والشخصيات السياسية كان من المستحيل علينا عمليّا أن نجد لهما أثرا، وكذلك كانت مفاهيم العقيدة والإيمان قد تراخت، لقد صارت نُخَب القرن العشرين - في رأي البعض من باحثينا - غير قادرة على فهم جمل بسيطة كهذه التي تُنْسَبُ إلى الشاعر الجينيفي هنري فريديريك أميال Henri Frédéric Amiel: "لكي لا ينهار المجتمع لابدّ له من مبدأ جامع وعقيدة مشتركة"، أو هذه التي قالها الفرنسي إميل دوركايم Emile Durkheim: " للإنسان وحده مَلَكةُ تصوّر المثال وإغناء الواقع".

وكم كانت مفاجأتنا كبيرة عندما لاحظنا أنّ هذا الرفض للمثال (أي للشعر) كان يُتَبَجَّحُ به بوقاحة، فقد وجب أن يكون المرء واقعيّا من أجل النجاح ومن أجل الوصول إلى السلطة ومن أجل كسب الأموال ومن أجل أن يكون متمدّنا، وبعبارة أخرى كان لابدّ من نفي كلّ ما لا مَلْمَسَ فيه بما يكفي، أو تجاهله حتى يصير الشيء قابلا للقياس ماديا أو اقتصاديا. فـ" أن نضيف إلى الواقع" (بالمعنى الدوركايمي) كان إذن شعارا مجرّدا تماما من المدلول العملي، لقد كان تجاوز

الواقـع فـي ذهـن المتمدّن الحقيقي سـقوطا فـي غياهب الحلم الـذي لا طائل من ورائه وفي الخيال والأوهام. والشـاعر أي الإنسـان الذي كان يوحّد جميع الأشياء بفضل شبكة من الرموز لم يعد له دور، وأصبح ذلك الإنسان الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه غيرَ محتاج إليه أصلا، لقد ضيّع دوركايم وقته عندما أطلق هذا التحذير الجادّ قائلا: " إنّ مَلَكَةَ الأَمْثَلَة ليسـت مظهرا من مظاهر الترف للإنسـان أن يستغني عنـه، وإنمـا هو شـرط وجـوده". كيف يمكـن أن نزيـد الأمر توضيحـا؟ " لا يمكن لمجتمع من المجتمعات أن ينشأ ولا أن يُعاد إنشاؤه من دون أن يُنشيء المثال في الوقت نفسـه، هذا الإنشـاء ليس بالنسـبة إليهـا من نافل العمل يتمّم بـه ذاته بعد أن يكـون قـد تكوّن، إنّه الفعـل الذي به يُبنـى المجتمع ويُعاد بناؤه دوريّا". فمنذ سـنة ١٩١٢ عـرف هـذا السوسـيولوجي الشـاعر كيف يـدرك المظاهر السـلبية لما كان يسـميه " الفردانيـة الجذريـة" (عندمـا قـال): " لا يتركّـب مجتمع مـن المجتمعات ببساطة من كتلة الأشخاص الذين يكوّنونه ومن الأرض التي يحتلّونها ومن الأشياء التـي يسـتعملونها والحـركات التـي يقومـون بها، ولكنـه يتألّف قبل كلّ شـيء من الفكرة التي يكوّنها عن نفسه".

عندمـا يتحدّث دوركايم عن الفكـرة التي يكوّنها مجتمع من المجتمعات عن ذاته فإنه يزيد الفكرة قوّةً ومتانة عندما يعيشـها بشـعرية وشـعور، لا بفكر خالص، والفكرة في هذا السـياق هي بلا شـكّ " تَمَثُّلٌ جماعيّ"، غير أنّه تمثّل لا يُختزل في مجرّد وصْفٍ حدَثيّ ولا في تأمّل ذهني خالص، إنّه إبداع حقيقي يسـتخدم جميع الملكات الإنسـانية التي تسـتدعي موارد الخيال وتتجذّر بعيدا في أغوار الوجدان، وظيفته التعبير عن رؤية للإنسـان وللعالـم أجمع، وإضفاء معنى على الحياة، وذاك مـا يبـرّر حاجـة النـاس إلـى الشـعراء، فمن دونهـم يكـون المجتمع بـلا روح، أي مجموعة من الأشخاص مُنْغلقين على أنفسهم كلّيا.

لـم يكـن نوفاليـس يريـد أن يقول شـيئا آخـر عندما أكّد أنّ الشـعر هو أسـاس المجتمـع، وقـد لجـأ دوركايـم إلى لغـة مختلفة بعض الشـيء، ولكنّ الرسـالة في جوهرها كانت هي نفسها، إذ لا يمكن لكائن بشريّ أن يكتسب حقّا منـزلةَ شخصيةٍ إنسـانيةٍ إلا بتبنّي ثقافة من الثقافات، أي أن يسـتلهم الطاقة من عقيدة مشتركة، وقد دقّـق دوركايـم ذلك فقال: "إنّ العقيدة قبل كلّ شـيء دفء وحيـاة وحماس وتفتُّقٌ للنشاط العقلي كلّه، وحملٌ للفرد إلى ما هو أسمى من ذاته نفسها؛ إذ كيف يمكن لـه دون خـروج من ذاته أن يضيف إلى الطاقـات التي يمتلكها؟ وأنّى له أن يتجاوز نفسه بقواه الذاتية فحسب؟ إنّ المصدر الوحيد الذي يمكن لنا أن نجد فيه الدفء المعنوي هو ذاك الذي يكوّنه مجتمعُ بَنِي جلدتنا، وإنّ الطاقات الأخلاقية الوحيدة هـي التـي يمكن أن تغذّي وتنمّي تلك التي لدينـا (...) ولا تكون العقائد فاعلة إلا عندما نتقاسـمها، ويمكن أن نُمِدَّ في حياتها بعض الوقت بجهد شـخصي محض، ولكن ما هكذا تُولَد ولا هكذا تُكتَسَب، حتّى إنّها لا تستمرّ في هذه الظروف".

لقد أدرك بعض الغربيين أهمية الشعر إذن، وعرفوا أنّ الوجود يجب أن تكون لـه دلالـة روحية خاصة لكي يكون إنسـانيا حقّـا، ومن المؤكّـد أنّ للناس حاجاتٍ ماديـةً، وأنّ كلّ جماعـة إنسـانية وجـب عليهـا أن تنتظـم تبَعًـا لها، ولكـنْ لا تكون لمجتمـع مـن المجتمعات ثقافـة بأتمّ معنى الكلمة، إلا فـي الوقت الذي يكون فيه قادرا على التحرّك انطلاقًا من بعض الـمُثُل، وبعض الأساطير وبعض المعتقدات؛ فـأنْ تكـون لـكَ ثقافة هو أن تعـرف كيف تُحدّد موقعك بالنسـبة إلـى الكون وإلى الآخرين وبالنسـبة إلى الماضي والمستقبل وبالنسبة إلى اللذة والألم وبالنسبة إلى الحياة والموت. ومن ثمّ ما كان لاستغرابنا إلاّ أن يتعاظم [فنتساءل]: لماذا إذن دمّر الغـربُ الحديثُ الأسـاطيرَ الكبرى كلّها، وجميعَ المعتقـدات العظيمة التي كانت لها القدرة على أن تضفي معنى على الوجود الإنساني؟ لأنّه من المستحيل الشكّ

في ذلك، إذ إنّ سائر المبشّرين بالحداثة كانوا يفاخرون بإيقاف" تجاوزات" الخيال الشعري، والقضاء على كلّ مشروع روحيّ. إنّنا لنجد صعوبة في فهم ذلك: كيف استطاع الغربيون أن يحُطّوا من شأن الأساطير كلّها باختزالها إلى مجرّد شعْوذات؟

كان علينا إذن أن نكتشف أيَّ سلطة اعتمدوا؛ ليباشروا هذا التطهير الثقافي الشّرِس، ولمّا اعتبروا أنفسهم مؤهّلين للقضاء على أساطير مجتمعات أخرى واعتقدوا هم أنفسهم أنهم تخلّصوا من جميع الأساطير فقد وجب أن يمتلكوا على سبيل اليقين ملَكَةً مُمَيَّزة ومنْبَعًا للحقيقة عجيبا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ماذا كان إذن ذاك السلاح الثقافي المطلق الذي مَنَحَهم الحقّ في إسْكات الأنبياء والشعراء؟ لقد توفّر لنا الجواب سريعا، فإذا كان الغرب الحديث يعتبر نفسه "متفوّقا" فلأنّه كان يمتلك (أو يعتقد أنّه كان يمتلك) العقلَ، وكان هذا الزعم يتكرّر كَلاَزِمَةٍ، فأنْ تكون متحضّرا هو أن تكون عقلانيا، ففي الغرب توجد العقلانية حيث يتجسّد **الحقّ والخير** كما توجد في الآن نفسه لِمَامَةٌ من المعتقدات التي لا تمتّ إلى العقلانية بصلة.

كان منهجهم بسيطًا متينًا، إذ وجب أن يسود العقل في كلّ مكان وزمان، وما كانت الأساطير والخرافات سوى أحلام مجنونة، وهَلاَكُ الشعر هذا يعود إلى زمن بعيد، فمنذ القرن الرابع قبل ميلاد المسيح كان مَنْ سُمّي أفلاطون تلميذ المسمّى سقراط قد حَسَم الأمر؛ ففي رأيه أنّ هزيود[١] وهوميروس والشعراء الآخرين لا يَقُصّون غير خرافات كاذبة، ومن ثمّ كان لِزَامًا إقصاؤُهم من المدينة، وقد احْتُذِي للأسف هذا النموذج في الغرب على نطاق واسع، والمَظْنُون أنّ أفلاطون لم يكن

---

(١) هو أحد أعظم شعراء يونان القدامى، ويضعه هيرودوت في المرتبة نفسها مع معاصره هوميروس. (المترجمان)

يطلب أكثر من ذلك؛ لأنّه كان ماكرا، وكان لا يتردّد في الاستناد إلى بعض القصص الأسطورية في تدريسه إذا ما رأى ذلك مُجديا، ولكن واقع الأمر أنّ الغربيين قد عمدوا إلى إفناء الشعراء -كما يقتضيه العرف- ابتغاء الترقّي بعقلانيتهم. زِدْ على ذلك أنّ بعض العقلانيين قد دقّقوا وصفَ الآثار المدمّرة لمشاريعهم "التمدينية"، وهكذا كان أرنست رينان Ernest Renan في القرن التاسع عشر قد أبان عن الحلم الغربي العميق وهو إمكان تشييد صرح العلم بفضل العقل، وتدمير جميع المعتقدات بمِعْول العِلْم، وفي كتاب بعنوان "مستقبل العلم" نادى بأعلى صوت وأقواه:" العلم هو الطريقة الوحيدة المشروعة للمعرفة". فللعلم إذن وللعلم وحده يعود " تعليم الإنسان غاية وجوده وقانون حياته"، فكان من المفروض أن يُشطَب فعل "اعتقد" من المعجم الحديث، ومن هناك فصاعدا كان على الناس أن يسِيروا فقط على هَدْي المعارف الموضوعية التي يُراكِمونها: " نعم سيأتي يوم لن تؤمن فيه الإنسانية بأيّ عقيدة، ولكنّها ستبني أفكارها على المعرفة عندما تدرك العالمَ الماورائي والأخلاقي مثلما أدركت العالَم الحسّي"، غير أنّ هذه النشوة لم تمنع رينان من أن ينتبه إلى أنّ للعلم آثارا مدمّرة، فـ" إذا ما طُبّق العلم بقوّة الرياضيات على الطبيعة، أذهب سِحْرَها وأفشى سرّها، وفيها كان الخيال الشعبي يرى وجْها من أوْجُه الحياة وتعبيرا من تعابير الأخلاق والحرية، وإذا ما طُبّق العلم على تاريخ العقل الإنساني دمّر ذلك الدَّجل الشاعري لأُناسٍ متميّزين حيث ينتعش الإعجاب بأنصاف العلوم".

إنّها لَصفحاتٌ باهرة في الحقيقة ساعدتنا كثيرا على فهم **الانفجار الأكبر**، هكذا إذن كان الفراغ الشعري والروحي للغرب قد وقعت برْمَجَتُه بشكل من الأشكال، وكان رينان – وهو رائدٌ لامعٌ من رواد الحداثة – قد حدّد في الآن نفسه الهدف الذي يتعيّن الوصول إليه، وبيّن الثمن الذي ينبغي تسديده، فالهدف هو

العقلنة الكاملة للحياة الإنسانية؛ بفضل العلم أي " تنظيم الإنسانية علميا، تلك إذن هي آخر كلمة للعلم الحديث، وذاك هو طموحه الجريء والمشروع في آن". فمن المفـروض أن يتولّـى القيادة رجال العلم والمهندسـون والمختصون في الإعلام، ورجال الاقتصاد المتميّزون، أي كلّ أولئك الذين تبنَّوا "المنهجية العلمية" بطريقة أو بأخرى. أمّا الثمن الذي يتعيّن دفعُه فيبدو مُشِطًّا من الناحية الثقافية، أي لابدّ من التضحية بالإحسـاس من أجل العقلنة، والعدول عن إضفاء المعاني الشعرية على الحياة.

إنّ مُعْجم رينان لم يكن سوى معجم في غاية الوضوح: فالشعر والشعوذة كانا لديه سِيَّانِ، لقد كرّر ذلك عشـرين مرة، إذ لم يكن ثمّة مجال لأي حالة وسط، ولا أُفُقَ لأيّ تسْوِية. لقد كان الشعر غير عقلاني وإذن عُدّ من الأموات، واليوم في عام ٢٠٨١ من المهمّ جدّا أن نرى كيف لَعِب رينان برمزيّة المذكّر والمؤنّث، فبتمجيده "المظهـر الذكـوري الصـارم للعقلانيـة"، كان ينتقـد بـكلّ بُـرود الغرائـز الأنثويـة ورخاوتها، فلإثبات أنّ النسـاء ميّالات إلى الشعوذة بطبيعتهنّ كتـب يقــول: "من المفتـرض أن يصنّـف تحليل نفسـي صارم الغريـزة الدينية الفطرية عند النسـاء في نطاق الغريزة الجنسية"، كانت رسالة [رينان] شفّافة، فمن أجل بلوغ أسمى درجة من درجات الحضارة؛ على العقلاني الحقّ أن يمحُوَ من ذاته كلّ أثر للأنوثة، وها نحن أولاء نُقادُ ثانيةً إلى سـؤالنا: كيف حدث أنّ هذه اللغة لم تُنبّه أجدادنا؟ كيف نفهم قبول معظم الغربيين بسهولة مُذْهِلة مثل هذا البَتْر الثقافي؟

ألم يكن في نهاية الأمر من الجُنون المحْض هذا الغلوُّ في التقييم الآلي للعقل الذكوري وللعلـم؟ ذلك أنّ إلغاء الأنوثة كان يرجع بالفعل إلى نفْي أهمّية الشعور والوجدان، وكيف استطاع الغربيون أن يعتقدوا أنّه من الممكن بناء مجتمع إنساني

حـقّ، من غيـر تمكين الوجدان من موقع مركزيّ؟ وكم مـرّةً لاحظنا في النصوص النموذجية لـ"الحضارة الغربية" أنّ كلمة "شـعور" كانت مسـتهجنة اعتقادا منهـم أنّ الذاتيّـة شـرّ، وفي مقابل ذلك كانـت الموضوعية خصلة جوهريـة، وكان المتمدّن الحـقّ هو الإنسـان الـذي يُلقي على العالم نظـرة تحليلية "ذكوريّة" بـاردة، وبعبارة أخرى كان الشـاعر والمرأة يجسّـدان القطب السـلبي لمجتمع تسيطر عليه الصور الثقافيـة للعالِـم والتقنـي والتكنوقراطي، وكان تقليدٌ قديمٌ قـد صوّر هذا الموضوع بإطنـاب: فكانـت المرأة "هسـتيرية" بطبيعتها (بمعنى أنها غريزية مُفْتَرِسـة جِنسـيا) وكان الرجل باعتباره عقلانيّا سيّدَ نفسه هو ـمُـشيّدُ الحضارة الأوْحدُ.

لم يرغب كثير من الغربيين في القبول بأنّ المجتمع العقلاني والعلمي كان ذا ماهيـة ذكوريـة ورجاليّـة بذريعـة أنّ بعـض النسـاء في القرن التاسـع عشـر والقرن العشرين قد اقتحمن المسار العلمي، ولكنّ هذا الرفض قد بدا لنا غير ذي جدوى، ربمـا كان رفضـا صادقـا ولكنّه كان ضدّ التيار الجارف، فقـد كان عالم نفس يدعى سـيغموند فرويـد Sigmund Freud أكثر اسـتبصارا إذ اعترف بصراحـة أنّ " البناء الحضـاري أضحى أكثر فأكثر من صنع الرجال". ذلك أنّ تشـييد الحضارة يقتضي أن "نتسامى" بغرائزنا شيئا فشيئا وأنّ على العقل أن يضبِط الليبيدو[١] ضبْطا شديدا بل عليه أن يقمعه، والحال أنّ فرويد قد لاحظ أنّ "أهليّة النساء للتسامي ضعيفة" إذ يشـكّلن عائقا لأنّهن ناقصات عقل، مسـخّرات للحبّ بالطبيعة، فـ" لا يتأخّرن في التجديف ضدّ تيّار الحضارة، بل يمِلْن إلى تبطئته وعرقلته"، والنتيجة: أنْ " أُقصيت

---

(١) **الليبيدو** هو التسمية العلمية المسندة إلى الإله إيروس Eros **وإيروس** في الأساطير الإغريقية هو إله الرغبة والحبّ والجنس وقد عُبد باعتباره إلها للخصوبة، ويماثله عند الرومان كيوبد. وقد استعمل فرويد المصطلح نفسه للتعبير عن مجمل الغرائز الجنسية التي تمثل الجانب اللاشعوري في الجهاز النفسي. (المترجمان)

المـرأة إلـى الدرجة السـفلى من سُـلّم الحضـارة"، وقـد لخّصـت فيرجينيا وولف Virginia Woolf – وهي امرأة شـاعرة – كلّ ذلك ببسـاطة شديدة، هل كان للعلم جنـس؟ نعـم :"إنّـه رجل وأب، وهـو فضلا عن ذلـك مريض". والخطـر لا يُحْدِق بالنسـاء فقط وإنّما يهدّد كلّ ما في الرجال أنفسـهم من أنوثة، ولقد بسـط الأسـتاذ دوبـان السـؤال: هل كان من المعقـول جدّا تحويل العقلنة إلـى دين؟ ألم يكن من عواقب ذلك أن نقضي على أنفسنا بالتخلّف العاطفي؟ نحن اليوم نعرف الإجابة: لقـد كان رينـان مخطئـا. فبتفضيـل الغربييـن الرجولـةَ والعقلانيـةَ لم يسيروا نحو حضـارة أسـمى، ولكنّهم سِـيقُوا إلى الموت سَـوْقا. أمّا من كان علـى صواب فهو ميشـلي Michelet ولمّـا كان يحسـن قراءة الأسـاطير القديمة وإعـادة قراءتها فقد تدبّر النصّ الهندوسي مثلا، ووجد فيه ما مفاده أنّ الإنسان:" لا يكون إنسانا إلا إذا كان ثلاثيّ الأبعاد أي الرجل والمرأة والطفل". كان كلّ شاعر يحسّ بذلك ويعرفه. إنّ الرجـل الذكـوري الخالـص هـو في الحقيقـة أَبْتَـر، وإنّ مجتمعا يقـرّر أن يقمع الأنوثـة لا يمكـن أن يكـون إلاّ مجتمعـا مبْتـورا، لمـاذا إذن احتقـر المدافعون عن الحداثـة التحذيـرات التي كانت قد وُجِّهَتْ إليهم؟ لماذا وَصَمُوا بازدراءٍ كلَّ الذين رفضـوا اختـزال الإنسـان فـي عقل ودمـاغ بأنهم رومنسـيون؟ فالعقل لـم يكن قطّ سـوى مَلَكَة إنسـانية من بين ملكات أخرى كثيرة؛ فأَنْ تُسـنَد إليه أوّليّةٌ مطلقة فذاك من التعسّـف، وقد أدرك بعض المفكرين المشـكلة، ومن أجل أن نتجنّب الأسـوأ كتب الألماني أرنست كاسيرار Ernst Cassirer يقول: " كان يجب محاربة الوثوقية الطاغية لهذه الثقافة التي كانت محمولة على اسـترقاق الطاقات الذهنية والروحية الأخرى في الإنسان وقهرها؛ من أجل مساعدة "العقل" على الانتصار".

علينا أن نسلّم بأنّ العقلانية الغربية كانت في نهاية القرن العشرين أقلّ انتصارًا وأقلّ صَلَفًا، وقد اعتلّ مزاج الكثير من مناضليها، ولكنْ رغم المقاومة القويّة التي

سيأتي ذكرها فإنّ المجتمعات التي يقال عنها "متقدمة" أو "صناعية" كانت تعيش دائما على أنّ المبادئ والممارسات المزعومة مطابقة للعقل. لنذكّر مثلا أنّه كان من الأولويّات أن تتلقّى النُّخَبُ تكوينها في الشُّعَب ذات الطابع العلمي، ومن المؤكّد أنّ أصحاب المشاريع كلّهم ورجال البنوك كلّهم والتكنوقراطيين كلهمّ لم يكونوا من ذوي المؤهّلات العالية في الرياضيات والفيزياء وفي الكيمياء أو البيولوجيا، ولكنْ كان يتمّ إعداد المديرين والإداريين والمخطّطين بمختلف أنواعهم على وجه العموم بعناية للتفكير بـ"عقلانية" وللتسيير والتنظيم "بعقلانية"، وكان عليهم أن يتعلّموا مبادئ الإحصاء والإعلامية، وأن تُحْشَى عقولهم بالمعارف والمهارات التي تقود "علميّا" -على وجه من الوجوه- إلى أقصى حدود النجاح والمردوديّة، والإنتاج والنجاعة القابلة للقياس ماديًا.

وما كان للعقلانية في العالم الحديث أن تُخْتَزَلَ في العلم بمعناه الدقيق وإنّما كانت حالة للفكر ومجموعة من العادات الذهنية، وأسلوبًا في التفكير، مضادًّا للشعر في جوهره، فبقدر ما ينأى المرء بنفسه عن الشعر تكون فرصته للنجاح أكبر.

وهناك بداهةً ملاحظات مماثلة مهمّة، تتعلّق بما يسمّى التعليم الثانوي، ففي مقابل ساعة واحدة للأدب والموسيقى أو الرسم، عَشْرُ ساعات للجبْر أو الفيزياء؛ فأن يكون مُواطِنٌ شابّ جاهلا بمجال الفنون، فذاك أمرٌ غيرُ ذي أهمّية عمليّا، والانتقاء (وكانت مقدّسة تلك الكلمة!) إنّما كان يتمّ قياسا على الموادّ "الجادّة"، ووفق أسس "عقلانية". أمّا التكوين الرّوحي فلم يَعُدْ أحد يعرف ماهيته (وخاصّة وزراء التربية الوطنية)، وأمّا الروحانية تلك الكلمة التي كانت محلّ رِيبة لمّا كانت تستحضر فكرة الأسطورة والشعر العظيم ومن ثمّ الشعوذة، فكان من المستهجن إدراجها في برنامج من البرامج (التعليمية).

كانت تبرّر هذه الأساليبَ التربويّةَ كلَّها (إذا جاز لنا القول) طبيعةُ أنشطة الغرب الأساسية نفسها، أي الأنشطة التقنية والاقتصادية والمالية، تلك التي كانت تمثّل المجال الأوسع للعقلانية في عيون الحداثيين. هنالك تتفتّق كفاءاتهم وقدراتهم العقلية وعبقريتهم. لن نشدّد كثيرا على أنّ هَوَسَ العقْلنة في مجال الإنتاج والمبادلات كان باديا للعيان على نحو أظهر، ومن الجانب الثقافي كان من باب اللياقة القبول بوجودٍ مثاليٍّ للعقل الخالص، ولكنّ وثائقنا لا تترك مجالا للشك في أنّ العقْلنة ذاتها تستَدْعي قبل كلّ شيء البحث عن أفضل مردود وأكبر ربح.

لقد أدرك الأستاذ دوبان منذ وقت مبكّر جدّا، أنّ مثال العقلانية عشية **الانفجار الأكبر** كان يصلح في الأصل لإضفاء المشروعية على أسوأ أشكال الفعالية التقنية والفعالية التنظيمية والفعالية الصناعية والتجارية، أي المَكْنَنة إلى أبعد مدى لها، وعبادة الإنتاج وتسريح العمال وغير ذلك. ومن هنا يُبسط السؤال الذي لا سبيل إلى تجنّبه: كيف استطاعت الشعوب أن تقبل طويلا بهذا الشكل المتفرّد من الطغيان؟ لماذا لم يدركوا الفقر الرهيب في المستوى الإنساني الذي تخلّفه هذه التطبيقات التي كانوا يسمّونها بالمُعَقْلنة؟

وفعلاً – وكما أشرنا إلى ذلك آنفا – فإنّ المؤسّسات الصناعية في نهاية القرن العشرين لم تَعُدْ لديها ثقافة أصلا، لقد نسيت أنّ الإنسان ليس مُنْتِجًا مُستهلِكا فحسب، ولكنّه مخلوق حسّاس ذو خيال ووجدان وروح، هل كان يمكن أن يكون مختلفا عمّا هو عليه في غياب الشعراء؟ فهم وحدهم القادرون على إضفاء معنى على كثير من أنشطة الإنسان. إنّ "الثقافة" - كما قال الأستاذ دوبان - هي عمل فنّي والمجتمع الصناعي في أحسن الأحوال ليس إلا قريةَ نَمْل معقلَنة للغاية ".

ولم يكن الغرب من الناحية الروحية يتحسّس طريقه، والأدهى أنّه لم يكن

يعرف منتهى مساره، لقد قام بيار لورو Pierre Leroux منذ القرن التاسع عشر بموازنة تبعث على القلق مفادها أنّ " الصناعة تنتج الثروة ولكنّ الثروة التي يُساء توزيعها تُولّدُ الرّذائل كلّها، وأنواع البؤس جميعها، والعلم يُراكم معرفة هائلة بالظواهر، ويكتشف حقائق مهمّة، ولكنّ العلم الذي يغرق في التفاصيل، ويفتقر إلى رؤية شمولية، يصبح أشدّ أنواع العَمى؛ لأنّه يُولّدّ الشكوك كلّها وأنواع البؤس الأخلاقيّ جميعها".

وفي هذا السياق بات الفنّ عقيمًا، وظلّت هناك في أحسن الأحوال متاحفُ يتأمّل فيها أُناسٌ متعطّشون للفنّ (حسب لفظة نيتشه) أطلالَ الحضارات الميّتة، فهل كان لدى الغربيين بعدُ فكرة عن ماهية الفن الحيّ؟ ليس ذلك يقينا، لقد حاصر المشكلةَ منذ وقت مبكّر جدّا صديقٌ لبيار لورو تحت اسم مستعار هو ويلام برغر Willem Bürger عندما قال: " ليست المتاحف إلا مقابر للفن وضرائح جماعية تُنضَّدُ فيها جنبا إلى جنب بقايا الأموات، حيث تجد فينوس الشهوانية إلى جانب عذراء صوفية، وماجنا بجانب قدّيس، ولوحة ملهى معلّقة إلى لوحة هيكل، وما قد أُنجز لفائدة كنيسة أو قصر أو مقرّ بلدية أو محكمة أو صَرْح مُعيّن يعبّر عن معنى أخلاقي أو تاريخي بوساطة إضاءة مخصوصة وصحبة عناصر محدّدة، كلّ ذلك يُعلّق شَذَرَ مَذَرَ في واجهات غير ذات معنى في ما يشبه المثوى الأخير، أو مدينة الأموات حيث تُعجَبُ أجيالٌ لا تبدع شيئا بهذا الحُطام البديع".

في عام ١٩٥٦ وصف جورج دوتوي Gerges Duthuit "التمزّق الهائل"الذي يعالجه المتحف على هذا النحو فقال:" إنّنا ننتزع الإنتاجات الفنّية من الحياة كما يُنتزع الظُّفْرُ من اللّحم، كانت تلك المُنتجات في القديم جزءا لا يتجزّأ من كلِّ حيٍّ، فلم تعد الآن سوى قِطَعٍ محكوم عليها بالجمود، لقد أضْحَتْ غريبة مبتورة بعد أن اجتُثت من جذورها".

وقد انتهى كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-strauss سنة ١٩٧١ إلى نتيجة مشابهة وذلك بالتفكير حول "الاضطرابات التي تولّدها الحضارة الصناعية في توسّعها"، وقد لاحظ أنّ الإنسانية كانت تُساق "إلى حضارة عالميّة مدمّرة لتلك الخصوصيات القديمة التي كان يعود إليها الفضل في خلق القِيَم الجمالية والروحيّة التي تُضْفي على الحياة قيمة، والتي نجتنيها في المكتبات وفي المتاحف بالخصوص؛ لأنّنا نشعر يوما بعد يوم أنّنا أعجز عن إنتاجها".

والحقّ أنّ الكثير من الحداثيين عشيّة **الانفجار الأكبر** كانوا يزورون المتاحف أي ضرائح الحضارات السابقة، وهو ما يسميه جون كلار Jean Clair " أرخبيل غولاغ *Goulag* [1] للأعمال الفنية". وقد لاحظ جورج هنري ريفيار -في نقد لاذع- أنّ الكثير من المتاحف تُقَيَّمُ بحسب نسبة الإقبال عليها، (مَثَلُها مَثَل البرامج التلفزية باعتبار نسبة المشاهدة!). كلّ ذلك يحيطنا علْمًا بأنّ الغربيين لم يَعُودُوا يعرفون أنّ ثقافة من الثقافات هي وحدة حيّة، وأنّ الفنّ ليس زُخْرُفًا أو مُجرّد "مُنْتَج جماليّ"، وإنّما هو التعبير عن مشروع روحيّ.

كان هذا الفقر الثقافي في الميادين كلّها باديًا للعيان، وقد كتب بيار لورو يقول:" أمّا السياسة فقد كانت ضَحْلة بداهةً؛ ولمّا كانت وظيفتها تتمثل في ضمان استمرار هذه الوحدة التي لم يعد لها وجود أصلا، ولمّا كانت تبني هذه العلاقات في الواقع الحي، فإنّ تلك المؤازرة لم يعُد لها موجب، ومن ثم ارتدّت بالنسبة إلى الرجال الذين درج الناس على تسميتهم بالحكّام في مثل تلك العصور والذين لم تكن لديهم القدرة على إصلاح المجتمع، إلى ضرب من ضروب الأَثَرَة التي لا

---

(١) هو عنوان قصة مشهورة للكاتب الروسي ألكسندر سولينستين Alexandre Soljenitsyne وغولاغ هو معتقل أنشأه السوفيات في العهد الستاليني في منطقة سيبيريا يُنفى إليه معارضو النظام الشيوعي ليُحملوا على القيام بالأشغال الشاقة في البرد القارس. (المترجمان)

مبرر لها سوى مصلحتهم أو خُيَلائهم، وبالرغم من أنّ السياسة كانت ضحْلة حقّا متلاشية كلّيا (...) فقد يحصل مع ذلك أن يوجّه اهتمام المجتمع الذي يئنّ من الألم اهتمامه إلى هذا المجال بصفة تكاد تكون حصرية، والأمر الغريب -ولكنّه -بالطبع- ضروري أنّ السياسة لا تسترعي اهتمام الناس إلى تلك الدرجة إلا عندما تصير إلى الفناء".

فالمجتمع عند بيار لورو هو العلاقة العامة التي تصل الناس بعضَهم بِبَعْض، وهو "كائن ميتافيزيقي" يتهالك بمجرّد أن تتحطّم أساطيره، وبهذا الاعتبار كان الوضع باعثًا على القلق. وقد وصف أندري مالرو إخفاق إنسان العصر الحديث فقال:" في كل الميادين أخفقت العقلانية التي اكتفت بذاتها في صنع نموذج للإنسان يخْلُف النموذج المسيحيّ، بل لقد أخفقت في صنع نموذج دون النموذج المسيحي المتمثل في القدّيس أو الفارس"؛ ذلك أنّ إبداع نموذج للإنسان يقتضي ابتكار مخيال أي صور مثاليّة قويّة تحثّ وتُرشد، بغياب هذه الصور وغياب مواردها الرمزيّة يُصيب الوهنُ المجتمعات، لاحظ مالرو ذلك في خطاب ألقاه في قرونوبل يوم ٣ فبراير ١٩٦٨ قائلا:" هذه إحدى حقائق هذا القرن التي لا مناص من الاعتراف بها: لم تكن حضارة الآلات وحضارة العلم – وهي أشدّ الحضارات التي عرفها العالم قوّة - بقادرة على إقامة معبد، ولا على حفر قبر، ولا على إبداع مخيالها الخاص بها وهو أمر أشدّ غرابة".

والحقّ أنّ هذا القصور عن إبداع مخْيال لم يكن بهذا القدر من " الغرابة"، لقد كان العقل - كما كان يدركه أصحاب المذاهب في الغرب – مستبدّا نافيًا ما سواه، فهو من حيث المبدأ لا يمكن أن يقبل إلا الخطاب الشفاف، أي المبنيّ على أساس منطقيّ، وعلى معارف منزّهة عن الخطأ يمكن التأكّد من صحّتها بصفة

موضوعية، وفي الجملة هي خطابات فاقدة لكل حسّ شعريّ ولكلّ معنى روحيّ.

إنّ قضيّة من القضايا المنطقيّة -لكي تحظى بصفة العقلانية- وجب أن تكون مجرّدة من كلّ نزعة سحريّة، ومن كلّ هزّة عاطفية، ومن كل دافع غريزيّ، وكان الإنسان العقلاني - عدوّ الشّعر بطبعه -لا ينطق بزعمه إلا في ضوء البرهان البديهي الساطع، ولا يعير اهتمامًا إلاّ لما يعتبره مسارا ذهنيّا خالصًا، فكلمات السرّ لديه هي تحليل، وشكل صارم وبرودة دم. أن نفكّر هو في النهاية يرتدّ إلى أن نحسب وأن ننضّد القضايا المنطقية على نحو آليّ وأن نخلص إلى استنتاجات، كلّ ذلك كان يشجّع على تنمية الوَلَع بالرياضيات وعلى عبادة الحواسيب، ولكن كيف كان يمكن لهذا الغياب التامّ للذكاء الرمزيّ أن يساعد على بناء مخيال بالمعنى الذي أشار إليه مالرو؟ في واقع الأمر لم يكن باستطاعة العقلانيين إلاّ أن يقتلوا في المهْد كلَّ مشروع شعريّ، وكلّ بحث عن **المعنى**؛ فأنْ يكون رمزٌ من الرموز، أو أسطورة من الأساطير غامضة -وحتّى مبهمة وهي مع ذلك نبع استنارة واستلهام- فذلك يبدو لهم أمرًا غير مفهوم، وغير مقبول ثقافيًا؛ وبسبب ذلك كان صراعهم الدائم ضدّ ما هو غير عقلاني (وهو صراع تؤيّده بسخاء أعلى السلط العلميّة كما سنرى). لقد عثر الفرنسي إميل مايريسون على قاعدة على غاية من الصواب تقول:" ليس للعقل إلا وسيلة واحدة لتفسير ما لا يصدر عنه ألا وهي إحالته إلى العدم".

إن التشخيص الذي انتهى إليه مالرو ليس أقلّ صوابا: فقد كان الغرب أوّل حضارة تقوم على مثل هذه الحالة من الحرمان الشعري ومن الفراغ الروحي. لقد حرّم العقلانيون الحُلْم على أنفسهم".ولكنّ الاستغناء عن الأحلام لا يتعلّق بحضارة من الحضارات، فنحن لأوّل مرّة إذن إزاء حضارة تغريها أحلامها أو

تتملّكها ولا يكون بوسعها ترتيب هذه الأحلام وفق أولوياتها"، ففي كتيّب موسوم بـ **مغريات الغرب** قال مالرو أيضا: "إنّ خريف العمر الأوروبيّ يدعو إلى الرثاء وهو خال من العواطف كفؤاد المحارب على قوّته ودقّة تصويبه".

كان الإنذار جدّيا، ولكن هل كان رجال العلم والمهندسون والمقاولون والسياسيون وعلماء السياسة وخبراء التنظيم وإعادة التنظيم والمختصون في الاتصالات أو السيبرينية[1] الاجتماعية قادرين حقّا على فهمه؟

يمكن أن نشك في ذلك، فكلمتا مخيال وحُلم لهما صدى سلبيّ في عالمهم الذهني.

ولقد عرف الأستاذ دوبان الضعف الباعث على الحزن الذي يسِم ممثلي "العقلانية" كلّهم صغارهم وكبارهم على هذا النحو: لم يكونوا أعداء للشعر ولكنّهم كانوا خارج دائرته تماما، لقد كانوا يفتقرون إلى الحس الشعريّ افتقارا.

واليوم في سنة ٢٠٨١ من الصعب علينا بداهة أن نفهم كيف استطاع الكبرياء العقلاني أن يُعْمي البصائر إلى هذا الحدّ، فالمنظّرون السياسيون الذين يريدون لأنفسهم أن يكونوا نقّادا بقوا على نحو ما مُخْلِدِين إلى الأرض، لقد كان بوسعهم أن يكونوا مفكّرين مَهَرَة، وأن يظهروا نوايا حسنة، ولكنّهم لم يكونوا يعرفون أصلا أنّ فن العيش وفنّ الحلم سِيّان، والرأي عندهم أنّ الحلم والواقع لا يجتمعان؛ لذلك كان بيار جوزاف برودون يقابل على نحو معبّر جدّا بين "الفكر الوضعي

---

(١) تُطلق كلمة "سيبراني" على كل ما يتعلق بالشبكات الإلكترونية الحاسوبية، وشبكة الإنترنت، فعندما نقول الفضاء السيبراني، فهذا يعني الفضاء الإلكتروني (Cyberspace)، أي كل ما يتعلق من قريب أو بعيد بشبكات الحاسوب، والإنترنت، ومواقع التواصل الاجتماعي والتطبيقات المختلفة (كالوتسآب وغيره.) (المترجمان)

والترميز، وبين العلم والأسطورة، وبين الواقع والحلم، وبين الجسد وظلّه". فبرودون الاشتراكي -بعبارة أوضح- كانت تنقصه الشاعريّة، شأنه في ذلك شأن الرأسماليّين الذين ينتقدهم.

لقد شخّص مالرو بجلاء إذن الإفلاس الكبير الذي حاق بالغرب عندما أشار إلى أنّ هذا الأخير لم يعرف كيف ينشيء "مَعْبدا ولا رَمْسا"؛ إذ لم يمكّن العقلُ الناسَ من الاندماج في الحياة الكونية، وإضفاء شيء من المعنى على الموت، أي شيء من الكرامة، لقد لاحظ بيار لورو من قبل أنّ "الإنسان صار لا يحسن أن يَنْبِس بِبنْت شفة، تعبّر عن مشاعره في مناسبات الميلاد أو الوفاة، فقد حلّ الإحصاء محلّ الدين والشعر: فعندما يولد إنسان أو يموت آخر يُدوّن اسمه في دفتر، وهو لعمري أمر مؤسف! من ذا الذي أحبّ ثمّ افتقد حبيبه ولم يَتَبَلْبَلْ بالُه من هول ما يرى من عِبَر الموت والحياة"!

وفي أواخر القرن العشرين حاول آخرون أن ينذروا الغربيين بأسلوب أكثر علميّة ولكن دون جدوى، فقد كتب جان سارفييه على سبيل المثال يقول:" لقد كان للإنسان في كل مكان خارج العالم الغربي من الحكمة، ما جعله ينظّم تصوّره للكون على نحو يأخذ بعين الاعتبار الموت ولا يتجاهله: لقد عرف كيف يحتفظ بهذه الحكمة زمنًا طويلًا قبل أن يصادف في طريقه جنون الغرب"، ولكنّ هؤلاء الذين يقال عنهم عقلانيون كانوا يفضّلون اعتبار الموت كما لو كان حدثا فيزيولوجيا خالصًا يمكن تأجيله إلى ما لا نهاية؛ بفضل البيولوجيا والعلوم الطبية. أمّا الذين كانوا يرفضون هذه النظرة القاصرة فكانوا يُعَدّون كالعادة من بين الرجعيين والظلاميين.

يبدو لنا أن هؤلاء الرجعيون الظلاميون -إذا ما صوّبنا النظر إلى الماضي- هم

مـن ذوي النظر الثاقب والرأي السـديد؛ ولذلك لاحظ جـان زيغلار أن وفاة المرء لم تكن قضاء وقدرا، وإنّما هي فقط غياب جسـدي لفرد منتج مسـتهلك؛ ولذلك أيضـا فإن بيار شـونو تجرّأ على نقد تهميش المـوت نقدًا لاذعًا فقال: "إنّ مجتمعنا يتجاهـل المـوت؛ لأنّـه لا يسـتطيع أن يقول فيه قـولا علميًا صارمًا مثلمـا اعتاد أن يفعـل فـي غيـره من مجـالات الحيـاة، فمنتهـى غاياته البحـث عن المتعة وإشـباع الحاجات المادية، فالموت إذن هو ذلك الشـيء الذي يفسـد عليهم حياتهم؛ لأنه ليس لديهم إزاءه تصور متناسق، فلا مناص لهم من تجاهله". ويفضي أحيانا إنكار المـوت - كمـا يذكّر بذلك لويس فانسـون توماس- إلى أفعـال لا إراديّة فريدة من نوعها: ففي مدينة ميراي الجديدة القريبة من تولوز نسـي مسـؤولوها إدراج مقبرة عند تخطيطهم لبناء المدينة!

أمّا أعمال القتل والقتل الجماعي والحوادث القاتلة فتحتلّ مساحة واسعة في الصحف". فعـن التلفزيـون كتـب مالرو يقـول: إنّ يوما دون قتل هـو بمثابة يوم بلا خبـز". وهـذا "المـوت المرئي" يتعايش في انسـجام مع "الاتّجـار بالموت"، وذلك بتطويـر صناعـة حقيقية تختصّ بمراسـم الدفـن ("مُتْ مطمئنّا فسـنقوم بما يلزم"). ولكنّ الإخفاق في المستوى الثقافيّ كان ظاهرا للعيان، فقد ضاعف الغرب أوْجُه الحرمـان؛ لفـرط إدانتـه ما في الأسـاطير من مخالفـة للمنطق العقلانـيّ، ولم يكن للنُّخـب الحـسّ الكافـي؛ لإدراك دلالـة بعض مـا يواجههـم من أشـكال المقاومة والاحتجاج.

لقد لاحظ فريق بحثنا بجلاء بروز معتقدات أشـدّ توغّلا في "اللاعقلانية" في الغـرب المتهـاوي. إنّهـا لَرُؤية تنطـوي على مفارقـة، ففي الوقت الـذي انتصر فيه التكنوقـراط وسـاد المعقْلنـون بـلا منـازع فـي الحيـاة الاقتصاديـة، كان للعرّافات وقارئات الفنجان والورَق أثرٌ في الناس عظيم، وانتشـرت أشـكال التنجيم في كلّ

مكان على نحو لافت للنظر، وشاعت ألف طريقة ضاربة القِدَم في "الشعوذة" لدى أوساط اجتماعية عديدة.

ولقد تساءل في عام ١٩٩٢ صحفي يدعى هنري تنك في جريدة فرنسية كبرى في مقال له ذي عنوان بليغ: "**عودة الوثنية**" أيعود الربّ؟ ويعود معه الشيطان والسحر والعرافة والباطنية والتنجيم وطقوس التحكّم والشفاء؟" فلم يبلغ الأمر بعد مبلغ التيّار الجارف، ولكن في النهاية كان النزوع إلى ذلك ملحوظًا، فلم نكن نلحظ "أنفاسًا أصولية" من جهة الأديان التقليدية الكبرى فحسب، ولكن كذلك "مزيجا من التديّن البدائيّ فيه طائفيّة لا عقلانيّة وتصوّف "شرقي" وأفكار مثاليّة حداثيّة تتلوّن ببريق العصر الجديد". إنّه فولكلور يحيّر أحفاد ديكارت: "ففي غابة باريسيّة عُثر أخيرا على بقايا قربان من الفودو (عبادة أرواحية لدى زنوج الأنتي وهايتي)؛ وللتصدي للتضخّم الذي عرفته صلوات وطقوس التداوي تنامى وجود الزوايا الصوفية الإفريقية والقساوسة المزيّفين وحتّى الأساقفة المزيّفين مثل أولئك الذين ظهروا في منطقة فريشو بلوت وغارون وقد أحيلوا إلى العدالة".

أهي حركة هامشية؟ نعم إذا شئنا، ولكنّ في اللوحة التي رسمها هنري تنك ما يدعو إلى التفكير، إذ يقول: "وفق استطلاع للآراء أجرته المؤسسة الفرنسية للبحوث القائمة على استطلاع الآراء (سوفراس)[1] عام ١٩٨٩ فإنّ ٤٠٪ من الفرنسيين يعتقدون أن الاختلاف في طبائع الناس وأمزجتهم مردّه إلى تأثير الكواكب، ولم يصدر ردّ يدحض نتائج دراسة سابقة ظهرت في الثمانينات من القرن العشرين تقول: إن واحدًا من كلّ خمسة فرنسيين يؤمن بالتناسخ، ولم يسبق

(1) *Société française d'enquêtes par sondages (SOFRES)* (المترجمان)

قطّ أن تحدّث الشباب عن السحر وعن لعبة الحظّ، وعن التنجيم، وعن الأرواحية[١] كما ذكر ذلك شيوخهم ومدرّسوهم. (...) ففي دراسة البلّوريات وفي طاقة التركيز البدنيّ المستلهم من الطاوية[٢] وفي التناسخ وفي الشانولينغ (وهو تفعيل الوسائط" الخفية في النفس لتلقّي "الطاقة الكونية"، واستعمال طاقة الأيدي والنور الأبيض، وإعادة التوازن لـ"الشاكرا"[٣] هناك الجيّد والرديء في "سوق" هذا العصر الجديد، الذي يقدمه منتقدوه على أنّه احتيال من طراز رفيع، أمّا مريدوه فيعتبرونه ديانة القرن الحادي والعشرين العالمية تنبذ العنف وتتوق إلى الكونية وفيها خلاصة للأديان الأخرى كلّها". كيف نفسّر أنّ أشدّ الناس تمثيلا رسميا للحداثة الغربية لم يشعروا بما كان يُنْذرُ به هذا النوع من الغليان؟ لماذا لم يروا أنّ ذلك تعبير عن حاجة شعرية ملحّة؟

لا مراء في أن كلّ هذه المظاهر "الصوفية" كانت تنطوي على معنى: لقد كانت تهدف إلى إرساء حوار بين الناس والكون، فعندما تفسّخت ثقافة الإغريق نتج عن ذلك شيء مشابه: فقد حدثت ردود فعل عنيفة ضدّ العلم المجرّد، وضدّ تعسف العقلانيّين في استعمال السلطة. لقد كان الكون الخاضع للتحليل العقلي وللتفكير

(١) **الأرواحية** Spiritisme ويطلق عليها أيضا الإحيائية (Animism) بمعنى «الروح والحياة» هي الاعتقاد بوجود الأرواح، وأن أي نظام حي أو كائن أو نبات أو جماد يمتلك نوعاً من الروح مثل الحجارة والنباتات، وكذا الظواهر الطبيعية مثل الرعد، وحتى التضاريس الجغرافية كالجبال والهضاب والسهول والأنهار. (المترجمان)

(٢) **الطاوية** ديانة شعبية في الصين تستلهم مذهب لاو تسي (فيلسوف صيني لا يعرف إلا من خلال الخرافات ويعتقد أنه مؤسّس الطاوية وقع تأليهه في القرن الثاني بعد المسيح) و تقاليد محلية قديمة. (المترجمان)

(٣) مركز الطاقة لكل فرد في عقيدة اليوغا. (المترجمان)

العلمي الرياضي الخالص مسلوبًا من الحياة، مجرّدا من الدفء فاقدًا للمعنى، كان لِزامًا إذن أن تُنْفَخ فيه الروح من جديد، وأن تُرَدّ إليه وحدته وحرمته باعتباره كلاًّ لا يتجزّأ؛ من أجل ذلك اجتاحت طرق التنجيم وأنواع الطقوس السحرية كلّها العالم الإغريقي والروماني؛ لذلك تحدّث المؤرّخ أ. ج. فاستوجيار عن «سقوط العقلانية»، والظاهر أنّ العالم القديم لم يبلغ مثل هذه الدرجة العالية من الحضارة، ولكنّ الخبراء الأوسع علمًا لم يكونوا قادرين على الإجابة عن الأسئلة الكبرى: فـ«حول العناية الإلهية والماهية ومصير الإنسان، وحول الخير الأسمى وحول مسار الحياة، لم يقدّم الفلاسفة غير إجابات متناقضة»؛ ولذلك فَزِع الناس إلى «اللامعقول» لكي يحيوا حياة روحية، فوجدوا ضالّتهم في الحدس الصوفي، والأسرار الإشراقية، وفي السحر وفتنته والقائمة تطول: التنجيم والكيمياء السحرية والزرادشتية والهرمسية والكهنة الكلدانيون والفيثاغورية والأورفية[1]...

في ضوء هذا المثال أدركنا جيّدا ما يعنيه «رجوع الوثنية» في نهاية القرن العشرين، فإذا كان المنجّمون والأولياء الصالحون قد جذبوا إليهم مريدين، يزداد عددهم يوما بعد يوم، ألم يكن ذلك علامة على أنّ الشعوب كانت متعطّشة إلى الروحانيات؟ ولكن لا يبدو أنّ النخب الغربية قد أعارت ذلك أيّ اهتمام، وحتّى في حالة الدفاع عن «البيئة» الذي كان دون شكّ أيسر فهمًا على هذه النخب، فإنّها لم تقدّر حجم الرهانات الروحية فيها، فما بالك بقدرتها على اعتبار «تصاعد اللاعقلانية» علامةً على فراغ روحي. لقد كان الكثير من الغربيين مشدودين إلى الثقافة الشرقية وهو ما لاحظه العقلانيون بمرارة، فالشرق جعلهم يحْلُمون أخطؤوا

---

(١) نسبة الى شاعر غنائي من شعراء ملحمة هوميروس نزل إلى العالم السفلي عالم الموتى ليستعيد زوجته فسحر عقول الآلهة بروعة إنشاده، لكنه فشل في تنفيذ رغبات الآلهة ففقد زوجته إلى الأبد. (المترجمان)

في ذلك أم أصابوا. وهو ما جعل المؤرّخ الفرنسي ريمون شواب Raymond (Schwab) ينحت عبارة: "حاجتنا إلى الشرق". وقد كتب يقول: "يطلب الأوروبيون من آسيا ما ليس عندهم، أو يبحثون عمّا فقدوا من ذواتهم، أي أن يعيشوا سحر التأمّل من جديد،" ففي الشرق اكتشفوا فضاءات جديدة، فقد أمكن لهم -إذا ما صدّقنا ما قاله ميشلي Michelet- أن يرتووا من معين شعريّ لا ينضب، إذ " كلّ مكان في الغرب ضيّق، فاليونان صغيرة لأنّني أختنق فيها ومنطقة اليهودية[1] جافة تجعلني ألهث، دعوني أنظرْ إذن قليلا من ناحية آسيا العليا نحو عمق الشرق، فلي هناك قصيدي البديع، إنه رحْبٌ رحابة المحيط الهندي، وهبّتْني الشمس إياه وباركته، إنّه ديوان الانسجام الإلهي الذي لا نشاز فيه، يخيّم عليه سلام تهوي إليه أفئدة الناس، وحتى في صميم الصراعات تمتدّ إلى كل من يحيا رقة لامتناهية، وأخوّة لا حدود لها، إنه بحر من الحبّ والرحمة والسماحة بعيد الغور لا ساحل له. (...) تلقَّني أيها القصيد العظيم!... فَلْأغُصْ فيه!...ذاك بحر من لَبَنٍ سائغ للشاربين". وكتب ميشلي عن الهند يقول أيضا: لقد وُهبت الهند القدرة على "رؤية الحياة في أعماق الكائنات، ورؤية الروح من خلال الأجساد:" فلا العشب عشب ولا الشجر شجر، ففي كل مكان تحدو الأرواح تهليلا وتسبيحا".

هل كان ميشلي يهذي؟ لا شك في ذلك من وجهة نظر عقلانية محض، لقد

---

(١) **اليهودية** (باللاتينية: Iudaea) هي تسمية تاريخية يونانية- رومانية لمنطقة جبلية في جنوب فلسطين. تمتد هذه المنطقة من ساحل البحر الميت باتجاه الغرب وتشمل القدس والخليل وبئر السبع. تأتي التسمية من اسم قبيلة يهودا العبرانية. هذه المنطقة ظهرت فيها مملكة يهودا وهي إحدى المملكتين اليهودتين القديمتين، ثم ظهرت فيها بعد الغزو الفارسي المملكة الحشمونية، والتي صارت تعرف بمملكة يهودا أثناء الحكم الروماني لفلسطين. (المترجمان)

كان ميشلي معذورا بوصفه "كاتبا كبيرا"... ولكن ماذا عن كلّ هؤلاء الذين تفاقم هذيانهم بالشرق على نحو باعث على الانشغال؟ لقد كانوا يُمطَرون بسيل من الاعتراضات والانتقادات. حُسِمَت المسألة سريعا بالنسبة إلى الحداثيين، فقد اعتبروا أنّ معظم المؤلفات التي لقيت رواجًا حول البوذية واليوغا والطّاو، لم تكن زائفة مليئةً بالأخطاء فحسب، ولكنّها كانت تتوجّه في الأصل إلى العقول الضعيفة (إن لم تكن موجهة إلى الأذهان الغبية). ذلك ما أثار اهتمامنا: فرغم تنامي ظواهر الضغط النفسي والعزلة العاطفية، ورغم الانتشار المؤلم لظواهر التهميش والإقصاء والمسخ الاجتماعي والثقافي، فإنّ المدافعين عن الأنوار والحداثة يؤثرون الرفاهة ويتجاهلون الدلالة الإنسانية لعبارة "الحاجة إلى الشرق"، وقصارى ما كانوا يقولون إن الفولكلور الآسيوي صالح للحفاظ على المعتقدات الأشدّ عبثية لدى من هم في أسفل السلّم الاجتماعي، وعلى أحلامهم الأشدّ توغّلا في اللامعقول.

والحال أنّه كان يكفيهم الدخول العابر في هذا الأدب الملْعون؛ لكي ينتبهوا إلى أنّه يعبّر عن حاجة ماسّة إلى الروحانية، فمن مثل تلك المؤلفات أثَرٌ موسوم بـ"كيف نهتزّ مع الكون" وآخر عنوانه:" نور وتأمّل وحبّ": تلك هي الحياة الحقيقية وآخر كذلك عنوانه: " أسرار موسيقى النفس". ألم يكن مدار الأمر على كلمات: نفس وعقل وكون؟ كان القرّاء يبحثون بكلّ بساطة عن أساطير جديدة وصور جديدة وعن إعادة بناء حدس الحياة الكونيّة. كان إذن من السهل السخرية والاستهزاء من العلم الروحي لليوغا ومن حكايات مسافر فلكيّ، وفعلاً فهُمْ لم يكتشفوا فيها العقلانية المألوفة في المقالات العلمية حول جُزَيْئات العناصر أو الأنْزيمات، ولكن لماذا لم يذهب الحداثيون إلى أبعد من ذلك؟ كانت هذه الكتب تنمّ عن فشل، فعندما احتقر الغرب الشعراء والأنبياء، أصبح غير قادرٍ على إشباع

بعض الحاجات الإنسانيّة الأساسيّة، إنه الأكسيجين الذي لم يعد قادرا على توفيره، فكان لا بدّ من البحث عنه في مكان آخر. من هنا برز سؤالنا من جديد: لماذا أصمّ فقهاء الحضارة الأوروبية آذانهم عن احتجاجات أولئك الذين كانوا يشْكُون الاختناق؟

لو كان الغربيون يريدون حقًّا أن يأخذوا "الحاجة إلى الشرق" مأخذ الجدّ، لربّما انتهى بهم المطاف إلى أن يُسلّموا بأنّ الإنسان ليس ذاك العقلانيّ فقط، ولربّما أعادوا قراءة ما كتبه بليز باسكال Blaise Pascal حيث يقول: " إنّ آخر خطوة للعقل هي أن يعترف بأنّ هناك عددا لا متناهيا من الأشياء التي تتجاوزه"؛ ذلك أنّ ما يسوّقه الآسيون من أفكار كان على حدّ عبارة ريمون شواب Raymond Schwab "لا منطقية تمثل نموذجا مغايرا يخرق نموذجنا العقلاني كان أحرى بالحداثيين أن يغتبطوا به بَدَلَ إدانته، وكان عليهم في جميع الأحوال أن يقوموا بالمراجعات الثقافية الضرورية، ولكن كما هو الأمر دائما، فإنّهم كانوا يفضّلون الطعن في كلمة "تصوّف" بالرغم من جهلهم معناها، وكان عنادهم من الشدّة بحيث منعهم حتّى من سماع بقيّة باقية من "العلماء" ممّن أدركوا خطورة الوضع.

وفعلا فإنّ كلود ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss لم يكن يخشى من إسباغ المشروعية علنًا على "الحاجة إلى الشرق"، وهو الذي أكّد بخصوص مسألة كان يعتبرها عاجلة على نحو واضح جليّ: " الروابط التي تجمع الإنسان بالأنواع الحية الأخرى"، ففي رأيه إنّ إحدى نقاط الضعف في النزعة الإنسانية الغربية تتمثّل في أنّها بالغت في عزلة الإنسان عن باقي الخليقة، كان ينبغي إذن أن يُبسط في ألفاظ جديدة هذا السؤالُ ذو الطبيعة الشعرية أصلا: كيف يحدّد موقع الإنسان

في علاقته ببقية المخلوقات؟ كان السؤال من الأهمّية عند ليفي ستروس نفسه بحيث يتّصل أيضا بالعلاقات المتبادلة بين مختلف الشعوب الإنسانية، إذ يقول:" إذا كان الإنسان جديرا بالاحترام؛ فلأنّه قبل كلّ شيء كائن حيّ قبل أن يكون ربًّا وسيّدا للخلق، وهذا أوّل اعتراف كان من المفروض أن يقوده إلى احترام جميع الكائنات الحية". وإليك خاتمة كلامه حيث يقول: "في هذا الصدد يبقى الشرق الأقصى البوذي مؤتمنا على المبادئ التي نتمنّى أن تتناقلها الإنسانية كلّها، أو تتعلّم كيف تستلهمها". في هذه المرّة لم يكن محدّثنا مشعوذا دجّالا، فمن المستحيل يقينًا أن يُحشر كلود ليفي ستروس مع ذوي "العقول الضعيفة" التي ينتقدها شيوخ العقلانية بلا كَلَل ولا مَلَل، ولكن الرسالة سقطت في الفراغ مرَّة أخرى.

لقد وقع الغربيون أنفسهم في الفخ كما يقول الأستاذ دوبان، فكلّما بدت لهم مسألة من المسائل "أسطورية" رأوا أنه من حقهم التخلّص منها، فلم يكونوا راغبين في أن يروا أنّ عقلانيتهم كانت هي نفسها أسطورة من الأساطير مخجلةً غيرَ مُعْلنة، ولكنّها أسطورة على أيّ حال. ومن ثمّ كان تعاميهم وقلة تفتّحهم. لقد أكّد الأستاذ دوبان أنّ فشل الغربيين الأكبر " ليس مردّه إلى أنّهم لم يعرفوا كيف يجدون الحلول، ولكن مردّه إلى انعدام قدرتهم على إدراك المشكلات"، وكثيرة هي الأمثلة التي تثبت ذلك بجلاء، فمن ذلك أنهم يُصرّون على التفكير بشكل حسّي ضيّق، في الوقت الذي كان يجدر بهم أن يظهروا على قدر من الإحساس والذكاء الرمزي.

فظاهرة المخدّرات مثلا كان من النادر أن تَعْرِضَ لها السلطات خارج دائرة المقاربات الطبية أو القانونية أو البوليسية، أمّا الاستعمال المفرط للعقاقير لدى المرضى النفسانيين (مضادات القلق والاكتئاب وغيرها)، فقد كان يشهد على

عجْزٍ مماثل، وحتى [حالات] الانتحار وانحراف الأحْداث كان ينتهي أمرها إلى اعتبارها مشكلات "تقنية"، وفي أحسن الأحوال كان بعض الخبراء يؤكّدون أنّ وراء هذه الظواهر كلّها دوافع نفسية، ولم يكونوا مخطئين في ذلك إلى حدٍّ كبير لأنّ الروح (أي النفس) كانت معنيّة بذلك فعلا، ولكن ماذا أدرجوا تحت هذا اللفظ ؟

الظاهر أنْ لا شيء، لا شيء في جميع الأحوال قد يكون على صلة مباشرة بما نسمّيه حياة شعرية أو روحيّة، لقد استطعنا أن نتأكّد من ذلك، فعلماء النفس العقلانيون على النقيض ممّا يمكن أن نعتقد، لا يهتمّون بالروح وإنّما بما كانوا يسمّونه "الجهاز النفسي"، ففي قاموس علم النفس الذي صدر سنة ١٩٩١ وحرّره مختصّون بارزون لاحظنا مثلا غياب كلمة "روح"، وكان هذا الأمر في نظرنا بليغ الدلالة.

ذلك أنّهم باختزالهم روح الإنسان في جهاز نفسي قد شيّؤوها، وجعلوا منها مادّة للتحليل العلمي والتجريبي جاهزة لأيّ نوع من أنواع المعالجة النفسيّة أو الجراحة العصبيّة، ويمكن أن تكون هدفا مفضّلا للتقنيّين النفسانيّين المعتمدين في الدعاية والإعلان. لقد كان هذا المفهوم المتعسّف " للنفس"حسب الأستاذ دوبان ذا مَنْزع زجْريّ ماكر. أفَلمْ يكن إلغاءُ النفس نفيًا لعالَم المعنى أو خفْضًا منه؟ ألم يكن إقصاءً للشعر؟ لأنّ الشاعر لا يتوجّه بالخطاب إلى أجهزة نفسية، إنّه يخاطب رجالا ونساء أي ذوات لها أرواح. وهو ما قاد الغربيين الذين أعرضوا عن محاولة فهمها الى ضلال بعيد.

ولنذكّر بأنّ كثيرا من الخبراء والمفكّرين في تلك الفترة كانوا يتناقشون بكامل الجدّية في معرفة ما إذا كانت الحواسيب قادرة على التفكير، ونحن اليوم نجد ذلك أمرا غريبا جدّا، ولكنّ هذا الأمر يدلّ من الناحية التاريخية على أنّ للحداثيّين

تصوّرًا خاصًّا للإنسـان، لقد حملتنا بعض الوثائق الثابتة التي لا يتطرّق الشـكّ إلى صحّتها على إعمال النظر. ففي سـنة ١٩٨٩ مثلا ظهر مؤلَّفٌ عنوانه: "مادّة للفكر" كان يتضمّـن نقاشـا دار بين شـخصيّتين علميّتيـن أحدهما جان بيار شـنجو Jean-pierre Changeux وهـو علـم أحياء، والآخر هو ألان كون Alain Connes وهو مختص في الرياضيات، وفي قسـم من هذا الكتاب كان عنوانه " آلة تشـكو العطب وتقيّم نفسـها بنفسـها" كانـا يجدان أنّه من الطبيعي جدّا افتـراض أنّ آلة من الآلات يمكن أن تشـعر بالمتعة وتحسّ بالألم، فينبغي إذن (وسـنعود إلى هذا الموضوع) أن نصـدّق بـأنّ أفضـل العقول في القرن العشـرين، لم تنجح دائما فـي تبيّن الفرق الذي يميّز الإنسان عن الحاسوب. والظاهر أنّ الأوساط العقلانية كان من الصعب عليها فهم مقولة نوفاليس Novalis "الشـعر أسـاس المجتمع"، ومن المحتمل من جهة أخرى أن تساهم التقاليد العقلانيّة فيما يتعلّق بفرنسا بالخصوص في التفسّخ الثقافي. ألم تسْعَ هذه الأمّة بجرأة إلى تأليه العقل؟

ربمـا نتذكـر أنّ الفرنسـيين قـد جعلـوا مـن **العقـل** إلهـا يُعبـد خـلال ثورتهـم البورجوازيـة الكبرى سـنة ١٧٨٩، فقد أقيم لـه قُدّاس عمومي في نوتردام Notre-Dame بباريـس يـوم ١٠ نوفمبر ١٧٩٣، والحقّ أنّ هذا الشـكل الديني الظاهر أي عبادة **العقل** لم يدم طويلًا، ولكن نِحَلاً متنوّعة من العقلانيّين الأشدّاء الخُلّص قد ثبتـوا فـي الميدان، لا سـيّما أنّ "مثاليّـات العقلانية" قد تجذّرت واشـتدّ عودها في مجالات متعدّدة (في العلوم والتقنيات وهذا أمر بديهي وفي المؤسّسات التعليميّة والإدارات العمومية وغيرها)، وهو ما يمكن أن يفسّـر حسـب بعض باحثينا(جزئيا على الأقلّ) شدّة **الانفجار الأكبر** في فرنسا خاصة.

ثمّـة شـهادات مختلفـة بدت لنـا مؤكّدة لذلـك: لقد قـرأت النخب الفرنسـية ديكارت كثيرًا، بينما قرأت قلّة قليلة منهم ميشلي Michelet وكان لهم ميل جارف

إلـى المبالغة في تقديـر النجاعة الاجتماعيّة والسياسـيّة والثقافيّة للعقل الإله، وقد تجلّـى ذلـك على وجـه الخصوص في فقـدان القدرة علـى إدراك الدلالـة الرمزيّة لكثير من الوضعيات، فكيف رسخ الاعتقاد لدى أصحاب القرار مثلا بأنّهم قادرون على حلّ المشكلة البيئيّة الناجمة عن تلوّث الطبيعة من غير تسوية مشكلة التلوّث فـي مجـال الإعلانات؟ فمن كان له نصيب ولو قليل من الحسّ الشـعريّ يرى من البديهـي أنّ هذيـن الصنفين من التدهـور في المجتمع الصناعـيّ مترابطان، ولكن الحداثيّين كانوا يرون أنّهما مشكلتان منفصلتان.

وكان ديـكارت Descartes قـد أسـدى لهـم نصيحـة كارثيّة، فحواها تقسـيم الصعوبـات إلـى أدنى جزئيّاتها الممكنة، ثمّ تؤخـذ كلّ جزئية لكي تحلّ على نحو أفضـل، وقـد اعتقدوا في صواب رأيـه اعتقادا أعمى، ونحن نعـرف أنّ نتيجة ذلك كانـت الفصـل بيـن الطبيعـة والثقافـة فصـلا بلغ حـدّ العبثيّـة، وأدّى إلـى مضاعفة مؤسسات مختصّة في هذه وتلك، فساروا من فشل إلى فشل.

كثيرة هي الأحداث التي تبدو لنا اليوم مؤسفة باعثة على الضحك في آن؛ من ذلـك مـا يرويه بعـض الخبراء-عن دراية- أنّهـم بصدد إجراء تجربـة على الفئران لصنـع حبـوب ضدّ الانتحار، وهذا في الحقيقة أفُقٌ جميل. وقد كتب الشـاعر ألبير كامو Albert Camus يقول: "لا يوجد سـوى مشـكل فلسـفيّ جديّ حقيقيّ واحد هـو الانتحار"، وهكذا إذن بفضل حبوب الأسـتاذ تروك مـوش Trucmuche يجد هـذا المشـكل حلّـه النهائـي، ولكـن مـن أجـل قيـاس مـدى مـا وصلت إليـه هذه "الحضارة" من فقر في الإحساس، كان علينا أن نسبر غَوْرَ خطابها كلّه. فقد اكتشفنا مثلا أنّ كلمـة عُنف كانت تسـتعمل فـي مجال ضيق، وإنـه لَأَمْر غريـب، لقد كان جميـع الغربييـن المتنوّريـن متّفقيـن على وجوب وضـع نهاية للعنـف، ففيم كانوا يفكّـرون إذن؟ لقـد كانـوا يفكّـرون في العنـف البدنيّ أساسًـا، وطبعا مـن ذا الذي

يعـارض ضـرورة مقاومة سـوء المعاملة والتعذيب والقتل؟ ولكـن الغريب أنّ ثمّة أشـكالًا أخـرى مـن العنف كانـت مجهولـة، أو مُتَجاهَلَـة رغم خطورتها الشـديدة ووجودهـا الدائـم، ومن ثمّ كان مسـموحًا بها؛ **فالدولة** نفسـها كما لاحظ الأسـتاذ دوبان كانت تبدو عنيفة في كثير من الأحيان، ومن المؤكّد أنّها كانت تحمل هاجس "الصالح العام"؛ ولذلك فإنّ الكثير من المواطنين كانوا يشـعرون بالفعل أنّ بعض الإجـراءات التكنوقراطيّـة والإداريّـة والجبائيّة والبوليسـيّة أو غيرها، كانت كما لو أنّهـا اعتـداءات حقيقيـة، ومـاذا يقال عـن النتائـج المدمّرة التـي أفضـى إليها نظام اقتصـاديّ يقـدّم نفسـه بـكلّ وقاحـة علـى أنّه نظـام "عقلانـي"؟ وكي يبـرّر الخبراء والمسؤولون تكاثر البطالين والمُبْعدين يروّجون خطابا يُسْبِغُون عليه صفة العلميّة حول "حتميّة العولمة الاقتصاديّة". أوَلَمْ يكن ذلك شكلًا رهيبًا من أشكال العنف؟

كيـف آل أمـر مؤسّسـي الحداثة إلى هـذا الحدّ؟ هل واصلوا احتقار "أسـاطير الأوّلين" عن حسن نيّة أم عن استخفاف؟ مازال أحد وزراء التعليم العالي والبحث الفرنسيين في سنة ١٩٩٤ يتّخذ من مُثُلِ عصر الأنوار مرجعا لــه؛ باعتبارها "أسسا للثقافـة الحديثـة"، بينمـا تكفينا المتابعـة اليَقِظة لكلامه لكي نسـتنتج أنّ كلمة ثقافة على وجه الخصوص كانت خالية من كلّ معنى. في مثل هذا النوع من الخطابات تعبّر الرغبة في "العقلنة" عن نفسها بكلّ طلاقة، ولكن من غير أن تتمكّن من ضبط أدنى مشـروع شـعريّ أو روحي، والحقّ أنّ هذه "الثقافة" المزعومة ما كان لها من أفـق غير البحـث العلمي والتقنـي والحراك الاقتصـادي، والمخططـات التنظيمية طويلـة المـدى. إنّ ما كان يثير اسـتغرابنا الشـديد هـو الإرادة المعلنـة دون انقطاع لتوجيه كلّ شيء، ومراقبة كلّ شيء بطريقة واعية. لقد كانت تلك عقيدة متجذّرة.

وكان قـد نجـم عـن ذلـك قمع لكل جانـب في النفس سـوى العقـل، وكانت

أفضل العقول في الغرب مسكونة بفكرة الرقابة على الغرائز، وكان سيغموند فرويد Sigmund Freud نفسه قد كتب سنة ١٩٣٢ يقول: " تتمثل **الدولة** المثالية بصورة طبيعية في جماعة من الناس قد أخضعوا حياتهم الغريزيّة لدكتاتوريّة العقل"، أو يقول أيضا: "هل يتمكّن الذهن والفكر العلمي والعقل يوما من الوصول إلى الهيمنة على الحياة النفسيّة للبشر! تلك هي أحلى أمانينا". لقد كان فرويد حذرا على الأقلّ عندما أضاف يقول:" لن ينفي العقل (...) منح المشاعر الإنسانية وكلّ ما يتّصل بها مكانها اللاّئق بها"، وقد انتقد عالم نفس آخر هو كارل غوستاف يونغ Carl Gustave Jung من ناحيته "مزاعم الوعي بأنّه هو النفس بتمامها"، ولكنّ هذه التحذيرات لم تجد آذانا صاغية.

وقد كتب يونغ أيضا يقول إنّ العقلانيين اعتبروا اللاّوعي "عنصرا غير أساسيّ"، ونحن نعرف اليوم أن هذا التشخيص لم يكن صحيحا: فـ" اللاوعي هو دائرة في الجهاز النفسيّ لا تقبل الترويض إلاّ ظاهرا، ويكون ذلك دائما على حساب الوعي".

وكما كان الأمر دائما كنّا نرجع إلى الشعر؛ لأنّ الشعراء هم الذين يعرفون مخاطبة اللاشعور فينا، وهم القادرون على سبر أغواره، وهم الذين يمدّوننا بالوسائل التي تمكّننا من ترويضه والاستمتاع به.

فغياب الرابط الشعريّ يقطع صلتنا الروحية بالكون وبالآخرين. إنّ كل مجموعة بشريّة مثلما أكّد ذلك الشاعر أميال Amiel هي في حاجة إلى شيء من قبيل السرّ والمجهول والاستبصار وما لا يُدرك حسّا، "إنّ القبول اللاشعوري والحدس الغامض والاستشعار الملتبس الذي يحدّد معالم الاعتقاد الأصلي هو إذن مكوّن أساسي في تاريخ الشعوب".

ولكن النخب في فرنسا لم يفهموا هذا الخطاب، وهو ما سجّله أميال عندما اعتبر أنّ هذا الشعب قد أصيب بعقلانية مُزْمِنة فإذا به يستعمل الذهن ولكن تنقصه الروح. فقال: " إنّ الفلاسفة الفرنسيين لغويين كانوا أم مهندسين رغم رفعة مستواهم، لا يحرّكون لي ساكنا؛ لأنهم لا يحملون في ذواتهم مُجْمَل الحياة الكونية، ولا يسيطرون على الواقع كلّه، ولا يوحون بأي شيء ولا يوسعون آفاق الوجود، إنهم يأسرونني ويجفّفون منابعي أو يتركونني في ارتياب، إن ما ينقص الفرنسيين على الدوام هو الأحساس باللامتناهي، والشعور بوحدة الكائنات الحيّة، وإدراك المقدّس وتعلّم أسرار الوجود، فمن وجهة النظر الفرنسية تبقى الأشياء العميقة برمّتها غير قابلة للتفسير: الشعر الحقّ، والفلسفة الحقّ، والديانة الحقّ"، ويتجلّى ذلك في المجال السياسيّ في الثقة المفرطة بالخبراء أصحاب الشهادات (أي "العقلانيين"). لا ريب في أن الأولويّة كانت من نصيب المجالات التقنيّة والقانونيّة أو الاقتصاديّة الضيّقة التي لا روح فيها. لقد كان أميال ثاقب الفهم عندما لم يَرَ " سوى الجهالة والسطحية لدى كبار قادة الفكر في الطبقة المتوسطة في فرنسا".

لقد عثر الشاعر بول فاليري Paul Valéry سنة ١٩٠٣ بصفة عفويّة على حُدُوس أميال وأكّدها، فلماذا كان الإنسان الفرنسي "مجرّدا من العقل السياسي"؟ ذاك لأنّه كان بكلّ بساطة " لا يملك أهدافا ولا رموزا". وقد وضّح فاليري فكرته قائلا: " إنّ ما تتّسم به فرنسا الحالية في حمقه، هو غياب المشاعر العظيمة، أي انعدام المشاعر الجيّاشة". وفي نهاية القرن العشرين لم يكن الوضع أشدّ إشراقا، لاسيما ما بدا لنا من أنّ الأمم "المتحضّرة" الأخرى قد انحرفت كلّيا هي أيضا نحو طرائق تفكير وأنماط عيش في تناقض مطّرد مع كلّ ما هو شعريّ، فعندما حاولت أن تتنظّم وتتّخذ لنفسها بعض الخيارات كانت فقط قادرة على التفكير وفق أهداف

واستراتيجيات تكنوقراطية رُسِمت سلفًا، لقد نسيت أنّ هذه " الأهداف" في حدّ ذاتها لا علاقة لها بـ**مثال** من المثل أو **قيمة** من القيم أو **أسطورة** من الأساطير.

والحقّ أنّ الحداثيّين وضعوا تصوّرات لبرامج ضخمة، ولكنها بائسة، تعوزها الحيوية والحماسة الروحيّة والشعرية. وحسب الأستاذ دوبان فإنّه ليس ثمّة ما يصوّر هذا البؤس الثقافي أفضل من **الاتحاد التكنوقراطي والاقتصادي الأوروبي الكبير** الذي أُسِّسَ على وحدة المصالح الماديّة فحسب، فلم يكن سوى مَجْمَعِ شركات لا روح فيها يديرها متصرّفون مهووسون بالعقلنة والتنميط.

كان هدفهم الأكبر يتمثّل في الدقّة والضبط كمًّا وكيفًا، أي أن يعملوا على أن تكون عُلَبُ البازلاّء والسجائر وآلات الغسيل ودورات المياه العمومية في هيدلبورغ Heidelberg وفي بريندیسي Brindisi وليموج Limoges وبيلباوو Bilbao وأكسفورد Oxford وبروج Bruge خاضعة تماما لنظام "عقلي من المقاييس والقواعد " موحّد وحيد. كيف آلت مثل هذه "الديمقراطيات" المزعومة إلى هذا المصير؟ لم نتوصّل إلى حلّ هذا اللغز التاريخي، وهو لغز يزداد غموضا إذا ما اعتبرنا أنّ الاستقالات السياسيّة في **أوروبا الكبرى** هذه كانت لا تُحصى كثرةً، ويبدو أنّ المشكلات الاقتصادية والتنظيمية وحدها هي التي استأثرت بالاهتمام، أمّا الكرامة والعدل والحب فكانت أمورًا ثانوية.

لا نكاد نجرؤ اليوم على تذكّر الأحداث التي جرت منذ سنة ١٩٩١ في يوغسلافيا السابقة، ورغم أنّ مقرّر لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتّحدة تادوش مازوفيتشكي Tadeusz Mazowiecki قد أكّد غيرَ مرّة مسؤوليّة الصّرب عمّا جرى، فإنّ الأوروبيين قد تركوا لهم الحبل على الغارب، والحال أنّهم كانوا معنيّين بهذا الصّراع مباشرة؛ رغم ذلك فإنّ أشنع المذابح لم تُثِرْ فيهم مجرّد

الاستنكار، وكان من المُخزي أن يتحمّل البوسنيون الهوان على مرأى ومسمع منهم، ومثلما سجّل ملاحظون مختلفون في تلك الفترة، فإنّ نوعا من الإجماع الهشّ قاد بهدوء إلى هذه الفكرة التي تبرّر كل ضروب النذالة وهي غياب مُعْتَدٍ ومُعْتَدًى عليه، ولكن هناك فقط " مجرّد مختصمين"، ومن البديهي أنّ جميع "المختصمين" ينتظرهم في يوم من الأيّام مصير شنيع، ولم يبق إلاّ متابعة العمليات على الخريطة وتلقّي التقارير، خذ لك مثلا هذا التقرير المؤرخ في أبريل ١٩٩٥: "توصّلت سلطات صرب البوسنة تقريبا إلى تحقيق هدفها المعلن، وهو التمكّن من تطهير الأراضي التي تحت سيطرتها تطهيرا عرقيا"، ما الفائدة من كلّ هذه الأخبار؟ لا شيء. وفي نصّ نُشر في مايو سنة ١٩٩٥ قدّم كريستيان لامبير Christian Lambert رئيس البعثة الفرنسية المعتمدة من قبل المجموعة الأوروبية لمراقبة الأوضاع هناك تقريرًا تضمن حصيلة كارثيّة. وهكذا " في البوسنة وحدها أحصي ١٦٩٠٠ طفلا قد قتلوا في الغالب عمدا"، وأضاف يقول: "يبدو أنّ العالم لا يهتمّ بهم قدر اهتمامه بصغار الفَقْمَات (...) علينا أن نعترف بنزاهةٍ أنّ أوروبا قد فقدت مصداقيتها في هذه الأزمة".

وهو أمر صحيح إلى حدّ ما، فأوروبا والغرب عامة قد فقدوا مصداقيتهم، فقد تساءل السيناتور الأمريكي جون ماكاين John MacCain وهو من أنصار رفع الحظر عن الأسلحة المصدّرة إلى البوسنة سنة ١٩٩٥: "من هؤلاء الذين يحميهم جنود الأمم المتّحدة في سريبرينيتشا *Srebrenica* حيث لم يحرّكوا ساكنا إزاء التطهير العرقي والاغتصاب والقتل"؟ ولكنّ رجال السياسة - ونخصّ بالذكر منهم الوزراء - كانوا على وجه العموم يتصرّفون وكأنّ شيئا لم يكن، فعلى قدر تخفّيهم كانت "مبادؤهم" تدوّي في كلّ الأرجاء، وعلى قدر مراوغتهم كانوا يحتجّون "بصرامة لا تُفَلّ"، وكان الرأي العام -كما كان يُسمّى في تلك الفترة- إلى

جانبهـم فعـلا، وفيمـا عـدا بعـض ردود الأفعـال الكلاميّـة أو الاسـتعراضية فـإن المواطنيـن عمومـا لـم يكونوا يرون سـببًا كافيًـا للتحرّك الفعلـي؛ لحماية ما يعرف بـ"حقـوق الإنسـان". وهو مـا لاحظه على الأقل تـادوش مازوفيتشـكي Tadeusz Mazowiecki (" إننا لا نقاتل بما يكفي لحماية حقوق الإنسان").

فمثـلا كان يجـب أن يتخـذ الصرب جنـودا للأمم المتحدة رهائـن؛ لكي تبرز بعض مشـاعر التعاطف معهم، وكان قصف هذه المدينة البوسـنية أو تلك لمعاقبة حلـف شـمال الأطلسـي يبدو أقـل خطورة، ونحـن اليوم نجد صعوبـة في تصديق ذلـك. ولكـن تادوش مازوفيتشـكي قد ترك لنا شـهادته حول هـذه النقطة أيضا: « فقصف مدينة توزلا *Tuzla* حيث لقي واحد وسبعون شخصا حتفهم لم يكن وقْعه على الحكومات والرأي العام كوقع اختطاف رهائن من الأمم المتحدة".

ففـي الفتـرة التـي تُركت فيهـا المناطق التي زُعِـمَ أنها "محميّة" مـن قبل **الأمم المتّحـدة** تواجـه مصيرهـا المحتـوم أحـسّ تـادوش مازوفيتشـكي Tadeusc Mazowiecki بأنـه مضطـرّ إلـى الاسـتقالة، وقـد كتب فـي ٢٧ يوليـو ١٩٩٥ إلى الأميـن العـام **للأمم المتحدة**: " لا أسـتطيع أن أشـارك في مهمـة خياليّة للدفاع عن حقوق الإنسان".

نحـن علـى الأقـل في حاجـة إلى الإقرار بـأنّ ما يفتقـر إليه تكنوقـراط العصر الحديـث ليس "العقل"، وإنّما هو الإحسـاس. فلكثرة حسـاباتهم ولفرط ازدرائهم للعقائد ولكلّ أشـكال "الرومنسـيّة" أضحى **الغربيون** غير قادرين على الإحسـاس ببعض المشـاعر الأساسـيّة. لقد أكّد الأستاذ دوبان ذلك قائلا: "ستظل قلوبهم ميّتة مـا لـم تُهـدَّدْ رفاهيتهـم ومصالحهـم الماديّـة". فكيـف يُعْقَـل أنّ أصحـاب القـرار ومسـؤولين آخريـن لـم يسـتخلصوا العبـرة مـن إخفاقاتهـم؟ لمـاذا لـم يسـتبصروا

العلامات الدالة على أزمة كبرى؟ فقد كان حريًّا بهم أن ينصتوا إلى الشعراء عوض أن يصدّقوا الخبراء، لقد شرح لهم باتريس دي لاتور دوبان Patrice de La Tour du Pin كل شيء بهذه الكلمات البسيطة:

«كلّ الشعوب التي لا أساطير لها

مصيرها أن تموت من البرد»

لقد استعمل الأستاذ دوبان عبارة الثقافة المزيفة؛ ليصف حالة الانحراف التي حاقت بالمجتمعات الغربية في أواخر القرن العشرين، لقد كانت طريقة بسيطة للتذكير بأنّ المتحضّرين كانوا مجرّدين من كلّ مشروع روحيّ، « فكلّ القيم التي توارثوها تلاشت»، وحتّى تلك القيم التي استُبْقِيَتْ كانت مهمّشة هجينة، والأدهى من ذلك أنّها ما كانت لتلائم ممارسات سائدة في مجتمع من التجّار والمصرفيين والمهندسين والتكنوقراط، لقد انجرّ عن ذلك خلط كبير ومحاولات خرقاء للترميم [والتعويض]، وكان من الواضح مثلا أنّ عبادة الإنتاج والربح خلّفت أسوأ الأثر في المستوى الإنساني، ولكن كيف يمكن أن نعيد شيئا من الإحساس ومن الدفء الإنساني إلى نظام اقتصادي كان منطقه الداخلي نفعيّا خالصًا؟ كيف يمكن الحيلولة دون أن يصير أمره إلى جمود وقسوة دائمين؟ إن إجابتنا عن أسئلة من هذا القبيل هي الكفيلة بجعلنا قادرين على تثمين درجة إنسانية ثقافة من الثقافات وعافيتها؛ فإمّا أن تقدّم إجابات شاملة شجاعة مبتكرة تقبل التطبيق على أرض الواقع، وإمّا أن تكون الاستقالات بالجملة (وهو حال الغرب). والمجتمع الذي يراوغ ويتجاهل هذه المشكلات الخطيرة دائما، هو مجتمع قد أعرض عن كلّ «ثقافة».

ولا ريب في ذلك فالشاعر مالرو Malraux كانت تدور بخاطره أفكار مشابهة

عندما كتب يقول: " أرى في أوروبا بربريّة نُظّمت بدقّة (...) فالحضارة ليست شأنا اجتماعيّا وإنّما هي شأن نفسيّ وليس هناك من حضارة حقيقيّة سوى حضارة المشاعر"، ولقد استبان للشاعر شارل بيجي Charles Peguy منذ سنة ١٩٠٦ وهو يتدبّر موضة استعمال لفظة "التضامن" أنّ ثمّة أزمة عميقة إذ قال: "من أجل ذلك وجب علينا أن نعود إلى بدايات العالم الحديث؛ كي نحصل على إنسانية للإنسان (وهل هي جديرة بهذه التسمية؟) في غاية الجهالة وفي منتهى التجرّد من كل معنى للتضامن، ولا شكّ في أنّه لم يشهد قطّ عصرٌ من العصور كعصرنا الحديث مثلَ هذه الدرجة من التشدّق بكلمة "المنظّمات"؟ ولم نشهد قطّ رَقاعة أكبر من تداولهم كلمة "التضامن"؛ ذلك أنّ حقيقة ما هو عضويّ وحقيقة ما هو تضامنيّ وما هو تضامن عضويّ على وجه الخصوص لم يشهد التاريخ تنكّرا لهما وغربة عن الأذهان كما شهده عصرنا هذا".

و حسب بيجي Péguy دائما فإنّ الغربيين في العصر الحديث لم يكونوا قادرين على صنع أسطورة تفي بالغرض، " فاليهودي إذ يعلم ماذا تعني الحياة يعلم بالضرورة ماذا يعني تآزر عرق من الأعراق (...) والمسيحي يعلم ماذا يعني التضامن في الحياة الروحيّة، والتآزر في مدينة اللهو الفرنسي يعرف معنى التضامن الوطنيّ والتضامن في العمل، فإنسان العصر الحديث وإن تشدّق بالتضامن العضويّ واتّخذ التضامن لبوسا ظاهريّا فإنّه يجهل تماما كُنْهه".

ولقد وضع الشاعر إصبعه على موضع الداء كما يفعل الجراح تقريبًا، وهو ما أتيح لفريق بحثنا أن يثبته: " إنّ عيب الحداثة الأكبر يتمثّل أساسا بهذا الاعتبار في حالة من التخبّط وغياب الإخلاص، آليتها الأساسية هي أن نقبل عن طواعية المنافع التي نرومها في بعض الحالات أو في كثير منها، وفي مختلف مظاهر

الحياة المتنافرة والمتناقضة بطبيعته،ا وأن نرفض عن طواعية جميع الواجبات التي لا تنفصل عضويّا عن هذه المنافع رغم ذلك".

ولقد ظهرت للعيان هذه الانحرافات في نهاية القرن العشرين، حيث ابتكر الغرب مفهوم "العمل الإنساني"عندما دفع الانفصام الثقافيّ إلى حدّه الأقصى، ويَا لَهُ من اعتراف! فهل هذا التمجيد الظاهر للتعاون الإنسانوي سوى نشاط اجتماعي سياسي، يتجلّى خصوصا خارج دائرة أيّ عمل إنساني، وذلك في قطاعات بأسرها؟ وكما ذكر ذلك الأستاذ دوبان قائلا: " ٩٥ % من أوجه النشاط هي غير إنسانية و٥% منها إنسانية، ففي مجتمع بالغ التعقيد يعتمد " تقسيما للعمل" لا يطاق تآكل الحسّ الإنسانيّ من جميع أطرافه، وأصبح شأنًا من شؤون قلّة من المختصّين، أي بمثابة مثقال ذرة من مثالية في محيط الواقعية المترامي. كيف تجرّأ مثل هؤلاء " المتحضّرين على الرضى بمثل هذا الفتات الثقافي"؟ كثيرة هي الملاحظات المماثلة التي يمكن أن نسرد منها أضعافا مضاعفة، ومثال ذلك مجال "التواصل".

ذلك أنّ فكرة الثقافة نفسها تشمل يقينا فكرة التواصل، فلندقّق ذلك: عندما تكون الثقافة حيّة ولها روح يتحقّق التواصل بشكل من الأشكال من الداخل لا بفضل "اتصاليين" مختصّين. وفي رحم الحياة الاجتماعية وداخل الأنشطة اليوميّة تتشكّل "الرسائل" و"وسائل الاتصال" في آن، وأمّا اليوم فيبدو لنا أنّه من دواعي الأسف ومن علامات الغباء أن نوكل إلى تقنيي الاتصال مهمّة نشر أساطيرنا وقيمنا، إنّ مثل ذلك كمثل المسيح إذ يرسل حوارّييه للقيام بتدريبات في **معهد عال للاتصال**، بالرغم من ذلك لا يتردّد المدافعون عن الحداثة في جعل الاتّصال نشاطا مستقلاّ وهو- لعمري- مسعى غير شعريّ لا مزيَة فيه، وهو دليل قاطع على

أنّ ثقافتهم المزعومة في غاية التفكّك، فكيف أُتِيحَ لهم أن يروا في ذلك انتصارا للعقلنة؟ هل كانوا يعتقدون فعلا أنّ "علاقاتهم الاجتماعية" الشهيرة ستتوثّق بانتهاج مثل هذه المسالك البائسة؟

ولكنّ الغربيين قد صنعوا أفضل من ذلك عندما أحدثوا هيكلا جديدا من المختصّين أي المنشّطين، ونعني حرفيّا مِهَنيّين أُوكِلَتْ إليهم مهمّة بعث الروح في قطاعات مختلفة من المجتمع لا روح فيها، فقد لاحظنا على سبيل المثال أنّ بعض المؤسسات الجامعيّة تكوّن بشكل رسمي "نشطاء مختصين في المجال الاجتماعي الثقافي"، وهي تكنولوجيا مُبتكِرة دون شك؛ بما أنها تقدم نفسها باعتبارها تكنولوجيا الروح. كيف أُتِيحَ للسياسيين والتكنوقراط أن يبتكروا مثل هذه اللعبة؟

فـ"التنشيط" -وهو ليس أقلّ شأنا من "التواصل"- لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يكون نتاج فعل خارجي يقوم به تقنيّون مختصّون، إنّ أهل العصر الحديث لا يؤمنون بالروح أصلا. فكيف نفهم هذه المبادرة الخرقاء؟

ولقد أدرك بعض الملاحظين وجود مشكل أساسي يتمثل في أنّ الغربيين قد أفقروا العلاقات الاجتماعية إفقارا، وذلك عندما عقلنوا الأنشطة الإنسانية بشراسة، لقد قلّصوا فُرَص الحوار بشكل كبير عندما عمّموا استعمال الآلات (التوزيع الآلي والمراقبة الآلية وغيرها.)

فقد كتب دومينيك ولتن Diminique Wolton يقول: " إن الإفلاس في الكلام وفي العلاقات" كان واضحا جليّا في الحياة اليومية، وهو ما نجم عنه المشهد المُحزن التالي: بعد أن نزع أهل الحداثة صفة الإنسانية عن المجتمع بشكل منظّم، تخيّلوا أنهم قادرون على أنْسنته من جديد بمضاعفة "النشطاء".

فمنهم " نشطاء" الشوارع ويتمثل دورهم في مؤانسة المارّة، و"نشطاء" المحلات التجارية ودورهم طمْأنة العُمَلاء (...) في انتظار" نشطاء" المشاهد الطبيعية في الأرياف؛ لتعويض المزارعين الذين غادروها، و" نشطاء " المصانع لزيارة المواقع الصناعية القديمة، والمتاحف البيئيّة كما نسمّيها اليوم".

ولقد لاحظ ولتن عن صواب قائلا: "لماذا نعيد بناء علاقات اجتماعية مصطنعة، والحال أنّه من الممكن بكلّ بساطة أن لا نُلغيها؛ بسبب تعميم الأوتوماتيكية التي تقطع الروابط الاجتماعية كلّها وتعمّق الشعور بالوحدة"؟

ولكن كلامه هذا وَرَد متأخرا جدّا (نشر النص سنة ١٩٩٥) فقد كان المتحمّسون لـ"التقدّم" التقني والاقتصادي على أيّة حال على غاية من الوثوق من نفوذهم؛ بحيث لم يكونوا قادرين على إعادة النظر في معتقداتهم، وممّا لا شك فيه أنّ التفسّخ الثقافي قد تفاقم في الفترة الفاصلة بين ١٩٩٩ و٢٠٠٢.

كيف أتيح للغربيين أن يواصلوا الاعتقاد في تفوّق ما يسمّونه "الحضارة" في الوقت الذي تتهاوى فيه ثقافتهم وتتفتّتُ أشلاءً؟ لقد كانوا يتباهون بأنّهم حطّموا - بفضل العقل- جميع ضروب الشعوذة التي كان القدامى ضحيّة لها.

لقد انتبه فرنسيس باكون Francis Bacon -الذي كان الغرب يجلّه ويعدّه من روّاد الحداثة- إلى الفخّ عندما قال: " لفرط حرصنا على تجنّب الشعوذة العادية سقطنا أحيانا دون أن نشعر في نوع آخر من الشعوذة"، كان من مصلحة الغربيين أن يتدبّروا هذه الجملة المقتضبة.

كان باستطاعتهم بدءا أن يأخذوا مسافة بينهم وبين العقل، لِنذكّر بأن جمهورًا عريضا مازال يتصوّر في نهاية القرن العشرين أن لا صلة ألبتة بين العقل والأساطير والعقائد الدينية. ولقد بين كثير من الخبراء أنّه من الوهم إقامة تعارض بين

الأسطورة والعقل على نحو سطحيّ. فبينهما قرابة قريبة من حيث البنية وآلية الاشتغال، وكما ذكر ذلك جون فرانسوا ماتيي Jean-François Mattéi نجد "في أصناف العقلنة صدًى لأنماط التفكير الديني الضارب في القدم". ومن البيديهي أنّ أهل العصر الحديث يعتبرون ذلك أمرًا في غاية الاستهجان؛ إذ كانوا لا يرغبون في الاعتراف بأنّه يوجد "لا محالة في كلّ فكر عقلاني بُعْدٌ رمزيّ يبقي بعيدا عن الإدراك"، ورغم الجهود التي بذلها جهابذة العلماء فإنهم كانوا يفضّلون تجاهل حقيقة أنّ "العقلانيين" اليونان القدامى قد استلهموا في دراستهم للطبيعة تأويلاتٍ قدّمتْها الأساطير.

وحتّى أفلاطون العظيم نفسه لم يُتَحْ له أن يطوّر علم الفلك إلا بفضل تصوّرٍ للنظام الكوني دينيٍّ خالص، لقد كان يعتقد إجمالا أنّ إلها واحدا "عقلانيا" بطبيعته قد صنع العالم بطريقة "عقلانية" أيضا، وإذا كانت الأجرام السماوية تتحرك في السماء وفق قوانين رياضية بسيطة، فإنّ ذلك يعود إلى أنّ الإله قد أرادها أن تكون كذلك، فعِلم الفلك الذي يوسم بأنه "علميّ" كان إذن قد أسس على أسطورة؛ ذلك أن الاعتقاد بوجود **إله** كامل وأنّ هذا **الإله** قد صنع العالم وفق مبادئ هندسية مضبوطة، إنّما هو اعتقاد في أسطورة من الأساطير، وديكارت Descartes إمام الفكر عند الحداثيين لم ينْهج منهجا مغايرا لأفلاطون في إرساء عبادة **العقل**، والفرق الوحيد بينهما هو أنّ ديكارت قد اعتمد على الرواية المسيحيّة لأسطورة الإله. ويكفي الرجوع إلى النصوص لكي نستوثق من ذلك: **فالإله** عنده هو مصدر "العقلانية" الكونية والضامن لها في آن. فالاعتقاد في **الإله** والاعتقاد في **العقل** هو في نهاية الأمر شيء واحد.

ولم يتردّد مؤرّخو العلم الذين كانوا يتمتّعون بشيء من استقلالية التفكير في

الاعتراف بذلك، كتب كارل بوبر Karl Popper يقول سنة ١٩٦٢: " كانت معظم النظريات العلمية منحدرة من أساطير، فالنظام الكوبرنيكي له جذور في عبادة الأفلاطونيين الجُدد لنور الشمس، ذلك الكوكب الذي أهّله إشراقه لكي يتبوّأ موقعا مركزيا". ولقد ذكر إيميل دوركايم Emile Durkheim أهمّ ما في الأمر قبل ذلك بخمسين عامًا حين قال:" ليس التفكير العلمي سوى شكل أكمل من التفكير الديني"، أو قوله بالإضافة إلى ذلك: " إنّ المفاهيم الأساسية للمنطق العلمي ذات أصول دينية". فلو أنّ الغربيين أعاروا اهتماما لملاحظاته لكانوا أقلّ وُثوقيّة، وأقلّ ازدراء للأساطير، ولربّما كانوا أقدر على إلقاء نظرة نقديّة على ثقافتهم الخاصة.

والرأي عندنا أن هذه النقطة على غاية من الأهمّية، فأسطورة العقل لم توظّف لهدم أساطير الغربيين القدامى، وعقائدهم وأساطير المجتمعات الأخرى وعقائدها فحسب وإنّما أعمتهم عن رؤية حقيقة أنفسهم، ولمّا اعتبروا العقل على وجه التحديد سلطة عليا ومعيارا مفضلا صاروا عاجزين عن إدراك المدى الذي وصل إليه هذا العقل نفسه في التضييق عليهم وإفقارهم، إذ لم يدركوا أنّ "مناهجهم" و"استراتيجيّاتهم" أفضت بهم إلى مجتمع يبتعد عن إنسانيته أكثر فأكثر فحسب، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك بشجْبِهم الاحتجاجات التي تعارضهم باعتبارها "عاطفيّة". لقد كانوا يتصرّفون كما يتصرّف رجال الدين، وهم الذين يهزؤون بالكنائس. فقد عثرنا مثلا على وثيقة مُهمّة أعلنت بعد ذلك باسم "نداء هيدلبارغ Heidelberg لقد كان بمثابة نداء بابوي نشر عشيّة **قمّة الأرض**[١] التي نُظّمت بريو

---

(١) **مؤتمر الأمم المتحدة للتنمية المستدامة** أو ما يُعرف بمؤتمر ريو ٢٠ أو **قمة الأرض**، هو مؤتمر للأمم المتحدة عُقد في ريو دي جانيرو بالبرازيل من ١٣ إلى ٢٢ يونيو لعام ٢٠١٢، ويُعتبر المؤتمر الدولي الثالث للتنمية المستدامة الذي يهدف إلى التوفيق بين الأهداف البيئية للمجتمع العالمي. (المترجمان) =

دي جينيرو في يونيو ١٩٩٢. وقد وُجِّه هذا "النداء" الممهور بإمضاء اثنين وخمسين من الحائزين على جائزة نوبل، ومجموعة من رجال العلم إلى رؤساء الدول والحكومات، وتضمّن القولَ بأنّ النضال في سبيل الدفاع عن البيئة "مناهض للتطوّر العلمي والصناعي". فوجب إذن أن تكون العناية بالمحيط (بالمعنى السياسي للكلمة) خاضعة لمراقبة لصيقة من قِبل العلماء وإلاّ فإنّ هذه الإيديولوجيا اللاّعقلانية ستؤدّي إلى ما لا يُحْمد عقباه، وحتّى تكون هذه التدخّلات ممكنة وتُعَدّ مشروعة كان من البديهي أن تكون هذه المجتمعات التي تُدعى متطوّرة قد خالطها طويلًا شيء من التفكير الأسطوري؛ ولذلك قدّرنا أنّه من الجيّد أن نعكف على دراسة بعض "أشكال الشعوذة" الخاصة بالغرب الحديث ونخص بالذكر منها أسطورة **التقدّم**؛ إذ هي ذات أهمّية مضاعفة، فقد جسّدت من جهة وبصورة كاملة تقريبا مفهوم الأسطورة الخفية (هكذا كان يسمّي الأستاذ دوبان كلّ اعتقاد أسطوري غير مُعلَن ومتخفٍّ وراء مظاهر "عقلانية"). ومن جهة أخرى جعلتنا ندرك لماذا تُفْلت مثل هذه العقائد من كلّ نقد جدّي حتى وإن كانت نتائجها كارثيّة.

وغنيّ عن البيان أنّ عبادة التقدّم لم تكن في الخطاب الرسمي واجبا حتميّا، ولكن في عبارة تتردّد على الألسنة دائما تقول: " لا يمكن أن نقف ضدّ التقدّم". **والإنسان الغربي** الأصيل هو ذاك الذي يهتزّ طرَبًا لذكر التقدّم العلمي والتقني، ويلتذّ بالمستجدّات التجارية والصناعية كلّها، وتشتدّ لهفته عند الحديث عن

= وقد نظمت إدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية هذه القمة الكبرى التي استغرقت عشرة أيام، وبلغت ذروتها في مؤتمر الأمم المتحدة رفيع المستوى الذي استمر ثلاثة أيام، وشاركت فيه ١٩٢ دولة عضوًا في الأمم المتحدة وشارك فيه ٥٧ رئيس دولة و٣١ رئيسًا للحكومة وشركات القطاع الخاص ومنظمات غير حكومية.. (المترجمان)

وسيلة جديدة أو آلة جديدة أو أداة جديدة، ولكي تبقى **الدول** قويّة، وجب عليها أن تبتكر أسلحة أشدّ فتكًا، ولكي تفوز بقصب السبق في الإنتاج الكثير والربح الوفير وجَب على المؤسسات أن تضع لنفسها مناهج جديدة، وتصنع مُنتجات جديدة وتطوّر تقنيات جديدة وغيرها، ويتجلّى هاجس "التقدّم" في البحث عن التغيير وعن المستجدّ بلا كَلَل ولا مَلَل، فالجديد هو الأفضل بطبيعته، فللإشادة بمزايا نوع من الشمبو أو لترويج سائل للتنظيف كان يكفي أن يحمل علامة "جديد" السحريّة، ولقد صور الإعلان الموجّه - فيما صوّر- لهذا الغرض فتاة في ربيع العمر تقول: " أنا ممّن يدافع عن الجودة، أنا ممّن يدافع عن التقدّم"، فعندما أكّد صناعيون وتكنوقراط السمة "التقدّمية" لمثل هذه المبادرة أو لمثل ذاك المشروع أضحت معارضته في غاية الصعوبة. لقد استفادوا منذ البداية من الأحكام المسبقة، ووجب على معارضيهم (في أقصى الحالات) البرهنة على أنّ زَيْفِ هذا التطوّر وزَيْغِه، وهي - لعمري- مُهمّة في غاية التعقيد؛ ذلك أن الاعتراض على الرغبة الجامحة في التحديث والتجديد من شأنه أن يعرّض صاحبه للوصْم بـ"الماضويّة" و"الرجعيّة".

ويبدو أنّه من المرغوب بل من الضروري في أيّامنا هذه التفكير في العواقب التي يمكن أن تنجرّ عن المستحدثات التي تتعلّق بالشأن العام، ونظام العمل والحياة اليومية وغيرها. ويبدو لنا أيضا من وجهة نظر إنسانيّة أنّه من العبثيّ المَرضيّ البحث الآليّ عن الجديد من أجل الجديد، غير أنّ الأمور جرت على نحو آخر في نهاية القرن العشرين، إذ أضحت في الواقع كلمات من قبيل: جديد وتمدّن وتقدّم من المترادفات.

وكان الناس عموما قد نشؤوا على نحو يجعلهم يَقبَلون بسرعة متفاوتة كلّ

عـرض يمكـن أن يتبنّى **التقدّم** بطريقـة أو بأخرى، ولقد صيغت عبـارة جميلة جدّا لوصـف أولئـك الذيـن يرفضـون التقـدّم الأعمى، فهـم متّهمـون بـ"إيقـاف عجلة التغيير"، تبدو هذه الفكرة غير قابلة للتصديق ولكنّ الشهادات تؤكّدها.

لـم يشـعر المدافعون عن التقـدّم حتّى بالحاجة إلى بسـط الأسـئلة الجوهرية على أنفسهم كما لخّصها الأستاذ دوبان " أيّ نمط من الحياة نبني؟ وفي أيّ اتجاه نـروم توجيه العلاقات بيـن الأفراد أو بين الجماعات؟ وأيّ مكانـة أوْليْنا المغامرةَ والحياة الروحية والشعر؟ "

كثيـرون هـم الصحفيـون والمفكّـرون وعلماء الاجتمـاع "الحداثيـون" الذين كانوا يتسـاءلون بشـيء من الأسـى: كيف يمكن أن نجد بعدُ مواطنين على قدْر من التخلّف في زمن المفاعلات النووية والحواسيب والجراحة الجينيّة يجعلهم حجر عثرة أمام التغيير؟ وفي أقصى الحالات –كما ذكّر بذلك جون جاك سلمون Jean-Jacque Salomon – كان تلامـذة فرويد Freud يسـارعون إلى نجدة فكرة **التقدّم** وذلـك بإفهـام النـاس أنّ المواطنيـن غيـر الأسـوياء وحدهـم هـم الذين يَخشـون المسـتجدّات التقنيّـة بصـورة عامّـة والمفاعلات النوويّـة بصورة خاصّـة، وتتمثل مقاربتهم في سبْر أغوار الجهاز النفسي لمناهضي الحداثة لاكتشاف ما بداخله من " ارتـداد ورفض للأب وكبت أوديبي جنسـي يفسّـر إصرارهم علـى رفض التطوّر التقني"، إنّ هذه المعطيات تكشف لنا –ولو جزئيّا– كم كان من الصعب نقد **التقدّم** في القرن العشـرين، إذ كنّا نعرّض أنفسـنا منذ البداية لخطَر الوصْم بأننا "مكبوتون" أو بعبارة أخرى مرْضى.

أما الآخرون المتحمّسون لكلّ ما هو جديد فكان يُنظر إليهم على أنّهم أسوياء وأصحّاء، وفي مقدّمتهم الصناعيّون والتكنوقراط وأهل الإعلان ورجال السياسـة

أيضا، وإذا ما صدّقنا الصحافة في أواخر القرن العشرين فإن أحد هؤلاء أراد أن يروّج لأفكاره واصفا إيّاها بأنّها تحمل انفجارا كونيّا عظيما **(بيغ بانغ Big bang)**. كانت هذه التسمية المستعارة من مجال العلوم الكونيّة قادرة على إثارة صور تقدّمية نمطية، ومن ثمّ باعثة على السرور في نفوس عامّة الناس، ويبدو أنّ هذه العادات تنمّ اليوم عن شيء من السُّخف، إذ كيف أتيح للغرب أن يعتقد أنّ التقدّم يمكن أن يكون أساسا لثقافة أصيلة؟

فلْنُدقّق طبيعة المشكلة التي لفتت انتباه فريق بحثنا؛ حتى نتفادى شيئا من سوء التفاهم. لم يكن المقصود من ذلك أن نعترض على أمر أساسيّ مفاده أنّ الإنسانيّة قد أحرزت دوما "تقدّما"، لقد تطوّرت التقنيات منذ العصر الحجري، فحتّى المجتمعات التي تسمّى "بدائية" حسّنت وسائل إنتاجها.

وكان هناك تقدّم عبر القرون وإن كان بصورة متقطّعة، تجلّى في المجال التقني وكذلك بالضرورة في مجال السلوك والطباع، والرأي عندنا أنّ هذا أمر لا نقاش فيه. إنّ مناط اهتمامنا هو عبادة التقدّم، وبعبارة أخرى البحث المُعْلَن المبرمج المتواصل عن التطوّر وعن الجِدّة. كنّا نريد على وجه التخصيص أن نبسط سؤالًا حول ما آلت إليه هذه العبادة في أواخر القرن العشرين في المجتمعات "المتقدّمة"، ويبدو أن هناك عقيدتين أساسيتين نهَضَتا بدور كبير، تتمثّل الأولى في أنّه من الواجب على كلّ فكر عقلاني أن يمارس عبادة التقدّم، وتتمثّل الثانية في أنّ هذه الممارسة تقود حتما إلى السعادة بل إلى الفضيلة.

من أين أتى هذا المذهب الغريب؟ كيف تسنّى لأهل الحداثة أن يَرَوا فيه شيئا آخر غير أسطورة من نوع مخصوص؟ وفي أيّ ظروف واقعيّة تشكّلت هذه الأسطورة؟ سنلخّص - فيما سيأتي- من فصول مخصّصة للتاريخ الثقافي للغرب

بدايات الإجابة التي حاول فريق بحثنا أن يقدّمها لهذا السؤال الأخير. كان من الواضح على أيّة حال أنّ تقاليد ضاربةً في القدم، قد أسهمت في إبراز فكرة **التقدّم**، ولقد عدنا بذلك إلى أول من تغنّى بالتقدّم وكان أعظم تأثيرا: وهو ماري جان أنتوان دي كاريتا Marie Jean Antoine de caritatالماركيز كوندورسي Condorcet[1] الذي يرى أن " التطور غير المحدود للنوع البشري" هو نتاج " قانون عام للطبيعة"، وقد كان لمثل هذه العبارة نتائج مخيفة، فكيف لكائن متحضّر أن يسمح لنفسه بمخالفة قانون من قوانين الطبيعة؟ وباسم التقدّم تصير كلّ المُساومات مُمكنة، ويصبح كلّ متحفّظ إزاء المستحدثات التي يروّج لها الصناعيون والمهندسون والتكنوقراط والأطبّاء مُتّهَما بالرهبة من التقدم (النيوفوبيا) والظلامية؛ ذلك أنّ هيمنة التقدّم هي بالضرورة هيمنة للعقل، وقد دعا كوندورسي إلى هذه الهيمنة بحماس شديد في كتابه " خُطاطة لوحة تاريخية في تقدّم الفكر الإنساني" (١٧٩٣): "ستأتي إذن تلك اللحظة التي لا تشرق الشمس فيها إلا على رجال أحرار لا يعترفون بغير العقل إماما".

ولقد أدركنا سريعا أنّ هذه اللوحة التاريخية تمثّل وثيقة نادرة. وهو ما ذهب إليه الأستاذ دوبان من اعتبارها - كما يبدو- أفضلَ مختصر أُتيح لنا العثور عليه فيما يتعلّق بضروب الشعوذة الحديثة، كان كوندورسي بطريقته الخاصة معلّما كبيرا ومتنبّئا عظيما، إذ لم تَنْشُر اللوحة التاريخية عقائدَ وجَب أن يكشف **الانفجار**

---

(١) (١٧٤٣- ١٧٩٤) هو رياضيّ وفيلسوف فرنسي يُعتبر أحد أشهر دعاة الإصلاح التربوي في عصره. نهض بدور مهمّ في الثورة الفرنسية. لاحَقَهُ اليعاقبة عام ١٧٩٣ م فاختفى عن الأنظار لمدة تسعة أشهر، حتى إذا اعتقلوه تجرَّع السُّمَّ ومات. وقد قيل إن أفكاره ومنها دعم الليبرالية الاقتصادية والتعليم العام المجاني والمتساوي، والمساواة الاجتماعية بين الناس من جميع الأعراق تجسد مثاليات عصر التنوير والعقلانية التنويرية. (المترجمان)

الأكبر عن بُطْلانها فحسب، وإنّما عبّرت عن تأويل صارم **للتاريخ**، نجم عنه تعطيل لكلّ فكر نقديّ حول "**الحضارة**". سنقتصر في هذه المقدّمة على بعض الملاحظات.

إنّ أهمّ فكرة ينطوي عليها هذا الأثر هي أنّ الإنسانية تسير عموما من حالتها البدائية إلى حالات تنحو نحو الكمال شيئا فشيئا، وما يبعث على الابتهاج هو الفكرة المتولّدة عنها والتي مفادها أنّ غدَنا سيكون أجمل من يومنا، فما هو المحرّك الأساسي لهذا التقدّم المتواصل؟ إنها **الأنوار** أي العقل والعلم على وجه الخصوص، وقد أكّد كوندورسي في خطاب له في حفل استقبال **بالأكاديمية الفرنسية** أنّ "كل اكتشاف هو خدمة للإنسانية"، وهذا التأكيد يجعلنا اليوم في ذهول، كيف يحقّ لكوندورسي القول إنّ "كلّ اكتشاف" مهما كان ينفع الإنسانية؟

بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك، فبالدراسة العلمية للإنسان والمجتمع يمكننا أن ننشئ "فنّا اجتماعيا" يتيح لنُخبة مستنيرة قيادةَ الإنسانيّة نحو السعادة، وفي هذا الموضوع كان كوندورسي يتحدّث بلسان بليغ، إذ ستنشأ قريبا علوم ينصبّ اهتمامها على "الإنسان ذاته"، ويكون هدفها تحقيق "السعادة"، وهي في رأيه علوم "لا تقل رسوخا عن العلوم الفيزيائية".

وبذلك أرسي كوندورسي المبدأ الأساسي للتكنوقراطية، ولم يكن يتردّد في تقديم التطور الذي تشهده القوانين والمؤسّسات العامة، على أنّه نتيجة منطقية لـ"تطوّر هذه العلوم"، وكان استعمال الرياضيات ضامنا إضافيا: "إنّ تطبيق حساب التركيب والاحتمالات على هذه العلوم نفسها يبشّر بتقدّم على غاية من الأهمّية، يجعله في الآن نفسه الوسيلة الوحيدة التي تسبغ على نتائجها دقّة تكاد تكون رياضيّة، وتجعلنا راضين عن درجة يقينيّتها ومعقوليّتها"، وقد أعلن من قبلُ عن ضرب من ضروب الطغيان الثقافي الذي ظهر في أواخر القرن العشرين

وهـو طغيان رجـال الاقتصـاد المتميّزين والإداريين المحترفين والمختصين في الهندسة الاجتماعية والاستراتيجيين المختصين في التنظيم والمختصين في وضع البرامـج والخطـط وغيرها. تلك كانت فلسـفة **التقدم**، وهـي الاعتقاد بوجود "علم يتنبـأ بتقـدّم النـوع الإنسـاني فيوجّهـه ويعجّـل وَتِيرَتَـهُ". نفهـم من ذلك أنـه حريّ بالمسبّحين بحمـد الحداثـة، أن يتّخـذوا مـن كوندورسـي إماما لهم. ألَـم يكن له الفضـل فـي إحـداث قطيعة تامة مع الشـعر؟ وقـد قيل ذلك بكلّ وضـوح في نهاية المطاف: إن الإحسـاس والتفكير بطريقة شـعرية هو أمر أكل عليه الدّهر وشـرب، وكلّ رجـوع إلـى الماضـي خطـأ، وإذا كانت دراسـة المجتمعـات القديمة مجدية علميّا، فإنّ علينا أن نتخلّص من الماضي في المستوى الثقافي: " فأفكارنا الجاهزة ومـا حملتـه إلينا من ويلات، ألـم تكن منابعهـا الأولى أحكام أجدادنا المسـبقة"؟ ويجْدر بنا أن نلاحظ أن ازدراء " أخطاء القدامى" كان في صميم المذهب الحداثيّ ذاتـه، وكما ذكر الأسـتاذ دوبان فإنّ " الحداثيين رفضـوا رفضا قاطعا الاعتراف بأن ديانـة **التقـدم** كانت مدرسـة للاحتقـار"، كانوا يعتبـرون تحت وطأة أفيـون الوعود التقدّمية أنّه من العاديّ وصف القدامى بصفات بغيضة منفّرة دائما. وإذا ما صدّقنا كوندورسي فإنّ في المجتمعات القديمة فئتين لا ثالث لهما: المحتالون والبُلَهاء، فأمّـا المحتالـون فكانـوا علـى اختلافهـم مـن الكهَنـة والسـلاطين إذ يستوون في الخديعة والرذيلة، وقد عجزوا عن " تطوير فنّ خداع الناس لسلْب أموالهم"، وأما البُلْهُ فكانوا كتلة متجانسة غبيّة تمامًا ساذجةً كلّيًا، وحتّى اليونان القدامى لم يسْلموا من قسـوة هذا الوصف، وكان الحديث عن المسـيحيّة في القرون الوسطى مناسبة للإسـهاب في وصـف "تعصّـب الكُهّان وحرصهم على الاسـتحواذ على السـلطة السياسـية، وجَشَـعهم الفاضـح وفسـاد أخلاقهـم" وغير ذلـك. فكلّما أعدنـا قراءة كوندورسـي اعترانا شـعور بالحيرة. فإذا كان رجال العصور القديمة يعيشون على

هذا النحو من القذارة، وسط كلّ أشكال الشعوذة والفساد، ويرزحون تحت كلّ ألوان الاستبداد، فكيف لنا أن نتخيّل ظهور ذلك التقدّم المشهود؟

من حُسن الحظّ أن كوندورسي قد طَمْأن أتباعه عندما تحدّث عن "التطورات الطبيعية للحضارة"؛ فتفاؤله نابع من فكرة أنّ الحضارة (بالمفهوم الذي تبنّته أوروبا البورجوازيّة في القرن الثامن عشر) كانت بشكل من الأشكال مآلا حتميّا لمسار طبيعيّ، وهو مسار معقّد لا يخلو من انحرافات أحيانًا (ذلك أنّ كوندورسي كان أوّل من تحدّث عن وجود فترات انحطاط عديدة). ولقد أوْلى كاتبنا بشكل ملحوظ أهمّيةً بالغة للدور الذي نهضت به الأنشطة التجارية والصناعية التي أتاحت للعلوم والتقنيات كلّها انطلاقة جديدة بحكم ترابطهما الحتميّ، فكانت ثمرة ذلك تطورًا في إنتاج "الموادّ الاستهلاكية الأكثر استعمالا"، وعلى قدر تطور المعارف بفعل التطور الاقتصادي أصبحت الصناعة أنْجَع "بفضل نور العلم"، ومن السهل علينا أن نفهم الأسباب التي جعلت **اللوحة التاريخية** تفْتِن أهلَ الحداثة، لقد شرّع هذا الأثر الذي يمثل معْلَما حقيقيّا للاهوت علماني شرّع للممارسات التي تولّد عنها مجتمع الاستهلاك كلّه، وأسْبَغ عليها ضربا من القداسة. وبفضل مزْج ذكيّ تداخل تطوّر الاقتصاد البورجوازي، مع تطور العقل. لم يتردّد كوندورسي عندما تغنّى بما كان يسمّيه "الحضارة" في الحديث حينئذ (دون أن يثير ذلك ضحكه) عن " تفوّق أنوارنا ومحاسن تجارتنا". لقد أدّت **الطبيعة** دورها كأحسن ما يكون، لقد وجهت **التاريخ** نحو هدف أسمى لا مناص منه، ألا وهو انتصار رجل الأعمال المستنير.

هكذا إذن توفّرت الإجابة سلفًا عن سؤال طرحه في سنة ١٨٦٤ الشاعر فيدور دوستوفسكي Fédor Dostoïevski إذ قال: " كيف تناهى إلى علمكم أنّه من الممكن، بل من الواجب تغيير الكائن البشري"؟ ويُراد بتغيير الكائن البشري جعْلُه

متحضّرا (كان كوندورسي يعشق هذه الكلمة) ولا يعدّ هذا المشروع الحضاري حقّا من الحقوق فحسب، وإنما هو واجب يُمْليه **العقل**. كلّ ذلك يثير سخريتنا اليوم، ولكن طيلة قرنين من الزمان أخذت نُخَب **الغرب** كلامَ كوندورسي مأْخذَ الجدّ، ونتج عن ذلك -فيما نتج- أنّ الازدراء الذي يتحدّث عنه الأستاذ دوبان قد برز إلى العيان وازدادت حدّته في إطار تنظيريّ يبعث على الخوف، فالاعتراف بقانون التقدّم يعني إنشاء تراتُبيّة مطلقة، يحتلّ المتحضّر أعلى درجاتها، و"حالة التحضّر" في رأي كوندورسي هي تلك التي بلغها الفرنسيون والأمريكيون من أصل إنكليزي، ويضيف قائلا: "هل كان ينبغي أن تتقلّص شيئا فشيئا المسافة الهائلة التي تفصل هذه الشعوب عن عبوديّة الهنود وبربريّة الشعوب الإفريقيّة وجهل المتوحّشين"؟ كان ذلك الوجه الآخر للفلسفة التقدميّة: فلكي نخلص العبادة للحضارة المزعومة؛ وجب في الوقت نفسه أن نؤكّد دونية الثقافات الأخرى، فالهنود والأفارقة ومتوحّشون آخرون يشكّلون شعوبا بدائيّة، وبدايات حضارة منقوصة لم تبلغ ما وجب أن تكون عليه الأمم الراسخة في الحضارة.

ولقد وظّف كوندورسي هذا المعطى إلى أقصى الحدود فكان من البديهي - في رأيه- أن يُبْقِيَ حكماءُ الشرق الشُّعوبَ "في عبودية وطفولة أبدية لا أمل في الخروج منها". لقد أعلن إذن عن "سقوط سريع لديانات **الشرق** العظيمة" التي وصفها بصفات عديدة منها استعبادها لكَهَنتها، ولقد تبعه الحداثيّون بعد ذلك في مثل هذه التنبّؤات غيْرَ مَرّة، وكان التنبّؤ الذي صدَع به أرنست رينان Ernest Renan حول الإسلام أشدّها إثارة للسخرية، إذ كتب يقول: "سيضمحلّ الفكر الإسلامي بتأثير العلم الأوروبي، وسيوكل التاريخ إلى قرننا هذا مُهمّة طرح قضايا هذا الحدث العظيم، فعندما يأتي شباب **الشرق** إلى مدارس الغرب؛ لينهلوا من العلوم الأوروبية فإنّهم سيعودون ومعهم ما يلازم هذه العلوم ألا وهي المنهجية

العقلانيـة والعقـل التجريبـي والحس الواقعي واسـتحالة الاعتقاد فـي تقاليد دينية تكونت بداهة بعيدا عن كل نقد". وباختصار شديد لقد كان أنصار العقل والحداثة علـى قـدر من الغـرور لا يصدّق، وكانوا مع ذلـك لا يأبهون بكل مـا يتجاوز دائرة اهتمامهـم، فـلا غرابـة إذن في عدم فهمهم للمسـائل التي بسـطها الإسـلام عشـية **الانفجار الأكبر**. لنُشِرْ إلى أنّ الإثنولوجي الأمريكي لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan سـنة ١٨٧٧ قـد أعـاد صياغـة أفـكار كوندورسـي وحوّلهـا إلى مذهب، وبالاعتماد على تأمّلات مُستَلْهَمة من نظريّة النشوء والارتقاء جعل تطوّر الإنسـانية بمثابة مسـارٍ موحّدٍ وموجّه، فكان البشـر في البداية متوحّشين (أي بهائم تقريبا)، ثم أصبحوا برابرة بفضل جُرَيْعة من تقدّم، ثم صاروا بفضل مجهود حاسم جديرين حقّا بلقب رائع، هو لقب "المتحضّرين".

لقـد أصبحـت هذه الصورة شـائعة جدا، وكانـت بمثابة وصْفَـة واضحة تهَبُ الغربييـن شـعورًا عميقًا بالرضا. فألفاظ مثل الوحشـيّة والبربريّـة والحضارة كانت تُطْربهم، ولكن لماذا لـم ينتبه هؤلاء العقلانيّون المزعومون إلى الشَّـرَك؟ لقد أدّى بهم هاجس **التقدم** بهذه الصورة إلى ضرب من الانغلاق الروحي المدمّر، وبالفعل كان مذهب **التقدم** يقتضي من حيث المبدأ نفي كلّ الأساطير "البدائية" أو احتقارها، فالماضـي الثقافـي **للغـرب** نفسـه قد شُـطب بجرّة قلم، ولـم ندرك جيـدا إلاّ اليوم فظاعـة ذلك الاختيار، فكنوز الشـعر كلّها أو الحكمة التي اسـتطاع "المتوحشـون" و"البرابـرة" جمعهـا أُفنيـت دُفعـة واحـدة، أو جُرّدت مـن دلالتها الملموسـة، وفي أحسن الأحوال بقيت على قيد الحياة مثل "ذكريات الطفولة" أو التُّحف الأثرية.

والمرعب في ذلك كلّه -كما يقول الأستاذ دوبان- أنّ مذهب **التقدم** يقدّم هذا الضّرب من الإبادة الثقافيّة، كما لو كان ذا أساس عقلي أو كما لو كان ثابتًا علميًّا عبر

"قانـون عـام مـن قوانيـن الطبيعـة"، وهو ما يفسّـر الأهمّيـة التي أولاهـا فريق بحثنا لكوندورسي ومن لفّ لفه. فعندما تبنّى **الغرب** المذاهب التقدّمية حكم على نفسه بالعجز حتّى عن تصحيح أخطائه، ومهما كانت زلّات الحداثيين فإنّهم يسيرون في درب **التقدم** الضيّـق علـى غير هُدًى، طالبيـن دومًا مزيدًا من العلـم والتقنية والنموّ الاقتصادي، ومزيدًا من التكنوقراطية وغيرها. ومن الناحية النظريّة المجرّدة كان من المشـروع تصـوّر إمكانيـة إفـلات **الغرب** من هـذا المسـار الجهنّمـي، وأن يتفادى **الانفجار الأكبر**، ولكن يمكن القول بأنّ أفكار كوندورسي كانت أشدّ قوة.

فمـن أعظـم فضائـل التقدّم - في رأيـه- أن يهب الناسَ "السـعادةَ"، ولكن أيّ سـعادة تلك؟ ما دُمنا لا نسـتطيع في هذه التوطئة أن نقدّم للظاهرة تفسـيرا ضافيا، فلْنَكْتَفِ بالإشـارة إلى أنّ كوندورسـي كان يفضّل الحديث عن "المُتع" التي يهبها التقدّمُ الناسَ، ويصفها وصفًا سـطحيًا يعتمد الكمّ والنجاعة الاقتصادية أو التقنية، وفي كلمة كان يلوّح بفكرة واعدة مفادها أنّ السعادة كانت واقعا قابلا للقياس.

إنّ تطويـر النـوع البشـري يعني مثلا أن يعيش الناس عمـرا أطول إذ "يجب أن يأتـي علـى الناس حين من الدهر -كما كتب كوندورسـي- لا يكون فيه الموت إلا أثـرا لحـوادث خارقـة للعـادة، أو لانهيـار لقوى الحياة أبطـأ فأبطأ". حتْمـا لن ينال الإنسان الخُلْد، ولكن سيكون "متوسّط عمر الإنسان" قابلا لأن يمدّد على نحو لا حدّ له، ولقد وظّف كوندورسي ما لديه من موهبة في الرياضيات ليشرح بإسهاب مفهـوم الكميـة اللامحـدودة، والحقيقـة التي لا تقبل الشـك أنّ عمر الإنسـان من الناحيـة العلمية هو كمٌّ من هذا النوع؛ فاسـتحالت مشـكلة الموت إذن إلى مسـألة رياضيّـة تقنيّـة، أي كيف يمكـن تطبيق الطرائـق البيوطبّية التي تسـمح بتأخير أجل الموت إلى ما لا نهاية له؟

إننا بالتأكيد إزاء أحد النصوص المؤسّسة التي تعزّ على الأستاذ دوبان، وأحد الآثار الملهمة التي بفضلها يصوغ مجتمع من المجتمعات نمط عيش خاصّ به، ولو كُتب لكوندورسي أن يُبعث ليزور **أوروبا** في القرن العشرين؛ لكان سعيدا - دون شكّ- برؤية مدى وفاء تلامذته في الاقتداء به.

ذلك أنّ إحصائيّات القرن العشرين أكّدت فعلًا أنّ متوسط أمل الحياة قد زاد، ولا سيّما عند النساء. كان البيولوجيّون والأطبّاء والصحفيّون يبشرون باستمرار الجُموعَ بتقدّم مشهود. لقد بلغنا السبعين عامًا، فخمسة وسبعين عامًا، إلى ثمانين عامًا ثم عامًا إضافيًا ثمّ آخر...

وكلّما حُطِّم رقم قياسيّ كان الابتهاج: فَلْيحْيا التقدّم! ولذلك كان على باحثينا أن يلاحظوا في الوقت ذاته، أنّ المُسنّين كانوا مهمّشين أكثر فأكثر، منقطعين عن المجتمع أكثر فأكثر، منفصلين عن "الحياة الحقيقية"، وفي المدن خاصة، أي في الأماكن التي تزكو فيها كلّيا عبادة التقدّم كان الشيوخ والعجائز أكثر عرضة للإقصاء، داخل أماكن مخصّصة للموت البطيء، (أي مؤسسات مختصة يقضي "المسنّون" داخلها آخر أيامهم). لقد وجدنا صعوبة في فهم المعجزة التي تمكّن بفضلها **الغربيون** من الاحتفاء بالنصر، في مجال علم الشيخوخة ودأبهم على نفي المسنين بعيدا عن المجتمع في الوقت نفسه. فهل تمكّن كوندورسي بتعلّقه بنظرية الكمّ من أن يطوّر الثقافة فعلا؟

لقد استكشف بعض باحثينا هذا المسلك، واكتشفوا أن القاعدة الأساسية التي مفادها (أن لا تقدّم حقيقي إلا ذاك الذي يمكن قياسُه) كانت لها نتائج تثير الاستغراب؛ لأنّ الشيء الذي يمكن قِياسُه في **الغرب** المتهاوي هو المال أساسا.

لقد انتهى المطاف بأهل الحداثة شيئًا فشيئًا، وبصورة منطقية إلى الخلط بين

"السعادة" و"مستوى العيش"، ولْنُذكّر بأنّ هذا المفهوم يُعرّف بأنّه "جملة الممتلكات والخدمات التي يُتاح لشخص من الأشخاص أن يتمتّع بها"، فهو إذن قابل للقياس بكلّ يسر، ولكن ماذا يعني هذا المفهوم في المستوى الإنساني؟

تبدو لنا فكرة "مستوى العيش" في بعض الحالات ذات مدلول واضح: "ضمان العيش الكريم للجميع"، عبارة لا يعسر فهمها بالتأكيد. ولنذكر بصفة عابرة أنْ لو أوجب **الغرب** على نفسه تطبيق هذه العبارة في مدلولها الأخلاقي، لما حدث **الانفجار الأكبر**؛ غير أن فكرة مستوى العيش لم تكن تحيل فعليّا إلى مُثُل إنسانية، وإلى مشروع يُولِي قيَمًا مثل الأخوة والعدالة الاجتماعية أهمّية. كانت فكرة اقتصادية أساسًا، قائمةً على عقائد عادةً ما نصفها اليوم بالسذاجة. كان الغربيون يتخيّلون مثلا أنه إذا ضاعف شخص من الأشخاص ثلاث مرات مستوى عيشه، تضاعفت سعادته ثلاثا. نرى إذن ما يعنيه سباق السعادة من وجهة النظر الحديثة، فإذا كنت تملكت ثلاث سيارات عوضا عن واحدة، فأنت بذلك قد ضاعفت ثلاث مرات جُرْعتك من السعادة.

من البديهيّ أنّ مجتمع الاستهلاك كان يتوارى خلف نداءات كوندورسي الكبرى، فإلى أيّ نتيجة أخرى كان يمكن أن تُفضي عبادة التجارة والمُتَع المادية؟ ولكنّ كوندورسي لم يرَ شيئا من ذلك قد تحقّق، ولا شكّ في أنّ بعض النوايا السخيّة جعلته مُعجبا بخطابه الخاص حول" أهليّة الإنسان لبلوغ الكمال"، إلى حدّ أنّه تجرّأ على كتابة هذه الجملة التي يبدو لنا اليوم طابعها الهزليّ والتلقائيّ مأْسويّا: "ستنقشع الأحكام المسبقة في التجارة شيئا فشيئا". كان يروم القول إنّ الشركات التجاريّة ستبرهن دائما على حكمة وسماحة أكبر، ولقد كتب يقول:" ستفقد المصلحة التجارية المزعومة سلطتها المرعبة المتمثلة في سفك دماء الشعوب، وتخريب الأمم بحجّة العمل على تنمية ثرواتها"، والحقّ أنّ الهوَس التجاري قد

فشـا وتعاظم خطَرُه مُحدِثًا بذلك اختلالات في التوازن، تفاقمت حتّى انتهت إلى **الانفجار الأكبر.**

لقـد ظهرت العيوب الكبرى لهذا النظام الاجتماعي الاقتصادي مرارًا، فحتى الكتب المدرسية الأشدّ تداولا بين الناس تشير إلى هذا الموضوع باقتضاب شديد، ولكـن على نحو صريح. فليأذن لنـا القرّاء بذكر هذا التعريف المأخوذ من قاموس اقتصادي اجتماعي موجّه إلى الطلاب: "يمكن أن يعني مفهوم مجتمع الاستهلاك الوقـت الـذي يـوزّع فيـه مجتمع مـن المجتمعات على نطاق واسـع مـا يملكه من تجهيزات مستدامة (أجهزة التلفاز والسيارات والثلاجات ...) ولكنّه أيضا مجتمع يضاعف وسائل التحفيز على مزيد الاستهلاك وتقاس فيه علامات النجاح بحسب فخامة السيارة وعدد الأيام التي تقضى في الألعاب الشتوية... إذ يصبح الاستهلاك الهدف الأسـمى للحياة ولأنشـطة النظـام الاقتصادي، وتعدّ مظاهـر الحياة اليومية كلها فرصًا للاستهلاك، فالأطفال والجنس والصداقة تصير في ومضات الإعلان، مجرّد وسـائل لترويج البضائـع. ولْنلاحـظ أنّ مجتمع الاسـتهلاك لا يقصد به أن يسـتهلك الجميـع بكثرة، ولكـن يعني ازديادًا في السـلع وتعميمـا لرواجها. فنجد أنديـة للتعـارف تبيـع الصداقـة، ومنظّمات تجعـل من الـزواج مُنْتَجًا لشـركاتها... والتصرّفـات الشـخصية كلّها والمشـاعر كلّها تسـتحيل إلى سـلع للبيـع، فمجتمع الاستهلاك لا يفتح أبوابه بداهة إلاّ لمن هو قادر على دفع مقابل من أجل نيل مُتعه.

لقـد قرأنـا بوضوح: " أصبح الاسـتهلاك هو الهدف الأسـمى للحياة"، فكيف كان الغربيـون لا يعتريهـم شـيء مـن الريبـة ولا حتّى الخجل زمن السـقوط عندما كانوا يتأمّلون صورتهم في المرآة؟ لِمَ لَمْ يخجلوا بسبب الإقصاء الذي يقتضيه هذا المفهوم الفاحش للتقدّم؟ كثيرٌ هم النقاد الذين وضعوا النقاط على الحروف، فقد

أفضى الاستهلاك إلى مضاعفة الممارسات التي تتّسم بـ"إفراط الاستهلاك"، وإلى تبذير منظّم مُتعمَّد؛ من أجل ذلك كتب أندري كليمون ديكوفلي André-Clément Decouflé سنة ١٩٩١ يقول: إنّ الوسائل كلها كانت مباحة من ذلك " العسف" الإعلاني المنظّم المسلّط على الرّقاب: تحديد مدّة صلاحية المنتجات (أو التقادم المحسوب) فالمنتج المثالي من وجهة النظر التجارية (التسويق) هو ذاك الذي يُلقى به في سلّة المهملات بعد أول استعمال، ويُعتاض عنه مباشرة بمشترى جديد..".والإفراط في الاستهلاك يعني أن نعلن انتماءنا إلى" فئة المستهلكين ذوي الامتيازات أي المبذّرين". ويضيف الكاتب نفسه قائلا: "هناك مثال على هذا اللّون من الممارسات صار معتادًا، وهو يكتسي أهمية لما يحمله في طيّاته من عوامل هدْم يسعى إلى إخفائها في الوقت نفسه، نعني بذلك يُخوت الترفيه التي يمكن أن نراها بالمئات راسية في موانئ تحمل صفة الترفيه هي أيضا، لقد صُنعت هذه المراكب بأثمان باهظة قصد "استصلاح" الشريط الساحلي و"الاستصلاح" يعني في كل الحالات تقريبا تدميرا لهذا الشريط من أساسه، ونحن نعلم أنّ نسبة قليلة جدا من هذه المعدّات الباهظة الثمن تستعمل فعلا في الغرض الذي صُنعت من أجله، ألا وهو الإبحار الممتع، أما معظمها فلا يبرح مكانه، فهو رابض هناك لغاية "الاستعراض" ليشهد على تميّز من يملكه".

كثيرةٌ حقّا هي المستحدثات التي لا تمثّل إلاّ تقدّما وهميّا، لقد استحدثت قبل كلّ شيء لتنمية ثروات أصحاب الشركات والتجار ولم تحمل أيّ معنى إنسانيّ يُذكر، فإذا تجاوزت حدّا معيّنا لم تعْدُ أن تكون ذرّا للرّماد على العيون. لقد بيّن ذلك الشاعر ميشال كوليتشي Michel Colucci بامتياز حينما حلّل جملة إعلانية نموذجيّة مفادها أن "مادّة من مواد التنظيف تحمل اسما معينا تحدث بياضا أشدّ من البياض نفسه"، لقد لاحظ أنّ هذه العبارة تحمل في طيّاتها مشكلا مفهوميّا بالغ

التعقيد؛ إذ كيف لنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من البياض؛ لكي ندرك "ما هو أشدّ بياضًا من البياض" ؟ ففي مجتمع يدّعي العقلانية ينطوي هذا الشعار على مغالطة. فإذا ما أعدنا إلى البياض كلّ ما وجب أن يكون أبيض فقد قلنا ما لا مزيد عليه. تنضاف إلى هذه المسائل مسائل أخرى تتعلّق بتلوّث المحيط وتبديد الموارد الطبيعية والطاقة، ومع ذلك لا حدود لمكْر التجّار، إذ سرعان ما التفّوا على القضايا "البيئية"، وبمجرّد أن تظهر مادّة للتنظيف أو مبيد للحشرات، أو بخّاخ أو آلة من الآلات ترسل في الهواء أو في الماء أو في التربة سمّا وتلويثا أقلّ يُهرْول الشعب الذي يقال إنّه متمدّن إلى شرائها، وبفضل ذلك يساهم بصورة فعلية في حماية الطبيعة، فلا شيء أكثر تخلّقا ولا أكثر تحضّرا من ذلك، فقد صار الاستهلاك عملا صالحًا بأتمّ معنى الكلمة.

كان الوضع المتفاقم - كما ذكرنا- محلّ استنكار في الغالب، لقد ساق أندري كليمون ديكوفلي مع نقاد آخرين هذه الملاحظة قائلا : " ليفْنَ العالم في سبيل أن تستمرّ السيارات في السير، وأن يُقتل الأحياء وتُبتر أعضاؤُهم وهي في طريقها، فالمهمّ كما نعلم أن كلّ حادث سير "ينمّي" الناتج الوطني الخام بحساب دقيق (قابل للقياس!) للأضرار التي يُحْدثها والتي تكون قابلة للتعويض وللمصاريف التي تُنفَق لجبْرها". أيْ نَعَمْ بهذه الطريقة يفكّر المحاسبون والاقتصاديّون في أنّ الحوادث والحرائق والزلازل والفيضانات تؤدي إلى نفقات لها تأثير إيجابي في نموّ الناتج الوطني الخام، وتبعا لذلك إذن كلّما تحقّق "نموّ" كان الاقتصاد مزدهرا! حتّى الخبراء تجدهم مندهشين أحيانا لما يرونه من حماقات في الإحصائيات، أو في التقارير ذات الطابع الإنساني التي تتعلق بهذه الكوارث. لقد كان رينو فيي الحكيم Renaud Vié مصيبًا عندما استشهد بفولتير Voltaire الذي وصف سنة ١٧٥٦ الزلزال الذي ضرب لشبونة بقوله: "كلّ شيء على أحسن ما يرام، فأهل

الميراث زادت ثروتهم، والبنّاؤون سيحصلون على المال لِقاءَ إعادة بناء المنازل، والبهائم ستجد طعامها في الجثث المدفونة تحت الأنقاض (...) فالشرّ الذي أصابك لا قيمة له، إنك تساهمين في "المصلحة العامّة ".

فالاقتصاد الحديث كان شيئا جميلا حقّا، وبمثل هذه الأفكار أمكن للتكنوقراط ورجال السياسة أن يذهبوا بعيدًا في صلَفهم، لقد بلغ بهم الأمر أن قرّروا إزاء بعض الأخطار إهمالا متعمّدًا لآليات الوقاية من الكوارث، لقد أخطؤوا من زاوية نظر شعريّة، ولكنهم كانوا من منظور اقتصادي على صواب، فتكاليف الوقاية تكون باهظة مقارنة بالتعويضات المتوقَّعة.

وإذا أشرنا إلى هذا النوع من المجتمعات فإننا نتحدّث عن "مجتمع التراكم" لكن أندري كليمان ديكوفلي André-Clément Decouflé تساءل: " كيف لا نرى إلا رُكام الهدم؟ من المؤكّد أن هذا الرُّكام يتوارى وراء تيار البضائع الجارف؛ وبسبب آخر لا يقل أهمية هو إقصاء مناهضي هذا التيار، ولكن إلى متى هذا الإقصاء"؟

ولقد لاحظنا إذن مرّة أخرى أنّ بعض المراقبين في أواخر القرن العشرين قد حاولوا تحذير معاصريهم، لكن **الغربيين** بقوا مخلصين لكوندورسي، فقد قال إنّ التقدّم سيحمل إليهم السعادة بلا ريب، ورغم كثرة دعوات التكذيب لم يضعف إيمانهم بهذه الأقوال، والأمر الذي ربما يعسر على فهمنا إلى حدّ الآن هو استمرار تشبّثهم بوهْم كوندورسي الآخر، وهو القول بأنّ التقدّم لا يفضي إلى الحقيقة وإلى السعادة فحسب، وإنما إلى الفضيلة أيضا.

لقد فسّر **الغربيون** بطريقة منطقية هذه الرسالة، وبما أنّ فحواها أن عبادة **التقدّم** كافية لوحدها لجعل الناس "أهل فضيلة" فلا داعي إلى عناء نقل القِيَم: ولماذا نلقّن

الشباب مبادئ أكل عليها الدهر وشرب، وقواعد قد دخلت في طيّ النسيان؟ ورغم ذلك فإنّ كثيرا من الحالات تقتضي حدّا أدنى من "الحس الحضاري" فماذا عسانا نفعل؟ لقد اكتشفنا أنّ الحداثيّين عندما أرادوا إيجاد حلول لمشكلات تربويّة ملموسة، لجؤوا إلى تقنيات في الإقناع غريبة، ففي التسعينات من القرن العشرين مثلا عرف **الضمان الاجتماعي** مثلا فترات صعبة جدا، فقد تضخّمت النفقات كثيرًا، وأضحت إدارة هذه المؤسسة الكبرى مهمّة في غاية التعقيد. كيف السبيل إلى جعل المواطنين أكثر إحساسا بالمسؤولية؟ لقد قرّر التكنوقراط بكلّ بساطة تمرير وإعادة تمرير ومضة إعلانية على الشاشة الصغيرة هذا نصّها: " الضمان الاجتماعي شيء جميل ولكن الإفراط فيه قبيح"، ولكي يكون هذا التكوين الأخلاقي أَنْجَعَ فقد صاحب هذه الرسالة إيقاع يجاري الموضة (موسيقى الراب). أكان الخطاب موجّها إلى أشخاص؟ أم كان موجّها فقط إلى مستعملين وإلى مستهلكين؟ وإذا تدبّرنا هذا الأمر مليًّا حصل لدينا انطباع بأنّ هذا الأسلوب التعليمي يترجم عن احتقار للإنسان، فأن نسيء استعمال الضمان الاجتماعي "شيء قبيح"! عبارة تضمنت معجمًا شبابيًا[1] يؤمِّن الحداثة الثقافية للمؤسسة، ويمكننا أن نتخيل كيف أعدّ مسؤولون حكوميون وعلماء اجتماع وعلماء نفس ورجال إعلانات ومختصّون في التواصل بمشقّة هذا الكتيّب التحفة في الأخلاق التقدّمية؟ كيف أمكن لهؤلاء أن يسخَروا من أشكال الشعوذة القديمة؟ وكيف تمّ إذن تكوين الموظّفين القادرين على القيام بمثل هذه المبادرات؟

ربما أمكن للعقل أن يجد فيها مكانه، لكن هل كان "للفضيلة" دور فيها؟ في

(١) « ça craint » (في الفرنسية الأدبية تعني الخشية وفي الدارجة الفرنسية وخاصة بين الشباب تفيد القبح). (المترجمان)

هذه الوضعية كما في كثير من الوضعيات الأخرى يوجد إحساس حادّ بغياب ثقافة أصيلـة، فعوضًا عن تمتين "الروابـط الاجتماعية"، كان التقدم يعمل على تفكيكها، وحرمـان عدد متزايد من الغربيين مـن موازين روحية. وإدمان المخدّرات يبدو لنا مرّة أخرى خير مثال على ذلك.

صفـوة القـول أنّ السـلطات كانت عاجـزة عن صياغـة مقاربة ثقافيـة للوضع السـائد. فبعضهـا لا يتحـدّث إلا عـن القمْـع، وبعضها الآخر يفضـل الحديث عن التحرير، ولكنّنا نرى جيّدا عند تدبّر هذه المسـألة أنّ هؤلاء وأولئك كانوا عاجزين عـن حـلّ القضايـا الجوهريـة. ذلك أن القمـع كان أعمى لا جدوى منـه، ولم يكن التحريـر وحـده يمثـل حلّا، فالشـيء الذي وضع حدّا "لمآسـي المخـدّرات" ليس المتاجرة الحرّة بالحشيش والهِروين، وإنما هو ظهور مجتمع أقل برودة وأقلّ شرّا وأقلّ إحباطًا، أي باختصار مجتمع يتيح للناس أن يَحْيوا فيه حياة شعرية وروحية. فهِم بعض الغربيين ذلك وعبّروا عنه؛ إنّ اسـتفحال ظاهرة المخدّرات في النصف الثانـي مـن القـرن العشـرين كمـا لاحـظ أوليفيـي جويـار Olivier Juillard ظهر بالتـوازي مـع " الكفر بالمجتمع" العقلاني "والمصنّـع والتجاري"، وكان الممثّلون الرسـميّون لذلـك المجتمـع عاجزيـن عن الوصـول إلـى الإدراك التـام للرهانات المطروحـة عليهـم، ففي الإطار الذي حدّدتـه "العقلانية" و"الواقعيـة" الحديثة كان المشكل العام للمخدّرات بكلّ بساطة غير قابل للتفكير فيه.

ومـع ذلك وُجِد شـكل من أشـكال الإدمان كان الغرب يعتبـره عاديًا جدًّا، ألا وهو اسـتهلاك الحبوب المهدّئة، ومن أجـل تعيينه تحدّث أوليفيي جويارOlivier Juilliard عـن إدمـان "بـارد" أو إدمان صيدلانـي، وقد عرّفه بأنّه " شـكل مقنّن من الإدمـان تحـت رقابة الأطباء وعنايتهـم". وما كان يميّز هذا الإدمـان أنّه لا ترافقه "

نشـوة (واللفظ المسـتعمل لديهم في هذا السياق ليس "نشوة" بل "تحسّن") حقيقية ولا تـرقّ روحـي ولا شـعري ولا دينـي". هـل كان أهـل الحداثـة يدركـون أن هذا الالتجاء إلى المخدّرات -وإن كان "باردا"- ذو مدلول روحي؟ وفق صُحُف تلك الفترة كان ١١% من الفرنسـيين يتعاطون المهدّئات منذ ما يزيد على السـتّة أشهر. ألـم يكـن ذلـك علامة على قلـق ثقافي عميـق؟ فتعاطـي المخـدّرات - كما يقول فرويـد- مردّه إلى الهروب من العالـم الخارجي "واللجوء إلى عالم خاص بالنفس يوفر أفضل الظروف للأحاسـيس"، وإذا كان ذلك كذلك فهل بإمكاننا أن نعتقد أن الإدمـان الصيدلانـي كان يمثـل حـلّا جيّـدا للمشـكل الوجـودي المطـروح؟ مـن المؤسـف حقـا أنّ الغربيين لـم يتفطّنوا - بسـبب انغلاقهم داخل طـبّ الأعصاب والطـب النفسـي وعلـم الصيدلـة- إلى هـذا الأمر، وإنّمـا كانوا من خلال مشـكل المخدّرات (وحتى الباردة منها) يترجمون عن فشل حضارتهم وبؤسها.

كان من الصعب عليهم من باب أولى إدراك كلّ المظاهر الرمزية التي تضمّنها الإدمـان "السـاخن". كتـب أوليفيـي جويـار Olivier Juilliard يقـول: "لقد ارتبط بصورة عامة تعاطي الحبوب المضادة للهلوسـة منذ سـنة ١٩٦٠ بصحوة أخلاقية ودينية وحتى صوفية بدت منقطعة النظير"، ولكن أهل الحداثة صمّوا آذانهم تماما عن مثل هذا الخطاب، وعِوَض أن يتعلّموا من ذلك ويستفيدوا؛ ابتغاء تقييم الوضع على نحو أفضل، وجدوا فيه فرصَة إضافية للنقمة، فالمدمنون لـم يكونوا في نظرهم مجـرد متعاطين للمخـدرات وإنما كانوا متصوّفة... ومن المؤكّد أيضا أن الغربيين آثـروا -ومـا ذلك بغريـب- الاعتقاد في نتائـج **التقدم** الثقافية المعجـزة. إنّ ظاهرة "المخـدّرات" تمثّـل -مـع ذلك- هي أيضا إحـدى النُّذُر، فمن خـلال "تيّار تعاطي المخدّرات" -حسب عبارة أوليفيي جويار- يتجلّى احتجاج قويّ مناهض للحداثة

"وقيمها العقلانية والإنتاجَويّة[١] العاجزة عن إقامة علاقات مجتمعيّة حقيقية، وعن تعزيز التنمية الشخصية لكلّ فرد".

ولن نفرغ من تعداد أوجه الانحراف التي كان كوندورسي قد هيّأ لها الظروف الملائمة عندما نشر فكرة أساسية مفادها أنّ التقدم يجعل الناس أشدّ "تحلّيًا بالفضائل". ونحن نرى جيّدا (إذا شئنا القول) ميزة مثل هذه العقيدة: إنّها تعفي المتحضّرين من كلّ تفكير في نمط حياتهم، وفي العادات الجديدة التي كانوا بصدد إنشائها عن قصد أو عن غير قصد. لماذا تأخروا في الإجابة عن الأسئلة التي كانوا يعتبرونها من الماضي؟ وقد كان من الأيسر عليهم يقينًا أن يسلّموا للتطور التلقائي للأنشطة التي عرفت بأنّها أكثر "تقدّمية" مهمَّةَ حملها، أي التطور العلمي والصناعي، ومع ذلك فحتّى في نهاية القرن العشرين ظلّت بقايا من القيم المسيحيّة أو الإنسانية على قيْد الحياة، أي بعض من مظاهر الإحسان أو العمل الخيري، فقد حدث أن تشكّلت أمزجة فريدة، وخطابات هجينة تمزج بين عناصر حديثة وأخرى ضاربة في القدم على نحو لا يبرز للعيان، لقد لفت الأستاذ دوبان اهتمامنا مثلا إلى موضوع لقي نجاحا في أواخر القرن العشرين وهو موضوع الوعي الكوني، وفي تقديره أنّ دراسة هذه الأنواع من الشعارات يمكن أن تحيط أفضل من غيرها بما في هذه الاعتقادات والممارسات التقدّميّة من أوهام.

ولأول وهْلة أظهر لنا تمجيدُ "الوعي الكوني" مصادرةَ كوندورسي المتعلّقة

---

(١) الإنتاجوية (productivisme) هي ربط الإنتاجية (productivité) بالتنمية (développement) وجعلها غاية قصوى، هي سعي حثيث لا يعرف حدًّا للإنتاج المفرط. ليست مجرّد عرَض من أعراضِ الصّناعية (industrialisme) باعتبارها نظاما يرى في الصناعة الغاية الأسمى التي يتوق إليها الإنسان في المجتمع، بل تساهم في تبيّن بُعدها الجوهري الذي كان وما يزال غير منفصل عن الرأسمالية. (المترجمان)

بالتقـدم والفضيلـة بكامل الدقّة، فمثل هذه المقولـة تحملنا فعلا على الاعتقاد بأن تقدّم **الاتصال والإعلام** سيمكن الناس الجُدُد من توسيع أفق أكبر للوعي لديهم، والارتقـاء إلى مستوى أخلاقـي رفيع؛ فبفضل اكتشـافات العلمـاء وبفضل التقدّم التقنـي الذي أمكن تحقيقه جماعيًا، وتخزين المعلومات وبثّها يمكن للمجتمع أن يتنظم بصورة عقلانية (وفق اصطلاحات كوندورسـي الخاصة)، بل يسـتطيع فوق ذلك أن يبلغ قيم "الإنسانية والخير والعدل".

ومـن البديهـي أنّ النخـب فـي أواخـر القرن العشـرين كانت تمتنع عـن تأكيد الدلالـة الأخلاقيـة لهـذا المفهـوم بصـورة واضحـة؛ ذلـك أن لفظًـا مثـل (أخلاق وأخلاقية وأخلاقوية وغيرها) يثير بطريقة مباشـرة للغاية الشعوذة الدينية بأشكالها المختلفـة، وأمّـا كوندورسـي فما يـزال قادرًا علـى الحديث بحرية عـن "الأخلاق الحسنة لدى الإنسان"، وفي سنوات التسعينات فرضت مخاوفُ كبيرة نفسَها على الواقع، ولكنّ الفكرة الأساسية بقيت راسخة ومفادها أنّ بإمكان الناس أن يتطوّروا علـى الوجـه الأكمـل فـي جميـع المسـتويات، وهـم الذين سُـخّرت لهـم الأقمار الصناعية للاتصال و"الطرق السـريعة للمعلومات"، وبنوك المعطيات وكثرةٌ كاثرة مـن آليّـات التواصل عن بعد. هكذا تكون أطروحة كوندورسـي قـد ثبتت صحّتها وهي القائلة: "إن الطبيعة تربط الحقيقة والسعادة والفضيلة برباط لا ينفصم".

هـل تـمّ التأكّد من صلاحية هـذا الاعتقاد عمليًا؟ هل أصبح الإنسـان الجديد بصيـرًا بالعالـم كلّـه، علـى غـرار أرغـوس بانوبتـاس Argos Panoptès[1] في

---

(١) **آرجوس أو آرجوس بانوبتس** (باليونانية: ἌργοςΠανόπτης) وفق الأسطورة الإغريقية هو عملاق ذو عيون كثيرة تنتشر في رأسه وسائر جسده، قيل أنها ١٠٠ عين. ووفق الأسطورة فقد كلّفت الإلهة هيرا Hera آرجوس بحراسة آيو IO وذلك بعد أن حّولها =

الأسـطورة؟ وإذا كان الأمـر كذلـك فهـل ارتقت به رؤية كلّ شـيء فـي العالـم إلى درجة الكمال؟ الحقّ أن آلاف الكاميرات في أواخر القرن العشرين كانت منصوبة فـي كل أنحـاء العالـم، وكانت ملايين الصور تسـترعي اهتمـام كل متحضر، ولكن هل كان لهذه العين الساهرة على العالم والتي لا يغمض لها جفْن النتائج الإيجابية التي كان أنصار التقدّم قد بشّـروا بها؟ كان لابدّ من تسـجيل بعض المفارقات على الأقـل، وكمـا لاحـظ ذلك مختلـف الملاحظيـن النقاد فـإن المواطنيـن "العارفين بأسـرار الكون" كانوا يجدون في معظم الأوقات صعوبة في التواصل مع محيطهم الأقرب، ومثلما قال عنهم الأستاذ دوبان ساخرا: لقد فضّلوا النظر بعيدا إلى الحدّ الـذي نسـوا فيه من يجاورهم، وكانت هـذه الحالة المرَضية تتجلّـى في المدن في أشـكال شـتّى، وكان من الشائع أن المقيم في عمارة من العمارات الكبيرة لا يكلّم ألبتّـة جيرانـه فـي الطابق نفسـه، وفـي نهاية القرن العشـرين لـم يكن مـن النادر أن نكتشف أنّ شخصا مسنّا قد مات في شقّته منذ بضعة أسابيع أو بضعة أشهر.

وفـي الوقـت ذاته كان جيرانه يطوّرون وعيهم الكوني أمام شاشـة تلفزيونهم، فلـم يفلـت من اهتمامهـم أي طوفان وأي كارثـة من أيّ حجم مهما بعُدت الشـقّة بينهـم وبينها. لقـد وضعوا إصبعهم -إذا جاز التعبير- علـى بؤس الأحياء الفقيرة، وكوّنـوا فكـرة واضحة عن أشـدّ المجاعات شـناعة، ولـم تغِب عنهم حـربٌ أهلية واحـدة، ولا إبادة جماعية واحدة، لقد تحمّلوا بشـجاعة صـورا لا يمكن احتمالها (احتجـاز رهائـن وقتل واغتصاب وغير ذلك)، وكانوا لحسـن حظّهم قد شـاهدوا

= عشيقها زيوس Zeus إلى عجلة؛ ولذلك فقد قام آرجوس بحراسة آيو وإبقائها مقيدةً في شجرة زيتون مقدسة، بعيداً عن زيوس. وبأمرٍ من زيوس قام هيرميز Hermes بقتل آرجوس، فقامت هيرا بتكريم حارسها المخلص عبر حفظ عيونه إلى الأبد في ذيل طاووس. (المترجمان)

أحيانا على المباشر بعض عمليّات القصف الجميلة، وشرعوا بمساعدة من الصحفيين (أرباب الفكر الجدد) في التفكير العميق حول موازين القوّة، وحول الحقّ في العالم، وممّا لا يمكن إنكاره أنّ الاهتمامات الكونيّة كانت قويّة جدّا في تلك الفترة. لقد كان البحث عن المعلومة واجبًا بل واجبًا بطوليًا رغم أنهم لم ينبسوا عنه بكلمة، ويحدث أن يكون المواطن -وهو بصدد تناول عشائه أمام صندوق الصور العجيب- هدفا للصّدمات الإخبارية المتكرّرة: تسونامي قاتل عند تناوله المقبلات، واكتشاف مجزرة جماعية عند تناوله الطبق الرئيسي، وتقرير عن دعارة الأطفال عند تناول المُحَلِّيات، ولكن هل كان لتطور الوعي الكوني الخارق للعادة هذا نتائج حاسمة؟

كان يمكن أن نتوقع مثلا أن تفعل الدول الأشدّ تحضّرا (والأعظم ثراء بالضرورة) كلّ ما بوسعها لتقليص الهوة الفاصلة بينها وبين الدول الأفقر، ولكنّنا اكتشفنا أنّ ذلك لم يكن كذلك. وحسب الإحصائيات الرسمية للبنك العالمي لسنة ١٩٩٢ فإنّ متوسط الدخل عند سكان سويسرا (وهي البلاد الأغنى في العالم) قد ارتفع بـ ٥,٧ في المئة، ولكن خلال هذه المدّة انخفض متوسّط دخل كلّ ساكن في الموزمبيق (أفقر بلد في العالم) إلى ٢٥ بالمائة، وفي الوقت ذاته كان أكثر من مليار شخص يعيشون تحت ما يسميه الخبراء "عتبة الفقر المُدْقع" (دولار في اليوم). فما فائدة الإحصائيات إذن؟ كيف يمكن أن نصدّق أن هذا السيل من المعلومات قد غذّى مشاعر "التضامن" العالمي وفضائل سياسية أخرى كانوا يتشدّقون بها؟

ودرْءا لكلّ سوء فهم فإنّ فريق بحثنا لم يفترض قطّ أن المتحضّرين باعتبارهم أفرادًا قد صاروا أقل طيّبةً وأقل كرمًا، فقد جادوا بما عندهم بمناسبة التظاهرة

التلفزيونية السنوية التي تشجّع على التحابب بين الناس كافة، ولكن بدا لنا أنّ هذا السعي الكبير ومبادرات أخرى من هذا النوع نفسه لم تكن على وجه التدقيق في مستوى "التحسينات" التي وعد بها كوندورسي. فالأخلاق - التي تكاد تكون منعدمة- لم تتقدّم بشكل مشهود كالعلم والتقنية والتجارة، والأمر الذي حيّرنا هو كيف استطاع " النزَهاء من الناس" في التسعينات أن يتصرّفوا جماعيًا كما لو لم يكونوا حقًا على وعي بالمآسي الكونية الشهيرة التي يشاهدونها كل يوم؟ هناك الكثير من التفاصيل التي تُرْبِكنا، فبعد عرض مثير للشفقة لأطفال أفارقة جياع، مرّر التلفزيون لقْطة إعلانية تمدح جودة بعض الأطعمة المخصّصة للحيوانات الأهليّة (مثل الطعام المعلّب ميعَوْ- ميعَوْ) المصنوع من قطع اللحم المختارة المزوّد بالفيتامينات اللذيذ الطعم)، أو تظهر على الشاشة كذلك شابّة جميلة رشيقة تهْمِس بمزايا لبن الزبادي المخفّف أوغيرها من المنتجات "ذات السعرات الحرارية المنخفضة".

والظاهر أنّه رغم الاستنكار الذي كان يعبّر عنه من حين إلى آخر بعض المحرّرين فإن تلك العادات لم تُعتبر مؤذية ولا حتى غير لائقة، ماذا يعني "الوعي الكوني" إذن؟ فهل كان رجال التقدّم يعيشون فعلا على الكوكب نفسه الذي يعيش عليه الجياع والبؤساء؟

ولْنَعترف بأن مشكلة العلاقات **شمال-جنوب** (كما كانوا يسمّونها) كانت في غاية التعقيد وأن مجرّد "صدقات" بسيطة لم تكن قط كافية لحلّها، ولكن في نهاية الأمر نادرًا ما كان "**الشمال**"" يضيع فرصة لاستغلال موارد "الجنوب" كائنا ما كانت، والأسوأ من ذلك أنّه يشكو من هذه العلّة الاقتصادية التي يطلق عليها الخبراء اسم الإفراط في الإنتاج، ويعرّفونها تقليديا على هذا النحو:" الإفراط في

الإنتاج يعني وضعية لا تجد فيها البضائع المعروضة مشترين قادرين على سداد ثمنها"، وسواء أكان ذلك خارج المجتمعات المتقدّمة أم داخلها، فإنّ النتيجة كانت إذن هي نفسها، فالمجموعات البشرية الأشدّ فقرا وغير القادرة على السّداد قد أُقْصِيت من عالم التقدم.

فإذا ما نظرنا إلى الأمر بتروٍّ بدا لنا المشهد غريبًا، فقد كان لدى الغرب زمن سقوطه فائض من اللبن والزبدة والقمح والخمور والغلال واللحم، وقد كان المنتجون والتكنوقراط يعمدون لأتفه الأسباب وتحت ذرائع متنوّعة إلى إتلاف كمّيات هائلة من الطعام أو إفسادها، وفي الوقت نفسه كانت ملايين كثيرة من البشر تعاني قسوة الجوع. فأيّ معنى للخطابات الرسمية الخيّرة أمام الحاجات الملحّة لإغاثة المعذّبين في الأرض؟ لقد كانت المساعدات التي تُحمَل إليهم ضئيلة جدّا لا تتعدّى حدود ما ينبغي لحفظ صورة الظهور بمظهر إنساني.

لقد أدرك بعض رجال السياسة حجْم المعضلة وسجّلوا بأنّ البلدان "المتقدّمة" كانت تولي أهمّية أكبر لتطوير قدراتها العسكرية من التضامن (مع الشعوب الفقيرة)، ذاك ما صرّح به الألماني ويللي برندت Willy Brandt بقوله: "لقد بلغت الفاتورة العسكرية السنوية في الوقت الحالي ما يقرب من إجمالي ٤٥٠ مليار دولار، بينما تمثّل المعونة الرسمية للدول النامية نسبة تقلّ عن ٥%من ذلك الرقم"، ومع ذلك ظلّ الغرب في مجمله أصمّ لا يعقل، وبدلا من أن يزول اختلال التوازنات العالمية صار أكثر حدّة، وأصبحت التوتّرات تبعث على القلق أكثر فأكثر. وبات من الممكن ملاحظة ظواهر مماثلة في عقر دار الأمم الغربية، وازدادت الهوّة بين أفضل الأجور وأدناها، وفعلًا لا أحد يشكّ في أن الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرًا.

أين مكمن الداء؟ إذا ما صدقنا الأستاذ دوبان فعلينا أن نأخذ على محمل الجدّ فرَضيّة مفادها أنّ الغربيين قد فقدوا الإحساس بمعنى الأشياء، أو ينبغي على أيّ حال أن نفهم أن مفهوم الواقع قد طرأ عليه تحوّل جذري حتّى صار مزدوجا: "لقد ذهب خليط من المعلومات بعقول أهل الحداثة كعاصفة هوجاء فتشتّت رُؤاهم كألوان المِشْكال[1] وفقدوا الصلة بالحياة، فمن ناحية كان هناك عالمهم الصغير الذي ترسم ملامحه حاجاتهم الأشدّ إلحاحا (كالمال والاستهلاك والرفاه والأمن وغير ذلك)، ومن ناحية أخرى هناك العالم المجرّد والمثالي (وهو عالم الأفكار) وعنوانه واقعية كاذبة يصوغها التلفزيون". وقد بسّط الأستاذ دوبان الوضعية بعض الشيء وكان منسجما مع ذاته، وأقلّ ما يقال أنه قد ساعدنا على أن نفهم لماذا ظلّت أسطورة "الوعي الكوني" المتخفّية عقيمة جدّا؛ إذ لم يكن الأمر متعلّقا ببساطة بالأخلاق والسياسة فحسب، وإنّما بالثقافة، وكان الإفلاس في هذا المجال واضحًا جليًّا، وهو ما أتاح لبعض النقّاد بيانه بصورة كانت لاذعة أحيانا.

لقد ركزوا بادئ ذي بدء على الفكرة البسيطة المهمّة في آن واحد القائلة -خلافًا لما كان يظنّه عدد من **الغربيين** في أواخر القرن العشرين- بأن التلفزيون لم يكن مرآة موضوعية، لا سيّما أنّه ما كان بالإمكان توفّر مرآة واحدة، لقد كان صانعو الصور والبلاغات أيّا كانت درجة نزاهتهم وسِعَة قدرتهم مُجبَرين على الانتقاء، كأن يختاروا لقْطة دون أخرى، وأن يمرّوا مرّ الكرام على حدث من أجل حدث آخر. لنُدْرِكْ جيّدا أنّ موضع الداء لا يكمن في مجرّد غياب "الحياد" لدى رجال الصحافة أو لدى الإعلاميين الآخرين، فقد كان بعضهم يُغْرِق في تعاليق

---

(١) مشكال (**kaléidoscope**) هو أنبوب مرايا يحتوى خرز وحصى ملوّن وغيرها من الأشياء الملوّنة الصغيرة. ينظر المشاهد من أحد الأطراف ويدخل الضوء من الطرف الآخر منعكساً على المرايا. (المترجمان)

مُغْرضة ويجنح إلى أساليب في حشو العقول ينْدى لها الجبين، وكان المشاهدون يجدون أنفسهم مجبرين على تصديق الأباطيل وإن عظمت. والأهمّ من ذلك أنّ فكرة المعلومة الموضوعية نفسها كانت وهمية، وإذا كان الشعراء والأنبياء يعلمون أنهم يغيّرون الواقع أو يعيدون إبداعه بطريقتهم، فإنّ كثيرا من أهل الحداثة يعتقدون بكلّ سذاجة أنهم يستطيعون الإفلات من وجوب تأويل "الوقائع" ومن إضفاء المعنى عليها بإدراجها في إطار "أسطوري".

من ثمّ يتأتّى أوّل الإخفاقات إذ بسبب فقدانهم بُنًى أسطوريةً ثريّة، عجزوا عن أن يتخذوا لهم مرْفأً (باعتبارهم كائنات بشرية وباعتبارهم فاعلين في حركة التاريخ متحمّلين مسؤولية فعلهم) في خضمّ ما يغمرهم من معلومات جزئية لا تحصى كثرةً. قليلٌ هم الحداثيون الذين يؤمنون إيمانًا راسخًا بأنّ العديد من الصور التي يعتبرونها "واقعية" كانت تعكس على وجه الخصوص استيهامات المجتمعات المتقدّمة وهواجسها، فـ"الواقع" الذي يعتقدون أنّهم يشاهدونه كان بكلّ بساطة واقعا قد تمّ تحليله وإعادة بنائه؛ استجابة لحاجات الغرب وملاءمةً للأنماط الذهنيّة التي تميّز فكره، وهذا ما يفسّر على سبيل المثال لا الحصر الترتيب المثير للاستغراب الذي تعتمده بعض نشرات الأنباء في التلفزيون في تصنيف "الأخبار" الذي يُفضَّل بموجبه الإعلان مثلا عن موت أحد السائقين في منافسة سباق السيارات، ثمّ في مقام ثان أو ثالث خبر مذبحة تعدّ ٣٠٠٠٠٠ نفس بشرية في بلد من بلدان العالم الثالث.

والحقّ أنّ الصحفيين قد يعودون طيلة أسابيع مديدة إلى الخوض في مثل هذا الموضوع السياسي عندما يكون موضة من الموضات ولكن قد يصابون بفقدان الذاكرة المبكّر.

كانت المبررات غاية في الإتقان إذا ما تعلّق الأمر بحذف خبر من الأخبار أو إهمال آخر، ولم يكن "الوعي الكوني" على أية حال يحظى في الواقع بالشمول والموضوعية اللذين ظلّت الشائعات السائدة تضفيهما عليه.

ولكن لِنَعُدْ إلى المشكل الأخطر دون شكّ والذي كان يشغل فكر الأستاذ دوبان وملخّصه في السؤال التالي: ألا تعكّر آليات اشتغال المشهد التلفزي في حدّ ذاتها "معنى الواقع" في أذهان أهل الحداثة؟ كان معظم الغربيين في تلك الفترة يقضون الساعات الطوال كلّ يوم أمام شاشة تلفزيونهم، وكان يتوفّر في بيوت البعض منهم تلفزيونان أو ثلاثة، فلم تكن أذهانهم تعجّ بالصور فحسب وإنّما كانت تلك الصور متنوّعة جدّا، فمنها الخيال العلمي والبحوث المتعلّقة بالمخدّرات والبطالة والمنوّعات والرياضات والألعاب والحوارات السياسية والاقتصادية "والواقع الحيّ" والأفلام البوليسية والأفلام العاطفية وأفلام الحرب والأخبار العامة وتبسيط العلوم والتسكّع الذي تخالطه الدعارة ومحاورة النجوم والإعلان والخطابات الانتخابية والحصص الأدبية وحكايات الأسفار والحفلات وأعياد الميلاد وإحياء الذكريات والصور المتحرّكة وأحوال الطقس وحركة المرور والمسلسلات ومؤشرات البورصات والتظاهرات وأعمال الشّغَب التي تُبثّ على المباشر والمسرحيّات والحِصص الطبية والبركات البابوية ورهان سباق الخيل وغيرها. وفوق ذلك كان تغيير القنوات ممارسة مألوفة، فكان المشاهدون يقفزون من محطة تلفزيونية إلى أخرى قفزًا محمومًا فتطلّ عليهم من ثمّ أخلاطُ صور يتبلّد لها الذهن، فتصبح أشدّ الفظاعات تأثيرا في النفس وأشدّها مرارة في غمرة ذلك المدّ المسعور منفصلة عن الواقع الحي الذي تنقله، ومفرَغة من مدلولها التاريخي. فكيف كان يمكن لأهل الحداثة أن يعتصموا بعُروة الفصل (الذي يفترض أن يعزّ عليهم كثيرا) بين الواقع وغير الواقع وبين المتخيّل والمعيش؟

إنّ هؤلاء الذين يزعمون أنهم واقعيون قد انتهى بهم المطاف إلى خلط كلّ شيء، والعيش في عالمين لم يوفّقوا في الوصل بينهما عمليًا، لقد ارتدّ وجودهم إلى ذهاب وإياب بين "مجتمع المشاهدة" و"مجتمع الاستهلاك". إنّهم يحْيَون الحياة المادية في أبشع صورها صباحًا فيجمعون الأموال والبضائع؛ حتى إذا جنّ الليل انغمسوا في عالم التجريد. أكان يمكن أن يكون لديهم فراغ في القيم الإنسانية أعمق من ذلك العالَم وأكبر، عالَم لا مَيْز فيه بين الكوارث الحقيقية وكوارث الأفلام، وبين العنف الحيّ والعنف المتخيّل، وبين البؤس الحقيقي والبؤس المزيّف؟ فتستوي في تلك الشاشات الشهيرة سيول الدم المزيّف التي تباع بأثمان زهيدة وحمّامات الدم المسفوح (والمخرج الماهر كان فعلا يعرف كيف يجعل الموت المصطنع أكثر "واقعية" وأكثر استدرارا للعاطفة من الموت الحقيقي. ومرّة أخرى بدا لنا أنّ الغربيين قد فقدوا الصلة بكلّ معنى للشعر، وبينما كان الشعراء يرومون زرْع الحُلْم في عمق الواقع اليومي، وفي قلب الحياة الحقيقية نفسها اكتفى صانعو "المشاهد" بخليط من الثقافة المزيّفة، أضيفت إلى عالم البنوك والمصانع والمساحات التجارية الكبرى.

كان من الطبيعي أن يتصدّى أنصار الحداثة بصرامة لبعض "الماضويين" الذين كانوا يتجاسرون على إدانة ذلك النمط من العيش المدمّر للمجتمع، ولقد كان تصفّح الجرائد التي صدرت في تلك الفترة كفيلًا بإخبارنا عن حقيقة تلك الأمور، ففي التسعينات لم تكن عناوين من قبيل " أطفال يخرّبون مدرسة" و"كما في التلفزيون" أمرًا نادرًا، والكهول هم أيضا قد انتهى بهم المطاف إلى حالة من الضياع بين تاريخهم الحيّ، والقصص التي يرونها على شاشة التلفزيون، فكان ينظر إلى كثير من أبطال المسلسلات وبطلاتها على أنّهم أكثر "واقعية" من الناس الحقيقيين، وبالفعل ولكي تبدو شخصية ما "واقعية" تمامًا، كان يتوجّب عليها أن

تحظى بمصادقة التلفزيون (فأضحى "الظهور في التلفزيون" طقسا لا بدّ منه)، فأحدثت نقلات تنطوي على مفارقات كبيرة، كأن تبدو لكثير من الفرنسيين العرائس المتحرّكة التي تحاكي في برامج المنوّعات بعض رجال السياسة أكثر واقعية بكثير من نماذجهم الحية. وكما قال الأستاذ دوبان: " لقد سقط الغربيون في نوع من الحُبسة الروحية؛ بسبب الانفصام والانبتات الناجمين عمّا أصابهم من حُمّى التلصّص التلفزيوني الشامل، إذ لم يعد الإنسان الحديث سنة ٢٠٠٠ سوى عين ناظرة ونظر مجرّد، فكان كلّ ما يربطه بالعالم مصالحه المالية والاقتصادية، وحاجاته إلى الاستهلاك المادي الخالص. أمّا ما عدا ذلك فقد تحوّل إلى ألعاب ظلّ وإلى مشاهد تلفزية (تبعد الآخرين وتنأى بهم أكثر فأكثر)".

وبعبارة أخرى لقد صار التحقّق الوجودي للإنسان الحديث بما هو إنسان أكثر فأكثر ارتيابًا، فلم يكن أهل الحداثة يعيشون حقّا في حُلْم، وإنّما كانوا على وشك فقدان الصلة بعالم الإنسان، لقد تدرّجوا إلى ما يشبه الأشباح. كان بعض الشعراء قد بشّروا بتلك الاستحالة واستبقوها بالإحالة على رموز قويّة جدّا، ففي كتاب الإنسان غير المرئي (١٨٩٧) على سبيل المثال وصف هربرت جورج والز Herbert George Wells الملامح النهائية التي سيسفر عنها تحوّل الإنسان الحديث، وإذا كان للبطل غريفان Griffin ما أراد في النفاذ إلى كلّ شيء؛ بفضل خاصيته اللامرئية فقد سُلبت منه القدرة على الاستمتاع بأيّ شيء، وذلك ما قاله هو نفسه، إذ لم يكن سوى "صورة كاريكاتورية للإنسان"، وقد شرح والز ذلك حينما قال: " إنه قد انقطع عن بني جلدته".

إننا كلّما تقدّمنا في بحوثنا أدركنا أنّ المشكلة ثقافية بالدرجة الأولى، فحالات التراجع الاجتماعي والسياسي كانت قبل كلّ شيء تعبيرا عن ظاهرة من الانبتات

عن الواقع، وسباق التقدّم الذي استمرّ بسرعة لا تطاق ضمن عقلية نفعية قد أفضى إلى تدهور الأُطُر المرجعية اللازمة لبناء علاقات إنسانية حقيقية، بل إلى تدميرها، وقد خَلُص أحد الخبراء اليابانيين إلى القول بوضوح سنة ١٩٩٣: "يمكن أن نقول لقد نشأ جيل لم يعد يميّز بين الخيال والواقع"، لقد أصاب إذن الأستاذ دوبان حين ذكر بأنّ الواقع كان قابلا للانصهار في التقدّم بصورة عامة، وفيما يقدّم على شاشات التلفاز على وجه الخصوص. ثمّة جملة من الوقائع البسيطة التي تؤكّد ذلك، وفي معرض حديثه عن بعض "الشبكات" قام الخبير الياباني ذاته على سبيل المثال بتعليق مهمّ يقول فيه: "قلّما يعطي مستعملو وسائل التواصل عن بعد أسماءهم الحقيقية، إنّهم يستخدمزن أسماء مستعارة[1] فتتمّ المحاورة إذن مع شخص يمكننا تخيّل بعض من ملامح شخصيته، ولكنّنا نجهل سنّه وجنسه ووضعه الاجتماعي، وزيادة على ذلك يمكن للمستعمل أن يغيّر جنسه ويحاول أن يتّخذ لنفسه ذاتا أخرى مغايرة". كان ينبغي أن نملك كثيرا من التفاؤل بلا شكّ كي يرسخ الإيمان لدينا بأنّ تلك الممارسات التي تسلب الشخصية ستقود إلى تحقيق مجتمع أفضل، ولا يتّسع المجال هنا لنتوسّع فيما سمّي بـ"الواقع الافتراضي"، لِنَكْتَفِ بالإشارة فقط إلى أن التقنيات الغربية قد وضعت في أواخر الثمانينات من القرن العشرين آليات قادرة على خلق صور لـ"واقع مزيّف"، فيمكن مثلا للمرء بفضل ما تتيحه الخوذة السمعية البصرية أن يتجوّل في شقّة خيالية كما لو كان في شقّة حقيقية، فإذا رفع رأسه تراءى له السقف وإذا خفضه رأى الأرضية، وكان يستطيع أن يعبر الأبواب ليكتشف تباعًا المطبخ والغرف والحجرة الرئيسية.

---

(١) طبعا كان ذلك في زمن المؤلف في التسعينات من القرن الماضي. أمّا في زمننا هذا فقد تعدّدت شبكات التواصل الاجتماعي وصار الكثير من مستخدميها يظهرون بأسمائهم الصريحة وصورهم الحقيقية. (المترجمان)

ويترافق ذلك كلّه مع إحساس بصري مطابق تماما لذلك الذي كان يمكن أن يشعر به خلال زيارة "حقيقية". إنّ ما جعل هذه المعجزة الصغيرة ممكنة هو الاستخدام الذكيّ لتقنيات عديدة (كالصور التوليفية والصور المقلّدة والروبوتية والآلية الرقمية لتفاعل الآلة مع الإنسان وغيرها). كان الحداثيون بذلك قادرين على "إعادة إنتاج" بعض الأشياء وبعض المباني أو المناظر التي وُجدت من قبل، وكانوا يستطيعون على وجه الخصوص أن "يصنعوا" كما يحلو لهم عددا لا متناهيا من العوالم الافتراضية التي تستجيب لحاجاتهم أو لرغباتهم الأكثر تنوّعا، ولم يكن العسكريون والصناعيون بداهة من المتأخّرين في استخدام هذه القوّة المذهلة، والجدير بالذكر أنّ فريق بحثنا قد اهتمّ بالخصوص بما ينجرّ عن ذلك في مجال العلاقات بين الأفراد.

وسرعان ما تولّدت فعلا فكرة لدى أهل الحداثة تقول باللجوء إلى العوالم الافتراضية، وإلى كلّ موارد السيبرنيطيقا[1] ابتغاء تغيير حياتهم اليومية وحياتهم الجنسية على وجه الخصوص. فأنجزت منذ سنة ١٩٩٤ عدّت اختبارات واعدة، وازدهرت بعد ذلك أشكال عديدة من الإثارة الجنسية فيما يسمّى "ثقافة السيبرنيتيقا"، وكان أيسرها أن يباشر الرجل المرأة عن بعد؛ ومن أجل ذلك كان كلّ منهما يرتدي لباس الإثارة الذي وصفه الخبراء بقولهم إنه ما يشبه البِزّة العسكرية المدجّجة بأدوات كهربائية؛ للوصل والهزّ والجسّ والتقاط المؤثرات الحسية ذات الذبذبات المدلّكة، وتلك التي تعطي الإحساس بالحرارة وغيرها.

---

(١) السيبرنيطيقا أو السيبرانية (بالإنجليزية Cybernetics) هي علم القيادة أو التحكم في الأحياء والآلات ودراسة آليات التواصل في كل منهما. يُسمى أيضا: "علم التحكّم الآلي" ويُعرّف بأنه الدراسة العلمية للتحكم في الآلات والمخلوقات ووسائل التواصل بينها. (المترجمان)

و"تغطي" هذه المعدّات بداهة المناطق الحسّاسة المثيرة للشهوة في الجسم، أي النهود والأذرع والسيقان والأرداف والشرَج والأعضاء التناسلية، ويتيح عدد لا يحصى من الأسلاك الكهربائية للـ"شريكين" إثارة أحدهما للآخر بفضل شحنات تتراوح بين ٣,٥ فولط و٤٩ فولط. ويمكننا أن نفهم دون عناء أساس ذلك كلّه: إنّها دغدغة عن بُعْد ومداعبة عن بُعْد وزغزغة عن بعد (إلخ) تهدف إلى الاستمتاع عن بُعْد على نمط تكنولوجي متطوّر. ولكن منذ التجارب العملية الأولى الجادة تمّ إغناء ذلك الأسلوب الذي بدا عاديًا جدًّا على النحو التالي: يتعهّد كلّ من "المحبّين عن بعد" بعدم إرسال صورته الحقيقية إلى الآخر، وبأن يرسل عِوَضا عنها صورة مركّبة يصنعها لنفسه من خلال أعضاء بُرمِجت مسبقا (كالرأس والصدر والأرداف وغيرها)، وخلال استمتاعهما لم يكن أحدهما يرى الآخر كما هو، وإنّما يراه من خلال صفات جسدية مستعارة. أكان ذلك تطويرا فعليا كما كان كوندورسي يقول؟ فلو ألقينا السمع إلى المهندسين والتجار الذين يصفون هذه الشبكة من المعدّات السيبرنيتيقية ويسوّقونها لكانت الإجابة بنعم، ولكن بعد التروّي شدّ انتباهنا بالخصوص محْو الشخصية المتزايد الذي تفرضه تلك المستحدثات، ولم تكن تلك سوى بداية.

ولم يتوقّف الأمر بعد ذلك عند ترك المينيتال[1] الوردي (الذي يسلب

---

(١) **مينيتال** هي خدمة على الخط يمكن الولوج إليها عبر خطوط الهاتف. وتعتبر هذه الخدمة من أنجح الخدمات على الخط التي سبقت الواب. أطلقتها في فرنسا عام ١٩٨٢ شركة الاتصالات والبريد الفرنسية (Poste, Téléphone et Télécommunications). مكّنت هذه الخدمة مستخدميها من تنفيذ عمليات الشراء وحجوزات القطارات والاطّلاع على أسهم البورصة والبحث في دليل الهاتف والدردشة بطريقة مشابهة للدردشة التي تتمّ الآن عبر الإنترنت. (المترجمان)

الشخص خصوصيته فينتبه إلى زيفه في النهاية) مكانَه "للعوالم الافتراضية"، ولا عند صنع المختبرات المتطوّرة لذكور وفروج اصطناعية ذات فاعلية قصوى (ترافق استعمال الخوذة السمعية البصرية)، ولا عند ترويج ناشري الأقراص المضغوطة "لبرامج تفاعلية في الإثارة الجنسية"، وإنما صار الجنس السيبرنيتيقي حاضرا في كلّ مكان وفي كلّ ساعة وتعدّدت أشكاله، وبفضل "الطرق الرقمية السريعة" والمعدّات الإلكترونية الجديدة لتنبيه الحواس؛ وبفضل البرمجيات الجديدة طالعنا كمّ يفوق كلّ تصوّر من الجماعات الافتراضية التي انتظمت في "شبكات". فكيف لنا أن نصف مجتمع التقدّم بأفضل من هذا؟ لم يكن العالم الحديث سوى جماعة ظاهرية، وهي جماعة غير حقيقية مكوّنة من أشخاص مزيّفين. ولكن تجدر الإشارة إلى ما هو أفضل من ذلك ونعني الإثارة الجنسية الذاتية.

فمنذ ١٩٩٣ بذل فعلا عدد من الأمريكيين " قصارى جهدهم في تحويل الجماع التقليدي إلى محاكاة خالصة له"، وهو خطوة حاسمة بفضلها ستزدهر أخيرا كما قال أحد الصحفيين الألمان " اللذة الجنسية الانطوائية الخالية من الشريك"، فالحداثي الحقيقي لم يعد في حاجة إلى الآخر الذي أصبح يمثل عقبة. كانت تلك معجزات الإلكترونيك، فالكائنات البشرية التي كستها البدلات والقفازات الحسية وفتَنَتها الأصوات التوليفية تستطيع من ثمّ الانقطاع التامّ عن الواقع كما كان يفهمه القدامى، وتستطيع على وجه الخصوص الاستغناء عن كلّ علاقة عاطفية وجنسية مع الآخرين. ولقد علّق الأستاذ دوبان على ذلك الابتكار تعليقا يليق به حيث قال: "وأخيرا ها نحن أصبحنا متوحّدين!" ولكن أكان ذلك حقّا نصرا للإنسانية؟ لقد ذهب ا.س. كلارك A.C.Clarke وهو أحد كتاب الخيال العلمي بعيدا إلى حدّ التنبّؤ حين كتب يقول: "لن يكون للجنس الذي نمارسه اليوم

وجود في ظرف سبعين عاما". إنه لَخَطأ جسيم فلم تمض عشر سنوات حتّى حدث **الانفجار الأكبر**. أيُعْقَل أن لا يدرك **الغربيون** المخاطر التي كانت تتربّص بهم؟ لقد فهم - والحقّ يقال- عدد قليل منهم أن نجاح الجنس الإلكتروني يوشك أن تكون له نتائج كارثية على المدى الطويل: "هل ستنقرض البشرية الغارقة في نعيم تأمّل الذات الذي تحفزه آلات تصنع الواقع الافتراضي بسبب انعدام الإنجاب؟" ولكنّ الخطر الأكبر كان من نوع آخر، فتلك الممارسات الجديدة أحالت الناس إلى أفراد معزولين تبدّدت شخصيتهم وتفرّق جمْعُهم، وخلافًا لما يعتقده أنصار التقدّم لم يكن الاعتراض أو الممانعة التي كانت تقف أمام مكْننة الجنس على سبيل الاحتشام المتصنّع، أو تلقين الدروس والمواعظ، فالمشكل الأساسي يكمن في معرفة ما إذا كان ممكنًا بعْدُ تصوّر تفاعل جسدي وعاطفي وشعري بين الخلان والخليلات؟ ولقد تساءل ماكس فيبرMax Weber في أوائل القرن العشرين عمّا إذا كان التطوّر الحضاري قد أعلن عن "نهاية الإنسان". ولقد تحدّث بعد قليل عن "الجمود الميكانيكي" وتوقّع أن ينتهي المطاف **بالغرب** الحديث إلى الانحصار في " قفص من فولاذ". ماذا عساه يقول لو شهد ظهور آلات ممارسة الجنس؟

إنّ نجاح هذه الآلات فاق حدود التوقّع، وقد اخترعت عبارات إعلانية في غاية المهارة من قبل باعثي الجنس السيبرنيتيقي، كانوا يعدّدون باستمرار مزايا "الحاسوب الجنسي المشخّص"، ولا ندري اليوم هل ينبغي أن نضحك منه أم نرْثي له. أفكان استخدام ذكر أو فرج إلكتروني إنجازا كبيرا في اتجاه شخْصنة الفرد؟ لقد كان من المؤسف إهمالُ الحداثيين مظاهرَ التشخيص المُنجزة هنا وهناك، وقد رأينا أن ظاهرة التوحّد التي كانت تميز العادات الجنسية الجديدة قد أُعْلِنَت بوضوح. كان ذلك إذن ذُهانا خطيرا تجلّى من خلال الإثارة الجنسية الميكانيكية، إنه الفصام، والمصاب بالفصام هو من فقد الصلة بالواقع وشكا

تفكّكا في وظائفه الذهنية. والحقّ أننا لم نكن في حاجة إلى استدعاء هذا المعجم المصطلحي لقياس حجم الأضرار، فأنّى لنا أن نفخر بإنسانياتنا عندما نكون منقطعين عن العالم وعن الآخرين؟

ولكن التقدّميين ظلّوا في ضلالهم يعْمَهون، لقد تابعوا اللُّهاث وراء "المُتَع" الغالية على قلب كوندورسي وأتباعه، لقد استمرّوا في السبْرَنَة المنهجية للجنس. لم يتفطنوا حتى إلى أن مصيرهم كان إلى حدّ ما لا يقلّ سوءا عن مصير "المدمنين" سيئي الذكر. ذلك أنّ التيّار الذي كان يجرفهم إذا قُدّر له أن يبلغ نهايته سيسلبهم إنسانيتهم حقّا، ومن حسن الطالع أن **الانفجار الأكبر** وإن كان عنيفا أليما قد وضع حدّا لمسار هدْم الذات هذا.

لا شكّ في أنّ القارئ سيدرك أنّه من السهل التمادي في عرض قائمة ما كان يسمّيه بول فاليري بـ"حماقات **التقدّم**"؛ لذلك سنكتفي بمثال أخير مأخوذ من كوندورسي، فقد وضّح أنّ مصير الإنسان قد أصبح بيده ولم يَعُد موكولا إلى الصّدفة.

وبعد موت كوندورسي بمائتي عام صارت كلمة خطر إحدى الكلمات المفاتيح في الحضارة الحديثة، وظلّت مواضيع مثل المخاطر الطبيعية أو المخاطر التكنولوجية الكبرى تتردّد على الألسن حتى صارت هاجسًا من الهواجس، ولم تكن المخاطر الطبيعية فقط خارجة عن نطاق السيطرة، وإنما ضاعف **الغرب** بشيء من التلذّذ المخاطر التكنولوجية. وحسب الخبراء أنفسهم فإنّ من نتائج ذلك ازدياد الأخطار المسماة "طبيعية"، وخلافًا لتنبؤات كوندورسي فإن **الغربيين** "لم يخرجوا من دائرة المصادفة"، بل على العكس تماما فقد استقرّ في أذهانهم إذ كانوا مدفوعين بهَوس التصنيع أنّه من العاديّ أن يستمرّوا في اللعب بالنار

(وبالعناصر الأخرى كلّها)، لقد كان التسميم والتلويث والهدم خُبْزَهم اليومي، ولم يكن أيّ خطر ليوقفهم. فمن ناحية كانت أساطيل النفط تمْخُر عباب البحار ليلا ونهارا، ولم يكن جنوحها ولا انثقابها أمرا نادر الحدوث، ولم يكن عامة الناس على علم دائم بذلك دائما، وكانت هناك من ناحية أخرى أنظمة تأمين تجعل تَحَمُّل هذه الأخطار ممكنا، ويوجد يقينا خبراء في "الوقاية" بارعين في تفسير كلّ الاحتياطات التي اتخذت أو ستُتّخذ قريبا، وتكون الحصيلة إيجابية إجمالا.

ومن حين إلى آخر كان وحش معدني[1] يسكُب في المحيط ٢٠٠٠٠٠ طن من البترول، أو تضرم النار في ١٣٠٠ طن من المواد الكيمياوية على ضفاف نهر الراين، ولكن ذلك كان ثمن الرفاه وبحبوحة العيش، وكان أشدّ التقدّميين دهاءً ومكرًا يُدْلُون بملاحظات مفادها أنّ الكوارث التكنولوجية أقلّ إزهاقًا للأرواح عمومًا من تقلبات "الطبيعة". ففي سنة ١٩٧٨ وهي السنة التي شهدت جنوح سفينة أمكو كديز Amoco Cadiz ضرب زلزالٌ إيرانَ فخلف ١٥٠٠٠ قتيل. كانت الرسالة واضحة: علينا أن لا نهوّل الأمور ونُنشيطن التكنولوجيا، حسْبُنا أن نثابر في الهروب إلى الأمام! لقد بدا لنا مع ذلك أنّ الحداثيين قد قلّلوا على وجه الخصوص من هذه "الأخطار" التي لا تخفى على أحد ومن تداعياتها الثقافية والسياسية.

والحقّ أنّ بعض الخبراء لم يتردّدوا في وصف الحضارة الغربية بحضارة المخاطرة، وهي لعمري عبارة غريبة جدّا؛ لأنّ الخطر هو في الواقع تمثّل ذهنيّ، إنّه تقييم لتهديد يوشك أن يصبح واقعا أم لا، وبعبارة أخرى كانت أذهان الغربيين تعجّ بتصوّرات من شأنها أن تولّد الخوف والقلق، وكلّ الخطابات التكنوقراطية

---

(١) يقصد حاملة النفط (المترجمان)

حول"الخطر التكنولوجي الأكبر" إنّما جعلت من أجل طمأنتهم، مثال ذلك: نحن الخبراء نحن هنا. إنّنا نرصد المخاطر، إنّنا بصدد وضع آليات وقاية، وقد جهّزنا لكلّ طارئ سيارات إسعاف ومضخّات للحرائق، ولكنّ هذه الخطابات نفسها كانت إشارات ملموسة تبعث على الخوف إلى حدّ كبير: فهنالك خطر -مهمَا كان ضعيفًا- في أن ينفجر هذا المفاعل النووي غدا، وثمّة خطر -مهما كان ضئيلا- في تلوّث للمياه الجوفية وشيك لا يمكن علاجه، هناك خطر وإن كان ضئيلا في أنّ هذا الغذاء أو تلك المادة يمكن أن يكون سببا في مرض السرطان وغيره. كان **الغرب** نحو أواخر القرن العشرين يعتقد أنه قد تخلّص من كلّ الأساطير ومن كلّ أشكال الشعوذة، ولكنّه كان ضحيّة أوهام مضنية (كما يشهد على ذلك ما عثرنا عليه من أفلام عديدة حول الكوارث) وكان يعاني من القلق (كما يدلّ على ذلك استهلاكه المفرط للمهدّئات).

هل كان التكنوقراط إذن يرومون تقديم اقتراح بمقتضاه يجب أن تفهم عبارة "حضارة المخاطرة" في تماثل مع عبارة "حضارة يونانية" أو "حضارة مسيحية"؟ يبدو جليا أنّ هذه الفكرة قد تكون خامرتهم؛ وبسبب استعدادهم لقبول الالتباسات كلها، فقد طابقوا بين مفهوم "المخاطرة" ومفهوم "المغامرة". أكان يكفي إذن أن يعرّضوا أنفسهم (ويعرّضوا الآخرين) إلى حزمة من المخاطر الكبرى يستحيل معها **التقدم** باعتباره مغامرة روحية جماعية؟

إنّ المخاطرة في ذاتها لا يمكن أن تؤسس ثقافة وتبنيها، فعندما يكون لدينا مشروع حقيقي يمكن أن نخاطر، وإن شئت فقل يجب أن نتحمل إمكان التعرّض لبعض المخاطر، ولكن "المخاطر الكبرى" لا تنذر إلا بالشقاء أو الموت. فكيف لها أن تشكّل مثلا أعلى ومشروعًا مجتمعيًا أصيلا؟ ومرّة أخرى رأى في ذلك

فريق بحثنا هفوة مأسويّة، وإقرارا بنزعة انتحارية مخيفة، والحق أنّ حضارة المخاطرة هذه كانت حضارة خوف.

ومن المؤكّد أنه كان من مصلحة الحداثيين إعادة قراءة ما كتبه دانيال ديفو Daniel Defoe في روبانسون كريزوي *Robinson Crusoé* حيث يقول: " إنّ خوف الخطر أشدّ رهبة من الخطر المحدق ألف مرة، وإنّ القلق الشديد الذي يولّده ترقّب الشر أشدّ وطأة على النفس من الشرّ نفسه"، وكان يمكن أن يعينهم ذلك على فهم ما تخلّفه "المخاطر الكبرى" ذائعة الصيت من آثار وخيمة في السنوات الأخيرة من القرن العشرين؛ لأنّ المخاطر في مجال الطاقة النووية مثلا لم تكن هائلة فحسب، وإنّما كانت تتجاوز عادة كلّ تقويم دقيق. أكّد ذلك سنة ١٩٩٣ أحد العارفين بهذا الميدان وهو جون-جاك سلمون Jean-Jacques Salomon بخصوص حادث خطير وقع في تشرنوبيل (١٩٨٦): لقد ظل من المستحيل تطويق الكارثة بعد سنوات من حدوثها، فما يزيد عن ٨٠٠٠٠٠ شخص كانوا عرضة لإشعاعات تأكّدت خطورتها، ولن تُعرف آثارها على المدى البعيد، فكان يُخشى ظهور الإصابة بالسرطان وولادة أطفال مشوّهين، ولكنّ الخبراء لم يكونوا قادرين على الحديث عن أيّ شيء بعينه على وجه التدقيق، إذ " لم يكن ثمّة أي كارثة طبيعية منذ بداية التاريخ شكّلت أكبر تهديد على فضاء ممتدّ ولمدة غير محدّدة كهذه الكارثة"، كان يمكن لطفل في الخامسة من عمره أن يبسط السؤال التالي: هل كان من الحكمة أن تسعى الإنسانية المتقدّمة إلى صنع كلّ هذه الآلات الجهنّمية وكل هذه الأدوات المخيفة؟

تفطّن بعض الكهول -كما هو الحال دائما- إلى رهانات ذلك، وهكذا كان الأمريكي هنري كيسنجر Henry Kissinger الحائز على جائزة نوبل للسلام قَلِقا

مـن التحـف التقنيـة البارعة وهي الصواريـخ النووية، وكـم كانـت جميلة وكم كان الموظفون أكفاء! " لكن ذلك لم يخفف من القلق الذي يُساورني إزاء بقاء حضارتنا الذي وجب أن يوكل إلى تكنولوجيا تفوق تجربتنا وقدرتنا على إدراك تَبِعاتها كلّها (...) إذ لـم يحدث قطّ في أي جيل من الأجيال السـابقة أن وَجَدَ رجل دولة نفسَـه مضطرّا إلى انتهاج سياسته في ظروف أشدّ غموضا وأقرب إلى الفناء". ولقد علّق -عـن صـواب- خبيـر فـي المخاطـر الكبـرى يسـمى باتريـك لاغـاداك Patrick Lagadec فقـال: " ألـم يُفْـضِ بنـا الأمـر إلـى طرح مشـكل أشـمل يتعلّق بسـلوك مجتمعاتنا في عالـم لا ينفكّ يوسَمُ بصدوع عميقة"؟

كان يمكن أن تعتبر المخاطرات التكنولوجية مخاطرات سياسـية من الدرجة الأولـى؛ لأنهـا كما قـال جون-جـاك سـلمون تثير الشـكوك "حول الأسـس ذاتها لعقلانية المجتمعات المصنّعة". كان يمكن أن يبدو المشكل مصيريا إلى درجة أنّ الحاجـة إلـى الأمن (وهـي الفكرة المهيمنة فـي ذلك العصر) كانت تـزداد وَتِيرَتُها بازدياد مشاعر الخوف والقلق الشديد، وكان السؤال مختفيا في أعماق الوعي في كثيـر مـن الأحيـان، لكنّه كان موجـودا؛ إذ كيف لنا أن نثق بمؤسسـات عاجزة أكثر فأكثر عن مراقبة **التقدم** والتحكّم فيه (ونعني بذلك بشكل ملموس التقدّم التقني)؟

ومـع ذلـك فـإن المجتمعـات التـي يُقال عنهـا متقدّمـة لم تُعِـر اهتمامًـا لهذه التحذيـرات، وقصـارى ما فعلته إحداث بعض اللجـان وبعض المختبرات؛ لصنع الأدويـة أو اتّخاذ بعض الإجراءات التنظيمية، فالاعتراف بأن إفلاس جوهر النظام كان أمـرا يتجـاوز قدراتهـم الذهنيـة علـى الاسـتيعاب. كان الهـمّ الأساسـي عنـد المسـؤولين هـو توفير الاطمئنـان لعموم الناس، وكان العقلانيـون عَقِبَ كلّ كارثة يبينـون للنـاس أن الوضع أقل خطورة ممّـا كان يصفه "الماضويون". وقد اكتشـفنا

فعلا أمثلة مؤكّدة على تزوير أرقام الخبراء وتقاريرهم. فلماذا هذا الهروب؟ يتّضح لنا مرّة أخرى أنّ **الغربيين** ينقصهم الحسّ الشعري، وينقصهم الذكاء الرمزي. لقد تحسّسوا في بعض الأحيان- وهذا ما سبق أن رأيناه- ما "للمخاطر التكنولوجية" من عواقب سياسية وخيمة، ولكن اعتمادا على مسلّمة أوّلية مفادها أنّ **التقدم** جيّد في ذاته لم يقدروا بل لم يريدوا قطّ الدفع بتفكيرهم إلى نهايته، وكان من الأيسر الاعتقاد أنّ "حضارة المخاطرة" مقبلة على مواجهة بعض الحوادث فحسب، أمّا الضربات القاسية أو المآسي فلن تصيب أبدا مستقبل النظام إجمالا رغم حدّتها، ومن ثمّ كانوا يمنعون أنفسهم من التفكير في تعدّد المخاطر والتقائها إعلانا عن **الانفجار الأكبر**.

وعند قراءة الأدبيات الضخمة التي خصصوها لموضوع المخاطر حصل لدينا انطباع بأنهم قاب قوسين أو أدنى من استعادة البصر، لكن كوندورسي كان كثيرا ما يعترض سبيلهم، وكانت نزعاتهم المادية تحول دون رؤية التقهقر الثقافي الناجم عن التقدّم بصورة مباشرة أو غير مباشرة. واليوم ندرك دون عناء أن التلفزيون سبّب خطرا تكنولوجيًا كبيرًا، ألا وهو التبلّد الوجودي، لكنّ هذا الخطاب لم يكن خطاب الحداثيين، والعجَبُ العُجاب أنّ الصحافة كانت تُصرّ سنة ١٩٩٥ على استخدام كلام من قبيل:" إنّ التقدم التقني لا يُفَاقم البطالة". في مثل هذه الظروف كان من الصعب أن نتخيّل أنّه كان بالإمكان تجنّب أحداث ١٩٩٩-٢٠٠٢ الأليمة.

كلّ ذلك يستعيد لدينا إحساسا بالمرارة، ولا سيّما إذا ما بدا لنا أنّ تلك الفترة كانت تمارس فيها ديانة **التقدّم** دون شعور بفرح حقيقي، ولا ريب في أنّ التقدّمية في تلك الحقبة كانت ملتهبة نشطة، ولكن المفارقة تكمن في أن **الغرب** زمن

السقوط أضاع وقته في التجديد والحوْسبة والآلية في جوّ كئيب، ولئن كان لَعوبا فإنه لم يكن مبتهجا، وكان كِبارُه يتبجّحون بالقول نحن أنصار الحركة نحن مؤسّسو التغيير نحن رُسل التقدّم... ولكنّ هذه الكلمات الرنّانة كانت تخفي نوعًا من أنواع القدَريّة. ولقد تفطّن إلى ذلك أحد كبار علماء الاجتماع نحو منتصف القرن العشرين حينما قال: تلكم البشرية "كان محكوما عليها بالتقدّم المؤبّد"، وهي الصيغة التي يتعين فهمها حرفيا، كان ذلك العصر في رأي الأستاذ دوبان مقبورا وسلبيا يولّد الرفض أو الهروب، كان الأمر يتعلّق دائما بتجنّب التهديدات وبـ"الدفاع عن النفس" فكيف نتجنّب السرقة أو الاعتداء؟ وكيف نتحاشى نتائج هبوط أو انهيار في البورصة؟ وكيف نحتمي من التلوّث؟ وكيف نتصدّى للمخدّرات؟ وكيف نقاوم المنافسة الخارجية والهجرة المتصاعدة؟ وكيف "ننزع فتيل" الضواحي المتفجّرة؟ فإن كان ثمّة كانت ثقافة من الثقافات قد دخلت المستقبل بالرجوع إلى الوراء، فإنّها الثقافة الغربية دون سواها، والعبارة لبول فاليري.

يا لها من مهزلة! لقد كان الحداثيون يسخرون من المحافظين ولكنهم كانوا ينفقون الأموال بغير حساب لحماية أنفسهم وحفظ ممتلكاتهم، وأصبح من الضروري بسبب تضاعف الاعتداءات نشر أعداد متزايدة من أعوان الشرطة في الأماكن العامّة، وحتّى المستشفيات عرفت مشكلات أمنية، وكانت تلك التي عَزّزت أنظمة حمايتها تحمل اسم المستشفيات المخابئ. لقد تمكّن أحد باحثينا من إثبات مبالغَ طائلة أنفقها في اتخاذ الأبواب المصفّحة وآلات المراقبة الإلكترونية وفي التأمين عددٌ غفير من الفرنسيين في التسعينات، وقد حوّل البعض منهم منازلهم وشققهم إلى حصون، وكانوا يوقّعون على ما لا يقلّ عن ثلاثة عشر وخمسة عشر وسبعة عشر صنفا من أصناف التأمين.

وكان يمكن للتكنوقراط الذين ابتكروا تسمية "حضارة المخاطرة" أن يتحدّثوا عن "حضارة التأمينات"، وكان المواطنون الأثرى يتمتّعون بحسابات في كثير من البنوك في فرنسا وسويسرا وفي أماكن أخرى خوفًا على أموالهم " إذ من يدري [ما تخفيه الأيام]"، وتضاعفت في الوقت نفسه محاولات الانتحار في أوساط الشباب خصوصًا، وهذا على الأقل ما نقرؤه في الصحف: "ينتحر في فرنسا كلّ سنة من ٩٠٠ إلى ١٠٠٠ مراهق". وفي الجملة كان العقل والتقدّم بعيدين كلّ البعد عن أن يجلبا للغرب البهجة. لقد ارتقى ماديا معظم المواطنين بلا شك نحو مجتمع الرّفاه والوفْرة والاستهلاك، لكنّ الذين أُقْصُوا كانوا كُثْرًا حتى المندمجون أنفسهم كانوا يعانون حرمانًا شديدًا. لقد وصف أحد الخبراء الوضع سنة ١٩٩٣ على هذا النحو: " نشهد حاليا في فرنسا نوعًا من الخوف الشديد، ومن الاكتئاب الجماعي، ناجمين عن أن الوعود بالسعادة والغنى لم تتحقّق، وأنّ اليوم أبعد من أن يكون أفضل من الأمس". لقد فهم الشاعر أميال Amiel أن المشكل سياسيّ روحيّ في آن إذ قال: " إن الدولة التي أُسّست على المصلحة فحسب وتماسك بنيانها بالخوف لَهِيَ بناء وَضِيعٌ لا أُسّ له"، لكننا نُبدئ ونعيد أنّ تلك التحذيرات كانت دون جدوى، إذ تمسّكوا بمواقفهم غير مبالين بالانتقادات التي وُجّهت إليهم، "فما نسمّيه التقدم ليس إلا غزو بعض بني الإنسان الذين لم يهدأ لهم بال حتى حوّلوا كل شيء إلى أرصفة قبيحة مجهزة بخراطيم للغاز وبالإضاءة الكهربائية وهو أدهى وأمرّ". من كان إذن هذا الدينصور الظلامي الذي أعلن كُفْره على هذا النحو؟ إنه رجل يدعى بول سيزان Paul Cézanne. ولمّا كان فنّانًا فقد كان يمكن أن يُغفر له ما تقدّم من ذنبه، ولكن كان يمكن أن يعدّ كبيرة لا تغتفر اعتماد أناس "عاديين" مثل هذا العدول في الخطاب وهذا الفيض في الشعور.

فالنقد ذو الطابع الروحي لم يكن يعتبر مرفوضًا فحسب، بل كان في الغالب

غيـر مفهـوم، وبمعنى أدقّ صـار أهل الحداثة لا يرون مـا وراء "الحضارة المادية"، فقـد أضحـى الشـعراء والمتنبّئـون إذن يُلقـون خطبهـم فـي الصحـراء، وذلك مثل جوليـان غريـن Julien Green الذي كتب في مذكراته يقول: " لا يمكن أن يتحقق تقـدّم حقيقـي إلا فـي داخلنا، فالتقدّم المـادي لا قيمة له"، وكذالـك أناتول فرانس Anatile France الـذي أعلـن: " كنّـا نعدّهـم مـن بين السـعداء؛ لأنّ لهم مصاعد، والحـال أن بيتـا واحـدا من الشّـعر جميلا كان فيه من الخير للنـاس أكثر من جميع التحف المعدنية، يا لَهُ من تقدّم لا يرحم! إن هذا الجمع من المهندسـين لا يعرف العشق ولا الشعر ولا الحب".

لقـد أحـسّ فريـق بحثنا في ختام هذه الأفـكار الأوّلية أنّه قد وضّـح أمرا مُهمّا مفاده: أنّ **الغرب** قد هَلَك بسبب الفاقة الشعرية والروحية التي كان يعانيها، ولكن لا يمكننا أن نقف عند هذه الملاحظة البسيطة، فـمن البديهي أن"الحداثة" لـم تنزل من السماء؛ لذلك كان ينبغي أن نكشـف قدر الإمكان عن أسبابها الملموسة.

لقد أدرك بعض المفكرين منذ القرن العشـرين أنّ **الغربيين** عندما تبنّوا مفهوم العقـل وضمّنـوه محتوى خاصًـا جدّا لم يقدّمـوا في حاصل الأمر سـوى تبريرات لجملة من القواعد السلوكية التي لـم تكن في البدء تمتّ بأيّ صلة لأيّ ضرب من ضروب **العقل الخالص**. وهذه القواعد لا واعية في الغالب الأعمّ كما لاحظ ذلك -عن صواب- كلود ليفي ستروس Claude Lévi Strauss الذي خاطر -اعتمادا علـى إيميـل دوركايـم Emile Durkheim ومارسـال مـوس Marcel Mauss في آن- ببيـان ينيـر السـبيل مفـاده " أن العقل نفسـه هـو بالأحرى نتاج التطـور الثقافي وليـس سـببا لـه"، وحتـى لا نبقـى عنـد ظواهر الأشـياء تسـاءلنا إذن حـول الوقائع التاريخيـة التـي هيّـأت علـى نحوٍ مـا الجهـود " العقلانيـة" التي بذلها كوندورسـي

وأصحابه، وفي هذا المنحى ذاته كان الأستاذ دوبان يقول إنّ كلّ ثقافة من الثقافات تنمو في البدء من بعض الخيارات الواعية نسبيا، كان يُطلِق عليها اسم الأعمال التأسيسية، فلو رصدنا هذه الخيارات المصيرية لأدركنا عندئذ لماذا كانت تلك الخيارات تنذر بمصير أسود.

I - الإنسان المتمدّن

«كانت مدينة العصر الوسيط تولد من رَحِم وظيفتها الاقتصادية وتترعرع فيها. فهي تنشأ بفضل تجدّد المبادلات التجارية. إنها بذلك صنيعة التجار».

جاك لوغوف Jacque Le Goff

«يعود المتحضّر في المدن العملاقة إلى حالة التوحّش أي العزلة لأنّ النمط الاجتماعي يمكّنه من نسيان الحاجة إلى الجماعة وفقدان مشاعر الوصل بين الأفراد التي كانت جيّاشة في قديم الزمان لمسيس الحاجة إلى الخلّان».

بول فاليري Paul Valéry

«يتهدّدنا اليوم خطر العيش في المدينة العالميّة العملاقة حيث يكون الظلم البدائي المتعمّد الواعي بذاته هو الشرط الوحيد الذي يحقّق سعادة قابلة للإحصاء والقياس لدى الناس. وهذا عالم أسوأ من الجحيم لمن كان ذا بصيرة».

دومينيك دوبرال Dominique Dubrale

فـي أي مرحلـة من مراحل التاريخ قد انخرط **الغرب** في طريق "الحداثة"؟ في أي مرحلة ولّى وجهه شطْرَ المجتمع الصناعي، مجتمع **المال والآلة والإقصاء** بلا رجعة؟ وبعبارة **الأ**ستاذ دوبان: إذا سلّمنا بأنّ الثقافة الحديثة قد حلّت محلّ الثقافة المسيحية؛ فإلـى أين يجب أن نعـود لكي ندرك العلامات الأولـى التي دلّت على تحوّل روحيّ عميق؟ متى بدأ **الغربيون** فعلا بالمضيّ في المســار الذي قادهم إلى **الانفجار الأكبر** وكيف ساروا فيه؟

إنّ الإجابـة النهائيـة الدقيقة الصارمـة (بالمعنى الذي يحمل عليـه العقلانيون هـذه الكلمات) ليسـت في إمكاننـا، وبعد أخذٍ وردٍّ ونقاشـاتٍ كثيـرة أجْمَعنا على مقترحات الأستاذ دوبان وحُدُوس شعرائنا. علينا أن نبحث عن جذور الحداثة في **العصر الوسـيط**. أمّا المرحلة الحاسـمة من الناحيتين المادية والرمزية فتأتي تقريبا بُعيـد سـنة ١٠٠٠ عندمـا ابتُكِـر نـوع جديد مـن المدن وضـرب جديد مـن الثقافة الحضرية، وقد درَجْنا على اسـتعمال عبارة **التحوّل الحضري الكبير**؛ للإشـارة إلى هذا الحدث المؤسّـس ولتأكيد أهمّيته، وقد استخدم المؤرّخون الغربيون عبارات أخرى مماثلة (مثل "النهضة الحضرية" وحتى "الثورة الحضرية")، والمهمّ في ذلك هـو الإقرار التام بدلالة أسـطورة **المدينة** بالشـكل المخصـوص الذي وهبه **الغرب** إياهـا. وجـد الأسـتاذ دوبـان -كدأْبه- عبـارة توقظ الهِمـم وهي قولـه: " **إن الغرب** الحديث ولد في المُدن وفيها هلك"، لم ندرك وقتئذ أهمية النصيحة التي أسـداها لنا هذا الأسـتاذ المتميّز بصفة ضمنية، لكننا أدركنا مغزاها أخيرا، فقد كان علينا أن نهتم بذاك التحوّل **الحضري** الكبير؛ لأنّه أنشأ الشخصية الأساسية للثقافة الجديدة،

ألا وهي **الإنسان البورجوازي**. ذلك أن مفهوم الإنسان البورجوازي يتطابق حرفيا مع مفهوم الإنسان المتحضّر، ومع إنسان "البلدة" وعلى نحو أدقّ الحيّ التجاري. ذاك هو الحدث الحاسم الذي يتمثّل في ظهور النموذج المثالي للإنسان الغربي الحديث في المسيحية نفسها، وقد تزامن ذلك مع ازدهار مدن العصر الوسيط. كان المثال المسيحي قديما يتجسّد في شخصية القدّيس، وسيتجسّم مثال الإنسان الحديث بعد ذلك في صورة البورجوازي، وإذ يعلن الأستاذ دوبان ولادة **الغرب** ووفاته في المدن، فإنه يريد أن يقول أمرين على الأقلّ:

كان **الانفجار الأكبر** في البداية ظاهرة حضرية واسعة النطاق، فقد تفاقم البؤس والبطالة والتّوتر النفسي والانحراف والمخدّرات والعنف بجميع أشكاله في المدن وفي مخيمات المدن بالخصوص، وفي كثير من ضواحيها. ففي سنة ٢٠٠٢ وكما يعلم ذلك المؤرّخون، انخرطت هذه المناطق المحرومة جميعها في حركة احتجاجية يصعب علينا اليوم تحديد مدى عمقها وعنفها، وفضلا عن ذلك فإنّ إطلاق كلمة احتجاج لا يفي بمعناها دون شكّ، ويكفي أن نذكر شهادة الدكتور كلود أوليفنشتاين Claude Olievenstein وهو أحد الذين توقعوا حدوث الكارثة (وقليلٌ ما هم)، فلقد كتب يقول سنة ١٩٩٤ عندما كان يعالج مشكلات الإدمان: "يظهر قَرَف الشبان الشديد في بذور عنف اجتماعي أعمى (...) فالبؤس الفرنسي ما زال غير كاف لكي يحدث انقلابا في المجتمع، لكنّ مخزون الكراهية التي يكنّها الشباب لمدينة الكهول كان عظيما"، ويعود هذا المخزون من الكراهية إلى التطوّر الحضري الجنوني، لقد أدركنا إذن أنّ الأستاذ دوبان عندما تحدّث عن المدن القاتلة كان يشير إلى ظواهر التدهور المتعدّدة التي كانت تُرى لحينها في المدن والضواحي رأيَ العين.

في نهاية القرن العشرين كانت تكتّلات حضريّة عديدة قد تآكلت تماما، وفي الوقت الذي كانت فيه ضواحي المدن الكبرى تتعفّن، لم يكن مستبعدا أن تفقد مراكزها التي أضحت حِكرا على المكاتب والسيارات أيّ معنى من معاني الحياة الحقيقية وأيّ دفء إنساني. حقًّا لقد بقيت بعض الضواحي تعيش في رفاهة وغنى، ومن المؤسف أنّ الكثير منها لم يكن حزينًا قبيحًا فحسب، وإنما كان عليلا يشقّ العيش فيه، بل كان منقطعًا عن المجتمع انقطاعًا كاملا، وكانت هناك حكايات رهيبة تُتَناقل عن الأحياء المبيتات[1] وعن الأحياء المعزولة وعن الأحياء المخيفة التي تُقذف فيها الحافلات بالحجارة، ويتردّد حتّى رجال الشرطة في دخولها، وكما ذكر ذلك صحفي يدعى جيرار ديبوي Gérard Dupuy فإنّ المدن كانت تعطي انطباعًا بأنها تتأرجح بين نموذجين يبعث كلّ واحد منهما على الإحباط، فقد صارت هذه المدن بحسب مواقعها مجموعة ديكورات مسرحية "مبلّطة مضاءة مزدانة بالورود"، بل صارت مجرد متاحف للسياح، وإلى جانب ذلك كانت "تستحيل إلى ضواحٍ" ولا مكان في هذه الحالة أو تلك لـ"حياة حقيقية". كانت المدن التي صنعت مجد **الغرب** تتفكّك، وتفقد شيئا فشيئا معانيها الروحية، وكان الخراب الحضري - في رأي الأستاذ دوبان طبعا- يرمز حقّا إلى التفسّخ الروحي لثقافةٍ تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ومع ذلك كان ينبغي الرجوع - وهذا أمر بديهي- إلى أبعد من ذلك بكثير، فهناك إذن مقصد آخر مفاده أنّ قيَم الثقافة البورجوازية (أو قل قِيَمها الزائفة) قد تشكّلت في المدن دون غيرها، ولقد كان البورجوازيون أنفسهم في الفترة التي

---

(١) **المَبيتات** جمع «مَبيت» وهو المكان الذي يُقَامُ فيه ليلا والمقصود بـ«الأحياء المبيتات» تلك الأحياء السكنية التي يغادرها أصحابها صباحا للعمل أو لغيره، ثم لا يعودون إليها إلا عندما يجنّ الليل ليبيتوا بها. (المترجمان)

مازالت فيها ذاكرتهم قوية بَعْدُ واعين بذلك. إنهم يعلمون أنّ ولادتهم الفعلية تعود إلى العصر الوسيط، وبمعنى أدقّ إلى **التحول الحضري الكبير**، أي في زمنٍ تحررت فيه التجمعات العمرانية (أي "البلَديات")، هكذا لاحظ فرانسوا غيزو François Guizot في كتابه: تاريخ الحضارة في أوروبا(١٨٢٨) قائلا: " لا شك في أنّ عامة الشعب سنة ١٧٨٩ لم تنحدر بالمفهوم السياسي من القرن الثاني عشر ولم ترثْهُ"، ولنذكّر بأن غيزو Guizot كان خبيرا بهذا المجال، وهو الذي أسدى بلا ريب إلى بورجوازية الأعمال الكبرى هذه النصيحة المشهودة: " أغنوا أنفسكم!" وكان على أية حال عند كتابته التاريخ واضح الرؤية، ويعلم جيّدا أنّ البورجوازيين قد ظهروا في مدن العصر الوسيط، وإذا ما أردنا أن نقيس " تأثيرهم العميق في الحضارة الحديثة" وجب علينا أن نهتمّ بـ" المبادئ والأشكال والأخلاقيات التي كانت سائدة في المدن"، لقد استشعر كثير من الشعراء ضرورة الانكباب على الأسرار المخيفة للمدن؛ لكي نفهم الثقافة الحديثة. ففي سنة ١٩٠٢ أي قبل قرن من **الانفجار الأكبر** تحديدا، كتب النمساوي راينر ماريا ريلك Rainer Maria Rilke هذه الأبيات الاستشرافية:

" لم تفكّر المدن الكبرى يوما إلاّ في نفسها

إذ محَقت كلّ شيء في طريقها

وحين تأوّهت دكّت شعوبا بأسرها وجعلتها هباء منثورا"

وبعد ذلك بقليل كان الشاعر الفرنسي بول فاليري واضحا حين قال: " إن المتحضّر في المدن العظمى لعائدٌ إلى الوضع البدائي"، كانت النخب التقدّمية في **الغرب** المتأخّر مع ذلك لا تعير كبير اهتمام للبحث في الأساطير الحضرية، وفي مصدرها ودلالتها، والحقيقة أنّ أهل الحداثة يزدرون عموما **العصر الوسيط**، وكانوا يعتقدون أنهم يعيشون بلا أساطير.

لقد كانت المدينة بالنسبة إليهم أمرا بديهيا بداهة مطلقة، ومؤسسة "عقلانية" لا يمكن المساس بها في جميع الأحوال، وكان معظم المعلّمين يدرّسون فكرة مفادها أنّ نمط الحياة الحضرية وأنماط التفكير الحضري (كما يقال في ذلك الوقت) "موضوعيا" أرقى من غيرها، وتَعْسًا لمن كان يتجرّأ على التشكيك في حقيقة هذه المقولة، (وقد عاش "أنصار البيئة" الأشدّ انتقادا في معظم الأوقات هذه التجربة الشاقة). كان ذلك إذن يقتضي فقدانًا جماعيًا للذاكرة، يفضي إلى طمس ملامح التصور البورجوازي كلّها ذات النظرة المُغرقة في المادّية حول المجتمع والحياة، ولم يكن أجدادنا يرغبون في إدراك حقيقة أن أسطورة المدينة (وهي أسطورتهم المركزية) كانت تحمل الموت فقط، بل كانوا يعتقدون جازمين أن **الحضارة** تقتضي إخضاع كلّ شيء لهيمنة المدن الكبرى.

ربما تراءى لنا بذلك عجز أصحاب القرار والتكنوقراط عن مراقبة المصير الجماعي عجزا تامًّا، إذ لم يحاولوا قطّ الكشف عن الجذور الثقافية لعِللهم، لقد كانوا يبدّدون بلا انقطاع -كما ستتاح لنا فرصة الحديث عن ذلك- ما تبقّى لديهم من طاقة في محاولات ترقيعية فاشلة، وقد اجتهد -مع ذلك- المفكر الألماني ماكس فيبر Max Weber في توفير خطاب "عقلاني" قادر على أن يثبّت أقدامهم على الطريق، ولقد كتب قائلا بأن في كلّ حضارة يكون للمدينة "قانونها الداخلي الخاص بها" (Eigengesetzlichkeit)، ولو تأمّل أهل المدن في القرن العشرين ما كان مسجّلا في "قانونهم الداخلي"، لربما أدركوا ما يفضي إليه نمط عيشهم من خطر مُحدق بهم.

أما بالنسبة إلينا فقد كان الأمر واضحا، إذا أردنا تتبّع المسار الروحي للعالم الحديث، وإذا رُمْنا إدراك نشأة المُثل البورجوازية (**المصلحة والمردود والتقدّم**

وغيرها) فينبغي علينا الانطلاق من "الثورة العمرانية" التي كانت تأثيراتها بعْدُ بديهية جدّا في القرن الثاني عشر. إنّها السبيل الوحيد لتحديد مضمون دقيق لمفهوم **الغرب** الحديث نفسه؛ ذلك أن "البورجوازي" كان اختصاصًا غربيًا كما أكّد ذلك ماكس فيبر بقوله: " إن الجماعة الحضرية بأتمّ معنى الكلمة لم تأخذ شكل الظاهرة الجماهيرية إلا مع **الغرب**"، وأضاف فيبر أنّ "البورجوازي" الأصيل بمعنى الإنسان الاقتصادي الخالص والكائن الحضري المسخّر للتجارة والصناعة أساسًا لم ينشأ لا في **العصر القديم** ولا في **الشرق**، ويعني ذلك في عبارة أوضح تصويرا أن التحالف الواعد بين البائع والحِرَفي والصرّاف (وهو صيرفي المستقبل) قد انعقد في العصر الوسيط بـ"البور" bourgs[1] وفي البلديات وفي "المدن ذات التجارة الحرة"، وكان المهندس هو أيضا حاضرا هناك، وبما أنّ هذه الشخوص الرئيسية هي التي ابتكرت الحداثة فعلًا، وزجّت **بالغرب** في مغامرات طموحة، فإن نظرة على **التحول الحضري الكبير** تمثّل توطئة للموضوع لا بدّ منها.

إنّه موضوع كبير؛ ذلك أنّ تحوّل **أوروبا** اقتضى بداهة جملة من التغييرات الاقتصادية والتقنية والاجتماعية والسياسية والروحية المعقّدة جدّا، وهي **تحوّلات** لم تتّخذ الأشكال ذاتها في البلدان التي تدين بالمسيحية كلها، فأنكلترا وفلاندرا Flandres وفرنسا وفلورنسا مثلا، لم تتطوّر طبقا لأنماط واحدة، ولا وَفق نسق واحد، وسنكتفي هنا بإبراز بعض **المحطات** المهمّة؛ حتى نمكّن القارئ من أن يرى كُنْه ما سمّاه الأستاذ دوبان المعجزة البورجوازية. فكيف أمكن **للغرب** القديم وهو مسيحي ريفي أن ينشئ ثقافة حضرية تجارية؟ إذْ كانت الحياة تركّزت في عمق **العصر الوسيط** حول القصور والأديرة، فكيف إذن بدأ التحرّك الذي سيجعل الريف خاضعًا للمدن التجارية وللبورجوازيين؟

---

(١) المدن التجارية (المترجمان).

سـرعان ما لاحظنا ذلك: لقد سـاهم الريف على نطاق واسع في ظهور المدن التي سيصبح ضحيّة لها، وبطبيعة الحال لم يكن أهل الأرياف في العصور الوسطى قـطّ قـد قرروا من تلقاء أنفسـهم أن يعيدوا إلى المدن المَـوَات عَنفوانَها، ولـم تكن لديهـم قـطّ نيّـة معلنة لإنشـاء عدد مـن المدن الجديـدة، ولكنّهـم هيّـؤوا لـ"الثورة العمرانية" بطريقة عفويّة وجعلوها ممكنة واستحثّوها بطريقة أو بأخرى.

وعلى العكس مما يعتقد كثير من **الغربيين** الحداثيين، فإنّ العصر الوسيط كان فترة نَشِـطة إلى أبعد الحدود، وفترة تجديد إذ لـم يرْكَن الشـعب إلى الخمول حتى فـي الأوقـات الحالكة عندما بـدت الثقافة النخبوية مدمّرة، وبدا التنظيم السياسـي منعدمًـا. ولقد شـرح الأمريكي لين وايـت Lynn White ذلك قائـلا: "وفي مجال التقنيـات تطـوّر **العصـر الوسـيط** بصورة منتظمـة ومسـتمرّة مقارنـة **بالإمبراطورية الرومانية**، وقد تأكّد لنا أكثر فأكثر - وكما يبدو- أنّ قِنًّا في القرن العاشر كان يتمتّع بمسـتوى عيـش أرقـى، رغم حالـة الفوضى وانخـرام الأمن تحت حكم أوغسـت *Auguste*"[١]. وتنطبـق هـذه الملاحظـة على الزراعة بصورة خاصة، ولا شـكّ في أنها قد تحسّـنت تحسـنًا ملحوظًا منذ القرن السـادس، ولا سـيّما في القرن الثامن. الأمر الذي جعل دارسـي العصر الوسـيط يتحدّثون عن "ثورة زراعية"، ويبدو هذا التوصيـف مبرَّرا بالنظر إلى النتائج التـي تحقّقت، ولا ينبغي -مع ذلك- أن يتبادر إلـى أذهاننـا أنّ **أوروبا** قد غيّـرت فضاءها الريفي كلّه بصـورة جذريّة مفاجئة، ففي القرنين العاشر والحادي عشر فقط بدأت هذه "الثورة" تؤتي أُكلها، لقد بلغ المردود

---

(١) هو المعروف باسم **أغسطس قيصر** باللاتينية (Imperator Caesar Divi filius Augustus). ولد في ٢٣ سبتمبر ٦٣ ق.م - توفي في ١٩ أغسطس ١٤ م) هو رجل دولة روماني وزعيم عسكري، أصبح أغسطس الإمبراطور الأول للإمبراطورية الرومانية من ٢٧ ق.م حتى وفاته في ١٤ م. (المترجمان)

الزراعي في تلك الفترة ذروته، والفضل في هذا النجاح يعود إلى استعمال أدوات جديدة وإلى استخدام تقنيات مستحدثة.

هكذا أخذ المحراث الثقيل المتحرك مكان آلة الحرث القديمة، فبينما كانت آلة الحرث القديمة تقتصر على خدش الأرض فإن المحراث يمكّن من حرْثِها حرْثا عميقا، ومن بين الابتكارات الأخرى تناوب المحاصيل، وهو أن يلي محصول القمح محصول من الشعير أو الحمّص، ثمّ تترك الأرض بُورًا لمدّة عام، وبفضل طوق الأكتاف[1] كانت الخيول تستخدم بنجاعة أكبر، إذ كانت المحاريث قبل ذلك تشدّ بأحزمة تربط حول أعناقها، وهو ما يسبب لها الاختناق ويعوق جذب الأحمال الأثقل وزنا؛ فبفضل الطوق تنفّست الخيول بكلّ يُسْر، وأمْكَنها القيام بسحب مضاعف أربع مرات أو خمس، وبذلك صار ممكنًا الحرث بوساطة الخيول (وهي بهائم أسرع من الثيران).

يجدر التأكيد في المستوى الثقافي أنّ هذه الابتكارات وغيرها (مثل استعمال صفيحة الحوافر) لم تكن تمثل مستحدثات العصر الوسيط على وجه التحديد، فقد وصف المؤرخ اللاتيني بلين القديم Pline l’Ancien الذي عاش في القرن الأوّل للميلاد المحراث الثقيل، ووصف الكاتب نفسه التناوب الزراعي الثلاثي، أمّا طوق الخيول فربما كان مأتاه من آسيا الوسطى، فطرافة العصر الوسيط لم تكن تتمثل في إبداع تقنيات زراعية جديدة، ولكن في تطوير تقنيات كانت موجودة وفي تعميم استخدامها، فظهر بهذه الطريقة ما سماه المؤرّخ بارتران جيل Bertrand

(١) هو عبارة عن طوق اسطواني من الجلد المحشوّ بالقشّ يوضع على رقبة الحيوان يُغلَّف الجزء الخارجي منه بقطعة من الجلد والداخلي بقطعة من الخَيْش وهي التي تلامس رقبة الحيوان الذي يجرّ المحراث. (المترجمان)

Gille "نظاما تقنيا" جديدا، وكان لهذه الابتكارات -على تواضعها- نتائج عديدة، إذ لم تزد في إنتاج الغذاء فحسب، وإنما ولّدت كل أشكال التغيير الثقافي.

حقًّا إن لكل نظام تقني متطلباته، ولئن اقتصر جرّ المحراث القديم على ثورين اثنين، فإن المحراث الثقيل يحتاج إلى ثمانية ثيران، وكان ينبغي إذن أن يجتمع المزارعون ويتعاونوا حتى يتمكنوا من استغلال هذه الأداة استغلالا أمثل، لقد تغير المشهد نفسه، فبالمحراث كانت الأراضي تحرث سطحيًا طولا ثمّ عرضًا وتتّخذ شكلا مربّعا، بينما تمتدّ باستعمال المحراث الثقيل على شاكلة أحزمة طويلة، وهو ما استوجب عمليا تجميع الأراضي أو اقتطاع أراضٍ جديدة من الغابات صالحة للزراعة.

وباستخدام الخيول ظهرت مشكلات أخرى وإمكانات أخرى، فكان الحصان أغلى ثمنا من الثور، ولكنّه كان يمكّن من ربح وقت ثمين، ويهيّء لنشأة قرى جديدة، كانت الثيران حيوانات بطيئة حقا، ووجب إذن أن يقطن المزارعون على مقربة من أرضهم، لقد تغيّر الوضع باستعمال الحصان: فقد أُخليت عدّة ضيعات معزولة، واستقرّ أصحابها في نجوع ضمن مجموعات سكنية أكثر عددا، ولقد طوّر المحراث والحصان عالم المزارعين في مستوى العادات أيضا، فعندما أصبح العمل أيسر وأقلّ تعبًا، صار العقل أكثر تحرّرا. خذ ما كتبه لين وايت Lynn White: " فالثورة الزراعية التي حدثت في **العصر الوسيط** في مناطق الشمال لم يبلغ مداها الحياة الاقتصادية في أوروبا فحسب، وإنما كذلك نموّها النفسي".

تغيّر الإحساس أيضًا، فقبل سنة ١٠٠٠ بكثير بدأ **الغرب** يعي نجاحاته التطبيقية، وينحت لنفسه تصوّرا جديدا للطبيعة، كما أكّد ذلك الأمريكي لين وايت شأنه في ذلك شأن الفرنسي جاك لوغوف، ذلك أنّ إقدام شارلمان Carlemagne

نحو سنة ٨٠٠ على إصلاح الروزنامة؛ بتسميته كلّ شهر باسم يشير إلى نشاط من الأنشطة الزراعية كان أمرا عظيم الدلالة، وكان حزيران شهر الأراضي المحروثة وكان يوليو "شهر حصاد العلف" وأغسطس "شهر الحصاد"، وفي الوقت نفسه ظهرت بوادر واضحة للتخلي عن الرموز الأسطورية التي سادت عند القدامى، وما عزّز هذا الاختيار هو الاقتناع بأنّ الإنسان ما يفتأ يكتسح آفاقا جديدة حاسمة بفضل تقنياته، فلم يعد في حاجة إلى القول بوجوب استمرار الرموز القديمة (ولاسيما رموز التنجيم)، لكنّ علاقة الإنسان بالطبيعة بدأت بعدُ تتغيّر، ففي سابق العهود كان الإنسان جزءا من الطبيعة ثمّ وقف في مواجهتها، فانتصب أمامها باعتباره إنسانا تقنيا قادرا على استغلالٍ مُمَنْهَجٍ لمواردها، ولم يكن ذلك التغيير إلا في بدايته، إذ لم يكن من الممكن أن يتخيّل مزارعو تلك الحقبة من الزمن فعلا أنه سيأتي يوم يسْحَقُهم فيه المجتمع التقني، لقد أعلنت روزنامة شارلمان على أيّة حال خبرا عظيما بطريقتها: " إن الإنسان والطبيعة شيئان مختلفان والإنسان هو السيد".

لقد رافق "الثورة الزراعية" على نحو أسرع وأجلى نموٌّ ديمغرافي مدهش، وعلى رأي بعض الخبراء فإن سكان أوروبا الغربية كانوا يقاربون ١٥ مليون ساكن في بداية القرن السابع، وفي سنة ٩٥٠ تجاوزوا ٢٢ مليونًا، ثمّ بلغوا ما يقرب ٥٥ مليونًا في منتصف القرن الخامس عشر، أي قُبيل زمن **الطاعون** الجارف، وتشير بعض التقديرات إلى أرقام أكبر، ولقد كتب جاك لوغوف يقول : " كان هذا النمو الديمغرافي حاسمًا بدوره بالنسبة إلى توسّع الشعوب المسيحية". لقد ساهم في تفسير[ظهور] موجة قوية جدّا لاستصلاح الأراضي وتوسيع الحدود والحروب الصليبية وغيرها، حيث هيّأ تحسّن الزراعة وازدياد السكان الظروف المناسبة لتغيير آخر يشمل الثورة العمرانية؛ فلكي تنمو مدن حقيقية وجب ضمان القوت،

وبالفعل فقد توفّر للغرب في القرن العاشر والحادي عشر فائض من الأغذية، لقد يسّرت النجاحات الزراعية **التحوّل** الكبير الذي سيغيّر وجه **الغرب**.

في بضع عشرات من السنين، أي بنسق سريع جدّا تشكّلت حركة عمرانية واسعة النطاق، إذ لم تستعِدْ أحياء قديمة عافيتها فقط، بل ظهرت مدن جديدة أيضا، وفي غضون قرنين أو ثلاثة غطّى بلدًا مثل فرنسا نسيجٌ عمراني في غاية الكثافة، مثل فيلنوف Ville - Neuve وفيلفرانك Villfranque وفرانشفيل Francheville وفراكفيل Franqueville وشاتونوف Chateauneuf ونوف شاتو Neufchateaux ونوف بور Neufbourg وبورنوف Bourgneuf ونوفيل Neuville ولافرتي La Ferté ولابستيد La Bastide، كلّ هذه الأسماء وغيرها تبيّن لنا أنها مدن " ليس لها تاريخ ضارب في القدم"، أي إنّها **نشأت** في العصر الإقطاعي، ولقد لاحظت المؤرّخة ريجين بيرنو Régine Pernoud أنّه: "مشهد لا مثيل له على أرضنا، ذاك الذي يتعلّق بإنشاء المدن بين القرنين ١٢ و١٣ (...) وإلى حدود القرن التاسع عشر عصر الصناعات الكبرى بفرنسا، لم يشهد عصرٌ فترةَ تحولات أعمق من تلك التي ميّزت العصر الإقطاعي، فمدن مثل ليل Lille أو دواي Douai تدين كلّيا بوجودها لهذه الفترة، وأخرى مثل أرّاس Arras أو سانت أومير Saint-Omer لم تكن سوى دَيْر أو ديرين.

لقد وُجِدت قبل ذلك بعض المراكز الحضرية وبعض المدن التي نشأت حول الأسواق وبعض التجمعات السكانية، حول الأديرة وبعض القصور التي يمكن أن نعتبرها مدنًا جنينية. ورغم ذلك كان الازدهار العُمراني يمثّل ظاهرة جديدة على وجه العموم، وكان التجار في الأصل هم أقطابها، فهم الذين سينشّطون المدن وسينهضون بها ويسهرون على تنظيمها، «حقّا لقد هيمن على تاريخ **الغرب** في

القرنين العاشر والحادي عشر حدث عظيم ألا وهو **النهضة التجارية**»، وسيكون للمدينة بعد ذلك في أوروبا كلّها موقع القوّة بالنسبة إلى التاجر، والمكان الذي يتيح له بناء مخازنه ومزاولة نشاطه في أمان تامّ، والتمتّع بحقوقه الخاصة ومن بين هذه الامتيازات التي خصّ بها حاكم مدينة إيبر Ypre في القرن الثاني عشر أنه خوّل الأشخاص الذين يحترفون التجارة حملَ السيوف، في حين أوجب على الآخرين نزعه خارج المدينة وضواحيها، وفيما عدا ذلك يُصادَر السيف ويعاقب المخالف بدفع ضريبة قدرها ٦٠ فلسًا.

فمن هم هؤلاء التجار الغربيون الذين سيكون لمبادراتهم شأن عظيم؟ يمكننا القول إنّهم كانوا يمارسون أنشطتهم بأشكال متنوّعة: كانوا باعة متجوّلين وباعة رُحَّلًا يتنقلون من سوق إلى أخرى، ومع ذلك وحتى قبل سنة ١٠٠٠ كانت البضاعة تتجوّل، فكانت موجّهة إلى تلبية الحاجات الأوّلية تارة (كالملح والحبوب والخمور)، وتتمثّل في موادّ كمالية تارة أخرى (مثل المصوغ والطلاء الزخرفي والحرير والتوابل وغيرها). لنرَ كيف أثار المؤرخ الألماني مانفرد غروتن Manfred Groten الأوجه العديدة لنقل السلع قائلا: "كان تجار كولونيا يزوّدون انكلترا بالخمور ومنها يعودون بالصوف .. وأضحت سيوف كولونيا يُتغنّى بها في ملاحم أدب الفروسية الفرنسي، ووصل خزف بينغسدورف *Pingsdorf* -وهي بلدة على مقربة من كولونيا- إلى تروندهايم *Trondheim* ونوفغورود *Novgorod*، وفي مقابل ذلك يُبتاع العنبر والعسل والشمع والفَرْو الروسي من كولونيا".

كانت مبادلات ذلك العصر المحلّية منها والدولية متواضعة إذا ما قورنت بمبادلات القرن العشرين، لكنّها كانت على قدر من التطوّر هيّأ لإنشاء فضاءات جديدة للتبادل في كلّ مكان، وبناء أحياء مخصّصة للتجار، وإلى جانب هؤلاء

ينتصب الحرفيون الذين كانوا أيضا في معظم الأوقات تجارًا، ثمّ الصرافون والمُرابون بطبيعة الحال ونعني بذلك الصيرفيين. فكيف تداخل بشكل تامّ تأثيرات "الثورة الزراعية" والنمو الديمغرافي مع ازدهار التبادل التجاري؛ لتكون الانطلاقة الأولى التي فتحت الأبواب أمام التحوّل الحضري؟

لقد تحاور المؤرّخون في ذلك وقدّموا تأويلات مختلفة إلى حدّ بعيد، لكنّهم كانوا مجمعين على الفكرة التالية: إنّ "النموذج" المميّز للمدينة الغربية قد تأسّس في **العصر الوسيط** وقد نهض التجّار بدور محوري في هذا التجديد، من ذلك أن كلمتي بورجوازي وتاجر كانتا مترادفتين تقريبا في تلك الفترة.

من المؤكّد أنّ تاريخ المدن الغربية كان مختلطا معقّدا، فكان **للكنيسة** تأثيرها وكان **للنبلاء سطوتهم**، وكان تنظيم مدينة من المدن وضمان الحقوق فيها والدفاع عنها أمرًا صعبًا في الغالب، حيث لا بدّ من الابتكار في جميع المجالات (كالإدارة والجيش والحقوق)، وكان لتاريخ المدن الطويل محطّات للاتفاقيات والمفاوضات والانتفاضات، فقد جرّبت الوصفات كلّها حتى أفضت على اختلافها إلى تأسيس البندقية Venise وفلورنسا Florance وغاند Gand وماستريخت Maastricht وهمبورغ Hambourg وماينس Mayance ويورك York ولندن Londre وروان Rouen وتولوز Toulouse وبورغوسBurgos وغيرها. كان هناك مدُنٌ دُوَل[1]، ولكن هناك من المؤكّد أيضا كنفديراليات مدن تجارية، مثل لاهنس la Hanse

(١) **المدينة الدولة** هي نوع من البلدان الصغيرة المستقلة ذات السيادة، تتكون عادةً من مدينة واحدة وبعض الأراضي التابعة لها. شمل هذا المصطلح تاريخيا مدناً مثل روما وأثينا وقرطاج، ودول المدن الإيطالية خلال عصر النهضة. هذا المصطلح ينطبق حاليًا على سنغافورة وموناكو ومدينة الفاتيكان. (المترجمان)

التي بلغ نفوذها حدود ستوكهولم Stockholm وريغا Riga ونوفغورود Novgorod وفي ذلك الوقت سيطر البندقيون[1] والجِنْويّون على البحر المتوسط.

ففي فرنسا تكوّنت الملَكية بالاعتماد على المدن، (ومن البديهي أن تنشأ الدولة الحديثة في أحضان المدن)، وفي الجملة كانت أوروبا من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر في حالة مخاض وكان الفاعل في ذلك هو الإنسان البورجوازي، ومن المفيد التأكيد مع مانفرد غروتن Manfred Groten أنّ "جميع سكان المدن لم يكونوا "بورجوازيين" بالمعنى الدقيق للكلمة"، فالبورجوازيون الحقيقيون هم السكان الذين كانوا " يتمتّعون بجميع الحقوق التي جرى عليها العرف في المدينة، ويملكون على وجه العموم منزلا وأرضا"؛ ففئة " البورجوازيين لم تكن تضمّ إذن سوى ثلّة من سكان المدن، ولكنّها صارت الفئة الاجتماعية المُهيمنة".

وكانت البورجوازية عبر تاريخها الطويل تنهض بدور كان يوصف بأنّه سياسي، وهي تسمية تجد تبريرها باعتبارها كانت تعني عند **اليونانيين** "فنّ حكم المدينة"، ولكن في التسمية مغالطة إذا اعتبرنا أن السياسة الحقّ هي التي يجب أن

---

(١) نسبة إلى البُنْدُقِيّة بالإيطالية (*Venezia*)، وهي مدينة بشمال إيطاليا وعاصمة إقليم فينيتو وعاصمة مقاطعة فينيسيا. تعد مدينة البندقية أكبر مدينة بالإقليم من حيث عدد السكان والمساحة. تتكون من جزئين منفصلين وهما الوسط (الذي يحتوى على بحيرة تحمل الاسم نفسه) وميسترى والمنطقة اليابسة. ظلت المدينة لأكثر من ألف عام عاصمة «جمهورية فينيسيا» وكانت تعرف باسم ملكة البحر الأدرياتيكي. نظرا إلى تراثها الحضارى والفني، ومنطقة البحيرات التي بها، تعد من أجمل مدن العالم التي ترعاها منظمة اليونسكو وهو ما جعلها ثاني مدينة إيطالية بعد روما من حيث ارتفاع نسبة إقبال السياح على زيارتها. (المترجمان)

تكـون غايتُهـا المصلحةَ العامة؛ فأنْ تمارس السياسـة بالمعنى النبيل، هو أن تعمل على تحقيق مشروع اجتماعي ثقافي، أي أن تعتمد على مفهوم بعينه للإنسان. هل كان البورجوازي بهذا المعنى يمارس السياسة؟ لقد مال فريق بحثنا كلّ الميل إلى الإجابة عن هذا السؤال بالسّلب: كان كلّ هم البورجوازي إلى حدود سنة ٢٠٠٢ هـو تنظيـم عالمـه الاجتماعي وفـق مقتضيـات التجـارة، وكانت مُثُله تحمل اسـم المصلحة والمردود، وكلّ ما كان يقدر على تصوّره باعتباره عملا سياسـيا خالصًا هو جملة من ممارسـات التسـيير، أو هو -إن شـئنا- فن تشـغيل أسـواقٍ تدرّ عليه أقصى ما يمكن من الأرباح. فأنْ ينتج ويبيع ويستثمر ويستهلك ذلك هو ما يختزل كفاءاته وطموحاته، لقد تمثّل البورجوازي منذ البداية التنظيم الاجتماعي والقانوني لمدينته بأسلوب نفعي خالص.

في المستوى الفلسـفي بدت لنا هذه السـمة جديرة باهتمام أكبر إذ سرعان ما أخضـع الآبـاء المؤسّسـون للغـرب الحديـث مبادراتهـم التـي تدعـى "سياسـية" لاعتبـارات اقتصادية، فماذا كان همّهم الأوّل من الناحية العملية؟ إنّه بكل بسـاطة تأميـن حقـوق وامتيـازات يتمكنـون بفضلها من ممارسـة مِهَنِهم، إننا لنـدرك جيّدا لماذا كانت الصراعات الطويلة التي خاضوها ضدّ الإقطاعيين تُقدَّم عادةً على أنّها "سياسية"، ذلك أنّ تمكُّنهم من تحرير "القرى" واشتغالهم بإبراز "أعيان المدينة" من تجار وصيارفة أتاح لهم فعلا تقويض شـكل من أشكال التنظيم الجماعي الذي لا يناسـبهم، ومع ذلك قد بدا لنا في غاية الوضوح أنّ طموحاتهم كانت قصيرة جدًا، " فأيّ طينة من الإنسان نريد أن نصنع؟" الرأي عندنا أنّ هذا السؤال مصيريّ، لا بدّ أن يواجهه كلّ شـخص يَزعم "ممارسـة السياسـة"، ورغم أهميته فقد نسـيه الغرب الحديـث منـذ بداية تاريخه، ولم ينجـح قطّ في أن يبوّئه المكانة التي يسـتحقّ، أيْ مكانته الأولى.

لقد مارس البورجوازيون بهذا المعنى السياسة منذ **العصر الوسيط** رغم أنوفهم، وعندما فرضوا أنفسهم أمام النبلاء ورجال الكنيسة لم يكونوا ألبتّة يريدون إرساخ قيم جديدة في مدلولها السامي والشعري للكلمة، لقد كانوا يرغبون بكلِّ بساطة في توفير ظروف مناسبة تنمّي تجارتهم وتيسّر تنقّلاتهم، فيشترون ويبيعون بحرية، ذلك ما كانوا يبتغون قبل كلّ شيء وتلك هي الفلسفة العميقة التي كانت تحدّد مفهوم "الحرية" لديهم، حيث كانت التجارة أساس نفوذهم ومَبْلَغَ عِلْمهم أيضا، ولم يكونوا بعد يحلُمون بإنشاء "**الدولة الحديثة**" (وبعبارة أخرى **دولة** تكون متعاونة مع التجار والمتصرفين الماليين أصحاب المشاريع الرابحة) مسخّرة لتلبية حاجاتهم، وشيئا فشيئا صاروا ببساطة يناضلون بدافع توْقِهم إلى المال من أجل الحق في التنقل والمبادلة، ومن أجل جباية أقلّ، ومن أجل الإفلات من مراقبة سلطات الإشراف؛ ليراقبوا بأنفسهم كلّ ما يتّصل بإنتاج السلع وسلامة التجارة والدورة المالية وغيرها، وإذا كانت البورجوازية قد دعَمَت الملكية عامّة مثلما لاحظ ذلك جان-ويليام لابيار Jean- William Lapierre فذلك لأنّ" مصلحتها كانت تقتضي ضمان الأمن اللازم لحرية تنقل البضائع في سوق وطنية كبرى ولانتظام عملية الإنتاج".

كان من الواجب على البورجوازيين حمل السلاح أحيانا، ولكن كان شراؤهم (بالمعنى الدقيق للكلمة) للامتيازات التي يحتاجون إليها في نهاية الأمر أيسر عليهم، فيكفي أن ينفقوا القليل من الذهب الكثير كي تهدى إليهم "امتيازات ثمينة"، وكانت المفاوضات التجارية والمفاوضات القانونية في انسجام تام. هل ينبغي التذكير بأنّ المدن أضحت بسرعة فائقة مرْتعًا لرجال القانون، وعُدول الإشهاد والمحامين؟ لم يكن التاجر يُلِحُّ في الطلب؛ حتى يُعطى "الحق" في أن يفعل ما يريد، وعندها يكون راضيا. لم يذُرْ بخلَده أن يقْمَع مواطنيه وكان يكفيه أن يصبحوا

المنتجين والمستهلكين الذين يحتاج إليهم لتزدهر تجارته، ولم يكن لذلك أثر عميق في المستويين الثقافي والسياسي.

كان غيزو Guizot نفسه وهو ذاك البورجوازي الذي سبق لنا أن ذكرناه واعيًا لذلك، لقد كتب يقول: "إنّ للبورجوازية خصالا جمّة لكنّها كما يظهر من خلال تاريخ أوروبا وفرنسا على وجه الخصوص (...) من النادر أن أعطت انطباعا بأنّها قوّة كبيرة معتدّة بذاتها وقوّة سياسية بأتمّ معنى الكلمة"، والاعتراف المرعب الذي يسهل مع ذلك فهمه في سياقه التاريخي هو قوله:"لم يكن ذلك بأي حال من الأحوال استجابة لنظرية سياسية ولا بسبب شعور بالكرامة لديهم. كانت المدن تمنح نفسها حقّ تكوين مليشيات وجمع الجباية لإعلان الحرب وتعيين حكّامها وقضاتها لكي تمتلك الوسائل التي تمكّنها من مجابهة النبلاء الذين كانت تثور عليهم، أي أن يكون لها الحق في أن تسوس نفسها بنفسها"، لقد أظهرت نهاية القرن العشرين كم كان غيزو محقًا عندما قال: وجب علينا أن نتوقّع أن ثقافة التجّار لا تتمخّض عنها سوى سياسة تجّار. ولو كان ذلك في حالات استعجالية قصوى. لم يكن البورجوازي شريرا، لقد كان فقط محدود الرؤية أي عاجزا عن أن ينظر إلى أبعد من الأفق الذي تحدّده مصالحه الآنية والمادية الضيّقة.

لقد لاحظنا إذن أنّ هناك تواصلا واضحًا من القرن العاشر إلى **الانفجار الأكبر**، لقد تقرّر مصير الغرب عند **التحول العمراني الأكبر**، ويجب أن نقرّ بذلك: لقد حظي مؤسّسو الحضارة البورجوازية بدعم متعدّد، فالنبلاء أنفسهم شاركوا هم أيضا في أغلب الأوقات في نشأة العالم الجديد، رغم مقاومتهم إياه في مناسبات كثيرة، ووفاءً منهم لتقاليدهم لم يكن بإمكانهم الانخراط بصورة عادية في قيم **الربح**، ومع ذلك كانوا يملكون شأنهم في ذلك شأن المسؤولين في

الكنائس والأديرة خبرة حقيقية في مجال التصرّف الاقتصادي، ففي إنكلترا ذكر المؤرّخ جاك هيرس Jacque Heers أنّ "اللوردات كانوا يُديرون ضيعاتهم مثلما تُدار الشركات".

فلم يكن من الغريب إذن أن يتعلّم كثير منهم لغة التجار سريعًا، وأن يساهموا على طريقتهم في بناء العالم الجديد؛ إذ يمكن للسيد النبيل أن يقيم بالمدينة، أو أن ينيب من يمثّله فيها، وفيما عدا ذلك كان زمام المبادرة دوْما بيد البورجوازيين.

إن الاعتبارات التي سبق ذكرها والتي تبدو بسيطة في الظاهر توشك مع ذلك أن تحجب "السرّ" الحقيقي، و"معجزة" المدينة الغربية، والحقّ أن المدن توجد في العالم كله تقريبا، وكما كتب المؤرّخ فرناند برودال Fernand Braudel قائلا: " حتى إفريقيا السوداء كانت لها مدنها، وحتى الحضارات في أمريكا ما قبل كريستوف كولمب كانت لها نجاحاتها، نعني حضارة تنوشتيتلان في المكسيكو *Tenochtitlan(Mexico)* وكيزكو *Cuzco* "، وكانت هناك مدن كبرى في **العصر الوسيط** في الصين وفي الإمبراطورية البيزنطية، وإذا ما عدنا إلى ماض أبعد من ذلك ضارب في القدم ألْفَيْنا المدن عند السومريين وفي مصر، ولا ننسى ذكر إسبرطة وأثينا وروما. لقد طرح مؤرّخ القرن العشرين كارلو كيبولاّ carlo Cipolla المسألة على هذا النحو: " إذا كانت مدينة العصر الوسيط قد أعطت التاريخ الأوروبي طابعا مميّزا، وإذا كانت قد حدّدت معالم تطوّر تاريخيّ يختلف كثيرا عمّا نشاهده في مجتمعات أخرى، كان لا بدّ أن يكون لمدينة العصر الوسيط شيء يميّزها جوهريا مقارنة بالمدن التي نشأت في أماكن وعصور أخرى".

فأين يكمن الفرق؟ لقد سبق لنا أن أكّدناه تأكيدا: كانت مدينة العصر الوسيط تُؤوي عددا من التجار والصيارفة والحرفيين، لكنها كانت تؤوي كذلك كُهّانا

ورُهْبانا ونبلاء وكتّاب العدل وقضاة وأطباء وغيرهم، وليس لهذه التركيبة السكانية في حدّ ذاتها أيّ شيء مميّز، ففي الصين أيضا وُجِدت مدن كانت التجارة فيها تحتلّ مكانة مرموقة، ويعيش داخلها سكان يشبهون سكان مدن **الغرب**، غير أنّ نموّ سكان تلك المدن قد سلك نهجا آخر، ومنحى مغايرًا، فالفرق يكمن كما ذكر ذلك كارلو كيبولاّ في المكانة الاجتماعية والثقافية الرفيعة التي يتمتّع بها التجار الغربيون وشركاؤهم، ففي مدن العالم الروماني الإغريقي أو في الصين لم يكن للتجار والحرفيين والصيارفة هذه المنزلة الرفيعة، كانوا أثرياء ولكن ثراءهم لم يُتِح لهم أن يكونوا عُنوان حضارتهم. في مقابل ذلك أمّنت الثورة العمرانية في الغرب هيمنة التجّار، ورجال الأعمال والمتصرّفين الماليين، ولم يكن ذلك في الميدان الاقتصادي فحسب، وإنما في المستوى الثقافي أيضا. لقد أصبحوا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وعن قصد أو عن غير قصد المبدعين المؤسّسين لنمط عُمراني جديد، فقد فَرَضت أهدافُهم وطرائقُ تفكيرهم وأنماطُ عيشهم نفسَها على الجميع شيئا فشيئا، وكانت خصوصية الغرب تكمن هناك، أي في تولّي تاجر العصر الوسيط السلطة داخل المدن بداية من القرن الثاني عشر، وكانت مُثُل البورجوازي تأخذ طريقها دائما على نحو أوضح وأعمق أثرا في تأسيس جملة المعتقدات والممارسات التي أطلق عليها أهل الحداثة بعد ذلك اسم "الحضارة"، من ثمّ تتراءى لنا حقيقة المدينة الغربية، لقد كانت وسيلة جديدة للانقطاع عن البادية وعن البداوة.

ذلك أنّ مدن بلدان العالم الأخرى بقيت مرتبطة بالأوساط الريفية التي نشأت فيها، ومثلما كتب ذلك كارلو كيبولاّ فيما يختص بالصين فإنّ " المدينة لم تكن جسمًا مستقلًا بذاته، وإنما كانت عضوا ينتمي إلى سياق عام يتكامل فيه الريف والمدينة"، وبعبارة أخرى كانت القيم السائدة في المدن نفسها ريفية في جوهرها،

فالعقائد والعادات التي تكوّنت في البوادي المجاورة هي التي كانت مهيمنة، وكانت بذلك كفيلة بضمان انسجام ثقافي حقيقي بين أهل المدن وبقية السكّان، وخلافًا لذلك كان التوجّه في الغرب ينحو نحو الفصل الحاسم بين المدينة والبادية، بل وجعلهما على طرَفي نقيض، " لقد صارت المدينة في أوروبا في العصر الوسيط تشهد تناميًا غير مسبوق، ثمّ أضحت جسمًا في غاية الخصوصية، غريبًا كلّ الغربة عن الوسط الذي يحيط به".

ومن البديهي أن لا يتحقق هذا الفصل الثقافي بين عشية وضحاها، فبين القرية الصغيرة الريفية الخالصة، والمدينة الكبرى الحضرية الخالصة عرف الغرب أشكالا انتقالية وسطى، وقد بيّن ماكس فيبر إلى أيّ مدى كان مسار التعمير يسري بطريقة لا تُحسّ، فكتب قائلا: "في **العصر الوسيط** كانت هناك "مدن" بالمعنى القانوني للكلمة، لا يعيش تسعة أعشار سكانها أو أكثر من ذلك إلا على زراعتهم الخاصة.(...) وبطبيعة الحال كان المرور من مثل هذه المدن المكوّنة من أنصاف بدْو إلى مدينة المستهلكين والمنتجين أو التجار خفيّا". هل كان صانعو الحضارة الجُدد في البداية يدركون ما يفعلون، لنا أن نشكّ في ذلك؛ إذ من السذاجة حقّا الاعتقاد أن التجار أفاقوا صبيحة يوم من الأيام ليصوغوا طموحاتهم صياغة واحدة: نحن التجار سننشئ مدنا تنتج أناسا جددا، أناسا من درجة أرقى، نحن التجار سنمحو الثقافات القديمة وكلّ الثقافات البدوية من على وجه البسيطة.

لقد ظلّت المدن والأرياف في المستويين الاقتصادي والديمغرافي مرتبطة بشبكة واسعة للتبادل؛ ذلك أن أهل المدن أنفسهم كانوا من أصول ريفية، وكانت المدن تستقطب عددا هائلا من البدْو منقطعين عن جذورهم بنسب متفاوتة. فكيف أمكن بالفعل تأمين تزويد مدينة كبرى بما يلزم دون استدعاء المزارعين؟ لقد انطلقت شرارة "ثورة عمرانية حقيقية".

بذلـك أقيمت موازين قوى جديدة في المسـتويين الاقتصـادي والثقافي على حـدٍّ سـواء، وكانت قواعـد اللعبـة الاجتماعية الجديـدة والملامح العامـة للغرب الحديث تتشـكّل في العالم الصغير الذي أعدّه التجار، وبهذا المعنى كانت المدن أماكـن على حِـدَة، " كانت تنمو باعتبارها عوالـم مسـتقلة، ووفقا لمنحى تصاعدي خاص بها، وذلك ما دوّنه فرناند برودال، وقد هيمنت بقوّة على الأرياف المجاورة وكانـت بالنسـبة إليها مسـتعمرات حقيقيـة قبـل الأوان، وكانت تعاملهـا على ذاك الأساس".

كيـف نجحت مدينة العصر الوسـيط فـي "الانفراد بمعزل عـن الآخرين وعن المجتمعـات الريفيـة وعن الروابط السياسـية القديمة"؟ "مـن المهم -وهو من غير المتوقّـع- أنّ بعـض المـدن قوّضـت الفضاء السياسـي برمّته، وتشـكّلت في عالم مسـتقلّ في صورة "الدولة-المدينة" المدجّجة بامتيازات مكتسبة أو منتزعة، كانت بمثابة الحصن التشريعي الذي يضمن لها الحماية.

كانت في اليونان وفي بلاد الإسلام وفي الصين تنشأ مدن جديدة أويتمّ إحياء القديم منها، لكن في معظم الحالات كانت الدولة في مواجهة المدينة التي تخضع لهـا وتعيش فـي قبضتها الشـديدة، "والمعجزة في قرون التمـدّن الأوروبي الكبيرة تتمثّل في أنّ المدينة قد ربحت هذه المواجهة على الأقل في إيطاليا وفي الفلاندرز *les Flandres* وفي ألمانيا".

فمـن الأرياف انطلق الحـرا. إذ بعد الغزوات الكبرى كان من الضروري دفع عجلة الزراعة لكي تعود الحياة فعلا إلى طبيعتها، لقد ذكر فرناند برودال أنّ المدن قد نمت في مرحلة أولى " في توافق مع القرى"، ولكن هذه الوضع لم يدم طويلا، إذ بازدهـار التجـارة ونهـوض الاقتصـاد المالـي تقدّمـت المـدن بخطى حاسـمة،

وهنالـك انتعـش التجار والمرابون، أي الرجال الذين كانوا قادرين على اسـتعمال اقتصادِ سوقٍ لا يفقه المزارعون وعامّة الناس[1] أسراره وتقلّباته لخدمة مصالحهم. كانـت هيمنـة المدن تعني هيمنة المـال، ولقد رأى لاهوتيٌّ عاش فـي القرن الثاني عشـر هو ألان دي ليل Alin De Lille ذلك بأمّ عينيه وكتب يقول:" المال هو كلّ شيء الآن وليس القيصر".

ومـع ذلـك كان "للثـورة العمرانيـة" انعكاسـات أخـرى؛ إذ لـن تؤكّـد المدينة خصوصيتها بتنظيمها ونمط عيشـها وأسـلوبها في التفكير فحسـب، وإنما سينتهي بها المطاف بعد ذلك بقليل إلى تحديد هويّتها على أنقاض الريف وإعلان "تفوّقها" عليه.

كانت نهاية مطاف الثورة "العمرانية" نموّ مدن منفصلة عن عالم الريف، دَيْدنُ ثقافتها الاسـتغناء عنه، ومدينة البندقية خير مثال على ذلك: ففيها رسـخت بصورة مثلى أو تكاد الملامحُ الأفصح تعبيرا عن الحداثة العمرانية، إذْ كان الناس يكتشفون عند زيارة البندقية **عالَما جديدا** بأتمّ معنى الكلمة، أي مدينة بلا رعاة ولا مزارعين سـخّرت نفسـها للتجارة الخالصة، لقد ترك لنا رحالة من القرن الحادي عشـر نصًا يعبّر فيه عن اندهاشه يقول: " هذا الشعب لا يحرث أرضًا ولا يزرع حبّا ولا يجني ثمارا" أي باختصار شديد نموذج لمدينة امّحت فيها آثار بربرية المزارعين كلّها.

لقـد عمدنـا إلى اسـتعمال هـذه العبـارة؛ لأنّ أجدادنـا وإن زعموا أنّهـم كانوا منفتحين روحيا فإنّهم كانوا يعتبرون بداهةً أنّ المزارع رمز للبربرية، لقد كتب نحو أواسـط القـرن التاسـع عشـر كارل ماركـس Karl Marx وفريدريـك إنغلـز

---

(١) وهي طبقة أخذت بعْدُ في التشكّل داخل المدن إلى جانب الطبقة البورجوازية. (المترجمان)

Friedrich Engels على سبيل المثال في مؤلّفهما "الإيديولوجيا الألمانية": " إنّ المقابلة بين المدينة والريف قد برزت عند المرور من التوحّش إلى الحضارة ومن النظام القبلي إلى الدولة ومن القرية إلى الأمّة واستمرّت عبر تاريخ الحضارة كلّه إلى يومنا هذا"، فلئن أُتيح لماركس أن يبدو مناهضا للبورجوازية، فإنّه كان معجبا بنجاعتها وحركيتها التي كان يضعها على طرفي نقيض مع " التكاسل الوضيع" في العصر الوسيط.

وفي بيان الحزب الشيوعي تكرّر على هذه الشاكلة موضوع الريف المتوحّش فقيل مثلا: " لقد أخضعت البورجوازية الريف لهيمنة المدينة، فأنشأت أحياء عملاقة وضاعفت بصورة خيالية سكان المدن على حساب سكان الأرياف وخلّصت بذلك نسبة كبيرة من السكان من براثن الحياة الريفية التي تصيب عقولهم بالبلادة، ومثلما جعلت الريف يخضع للمدينة فقد أخضعت البلدان المتوحّشة وأنصاف المتوحّشة للبلدان المتحضّرة والأمم المزارعة للأمم البورجوازية **والشرق للغرب** ".

والأمر هنا واضح وضوح الشمس في كبد السماء: لقد أُلْقي المزارعون والبرابرة و"المشارقة" في سلّة واحدة. وقد عثر باحثونا على مئات من النصوص التي تكرّس بشراسة متفاوتة الاعتقاد الأساسي التالي: أقلُّنا بداوة حتما أقلُّنا توحّشا.

إن أصل كلمة "حضارة" نفسه بدا لنا ذا دلالة: لقد كان يعني المكانة الرفيعة التي يبلغها الناس بسبب مشاركتهم في حياة المدن أي العيش في المدن، وكان من البديهي أن يعمل المتمدّنون على تكريس هذا المفهوم، فقد كانت "المدنية" المحبّبة" تقابلها "البداوة"، وسلوك البدوي الفظّ الغليظ، وصفات مثل جِلْف

وأخْرق وعَفِن وفظّ كانت تعبّر ثقافيا عن كِبْرٍ مهوس لدى رجل المدينة، الذي لم يكن يرى في ذلك أذى، ومع ذلك ألم يكن لكلّ متمدّن حقيقي هنا أوهناك منزل ريفي صغير تطيب به نفسه؟

إنّ في مفهوم "التمدّن" اجتماعًا مكثّفًا لبعض صفات الغرب الأعمق؛ فأن تكون "متمدّنا" لا يعني فقط أن تسكن المدينة وتحسن التصرّف بلياقة، لقد أعلن ذلك بقوّة كلّ من جاك لوغوف Jacque Le Goff وميشال لوارس Michel Lauwwers سنة ١٩٩١ بقولهما: " التمدّن يعني الوعي بالانتماء إلى وسط متميّز هو المدينة وقد يفضي إلى مواجهات دامية مع من لا ينتسب إليه"، وفي وقت مبكّر أضحى البورجوازي لا يحسّ بذلك فحسب، وإنّما يفخر بالتبجّح به على الملأ. وفي رأي باولو دا سرتلدو Paolo da Certaldo وهو تاجر فلورنسي عاش في القرن الرابع عشر كان التمدّن فضيلة من الفضائل، وفي كتابه "سفر الحياة النزيهة" كان يقول مفاخرًا في هذا الموضوع: " المدينة فقط هي القادرة على صنع الرجال، أمّا الريف فلا ينتج سوى الأنعام"، فأن تكون رجلا يعني أن تكون بورجوازيا، ولكي تكون بورجوازيا ينبغي أن تربح المال. وقد كتب باولو ذاته يقول: " إنه لعِلْم جميل وعظيم أن تُحسن جمع المال".

وفي قاموسه الذي نشر سنة ١٦٩٤ ذكر الفرنسي فيروتيار Furetière في مقال له حول فعل "حضّر"[1] أنّ " المزارعين ليسوا متحضّرين مثل البورجوازيين"، وفي منتصف القرن التاسع عشر أخذ المشعل عن سلفه أدولف بلانكي، فكتب يقول: " تمثّل القرية والمدينة (...) نمطَي حياة اجتماعية على طرفي نقيض إذ تغطّ الأرياف (...) في ركود عميق وتعيش حالة من الجمود المطلق تقريبا، وكثيرا ما

(١) أي أن تجعل المتوحّش متحضرا. (المترجمان)

نشهد فيها آثار التوحّش خلافا للحركة التمدينية التي عمّت المدن المجاورة". كان المؤرّخون الأوسع اطّلاعا على علم تام بذلك، إذ كان استهجان عالم الريف في الغرب واقعا ثابتا، وفي المقابل كان في حوزة الملطّخين بالوحْل والمتوحشين الآخرين ردود ثقافية ([كقولهم:] الباريسي رأس الكلب وهو رأس الثور أيضا)[١] لكن المعركة كانت غير متكافئة، وسرعان ما أدرك المزارعون ذلك، لقد كان هرم مكوّن من سُلَط حضرية مسلّطا على رؤوسهم يتهدّدهم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، ففي بلد مثل فرنسا كان التفاضل بين المدن والأرياف في القرن العشرين ساطعًا كضوء النهار، وفي أعلى الهرم توجد باريس العاصمة التي تسحق بعظمتها كلّ مدينة أخرى، وفي الأسفل توجد بعض المدن الكبرى ثمّ تتنزّل مدن أصغر فأصغر، وفي الحضيض تَقْبَع القرى والتجمّعات الريفية وطائفة من المتساكنين أقرب إلى "التوحّش"، فالمزارعون الذين لم يحالفهم الحظّ قطّ، ولفظة "مزارع" في الفرنسية التي تنحدر من كلمة (paganus) اللاتينية أطلقها المسيحيون على الوثنيين PaiensK لكنّ ديانة التقدّم لم تكن أرحم، ففي الثقافة الحديثة يمثل المزارعون القطب السالب وهو قطب مناهض للتقدّم.

كانت صفة "ريفي" أقلّ أذىً من وصْمة "عَفِن"، لكنها تحمل في طيّاتها استهجانًا بيّنًا، فإذا كانت هيئة المرء ريفية، فذلك لأنّه لم يواكب التقاليد الباريسية (ومن ثمّ لم يكن متحضّرا حقّا)، وفي فرنسا زمن السقوط -كما نعلم- كان هناك حديث عن منح الأرياف استقلالية واسعة، وفي الوقت ذاته كان زعماء "التقدّم" لا يفكّرون إلا في بناء **أوروبا** تكنوقراطية واقتصادية مُعَقْلَنة وموحّدة كلّيا، وعلى أيّة حال كانت الهيمنة السياسية للعاصمة داخل الحدود الوطنية مطلقةً عمليًا، ويجدر

---

(١) رأس الكلب كناية عن الدناءة ورأس الثور كناية عن الحماقة والعناد. (المترجمان)

بنـا التذكيـر بأنّ قرارات اللامركزية كلّها كان يصوغهـا ويتابعها **ديوان مركزي كبير للامركزية** مقرّه في قلب العاصمة باريس.

يمكن أن تضحكنا اليوم هذه التسمية الفريدة ولكن في واقع الأمر كان الوضع سيّئا للغايـة. لمـاذا لم يـدرك أهل الحداثـة ما يعنيه تأليـه **مدينة**؟ لأنّهـم في الواقع استمرّوا في توسعة مدنهم إلى أقصى الحدود، ولو كانوا يمتلكون حدّا أدنى من الـذكاء الرمـزي، وتفطّنـوا لمـا يخبّئـه مبـدأ **المدينـة** نفسـه؛ لعالجوا "المشـكلات الحضرية" السيّئة الذكر بطريقة أخرى تختلف عن تلك التي انتهجوها. لقد اعتادوا التمسّـك بمعالجـة كلّ مشـكلة على حِـدَة، وكأنّ العنـف والإقصـاء والمخدّرات والضواحـي وغيرهـا، لا تعدو أن تكون مجـرّد صعوبات تقنية، كلّ ذلك كان يعتبر بالنسـبة إليهـم مجـرّد حـوادث، وإن شـئت فقـل "حـوادث سـير" بسـيطة عرَضية، فيكتفون بالمعتاد وهو إنشـاء لجان أو مجالس تتمخّض عنها قرارات عامّة لا تُنَفَّذ في معظم الأوقات.

لا نجد اليوم أيّ صعوبة في فهم الأسباب التي جعلت تراكم "الحلول" الجزئية أمـرًا لا طائـل من ورائه، ربما كان من الصعب الوعي بذلك في تلك الفترة، ولكن كيف أمكن للسلطات الرسمية الاعتقاد بأنّ الاكتفاء بمؤسّسات ترقيعية، وإجراءات بوليسية ومساعدات اجتماعية و"قروض استثنائية" كفيل بوضع حدّ لتزايد "المآسي" و"القلاقل" الحضرية الأخرى؟

كان الفـراغ الروحـي لديهـا مفزعًا إذا مـا نظرنا إليها في المـرآة، كان هناك مع ذلـك بعـض الجمعيات التي أبدت فـي أرض الواقع ذكاءً وإخلاصًـا، لكنها كانت معزولة نسبيًا، تعوزها الوسائل ولا تستطيع منفردةً القيام بهذه المهمّة.

لـم يخطر ببـال أهل الحداثة -على مـا يبدو- أن تكون **المدينـةَ** موْطنًا لولادة

القيم الغربية المزعومة وجُبّا يُقْبَرون فيه، لقد بيّن بعض المفكرين من ذوي الحدس القوي عواقب "المنطق التجاري" الخاص بالمدن، ولقد وضّح الألماني جورج سيمّال George Simmel في بداية القرن العشرين الأسباب التي جعلت " التبادل غير المباشر" يهيمن في المدن، وكان منطلقه بسيطا: " كانت المدن الكبرى دائما مركزا للاقتصاد المالي، يعير فيها ازديادُ المبادلات الاقتصادية وكثافتها أهميةً كبرى لا تتاح للتجارة الريفية المحدودة أن تعيرها إياها».

وبعبارة أخرى إنّ المدن التجارية قد قطعت الاتصال المباشر بين الناس والباعة والمشترين شيئا فشيئا، وعوّضتهم بعلاقات غير شخصية «موضوعية» تغيب فيها حرارة العلاقات الإنسانية، وكما كتب سيمّال يقول إنّ المهيمن في الاقتصاد المالي هو الفكر؛ إذ حَسْبنا أن نتأمّل «مصانع البيع» التي صارت تشكّلها المساحات التجارية الكبرى، أو المؤسسات الكبرى للبيع بالمراسلة أو أن نتأمّل **البورصة** مؤسسةً حضريّةً بامتياز، أضحى الإنسان فيها قطعة نَكِرة في آلة الاقتصاد الكبرى، ومن المفروض أن تكون هذه الأخيرة عقلانية وهو ما يعني عمليا تجاهل الجوانب الفردية للكائنات البشرية، وإهمالها وإدراجها في غياهب اللامعقول، وكلّما كان المصنع كبيرا استوجب تسييرا يوافق الحسابات الدقيقة اللطيفة التي تتخذ مقياسا لها مقدار النجاعة.

لقد لاحظ سيمّال أيضا أنّ» المال يقتضي بالضرورة صلة بما يشترك فيه الجميع كونياً وما تفرضه قيم التداول»، ففي عالم المال إذن ميل جارف إلى سؤال واحد حول علاقة الفرد ببني جلدته هو سؤال «كم؟» من أجل ذلك كان انتصار المدن الكبرى وانتصار التجار المتزامنان يقتضيان تغييرا في العلاقة بين الناس، « فسائر العلاقات العاطفية بينهم تبنى وفق تفرّد كلّ منهم، فترى العقلانية في

الكائنات البشرية أرقامًا وعناصر لا قيمة لها في ذاتها، ولا تكمن أهميتها إلا في مردودها الموضوعي القابل للقياس، هكذا كان يعامل سكّان المدينة الكبرى مزوّديهم وعملائهم وخادميهم، وحتّى من ترتبط بهم ضرورات العيش داخلها».

وكما ذكر ذلك سيمّال أيضا كان المُنتِج في السابق يعرف عميله، وقد جرت العادة دائما أن يُشترى الأثاث مباشرة من عند النجّار، « لكنّ المدينة الحديثة الكبرى تعيش تقريبا بصورة كاملة ممّا ينتج لحساب السوق، أي لعملاء مجهولين ولا يتسنّى للمنتج نفسه رؤيتهم ألبتّة، من أجل ذلك وصَمت واقعية لا تعرف المشاعر طريقًا إلى مصالح الطرفين، فأنانيتهما الاقتصادية تقوم بحسابات عقلانية لا تخشى على نفسها الانحراف الذي كان يسبّبه التعامل الحيّ بين الأشخاص». من الصعب على المرء أن يزيد الأمر توضيحا: إنّ العلاقات التجارية لَتَنْفي العلاقات العاطفية إلى أقصى الحدود، وبالنظر إلى طبيعتها غير الشخصية فهي تستبدل بالمشاعر لعبةَ المصالح. لماذا إذن لم تنبّه تلك الأفكار السديدة أهل الحداثة؟

لقد سنّ مجتمع التجّار جملة من القوانين والتراتيب؛ لضمان سير جيّد للمبادلات، وكما تؤكّد كثرة كاثرة من وثائق أرشيفنا، فإنّ مؤسسات ما يسمّى بـ«**العدالة**» والمؤسسات التجارية كانت تعيش في انسجام تامّ، فكثير من الغربيين كانوا فخورين برجال القانون عندهم، وكانوا يرون فيهم أنصارا للعقلانية. ألم يوضع الناس والأشياء في شبكة «عقلانية» للقيم الموضوعية. لقد أكمل سيمّال وصفه بتعليق تجاهله أجدادنا أو قل بخَسوا محتواه، فقد كتب يقول بأنّ تلك العدالة الشكلية كانت « تصحبها في الغالب قسوة شديدة».

كان تجريد الإنسان من إنسانيته بصورة آلية تعاضده من جانب آخر نشأة

«علوم اقتصادية» تكشف في تقديرهم عن القواعد التي تنظّم سير الإنتاج وتبادل البضائع، ويبدو لنا اليوم في سنة ٢٠٨١ أنه كان ينبغي أن يكون الناس أغبياء لكي يصدّقوا تخمينات رجال الاقتصاد كلّها، لكنّ واقع الأمر أنّ أجدادنا قد صدّقوا خطابات الخبراء مهما كانت أخطاؤهم أو حتى تناقضاتهم، ولكي يؤمن بهذا العلم من لم يكن قد آمن به بعْدُ أنشئت جائزة نوبل للاقتصاد سنة ١٩٦٩، فأيّ عقل «حداثي» من بعد ذلك كان سيشكّ في المكانة العلمية لهذا الاختصاص؟ ولقد ساهم هذا الإقرار في جعل متطلّبات الأنشطة التجارية والمالية «موضوعية» أكثر من ذي قبل.

«لقد صار العقل الحديث-حسب سيمّال دائما- أمْهر في الحساب يومًا بعد يوم، إنّه تطوّر محتوم لا محالة، بعد أن أُرْسِيت أسس المنطق الحضري والمالي. إنّ الرغبة في تحقيق نجاعة أكبر وتعقّد حياة المدينة كانتا تقتضيان تنظيما للوقت والمكان أشدّ صرامة، ففي العالم الحضري وجب أن تكون مواعيد المرء مضبوطة، وإلا سقط الكلّ في «الفوضى العارمة». لقد أصبحت الساعة الحائطية (التي ستكون الفرصة سانحة للحديث عنها) رمز ذلك التزامن الميكانيكي؛ لنستمع إلى سيمّال يقول: « لو أنّ كلّ ساعات برلين أخذت تشير إلى أوقات مختلفة؛ لاختلّت في ظرف ساعة واحدة حياة المبادلات الاقتصادية وغيرها لفترة طويلة». كنّا إذن نلمس في كلّ مكان عملية لضبط كلّ شيء، وفق الآلية التقنية المتحكمة في الحياة الاجتماعية، لكن في الوقت ذاته كان الناس معرّضين لمنبّهات عديدة تزداد وتتنوّع في كلّ حين، مثلما ذكر ذلك سيمّال: « إنّ القاعدة النفسية التي يرتكز عليها أنموذج الفرد الذي يسكن المدينة الكبيرة، هو الانفعالية التي تنجم عن التغيير السريع المتواتر في المؤثّرات الداخلية والخارجية»؛ لذلك كان ينبغي على أهل المدينة حماية أنفسهم، أي أن يتعلّموا تجنّب ردود الفعل التي تغلب عليها العفوية

الخالصة والحماس الشديد، فكبْح جماح المشاعر وسيطرة العقل هو منتهى ما أفضت إليه (وما ستفضي إليه من بعد دوما) حضارة المدينة.

ومن مضارّ التنبيهات العصبية التي كان سكان المدن يعيشون تحت وطْأتها حسب جورج سيمّال إضعاف الإحساس لديهم فلا يدركون أهمّ ما يميّز الأشياء، وساهم الاقتصاد المالي مساهمة فعّالة في إرساخ هذه الظاهرة؛ لأنّ المال باعتباره كمًّا خالصًا ينحو دائما إلى طمس فوارق الكيف، وإلى إغراق الأشياء في ضبابية وجودية واحدة، فإذا ما سلّمنا بأن يكون المال هو القاسم المشترك بين جميع القيم، أصبح - كما ذكر ذلك سيمّال- « أداة تسوية مخيفة؛ إنّه يفرغ الأشياء نهائيا من محتوياتها، وممّا يميزها من خصائص وقيم، إنّها تطفو جميعها بوزن مميّز واحد في نهر المال المتدفّق، فتجدها كلّها في مستوى واحد، لا فرق بينها إلا حجم الأسهم المالية التي تملك».

ومن الممكن أن تفوق هذه الاعتبارات وإن كانت أوّلية قدرات الإدراك عند **الغربيين**، فقد انتهى بهم الخضوع الكامل لسلطان المال-كما سنرى ذلك فيما يأتي- إلى تحريم كلّ تفكير نقدي حقيقي حول «حضارتهم» دون غيرها، والشيء من مأتاه لا يُستغرب، فالمجتمع الذي هيمنت عليه منذ نشأته صورة **التاجر** هو مجتمع مصاب بإعاقة بليغة، وقد حُكِم عليه بالعُقم الشعري والروحي؛ ولإيجاد فرصة سانحة تجنّبهم **الانفجار الأكبر** كان من المفترض أن تكون لديه الشجاعة والحكمة الكافيتان لمساءلة ماضيه، والتوجّه الذي اختاره والأساطير المؤسّسة[1] التي صنعها لنفسه، فربما تخلّص عندئذٍ من الهياكل الميّتة بطبيعتها، ومن العقائد التي كان لا يؤمن بها إلا بحكم العادة.

---

(١) أي الأساطير التي اتخذ منها أساسا لثقافته. (المترجمان)

ولكن هل كان أهل الحداثة بعد أن أوغلوا لعهود طويلة في تلك الثقافة الزائفة قادرين على تغيير اعتقادهم؟ هل كان بإمكانهم أن يَعُوا نقائصهم وبؤسهم؟ يخامرنا الإقرار نظريًا بأنهم كانوا يمتلكون «الحرية» في تغيير مسار مستقبلهم، ولكن بقدر ما نقّب فريق بحثنا في الغرب الحديث في الفترة المتأخّرة تبيّن له أنّ الانحطاط والسقوط كان لا مفرّ منهما. فكيف للمضاربين الأثرياء أو المهوسين بالاستهلاك أو التكنوقراطيين أن يخلعوا عنهم جُبّة الإنسان القديم؟

كانت تعترينا الحيرة دائما؛ لأنّ المؤرخين قد مهّدوا الطريق أمامنا تمهيدا، وكان الاطّلاع على ما كتبوا بقليل من الانتباه كافيا؛ حتّى ندرك أنّ الثقافة الغربية كانت - بعبارة الأستاذ دوبان أساسا « ثقافة التاجر ». لماذا تصرّف أهل القرن العشرين كما لو كانت دلالة ذلك التحوّل غائبة عن أذهانهم تمامًا؟ لماذا لم يدركوا حدود «النزعة الإنسانية البورجوازية» الضيقة؟

لقد تساءل المؤرّخ جان سارفيي Jean Servier عن النتائج الوخيمة على الصعيد الثقافي التي تنجرّ عن ترك مجتمع من المجتمعات التقليدية العنان للعقول الموغلة في الواقعية والنفعية؟ وذلك "مثلما يحدث عند اصطدام سفينتين في أعالي البحار فإنّ الأجزاء الأشدّ هشاشة هي التي تكون أكثر عرضة للتهشّم من غيرها؛ ذلك شأن القيم الروحية والعقائد والتقاليد والشعائر والمحرّمات، هنا تكون أكثر عرضة للمساءلة، وتصير الأموال في دُنْيانا هي الثابت الوحيد والمرغوب الأوحد". كان من الصعب تطبيق هذه الرؤية على الحركة الحضرية والتجارية في القرن الثاني عشر، حيث كانت هناك ثقافة تُعَدُّ "بدائية" تمتزج فيها الحياة المادية بالحياة الروحية، و كان هناك في مقابل ذلك "حداثيون" يهدّمون تهديمًا أعمى نمط العيش السابق، باسم واقعية متعسّفة " في ظلّ الفراغ الروحي

والقلـق الفكـري يمكـن إذن أن ترى إحدى البورجوازيات النـور يومًا بدافع رغبة جامحـة فـي الإثـراء، متشبثة بأيّ فلسـفة مادية تَعِسـة - أيًّا كان مصدرهـا- لتحلّ لديها محلّ العقائد القديمة".

لم يجلب ذلك الفراغ الروحي السعادة للغربيين؛ إذ لم يستشرفوا المآل الذي تأخذهـم إليـه مغامرتهـم الحضرية، ورغـم ذلك لم تكـن الأصـوات المنبهة على خطـورة الوضـع لديهم خافتة، خـذ لك مثلا ما ورد على لسـان ألبير كامو Albert Camus عدنما قال: " لقد تجرّأ هيجل *hegel* على القول إنّ "المدينة فقط هي التي تمنـح للفكـر الأرضيـة التـي تمكّنه مـن الوعي بذاته، إننـا نعيـش إذن عصر المدن الكبرى، ولنقل ذلك بصراحة: إن العالم قد حُرِم من الأشياء التي كانت دائما سببا فـي ضمـان بقائه، ألا وهي الطبيعة والبحر والجبل وتأمّلات المسـاء، فلا وعي إلا على قارعة الطريق ولا تاريخ إلا على قارعة التاريخ، كذلك كان الأمر".

ولقد أعلن آخرون مثل هنري جورج Henry Georges عن انفجار الضواحي قائـلا: "مـن أيـن سـيأتي البرابـرة الجُـدُد؟ زُوروا الأحيـاء البائسـة للمـدن الكبرى وسـترون فـي الحين عصاباتها قـد تجمّعت!" ومن كان يدري لـو كانت هناك آذان صاغية لمثل هذه التحذيرات لأمكن تجنّب أحداث سنة ١٩٩٩ المأسوية وأحداث ٢٠٠٢ على وجه الخصوص.

لقـد علـم تلاميذنـا حوالي سـنة ٢٠٠٠ ذلك، "فأزمـة عالم الريـف" قد بلغت ذروتها، إذ لم يجد صغار المزارعين المهمّشين بسبب حالة الاختناق التي أوقعهم فيها النظام الاجتماعي والاقتصادي سـوى العنف سـبيلا، وفي بلد مثل فرنسـا لم يعـد هنـاك مكان لصاحب الضيعـة التقليدية، ولم يكن له من خيار إلا الاستسـلام للهلاك المحتوم أو المقاومة اليائسة، وقد كبّلته شبكة متكاملة من مؤسسات إدارية

وتقنيـة وعلمية حضرية صارمة، وقيّدته حُزمـة من التراتيب والقواعد والإجراءات الرقابيـة التي تتجـاوز حدود المعقول، فرضخ لأهواء التقنيـة الأوروبية والاقتصاد العالمي الشيطانية.

كان المـزارع يخـرج مهزومـا في معظـم الأوقات مـن المواجهـات التي كان يخوضهـا ضـدّ مختلـف الممثّلين لحضـارة المدينة، ولقد كانت تلـك الإخفاقات متوقّعة، ذلك أنّ عدد صغار الفلاحين لم يكن يتقلّص شـيئا فشـيئا فحسـب، وإنّما صاروا أضعف وأشـدّ عزلة، وكانت الأمور تفسّـر بأنّ المسـتقبل رهين الاستغلال الأمثـل والفلاحـة الصناعيـة، فكلّمـا كان المزارع "كبيـرا" أمكن له الاسـتمرار في العيـش، أمـا صغار الفلاحين فعليهم أن يصارعوا لكي لا يفْنَوا. وكان الأثر الوحيد الذي تتركه العطايا الرسمية التي تُسدى إليهم أن تطيل أمَد احتضارهـم، ولن نتوسّع هنا في ذكر الخطط "التقدّمية" التي وضعها التكنوقراطيون وخبراءُ آخرون في ضمّ قطع الأراضي ضمّا مدمّرًا، ولن نتحدّث مرّة أخرى عن تذبذب مواقف السلطات السياسـية، إنّنـا نريـد التأكيـد فقـط أنّ الغربييـن (ولاسـيما نخبهم الحاكمـة) كانوا يفتقرون كثيرا إلى الحسّ الثقافي.

والحاصل أنهم فعلوا كلّ شـيء ليقتلوا المزارع، ولكن دون أن يكونوا واعين كلّ الوعـي بعواقـب أفعالهم، وفي تقديرنا أنّ حجم حركـة التاريخ فاق مداركهم، فلـم يتمكنـوا من السـيطرة عليها، لقد تبيّـن لنا بجلاء أنّ مفهومهـم للحضارة ذاتها كان يقتضي التضحية برجل الريف.

بيّنـت ذلك النصوص التي سـبق أن ذكرنا، فالتحضّر يكمـن دائما في الابتعاد أكثر عن حالة البربرية، وبعبارة أخرى الإدبار عن الفضاء الثقافي للمزارعين، ففي القرن العشـرين كانت تُسـمّى البربرية النسـبية، ومقارنةً بـ"بدائيي" الأمصار الأبعد

عن أوروبا يحتلّ المزارعون الفرنسيون بَعْدُ درجات عليا في مدارج الحضارة، لقد اقتنوا ثلاجات وجرارات وأجهزة تلفزيون، ولقد استعاضوا عن الحطب بموادّ بلاستيكية، وأعرضوا عن معظم عاداتهم ونسوا فولكلورهم كلّيا تقريبًا، وسواء أكان ذلك رغمًا عنهم أم بإرادة منهم فقد تعلّموا أسرار دواليب المؤسّسات التكنوقراطية، وتعلّموا التحايل في بعض الأحيان على مختلف أنظمة "الدعم" و"الإعانات"، وفي هذا الاتجاه كان صغار المزارعين سنة ١٩٩٩ متقدّمين جدّا على درب الحضارة الأصيلة كما يتصوّرها أهل المدن.

لكنهم كانوا "متأخّرين" في سباق التقدّم، وعلى الرغم من أنهم قد قطعوا أشواطا في الإذعان للأنماط الحضرية، ورغم لجوئهم إلى الاقتراض كي يجهّزوا أنفسهم بطريقة أكثر علمية دائما، وإذا كانوا قد أدخلوا الحداثة على أنماط تفكيرهم وأحاسيسهم بكل حماس، فإنّ طباع العجرفة والغلظة القديمة بقيت تلاحقهم، كانوا في الجملة يمثلون في الوعي الجمعي سكانا لم يتحضروا بعْدُ على النحو المطلوب.

من أجل ذلك وجب القضاء عليهم ثقافيًا إذا ما أريد ضمان ازدهار **العقل والتقدّم**، أي انتصار الآلة والحاسوب والمهندسين الفلاحيين والتقنيات البيئية والتكنوقراطيين والصناعيين في مجال القمح واللحوم وغيرها، فما كان الأستاذ دوبان يسمّيه "اغتيال المزارع" كان مسطورًا في برامج الغرب الرمزية، والتغيير الجذري لهذا البرنامج أضحى الكفيل وحده بإيقاف هذه الإبادة، كان تفادي انقراض المزارع بفضل **الانفجار الأكبر** بعد أن أوشك على الاندثار، ولكن مما لا شكّ فيه أن مسار الهدم كان سيتواصل إلى نهايته إن لم يحدُث هذا الانقلاب الشامل. وإذا تفكّرنا فيما جرى فإن ما يثير الرعب فينا أنّ نخب الغرب المزعومة

بدت عاجزة تمامًا عن فهم الدلالة الشعرية لقراراتهم المتعلّقة بعالم الريف.

لم يتفطّنوا مثلا الى أنّ إحساسًا غربيًا خالصًا ألا وهو" الخوف من الغريزة" كان يملي عليهم سرّا اهتماماتهم التقنية والتنظيمية الصغيرة، فكلّ ما كان غريزيا (ومن ثمّ بالضرورة "بدائيا") كان يثير مخاوفهم، وباستخدام لغة حداثية (أي علمية) في طرحها لبعض العقائد الدينية، كانت هذه النخب تعتقد أنّ التعليم العقلاني الخالص هو وحده القادر على إرساء الحضارة، ولا ريب في أنّه لا اعتراض على توجيه بعض الغرائز أو السيطرة عليها؛ أمّا اجتثاثها من أصلها فهو تجاهل لدور الغرائز في حياة الإنسان، وإذا ما أردنا أن نفهم الأهمية الرمزية لاغتيال المزارع فينبغي أن نتعمّق في دراسة هذه المسألة. فالغرب عندما عمل على تجفيف منابع عالم الريف كان قد وسّع من دائرة الإبادة الموجّهة ضدّ فئات أخرى من "المتوحّشين" أو "البرابرة"، ولقد تفطّن بعض الشعراء في الغرب إلى ذلك، نذكر من بينهم جول ميشلي Jules Michelet ففي كتابه الشعب (١٨٤٦) ذكر أنّ "الفئات المثقفة" كانت تتصرّف وكأنّها مؤمنة بهذه العقيدة التي مفادها " أنّ قيمة الإنسان تزداد بقدر معاقبته واستصلاحه وتغيير شكله بالعلم"، لكن لم يكن ذلك إلاّ حكما مسبّقا، وكان "هذا الحكم قاتلا بالنسبة إلى كلّ المساكين من أصحاب الغريزة، لقد جعل الطبقات المثقفة تحتقر الطبقات غير المثقفة وتحقد عليها". كان ذلك أحد الوجوه المظلمة للعقلانية التي سطعت شمسها في أدمغة المتمدّنين، لقد أنتجت أو عزّزت احتقار الطبقات غير المثقفة، ويعني ذلك بعبارة ميشلي نفسه أنّها ازْدَرَت الشعب، إنّه خطأ فادح لأنه في دخائل عامّة الناس "خزّان الغريزة الحية وذخيرة الشباب الخالد". كان ميشلي -وعيا منه لأهمية مثل هذه المسألة - يقارب بين الناس البسطاء وشعوب "البدائيين" أو "البرابرة" في جميع أنحاء العالم؛ ذلك أنّ إمبريالية أولئك العقلانيين الذين يريدون حشْرهم في زمرة

"الحضـارة" عُنْـوة كانت تتهددهم جميعـا. أمَا كان ينبغي التدخّـل؟ يجيبنا المؤرّخ الشـاعر بمـا يلـي: " بعـد قليل سـيكون الأمر متأخّـرا جـدّا، إنّ عملية الإبادة تشـقّ طريقهـا بسـرعة، فكـم من أمّة شـاهدتها تضمحلّ في أقلّ من نصـف قرن! أين هم الآن أصدقاؤنـا سـكان جبـال الإيكـوس[1] *Ecosse* وأين هـم أصدقاؤنا الآخرون هنود أمريكا الشـمالية؟ الذين مدّت لهم بلادنا فرنسـا القديمة يد العون؟ واأسفاه! كنت أشاهد قبل قليل آخر من يعرضون منهم على المنصات...

لقد قمع إنكليز أمريكا الصفيون[2] قبل ذلك في غمرة حماقتهم القاسية هؤلاء الأقوام الأشـاوس، وجوّعوهم وأبادوهم فخلّفوا موقعا شاغرا على وجه البسيطة، وحسرةً أبديّةً في قلب الإنسانية".

نحـن نعلـم أنّ المثقفين المتمدّنين الأشـدّ حداثـة كانوا يتملّصـون في أواخر القـرن العشـرين مـن خطابـات مـن هـذا القبيـل، ويـرون فيها "سـوء نية" الإنسـان المتحضّر، لكنّ ميشـلي الذي كان أشدّ فطنة وأعمق إنسانية قدّر خطورة الرهانات

(١) إسكتلندا (أيضاً: ايقوسية. أو إسقوسية أو سقوسية وتسميتها اللاتينية القديمة «كاليدونيا»- Caledonia ولا علاقة لذلك مباشرة باسم «كاليدونيا الجديدة») دولة في شمال غرب أوروبا، تعتبر جزءا من الدول الأربع المكونة للمملكة المتحدة. تحتل الثلث الشمالي من جزيرة بريطانيا العظمى وتحدها جنوباً إنجلترا ويحدها شرقاً بحر الشمال وغرباً المحيط الأطلسي. عاصمتها أدنبرة، وأهم مدنها وأكبرها مدينة غلاسكو. كانت إسكتلندا مملكة مستقلة حتى ١ مايو١٧٠٧ حين أُقرّ قانون الوحدة لعام ١٧٠٧ فاتحدت بموجبه مملكتا إنجلترا وإسكتلندا في ما يعرف اليوم بمملكة بريطانيا العظمى. (المترجمان)

(٢) نسبة إلى الصفوية Puritanisme وهو تيار ديني داخل المذهب البروتستنتي ظهر في القرن السادس عشر في إنكلترا يروم تطهير الكنيسة الكاثوليكية ويطلق اللفظ كل متشدّد متعصّب. (المترجمان)

الثقافية حقّ قدرها، وقد بدا لنا أنّ تأمّلاته ألقت بعض الضوء على "مشكلة المزارع" المشهورة.

فعندما سوّى ميشلي بين سكان جبال إيكوس والهنود الأمريكيين كان يعني أنّ أبرز ممثّلي الحضارة يتّخذون في الأصل موقفا موحّدا من أهل الريف ومن الشعوب المستعمرة، غير أنهم يقرّون ببعض الاختلافات بينهم، فالمزارع الأفيروني[1] كان أشدّ "تحضّرا"، ولا أحد يشكّك في ذلك من السيو[2] Sioux أو من نامبيكوارا[3] Nambikwara في الزمن الجميل.

لكن **الغربيين** الأصليين كانوا مكلّفين بـ"المهمّة" نفسها ضدّهم جميعا، ومثلما فتحت **الكنيسة** ذراعيها للمزارعين الوثنيين، وجب على الحداثيين تربية البرابرة في جميع أنحاء العالم وإرشادهم، ووجب عليهم بالخصوص أن يفرضوا على المزارعين الغربيين قواعد التقدّم.

ولا يبدو أنّ النخبة المتمدّنة في التسعينات من القرن العشرين قد نظرت إلى مشكلة المزارعين من هذه الزاوية، كانت بعض المعطيات التاريخية حول هذه المسألة مفيدة أيضا، فالبريطاني بريان إيزلي Brian Easlea مثلا أخذ على عاتقه سرد مغامرة قديمة جديرة بإثارة اهتمامهم، فليُسْمَحْ لنا باختصارها، فهي مغامرة تجعل المرء يدرك مدى استمرار الشياطين القديمة التي ذكرها ميشلي في مطاردة **الغرب**.

---

(١) أفيرون Aveyron مقاطعة جنوب فرنسا اشتهر أهلها لنزوحهم إلى باريس وتسلّقهم السلم الاجتماعي إلى أن أصبحوا من أصحاب الأملاك في قلب العاصمة الفرنسية بعد أن تعاطوا مِهَنًا رخيصة كبيع الماء لأصحاب العمارات وبيع الفحم.

(٢) إحدى قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية. وهي على وشك الانقراض. (المترجمان)

(٣) قبيلة من الهنود الحمر تعيش في وسط البرازيل، وقد تناقص عدد أفرادها بشكل ملحوظ، وتوشك على الانقراض. (المترجمان)

بـدأت الحكايـة التـي رواها إيزلي مع روبـار بويـل Robert Boyle (١٦٢٧-١٦٩١). وكان -كما نعلم- رجل علم من الطراز الأوّل، وأحد المؤسسين الأوائل للعلـم الحديـث، وفي يوم من الأيّام عُيِّن على رأس شـركة إنكلترا الجديدة New England Company وهي شـركة مهمّتها اسـتغلال موارد **العالم الجديد**، فواجه الإشـكال التالـي: كيـف نجعـل الهنـود "متحضّريـن"؟ كيـف السـبيل إلـى جعلهم يتلاءمون مع مقتضيات اقتصاد ناجع؟

إنّ ذنب هؤلاء "المتوحّشين" هو حبّهم **للطبيعة**، كانوا أشدّ تخلّفا من مزارعي أوروبـا، فقـد رفضـوا أن يحرثـوا الأرض، وكان ذلك عارا في نظر بويـل وإنّه لعار مُكْلِف. كيف يمكن لـ"بدائي" متشبّع بعقائد إحيائية أن يصبح خادمًا مطيعًا لاقتصاد السوق؟ كان بويل يأمل في إمكانية تخليص الهنود في يوم من الأيام "من أفكارهم المثيرة للضحك حول نشاط الطبيعة"، ووضع حدّ "لممارسات السذاجة والشعوذة التي تقودهم إليها هذه الأخطاء".

لقد كان المتحضّر إجمالا يميل ميلًا شديدًا إلى تهديم ثقافة **الهنود**؛ أليس في ذلـك خدمـة لهم؟ وطالما لم يعتنقوا العقلانية والمادية الأكثر عتوًّا فسـيبقون فعلا غرباء عن عالم **التقدّم**. وفي أوروبا أواخر القرن العشرين بُسِط إشكال مشابه جدًا: كيف السبيل إلى جعل المزارع التقليدي يساهم طوعًا أو كرهًا في **الحضارة**، وفي اللعبة الكبرى لـ"لاقتصاد العالمي"؟

وقد كانت المصاعب فيما يتعلّق بالهنود أكبر بكثير مما كان يتخيّل بويل؛ ذلك أنّه بعد مرور مئتي عام وجدوا أنفسـهم غير قادرين على استيعاب الفلسفة الميكانيكية[١] وظلّـوا يقاومـون القانون الزجـري[٢] لرجل الحضارة، وإليـك أيها القـارئ كيف عبّر

(١) بمعنى أنّ كل الظواهر الطبيعية تفسّر وفق قوانين الأسباب والنتائج. (المترجمان)

(٢) هو القانون الذي يتضمن المنع بقوة ويقوم على الردع والتعدّي في العقوبة. (المترجمان)

سموهلاّ Smohalla زعيم قبائل حوض كولومبيا عن رفضه حينما قال:" تريدونني أن أحرث الأرض، أينبغي عليّ أن أتناول سكّينا وأمزّق ثدي أمي؟ ولكن حين أموت لن يكون بمقدوري أن أعود إلى بدنها؛ لكي أولد من جديد. تطلبون مني أن أحفر الأرض؛ لأستخرج الأحجار أينبغي أن أفتّش تحت جلدها وأن آخذ عظامها؟ ولكن حينما أموت لا يكون بمقدوري أن أعود إلى بدنها لكي أولد من جديد. وتطلبون مني أن أحصد العشب، وأن أحوّله إلى تبن أبيعه لأصبح غنياً مثل الرجال البيض. لكن كيف أتجرّأ على قصّ شعر أمي؟" تلك الحجج لا طائل من ورائها؛ لأنّ التقدّم ماض في طريقه لا يتوقّف. وفي سنة ١٨٧٧ ثار هنود **الأنف المثقوب** في الإداهو[1] Idaho فقُمِعوا قمعًا وحشيًا " لقد ذبحت الكتائب الفيديرالية شعبهم رجالا ونساءً كبارًا وصغارًا". (ولْنُشِر عرَضًا إلى أنه حوالي سنة ١٨٦٠ أُكْتُشفت مناجم للذهب في تلك المنطقة).

ولو أمعن الغربيون في القرن العشرين النظر في ذلك؛ لربما كان من الممكن أن يفهموا إلى أيّ حدّ كانت تصرّفاتهم الشائنة مطابقة لتصرّفات المستوطنين القدامى. نحن نتذكّر جيّدا ما كان قد لاحظه المؤرّخ فرناند بروديل من أنّ الأرياف في **الغرب** كانت عادة ما تعتبر "مستعمرات حقيقية"، ومن البديهي أن تتطوّر الأساليب، إذ لا يمكن أن يعامل "أجلاف" العصر الحديث على غرار هنود الأنف المثقوب، فتكنوقراط عهد السقوط كان من المفترض أن ينبذوا سفك الدماء، وينتهجوا طريقة أشدّ "مرونة" ونعومة وأكثر عقلانية، ورغم ذلك كانت الآثار الروحية والثقافية لآلة الحضارة على الدرجة نفسها من الهمجية واللاإنسانية في بعض جوانبها.

---

(١) **أيداهو** هي ولاية من الولايات المتحدة يحدها من الشرق ولاية مونتانا وولاية وايومنغ ومن الغرب ولاية أوريغن وولاية واشنطن ومن الجنوب ولاية نيفادا وولاية يوتا ومن الشمال مونتانا والحدود الكندية. (المترجمان)

كان المزارعـون زمـن **الانفجار الأكبر** هم الذين غرقـوا في العنف، أينبغي أن نذكّر أنّهم في سنة ٢٠٠٢ قد ساهموا مساهمة فاعلة في العصيان العام، منذ الشرارة الأولـى لانتفاضـة الضواحـي، ومنذ أن بـدأت تفجيرات المدن الكبرى تسـتهدف مجلس النواب والوزارات والمدرسة القومية للإدارة والبورصة ومدرسة التقنيات المتعدّدة ومدرسة المناجم ومدرسة التجارة وغيرها، لم يحدثوا ارتباكًا خطيرًا في تمويـن المـدن فحسـب، وإنّما حاصروا بعض مراكز الشـرطة، وأضرمـوا النار في عديد من البنوك، (ولا نريد أن نذكر **المعهد الوطني الكبير للتكنولوجيا الزراعية**). إنّهـا تجـاوزات مؤسـفة بالتأكيـد، لكـن كان بالإمـكان تجنّبها لو وضـع "المجتمع الصناعـي" حيّـز التطبيق فلسـفةً أخرى، ولـو أدرك أنّ مكانة المـزارع لا تختزل في بعدها الاقتصادي.

كانت التحذيرات توجّه إلى المسؤولين مرارا وتكرارا، ولكن كان من الطبيعي جدّا في رأيهم أن يَحمِلوا الريف على "التأقلم" وعلى "التحضّر"، وعلى أن "يصبح أغزر إنتاجا" وغير ذلك. واليوم نرى جيّدا مظاهر الجنون فيما كانوا يسمّونه بفخر سياستهم الزراعية، إذ لم يقدّموا المصالح الإنسانية الحقيقية كلّها قربانا لإله يسمّى **الاقتصاد** فحسـب، وإنّما كانوا يشـجّعون عبثًا عبادة الإنتاجوية حين كانوا يعطّلون عَجَلـة الإنتـاج؛ ذلك أنّ أرياف **الغرب** كانت تنتج في الحقيقة ما يزيد عن الحاجة، وكان المزارعـون يُدْعَـوْن فـي كثيـر من الأحيان إلـى ترك جزء مـن أراضيهم دون زراعة، وكانوا يقادون بكلّ الأساليب إلى إخلاء ضيعاتهم، وإلا استقروا فيها تحت "الإغاثة". (كانت السلط إذا قرّرت إلغاء وظيفة من الوظائف اعتقدت أنّها قد قامت بواجبهـا). كان المقصـود إجمـالا من تلـك التغييرات القسـرية التقدّميـة بزعمهم واضحًـا فـي كلّ الأحـوال، ألا وهو وجوب القضاء الممنهـج على كلّ ما تبقّى من آثـار الوضع "البربري" القديم، وكان المسـؤولون مرتاحـي البال؛ إذ ليس هناك أيّ

تقتيل وليس هناك أيّ مشروع للتصفية الجسدية. ومثلما ذكرنا فإنّ الغربيين لم يدركوا أنّ العنف الاقتصادي والإداري، يمكن أن تكون وطْأته شديدة شأنه في ذلك شأن العنف الجسدي، ولا شكّ في أنّ ثائرتهم ستثور حقّا إذا قيل لهم إنّ خططهم "الحداثية" تحمل الدلالة نفسها التي كان يحملها الاستعمار وفق منوالٍ قديم.

ومع ذلك كان ميشلي على صواب حينما تحدّث عن أنّ "عملية الإبادة نفسها" -على حدّ تعبيره- ذهب ضحيّتها الهنود والمزارعون، وكانت الأساليب مختلفة ولكن في كلتا الحالتين فُرِضَ نَمَطُ حياةٍ جديد على شعوب وُصِمت بالتخلف، و كانت المبرّرات اقتصادية (المردود والربح) وثقافية (ضمان سلطة **العقل**) على حدّ سواء.

وقبل أن نختم هذه التأملات نريد أن نصوغ ملاحظتين تخصّ الأولى الطريقة التي ينتهجها الحداثيون في ردّ فعلهم على أحد "الرجعيين" إذا سوّلت له نفسه المبالغة في الدفاع عن قضية "البدائيين" و"المزارعين"، فالمتسامحون منهم كانوا يستهزئون، إذ بالنسبة إليهم يُعدّ هذا الحنين الرّعَوي من أسفار الماضي مثله في ذلك مثل عبادة "المتوحّش الخيّر"، وأمّا العقلانيون الملتزمون فقد كانوا يشهّرون بالفضيحة، ومثلما كانوا يشجبون لاعقلانية الفكر السياسي المناصر للبيئة، كانوا يصُبّون جامّ غضبهم على مثل هذه الانحرافات "الصوفية". ومع ذلك حاول في النصف الثاني من القرن العشرين أناسٌ يبدو أنّهم من ذوي الألباب ومن أرباب الثقافة أن يوقظوهم، لقد تجرّأ بيار كلاستر Pierre Clastre الذي عاش بين ظهراني هنود غايكي Guayaki على القول: " كلما فكرت في حياة **الأوروبيين** قلّما وجدت السعادة والحكمة بينهم، ولم أجد في ممارساتهم إلا ما هو دون

منزلة الإنسان". ولقد لفت جاك لوغوف وميشال لاورس Michel lauwers الانتباه في تعليقهما على هذا النص بقولهما:" مثل هذا التفكير لم يعد يعتمد بناءً أسطوريًا (من قبيل أسطورة "المتوحّش الخيّر") وإنما صار يقوم على ملاحظات دقيقة ".

في مرحلة ثانية نريد أن نتفادى إمكانية سوء الفهم لأسباب بديهية، لقد أكّد فريق بحثنا في مرات كثيرة الدور النشيط للتكنوقراط ورجال السياسة، ولكنّ الحديث بهذه الطريقة يجب أن لا يوقعنا في الوهم، ينبغي أن نسائل ثقافةً بأسرها. فكيفما يكون المجتمع يكون أولو الأمر والنهي فيه، ذاك ما كرّره الأستاذ دوبان، فالمسألة تتمثّل في "محاسبة أخلاقية" لماضي هؤلاء على وجه الخصوص، ولا شكّ في أنّهم كانوا في معظم الأوقات متعالين مُعجبين بأنفسهم يعانون الفراغ الروحي، ولكن كانوا يسايرون إلى حدّ بعيد تيارًا عامًا فرض نفسه عليهم، وكلّ شيء يحمل على الاعتقاد بأنّ التعساء من "المديرين" و"رؤساء المكاتب" حتى نأتي على ذكر المهندسين والمقاولين والمنتخبين، كانوا أعوان تنفيذ غير واعين لـ"مشروع" ثقافي تتجاوزهم جذوره العميقة.

هكذا كان سقوط **الغرب** أشبه بتراجيديا يونانية منه بلعبة استراتيجيا مبتذلة، لو كان لأصحاب القرار في القرن العشرين حدّ أدنى من الثقافة التاريخية؛ لربّما أدركوا أنّهم يعيشون نهاية مغامرة حزينة، بدأت تقريبا في القرن الثاني عشر، لكنّهم كانوا بلا ذاكرة، ففي الوقت الذي كانوا يفعلون كلّ شيء للقضاء على المزارع، كانوا يعتقدون أنهم يتحرّكون وفق قواعد مضبوطة للعقلنة السياسية وتبَعًا لمقاييس علم الاقتصاد، ومثلما كانوا يرفضون اعتبار "الأزمة الاقتصادية" بمثابة نهاية حتمية لماديّتهم الغليظة، فإنّهم كانوا لا يرون "مسألة المزارعين" إلا بمنظارهم الخاصّ بهم باعتبارهم متصرّفين وتجارا.

كان الشـعراء - وقد سـبق أن قلنا ذلك- أشـدّ تبصّرًا، فقد جعلنا ميشـلي نبصر بقية الأحداث منذ سـنة ١٨٤٦، فانتصار المدينة لم يكن ليتحقّق إلا على حسـاب الأرياف، وفي حديثه عن المزارع قال ميشلي: "لقد طرد من الحياة نفسها"، ثمّ قال بعـد ذلـك: "إذا كان الريـف فقيـرا فإنّ المدينة بمـا فيها من بهرج ربمـا كانت أكثر بؤسا"؛ وبسبب هذا البؤس هلَك الغرب.

II - الإنسان الاقتصادي

«التجارة هي أشدّ المعاول هدما للصرح الاجتماعي».

ألكسندر كومنغم

«لقد أنهت أوروبا مسيرة مفاجئة باهرة يُرثى لها، فقدّمت للعالم مثلا بائسًا على أولوية الإثراء الفاحش، تاركةً للعالم الأولوية البائسة للثراء الفاحش، لم يُر من قبل في أي مكان آخر يسيطر سيطرة مطلقة على الأخلاق وعلى كلّ شيء».

بول فاليري

«إن ما نصبو إليه الآن وما ينشده العالم بأسره هو بحبوحة العيش والرفاه الذي من شأنه أن يلبّي رغبة الحواسّ كلّها، ومن ثمّ فإنّ العالم مقبل على عبودية روحية لم يسبق لها مثيل مطلقا».

فريدريك نيتشة

لقد تساءل فريق بحثنا عن مضض (لأنّ الأمر يتعلّق بجانب حالك للغاية من تاريخ **الغرب**) حول عبودية الغرب المتأخرة للمال في القرون الأخيرة، لنذكّر بذلك لمن كان ربّما قد نسيه، فقد كان عماد نظرة أجدادنا من أهل الحداثة هو الاقتصاد والمال، ودراستنا للوثائق لا تترك مجالا للشك في ذلك؛ لأنّهم لم يكونوا يرغبون في «جمع المال» فحسب (وهو أمر بديهي في حدّ ذاته) وإنّما كانت كلّ رؤيتهم للعالم تحكمها اهتمامات ومفاهيم اقتصادية، كان كلّ شيء سواء أتعلّق بمشكلات «شخصية» أم»اجتماعية» يجري على سبيل الأخذ بعين الاعتبار العوامل التي تتّصل أساسًا بالتكلفة والأرباح والاستثمار والمردودية، وبالتوازي مع ذلك صار المال بصورة مفضوحة مفتاحًا للسلطة وضامنًا مميّزا لكلّ نفوذ وهيبة ووقار، ولقد لاحظ الأستاذ دوبان ذلك متهكّما حين قال: « إنّ قُوام ميتافيزيقا القرن العشرين قد تركّز في النهاية داخل معجم الاقتصاد».

وسرعان ما أدركنا حقا أنّ الغربيين قد انتهوا إلى هيكلة نشاطهم على النمط الاقتصادي للمؤسسة الرأسمالية، والأدهى من ذلك أن أضحى من «الطبيعي» لديهم تمثّل الحياة الإنسانية وتنظيمها وفق متطلّبات **الاقتصاد** وقواعده فقط، ولم تكن شعوب الأمم المصنّعة مكوّنة من أشخاص أو من مواطنين، ولكن من منتجين ومستهلكين ومستعملين.

فاللغة المتداولة واللغة المشتركة كانت لغة السماسرة، ولغة الساعي إلى الربح السريع والإداري والمتصرّف والمرشد المالي وغيرهم، ومن خلال مفاهيم مثل المحصول والمليون فرنك والفائض والمردودية والإنتاجية والإحصائيات،

وعلاقة الجودة بالربح والمرابيح والتعويضات والتخفيضات وغيرها من المفاهيم التي تنتمي إلى المجال نفسه، كانت تثار بصورة عفوية مشكلات الحياة الاجتماعية التي تعدّ «مشكلات حقيقية» كلّها، وكما يشهد على ذلك أرشيفنا كان **الغربيون** زمن السقوط مهوسين بالإدارة. كيف نُدير؟ وخاصة كيف ندير الأمور بطريقة مربحة؟ وسواء تعلّق الأمر بمركّب بترو كيميائي أو بفريق لكرة القدم، وبخدمة عمومية أو ببنك، وبمسرح أو بنظام بيئي طبي، بمحلّ تجاري كبير أو بصحيفة، يتجه الاهتمام قبل كلّ شيء إلى المردودية والإنتاج والربح.

ويمكن للآفاق أن تتنوّع بحسب الأوضاع وهو أمر بديهي؛ فإذا كان الهدف الأسمى هو مضاعفة الأرباح إلى أقصاها، فإنّ الضرورة في بعض الأحيان تقتضي تقليل الخسائر، وعديدةٌ هي «الوصفات» الممكنة؛ لذلك كان متاحًا **للدولة** حتى تتدارك بعض حالات العجز أن تحصل على «فائض في الأرباح» بفضل ما تستقطبه من قطاعات اقتصادية أخرى، فالخيار الاقتصادي كان منفتحًا في معظم الحالات بحسب الأرباح المأمول تحقيقها والخسائر التي يُخشى وقوعها، فتُبعث مؤسسة وتغلق أخرى أبوابها. أما ذا عدّت خدمة من الخدمات العمومية ضرورية، فإنّ المشكل يطرح بلغة مختلفة بعض الشيء، لكنّ المسائل الجوهرية كانت هي نفسها. فكيف نربح أكثر؟ وأين تقع «الفرص الجيّدة»؟ ومن سيدفع الثمن؟ لقد أعار فريق بحثنا الجوانب التقنية لهذه العمليات اهتماما أقلّ بكثير من ذاك الذي أولاه لسؤال جوهري يقول نصّه: «ماذا تعني من وجهة النظر الإنسانية هذه المغالاة في تثمين مهوس للجوانب الاقتصادية للحياة؟

لقد بدت لنا الإجابة -مع الأسف الشديد- واضحة جدّا، فقد أصبح الاقتصاد شيئا فشيئا غاية في حدّ ذاته، ونمط عيش متميّز، وما زالت بعض الأحداث المؤثّرة

للغايـة ماثلـة في أذهاننـا ولن نلحّ عليها، فمن نسـي منّا كلّ ذلك التسـريح للعمّال باسم الإنتاجية والمردودية؟ ومَن لم يشعر بضحالة «إجراءات المتابعة» المشهورة ممّن درسـوا ذلك العصر الحزين؟ وكما ردّد ذلك الأسـتاذ دوبان في حكمة بالغة، لـم يعـد الاقتصـاد في خدمـة الناس، ولكـن صار الناس فـي خدمة الاقتصـاد. إنّنا لنشعر بالرعب كلما تذكّرنا الإهانة الصامتة التي كان يعامل بها الفنيون في المجال الاقتصادي الناس، وأدهى من ذلك ربما تسـاهل هؤلاء السـكان في القبول بالأمر الواقع، ولمزيد من التدقيق يمكن أن نقدّم مثالا أو مثالين على ذلك.

لقد اكتشـفنا عندما شـاهدنا حصصًا قديمة للتلفزيون الفرنسي محاورةً تلفزية تثير العجب، كان أحد الاقتصاديين يوضّح بكل هدوء أنّ الأشـخاص الذين بلغوا سنّ الشيخوخة لا يستهلكون كما ينبغي، لقد قام بحساب ذلك، وبما أنّ هناك كثير من المسـنّين والعجائز يتمتّعون بمداخيل معتبرة، فمن اليسـير جدّا أن نسـتخلص موضوعيـا مـا يلـي: كان كافيًا أن ترفع هذه الفئة العمرية نفقاتها قليلا؛ كي يسـتعيد الاقتصاد عافيته المرجوّة. يا له من برهان ساطع! فماذا ينتظر المسنّون لكي يكون إنفاقهم أكبر؟

والخلاصـة الأخلاقيـة الحقيقـة (وهـي " أيها المسـنون القـذرون!") لم تكن معلنة، لكن في نهاية الأمر تلك هي نوعية الغذاء الروحي التي أمكن لنا أن نتذوّقه فـي خاتمة حصّة أنباء تلفزيونية، وتلك هي كيفية التطبيق "العادي" لمثُل الإنسـانية الاقتصادية في ذلك العصر.

لنلـق الآن نظـرة علـى الرضّـع، لقـد أتيح لنـا سـنة ١٩٩٤ تأمّـلات اقتصادية ديمغرافية في صحيفة فرنسية تريد لنفسها أن تكون حديثة جدّا حول موضوع مفاده كيـف نعيـد إعمـار فرنسـا بالسـكان؟ كان ذلك أكبر همّهـم في تلـك الفترة، حيث

تزايدت أعداد المسنّين وتناقصت أعداد المواليد والأرقام تثبت ذلك " لقد انتقل المؤشّر الظرفي للخصوبة بين سنوات ١٩٧٥ و١٩٩٣ من *1,9* إلى *1,7* طفلا لكل امرأة"، ولقد علّق الكاتب بمهارة على ظاهرة التهرّم هذه، ولكن لماذا ينبغي الاهتمام بتناقص الولادات في حقيقة الأمر؟ أتتنا الإجابة مدوّية كضرب السّياط: "ينبغي أن نعيد دفع عجلة الولادات؛ لأنّ إعادة التنمية الاقتصادية المستدامة لا تتأتّى من سكان يشيخون، ومعهم كل ما يحتاجون إليه ولديهم مزيد"، فالمزيد من الاقتصاد والاقتصاد دائمًا والاقتصاد قبل كلّ شيء.

إنّ هذا التفكير يلتقي مباشرة مع التفكير السابق، فالمسنّون " المجهّزون بما يكفي ولديهم مزيد" لا يستهلكون إلا القليل، ومثلما صرّح غالبا بذلك محلّلون آخرون فهم زيادة على ذلك يكبّدون **الضمان الاجتماعي** ثمنًا باهظًا جدًّا، ولقد كانت الإحصائيات دقيقة، إذ إنّ الأسابيع الأخيرة من حياة المسنّين في مجتمع اختار "التمسّك بالعلاج إلى آخر رمق" تكلّف المجموعة أثمانا باهظةً جدّا، الأمر الذي أفضى إلى فتح حوارات اقتصادية أخرى؛ لأنّ التوسّع الهائل للنفقات الصحية كان يغذّي بعض المهن وبعض الصناعات الكبرى. وحين نتحدّث عن الحياة وعن الموت في تلك الفترة كان يعني أن نتحدّث أوّلا عن المال وعن الناتج الوطني الخام وعن الخطط الاقتصادية، وكانت الخلفية الإنسانية الصرف ثانوية جدّا، إذ كان الخبير في السياسة الإنجابية يقترح حلولا تقنية محْضا، فقد كان يأمل أن " تنهض الولادات نهوضا جيّدا بوساطة تشجيعات اقتصادية حقيقية وإجراءات الرعاية الاجتماعية"، لقد كان باحثونا مجبرين على تقبّل المنطق الثقافي **للغربيين** في القرون الأخيرة؛ باعتباره أمرا لا سبيل إلى دحضه، لقد شرعوا في اختزال كلّ مشكل إنساني إلى مشكلة تتعلّق بالمال، ثمّ تراهم يوجِدون حلولًا لها ترتكز على منطق ماديّ يتعلّق بالمال أيضا، ولقد أكّد الأستاذ دوبان ذلك قائلا: " كان المال

هــو المتغيّر الوحيد الـذي كانت لديهم القدرة والرغبة فـي التحكّم فيه، أما ما عدا المال فكان يتجاوزهم، كانت الكائنات والأشياء لا وجود لها إلا بقدر ما تجسّد من قيم اقتصادية قابلة للقياس، وعلى قدر الدور الذي تنهض به في مناشط الشبكة الكبرى".

ومـن المؤكّـد أنّ الغـرب لـم ينجح في تأسيس النظام الاقتصـادي الذي كان يحلـم بـه بتمامه وكماله، ففي سـنة ١٩٩٨ مـازال هناك "بعض فضـاءات للحرية"، علـى حـدّ عبارة بعض علماء اجتماع ذلك العصر، لكنّها تضاءلت شـيئا فشـيئا في عالم يتّسـم بالإفراط في التنظيم، ويبالغ في تدقيق الحسـابات ومضاعفة الأرباح، ولولا الانفجار الأكبر لطغى الاقتصاد على كلّ شيء.

ولقـد نجـح الغربيون تقريبـا في "إدارة" كلّ شـيء بمنهج نفعـي، عندما بلغت لديهم العقلية الربحية التي اتبعوها ذُروتها، فكان العمل والترفيه والتربية والسياسة وغيرها خاضعة "عقلانيا" للتدابير التكتيكية والاسـتراتيجية لنخبة الحسـابيات، أمّا البحـث عن انشـراح الإنسـان -كما رأينا- فكان يختلط بسـهولة متنامية بـ"ارتفاع مستوى العيش"، وبعبارة أخرى: لقد انتهى المطاف بالنظرة الاقتصادية إلى العالـم إلى أن تُمارَس باعتبارها فلسفة أصيلة، وذلك ما يفسّر دون شكّ عددا من الظواهر الثقافية تبدو لنا اليوم محيّرة، فالكثير من الشـخصيات اللامعة مثلا كانوا منهمكين فـي أداء مهامّهـم، وكانـوا يعودون إلى منازلهم في سـاعة متأخّـرة، وكانوا يهملون عائلاتهـم وأصدقائهـم ويتناولون المهدّئات بكميات كبيـرة جدّا، واليوم نميل إلى الاعتقاد بأنّهم كانوا ضحايا عالم الاستلاب، فمن منظار الاقتصاد الأمر بيّن: إنهم لم يرضوا لأنفسـهم رفع مسـتوى عيشـهم الخاص فحسـب، بل كانوا متحمّسـين لضرورة المشاركة في التنمية التجارية والصناعية.

ومن البديهي أنّ تلك الفلسفة الاقتصادية كانت غير واعية في معظمها، وكان أهل الحداثة -كما نعلم- يريدون أن يكونوا "واقعيين"، وكانوا من ثمّ يتخيّلون أنّهم لا يملكون فلسفة، ومع ذلك فالفلسفة اللاواعية فلسفة لا محالة، لقد أتيح لنا أن نلاحظ مثلا أنّ القرارات الكبرى للسياسة الخارجية اتخذت لها في الأصل مبادئ اقتُبِست من من **الاقتصاد**، فكلّما اجتاحت **دولة دولة** أخرى بُسِطَ مشكل وجوب التدخّل أو عدم وجوبه، وفي ظاهر الأمر كانت القرارات تتّخَذ وفقا **لحقوق** الإنسان، ولكنّ كلّ شيء يحمل على الاعتقاد بأنّ الاعتبارات النفعية هي التي كانت تمليها فعليّا، وكانت الحاجة الأشدّ إلحاحًا هي اعتبار الرهانات الاقتصادية. فأيّ عقود اقتصادية وصناعية أو عسكرية أمضيناها مع هذه البلدان؟ وهل كانت تتضمّن البترول؟ وما هي آثار التدخّل وعدم التدخّل في ذاك الإطار الجيوسياسي -كما تقول النخبة- في نموّ "مناطق النفوذ" وفي سوق المواد الأوّليّة؟ وفي حالة قرار بتدخّل قد يحدث خسائر جسيمة ما هي فرص المشاركة الاقتصادية في إعادة الإعمار؟ هكذا كان يتّجه المنطق الدبلوماسي عند المتحضّرين، ووفقا لعديد الوثائق التي تبدو أصلية، فإنّ التدخّلات "الإنسانية" نفسها كانت تخفي أحيانًا عمليات تجارية دنيئة، لقد استبعدنا ذلك استبعادا، فليس من الممكن بداهة [أن نتصوّر] أنّ الغربيين كانوا قد استغلّوا البؤس الإنساني ليسوّقوا فوائض إنتاجهم أو سلعهم التي انتهت صلاحيتها، ويبدو من المؤكد -مع ذلك- أنّ احترام حقوق الإنسان كان عادة في مرتبة ثانية وثالثة وحتى رابعة. إن هذا الأمر ثابت، فعندما تكون هناك "آفاق اقتصادية مناسبة" لا يتردّد وزير أوّل في القيام بزيارة لبلد يَنتهك ما سمّي **بحقوق** الإنسان بكلّ وقاحة. **والأمير-الرئيس** نفسه في بلد مثل فرنسا يمكنه أن يستقبل قادةً متورّطين في الزجّ بأناس أبرياء في السجون بطريقة عشوائية وفي تعذيبهم، لقد كانت هذه المناورات التجارية تقدّم

عموما إلى المواطنين بمهارة، فعصر التجّار الذهبي -كما ذكرنا ذلك آنفا- كان عصر ذهبيا للمختصّين في "الاتّصال" وفي "العلاقات العامة"، ولقد شاعت بلاغة قائمة بذاتها تنادي إلى الجمع بين تمجيد "التفاهم المشترك" والتغني بـ"الفرص السانحة" بلا استحياء، وهكذا تُحجب الصفقات الباردة من قبيل:" سنقبل بغضّ الطرف عن أساليبكم القمعية الدموية وما يجري في سجونكم. لكن نحن متفقون جيّدا على أنكم ستفتحون لنا أسواقكم وستمدّوننا بعقود"، وتصبح هذه المساومات في الصحافة في أغلب الأحيان "محادثات مثمرة"، وكان كثير من الصناعيين يضغطون على رجال السياسة بكلّ ثقلهم حتّى لا تبقى هذه المبادرات الدنيئة مجرّد وعود.

ينبغي أن نقبل بحقيقة مفادها أنّ فلسفة **حقوق** الإنسان لم يكن لها وزن مقابل فلسفة الواقعية الاقتصادية، إذ كانت الممارسات المخجلة لبعض الدول لا تثير في بعض الأحيان إلا ردود فعل ليّنة، ولقد قام عضوان من **منظمة العفو الدولية** في نصّ نشر سنة ١٩٩٤ بالمعاينة التالية: " ينبغي على الدول أن تتفق فيما بينها كي تجعل من مناهضة التعذيب شرطا من شروط إقامة علاقات عامّة، لكن الإرادة السياسية تعوزهم"، فما يفسّر هذا الاختلال هو النفعية الجيوسياسية، لقد كانت الحسابات الضيّقة تطغى على احترام القيم "فتجاه الصين وتركيا وإيران أو بلدان أخرى تكون فيها مصالح سياسية كبرى عرضة للخطر لا يتصرّف (الغربيون) بطبيعة الحال مثلما يتصرّفون حيال دولة إفريقية فقدت أهميتها الجيوسياسية مع نهاية المواجهة بين **الشرق والغرب**"، وفي الأمم المتحدة (وهي منظمة عالمية تهتمّ نظريا بالسهر على احترام **حقوق الإنسان**) كثيرة هي الضغوط الاقتصادية والسياسية التي تمارس؛ وبفضلها يتاح لعديد الدول أن تنتهك حقوق الإنسان ذائعة الصيت دون عقاب، ويمكننا أن نسجّل ملاحظات مشابهة حول تجارة السلاح الذي كان مزدهرا في الأمم الأكثر "تقدّما".

ما أكثر المؤشّرات التي تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنّ الشعوب لم تكن مغفّلة قطّ، ومع ذلك كان استغرابنا شديدا. فأنّى لنا أن نفهم كيف قبل **الغربيون** -باستثناء البعض منهم بهذه الدرجة من الخنوع- مثل هذه الممارسات؟

كانت هيمنة المال في الحياة اليومية تتجلّى في أشكال كثيرة، دون أن تثير احتجاجات خطيرة، وكان ينبغي حقّا أن ينخرط المرء بطريقة أو بأخرى في هذه العقلية التجارية التي شملت كلّ شيء؛ كي تستمرّ الحياة داخل الآلة الضخمة للاقتصاد، كان ينبغي على الأقلّ أن يسايرها. لقد بدا النظام محافظا على صلابته حتّى سنتي ١٩٩٧ و١٩٩٨، ولا أحد عمليّا كان يتوقّع انهياره بتلك السرعة، " ليس ثمّة بديل" هي عبارة كانت تُردّد غالبا، فكيف إذن أمكن لعصيان مدني حقيقي أن يرى النور؟ حتّى المبعدون والمعطّلون والساخطون من كلّ الفئات كانوا لا يرون حسب علمنا بصيص نور في الأفق، كانوا يطأطئون الرؤوس، وفي أقصى الحالات يتلاءمون مع وضعيات صعبة للغاية، كثيرا ما يتردّد الحديث عن قرب نهايتها.

لقد سجّلنا كلّ ذلك، ولْنقل ذلك للمرّة الأخيرة، لقد كان الوضع صعبًا، ولكن أليس غريبا أن يقبل مواطنون نزهاء كثيرون بتلك السهولة دور الدُّمى الاقتصادية المتحرّكة؟

لم تكن الثقافة التي يعيشون في ظلّها تحدّثهم إلا بلغة المال، فكلّما وجب حلّ مشكلة من المشكلات اقتصر الحديث عن التعويضات والمِنح والقروض، وحتّى يكون كلامنا أوضح فإنّ قيم المردودية والربح كانت هي الأخلاق الوحيدة المعترف بها. فلماذا غرق **الغرب** في وحَلِ هذا الفراغ الروحي؟

لم يكن هناك آلهة في المستوى الرسمي، ولكن كانت الأمور تسير وكأنّ **المال** قد أُلِّهَ، وكأنّ سِرْبا من الشياطين الصغار كان يطلب أن تُقام له طقوس تعبّدية

مستمرّة (ألا وهي النجاعة والإنتاجية والمردودية وغيرها). كانت مهمّة فريق بحثنا تتمثل إذن في فهم بدايات استحالة القيم الأخلاقية كلّها إلى قيم اقتصادية مع ميلاد الإنسان البورجوازي في القرن الثاني عشر. من أجل ذلك كان لا بدّ من أن نرصد معالم شخصية التاجر حتّى نرى كيف أفسدت الأنشطة التجارية شيئا فشيئا الثقافة الغربية كلّها.

ومن البديهي أنّ مثل هذا الأسلوب في تدبّر التاريخ لا يسمح بإعادة بنائه باعتباره سلسلة ميكانيكية من الأسباب والمسبّبات، فلا مجال "للتنبّؤ"، كأن نقول مثلا إذا ما عدنا إلى الماضي فينبغي أن تقوم الثورة البورجوازية سنة ١٧٨٩، وأن تكون قيمة الدولار ٥,٣٤٣ فرنك يوم ٢٢ يوليو ١٩٩٤.

هناك مسائل أخرى كانت تقودنا من قبيل: لماذا لم يدرك أجدادنا عواقب طول اعتيادهم على الجري وراء **المال**؟ لماذا لم يتساءلوا بجدّية حول نزوعهم إلى الربح الذي ورثوه ثقافيًا عن أسلافهم وهم الذين بذلوا جهودًا جبّارة في كشف "العيوب الجينية" لنسْلِهم، وإن كان قد استحال عليهم التنبؤ بموعد دقيق لـ**الانفجار الأكبر**، ألم يكن بإمكانهم الإحساس المسبق بقرب حدوثه بداية من التسعينات؟

ولقد استشهدنا بما قاله فارناند برودال وبعض المؤرّخين الآخرين من تلك الفترة من أنّ **المدينة والمال** كانا شيئا واحدا، فما يتّسم به **الغرب** المتمدّن هو إذن الفكر النفعي، وفي البداية لم يبرز هذا الفكر إلا باعتدال نسبي ولكن سرعان ما اجتاح كل شيء بسرعة مذهلة، فالشروع في كتابة ما قبل تاريخ **الانفجار الأكبر** يستدعي منّا العَوْد إلى حدود **العصر الوسيط**؛ كي نتساءل كيف أمكن للاقتصاد أن يكتسي أبعادَ ظاهرةٍ حضارية واسعة النطاق.

كان الهمّ الأكبر في المحيط الثقافي **للعصر الوسيط** الأول يتمثّل في ضمان

الخلاص، ومن ثمّ كان دور التّجار وأصحاب المشاريع هامشيّا للغاية على الصعيد الروحي، وكان النبلاء ورجال **الكنيسة** يعرفون بداهة سبل الإثراء، وأهل العصور الوسطى عموما يُنتجون ويتّجرون، ولكن لم تكن هذه الأنشطة من حيث المبدأ تحمل غايتها في ذاتها، فلم يكن أوكد الواجبات أن يصبح المرء ثريّا، ولكن أن يكون ذا قلب ينبض **حبا وإحسانا**، وكان كثيرا ما يحدث الانحراف عن الطريق السوي، والتقاعس عن أداء الواجبات في الحقيقة، ولكنّ "كبائر" الجشع والبخل كانت من هذا المنظور فعلا مخالفة للمُثُل المسيحية، فكيف نفهم إذن الصعود الثقافي للتاجر؟ يبدو أنّ أهل القرن العشرين عموما لم يعتبروا هذا السؤال مهمّا، فصورة التاجر كانت بالنسبة إليهم خالدة تقريبا.

وكان ما نسوه هو أنّ التجارة لم تكن تحمل الدلالة نفسها في المجتمعات كلّها، ومثلما كتب ذلك أحد المختصين في تلك المسائل وهو فيليب ج. بارنار Philippe J. Bernard قائلا: " إنّ الاقتصاد مفهوم حديث"، لم يهتمّ أرسطو ألبتّة عندما حرر رسالة عنوانها: " المسائل الاقتصادية" بالاقتصاد السياسي، ولا بقانون العرض والطلب ولا بآليات السوق ولا بأيّ شيء من هذا القبيل، وكان يعتبر أنّ الاقتصاد طبقا للأصل الاشتقاقي للكلمة هو تدبير المنزل (أي باعتباره اقتصادا عائليا)، وهذا لا يعني أن **اليونانيين** لم يتعاطوا النشاط التجاري، ولكن كانوا لا يعيرونه الاهتمام الذي أولاه إياه أهل الحداثة، ولقد كتب المؤرّخ موز فينلي Moses Finley يقول: "من البديهيّ أن يمارس القدامى الزراعة ويتاجرون وينتجون السلع المصنّعة، ويستغلّون المناجم ويجمعون الضرائب ويضربون العملات ويُودعون المال ويقرضونه ويحقّقون الأرباح وإلا وجب أن يتخلّوا عن بعض نشاطهم، وزيادة على ذلك فقد كانوا يتناقشون حول أنشطتهم فيما بينهم أو في كتاباتهم. وما لم يفعلوه في المقابل هو دمج كلّ هذه الأنشطة الفرعية ضمن وحدة مفهومية".

كان مـن المجـدي إذن بعبـارة أخـرى أن نتشـبّع بالتاريـخ الثقافـي، وإلا فإنّنا نوشـك أن نخطـئ فهـم ظهور "الفكـر النفعـي" باعتباره تحـوّلا تاريخيًا اسـتوعب الإنسـان بأبعـاده كلّهـا، والحـقّ أنّ الاهتمـام البورجـوازي الصـرف المتّجـه إلـى "اسـتثمار المال"، يمثّل خللا في المجتمع المسـيحي، ولقد بسـطت ريجين بارنو Régine Pernoud المختصة في العصر الوسيط المشكل بهذه الطريقة قائلة: " في زمـن كان ينبغـي أن يُضبـط الاقتصاد بحسـب احتياجات الإنسـان، فإنّنـا نجد عند البورجوازي وخصوصًا عندما يكون تاجرا بذورا للاقتصاد الربحي"، فحين تضبط نفسـك علـى أسـاس الربح عوضا عـن احتياجات الإنسـان، ألا يمثّـل ذلك ثورة؟ فكيف حدث أن نَمَتْ [تلك الثورة] خِفية إن صحّت العبارة على مرأًى من السلط المسيحية؟ كانت الجنّة في السماء، وتحت سطْوَة التاجر نزلت إلى الأرض، فمن البديهـي مـن وجهـة النظـر التاريخية الصـرف أن تثيـر بدايات الاقتصـاد الحديث مشكلات دقيقة، فقد تساءل الخبراء مثلا عن كيفية وصف المراحل الأولى للمسار الذي قاد إلى الرأسمالية المحض، (مرحلة ما قبل الرأسمالية، الرأسمالية التجارية، وغيرهـا)، لكـنّ فريقنـا كان يتحسّـس الجوانـب الروحية لهـذا المسـار على وجه الخصوص. فكيف ولّد **العصر الوسيط** هذه الصورة الكبرى المميّزة للثقافة الغربية ألا وهـي صـورة التاجـر؟ ولقد أضافت ريجيـن بارنو تقول: إنّ التاجـر وهو ذاك " الإنسـان الـذي يشـتري ليبيـع بثمن أغلى بأسـلوبه الخـاص"، "فما يحرّكـه إذن هو إحسـاس لا إنسـاني يتعلّـق بمصلحته المالية الربحية الخاصـة التي لا تنطوي على أيّ ذرّة مـن عمـل للمصلحة العامة، أو عمل خيري صـادق نابع من الذات"، ولقد تحقّق هذا النموذج تقريبا منذ القرن الثالث عشـر والرابع عشـر، فكيف تسـامحت الكنيسة إزاء انتهاك قِيَمها الخاصة وهي حينئذ في أوْج عُتوّها؟

فقد ورد في **الإنجيل** أنّ **المسيح** صدّ التّجار عن الهيكل، وجعل ولوج الجمل

في سمّ الخياط أيسر من دخول غنيّ **ملكوت السماوات**، فكان من المفترض نظريا أن يكون المذهب واضحًا جليًا في **العصر الوسيط**. لقد وجب أن يكون الاقتصاد "جيّدا وشرعيا" أي محكوما بموجبات **الإحسان** الذي على التاجر أن يستوعبه جيّدا، ومن المفترض أن يُعرِض المسيحي عن كلّ بحث منهجي عن الربح. كان هناك "ثمن مضبوط" يحدّد وفق "المصلحة العامة"، وبعبارة أخرى ينبغي أن لا يُحرم أحد من المواد الأساسية للحياة، فعندما يباع مُنتج من المنتجات من المشروع أن يؤخذ الثمن الموافق للعمل المبذول، وللمصاريف التي أُنفقت لإنجازه وغيرها، لكن كان من واجب المرء أن يبدو معتدلا في ذلك كلّه.

كان الناس يردّدون دائما مقولة أسندت خطأ إلى القدّيس جون كريسوستوم Jean Chrisostome هي: "من الصعب بل من المستحيل على التاجر أن يفوز بمرضاة الربّ". وكانت قوانين الرهبان السسترسيين[1] صارمة فهي تحرّم بيع شيء من الأشياء بثمن أرفع من ذلك الذي اشتريت به، ولقد أكّد البابا غريغوار التاسع Grégoire IX في القرن الثالث عشر أنّ ذلك فرض على جميع المسيحيين، فإذا أراد تاجر من التجار أن يرتقي في مراتب القداسة، فعليه أوّلا أن يتخلّى عن حِرفته، ولقد ردّد جون جرسون Jean Gerson الملقب **بالعلّامة المسيحي الصدوق** في مطلع القرن الخامس عشر هذه المبادئ حين قال: " إنّه لإثم أن يبيع المرء شيئا من الأشياء بثمن أعلى مما اشتراه، لاسيما إذا كان الربح فاحشا - مع اعتبار جميع الصعوبات أو المخاطر أو التحسينات التي يحقّ له تعويض مصاريفها- ويكون الوزر أعظم إذا استغلّ في ذلك حاجة ذوي القربى، وقد علّقت

(١) إحدى الفرق المسيحية ذات النزعة الصوفية كان لها عظيم الأثر في التاريخ الديني للقرن الثاني عشر الميلادي. (المترجمان)

ريجين بارنو على ذلك بقولها: " لن نجد ما به نُدين بوضوح أشدّ قانون العرض والطلب".

أمّا "الربا" الذي كان يتمثّل في إقراض المال بفوائض فكان محرّمًا أيضا، وكذا الأمر بالنسبة إلى كلّ العمليات المشبوهة التي يُتيحها التّلاعب بالعملات، فقد ورد في **الإنجيل** ما معناه "أقرضوا الناس لا تريدون منهم جزاء ولا شكورا "، ولقد صاغ البابا ليون الأكبر Léon Le Grand في القرن الخامس حكمة مفادها أنّ: " الاهتمام بالمال يُميت القلب"، ولقد صمد هذا التقليد في الكنيسة الكاثوليكية إلى نهاية القرن السادس عشر، رغم الضغوط القوية المتزايدة التي كان يمارسها رجال الأعمال، " ولقد صدرت فتوى البابا القديس بي الخامس *Pie V* سنة ١٥٧١ لتأكيد تحريم فائض الصرف الذي كان بعض التجار يخفون به الإقراض الرّبوي".

ولكن يجب أن لا تحجب عن أعيننا هذه التصريحات النظرية الرائعة الواقع المرّ، فقد أرسخ التجار والصيارفة أقدامهم بقوّة في **الغرب** المتمدّن منذ القرن الخامس عشر، ورغم أنّ طائفة من رجال الكنيسة لم يتوقفوا عن الاحتجاج على ذلك، فقد خسروا المعركة نهائيا، وصمدت الكنيسة باعتبارها "قوة روحية" بعد ذلك لمدّة طويلة، لكنّ واقع الإنسانية الجديدة كان عالم الأعمال، ولقد فتح اكتشاف أمريكا في القرن الخامس عشر الباب على مصراعيه أمام السباق لجمع الذهب الذي أصبح يمثّل رمزا في حدّ ذاته؛ فبفضل الذهب سيتاح شراء كلّ شيء.

نحن نعلم أنّ البابا ليون العاشر في بداية القرن السادس عشر منح الغفران لمن يساهم ماليا في استكمال بناء كنيسة **سان-بيار بروما** Saint-Pierre de Rome، الأمر الذي جعل لوثر Luther يردّ الفعل بحدّة (الغفران هو تخفيف حكم يدرأ عذابا إلهيا عن المذنب كان يستحقّه كلّيا أو جزئيا، ولقد ضبط كريستوف

كولومب Christophe Colomb الأمور بحكمة قبل ذلك بقليل حين قال: " الذهب هو الكنز ومن يملكه يملك كلّ ما يلزمه في هذا العالم كما يملك أيضا وسيلة إنقاذ الأرواح من الجحيم وإسكانها في فراديس الجنان"، وكانت هيمنة رجال الأعمال على الثقافة منذ القديم أمرا بديهيا، وكان ينبغي أن يصبح كلّ شيء علمانيا أي متلائما مع أخلاقيات التجار، فقد حلّ محلّ هيمنة الكهان تسلّط التجّار.

إنّ المثال المتوفّر لدينا حول إعادة تنظيم الإطار الزمني جدير بالاهتمام، " كانت السنة الدينية تبدأ بيوم متغير (غير ثابت) يتبدّل يوم ابتدائها في الفترة الفاصلة بين ٢٢ مارس/ آذار و٢٥ أبريل/ نيسان؛ ولتسيير أعمالهم دأب التجار على فتح حساباتهم يوم غرة جانفي/ يناير، وكانت الكنيسة تحدّد الساعات وفق الفصول (صلاة الصباح، صلاة التبشير وصلاة أنجيلوس *Angélus*)(١) فتعدّل على حركة الشمس وتتغيّر طيلة السنة وتقسّم اليوم إلى ١٢ أو ٢٤ جزءا متساويا يناسب التجار"، ويحمل الأثر الذي أخذت منه هذه السطور عنوان "عبقرية الغرب"، بمعنى أنّ صاحبه لويس روجييه Louis Rogier كان ينزع إلى التهليل والابتهاج بـ"التطورات" التي تحقّقت على أيدي البورجوازيين، لكنّه كان على مسافة كافية تمكّنه من أن يسجّل الدور الحاسم للمال في المستقبل، لقد كتب يقول: "سيكون القرن السادس عشر قرن آل فوغر *Fugger*(٢) فقد برزت طبقة التجار الأغنياء

---

(١) صلاة تؤدّى في الكنيسة الكاثوليكية الغربية تتمثل في تلاوة نصوص ثلاثة تتعلّق بسرّ التجسّد. (المترجمان)

(٢) فوغر (*Fugger*) أسرة مصرفيين ألمانية كان لها دور تاريخي مهم، وكان أفرادها أعضاء في أرستقراطية تجار أوغسبورغ (مدينة ألمانية شهرت بصناعة النسيج وازدهرت في العصر الوسيط) ساندت بقوة هابسبورغ وهو إمبراطور جرماني حارب العثمانيين وأقام سِلْمًا بين المذاهب الدينية في البلاد. (المترجمان)

والمصرفيين الكبار، وكان نفوذهم السياسي من القوة بحيث يصنعون الأباطرة، وينصّبون البابوات على عرش القديس بيار *saint Pierre* ويزوّجون الملوك"، كانت الكنيسة القويّة بما لديها من ماض عتيد حاضرة دائما في حياة الناس اليومية، محتفظة بنفوذ ثقافي ملحوظ، لكنّ البورجوازي تبوّأ كرسيّ القيادة.

كانت البنى والتقاليد الدينية مصونة في الظاهر، إذ بقيت الفرق الدينية والتعاونيات التي ينتظم داخلها التجار والحرفيون مسيحيّة على طريقتهم الخاصّة، ولقد ساهمت البورجوازية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في بناء الكنائس والكاتدرائيات القوطية بسخاء، لكنّ التفكير قد تغيّر. لقد أضحت النظرة الجديدة إلى العالم في العديد من المحاور الأساسية على طرفي نقيض مع المفاهيم المسيحية، ففي بداية الأمر كان من الممكن حجب هذه التناقضات أو تقبّلها بسهولة، ولكن كانت الصراعات العنيفة على المدى المتوسّط أو البعيد أمرا لا مفرّ منه.

كانت الصلاة بالنسبة إلى المسيحيين أداة عمل قوية، لكن البورجوازيين سارعوا إلى إيجاد طرائق أجدى نفعا، فعندما كانت السفن تُبحر للتجارة كان من المفيد طبعا أن تُتلى بعض الأدْعية المناسبة مثل: ربّنا احفظ حمولتنا! ولكن سرعان ما وُضعت نُظُم تأمين حيّز التنفيذ، كان ذلك هو الاتجاه العام، أي كلّما أمكنت الفرصة وضعت تقنية عقلانية ذات مردودية، فقد برزت الفعالية الإنتاجوية[1] إذن في المدن وفي المناجم وفي المصانع وفي أماكن أخرى عديدة.

---

(١) الإنتاجوية (productivisme) هي ربط الإنتاجية (productivité) بالتنمية (développement) وجعلها غاية قصوى، هي سعي حثيث لا يعرف حدًّا للإنتاج المفرط. ليست مجرّد عرَض من أعراضِ الصّناعية (industrialisme) باعتبارها نظاما يرى في الصناعة الغاية الأسمى =

فكانت إحدى النتائج الثقافية الكبرى لهذا الوضع أن أصبح العمل إحدى "الفضائل" الكبرى لدى العالم البورجوازي، فإذا أردنا أن نصير أثرياء، وجب علينا إذن أن نُنتج، ومن ثمّ وجب علينا أن نعمل كثيرا، في مقابل ذلك كانت الكنيسة تعتمد في هذا المجال فلسفة مغايرة تماما.

ففي نظرها لا بدّ للإنسان أن يعمل وهذا مؤكّد، فالبطالة رذيلة من الرذائل وكانت كثيرا ما تردّد تعاليم الإنجيل التي مفادها "أنّ من واجب الإنسان أن يكسب قوت يومه من عرق جبينه"، وكان على الراهب أن يخصّص جزءا من وقته للعمل وهذا أمر ثابت، ولكن لا يمثّل العمل بالنسبة إلى الكنيسة إلا مجرّد وسيلة " توفر للإنسان ما يحتاج إليه، وسبيلا إلى التكفير عن ذنوبه، وهو بذلك وسيلة لبلوغ الكمال"، أما التاجر فقد أضاف شيئا يثير المخاوف، حيث هيّأه تشبُّثه بالكسب المادّي، وتعطّشه للثراء لإطالة وقت العمل إلى ما يفوق حدود الضرورة، وقد كتب بعد ذلك الواعظ البورجوازي الكبير بنيامين فرنكلين Benjamin Franklin في كتابه نصائح للتاجر الشاب: " تذكّر أن الوقت من ذهب"، أمّا المعنيون بالأمر فقد أدركوا ذلك منذ القرن الثالث عشر على الأقلّ، ففي الجشع طمَع لا يعرف الحدود كما أكّد ذلك القدّيس توماس saint Thomas ولذلك كان يخشى أن يقع التاجر في الإفراط، وأن يقيم عبادة للعمل خالية من كلّ معني إنساني، ولقد وصف عالم دين في القرن الرابع عشر هذا الانحراف فقال: " كلّ إنسان لديه ما يلبّي حاجاته وهو مع ذلك يعمل دون انقطاع لكي يحصّل ثروة، أو لينال مرتبة أرقى، أو ليتمكّن يوما من أن يعيش دون أن يعمل، أو ليصبح أبناؤه أغنياء مرموقين، فهذا

= التي يتوق إليها الإنسان في المجتمع، بل تساهم في تبيّن بُعدها الجوهري الذي كان وما يزال غير منفصل عن الرأسمالية. (المترجمان).

الإنسـان وكلّ مـن يحـذو حذوه إنمـا يدفعهم طمع وشـهوة وكِبْر وكلّهـا مذموم".
وكلمـة " نغـوس *Négoce* (تجـارة) في أصولها اللاتينية تعنـي "الامتناع عن اللهو" و"الامتنـاع عـن طلب الراحة"، فالتاجر إذن بالمعنـى الحرفي للكلمة رجل مهوس بالعمـل أي عدوّ للهو، فالمشـكل كما تُذكّـر ريجين بارنو ذو أهمّية قصوى جعلت عالـم الديـن الكاتالاني ريمـون دي بانافـور Raymond de Penafort يطالب في القرن الثالث عشـر "بأن يقدّم قدّاس الأحد والأعياد إلى عشـية السـبت وكان له ما أراد"، وبذلك أحدث أسبوع العصر الوسيط الذي سمّاه **الغربيون** بعد ذلك الأسبوع الإنكليـزي، فتعطيل العمل عشـية السـبت كان يعبّر عن احتجـاج ديني ضدّ النزعة الإنتاجيـة البورجوازيـة، وكان عـدم الامتثال لهـذا الأمر يعـرّض صاحبه لعقوبات الكنيسة.

إنّ هذه التفاصيل تبيّن بما فيه الكفاية أنّ التوتّر كان شـديدًا، والحقّ إنّ الطبقة الصاعدة لم ترفض المسيحية، ولـم تكن ترغب في استئصالها، لكنها كانت تعشق الدرهم والدينار، فبتنظيمها للحياة وفق مقاييسـها الخاصة كانت تعمل جاهدة إذن (وإن كان ذلـك عـن غير وعي) على هدم القيم الروحيـة التي أوصى بها **الإنجيل**، وعلى المدى البعيد نسبيا كان لا بدّ أن يفرز انتصار التاجر انهيار المسيحية، وذلك مـا حصـل فعلا، فقـد كان الانتصـار مؤثّـرا إلى حدّ جعـل علماء اللاهـوت (وهم "خبراء" ذلك العصر) يدركون حجم التهديد، وخلافًا **لغربيي** القرن العشرين الذين بـدوا غير مدركين مطلقًا لتدهور نظامهم، فإنّ علماء اللاهوت رصدوا القوى التي ينبغي عليهم محاربتها بشكل دقيق، ولكنّ لم يكن لدى **الكنيسة** المنهكة أو الفاسدة في الخفاء الوسائل اللازمة للمقاومة، وبعد قرنين أو ثلاثة تواطأت مع العدوّ.

لقد توصّلت الكنيسـة طيلة عهود إلى إنقاذ المظاهر الخارجية، فقد كان هناك

"مقاومون" و"ماضويون" رافضون لطغيان التجار، وكان هناك انتفاضات ومناشدات بابوية أثارتها التجاوزات التي لا تحتمل، ثمّ برزت نُظم دينية تخصّصت في "الحداثة" عن حسن نية بلا شكّ. ألا ينبغي أن "نعيش عصرنا"؟ لقد تزحزحت الحواجز بالفعل.

لقد استسلمت **الكنيسة** لما يتعلق بالتجارة وبعبادة العمل، ولئن لم يستقرّ التجار داخلها فإنّهم على الأقلّ انتصبوا على أبوابها، وبعد سلسلة من التنازلات المتتالية تلاءمت **روما** (مركز البابوية) مع أبشع مطالب المادية الجديدة، "لقد انعقدت مصالحة مع السماء"، فالعلوم الدينية ذاتها قد جرفها التيار بعد أن غمرتها عاصفة التجارة، خذ مثلا ما كتبه لوغوف حول العقاب الإلهي الذي خُصّ به الذين اتّخذوا **العجل** الذهبي إلهًا يعبد فقال: "يُزحزَح المرابي عن النار في القرن الثاني عشر، ويتمّ خلاصه بتطهيره عند توفر بعض الشروط، ولقد قدّمت رأيا مثيرا مفاده أن التطهير الذي يمكّن المرابي من الخلاص كان قد ساهم في ولادة الرأسمالية"، والمثير للسخرية أنّ **الكنيسة** هي التي فتحت الباب حقّا للمسار الذي سيفنيها (أو هيّأت له على الأقلّ). ولقد رأى كثير من مؤرخي القرن العشرين في الرهبان الذين يمارسون أعمالا أخرى روّادا للعالم الجديد دون وعي منهم بذلك، ألم "يُعقلَن" نظام العمل داخل الأديرة؟ وينبغي- حسب أحد الخبراء- أن "نعتبر نظام الرهبان البندكتيين النشيط بمثابة المؤسّس المحتمل للرأسمالية الحديثة"، فالراهب كان مضطرا إلى الفاقة، ولكنّ جماعته يمكن أن تكون ثريّة بل فاحشة الثراء، فلقد انتهى الأمر بأصحاب المُسوح لفرط ثرائهم إلى أن ينهضوا بدور المصرفيين في كثير من الأحيان، فبعض رجال الدين يتحمّلون إذن نصيبًا كبيرًا من المسؤولية في ظهور العالم الجديد، وبذلك يتأكّد الرأي الذي أورده هنري جورج Henry George في مؤلّفه التقدّم والفقر حين قال: " إنّ ما هدَم الحضارات السابقة كلّها هي الظروف الناجمة عن تطوّر الحضارة نفسها".

ومن البديهي أن تكون المراحل متعدّدة بين نقطة البداية ونقطة النهاية، ولن نغامر هنا بتقديم لمحة عن ذلك ولو كانت مختصرة، لكن نظرا إلى الأهمية التي يكتسيها المال عند الغربيين، فقد أولى فريق بحثنا عناية بما قبل التاريخ الديني للمؤسّسات المالية، وقد بدا له مشكل الربا خير مثال على ذلك؛ لأنّ الربا (تحت اسم قرض بفوائد) صار إحدى الأدوات الكبرى للثقافة الحديثة. فكيف أمكن لممارسة كانت محرّمة تحريما مغلّظًا لا خلاف فيه أن لا يُحكم بإباحتها فحسب، وإنّما أن تصير محلّ ترحاب واسع النطاق في المجتمع المسيحي، ويبدو أنّ المذهب البروتستنتيني على وجه الخصوص كان جسرا لا مثيل له بين هذه الإباحة وذاك التحريم؛ فالتجار والصيارفة -كما أسلفنا- لم ينتظروا البروتستنتينية (أي القرن السادس عشر) حتّى ينمّوا أموالهم بشتّى الوسائل، كانوا على الأقلّ يستحْيون من ذلك، فما زالوا في تلك الفترة يحملون مبادئ الإنجيل التي تناهض العقلية الربحية، فكانوا يشعرون بالحاجة إلى إسكات ضمائرهم (كأن يتصدّقوا على المساكين مثلا، ويغدقوا الهبات على الكنيسة)، ولكن يبدو أنّ مرحلة حاسمة قد قُطعت مع ظهور البروتستنتية.

وفي حين بقيت الكاثوليكية متشدّدة (على الأقلّ في مستوى تصريحاتها) حول التجارة والمال، فإن المذهب البروتستنتي قد شرّع لهما، ومثلما أكّد ذلك كثير من المؤرّخين فلا ينبغي أن نستخلص من ذلك أنّ لوثر Luther وكالفن Calvin أحلّا الرّبا بالمعنى الحديث للكلمة، فالمسيحي الحقّ في رأيهما هو الذي ينأى بنفسه عن الفوائد الفاحشة. ولقد شَجب لوثر بشدّة جشَع البعض من معاصريه على وجه الخصوص، لكن فكرة " تثمير المال" في حدّ ذاتها كانت تبدو لهما فكرة مشروعة، وفي ذلك مكمن الجدّة، فكان كلّ امرئ يمارس الإقراض بفائدة بشكل أو بآخر يعتبر في الماضي مرابيا ساقطًا، ثمّ صار الآن يعدّ صيرفيًا نزيهًا شرطَ أن

يحـدّد فوائـد معقولـة. لقد كتب كالفـن يقول: " لماذا لا نبيح لمـن يملك مبلغا من المـال بـأن يربح من خلالـه مبلغا معيّنا في الوقت الذي نبيـح فيه لمن يملك أرضا مواتـا أن يؤجرهـا مقابـل معلـوم كـراء؟"، بذلـك اعتـرف قائـد **الكنيسـة** رسـميا بالاستحقاق الاقتصادي للمال، وأخيرا تحرّر البنك والبورصة والعديد من أساليب الانتقـال المالـي من التهميش الأخلاقي الذي كان حسـب زعم رجال دين آخرين من الواجب بقاؤها عليه.

كان اجتهـاد كالفن واقعيًا، لقد أعلـن بأنّه كان من الأفضل نظريًا التخلّص من الممارسـات الرّبويـة، ولكن "بما أنّ ذلك كان مسـتحيلا فلا بدّ مـن اعتبار الصالح العام"، وبعبارة أخرى كان للتجّار من الشوكة ما يمنع الحدّ من دائرة توسّعهم، وقد ذكّر لويس روجييه Louis Rougier بأنّ جميع التقنيات التجارية والمالية الكبرى للغـرب، قد رسـخت منذ قرنين، من ذلك: " المحاسـبةُ الازدواجية[1] واسـتخدام الصكـوك والأوراق وتحويـل الأرصـدة الماليـة والمصادقـة عليهـا والحـث على الاقتراض من البنوك وبورصات القيم المنقولة"، وفي أواخر القرن الخامس العشر أقيمت خدمات بريدية منتظمة، وظهرت قوانين تتعلّق ببراءات الاختراع، ولم تكن هناك شركات ذات نيابات وفروع فحسب، ولكن شركات عظمى وحتى مجمّعات كبـرى، يمكننـا إذن أن نقـدّر الضغـوط التي كانت تمـارس على السـلطات الدينية فــ"روح العصـر" كانت في أوج قوّتها، وكان لا بدّ أن يعطي الإله في يوم من الأيام التاجر اسـتقلاله، ولقد لخّص أحد المختصين في هذه المسـائل سنة ١٩٣٥ الحلّ الذي وجده كالفينيو[2] مدينة جينيف، قائلا بأنّهم كانوا على مدى الأسبوع منشغلين

---

(١) تحتوي جداولها على عمودين أحدهما يتعلّق بالمصاريف والآخر بالمداخيل. (المترجمان)

(٢) هم المعتنقون لمذهب **جان كالفان** (Jean Calvin) من أهل مدينة جينيف السويسرية، =

بالدفاع عن مصالحهم المادية، ويوم الأحد يتفرّغون لعبادة الربّ، ولقد لاحظ ريشار تاوني Richard Tawney من جانبه أنّ " الكالفينية كانت أوّل نسق متكامل لمذهب ديني يمكن أن نقول إنه اعترف بالفضائل الاقتصادية وباركها"، وعوض أن يبطئ **الإصلاح** سهّل تقدّم التجار الرائع ظهور **الاقتصاد** الكلّي والهيمنة المطلقة للمال، ومهّد لهما، فألغت إنجلترا سنة ١٥٧١ قانون تحجير الربا.

يمكن أن نعتبر أنّ أصعب الأمور قد أنجز في ذلك التاريخ، ولم يكن يسَع الغرب في غمرة اندفاعه إلا أن يُظهر مزايا قانون اللعبة الجديد، فنفوذ المتصرّفين الماليين على وجه الخصوص بدأ يسجّل حضوره أكثر فأكثر، وكانت الظاهرة منذ **العصر الوسيط** حتى العصور الأكثر "حداثة" في غاية الوضوح، ولقد صاغ جون-ويليام لابيار Jean-William Lapierre هذا الملخّص البليغ سنة ١٩٩١ (أي عشر سنوات قبل **الانفجار الأكبر**): " لمّا رفعت الرأسمالية المركنتيلية[1] إلى المرتبة الأولى من السلّم الاجتماعي صيارفة الفوغر الذين أثْروا من تجارة

= وُلد في ١٠ يوليو ١٥٠٩ - ٢٧ مايو ١٥٦٤)، وهو عالم لاهوت وقِسّ ومصلح فرنسي في جينيف خلال حركة الإصلاح البروتستانتي. وكان من المساهمين الرئيسيين في تطوير المنظومة اللاهوتية المسيحية التي سُمّيت فيما بعد بـ "الكالفينية". تتناول تعاليمها القدر والملكوت المطلق للربّ في تخليص روح الإنسان من الموت واللعنة الأبدية تأثر كالفان في تعاليمه هذه بالتقاليد الأوغسطينية والمسيحية الأخرى وبنى عليها. وقد انتشرت العديد من الكنائس التي تعتبر كالفان المفسر الرئيسي لمعتقداتها في أنحاء العالم. كتب كالفان بالإضافة إلى عمله الشهير **تأسيس الديانة المسيحية** تفسيرات لمعظم الأناجيل والعديد من الأبحاث اللاهوتية الأخرى. (المترجمان)

(١) **المركنتيلية**: الاتّجارية أو مذهب التجاريين بالإنجليزية (Mercantilism) هي نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأي شيء آخر، وهي مذهب سياسي-اقتصادي ساد في أوروبا فيما بين بداية القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر. (المترجمان)

النحاس، فإنّ تطوّر الرأسـمالية الصناعية قد رفع إلى أرقى مراتب الطبقة المهيمنة مسـيّري البنوك الكبرى للأعمال كالروتشـيلد *Rothschild* في القرن التاسـع عشر وج.ب. مورغان *J. P.Morgan* في القرن العشـرين، واليوم يتربّع على قمّة سـلّم هرميٍّ لم يعد وطنيًا ولا قاريًّا، وإنما عالميا من هم على رأس كبار الشبكات المالية التي تمسك بخيوط السوق العالمي لرؤوس الأموال القادرين على تحويل ملايين الدولارات في بضع دقائق من أدنى الأرض إلى أقصاها".

وإذا كان فريقنـا قد أمعن التفكير في الفترة الفاصلة بين القرن العاشـر والقرن السادس عشر، فذلك لأنّه كان ازداد اقتناعا بتأثير هذه الفترة في الأحداث اللاحقة.

لقد استكشـف الشـاعر إدغار كينات Edgar Quinet في كتابه عبقرية الأديان هـذه الفكـرة التـي مفادهـا أنه ينبغـي البحث في تاريـخ الأديان عن أسـرار التاريخ السياسي والمدني، وكتب يقول: " لطالما اعتبرنا المذاهب نتاجًا للسياسة، والحال أنّ المنطـق المعاكـس هـو وحده الصائـب، فالمسـيحية ولدت في بيـت لحم قبل المؤسّسات الحديثة، وظهر الإنجيل قبل البابوية، ونزل القرآن قبل الخلافة، ونشأ كهنوت سيناء قبل مملكة القدس، وسبق وحي زرادشت في بختريا *Bactriane*[١] ازدهار بلاد فارس في سوز *Suse* وبرسبوليس *Persépolis*[٢]" كان هذا الأسلوب

---

(١) **باختريا** هو الاسم القديم للمنطقة بين بل هندو كوش ونهر جيحون وعاصمتها كانت باخترا (وهي الآن بلخ) وتسمى في الكتابات الفارسية باختري، وهي منطقة جبلية بمناخ معتدل والمياه فيها متوافرة والأرض خصبة، وقد كانت موطنا لإحدى القبائل الإيرانية، وفيها علم زرادشت ديانته وكان فيها أتباعه الأوائل، ومنها أتت الديانة إلى الجزء الغربي من إيران، وكذلك فاللغة المقدسة التي كتب بها الأفستا كتاب المجوس المقدس تسمى الباكريانية القديمة. (المترجمان)

(٢) **(تخت جمشيد أو برسبوليس)** باليونانية هي عاصمة الإمبراطورية الأخمينية =

في النظر إلى الأشياء محلّ انتقادات كثيرة -كما نعلم- ولم يكن ذلك من دون أسباب وجيهة، فمن المجازفة القول على غرار كينات بإمكان "استنباط المجتمع السياسي والمدني من الدين" لأنّ الأديان -مثلما لاحظ ذلك النقاد- لها هي ذاتها روابط أرضية سياسية ومدنية، وتظهر دراسة فترة من الفترات حوادث وطوارئ كثيرة تحول دون العثور في هذا "الدين" أو ذاك على خيط نهتدي به، هذا فضلا عن عدم التوافق على ما يجب البحث فيه تحديدا.

كان كينات يتحدّث كذلك عن قراءة التاريخ، بمعنى فكّ رموزه باعتباره سلسلة من المغامرات الإنسانية ينكشف الغطاء فيها عن قيم وعن مشاريع، لقد رأى فريق بحثنا أنّ هذه المقاربة يمكن أن تكون خصبة، ولا ريب في أن تحديد مفهوم "روح العصر" أمر بالغ التعقيد، ومن المؤكّد أن التعقيد لا يكمن في تحديد فحواها (ما هي الفضائل والرذائل التي سنضمّنها إياه؟) ولكن في تحديد منزلتها، ففي من تتجسّد هذه الروح وفي أيّ فضاء وفي أيّ مؤسّسات؟ أهي إله صغير أم فكرة **عظيمة** تحلّق بعيدا؟ لقد ضاعف فلاسفة **الغرب** ومتفلسفوه هذه الأسئلة النقدية إلى ما لا نهاية، غير أنّ شعراء فريق بحثنا قد وضّحوا الأمر، فكان من البديهي عندهم أن تكون هناك عصور وأن يكون لكلّ عصر روحه، وتكون هذه الروح في بعض الأحيان شاحبة اللون سقيمة ضيّقة الأفق إلى حدّ يجعلنا نتساءل

= (٥٥٠-٣٣٠ق.م)، يبعد هذا الموقع مسافة ٧٠ كم شمال شرق مدينة شيراز في محافظة فارس في إيران. في الفارسية الحديثة، يعرف هذا الموقع باسم تخت جمشيد (أي عرش جمشيد) أو پارسه، أقدم بقايا هذا الموقع يعود تاريخها إلى ٥١٥ق.م. يدعى هذا الموقع عند الفرس القدامى باسم پارسه، والتي تعني «مدينة الفرس»، وترجمة اسم برسبوليس في اليونانية تعني «المدينة الفارسية».

وقد أُعلِن (تخت جمشيد) موقعا للتراث العالمي من قبل اليونسكو. (المترجمان)

عما إذا كانت جديرة فعلا بهذا الاسم، إنّ الآفاق التي فتحها لنا كينات ليست أقلّ ثراء.

وغير بعيد عن هذا المجال (وقد أشرنا إليه من قبل) ينبغي القبول بفكرة مفادها أنّ أفعالا تأسيسية قد حصلت، ونعني بذلك فترات مميّزة ارتبطت بخيارات حاسمة، ولقد تحدّث فريقنا في معظم الأحيان عن "مشاريع" في إشارة إلى هذه الخيارات، ومع ذلك لم يغب عنه غموض هذا المفهوم، وكانت فكرة المشروع في ارتباط دائم مع فكرة خيار ينمّ عن وعي كامل وعزم تامّ، فالمشروع الأصيل هو ذاك الذي صاغه شخص أو مجموعة من الأشخاص بوعي تامّ بحيث لا تكون أسبابه ودواعيه واضحة المعالم فحسب، وإنما كذلك نتائجه القريبة والبعيدة. ونادرا ما تتوفّر عمليا شروط ذلك "المشروع" المثالي، وبالرغم من وجود هذه الصعوبة فإنّ فريقنا استخدم هذه الكلمة، ومع ذلك كان يمكن استعمال مفاهيم أخرى ملائمة مثل التي استخدمها بعض المؤرّخين كمفهوم الموهبة، ومهما يكن من أمر فينبغي أن ندرك أنّ الغرب منذ العصر الوسيط قد اكتشف موهبته وحدّد مشروعه ألا وهو التبشير بهيمنة **الاقتصاد** الكونية.

في الحقيقة لنا أن نتردّد في اعتبار هذا الفعل التأسيسي فعلا "دينيا" بحتًا، إذ إنّ الغرب لم يكن لديه على وجه اليقين وعي بإنجاز مشروع ديني عندما كان يدعم هيمنة المال، لكنّ عبادة **الربح** بدأت تحلّ محلّ العقيدة المسيحية، لقد أعلنت عن موت الإله، وانضوت بذلك في التاريخ الديني بالمعنى الذي يقصده كينات، فقد كتب مخاطبًا الأنبياء بقوله : " إنّ موت الآلهة يمهّد الطريق لموت الشعوب".

لا ينبغي إذن الوقوف عند استنتاج تافه مفاده أنّ ثقافة التجار كانت بمثابة الدّيانة، من المهمّ جدّا أن ندرك أنّ الغرب اتّخذ لنفسه تصوّرًا عامًا جديدًا للحياة

الإنسانية، (ولا نجرؤ على الحديث عن روحانية جديدة)، فإنّ الدخول في دين **الاقتصاد** كان يمثّل حالة اجتماعية كلية، على نحو ما كان يردّد مارسيل موس Marcel Mauss إذ لا يتعلّق الأمر فقط بتنظيم الإنتاج والمبادلات، وإنما يتعلّق (على الأقلّ على المدى البعيد) بمجموع الثقافة بما في ذلك الفنّ والأخلاق والسياسة والماورائيات، ولا شكّ في أنّ مأساة الغرب في معظمها كانت تعود إلى أنّ الطبقة المهيمنة بسبب نزعتها المنفعية الضيّقة لم تكن واعية حتّى بالتأثير الذي ستحدثه في جميع مناحي الحياة الاجتماعية، وهو ما حدث فعلا، ومع ذلك فإنّ إخضاع المناشط كلّها، وأفكار الناس كلّها لاعتبارات وحسابات اقتصادية بالتدريج مكّن أصحاب الأمر والنهي الجُدد (عن غير قصد عموما) من احتلال ميادين كانت توصف قديما بأنّها "دينية" و"فلسفية"، وبهذا المعنى أصبحوا مربّين رغم أنوفهم، وطبعا ما كانوا من التربية في شيء، ونعني بذلك طريقتهم في تمثّل الحياة والحبّ والموت في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وكذلك ما يعنونه بعبارة "النجاح الاجتماعي"، فمن الواضح أنّ الغرب الحديث عشية **الانفجار الأكبر** قد انحدر عمليا إلى ما سمّاه الأستاذ دوبان الدرجة الصفر في معارج الحياة الروحية.

ولقد حدثت بعض الاحتجاجات قبل تلك المرحلة الأخيرة التي لا يمكن أن نفيض القول فيها هنا، ولكنّ الإقرار بأنّ غزو القيم المركنتيلية قد أثار سخطا وأزمة في الضمير له في حدّ ذاته دلالات تسترعي الاهتمام؛ ذلك أنّ بعض **الغربيين** أدركوا أنّ التجار والمصرفيين قد رسّخوا شكلا من أشكال البربرية (لقد استعمل نيتشه وآخرون هذه العبارة في كثير من الأحيان)، وكانت أشكال المقاومة غير مجدية لأنّ صانعي الحداثة كانوا أشدّ قوّة وحضورا.

كانوا لا يؤمنون إلا بالواقع المادي، لكنّهم كانوا يؤمنون به إيمانا راسخا لا يتزعزع، ولكي نتحدّث بلغتهم كان ذلك الإيمان "باهظًا"، إذ لم يكن يدور بخلدهم أنْ سيأتي يوم يدفعون فيه ثمن ازدرائهم للواقع الروحي، فعندما انفجرت الأزمات الكبرى كانوا عاجزين حتّى عن فهم دلالتها، وفيما سيأتي نتناول من هذه الزاوية إحدى الظواهر الكبرى المميّزة لنهاية القرن العشرين ألا وهي الفساد، لكن لِنُشِرْ قبل ذلك إلى بعض الملاحظات المتعلّقة بتوسّع دائرة الممارسات التجارية والمالية.

يبدو اليوم من المستحيل التفكير بأنّ المال قد بلغ من الأهمية حدّا جعله يحتلّ الصدارة في الأنشطة الإنسانية كلّها، ولمّا لم يكن بإمكاننا هنا أن نستوعب وصف الظاهرة فإنّنا سنكتفي ببعض الأمثلة التي بدت لنا ذات دلالة.

لقد احتلّ التجار في نهاية القرن العشرين تقريبا ما يسمّى بالأنشطة الترفيهية بصفة كلية، وأصبحت رياضات مثل كرة القدم وكرة السلّة وكرة المضرب وسباق السيارات والملاكمة صناعات حقيقية، حتّى ألعاب القوى التي طالما حاولت المحافظة على الأخلاق النبيلة لرياضة الهواة فقد جرفها التيار، كان ينبغي أن تُغدق الأموال على النجوم حتّى يقبلوا الحضور في بعض الملتقيات، ولقد دفعت بعض الرابطات الدولية النفاق إلى أقصاه عندما منعت تلقّي هؤلاء مقابلا ماليا، وغضّت الطرف في الآن نفسه عن الهدايا السخية (كالسيارات التي تهدى إليهم مثلا من قبل أصحاب مصانع السيارات الكرماء)، وكان اللاعبون يُعاملون عادة باعتبارهم سلعا بالمعنى الدقيق للكلمة، كانوا يعرضون في السوق فتبيعهم الأندية وتشتريهم وكأنّهم خيول سباق، كانت لهذه السمسرة مزايا، فقد قيل سنة ١٩٩٣ إنّ لاعب كرة سلّة أمريكي بلغت أرباحه ٣٦ مليون دولار في العام، ولكن بمجرّد أن يصيب نجوم الملاعب وحلبات الملاكمة فتور، أو يشهدون بعض التراجع

يكون سقوطهم قاسيًا مؤلمًا؛ لأنّه كان ينبغي تحقيق "نتائج" وعروض، ولا يسرع إليهم التلفزيون والمساندون وصنّاع الإعلان إلّا حال توفّر هذا الشرط فقط.

ومن المحتوم تقريبا أن يتحول الرياضي الذي يتمتّع بقدر من الشهرة إلى إعلان حيّ، فهو لا يحمل فقط أكبر عدد ممكن من العلامات التجارية، وإنّما ينبغي على الجمهور أن يرصد بسهولة علامة حذائه المميّزة، وعلامة قميصه وقبّعته ومضربه وزلاجاته؛ ولكي يتسنّى لهم الطموح إلى مزيد من الأموال كان المسيّرون الرياضيون مستعدّين إلى تقديم جميع التنازلات، لقد علمنا من خلال بعض الوثائق مثلا أنّ "كرة السلّة الأمريكية قد جزّأت مباراتها إلى أربع أشواط كي يتسنّى لها إدماج أكبر عدد من الومضات الإعلانية"، لقد كان الخضوع للتعاليم المركنتيلية لا يعرف الحدود، فعندما يشرب الرياضي أمام عدسات الكاميرا كان لزاما عليه أن يُظهر بوضوح أوّلا العلامة المرسومة على قبّعته أو خوذته، وأن يمسك ثانيا قارورته بعناية أي بطريقة تجعل الجميع يعلم ممن قد اشتراها، ولا يقلّ مع ذلك حماس المعلّقين وشاعريتهم في نقل وقائع المباراة حتّى تغيب عن الجمهور في النهاية مقاصد المنظمين الاقتصادية، فهؤلاء باعتبارهم تجّارا مهرة يعرفون الرهانات الحقيقية: فضربة الجزاء التي تنفّذ في الدقيقة التاسعة والثمانين تقدّر بملايين الفرنكات، وفي التلفزيون يأخذ المشهد أبعاد نشيد **رولان**[1] أو إحدى تراجيديات شكسبير، ثمّ إذا لم تسجّل ضربة الجزاء فلا ضير من أن يطلب من هيئة الإشراف حصّة إضافية مختصرة، فباسم "حبّ الرياضة" لا شيء مستحيل، ولقد أدرك رجال السياسة ذلك طبعا.

---

(١) **نشيد رولاند** (بالفرنسية La Chanson de Roland) هو أقدم عمل مهم متبق من الأدب الفرنسي، توجد له عدة نسخ مختلفة من المخطوطات تشهد لشعبيته الكبيرة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. توجد أقدم نسخه في مخطوطة أكسفورد التي تحوي ٤٠٠٤ أسطر تقريبا وتعود لما بين ١١٤٠ و١١٧٠. (المترجمان)

ولقد أكثر علماء الاجتماع في القرن العشرين بطبيعة الحال من الملاحظات من هذا القبيل، لكن يبدو لنا أنّهم لم يتوصّلوا إلى تبليغ كلّ ما يحتويه، لنسلّم بأنّ وضع الأنشطة الرياضية لم يكن مأسويا، فممّا يبعث على الارتياح بأنّ البعض منها وإن كان يجرى في ظلّ هيمنة المال، فإنّه بقي محافظًا على نقاوته، ولكن لا طيبة في تاريخ الأخلاق، فالتفاصيل كلّها ذات دلالة. وفي مستوى كرة القدم كان تطوّر هذه اللعبة يحملنا على الشعور مثلا بأنّ الاقتصاد إذا دخل مجالًا لم يبقِه على أصالته قطّ، ولقد أدرك اللاعبون أنفسهم ذلك، عندما يطلب منهم إجراء مباريات منافسة كبرى عند منتصف النهار تحت حرارة حارقة. لماذا اختير هذا التوقيت؟ لأنّ الأمر لا يتعلّق باللعب وإنما بتقديم عرض تبثّه التلفزيونات بأثمان من ذهب، فالتوقيت الملائم من وجهة النظر التجارية هو منتصف النهار، فلا مجال للتردّد إذن.

إنّ إخضاع كلّ شيء للاقتصاد له انعكاسات أخرى خصوصا في المستوى الروحي، فرياضة الهواة الزائفة والمباريات الصورية والمسيرون أو المديرون الفاسدون والحكايات المشؤومة في تناول المنشّطات، هذه الأمور كلّها أصبحت معتادة شيئًا فشيئًا. كان الناس يشْكُون شيئا من "غياب الأخلاق" مثلما صرّح بذلك بعض الخبراء إذ "ترتبط الرياضة التي غمرتها التجارة اليوم بعناصر خارجة عنها، لقد أصبح قانون السوق هو المقياس والقيمة المطلقة"، ولقد اكتشفنا أنّ هذه "الانحرافات" كانت تفضي بالمناسبة إلى مآسٍ، خذ مثلا الطريقة التي عبّر بها لاعب كرة قدم محترف ابتلعته عجلة هذه المنظومة، فنزل -على حدّ قوله- إلى جحيمها إذ قال: " كانت كرة القدم عندي لعبة وليست حرفة، أنا ضحية كرة قدم الأعمال، وضحية مجتمع في غاية الفساد، لا يغفر للحالمين أيّ زلّة ويسحق الضعفاء، وكلّ ما ربحته عن عشق سرقوه منّي عن طمع، إنّي أريد أن أكون آخر

لاعب كرة قدم دمّرهم محتالو هذا النظام". وإذا ما أردنا أن نعرف كيف بلغ انحلال الغرب إلى حدّه الأقصى، فمن المفيد حتْما أن نفكّر مليّا في تلك الكلمات، فخضوع اللاعب لسيطرة التجار يفضي به إلى فقدان روحه التي بين جنبيه.

كان لا بدّ من مرور قرون عديدة؛ كي نصل إلى المرحلة القصوى لتأثير المال، ولكن كان النجاح كما تؤكّده وثائقنا تامّا تقريبا، كان من الصعب جدّا علينا العثور في أواخر القرن العشرين على ألعاب بُثّت في التلفزيون ولم تتوّج بتوزيع هدايا أو صكوك، وساد الاعتقاد أنّ كلّ نشاط إنساني لم يَعُد له معنى من دونها، وكانت الألعاب الأكثر إقبالا هي تلك التي تنتهي فعلا بمهرجان مالي؛ لذلك كان اللاعب في نهاية حصّة تلفزيونية عنوانها المال المال [وما سواه محال] يدير عجَلة كبيرة (ترمز إلى تغيّر الحال)، ويحصل إذا حالفه الحظّ على مال وفير، يرافقه الجمهور الحاضر تهليلا وتصفيقًا، وبما أنّ إدارة العجلة لا تتطلّب أيّ موهبة استثنائية، فإنّه يبدو لنا بديهيّا أنّ التصفيق موجّه لا إلى "اللاعب"، ولكن إلى المال في حدّ ذاته. كانت هذه اللعبة في الحقيقة بمثابة احتفال ديني له غايتان اثنتان: فهو من جهة يعطف القلوب على عبادة واحدة، ومن جهة أخرى يبعث الأمل عند كلّ مشاهد في الاستفادة هو أيضا في يوم من الأيام من هذه السماء التي تمطر ذهبا.

فالإنسان الغربي - كما سبق أن ذكرنا - لم يصبح إنسانا إلا بمشاركته في الاستهلاك؛ لذلك كان التذكير بوجوبه دؤوبا، وكان الإعلان أحد أبرز أدوات هذا التلقين، واليوم يستحيل علينا عمليا أن نقدّم فكرة عن المكانة التي يحتلّها في التلفاز، فلم تكن "اللوحات الإعلانية" تتكاثر طوعًا خاصة أثناء أوقات الذروة في الاستماع فقط، وإنّما لا يوجد برنامج تلفزيوني مهما بلغت صرامته وصبغته التثقيفية بمنأى عن انقطاعات محتومة [قصد الإعلان]، ولقد رأى فريق بحثنا في ذلك إحدى أبلغ الأشكال الثقافية المعبّرة عن نفوذ التجار، فلا شيء مطلقا بمنأى

عن الإعلان، فقد تكون بصدد متابعة هادئة لبرنامج قواعد اللعبة أو برنامج النزهة العجيبة على ظهر الجواد فتطالعك فجأة على الشاشة حفّاظات ماشان Machin والعاجن الإلكتروني الذي يدعى كذا والسائل الغسول كذا...

كانت هناك فعلا هيئة مهمّتها إيقاف هذه التجاوزات البذيئة. ولكن مثلما استمرّ التقدّم كان لابدّ أن يستمرّ «التطوّر الاقتصادي».

لقد توسّع رسميا بمرور السنين الوقت المخصّص يوميا للإعلان على شاشات التلفاز، وقد ألغيت كل أشكال المراقبة سنة ١٩٩٨، فكانت القنوات المتعدّدة تحدّد برامجها آخذة بالاعتبار الإعلان وحده، وكانت البرامج الأصلية تختصر إلى الحدّ الأدنى، (أي فقط ما يلزم حتى لا يغلق المشاهد الجهاز)، وكانت جميع هذه البرامج في واقع الأمر مدعومةً من قبل مؤسّسات اقتصادية أو بنوك كبرى، ويمكن لمؤسسة بنكية ما أن تسجّل حضورها في الألعاب الأولمبية تحت مُسمّى لطيف يدغدغ مشاعر المشاهدين على غرار "المساند الرسمي للألعاب"، ومن العلامات الدالة الأخرى في هذا المجال تكاثر البرامج المخصصة للبيع مباشرة، فبفضل البيع عبر الشاشة صار **التلفزيون والاستهلاك** وجهين لعملة واحدة، ومن المؤسف أن لا يكون تجار القرن الثالث عشر قد تمكّنوا من مشاهدة ذلك! فالمشعوذون يمجّدون بافتخار منتجات عديدة متنوّعة، ويدعون المستهلكين عبر التلفاز إلى شرائها في الحين، وقد كان الأمر في غاية البساطة، إذ يكفي أن يرفع أحدهم سمّاعة هاتفه أو يضع أنامله على مينيتاله[1] حتى تأتيه بعد ذلك ومضة إعلانية (لتغيير الأجواء بعض الشيء).

---

(١) **مينيتال** هي خدمة على الخط يمكن الولوج إليها عبر خطوط الهاتف. وتعتبر هذه الخدمة من أنجح الخدمات على الخط التي سبقت الواب. أطلقتها في فرنسا عام ١٩٨٢ شركة الاتصالات والبريد الفرنسية (Poste, Téléphone et Télécommunications). مكّنت =

تنتظرنا اكتشافات أخرى، فقد أدركنا مثلا أنّ الإعلان متذرّعًا بأيّ ذريعة، يندسّ في كثير من الأحيان بأسلوب مخاتل داخل برامج المنوّعات والبرامج الثقافية وفي التعاليق وحوارات الأنباء التي (يتحدّث المختصّون في البث التلفزيوني في هذه الحالة عن "الإعلانات السرّية" وعن "الإعلانات المقنّعة" أو "المخالفات الإعلانية")، ولقد اكتشفنا بالخصوص وجود تقنية لا يقلّ مكرها الثقافي عن مكر الشيطان، ألا وهي نسبة الاستماع والمشاهدة.

ينبغي أن نعلم أنّ أيّ قناة من القنوات التلفزيونية كان لزاما عليها أن تحصل على أكبر عدد ممكن من العقود الإعلانية؛ لكي يتسنّى لها أن تستمرّ في الوجود، أو بالأحرى أن تحقّق أرباحا، وتكون أسعارها أرفع بقدر ما يكون جمهور مشاهديها أوسع؛ لذلك كان الصراع مريرا، إذ ينبغي "تكوين جمهور" باستخدام جميع الوسائل المتاحة؛ حتى يصبح بالإمكان الاستيلاء على "نصيب من سوق [المشاهدين]" ويضبط حجم هذا الجمهور بطريقة آلية، فكان مقدّمو البرامج التلفزيونية المعنيون كلّهم يضعون نصب أعينهم هذه النسبة، فتعمّ الفرحة إذا تمّ إنجاز ٣٨ في المئة من حصص السوق بين عشية وضحاها، أما إذا "أنجز" ١,٢٪ فالانتحار على الأبواب. لقد كشفت لنا الوثائق أنّ هاجس نسبة المشاهدة أصبح مرضًا حقيقيّا، وكان هذا المرض يصيب الأشخاص (فكان عدد حالات الاكتئاب وقرح المعدة والنوبات القلبية مذهلا) ويصيب الثقافة نفسها.

ورغم كثرة الخطابات الاستعراضية التي كان الديماغوجيون الذين يسيّرون

= هذه الخدمة مستخدميها من تنفيذ عمليات الشراء وحجوزات القطارات والاطّلاع على أسهم البورصة والبحث في دليل الهاتف والدردشة بطريقة مشابهة للدردشة التي تتمّ الآن عبر الإنترنت. (المترجمان)

التجـارة التلفزيونيـة يلقونها (مثل الجودة والانفتـاح وغيرها) يبدو جليا أنّ هدفهم الأسـنى كان يتمثّـل في اسـتمالة أكبـر عدد ممكن مـن العملاء والمسـتهلكين إلى الجلـوس أمـام التلفاز، ويكـون الإغراء مسـألة حياة أو موت عند أوقـات الذروة، وهو أمر لا يتناقض طبعا مع مفهوم "الجودة" الشهير، وكما كان يقول المسؤولون أحيانًـا بـكلّ فخر لقد حقـق فِلم جيّدٌ أو برنامج رائق "نتيجـة جيّدة". ولكنّ ما يقلق تحديـدا هـو أنّ النتيجـة كانـت وحدها التـي يعتدّ بها، ولو كانت نسـبة المشـاهدة للبرنامج الجيّد المزعوم ضعيفة لرُمي به في سلة المهملات.

ومرّة أخرى نجد لزاما علينا أن نحدّد المسـائل بدقّة، فلكلّ حضارة أسـلوبها ومقاييسـها، وهي تتولّى تنظيم طقوسـها الثقافية وفق المُثل الخاصة بها، ولكن في حالتنا هذه لم يعد مشكل الأسلوب أو الجودة مبسوطًا، ولم تكن الأعمال في حدّ ذاتها تكتسي أيّ أهمّية تذكر، فالمقياس الوحيد كان كمّيًا صرفًا: فأيّ نسبة مشاهدة تحقّقت؟ لم يعد ثمّة أيّ تقييم إنساني يمكن أن يُعتدّ به، فكانت القيمة الاقتصادية التي تقاس بملايين الفرنكات هي وحدها التي تعتمد، ولم تعد البرامج التلفزيونية في حدّ ذاتها تستند إلى أيّ ثقافة.

ذلك أنّه لا وجود للثقافة إلا حيث تبرز إرادة إضفاء معنى إنساني على العالم والحيـاة، وهـذا ما قلناه في تأمّلاتنا الأوّلية، لم يعد مدير قناة من القنوات يستشـعر الحاجة إلى التفكير بهذه الطريقة، والأدهى أن ذلك كان يمكن أن يعيق مهمّته، فقد كانـت جميـع الجرائـد فـي نهاية القـرن العشـرين تتحدّث عـن "حـرب القنوات"، وكانـت هـذه الحرب اقتصاديـة، وكثير من الأمثلـة تبرهن على أنّ هذه الاسـتعارة العسكرية كان ينبغي أن تفهم حرفيا، فأساليب الاحتيال كانت مشروعة كلها، وكان القانـون الذي تشـوبه عديـد القيم الأخلاقيـة المتقادمة هو وحده الـذي مثّل حجر

عشرةٍ أمام أساليب المسؤولين وخططهم في كثير من الأحيان، فلو كانت قراءة **الطاو** Tao[١] أو **القرآن** ترفع من **نسبة المشاهدة** لأمروا بقراءة **الطاو والقرآن**، ولو اقتضى الأمر ظهور قسيس يغتصب راهبة أو راهبا لأظهروه.

كان المتخصّصون في قياس نسبة الاستماع لا يعيرون أيّ اهتمام لانطباعات المشاهدين، مثلما ذكر ذلك بعض الملاحظين النقاد، فقصارى ما يعنيهم شاهد هؤلاء برنامجا تلفزيونيا أم لم يشاهدوه، هل نال البرنامج المقدَّم إعجابهم؟ سؤال لم يُبسط على فئران المخابر التي وجب الرجوع إليها في واقع الأمر، وحتى لا يغيّر المشاهدون القناة أُحدثت علامة أخرى ذات دلالة: ("ابقوا معنا !")، يقال لهم سيُطرح عليكم بعد الفلم الذي تتهيّؤون لمشاهدته سؤالٌ، ويكون من قبيل "منْ صفَع البارونة[٢]- قُبيل مشهد القتل"؟ وكلّ من يقدّم الجواب الصحيح ينال جائزة كالاشتراك مثلا في مجلّة يابون Yabon التلفزيون[٣]، كلّ ذلك كان مستوحى من نظرية علم نفس سلوكية منقوصة، مفادها ماذا نفعل حتى يبقى المستهلك يشاهد قناتنا؟

---

(١) تنسب إليه الطاويّة وهي تقليد ديني أو فلسفي ذو أصل صيني، وهي تدعو إلى العيش في وئام مع **الطاو**، والطاو هو فكرة أساسية في معظم المدارس الفلسفية الصينية. ومعناها المبدأ الذي هو أساس كل شيء موجود في الحياة ومصدره ونمطه ومحتواه. وكتاب **الطاو** هو الكتاب المقدس في الديانة الطاوية ألفه حكيم صيني يسمى **لاوتسوا** عاش في الألف الرابع قبل الميلاد. (المترجمان)

(٢) بارون (للمذكر) وبارونة (للمؤنث) لقب يطلق على الأشخاص الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء في أوروبا في القرون الوسطى وما بعدها.

(٣) مجلة ترافق البرامج التلفزيونية وتعلن عنها بغاية كسب المزيد من المشاهدين. (المترجمان)

فالأمـل أن تضـع قناة من القنوات حيّز التنفيذ "سياسـة ثقافيـة" حقيقية هو من قبيـل الوهـم، لماذا كان رجالات ذلـك العصر يصرّون على تصنّع لعبة "الثقافة"؟ كان الوضع في غاية الغموض بحيث أضحت الملاحظات التي كنّا نسوق منذ سنة ١٩٩٠ أفكارا مبتذلة، ولقد تكوّن لدينا انطباع فيما يختصّ بهذه الحالة، أو بحالات أخرى كثيرة، هو أنّ الغربيين كانوا يستنكفون من القبول بأبسط البديهيات، فلماذا لم يروا أنّ ممارسات التاجر وعقليته منذ ما يزيد عن ثمانية قرون كانت تجتاح كلّ يـوم ما أمكـن لها اجتياحه؟ كشـف التلفاز بشـكل كاريكاتوري تقريبا السـير العام لثقافة زائفة.

ولقد عكف فريقنا بعد ذلك على ما كان يسمى "أزمة المسرح"، وما لا حظناه قـد أربكنـا والحـق يقال، بل قد كان له بليغ الأثر في نفوسـنا، وبالفعل فطيلة الفترة السـابقة **للانفجار الأكبر** شـغلت هـذه الأزمة فكر عدد كبير مـن الفنانين المهتمين بالشـأن المسـرحي، كان الكثير منهـم (إذا ما صدّقنا النصوص التـي اطلعنا عليها) يعضّون على الأنامل من الغيظ، لقد بلغ الضجر منهم مبلغًا جعلهم يجترّون يائسين "أسـئلة" مازلنا إلى اليوم لا نفهم مدلولها الحقيقي. أَوَكان ينبغي علينا أن نستسـلم لتسـهيلات المسـرح "الخاص" وللمسـرح التجاري ولمسرح الشـارع؟ أم كان من واجب الكاتب والمخرج والممثّل أن يتحمّل في عالم متحجّر قمعيّ دور الشعراء الملحميّيـن الذيـن خلقوا للاحتجـاج والاسـتنكار؟ على هذه الأسـئلة تتالى عادة إجابـاتٌ يغلـب عليها التـردّد والحيرة، فيبدو أنّ المسـرح "الملتـزم" في نظرهـم قد أضحـى قطعـة من زمن بعيـد، ولكن يجب التنبّـه إلى ضرورة الالتحـام بالجمهور واسـتمالته على الأقلّ، وأن نحسـن التصرف (إذا تعذّر ذلك)، مع الحرص الدائم بداهـةً علـى تطعيم ذاك الالتحام بما فيه ضمانة لحفظ المسـافة التي ينبغي أن تنأى بنـا عن الجمـوع في غمرة تقمّصها لأروع المشـاهد دون زيف أو تلميع، ولكن لا

نسـى أيضـا أنّ "الحلم الحقيقي يتطلّب إذا ما أردنا تجـاوز الانفعالات المصطنعة علاقة وثيقة بخفايا الحياة اليومية".

تحتـوي ملفاتنـا على كم هائل من مثـل هذه المعطيـات، أكان ينبغي أن ندلي بالمسكوت عنه؟ ولمن ندلي به؟ ولماذا؟ وكيف؟ أم كان لزاما علينا أن نتغزّل بما لا يوصـف؟ وكيف نفتح طريقا يتوسّـط بين التهريج المبتـذل، وبهلوانية المقلّدين التـي لا طائـل من ورائها؟ وكيف نجعل المسـرح الذي هو لعب وتأنّق في جوهره يتصالـح مـع ثقل العواطـف المفرطة أو النضاليـة التي تتهدّد المسـرح دائما؟ كان يبـدو لنـا أنّ أخيـل Eschyle مـا كان ليؤلّـف كتابـه الفـرس أو كتابـه أجاممنون[١] *Agamemnon* لـو وقـع فريسـة هـذه الحيـرة، لمـاذا إذن قضّى هـؤلاء المحترفون ساعات من التفكير المؤلم العقيم؟

مـن المؤكّد أنّ هذه الحيرة كانـت دليلا على أزمة ثقافية حقيقيةن وكان يكفي اتّباع مقاربة اقتصادية حتّى يتسـنّى لنا أن نفهم بأنّ العرض المسـرحي كان "مُنتجًا" رديئا، أي سلعة مكلفة هشّة زائلة، ويمكن لفلم من الأفلام أن يكلّف أثمانا باهظة، لكنّـه يتحـوّل إلـى رأسـمال حقيقـي بعد ذلـك؛ إذ يمكن نسـخ هذا الشـريط مرارا واستعماله لأمد طويل، وحتى بيعه للقنوات التلفزيونية. أما المسرح فبحكم طبيعته ذاتهـا كان يناقض هذا النوع من الاسـتغلال التجاري، فالعـرض المصوّر والمُتَلْفَز لم يعد فعلا مسرحًا (مسرحا حيّا بحضور جمهور حقيقي وممثّلين حقيقيين لحْمًا

---

(١) أجاممنون (باليونانية القديمة: Ἀγαμέμνων) في الأساطير الإغريقية هو شقيق الملك مينلاوس (Menelaus) ملك أسبرطة، وهو الذي قاد الحملة التي ذهبت إلى طروادة لاستعادة هيلين زوجة الملك مينلاوس التي هربت إلى طروادة مع بارس. هذه إحدى قصص إلياذة هوميروس، والتي اشتهر فيها الحصان الخشبي المعروف بحصان طروادة. (المترجمان)

ودَمًا) وإنما هو مسرح مزيّف ميّت محنّط، كانت بعض العروض الوقحة التي تستجيب لمتطلّبات تجارة بعينها تجد مكانا لها في الشاشة الصغيرة، أمّا المسرح الآخر، أي الحقيقي، فكان وجوده نفيًا للتلفاز ذاته ونفيًا للمردودية.

كانت هناك سنة ١٩٩٧ بعض العروض، وبعض الفرق المسرحية موجودة حقّا، ولكن كان بعض المتخلّفين فقط يشعرون فعلا بالحاجة إلى المسرح بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة، ولقد بدا لنا أنّه من غير المؤكّد أن يكون الكتّاب والممثّلون في القرن العشرين يجسّدون تقليدا بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من قيم بالية مشبوهة.

يمكن أن تخدعنا الفخامة التي يظهرونها أحيانا، لكن من خلال إنتاجهم وتصريحاتهم يمكن أن نرى بكلّ يسر الحبّ الحقيقي الذي يكنونه لتراث عريق يضمّ أخيل وأريسطوفان Aristophane وكوميديا الشارع الإيطالية وشكسبير Shakespeare وموليار Molière، بمعنى آخر لقد أصبحوا جزءا من الماضي، ففي مجتمع تسيطر عليه المصالح المادية ومحكوم عليه بحركة دؤوب، يبدو العرض المسرحي كأنّه احتفال يعود بنا إلى عصر ما قبل الطوفان، أو غذاء ثقافي غنيّ تفوق دسامته ما نحتاج إليه، ومثلما لاحظ ذلك الشاعر رايمون بورد Raymond Borde كنّا إزاء " استبدال مفهوم مسرحي وتراجيدي وهو مفهوم المقدّس بأسطورة تتعلّق بمشاغلنا اليومية فحواها أنّ كلّ شيء عادي"، إذن يتّضح كلّ شيء في آن: هناك مخطّط مشابه لذلك الذي أفرغ الكنائس من قبل أن يفرغ المسارح الآن، ولقد كتبت مخرجة كاتبة تقول:" إنّ صروح مسارحنا لم تعُد تغري أحدا".

ولا يمكن للفكاهة وللمأساة أن تجد لها أثرا بالغا إلا في جمهور مازال يمتلك

الحدّ الأدنى من الحياة الروحية، والحال أنّ الفراغ في هذا الجانب كان كلّيا تقريبا، فهملِت Hamlet وفوست Faust كانوا يبسطون أسئلة فقدت معناها. ما عسى أن يعنيه سؤال مثل: أن نكون أو لا نكون، في مجتمع لا يعرف سوى تصريف فعل ملكَ يَملِكُ؟ حقا يعرض المسرح أحيانا على الخشبة بعض الطغاة الأشرار، لكنّ كلّ الناس يعلمون أنّ كثيرا من الطغاة الحقيقيين يعذّبون ويقتلون دون عقاب، لقد تحوّل المسرح إلى مشهد بائس، وقد لاحظ رجل مسرحٍ قبل سنوات من **الانفجار الأكبر** أنّ فنّه صار "فرعًا ميتًا من فروع السياحة"، وبيّن أنّ الزمن الذي كان المسرح فيه يتلقّى الإعانات لقلب نظام الحكم قد انقضى ولن يعود، "يَدٌ تستجدي والأخرى تقاوم" عبارة أكل عليها الدهر وشرب، "فاليوم يد تستجدي والأخرى كذلك"، فهل ثمّة اعتراف بسيطرة الاقتصاد أبلغ من هذا؟

لقد عرف رجل المسرح في الغرب المصير نفسه الذي عرفه المزارع، فلقد سحقهما "التقدّم" كما يتصوّره التجّار، ولم تبق سوى ثقافة وزراعة "صناعيتين".

كان الداخل والخارج يسيران بالتوازي، وبمعنى آخر كان يرافق التحوّلاتِ الملحوظةَ في المجتمع المادي تحوّلٌ في المواقف والحساسيات والأنماط الفكرية وغيرها، ولو لم يكن **الانفجار الأكبر** لكان أقصى ما تنتهي إليه هذه المجتمعات هو أن تهيمن عليها هيمنةً مطلقةً رؤيةٌ اقتصادويةٌ ضيّقة. فالعيش وسط أنشطة واهتمامات اقتصادية ومالية مستمرّة له مآلاته، فالإنسان الغربي ينفق صباحا مساء (مثلا عندما يوقف سيارته على إحدى الأرصفة أو لدخول دورة مياه أو يستعمل طريقا سريعة أو لتأمّل لوحة فنّية وغيرها)، وما يقلق بالَه أكثر تفكيرُه المتواصل في وجوب خلاص قروضه وجباياته وفاتوراته وتأميناته وتعاونيته ومعلوم كرائه، وفي مشكلات مالية معقّدة نسبيا. كلّ ذلك يجد صدى له بأشكال

عديدة في النمط العام للحياة بالمعنى المتعارف للكلمة، حتّى إنّ الأنشطة التي تبعد في ظاهرها عن المجال الاقتصادي، يؤول أمرها إلى التأثر "بالعقلية التجارية"، وإذا كان فريق بحثنا قد أولى هذه النقطة اهتمامًا خاصًا؛ فذلك لأن كثيرا من المفكّرين المتميّزين في القرن العشرين قد قلّلوا كما يبدو من حجم الدمار الذي حدث، وفي ذلك مكمن الخطر.

لقد وصف الألماني ماكس فيبر في بداية القرن العشرين نفسِه بعمقٍ التأثير البليغ "للدوافع الاقتصادية"، ولقد لاحظ على وجه الخصوص أنه ما من حاجة أراد الإنسان قضاءها "وإن كانت غير مادية"، فارتبطت بدورة من الدورات اقتصادية إلاّ طرأ عليها تغيير؛ بذلك تبرز قوة الاقتصاد الذي "يساهم لا في تغيير طريقة تلبية الحاجات فحسب، وإنّما في محتوى الحاجات الثقافية كذلك حتّى وإن كانت شخصية جدّا"، ولقد طرح ماكس فيبر أيضا فكرة مفادها أنّ هذه التحوّلات في كثير من الحالات كانت تحدث بصورة غير مرئية، لا يعيها الناس المعنيون بها، فقال: " إنّ تأثير العلاقات الاجتماعية والمؤسّسات والتجمّعات البشرية غير المباشر الذي يخضع لضغط المصالح "المادية" ينتشر (عادة عن غير وعي) إلى جميع ميادين الحضارة دون استثناء، وإلى حدود أدقّ دقائق الشعور الجمالي والديني، إنّها تؤثّر في ظروف الحياة اليومية والأحداث "التاريخية" للسياسات الكبرى والظواهر الجماعية والجماهيرية، مثلما تؤثر الأعمال المميّزة لرجالات الدولة أو الآثار الأدبية والفنية الفردية: وهي أعمال يحكمها الاقتصاد". كان يمكن أن يتّجه الغربيون تقودهم في ذلك هذه الإشارات وحدها إلى عملية استكشاف ثقافي، وأن يدركوا إلى أيّ مدى قد سُمّموا؛ فلنقدّم مثالا بسيطا يعيننا على فهم أقوال ماكس فيبر حول "أدقّ دقائق المشاعر الدينية"، لقد عثر الأستاذ دوبان بالفعل على وثيقة غريبة جدّا تعود إلى القرن

الخامس عشر تتعلّق بسطور خطّتها ريشة الكاردينال نيكولاس دي كوز Nicolas de Cuse وهو عالم دين متصوّف كتب سنة ١٤٦٣ حوارًا (وسَمه بلعبة الكرة الحديدية) نقرأ فيه ما يلي " يبدو أنّنا إذا اعتبرنا الربّ صيرفيا فقد اعتبرنا حتما العقل صرّافا"، وردّا على هذا القول يجيب مخاطب آخر (يمثّل الكاردينال نفسه) بقوله: " هذا تشبيه ذو دلالة، فإذا ما اعتبرنا الربّ صيرفيا مقتدرا استطاع بسموّ قوّته التي لا تحدّ أن يصنع كلّ النقود".

لم نصدّق أعيننا لكنّ النصّ كان أصليًا، فمنذ القرن الخامس عشر بلغت الأمور بالمسيحي من الطبقة الرفيعة أن يشبّه إلهه بصيرفيّ، أي بربّ العُملة القدير، حقا لقد استعمل الإنجيل صورا اقتصادية أو مالية، لكن لم يبلغ هذه الجرأة قطّ، فبضعة قرون من توسع نفوذ التجار كانت كافية "ليتسلّل" البنك بصورة رمزية إلى"أصول" الفكر الديني.

ولقد شاعت استعارات وكليشيهات[١] مقتبسة من المعجم الاقتصادي كالنار في الهشيم كما كان متوقّعا في لغة الناس اليومية، ابتداء من عبارات عامية (مثل عبارة: دفع ثمنها نقدا) وانتهاء بقواعد تكتسي في عالمنا الحديث دلالة قوية جدًا. لقد سبق أن تعرّضنا في سياق حديثنا إلى عبارات من قبيل "علينا أن نحسن" التسيير بلا انقطاع وأن نعرف كيف " نفاوض" و" نستثمر"وفق "علاقة السعر بالجودة،" وأن نقيّم كلّ شيء بحسب " المردودية" وغيرها، كان الخبراء والمفكّرون يرون أنّه من العادي جدّا أن يتحدّثوا وأن يفكّروا مثل التجار ورجال الاقتصاد.

كان سيغموند فرويد Sigmund Freud يفسّر السعادة مثلا على أنّها مسألة تصرف في الغرائز الفردية"، ثمّ دقّق ليتفادى سوء الفهم قائلا: "وكما أنّ التاجر

(١) عبارات متكرّرة كثيرة الاستعمال والتداول. (المترجمان)

الحاذق يتفادى أن يضع كلّ رأسماله في عملية واحدة؛ فإنّ الحكمة ربّما تقتضي أن لا نتوقّع تلبية كلّ ميل بعينه". لقد أخذت هذه الأقوال من كتاب بدا لنا عنوانه " قلق في الحضارة" مفيدا في جوانب أخرى، فأن يكون للمرء "نزوة بعينها" يعني أنّ لديه شغفًا، كان الغربيون إذن مدعوين إلى تجنّب الشغف، لكن ألم يكن لديهم إذن عشق للمال؟ على أيّة حال لقد أعطى بعض القدامى نصائح مماثلة بطريقة ألطف، إذْ لم يرتق الإله إلى مرتبة **الصيرفي** فحسب، وإنّما كان **الغربيون** أنفسهم مطالبين بحسن التصرف في انفعالاتهم، كما يحسنون التصرف في حساباتهم البنكية، وكان ذلك روح العصر، وهو أن يتصرّف المرء " باعتباره تاجرا حاذقا".

وفي المجال العلمي (الذي سنخصّص له فصلا من فصول هذا الكتاب) تظهر للعيان فعالية المخطّطات الاقتصادية أيضا، ولن نقدّم هنا سوى مثال يتعلّق بـ"قانون الحفاظ على المادّة" كان لافوازيي lavoisier (١٧٤٣) يعتبر الأب المؤسّس لهذا القانون، وقد شاءت الأقدار أن يكون هذا الكيميائي مزارعًا، فقد كان يدفع للملك مبلغًا معيّنًا من المال لقاء السماح له بتحصيل الضرائب، فكان إذن رجل ماليةٍ اعتاد القيام بالحسابات ومراجعة الموازنات والتفكير وفق المداخيل والمصاريف، والأهمّ من ذلك اكتشاف لافوازييه لقانونه الشهير بتطبيق نمط التفكير نفسه على الطبيعة: وكما أنّ المحاسبة في جزء منها ثنائية وينبغي أن تكون متوازنة، فإنّ الموازنة الكتلية لعملية كيميائية وجب أن تكون متوازنة، فإذا قمنا بتفاعل كيميائي لمواد لها كتلة جملية ما، فإنّه ينبغي الحصول على القيمة نفسها عندما نَزِنُ مجموع مخرجات التفاعل التي تمّ الحصول عليها، فالطبيعة باختصار شديد "تشتغل" كالمصرف؛ ولكي نتأكّد بأنّ ذلك كذلك علينا أن ننتهج طريقة بسيطة: إذ يكفي أن نستعمل الميزان، أي الوسيلة التي يمتلكها البقّال ووازن الذهب.

لقد ثبتت صحّة هذا القانون وما قدّمه من خدمات جليلة للذين كانوا يرومون "السيطرة على الطبيعة"، وعلى أيّة حال لقد دعمت مكانة **الاقتصاد** وأهليته الفائقة الثقافة، وبنى الإله المصرفي الطبيعة فعلًا وفق قواعد حسابية مضبوطة.

لقد أتيح لفريق بحثنا ملاحظة تأثير الممارسات الاقتصادية المالية في كلّ نواحي الحياة، كان لزاما علينا الرجوع إلى المال عندما كنا نروم فهم دلالة الأنشطة والمؤسّسات الأنبل والأبعد عن الاهتمامات المالية". إنّ عبادة العقل التي كنّا قد أشرنا إليها تقدّم لنا مثالا أخيرا على ذلك. لماذا إذن تخيّل **الغرب** البورجوازي وجود سلطة عليا هي العقل؟ ولماذا أراد أن يجعل منها الحجر الأساس لأفكاره؟

فلكي نحقّق أرباحا ينبغي أن نحْسِب، أي أن نفكّر، وكلمة رسيو *ratio* -كما نعلم- تعني في اللاتينية[١] الحساب والعقل معا، فالتجارة إذن كانت ممارسة "عقلانية" في جوهرها، فعندما يعدّ تاجر العصر الوسيط أكياس قمحه ودنان خمره أو زيته كان بذلك يستعمل "عقله"، وعندما صار الجري وراء الأرباح أمرا مشروعًا، وجب دائمًا وضع خطط تجارية أشدّ "عقلانية"، أي كان لزامًا أن يقارن التاجر الأسعار المعتمدة هنا وهناك، وأن يحدّد هوامش الربح القصوى، وأن يتلاعب بسعر صرف العملات وما إلى ذلك. ولا فائدة في ذكر المصرفيين الذين كانوا منكبّين على حساب الفوائض البسيطة والمركّبة، يحلّلون تطوّر السوق تحليلا منهجيًا، متوثّبين دائما لاقتناص الفرص النادرة والأرباح الممكنة، وكلمة مضاربة تدل هنا على أكثر من دلالة بمعنييها النظري والعملي، فالجري وراء الربح يقتضي مضاربة عقلانية فائقة، وبعبارة أخرى لم يعد هناك مكان للامعقول في النشاط التجاري.

---

(١) اللاتينية هي اللغة الأصل التي انحدرت منها اللغة الفرنسية. (المترجمان)

لقد كان المؤرّخون الغربيون يستشهدون دائما بكتيّب فلورنسي قديم عنوانه نصائح في التجارة يقول: "إنّه لخطأ فادحٌ ممارسة التجارة ممارسة عمليّة صِرْفًا، فالتجارة عملية حسابية وحسن تدبير (*si vuole fare per ragione*) ولقد عرّف أحد قواميس القرن العشرين الاقتصاد متأثرًا بهذا المنظور؛ باعتباره "تدبيرا عقلانيا للأموال"، ولو أتيح للاقتصاد أن يزدهر بصورة تامة - في اعتقادنا- لكان أكثر الاختصاصات قدرة على تمثيل العلوم الغربية كلّها، وأعظمها شأنا وأرفعها مكانة وأرقاها طِبْقا لرغباتٍ كان بعض الخبراء يعبرون عنها بوضوح. كان بالإمكان أن يشمل الاقتصاد مظاهر الحياة الحديثة كلّها (بما في ذلك الأخلاق والقانون **والدولة** و"حاجات" الناس المتعدّدة وغيرها)، ولقد مضى بعض المنظرين أشواطا في هذا الاتّجاه، وكانوا يعتمدون في ذلك على فكرة أضحت بديهية في الغرب مفادها أنّ كلّ شيء أيّا كان يمكن بيعه.

لقد كانت الحياة الاجتماعية في أوسع معانيها مهيّأة لأن تكون سوقًا عملاقة، فأضحت حياة البشر هي أيضا لها ثمن (بالمعنى المبتذل للكلمة)، يُحدّد بطريقة منهجية وفق عدد من المقاييس "الموضوعية"، مثل المكانة الاجتماعية، ورأس المال الممثل والأصل العرقي وغير ذلك، (وكان من البديهي أن يكون دهْس ابن مهاجر غير شرعي في الطريق أقلّ كُلفة من دهْس ابن وزير)، وقد أثمر ذلك أيضًا تحليل جميع الأنشطة الإنسانية باعتبارها مبادلات للأموال والخدمات، ومن المفيد للغاية حسب رأي بعض الخبراء دراسة "اقتصاد" قمع الجرائم والنزاعات المسلّحة والعلاقات خارج إطار الزواج والامتيازات الشرفية وغيرها، وكانوا يسلكون أيسر الطرق لبلوغ هدفهم؛ كأن يدفع أحدهم أجرة مومس، أو أن يدعو خليلته إلى غداء، أو أن يمنح زوجته هدية، وهي أنماط من السلوك وجب أن توضع في مستوى واحد وأن تؤوّل وفق المقاييس الكمّية ذاتها؛ ولكي تحصل

على فخذ خروف أو على سيارة إمّا أن تدفع الثمن المطلوب، وإمّا أن تقتل البائع وتعرّض نفسك إلى خطر دخول السجن.

كلّ ذلك يندرج "اقتصاديًا" في الشبكة الواحدة للمبادلات نفسها وفي المنطق نفسه، فجميع التصرّفات الإنسانية كانت مقتصرة بشكل من الأشكال على مستوى واحد ألا وهو مستوى المحاسبة وأفرغت بصلَفٍ جميع المسائل التي لها معنى من محتواها.

لقد وقع **الانفجار الأكبر** قبل أن يكتمل هذا التنظير الرائق وقبل أن يعمّ تدريسه، ولولا حدوث الانفجار لتمثل **الغرب** ذاته تاجرا ليسَ غيْرُ، ولتحقّق في النهاية التحام **الاقتصاد بالعقل** التحامًا تامًّا.

III - الإنسان الفاسد

«يُتاجـر كثيـر من النـاس لا يحصى عددهـم كثـرةً بأثمن الأشـياء على مرأى ومسمع من الجميع دون أن تتدخّل العدالة الإنسانية».

ليونار دافنشي Léonard de Vinci

«حقّا إنّ الشـرّ أعمق مما يبدو لنا، إنه نبات يغوص في الأعماق بعيدًا بحثًا عـن غذائـه، إنّ هـذا النظـام العمـلاق الـذي بنـي علـى الاحتيـال ليتفـرّع ويتقمّص أشـكال الغش كلّهـا جذوره ضاربة في أعمـاق بنائنا الاجتماعي بأسره».

هربرت سبنسر Herbert Spencer

«كانـت الرذائـل والمفاسـد وضعـف الحضـارات تظهر على السـطح دائما عندما تتخطّى حدّا معيّنا نحو التقدّم، وكلّ حضارة محقها الغزاة قد تلاشت في الحقيقة من قبلُ بتفكّكها من الداخل».

هنري جورج Henri George

لقد اتّسمت نهاية القرن العشرين -كما يعلم سائر المؤرّخين- بتتابع الفضائح الصغرى والفضائح الكبرى دون انقطاع تقريبا، فكانت كلمات مثل الفساد والغش تتكرّر دون انقطاع. وكان من النادر أن يمرّ على المواطن يوم أو يومان أو ثلاثة من غير أن يقرأ في الصحف عن "قضية" من القضايا المدوّية نسبيًّا كُشِف عنها الغطاء؛ من أجل ذلك كان الفريق المصغّر الذي كلّف بدراسة هذا الجانب من الثقافة الغربية مرهقًا، فالوضعية معقّدة إلى حدٍّ لا يمكّننا من أن نزعم تقديمَ بَسْطٍ ضَافٍ في هذا المقام.

فإلى جانب حالات الفساد الثابتة وحالات الاحتيال الخطيرة فقد انتعش بالفعل عدد مذهل من حالات فساد أقل حجمًا، ومن صنوف الاحتيال، ومن "حالات تقاعس مشبوهة"، وتنازلات وخروج عن أخلاق المهنة. فماذا كان يعنيه هذا الوباء؟ ولماذا لم يُوقَفْ؟ تلك هي الأسئلة التي سنخوض فيها في الصفحات القادمة. ولئن كانت المهمّة شاقة فإننا سنبدأ بالتذكير ببعض الأمثلة على ذلك. ولْيطمئنّ القارئ فلن نطيل القائمة مجاملة، وسنتجاوز التفاصيل الباعثة على الاشمئزاز، سنكتفي بالإحاطة بملابسات البؤس الغربي الكبير فقط، وإذا صحّ ما جاء في الوثائق، فقد حدث أن اتخذت إجراءات قضائية ضدّ كثير من الرؤساء المديرين العامين المرموقين في فرنسا قبيل سنة ٢٠٠٠، وقد سُجن أحدهم بتهمة التزوير والانتفاع به والاختلاس وخيانة الأمانة، وكان آخر مطلوبا للعدالة؛ لأنه كان سببا في إفلاس مجمع كبير وفي التآمر على إفلاسه. وكان ثالث قد استُنطِق لتآمره على ممتلكات شركة، واتُّهِم آخر أيضا بتقديم موازنة زائفة ومعلومات

خاطئة واستعمال معلومات سرية لأغراض شخصية، وذاك أخيرا مقرّب من السلطان تحمّل وِزْرَ انتهاك امتياز تجاري لحساب شركات في **البورصة**، لكنّ هذه اللائحة الطويلة من الاحتيالات لا تتضمّن أرباب العمل الكبار أو العظماء فقط، فأراذل القوم كانوا يحسنون جلب الاهتمام أيضا، ففي أواخر سنة ١٩٩٤ أوردت الصحافة هذه الحصيلة: "هناك حوالي مئة من أرباب العمل الفرنسيين هم الآن رهن المساءلة من قبل العدالة الفرنسية والأجنبية"، وفي الفترة نفسها أظهرت هيئة بحث برلمانية سلسلة من عمليات تخالف القانون نهبت فعليا ١٢٠ مليار فرنك، كانت تخصّص سنويا للتكوين المهني، ولقد أخذت في طريقها بعض المنظّمات التي جمعت من الأموال بضع عشرات من ملايين الفرنكات للاستثمار في البناء أهدت مسؤوليها "مساكن وظيفية" (وهو أمر يخالف القانون شكلا)، ولقد استولى بعض الماكرين الصغار على أموال عامة، ومنهم من غيّر وجهتها إلى "صناديق النقابات ومنظّمات أرباب العمل والبنوك وحتى الأحزاب السياسية". وتقدّر هذه الخسائر المالية بالمليارات (حسب عبارة النواب المكلّفين بالبحث)، والحيل كثيرة جدّا، نذكر منها تقاضي بعض المدرّبين أجورهم بسخاء، والكثير من المصاريف الوظيفية الطائلة، وسيّارات بسائقيها ومجالس إدارة مضخّمة بلا طائل وغيرها. كان يكلّف"خبراء"من بعض الأصدقاء بالقيام بدراسات جدوى مشبوهة جدّا لقاء أجور خيالية، فتحوّلت مقرّات التدريب إلى نيابات سياحية حيث تُنهب أسواق عريضة دون بذل أي مجهود يُذكر. لقد صرّح البرلمانيون أنّ هذه الشرذمة كانت تعيش بتجاوزاتها وأوكار فسادها في "وضع شبه قانوني" وفي غياب الشفافية وفي الفوضى.

كانت أنواع الزلل كلهاً والمخطّطات الشائنة والمربحة في آن تنشر باستمرار في الصحف، فقد علمنا مثلا أنّ طبّ العظام يمكّن من ابتزاز صناديق الضمان

الاجتماعي ابتزازًا فاحشا. لقد بيّن أحد الجرّاحين بأنّه كان مضطرّا إلى رفض بعض المزوّدين[1] المدلّسين، حيث كان خطابهم صارخا: "ارفع ثمن جراحتي إلى ١٥٠٠٠ فرنك وسأفوترها بـ ٥٠٠٠٠ أو أكثر **للضمان الاجتماعي** ثمّ نقتسم الفارق"، وكان بعض الأطبّاء الممارسين يوافقون على ذلك، فلقد أتاحت الفوترة المفرطة لجراحة الرّكبة حسب تحقيق رسمي كامل اختلاسات جملية بحوالي مئة مليون فرنك (فتحت حولها تحقيقات قضائية)، وفي ميدان طبّ العظام دائما كانت الأربطة العظمية الاصطناعية موضوع تقرير متميّز، لقد كشفت مجلّة جامعة عن إيراداتها التي:" كانت تقدّر بـ٥٠٠ فرنك، ولم يكن من النادر أن تُفَوتر في أغلب الأوقات بمقدار يتراوح بين ١٠٠٠٠ و١٥٠٠٠ فرنك لحساب الضمان الاجتماعي الذي يدفع ثمنها مباشرة"، وكان الوسط الطبي على وجه العموم فريسة لإغراءات كثيرة. لقد بدت الصناعة الصيدلانية (الأدوية) على سبيل المثال في غاية الحيوية، وإذا صحّت -على الأقل- الشهادات العديدة مثل الشهادة التالية بتاريخ ١٩٩٣: "باتت الامتيازات المباشرة وغير المباشرة المرصودة من بعض المختبرات الكبرى لا تخفى على أحد"، وفي سنة ١٩٩٥ ذكرت إحدى الصحف أنّ شركة صيدلانية كانت تمارس الرعاية الرياضية بطريقتها الخاصة، إذ أهدت مقاعد خاصّة إلى ملعب **حديقة الأمراء** (باريس) لصالح هواة كرة القدم من الأطبّاء".

ولقد ارتفع ثمن هذه العملية في سنة واحدة إلى حوالي ٥ ملايين فرنك، وعلى الرغم من أنّ الثقافة كانت موضة العصر حينها، فإنّ كثيرا من الممارسات وكثيرا من المؤسّسات بقيت أبعد ما تكون عن الشفافيّة، ولقد علمنا من الصحف

---

(١) الذين يزوّدون المستشفيات بالآلات والأعضاء الصناعية ونحوها. (المترجمان)

انتشار إشاعات مُفْزعة تتعلق باستخدام بعض الأموال التي جُمِعت لتمويل البحوث المتعلّقة بالسرطان وبأمراض أخرى.

ولمّا كان المال يُتداول وكان هناك شيء يباع ويشترى كان لزامًا علينا أن نتوقّع حالات غش وخيانة للأمانة واختلاسات وسرقات تتفاوت براعة القيام بها وتتفاحش خطورتها، فتارة يختلس محام أكثر من ٢٠ مليون فرنك عند تلاعبه بـ"حسابات" عملائه التي اؤتمن عليها بالصندوق المستقلّ للائحة المحامين المالية، وتارة أخرى يضخّ الفائزون في الانتخابات "تعويضات" ضخمة مخالفة للقانون في هذه المنطقة أو تلك من فرنسا لحساب أحزابهم السياسية، وفي الوقت نفسه كان يعسر على مواطنين آخرين القيام بعمليات أقلّ حجمًا، ولقد نجح أحدهم مستغلا ما في المنظومة من نقائص في الاحتيال على أحد عشر صندوقًا لإعانة العائلات المُعْوزة، وسرقة ما يزيد على مليوني فرنك، واكتفى آخر وهو مجرّد وسيط في **الهيئة الوطنية للألعاب** باختلاس ٢٠٠٠٠٠ فرنك.

وهم ليسوا في ذلك بالتأكيد سواء، ففي سنة واحدة لم يقضم (إذا أمكن القول) من النقل العمومي سوى مقدار ٨٠٠ مليون فرنك، لكنّ التلاعب بأموال بنك كبير وقع تأميمه في التسعينات كلّف الدولة عشرات المليارات، وأحصى صندوق التأمين التعاوني للموظّفين في بضع سنوات خسائر تقدّر بـ٧ مليارات. هذه النزوات كلّها تحمّل وِزر دفعها المواطنون المنخرطون فيه أو المواطنون المستهلكون في نهاية الأمر. وفي رأي بعض الصحفيين " يمكن أن ترتفع الزيادة في الأسعار الناجمة عن الفساد" عند شراء المنتجات أو الخدمات إلى ١٠ أو ١٥% وتنطبق هذه الأرقام على فرنسا، ولكن الاحتيال والفساد يتفاقمان خارج هذا البلد أيضا، ففي ألمانيا مثلا استحوذت شركة بالبورصة بطرق غير مشروعة

على مبلغ يعادل حوالي ٣٤٠ مليون فرنك. ولقد علمنا بإفلاس مصرف بريطاني لأنّ اثنين من مديري فروعه قد رشوا -كما يبدو- موظفي حكومتين أجنبيتين. وبعد ذلك بقليل تمّ التفطّن إلى نقص في أحد الحسابات بمصرف كبير في إسبانيا قدّر بـ٢٠ مليار فرنك، أمّا بالنسبة إلى إيطاليا فإنّ الوثائق التي بحوزتنا تركت لدينا انطباعا بأن لا حاجة لهذا البلد في أن يتلقّى تدريبا على الاحتيال والفساد.

من الطبيعي أن نكتفي بهذا القدر، فنحن لم نُعِر اهتماما كبيرا للجوانب التقنية المتعلّقة بهذه العمليات الدنيئة فقط، وإنّما لم يَرُق لنا التساؤل الجدّي عن كيفية سير **العدالة**، فهناك العديد من الممارسات التي تستدعي فضولنا. لماذا سُلِّطت عقوبات مخفّفة على بعض حالات الاحتيال الخطيرة (أو لم تعاقب أصلا)، ولماذا بقيت أخطاء عديدة شَجَبتها الدولة نفسها من غير عقاب؟ فما كانت طبيعة "قصر العدالة"[١] الشهير الذي تشير إليه كثير من النصوص؟ لماذا كان يُتاح له أن "يتتبّع" أو "لا يتتبّع" دون أن نعلم أسباب ذلك؟ وعلى أيّ أساس كانت بعض الشخصيات العليا في الحكومة تتدخّل في عمل العدالة؟ ولماذا كان مسار هذه العدالة في بعض الأحيان في غاية الالْتواء والبطء؟ ولماذا كانت بعض "القضايا" المهمّة يطويها النسيان سريعا؟ ولماذا يواصل محتالون معروفون تنمية ثرواتهم بكلّ صلَف؟

لقد كان من الصعب علينا في الغالب إدراك جوهر الفكرة التي كان **الغربيون** يتبنّونها حول مفهومي العدل والظلم، مع أن نظامهم القضائي يبدو في غاية الدقة، غير أنّ أكبر همّنا كان ثقافيًا. فكيف نفهم نشأة مثل هذه الوضعية؟

---

(١) **قصر العدالة** (Palais de justice) بناء يشمل المحكمة أو أي سلطة قضائية أخرى وإدارتها ومختلف الخدمات المتعلقة بالقانون. وهو المعادل الفرنسي لـ «محكمة» أو «محاكم» في البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية. (المترجمان)

إنـه لمن الخطأ الفـادح حقًا أن نعتقد أنّ جميع النـواب كانوا يقضّون أوقاتهم فـي تنميـة ثروتهـم، أو تحويـل الأموال إلى أحزابهم بأسـاليب غير مشـروعة، وأنّ جميع رؤساء البلديات يلهثون وراء الرشوة، وأنّ رجال الأعمال كلّهم والمصرفيين جميعهم كانوا يسـتمتعون بتزوير موازناتهم واصطناع موازنات مشـبوهة أو تبييض الأموال "القذرة" بوسـاطة شـركات وهمية، لكن من الواضـح أنّ قصص الاحتيال والفسـاد قد تضاعفت بنسـق متصاعد عشـية **الانفجار الأكبر**، كانت هذه القصص تسـمّم الأجـواء، وكان مـن العـاديّ جـدًا أن نعلـم بمسـاءلة بعض رجال السياسـة وبعض المقاولين والماليين قضائيا وما إلى ذلك، وكان سؤال الموظّف في مكتبه أو صاحب المطعم أو المعلّم أو السبّاك كلّ صباح: "على من سيأتي الدّور اليوم؟"

لـم يكـن فريق بحثنـا يعتقد -وهو ما أتيحت لنا الفرصة لذكره فيما سـبق- أنّ ظواهـر مـن هـذا القبيل تُعزى إلـى تدهور مفاجئ فـي الطبيعة الإنسـانية، فإذا كان العديـد مـن المواطنين يحتالون ويغشّـون، فمن المؤكّد قطعا أنّ ذلك ليس بسـبب دافـع شـيطاني عفـوي. إنما أردنا فهم بعـض الظواهر المزعجة، حيـث كانت هذه "القضايا" تُحدث بين الناس تململا، بل سُـخطا، ولكن كنا نلاحظ كذلك نوعًا من التسـامح معها، بل تبدو الاختلاسـات الكبرى عند طائفة لا يسـتهان بها من الناس مثـار إعجـاب وتحاسـد، ولا تظهر مثـل هذه التناقضـات عند المواطنيـن العاديين فحسب، ولكن لدى رجال السياسة وداخل المؤسسات العليا.

على سـبيل المثال لا الحصر، لقد حدث في فرنسـا زمن التسـعينات أن اتّخذ وزيـران إجراءات مختلفـة تمامًا بخصوص الانحراف المالي، فمن جهة كان وزير العدل يصبو إلى سنّ قانون يعزّز مقاومة الفساد؛ لذلك اقترح على وجه الخصوص توسـيع مجـال جريمة "تبييض الأموال" فلا يطبّق على تبييـض الأموال المتأتّية من

الاتجار بالمخدّرات فحسب، وإنّما يشمل أيضا تلك المتأتّية من "كل انحراف اقتصادي منظّم"، وفي الآن نفسه عرض وزير الاقتصاد اقتراحين على مجلس الوزراء يهدفان (وهذا مقتبس من صحف ذلك العصر) إلى "الالتفاف على قواعد الصفقات العمومية التي تضمّنها قانون محاربة الفساد". إنها مناورة ذكية قطعًا، فقد اقتصر الالتزام بالشفافية مثلا على الصفقات العمومية "المحدودة المبالغ" أي تلك التي لا تتجاوز الـ ٧٠٠٠٠٠ فرنك حتّى يصير من السهل الإفلات من ضوابط قانون مكافحة الفساد. ولقد صاغ أحد نقاد تلك الفترة وهو فليب ألكسندر Philippe Alexandre هذه الملاحظة حين تساءل: " لماذا هذا التساهل؟ لقد رضخت الحكومة قطعا للضغوط التي مارستها مجموعات أمّنت ٨٠% من التمويل الخاص للحملات الانتخابية".

فإذا بلغ الأمر ببعض الوزراء هذا الحدّ، أفلا ينبغي أن نلاحظ نوعا من الحيْف الشامل يذكّرنا بصورة مفزعة بما وقع بخصوص الرّبا في أواخر **العصر الوسيط**؟

فلنتذكّر أنّه كان حريّا بالكنيسة التي غمرتها ثقافة السوق أن تستسلم. ألم تكن الدولة الحديثة بدورها ضحية العقلية التجارية الجشعة؟

كان الأستاذ دوبان على حقّ إذ كان يعتقد أنّ كثيرًا من الظواهر تغدو واضحة المعالم إذا ما اعتبرنا أنّ وباء الفساد أمر "عادي" إلى حدّ ما، يفهم باعتباره نتيجة حتمية لعبادة **المال والاقتصاد**.

لقد أدرك بعض خبراء القرن العشرين أنّ هناك(على حدّ تعبيرهم)، "أسبابًا هيكلية" وراء حالات الاحتيال والفواتير المغشوشة وخيانة الأمانة والجرائم المتعلّقة بتقارير الخبراء المغلوطة، وغيرها من الحِيل، فالفساد بعبارة أخرى لم يكن مجرّد سلسلة من الانزلاقات الوخيمة العواقب، لقد كان ترجمةً لمرض

عُضـال، حيـث أرجـع أحـد الدارسـين تزايـد " الحِيـل الماليـة المتعلّقـة بالمجال السياسي" إلى " الفلسفة العجيبة التي تعتبر أنّ كلّ شيء مردّه إلى من بيدهم السلطة "، لقـد بـدا لنا أنّ هذا الكاتب كان مصيبًا في القول بأنّ أنماط السـلوك البائسـة في الأوسـاط السياسـية، تعبّر عن اتجاه شـامل يتجاوز كثيرا مجال "الأخطاء الفردية"، ولكـن ينبغـي علينـا أن نعـود أدراجنـا إلى مـا هو أبعد مـن ذلك، أي إلـى الماضي السحيق، وطبقا لمنظور الأستاذ دوبان لا يمكننا أن نفهم أسباب تعفّن ثقافة التجّار إلا باعتباره تفحّصا للصورة الثقافية للتاجر.

فمنـذ القـرن الثاني عشـر والثالث عشـر ذهـب بعـض الرهبان الكهـان الذين يتّقـدون حماسـة (كانـوا يسـمّون الغوليـارد les goliards[1]) مباشـرة إلـى لـبّ الموضـوع والـذي مفـاده أنّ الروابـط بيـن التجارة والاحتيـال متينة جـدّا، وكانت قصائدهم الساخرة تحمل هذه الرسالة المثيرة:

«Item, mundi mercatores

Qui sunt quam defraudatores ? »

«هل التجّار في هذا العالم إلا أصحاب حيل»

وإليك بقية القصيدة:

"سواء ابتاعوا أم باعوا فهم يحاولون الغشّ دائما. وهو أمر يعلمه الجميع

---

(١) الغوليارد Les Goliards جماعة من الرهبان الجوّالين يكتبون أناشيد وأشعارا ساخرة باللغة اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، كانوا ينحدرون أساسا من الجامعات الفرنسية والألمانية والإيطالية والإنكليزية يحتجون على التناقضات المتزايدة التي تشقّ الكنيسة مثل فشل الحروب الصليبية والفساد المالي. (المترجمان)

فالميزان والحساب والكيل وكل سلعة مزيفة تحمل آثار احتيالهم

فأصبح الغش السمة الغالبة على كل شيء".

ففي الغرب القديم عند اليونانيين مثلا وُجد بعدُ شعراء يقولون ذلك في أسلوب أبلغ في السخرية بالقول، إنّ هرمس[1] إله التّجار كان أيضا ربّ اللصوص، ولكن كانت للفكر النقدي في العصر الوسيط أسباب كافية ليظهر بشراسة أكبر، وفعلا لقد رأوا بأمّ أعينهم هيمنة التجارة "الحديثة" التي أفلتت من قواعد البيع "الجيّد المشروع"؛ كي تضبط لنفسها قوانين أساسها البحث الآلي عن الأرباح. لقد أدركوا منذ البداية أن الأنشطة التجارية تؤدّي سريعًا، وطِبقا لديناميكية تحكمها من الداخل إلى ممارسات مشبوهة من الناحية الروحية، فعندما يسود قانون العرض والطلب دون حدود، يكون فنّ التجارة معرّضا إلى إغراءات عديدة: إذ نبدأ بزيادة قليل من الماء في الحليب، ونكذب قليلا حول جودة السلعة أو مصدرها، ونضلّل العميل بوساطة عرض بارع حول القيمة الحقيقية للبضاعة، ونقوم بإعلان مخادع ماكر، فنكتب بأحرف صغيرة جدّا المعلومات "الواجب ذكرها" التي يمكن أن تكون حجر عثرة، وندلّس الفواتير بذكاء (كأن نسجّل ستّ ساعات عمل في الوقت الذي تمّ فيه القيام بخمس فقط)، وغير ذلك. وهكذا تتوالى الحيل الصغيرة والأخطاء الطفيفة والغُشش المقبولة ثمّ الأقلّ قبولا والحِيل المتنوّعة "المباحة" في البداية، ثمّ الحيل الإجرامية الواضحة.

---

(١) هو شخصية أسطورية. يعتقد أكثر المؤرخين إنه هرمس السكندري تُنسب إليه متون هرمس، ويُعتقد أنه هو نفسه النبي إدريس المذكور في القرآن الكريم. ويعتقد مؤرخون آخرون أنه شخصية أسطورية نُسجت من عدد من الشخصيات الحقيقية والخرافية. لقّبه الأقدمون بثالوث العظمة. منهم من ردّ هذه الصفة إلى أنه كان يصف الله بثلاث صفات ذاتية هي الوجود والحكمة والحياة. ومنهم من قال لأنه تجلّى بثلاث تجليات: آخنوخ وإرميس وإدريس. ومنهم من قال لأنه تحلّى بثلاث صفات عظام: النبوة والمُلك والحكمة. (المترجمان)

كان بعض الغربيين يكرّرون باستمرار هذه الملاحظات التافهة، وسيتسنّى لنا فيما سيأتي ذكر بعض النصوص التي بدت لنا جديرة بالملاحظة، ومع ذلك كان المجتمع الصناعي يأبى استخلاص العبر منها، إذ كانت هناك فكرة تتداول باستمرار مفادها أنّه من الخطأ والحيف تقديم التجار في صورة المحتالين.

كان بعض الانتقادات الموجّهة إلى التجار غير مقبول حقًا، فلقد أخطأ الغوليارد حين اعتبروا أنّ كلّ تاجر محتال بالضرورة، والحال أنّ في فكر فريقنا للبحث لم يكن ذلك كذلك، فإذا كان ينبغي علينا إمعان الفكر في ماهيّة التجارة فليس ذلك بغرض محاكمة أخلاقية للعطّار فلان والجزار علاّن، ولكن لكي نفهم ظاهرة جماعية وأخلاق مجتمع هيمن عليه المال.

لقد فتح ميشلي العظيم بعدُ الطريق، لقد كان كلّ همّ التاجر أن يبيع، ولكن كانت طلبات الزبائن تبدو متشدّدة -كما لاحظ ذلك ميشلي- "فالمشتري بحكم عاداتنا كان ذلك الرجل الذي يريد أن يشتري بلا مقابل". فكانت نتيجة ذلك أنْ " حَمَل البائع على أن يغشّ وإلا حاق به الخسران المبين"، ومن ثمّ نشبت "حرب الغش والاحتيال ضدّ هذا الزبون الأخرق؟" وحتّى يكسب البائع هذه الحرب كان لزامًا عليه أن يستفيد من التعاون النشيط مع مزوّديه، " فالأمر الأساسي بالنسبة إلى البائع كان يتمثّل في إعانته على مغالطة الزبون وفي انخراطه في حالات الغش الصغرى، وفي عدم التراجع إزاء الحِيَل الكبرى. لقد سُمِع بعض الحرفيين يتألّمون بسببب ما يطلب منهم من أمور تخلّ بالشرف، فكان لزاما عليهم أن يفلسوا أو يسايروا مغالطات أشدّ جرأة"

كتب ميشلي منذ بداية وصفه ملامحَ البائعِ هذه الكلمات المفاتيح: غشّ وحيلة واحتيال. لقد أبدت "جمهوريات النبلاء في العصر القديم" وكذا "بارونات العصر الوسيط المعتدّين بأنفسهم" تحفّظًا تجاه الصناعة والتبادل التجاري، ولقد

سلّم ميشلي بأنّ "في ذلك حمقًا" لا ريب فيه؛ لأنّ ذلك النشاط كان يستوجب مهارات عديدة، غير أنّ هذا الرفض أصبح قابلا للفهم عندما تعلّق الأمر "بالعادات المرتبطة بالتجارة وبالصورة البائسة التي تحمل التاجر على الكذب و الغش و التدليس".

لم يكن ميشلي يقصد إهانة التجار باعتبارهم أشخاصًا، ففي كتابه القيّم "الشعب" كان يروم أساسا وصف الوضعية الاجتماعية والظروف الواقعية التي تحيط بممارسة حرفة من الحرف في مرحلة أخيرة من تطوّرها الطويل عبر التاريخ. لقد كانت التجارة بطبيعتها تفرض على من كان يمارسها بعض الأعراف والقيود، فوجب إذن أن نفهم -فيما يجب فهمه- كيفية تشكّل قواعد سلوكية خاصة بهذا الميدان، حيث كان التاجر يملك حسب ميشلي الإحساس بالشرف، لكنه كان يمارسه بطريقته الخاصة " فما يتفرّد به التاجر هو أن يكذب فعلا، يكذب بشرف، أي ليشرّف أعماله فالخِزْي بالنسبة إليه ليس في الكذب بل في الإفلاس، وحتى لا يحيق به الإفلاس يدفعه الشرف التجاري إلى حدٍّ يستوي فيه الغشّ بالسرقة ويبلغ فيه الاحتيال درجة التسميم". لقد ذكر ميشلي أنّ على التاجر أن يكون محلّ إعجاب، وكانت تلك حالا سيئة كان يصفها بالمؤلمة؛ لأنّ التاجر كان مدفوعا إلى "التملّق"، وإلى الظهور بمظهر "المحبوب البشوش"، وإلى تحمّل أهواء المشتري، ولم تكن هذه الضرورات المهنية بلا عواقب في المستوى الإنساني، كان على التجّار إخفاء أفكارهم، إزاء المستهلك الذي هو عندهم بمنزلة "الملك". وكان من واجبهم أحيانا طمْسها بعناية، فأن تكون محلّ إعجاب دائم يتطلب ذلك منك تضحيات كبرى، فعليك أن لا تكون معتدّا بنفسك، ولقد لاحظ ميشلي على نحو واضح جدًّا أنّ زوجة التاجر وابنته كانتا عند دكّة المحلّ عُرضة لأذى الزبائن الوَقِحين.

غير أنّ أهمّ ما في الوصف الذي قدّمه ميشلي من وجهة النظر التاريخية كان يكمن في الملاحظات التي أبداها حول الغش، فالغشّ في ذاته كان غير أخلاقي، لكنّه كان يعدّ من المنظور التجاري أمرا طبيعيا إلى حدّ ما، فأن تكذب وتغش وتدلّس كما سبق أن ذكرنا فذلك "ديدن التجار العادي". ألم يكن طبيعيا أيضا في مثل هذه الظروف أن مجتمعا يسارع إلى الربح يستمرّ غرقه في مستنقع الفساد؟ ولكن أكان ينبغي علينا تصديق شاعر مثل ميشلي؟ ألم يكن من الضّالين بسبب أحكامه الرومنسية المسبقة؟ ولقد حالفنا الحظّ في الحصول على شهادة أخرى مثيرة لا تقبل الطعن، وهي للإنكليزي هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٨) وهو أحد الفلاسفة البورجوازيين البارزين، ورغم تحمّسه في الدفاع عن فكرة التقدّم فقد غامر في الآن نفسه ببسط مشكلة الاحتيال والفساد في إنكلترا العصر الذهبي، ففي أبريل من سنة ١٨٥٩ نشر نتائج بحوثه في مجلة وسمنستر *Westminster Review* في مقال عريض كان عنوانه " الأخلاق التجارية" ربما يكون مقدّمة لا يوجد أفضل منها لدراسة الفساد في الغرب الحديث. لقد وصف سبنسر في مرحلة أولى سلسلة من حالات الاحتيال والتلاعب كانت لا تتعلق بـ"الطبقات الفقيرة" فحسب، وإنما تشمل "الطبقات الراقية" أيضا، فمنذ البداية كانت اللهجة حادّة: "حالات تحيّل عديدة جدّا أكاذيب في الفعل والقول وحالات غش أعدّتها أياد ذات نفوذ، هذا ما نراه في كلّ مكان، وارتقت بعض هذه الأساليب في السلوك إلى درجة مؤسّسات أخذت لها عنوان "العادات التجارية"، والأدهى أنّ لها تحت هذا العنوان محامين يدافعون عنها". حلّل سبنسر ممارسات "زبائن" أسواق الجملة من غير أن يتوانى عن الوصف الحيّ المدعوم بالأرقام، وخلص إلى " أنهم عادة فاسدون مفسدون"، لقد كان التجار الكبار يدفعون موظّفيهم في أغلب الأحيان إلى الكذب دون وازع من ضمير، " إنّهم يقودونهم

إلـى انحـلال أخلاقي وُصف لنا بألفـاظ نابية لا نجرؤ على إعادتها"، وسـواء أكان الأمـر يتعلّـق بالسـكّر أم بالحريـر، فكثيرة هي الحيـل والخدع التـي كانت تمارس بصورة عادية، فتجّار الجملة لا يتوانون عن نشر معلومات اقتصادية "تغالط الناس"، وكانـت "الحِيَل المألوفة فـي تجارة التجزئة أو الجملة وفي الحرف" كثيرة إلى حدّ جعل سبنسر إحصاءها فوق طاقته، حيث كتب يقول: " نحن مجبرون على التحفّظ (...) فالحِيَل التي ذكرنا لا تعدو أن تكون مجرّد عيّنات للوضع القائم لا يمكننا أن نأتي عليها في أقلّ من مجلّد".

ولقد كان لسبنسـر الكثير ممّا يقول فيما يتعلّق بالجرائم التي ارتكبتها البنوك، حيث كان مديرو المصارف يتصرّفون بلا ضمير غالبا، فلم يتردّدوا في ضخّ أموال أُودِعت لديهم في مشاريع كم هي مريبة، " فتارة يودعون بأنفسهم أموالا دون أخذ ضمانات لها، وكانوا تارة أخرى يوعِزون لزملائهم فعل ذلك في صمت"، لقد بيّن سبنسـر بمهارة كما يبدو لنا كيف تقود حالات الإهمال والتهاون الممزوجة بحبّ المال شيئا فشيئا إلى بعض أشكال السرقة، فقد كتب قائلا: "عندما يقرض مدير مصرف مال أصحاب الأسهم لديه إلى أناس لا يرضى لنفسه بأن يقرضهم ماله يجوز اتهامه بخيانة الأمانة، ثمّ نتدرّج في الجريمة فننتقل من السرقة المباشرة إلى السرقة من الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو أكثر من ذلك، ولا ريب في أنّ من يضارب بأموال الغير لا يمكن أن يتّهم بالسرقة بأتمّ معنى الكلمة، ولكنها سرقة من درجة ثانية أي بالتلاعب بمال غيره بنيّة جني الأرباح إذا توفّرت وتحمّل صاحب المال الخسارة وحده إذا حاقت به. فجرمه نوع من أنواع السرقة بالقوّة، وتبعًا لذلك فإنّ من كان بمثابة مدير يشغل وظيفة ائتمانية ووضع أحد المضاربين مالا تحت تصرّفه أو ائتمنه عليه وجب وصفه بالمتآمر على سرقة ممكنة".

وبعد أن وصف ضروبًا أخرى من التلاعب البنكي أكّد سبنسر تفشي الداء فقال: "وجب علينا هنا أن نتذكّر أمرين: أنّ العمليات التي يشوبها تحيّل كثيرة ثمّ إنّ كل عملية تتولّد منها باطّراد عمليات أخرى عديدة في الغالب ".

يحسن بنا التذكير بأنّ سبنسر كان يتغنّى مؤمِنًا بالتقدّم، ولكنّه -أحبّ أم كره- أقرّ بأنّ مجتمع التجار وجد نفسه منذ أواسط القرن التاسع عشر في حالة متقدّمة من التفكك الروحي. لقد كان سبنسر يقول ذلك دون مجاملة" إنّ التجارة فاسدة أصلا"، وأفسدت المجتمع في مُجمله". إنّ الداء - كما يقول سبنسر- أعمق مما يبدو لنا، إنه نبات ضَرب في الأعماق فاشتدّ عوده، لقد تفرّع نظام هذا الجيل وتمكّن من جميع أشكال التلاعب التي يمكن تصوّرها، وتمدّدت جذوره إلى أسفل بنائنا الاجتماعي برمّته، وهو يرسل فروعه إلى داخل منازلنا ويرتوي من أقوالنا و أفعالنا".

لم يكن ميشلي نفسه أشدّ عنفًا، لأنّ سبنسر كان يستعمل عبارات قوية جدّا في وصفه الصراعات الطاحنة التي غمرت عالم الأعمال، حيث كتب يقول: " لقد أصبح الإنسان المتحضّر في دفاعه عن نفسه وحشًا من الوحوش، ولم تكن غابة التجارة سوى وحشيّة استحالت إلى مؤسسة ".

فالتعبير بهذه الطريقة يجعلنا نفهم بأنّ مظاهر الفساد هذه لم تكن هامشية، بل كانت مظاهر حضارية حقيقية. تكتسي ملاحظات سبنسر -بالنسبة إلى فريق بحثنا- أهمية بالغة باعتبارها تؤكّد تأكيدا فكرة عزيزة على الأستاذ دوبان مفادها " أنّ السمة الغالبة على انحلال الغرب القديم الذي لا يرجى دواؤه كانت تتجاوز مجرّد تفشّي الفساد إلى قبوله، بل التشريع له باعتباره ممارسة طبيعية استمدّت مشروعيتها من ذاتها"، لقد بيّن سبنسر من خلال حشد عدد كبير من الأمثلة بأنّ

الفساد أضحى فعلا متماهيًا مع النشاط التجاري، حيث كان الزبون يسقط فريسة للتحيّل في حالات كثيرة لا بسبب حالة غش عرضية غير مقنّنة ولكن طبقا لنظام مُبَرمج، وقد عاد سبنسر باستمرار إلى الفكرة ذاتها بقوله: "هناك حالات تحيّل استحالت إلى عادات تجارية" أو قوله: " هنا أيضا أضحت الحِيَل مألوفة عموما"، فالقرن التاسع عشر الذي كان بلا شكّ العصر الذهبي للمجتمع الغربي قد اعتاد التحيّل والكذب، والناس يغش بعضهم بعضا بلا خجل، ثمّ يقولون إنها التجارة".

كان لبعض التجار توق إلى التصرّف بنزاهة. لكن كيف كان يمكنهم مقاومة موجة قوية عامة؟ " فمّما تقشعرّ له الأبدان حقّا هو أنّ كلّ من تحدّثه نفسه بمقاومة الفساد يعرّضها في معظم الحالات إلى الإفلاس، وأحيانا يكون إفلاسه محتوما"، تلك هي المأساة: لمّا كان معظم صانعي الشموع يُخْسِرون الميزان، فإنّ صاحب المصنع المتعفّف بين أمرين: إذ ينبغي عليه إمّا أن يغشّ وإمّا "أن يغادر ميدان الأعمال"، "ولماذا يهلك وعائلته من أجل أن يكون أنْزَه من جيرانه؟ عليه بكلّ بساطة أن يتصرّف كما يتصرّفون". يبدو المشكل مرّة أخرى إذن ذا طابع اجتماعي وثقافي، فالتجارة الحديثة تجارة متوحّشة يقود هيجانها التلقائي حتما إلى التحيّل: "كان لسان حالهم يعبّر عن استيائهم من كل الدنايا التي كانت تسلّط على رقابهم (...) فالكلّ كان يصرّح وفي قلبه حسرة بأنّه كان من المستحيل تعاطي التجارة في استقامة تامة"، لقد أظهر سبنسر تفهّما حين قال: " فهذا الحرفي رجل لطيف جدّا، ولدينا على ذلك أدلّة دامغة، وهو سخيّ ونزيه، وكنّا نراه -إذا صحّ القول- متورّطًا رغم أنفه في إحدى عمليات التحيل تلك"، ولا بدّ أنّ سبنسر نفسه كان مرتاعًا لهول المشهد الذي وصفه، ولكنه كان يؤمن **بالتقدّم** وكان يواسي نفسه قدر ما يستطيع، فالتحيّل بالنسبة إليه لم ينقطع قطّ، وليس حكرا على التجّار، فلا ينبغي أن يتملّكنا اليأس، وبقليل من الجهد والمصابرة يمكننا أن "ننقّي" العادات التجارية.

صرّح سبنسر بكلّ أسى في حديثه عن التجار الصيارفة الفاسدين بأنّه سيأتي يوم " نضعهم مع اللصوص المحترفين في الكيس نفسه ونهينهم سويّةً".

واليوم يمكننا أن نقيس مدى تفاهة هذه الآمال، وحتّى في الوقت الذي كان لدى **الغربيين** بعض إرادة في محاربة الفساد كانوا متسامحين عموما مع الفاسدين والمفسدين، على نحو كان فيه هؤلاء يمارسون حيَلهم على نطاق واسع، لقد صارت هذه الحقيقة في القرن العشرين أمرا مألوفا فكان تحويل ١٠٠ مليون فرنك أقلّ خطرا من سرقة دراجة نارية.

لقد بيّن سبنسر على وجه الخصوص أنّ الفساد كان جزءا لا يتجزّأ من المجتمع الحديث، وكشف بكثير من الدقّة السبب الذي جعل عالم التقدّم يولّد (على حدّ تعبيره) السرقة المباشرة وغير المباشرة والتحيّل والغش والخيانة، وعبّر عن ذلك بوضوح في قوله: " كان تنامي الفساد في معظمه ملازمًا لمرحلة **التقدّم** الحالية"، وللتّأكّد من ذلك يمكننا الاكتفاء بمعاينة الأنشطة الأساسية للأمم الأشدّ حيويّة: " ففي العالم المتحضّر كلّه وخاصة الإنكليز والأمريكان يتجه النشاط الاجتماعي كلّه تقريبا نحو الرفاه المادي، فإخضاع الطبيعة والوصول بقدرتنا الإنتاجية وقدرتنا على التوزيع إلى أقصى حدود الكمال، تلك هي مهمّة أجيال قادمة أخرى عديدة". ولْنُذكّر دون إلحاح بأنّ هذه الأقوال تبيّن إلى أيّ مدى كان سبنسر واعيا "بموهبة" **الغرب** الذي تحدّدت معالمه منذ **العصر الوسيط** وهو السيطرة على الطبيعة والإنتاج والمبادلة، وكان يتساءل إذن أين وصلنا على درب تحقيق هذا المشروع الضخم؟ وعندما وضع خطاطة لموازنة أوّلية ضمّنها مفهوما شديد الإيحاء، فالمتحضّرون [بالنسبة إليه] في حالة "استهياء تجاري" *Diathèse commerciale*. فلفظ "استهياء" قد أخذ من القاموس الطبي ويحيل

على الحالة التي يكون فيها جسم ما في ظاهره معافى، ولكن بدأ يستولي عليه المرض. وطبقا لما نجده في قواميس تلك الفترة فالاستهياء لا يعني فقط التهيّؤ المسبق لقبول الداء، ولكنه حالة مرضية خفية، أي "ما قبل ظهور المرض". لم يكن تشخيص سبنسر واضحا **فالغرب** وإن كان ذلك عن غير وعي منه يشكو من داء عضال كانت تتجلّى أعراضه شيئا فشيئا.

ومن أعراض هذا المرض " الإعجاب المفرط بالثراء"، هل كان يمكن تفادي ذلك؟ ففي المجتمع الحديث كان يُنظر تلقائيا إلى كلّ مواطن غنيّ باعتباره مثالا حيّا لنجاح ثقافي محقّق، ويكون بذلك محلّ تقدير، ثمّ محلّ "افتتان"، كان الثراء والتبجيل في مثل ذلك المجتمع "وجهين لحقيقة واحدة"، وهو ما يفسّر تفشّي الفساد بأشكاله العديدة دون وازع، فالكلّ كان يعبد الثراء والجميع تقريبا كان مؤهَّلا في داخله لتبرير الفساد، فلم يعد بالفعل لئيمًا إذا كان يلبس الثياب الفاخرة ويعيش حياة البذخ، " إنّك لتجد عناء في العثور على محتال يختال في حلّة أنيقة لا يعامل بلطف واحترام أكبر من محتال يرتدي رثّ الثياب"، كانت هذه القيم الأخلاقية الخاصة لا واعية في معظمها.

ولقد ذكر سبنسر أنّ " الغربيين اعتادوا منذ نعومة أظفارهم تعظيم الربح والفائدة، كان ذلك" اعتقادا راسخا "غذّته "التجربة اليومية" باستمرار، وأضاف سبنسر: "حتّى النخبة التي كانت في منأى عن القوالب الجاهزة التي كانت تنتقل بالعدوى (...) قد تأثرت هي الأخرى بالفكر السائد".

ورغم الجهود المحمودة التي بذلها سبنسر فإنّه وجد صعوبة في تمرير رسالة متفائلة (في هذا الغرض)، لقد كان ثاقب الفكر، حتّى إنّه ذهب إلى حدّ تقديم تنازل خطير مفاده أنّ ما يخشاه هو أن تتنامى الرذائل التجارية عوض أن تتقلّص،

مادام **الغرب** متماديًا في تمجيد المال، فالنتيجة مؤلمة بالنسبة إلى من يؤمن **بالتقدّم**، ودليل ذلك صرخته "نحن جميعا متّهمون". ومهما يكن من أمر فإنّ المجتمع الصناعي كان يسير في منحدر خطير، بغضّ النظر عمّا إذا كان متّهما أم غير متّهم. ولو كلّف الحداثيون أنفسهم عناء إعادة قراءة سبنسر لاستطاعوا أن يتوقّعوا ما كان ينتظرهم، فإذا ما استقرّ بخلدهم أنّ كلّ توسّع لدائرة اقتصاد يزيد من حدّة الفساد، وإذا ما أدركوا في حدود سنة ٢٠٠٠ أنّ الاقتصاد قد احتلّ كلّ شيء عمليّا، فلا حاجة إلى أن يكونوا عباقرة لكي يتوقّعوا بقية ما سيحدث...

لكنّ أهل الحداثة كانوا يفضّلون إلى النهاية غضّ الطرف عن استشراء الفساد، وهو عمًى يصعب علينا فهمه، خاصة بعد أن أشار بعض رجال القضاء بصوت عالٍ إلى موضع الداء، فقد قال أحد النوّاب العامّين حوالي سنة ١٩٩٤ بلا التواء إنّ الرشاوي والفواتير المزوّرة وتحويل الأموال وجرائم ذوي الخبرة وخيانة الأمانة وأخطاء صغيرة أخرى، كانت منتشرة إلى حدّ اعتبارها "ممارسات معتادة في الحياة الاقتصادية"، و إذا أُدين أحدٌ فعلا وجب أن يعتمد هذه الذريعة: لم يكن لديّ حلّ آخر.

وصرّح نائب آخر للحقّ العام في الفترة نفسها بقوله: "ما فتحنا ملفّ قضية إفلاس إلا تقدّم صاحب الشركة بأدلّة تثبت أنّه كان مضطرّا إلى الزيادة في الإنفاق"، ولقد أقرّ قاضٍ في نفس الفترة تقريبا بأنّ " آليات الفساد متجذّرة إلى أقصى الحدود".

ولقد عثرنا على نصوص عديدة تسير في هذا الاتجاه، وقد بلغ الأمر بجماعة من صغار المقاولين وكبارهم إلى القبول بالاحتيال مبدأً شرعيًا أو شبه شرعي، بدافع "الضرورات" الاقتصادية، وكانوا أحيانًا يستندون إلى المحافظة على

الوظيفة، فلا عقود بلا رشـاوى، ولا وظائف بلا عقود، ولم يثْن ذلك فعلا البعض منهـم عـن نقل مصانعهم إلى بلـدان أجنبية كانت اليد العاملة فيهـا أقلّ كلفة، لكنّ الوظيفـة كانـت فـي ظاهرهـا علـى الأقـلّ حجّة لا تـردّ، وهكـذا تجـذّرت أخلاق اقتصادية طريفة جدّا، يمكنها في أقصى الحالات تبرير التحيّل بأنواعه: مثل جميع ضروب التحيل الجبائي وغير الجبائي، وألاعيب المحاسبة كلّها. ويبدو أنّ العديد من رجال الأعمال قد فوجئوا بملاحقتهم قضائيًا بسـبب تقاعسـهم. نعم لقد زيّفوا بعض حسـاباتهم وأعطوا رشـاوى من أجل ذلك، لكن هـل كان من المبرّر جرّهم إلـى المحاكـم والـزجّ بهـم فـي السـجن؟ لقـد صرّحـوا بأنّهم فعلـوا "مثلمـا يفعل الجميع"، وهم يرون من العار أن يتتبّعهم بعض صغار القضاة الأراذل بسـبب هذه الخطيئة.

ولكن ينبغي أن لا ينسـينا الطابع المذهل لتهريب الأموال أنّ الفسـاد الملازم للممارسـة الاقتصاديـة كانت آثاره قـد أوغلت في الغدر، ذلـك أنّ العقلية الربحية كما فهمها ميشـلي لم تنْجُم عنها جرائم موصوفة فحسـب، بل لقد عوّدت النفوس على الانخراط في كثير من الحيل الصغيرة والحسابات الضيقة تفاوتت دناءتها.

ومرّة أخرى كانت طبيعة النشـاط التجـاري ذاتها محلّ اتهام. فالمتاجرة تعني تحصيـل الأربـاح. والتاجـر الجيّـد - من وجهة نظـر مهنية محـض- مطالب دائما باسـتنباط "أسـاليب" جديدة تمكّنـه من زيادة الأربـاح. والحقّ أنّ المهمّة لم تكن دائمـا سـهلة لأنّ متطلّبات السـوق كانت تحكمها ضوابط عديـدة، فينبغي قبل كلّ شـيء أن يكون للمسـتهلكين انطباع بأنّهم "مبجّلون"، ويعني ذلك أنّ القدر الأدنى من المعرفة النفسـية كان ضروريًا حتّى تبقى الخطط المرسـومة خافية عن الأعين (أي لا تجلب الانتباه في جميع الأحوال). من أجل ذلك أعجب فريق بحثنا رغم

أنفه بدهاء التجار وقوّة خيالهم، لقد كانوا يستنبطون ما يذهل العقل من أجل زيادة المردودية المقدّسة لديهم، أي ليستلّوا أحيانًا بعض الملّيمات، خذ لك مثلا هذا الحلواني الذي نجح في إثارة إعجاب الزبائن وزيادة مرابيحه بفضل هذه الحيلة: فعوضًا عن أن يضع عشر كعكات في الكيس الواحد كان يضع اثنتي عشرة كعكة مع أن الوزن الإجمالي للكعك كان أقلّ، وقد أمكن له بذلك أن ينادي "اثنتا عشرة كعكة عوضا عن عشر كعكات"، وصاحب ذلك بالطبع زيادة في الثمن.

فهل كان نزيها حقّا؟ أينبغي أن نرى في تلك الممارسات حقيقة أخرى سوى الخبز اليومي لمجتمع غاية في الدناءة؟ يمكننا أن نبسط ذلك للنقاش، ولكن ذلك بدا لنا علامة على تدهور روحي لا يختلف فيه اثنان. وبعيدا عن المواعظ كلّها أيُعقل أن يُبَدَّد آلاف مؤلّفة من المشرفين التّجاريين "المتحضّرين" أوقاتهم في استنباط مثل تلك الحيل الخسيسة والتدبير لها؟

كانت المهمّة في كلّ مكان تتمثّل في فعل أقصى ما يمكن فعله لخفض الثمن الإجمالي، وإن تطلّب ذلك المخاطرة بخفض جودة المنتَج، والأدهى من ذلك - كما سبق ذكره- كان من المجدي تجاريًا التشجيع على التبذير، وذلك بإغراق السوق بالسلع سريعة النّفاد (كالقدّاحات وشفرات الحلاقة وآلات التصوير والمناديل وغيرها)، وكثيرة هي الأدوات التي أُضْعِفت عن قصد حتى تكون مدّة استعمالها أقصر، وبصورة عامة كان من الحكمة أن تصنع الأدوات والآلات بطريقة تجعل إصلاحها أمرًا في غاية العسر.

فالتنافس الحرّ (إذا صحّ ما كان يقوله خبراء تلك الفترة) كان يفرض قيودًا على الحيل والانحرافات الأخرى، ولكن هؤلاء الخبراء أنفسهم كانوا - كما تبرهن على ذلك كتبهم العلمية- على دراية بأنّ قواعد اللعبة تقبل التبديل بشتى الطرق.

أمّا ما يتعلّق بالقوانين والتراتيب فهنالك آلاف مؤلّفة منها، ولم تعرف البشرية قطّ مثل هذا العدد من القوانين والأوامر التي تتعلّق بصناعة البضائع، وترويجها والتصرّف والمحاسبة داخل الشركات وتنظيم العمليات المالية.

ولقد بدا لنا أيضًا مع ذلك أنّ ضخامة تلك التّرسانة القانونية تبعث على القلق في حدّ ذاتها. أكان من الضروري إقامة كلّ هذه الحواجز، والتفكير في كلّ هذه الرقابة لو كان هذا النظام الاقتصادي قد بُني على قواعد واضحة متينة؟ كان بالفعل محامون ومستشارون قانونيون ومستشارون جبائيون وعدد لا يُحصى كثرة من الخبراء المعتمدين في خدمة المقاولين والتجار والصيارفة للإفلات من هذه القوانين كلّها، وإذا ما تدبّرنا المسألة استبان لنا أن هذه الشريحة من القانونيين والإداريين التي بُعثت، كانت عاجزة عن كبح تفشي الفساد ما قل منه وما كثر. والحقّ أنّ الهيئات السياسية كانت تنادي بأعلى صوتها، من حين إلى آخر، معلنةً عن نيتها في محاربة الفساد الداهم، لكنّها لم تفلح قطّ، وكان وراء هذا الإخفاق أسباب موضوعية؛ فلكي يطبّق **القانون** كان لا بدّ من أن يحترمه أولئك الذين شرعوه، وأن يسهروا على تنفيذه، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه، لقد أصبح كلّ ما يتعلّق بدائرة السياسة محلّ ارتياب، مثلما أشار إلى ذلك كثير من المراقبين، فالشهادات التي بحوزتنا تُجمِع بالفعل على أنّ الأحزاب السياسية الكبرى في نهاية القرن العشرين غمرها **الاقتصاد** على أوسع نطاق، ومن ثمّ غمرها الفساد. كانت الظاهرة في ذاتها إلى حدّ ما غير مفاجئة، فلماذا كان ينبغي أن تفلت السياسة من موجة تبيّن أنّها عامة؟ فالفضائح التي تورّط فيهل رجال الساسة عشية **الانفجار الأكبر** لا تُحصى كثرةً. كان نوّاب الشعب والوزراء قد جرفهم التيار، شأنهم في ذلك شأن الرؤساء المديرين العامين. لقد حدث أن وجد ثلاثة وزراء أنفسهم مجبرين على الاستقالة في الوقت نفسه تقريبا؛ لتورّطهم في قضايا شائنة تتعلّق بفساد مالي.

ولكي نفهم تلك الحالة علينا أن نعلم أنّ من أوكد اهتمامات الأحزاب ورجال السياسة (إن لم يكن اهتمامهم الأكبر) التهيّؤ للانتخابات القادمة، وأنّ حملة من الحملات الانتخابية في تلك الفترة كانت تُدار كما يدار إعلان معجون أسنان أو سيارة أو آلة غسيل، فالومضات التلفزية واللوحات الإعلانية والتجارة الموجّهة توجيها معيّنا، والاستعانة الآلية بالمختصّين في مجال "الاتّصال"، والوعود المدهشة، كانت كلّها وسائل جيّدة، وكذلك الإعلان السياسي الكاذب الذي كان أوسع انتشارا من نظيره التجاري، (إنّ بحوزتنا وثائق مذهلة حول هذه النقطة). كان المال هو مفتاح تلك الحملات، ولم يكن المعنيون يتورّعون عن فعل أيّ شيء للحصول على المال. ولا يمكن عمليًا حصر قائمة "القضايا" التي تتّصل من قريب أو بعيد بمسائل التمويل، وكانت الدراسة الدقيقة للفساد السياسي تستوجب منّا في أقصى الحالات إجراء فحص شامل للأنشطة الاقتصادية كلّها، فالأحزاب كانت تذهب بطبيعة الحال للبحث عن المال حيث يكثر عند الصناعيين والتجّار والصيارفة، وإنشاء أصغر المصانع أو المحلّات التجارية يمكن أن يصبح رهن مساومة و"ابتزاز" تتفاوت أهميّته، و قد يكون مجرّد إنفاق مبالغ مالية معتبرة تُتَداوَل غير بعيد عن أحد المنتخَبين مدعاة إلى الريبة.

كانت العوائد متماثلة تقريبًا في المستوى الوطني أو الجهوي أو المحلّي، وبالطبع كانت الرهانات متفاوتة الأهمية، وكثيرة هي عناصر الاختلاف الممكنة بينها، فالصفقات الكبرى التي تمرّ عبر بعض الوزارات تفتح للمتحيّلين آفاقا رحبة جدّا، ولكن في الأقاليم والبلديات كان للمنتخَبين المحلّيين نصيب وافر من ذلك، فقد تسبّب توزيع الماء على سبيل المثال في فضائح سياسية ومالية كبيرة، كان ينبغي استغلال أدنى الفرص. فلقد اكتشف فريق بحثنا حروبًا حقيقية دارت رحاها حول "رسوم حيازة الأراضي"، تلك الرسوم التي كانت تحدّد ما يمكن بناؤه وما لا

يمكن، حيث كانت محلّ اهتمام من قبل المحترفين في مجال العقارات (ومن ثمّ محلّ انشغال أصحاب قطع تلك الأراضي). كانت مراجعتها فرصة سانحة لعمليات مريبة تتفاوت درجة خطورتها من التحيّل الطفيف إلى التحيّل الفاحش، وكانت الشؤون البلدية كلّها مفتوحة على أعمال مماثلة. أليس أيسرها مثلا توزيع المعونات وغيرها من التعويضات توزيعا انتقائيا؟ وماذا عن الوظائف البلدية؟ لقد أصبح من المألوف أن يكون لرئيس البلدية "عملاء حقيقيون" بالمعنى الذي كانت تكتسيه هذه الكلمة في روما القديمة.

ولْنذكّر مع ذلك أنّ كلّ نشاط (ابتداء من التكييف وصولا إلى خدمات التنظيف مرورا بالرياضات والتنشيط الثقافي) كان مهيّأ لأن يشهد حالات استغلال نفوذ وفساد مالي، مثال ذلك ما صرّح به أحد كبار المسؤولين عن محاربة الفساد قائلا: " إنّ كلّ الصفقات التي أنجزت في المجالس الوطنية أو الجهوية أو المحلّية مع شركات البناء ذات الصبغة الاجتماعية أفضت إلى تضخيم مبالغ الفواتير فيها، ومن ثمّ إلى استخلاص عمولات أثمانها باهظة جدّا"، فجميع المبالغ التي تقتطع في هذه الحالة لم تكن تذهب مباشرة إلى حسابات الأحزاب، ولكن كانت تستخدم "سياسيًا" بطريقة أو بأخرى، أي لأغراض انتخابية خالصة، وكانت أحيانا تسهم أيضا في إثراء المنتخبين أنفسهم، ولكن مثلما يشهد على ذلك النص التالي الذي ينسب إلى صحفي عاش في تلك الفترة (١٩٩٤)، كان من الصعب دوما التمييز بين مختلف ضروب هذه الانحرافات: "من أين يبدأ وإلى أين ينتهي الإثراء الشخصي للذين يعيشون أساسا بالسياسة وللسياسة؟ إنّ الإجابة الواضحة (عن هذا السؤال) تفترض أنّ هؤلاء يحسنون التمييز بين حياتهم الخاصة وحياتهم العامة وهو ما لا يقدرون عليه في الغالب، فالشقة الباريسية الفخمة التي على ملك فلان كانت تستخدم قبل كلّ شيء للمواعيد المهنية والسفرات التي تهدى إلى

عـلاّن لتيسّـر تحرّكاتـه السياسـية فـي أنحـاء البـلاد، وكان آخـر يدفـع بالخلط بين الشخصي والسياسي إلى حدّ جعله يفسّر للناس نيّته دعْمَ شركات منطقة لورين[١] حيث كلّفها بمهمّة تشييد دار له على طراز سان تروبيه".[٢]

هكذا كان العديد من رجال السياسة قد مَرَدوا باسم الواقعية على أسوأ أشكال الانحـلال، ولقـد أمكـن لنا أن نلاحظ في مناسـبات كثيـرة أنّهم لـم يكونوا واعين باقترافهـم أخطـاء أو جرائـم، ويبدو أنّ بعـض الأحزاب ذهبت إلـى أبعد من ذلك حيـن رأى أصحابهـا أنـه من "الطبيعـي" أن تنظّم أشـكال الابتزاز المتعـدّدة تنظيمًا محكما، وقد أراد بعض الصحفيين إدراج هذا النوع من الابتزاز مع النّوع السابق، وكان من بين العديد من أمناء مال الأحزاب السياسية ممّن لديهم قضايا مع **العدالة** مَنْ يستنْكِف مِن مقاضاته "مع لصوص البرتقال"، ذلك ما وصل إليه أهل الحداثة. لقد حُكم على ذلك الرجل بالسـجن سـتّة أشهر مع تأجيل التنفيذ بتهمة الاحتيال، لكنّه كان يرى بكلّ براءة أنّ السـرقة السياسـية ليسـت سـرقة حقيقية. لقد رأينا إذن تباعًا في عالم السياسة مسارا مماثلا للذي كنّا قد رأيناه في مجال الأعمال التجارية: لقـد كان مـن "المألوف" مخالفة القانون، حتّى إنّ بعض المؤرّخين ذكروا أنّ نواب الشـعب قبيل **الانفجار الأكبر** قد نجحوا جميعا في التهرب من عقوبات قانون من قوانين محاربة الفساد، لكنّنا لم نكن نصدّق ذلك.

كان الفسـاد السياسـي يتّخذ أشـكالا أقلّ وقعًا في نفوس الناس، لكنّها ليست

---

(١) هي مقاطعة تقع شمال فرنسا على الحدود مع ألمانيا وكانت محلّ نزاع تاريخي بين الدولتين. (المترجمان)

(٢) قرية فرنسية تقع جنوبا على ضفاف المتوسط وهي مدينة تختص من بين سائر المدن الفرنسية بشمسها المشرقة وبمناخها المعتدل وبمعمارها المميز بفضاءاته المفتوحة وبأسطحه القرميدية. (المترجمان)

أقلّ ضررًا. لقد كان الضغط الذي يمارسه الاقتصاد -كما كان يسمّى في تلك الفترة- قويّا إلى حدّ جعل الدولة باعتبارها مؤسّسة تنجرّ إلى انحرافات خطيرة جدّا، وهو ما دفع الأستاذ دوبان إلى بسط هذا السؤال: ألا نكون حيال شكل خفيّ من أشكال الفساد عندما تتصرّف مصلحة من المصالح العمومية مثل أيّ وكيل اقتصادي؟ من المؤكّد أنّ هذه الظاهرة كانت في بداية الأمر أقلّ وقعا من حالات الغشّ التي ذكرنا، ولكن هل كانت أقلّ خطورة على الأمد البعيد؟ هكذا انتهت الشركة الوطنية المكلّفة بالنقل الحديدي في فرنسا إلى اعتماد فلسفة تجارية خالصة، فكانت تصرّف شؤونها مثلها مثل كلّ مقاول عادي وكأنّ همّها الأساسي ليس النهوض بمستوى عيش المواطنين وإنّما الإنتاجية الجافة. ألم تكن تحرص دائما على ربح المسافات وعلى الإضافات وعلى قانون العرض والطلب والحجز المسبق وغيرها؟ لقد كانت تعمل جاهدة على التشبّه بمؤسّسة قطاع خاص بفضل ما حقّقته من نجاح نسبي، وفي المستوى الروحي لم تكن تملك أيّ سِمة تجعل منها مؤسسة "ديمقراطية"، ويمكن أن ندرك - بمعنى من المعاني- أنّ **الاقتصاد** قد وسّع مرّة أخرى إمبراطوريته، ولكن لماذا التشبّث في نهاية الأمر بأسطورة "القطاع العام" إذن؟ (وهل يُعقل أن يقود **التقدّم** إلى وضع قد رَاكَم مساوئ الإدارة العمومية كلّها، والتصرّف التجاري الخالص؟) كان هذا النوع من الانحلال الثقافي والسياسي على ما يبدو مسموحًا به رغم شروره.

وكذلك كان شأن المصرف الفرنسي الذي انتهى إلى الاقتناع بأنّه من العاديّ جدّا أن يتصرّف وكأنّ المردودية والربح هما أكبر همّه، وخذ مثلا ما يمكن أن نقرأه في الصحافة: "لقد اكتنز البنك الفرنسي سنة ١٩٩٣ أرباحًا تقدّر بـ٣ مليارات، لكنه ينوي حسب النقابات التخلّي عن ١٧٠٠ موطن شغل بحلول سنة ١٩٩٨، ثمّ إنّ إغلاق بعض الفروع الكبرى يظلّ قيد الدراسة". لقد كان بعض المراقبين يرون

في ذلك علامة على توسّع بغيض للعادات التجارية إذ يقول: " ليس لمؤسسة الخدمات العمومية تلك أيّ عذر حتّى ذلك المتعلّق بالمنافسة، إذ إنها تستأثر بمعظم أنشطتها"، ولكن روح العصر كانت أقوى من كلّ شيء، فالمال أوّلا والناس ثانيا. لقد أفسدت عبادة الربح المؤسسات كلّها، ولم يكن لدى عدد كبير جدّا من المواطنين إحساس بالتدنّي الروحي، وكان بعض الخبراء يروّج بعدُ مفهوما مضحكا للدولة على أنها وكيل "يسعى في الآن نفسه إلى تحقيق التشغيل الشامل والنموّ والعدالة الاجتماعية".

لقد أصبحت الدولة فعلا وحشًا اقتصاديا فقد بوصلته، مثلُها مثل سكّيرٍ شرب حتّى الثمالة يتمايل مترنّحا بلا انقطاع بين ضرورات **الاقتصاد** الملحّة، والقيم النبيلة التي يوجبها **الصالح العام**، فهي مؤهّلة للسيطرة على الأوضاع لما تتمتّع به من صلاحيات هائلة؛ ذلك أنّها تتعثّر في واقع الأمر لأتفه الأسباب. ومرّة أخرى يبدو لنا من الصعب أن نعزو ذلك إلى اختيار سياسي واعٍ تمامًا. في مقابل ذلك يتّضح لنا كلّ شيء إذا ما رجعنا إلى المراحل التأسيسية التي سبق ذكرها، فالدولة في المجتمع التجاري لا يمكن أن تكون في ذاتها إلا تاجرا وأن تتقهقر روحيا، كان الخبراء على وجه العموم يُحجمون عن الوصول بأفكارهم إلى هذا الاستنتاج بالرغم ممّا كان لديهم من مقدّمات، وكانوا يعلمون على وجه الخصوص أنّ الدولة قد غاصت طوعًا أو كرهًا في مستنقع الاقتصاد، وأضحت بذلك أسيرةً له، ولقد كتب بيار جراردان Pierre Girardin يقول بأنّ الدولة "أخذت على عاتقها مباشرة قطاعات الاقتصاد" ومارست " أيضا تأثيرا غير مباشر وذلك بوساطة التعويضات، وسنّ القوانين وإصدار السندات واستغلال عجز الميزانية لخدمة برامج اجتماعية، والمراقبة المصرفية والمراقبة الجمركية أو حتّى مراقبة المعلومات والإعلان"، فأنّى لها أن تفلت من براثن الفساد بأشكاله العديدة؟

لم تكن فقط قادرة على تزوير الإحصائيات الرسمية لصالحها، ولم تكن فقط على دراية تامّة بأساليب التصرّف في الميزانية، ولم تكن تجهل شيئا من وجوه التلاعب بالميزانية، ولم تكن تعمد إلى التبذير فحسب، وتتصرّف في أغلب الحالات كأولئك المصرفيين الذين فقدوا ضمائرهم على حدّ الوصف المتألق الذي أطلقه عليهم سبنسر، وإنّما كانت تبتعد أكثر فأكثر عن المُثُل التي رسمتها لنفسها، ففي فرنسا مثلا يمثّل **العدل** قيمة من القيم التي تزعم الدولة الإعلاء من شأنها، ولكن كشف البعض من باحثينا الغطاء عن ممارسات غريبة جدّا، فإذا ما تأخّر مواطن عادي عن سداد ما عليه من ضرائب، فإنّه سرعان ما يدعى إلى احترام النظام ودفع غرامة لإبراء ذمّته، ولكن يبدو أنّ الشركات الكبرى تربطها بالدولة علاقات أشدّ مرونة. ولم يكن من النادر أن تُغتفر سرقات موصوفة شرط أن تكون مبالغها معتبرة، فكانت العقوبات لا تصل إلى أصحابها أو تأتي متأخّرة على استحياء، وعلى سبيل المثال نهب صناعي كبير من إدارة خدمات عامّة كان يموّنها مبلغا قدّر بعدّة مئات من ملايين الفرنكات، وكان التكنوقراط يحاورونه بكلّ احترام وحذر، وإذا صادفتهم ضرورات تدفعهم إلى محاربته، فإنّهم لا يقرّرون ذلك إلا بعد أشهر بل سنوات. وكما قال الأستاذ دوبان كانت السلط العمومية تتجنّب "اللصوص ذوي الامتيازات"، وإذا ما صدّقنا بعض الشهادات الصارخة فإنّنا ندرك فعلا أنّ ثمّة أسبابا معقولة لذلك، ففي المؤسسات المنحرفة مثلا لم يكن مستبعدا أن يكون إطاراتها العليا قد شغلوا مناصب متفقّدين ماليين قدامى أو من قدماء وكلاء الدولة الكبار. ومهما كانت الوسائل المستعملة فالنتيجة واحدة. وفي أحسن الظروف تسدّد الشركة المعنية قسطا من المبالغ التي اختلستها. وسرعان ما يخيّم الصمت في انتظار "القضيّة" المقبلة.

ورغم أن فريق بحثنا قد أورد ملاحظات عديدة من هذا القبيل، فقد خلص

إلى الاعتقاد بأنّ صميم الموضوع غير ذلك؛ ذلك أنّ الانحرافات وإن كانت محزنةً فعلا فإنّها لم تكن سوى أعراض لداء دفين، وإذا كان **الانفجار الأكبر** قدرا لا يردّ، فذلك لأنّ **الغربيين** لم يتوصّلوا إلى الفهم بأنّ محاربة تلك الأعراض غير كافية، فماذا كان يفعل الغربيون بالفعل عندما كانت الحميّة تأخذهم إلى محاربة الفساد؟ كانوا يصوّتون على قوانين ويدعون إلى مراقبة أشدّ حزمًا، وكان لهذه الإجراءات في بعض الأحيان بعض التأثير المؤقّت، ثمّ يظهر التحيّل والتلاعب من جديد بأشكال أخرى، لا سيّما وأنّ **القانون** والأمن لا يقدران على شيء إذا تعلّق الأمر بالفساد المألوف، وبترويض الطباع والعقول ترويضًا يوميا بطيئًا على عدم التفكير بغير الأرباح.

كثيرة هي أشكال اللؤم والخسة التي كانت قانونية تمامًا؛ فبسبب بعض الدولارات كان التاجر يتنكّر لمبادئه السياسية، ويخون أصدقاءه، ويتملّق ذوي الجاه والنفوذ في عصره، وكانت ثمّة أمثال مقيتة تلخّص حِكم ذلك العصر كقولهم مثلا: " ليس للمال رائحة"، أو " الأعمال هي الأعمال"، وإذا ما صدّقنا ما يقوله المتنبّي ليون بلوي Léon Bloy فإنّ مقولته الأخيرة الآتي ذكرها كانت تقوم مقام **دستور** أو تكاد: " أعتقد أن قولهم " أن تكون في **الأعمال** هو أن تكون في **المطلق**، هو أخطر كلمة في القرن وأعظمها مهابة من بين **الأفكار المتداولة**. إنّه جوهر تلك الأفكار كلّها، وأهمّ حِكَم العصر على الإطلاق، فرجل الأعمال الحقّ هو طائر يبيت على ساق ولا ينزل أبدا من علياء العمود الذي يحطّ فوقه، فلا ينبغي أن تكون أفكاره وأحاسيسه وعيناه وأذناه وأنفه وذوقه وحاسة اللمس لديه ومعدته إلا في خدمة **الأعمال**، ورجل الأعمال لا يعرف أبا ولا أمّا ولا خالا ولا خالة ولا زوجة ولا أطفالا ولا يعرف القبيح ولا الجميل ولا الوسخ ولا النظيف ولا الساخن ولا البارد ولا إله ولا شيطان. ينبغي أن لا يعرف إلا **الأعمال**".

وفـي ثقافـة يسـودها **الاقتصاد** كمـا لاحظ ذلـك هربرت سبنسـر وماكس فيبر أضحـت دائمـا حتّى المحاورات الودّية والأفكار الشـخصية أكثر تفاهة، لقد اعتاد المواطنـون (وحدّث عـن الدولـة ولا حـرج) على تفاهـة التفكير وحتّى سـطحية الإحسـاس. أيُعقـل ما ذهب إليه أهـل الحداثة من اعتقاد بأنّ قوانيـن جديدة كفيلة بتحسـين الأوضاع؟ وفعلا لم يُظهر نواب الشـعب ولا أعضاء مجلس الشـيوخ في حربهـم ضـدّ الفسـاد صرامة حقيقيـة، لقد كانـوا يخطبون بإخـلاص كلّما اقتضت تهدئـة الـرأي العـام ذلك، ولكـن في الغالـب الأعمّ كانـت أنصاف الحلـول كافية بالنسـبة إليهـم، إنّ وثائقنـا تعجّ ببراهين عن براعتهم في الجمـع بين الأقوال النبيلة والممارسـات الدنيئة. (مثال ذلك بعض حالات التحوّز السـافر والمشكلات التي تتطلّب ـ"الشفافية" في التصرّف المالي)

وإذا ألقينا نظرة على الماضي تراءت لنا ظاهرة عجيبة مفادها أنّ أبشع أشكال الفساد الروحي أمكن أن تُرتكب دون أن يتفطّن إليها أحد، وجدير بالذكر أنّه صار من المعتاد في نهاية القرن العشرين ارتقاء رجال الإعلان والتواصل إلى مرتبة أهل الحلّ والعقد في انتخابات رئيس البلاد، وبعبارة أخرى كانت الخطابات السياسية الأكثـر أهميـة تقيّـم باعتبارها ضربـا من ضروب الاتّجـار السياسـي. أهكذا تصاغ المشاريع الحقيقية؟ لقد ذهب الأستاذ دوبان إلى حدّ القول بأنّ الرشاوى والفواتير المدلّسـة وتهريب الأموال لـم تكن إلا ظواهر هامشـية. كان ذلك المجتمع فاسـدا لأنّه لم يعرف قبل كلّ شـيء كيف يفكّر ويتصرّف بمفاهيم اقتصادية، وكان بؤسـه الحقيقي يكمن في عجزه عن الحلم وافتقاره إلى الحسّ الشعري ومفهومه الضيق للحيـاة الإنسـانية، وسـطحية برامجـه التافهـة وحسـاباته الضيّقـة التـي تبعث على الإحباط. لكن هل كان بإمكان **الغربيين** الخروج من مستنقع الاقتصاد وقد غمرتهم أوحاله؟

لقد بدا – مع الأسف الشديد- أنّهم لمّا يملكوا الوسائل لذلك، فلقد تنبّأ بيار لورو بذلك حين قال:" ستعود الحياة إلى المجتمع عندما يعرف ذاته جيّدا وعندما يتوب بعد أن يشعر بالشرّ الذي يسكنه"، وكان الغرب يتصرّف كما لو لم تكن لديه أيّ رغبة في معرفة ذاته، ويبدو أن الوهن قد أصابه. لقد كتب لورو يقول أيضا: "إنك تعيش بطريقة ميكانيكية كإنسان آلي أو كإنسان نائم"، إنه تشخيص صائب، ولا شكّ في أنّ الناس قد تعوّدوا كثيرا على سهولة الحياة التي وفّرها لهم النظام القائم أو وعدهم بتوفيرها، وكانوا في بعض الأحيان يرغبون في الانتفاض عليه، ولكن منذ النصف الأوّل من القرن التاسع عشر فهم المؤرّخ أليكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville ذلك، حين أوضح أنّ نمط عيشهم كان يحول دون تنمية حسّهم النقدي وشحْذ هِممهم.

وبعد بضعة قرون من النماء الاقتصادي تعزّزت في كلّ مكان عبادة الفخامة والرفاه المادي، كان أكبر همّ الفقراء والأغنياء على حدّ سواء "توفير أدنى الحاجيات"، ولقد أكّد توكفيل أنّهم كانوا لا يبحثون عن " لذائذ خارقة"، كانوا على استعداد للرضا بـ"بما أتيح من صغائر المُتع" فسقطوا بذلك في الميوعة عوض أن يقعوا في المجون، إنّ ميل أهل العصور الديمقراطية الجارف إلى المُتع المادية لم يكن متعارضا مع النظام، بل على العكس من ذلك لقد كان يحتاج إلى النظام كي يُشْبع". كانت وضاعة البورجوازية كلّها تتلخّص في تينك الكلمتين: النظام والمتعة المادية. لقد خلص توكفيل إلى نتائج مفادها أنّ الناس في غمرة "البحث عن المتع المباحة" ساروا إلى الميوعة والذبول، وكان الخطر الداهم في المستوى السياسي يتمثّل في رَواج نوع جديد من الاستبداد.

والحقّ أن توكفيل قد تردّد في استعمال اللفظ: هل هو **استبداد** أم **طغيان** أم

عبودية؟ "اعتقد أنّ الضغط الذي يمارس على الشعوب الديمقراطية لا يشبه البتّة ما سبقه على وجه البسيطة"، فكلمة استبداد يمكن أن تكون هي الأنسب: "أريد أن أتخيّل الأشكال الجديدة التي يمكن أن يتّخذها الاستبداد في العالم، إني أرى جموعًا غفيرةً من أناس متشابهين متساوين، يدورون حول أنفسهم دون انقطاع، غايتهم تحصيل مُتع تافهة مبتذلة يشتغلون بها فتملأ عليهم أقطار أنفسهم، ثمّ نأى كلّ واحد منهم بنفسه وكأنّ مصير الآخرين لا يعنيه، فأبناؤه وأصدقاؤه بالنسبة إليه هم النوع البشري كلّه، أمّا ما تبقى من شركائه في الوطن فهو بجانبهم، ولكنه لا يراهم، إنّه يلمسهم، ولكنّه لا يحسّ بوجودهم، فلا وجود له إلا في نفسه ولنفسه فحسب، وإن بقيت له عائلة فيمكن القول بأنّه لم يعد يملك وطنا".

لقد أطلق توكفيل على هذا الضرب من الاستبداد صفة الاستبداد الإداري، وبعد ذلك سيتحدّث عن دولة الرفاه، ولكن الفكرة كانت هي ذاتها، ولْنُشِر إشارة عابرة إلى دولة الرفاه، إنها تستجيب من حيث المبدأ إلى رغائب وحاجات أصيلة في الإنسان، ولكنّ أهل الحداثة تكشّفوا عن سذاجة في هذا الجانب أيضا: لقد ذهب بهم الظنّ إلى أنّهم قد اكتشفوا أخيرا بفضل ذلك الاختيار نموذج المجتمع المثالي، لقد أخطؤوا حين صمّوا آذانهم عمّا كانوا يقوله بول فايربند Paul Feyerabend: "لا يوجد مجتمع مثالي كما لا يوجد جسم إنسان مثالي".

لم يفهموا من ثمّ أنّ عبادة **الرفاه والنظام والأمن** توشك أن تقود إلى صورة "الاستبداد" الذي سبق لنا وصفه، وكان افتراض مثل ذلك الإخفاق بالنسبة إليهم أمرًا لا يخطر على بال، كانت تحذيرات توكفيل دون جدوى وكانت "سيادة الشعب" مصونة في الظاهر، لكنّ المواطنين كانوا في الحقيقة يعاملون معاملة الأطفال: "لقد خيّمت على رؤوسهم سلطة تمتلك القوّة والوصاية أُوكل إليها

وحدها تأمين مُتعهم ورعاية مستقبلهم (...) إنّها تشبه السلطة الأبوية التي تهتمّ برعاية الأفراد إلى أن يبلغوا سنّ الرجولة، لكنّها في الآن نفسه لا تريد إلا إبقاءهم في طفولة لا تتزحزح، إنّها ترغب في أن يتمتّع مواطنوها شريطة أن لا يحلموا بغير المتع، وتعمل من تلقاء نفسها على تحقيق سعادتهم، غير أنّها تريد أن تكون القائم الوحيد على هذه المهمّة والحكم الأوحد فيها، فتوفّر الأمن، وتتوقّع حاجاتهم وتؤمّنها لهم وتيسّر لهم سبل المتعة، وتقود مشاريعهم الكبرى وتوجّه صناعاتهم وتنظّم ميراثهم وتقسّم تركاتهم". لقد تنبّأ توكفيل وكان تنبّؤه صادقا حين تعجّب قائلا: " ألن تكون (الدولة) قادرة على تجريدهم تماما من عناء التفكير وتعب الحياة؟".

لقد وصف الكاتب نفسه بدقّة ما كان ينتظر **الولايات المتّحدة الأمريكية فقط**، ولكن على وجه الخصوص **الاتحاد التكنوقراطي والاقتصادي الأوروبي الكبير** الذي أنشئ في التسعينات، لقد رسم لوحة كالحة حين كتب يقول: "فبعد أن أمسكت بقبضتها الحديدية كلّ فرد، وشكّلته كما تحبّ وتشتهي، امتدّ سلطانها إلى المجتمع فكَسَتْه بشبكة من قوانين صغيرة لكنّها معقّدة دقيقة تبدو على شاكلة واحدة، (...) فلا تقهر الإرادات ولكن تميّعها وتشكّلها وتوجّهها ولا تدفع إلى الفعل بالقوة إلا نادرا، ولكنّها تتصدّى دائما لمن يريد أن يتحرّك، إنّها لا تدمّر أيّ شيء ولكنها تمنع الولادة. إنّها لا تطغى أبدا ولكنّها تقلق وتقهر وتغضب وتطفئ وتدفع إلى الجنون، وتختزل في النهاية كلّ أمّة إلى قطيع من البهائم الحييّة والماهرة، تكون الحكومة بمثابة راع لها".

وإذا محّصنا النظر رأينا في ذلك شكلا مهذّبا من أشكال الفساد السياسي والأخلاقي، لقد قبل **الغربيون** دفع الثمن غاليا مقابل ما حصلوا عليه من متع ضئيلة

ويسيرة، لقد اشتدّ "خبلهم" على حدّ تعبير توكفيل ووهبوا الدولةَ أنفسَهم على نحوٍ لا رجعة فيه؛ والأدهى من ذلك أنّ عددا كبيرا من **الأوروبيين** قد صوّتوا لصالح إقامة الاتّحاد التكنوقراطي الرهيب المذكور آنفا، فلم يغامروا يومًا بمعارضته أو حتّى بمجرّد التفكير في معارضته. أيُعْقَلُ أن " تنبثق حكومة ليبرالية قوية حكيمة من تصويت شعب من العبيد؟" لقد توقّع توكفيل مآل تلك الديمقراطيات المزعومة حين كتب يقول: " إنّ فساد الحكام وحمق المحكومين لن يتأخّر في جلب الدمار".

لقد دقّ القسّ كونديلاك Condillac قبل توكفيل ناقوس الخطر فعلا، وفي كتابه حول الاقتصاد " التجارة والحكومة من منظور كلّ واحد منهما إلى الآخر" الذي نشره سنة ١٧٧٦ ميّز بين ثلاث مراحل في تطوّر العادات، فالحياة "المتعجرفة" قد ميّزت المجتمعات الأكثر حرمانًا، أي تلك التي يفكّر الناس فيها في العيش قبل كلّ شيء، ولا يعيرون الكماليات إلا اهتماما ضئيلا، ثمّ تأتي الحياة "البسيطة" وهي أكثر رخاء وأكثر رفاها، ولكنّها مبرّأة من كلّ تكالب على الاستهلاك والتكديس، وأخيرا ظهرت في أوروبا الحديثة الحياة "الرّخوة" "المائعة" ولقد اختصر أندري كليمن ديكوفلي André-clément Decouflé فكرة كونديلاك كالتالي: "تتّسم هذه الحقبة بتفاوت فاحش في توزيع الثروات وبانحلال مُخْزٍ في الطباع، وهي حقبة حبلى بالصراعات الاجتماعية وبخيبة أمل في العودة إلى حياة أفضل"، لقد وقع إذن إنذار الغربيين كما يجب، فبعد توكفيل بقرن من الزمان دقّ ألفرد نورث ويتهيد Alfred North Whitehead بدوره ناقوس الخطر، إذ سيفقد المجتمع قوّته الروحية، لفرط تشبّثه بمُثُل الرفاه والأمن وحدها، فإذا هو عاجز عن الحلم والخوض في مغامرة جديد. والحال أنّ "حضارة بلا مغامرة هي حضارة في طريقها إلى الاضمحلال".

لـم يكن فريق بحثنا يتصوّر تقديم "شـرح" حقيقي [فـي الموضوع] ومع ذلك فقـد بـدا لـه أنّ الأمور قد اسـتبانت قليـلان، لقد حكـم الغرب على نفسـه بالعمى الثقافـي والهـوان السياسـي، بتوقيعـه علـى "الامتيـازات المكتسـبة"، واسـتعداده لارتـكاب الحماقـات كلّها للمحافظة عليها، لكنّ السـؤال الذي يعود بإلحاح: ألم تكن للغرب فرصة لانتشال نفسه قبل وصوله إلى حافة الاحتضار؟ ألم يكن اتّساع رقعـة الفسـاد نفسـه سـببًا كافيًـا للاسـتفاقة؟ لقـد تراكمـت الأخطاء الأشـدّ حمقا والمفارقـات الأشـدّ دمـارا فـي كلّ مكان، ومـن بين الأشـياء التي كانـت واضحة وضوح الشـمس عجز دولة الرفاه عن القيام بالمهامّ التي التزمت بها، لقد وضعت حيّـز التطبيـق إطـارًا صارمًـا جـدًّا، أو قل خانقًـا، ولكـن "الليبراليـة" -وإن تغيّرت ملامحها منذ القرن التاسع عشر- قد تواصل نموّها بأشكال لا تُطاق بشاعةً.

كان بإمكان المواطنين العاديين بما لديهم من ذاكرة ثقافية بسيطة أن يشخّصوا الـداء، فقـد فسّـر منتسـكيو مثـلا - وهو كاتب مـن المفتـرض أن يعرفـه كلّ تلميذ [فرنسي]- أن الفضيلة شرط ضروري لنجاح ديمقراطية من الديمقراطيات، ولكن أيّ شـيء أشـدّ مناقضة للفضيلة من "العادات التجارية" التي وصفها سبنسـر وصفا جيّـدا، كان الغربيـون مع ذلـك يعتقدون (أو قـل يتظاهرون بالاعتقـاد) بأنّ مظاهر الفساد كانت مجرّد حوادث عابرة، وكان يكفيهم صياغة برامج تكنوقراطية وقوانين مضاعفـة وأوامـر وتراتيب؛ لكي يتسـنّى لهم رعاية ثقافتهم المزيّفـة. لقد كان قول نوفيلي واضحًا وضوح قول مونتسـكيو حين قال: " الشـعر أساس المجتمع، مثلما أنّ الفضيلة أسـاس الدولة"، ولكننا نعلم جميعا ما جرى للشـعراء. لقد أبرز بعض الباحثين في فريقنا -بعد شـدّة التحرّي- أنّ الغربيين كانوا لا يقوون على الإفلات من التجّار، بعد أن أضحوا يعيشـون تحت رحمتهم؛ لذلك كان ينبغي أن يتجرّعوا المرارة إلى آخر قطرة، بينما ألحّ آخرون مرّة أخرى على النّذُر التي وُجِّهت إليهم.

لِمَ لَمْ ير **الغرب** الذي يُدعى بالمتحضّر نفسه البتّة في المرآة التي أمدّه بها الشاعر دوستوفسكي Dostoïvski؟ ففي حديثه عن بورجوازي مدينة باريس قام بدور ميشلي، وحاول إيقاظ الهمم الخاملة؛ لنقرأ هذه الأسطر التي كتبها سنة ١٨٦٣: " السرقة شيء مُقرف، إنها لأمر شائن، وهي تؤدّي بصاحبها إلى الأشغال الشاقة، فالبورجوازي يصفح عن كثير من الأخطاء إلا السرقة، فهو لا يعفو عنها أبدا، حتى ولو كنت ستموت أنت أو أولادك جوعا. ولكن إذا ما سرقت بكياسة، فأنت- لعمري- معفوّ عنك في كلّ شيء؛ لأنك تريد بذلك أن تصبح ثريًا وأن تجمع أموالا كثيرة، أي تريد أن تكرّس قانونًا من قوانين الطبيعة والإنسانية؛ من أجل ذلك وقع التمييز في القانون بين السرقة بدافع دنيء، كأن تسرق كسرة خبز، والسرقة الأنيقة فهذا النوع الأخير مضمون تمامًا ويلقى التشجيع وهو منظّم بطريقة خارقة".

لقد أدرك دوستوفسكي أمورًا كثيرة، وخاصة منها ما يتعلّق بالتاريخ الثقافي، وتراءى له بالخصوص أنّ "العادات الضاربة في القدم لأصحاب المحلات التجارية تغلغلت في كلّ مكان. لماذا يخشى البورجوازيون العمّال؟ " فالعمّال في قرارة أنفسهم هم أيضا أصحاب أملاك، تتلخّص أحلامهم كلّها في رغبتهم في أن يصبحوا مُلّاكا، وأن يجمعوا أكبر قدر ممكن من الأموال، تلك هي طبيعتهم، وليس عبثًا أن تكون للإنسان طَبيعةٌ. لقد نما ذلك كلهّ وتشكّل طيلة قرون، (...) فليس من السهل التنصّل من العادات القديمة التي تغلغلت في الأبدان، فجَرت منها مجرى الدم في العروق"، لقد فهم فيدور دوستوفسكي مدى نجاعة ظاهرة التعويد هذه: " لقد نما كلّ ذلك وتشكّل طيلة قرون"، ولقد فهم كذلك ما لم يفهمه كثير من **الغربيين** رغم ما كان يساورهم من حدس بالنذُر المنبئة بسوء العواقب عندما حدث **الانفجار الأكبر**. كان يمكن لبعض الكلمات العظيمة (كالحرية مثلا) أن تكون خدّاعة، لقد طرح سؤال " أيّ حرّية؟" وكانت الإجابة كالتالي: "إنها حرية

واحدة للجميع، بمقتضاها نفعل ما نشـاء في حدود القانون، ومتى يمكننا أن نفعل ما نشـاء؟ عندما نملك المليون. فهل تهب الحرية كلّ واحد منّا مليونا؟ كلاّ، ومن هـو ذاك الـذي لا مليـون له؟ الإنسـان الفقير ليس له أن يفعل ما يشـاء، بل نفعل به نحنُ ما نشـاء". لماذا لم تكن مثل هذه النصوص صالحة لأيّ شـيء؟ ورغم ذلك كانـت عبـارة دوستوفسـكي دقيقـة إذ يقول: لم نجد "فـي الذهنية الغربيـة" إلا مبدأ الفـرد ومبـدأ المحافظـة المبالغ فيهـا على الـذات، وعيش المرء لحسـابه الخاص واسـتقلال **الأنـا**، وتَعـارُض هذه الأنا مع الطبيعـة كلها ومع النـاس أجمعين، فأنّى للمساواة والأخوّة في هذه الظروف أن تتحقّق فعليا؟ يضيف دوستوفسكى بلهجة حادّة : "إنّ أنذل صغار **الفرنسيين** الذي يمكن أن يبيعك أباه مقابل فلس، ويضيف إليـك عليـه ما لـم تطلبه منـه، ويكون في الوقت الذي يبيع فيه أبـاه على هيئة تبعث علـى الاحتـرام وتثير دهشـتك"، لقد أثبتت نهاية القرن العشـرين عامّـةً صدق هذا الـكلام (تكفـي مثلا قراءة عدد من الخطابات السياسـية لتتبيّـن صحّة ذلك)، ربما شهد **الغربيون** لحظة صفاء عشية **الانفجار الأكبر** عندما تصدّع بناؤهم الاجتماعي من كلّ جانب، وصار يُسمع دويّ تصدّعه كلّ حين. ربما تراءت لهم أيضا أسباب بلوغهـم تلـك الحـال ولو للحظـات، ولكن كان الوقـت متأخّرا جـدّا. لقد أخفقوا حتى في المجالات التي كان باسـتطاعتهم تقليص الفسـاد فيها دون عناء كبير، فلم يحـدّوا قـطّ مـن صعود الأوغاد منهم مثـلا، ومع ذلك كان صـوت الحكمة قد بلغ المسـامع قائـلا: " في الديمقراطية الفاسـدة يكـون الاتّجاه دائما نحو منح السـلطة للأسوأ" هكذا تحدّث هنري جورج Henry George في كتابه: التقدّم والفقر، لقد أبـان بوضوح عن سـلطان اللاعبيـن والمتحذلقيـن وتجار الخـردة "القادرين على مراقبـة الانتخابـات والهيمنـة على المدن الكبرى، فشـأنهم في تلك المدن كشـأن حراس إمبراطور روما زمنَ الانحطاط".

عندها "يعتاد الشعب على تنامي الفساد" والحديث لهنري جورج الذي يضيف قائلا: "وتضعف الثقة في المؤسسات الجمهورية"، إنّ له لرؤية استباقية، لقد فهم هنري جورج - شأنه في ذلك شأن دوستوفسكي- أنّ السرقة في مجتمع تجاري بحت، تصبح وسيلة من وسائل النجاح، وعلامة من علامات القوّة، لقد كتب يقول: "وهكذا إنْ سرق امرؤ ما يكفي وزيادة، تأكّد لديه أنّ عقوبته لن تكون فعلا سوى ضياع جزء ممّا سرق، وأمّا إن سرق ليصبح ثريًا فإن معارفه يستقبلونه استقبال الفاتحين، حتّى وإن سرق من منحوه ثقتهم، وسرق الأرملة واليتيم، بل يمكنه أن يتفاخر في وضح النهار بثروته شرط أن يسرق الكثير".

ولكي نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، علينا أن نذكر كيف انهار **الغرب** الذي تقهقر سياسيًا وروحيًّا، بعد أن مرّ بأزمات مفاجئة عنيفة، ولكنّ وصف هذه الأحداث -كما سبق أن ذكرنا- قد يتجاوز حدود هذا التقرير، وينبغي علينا الآن أن نخصّص بعض التحاليل المتعلّقة بالمهندسين وهم "أرباب الآلة" الذين من دونهم ما كان لنشطاء الحداثة أن ينجزوا مشاريعهم العملاقة قطّ، وعلى أية حال كان هؤلاء الأشخاص خاضعين للمقاولين ولأرباب **الاقتصاد**، ولكنّ دورهم لم يكن أقلّ أهمية، فما كانوا يعيشون في انسجام تام مع التجار ويساعدونهم على تثبيت القواعد المادية لهيمنتهم فقط، وإنّما كانوا يستنبطون أساليب العمل والفكر التي طبعت "العبقرية الغربية بعمق"، وكان المهندس هو الخادم المطيع **للصناعة وللجيش**، ولكنه كان أيضا رائد **العلم والتكنوقراطية** -كما كان يحلو للأستاذ دوبان أن يكرّر ذلك- وهي لعمري أسباب كافية جعلت فريق بحثنا يهتمّ عن قرب بوجه آخر من الوجوه الرئيسية **للحداثة**.



IV - الإنسان التقني

«لقد أصبحت الآلية دينا جديدا تمخّض فولد مسيحًا جديدًا هو الآلة».

لويس مومفورد Lewis Mumford

«لقـد كان الاقتصـاد الإنكليـزي يتطلّـع إلـى تحقيـق هدف صناعي أسـمى، بمقتضاه يكون للآلة الواحدة رجل واحد يعيد تركيبها».

جيل ميشلي Jules Michelet

«لو أتيح لفولتير أن يُبعث بيننا في القرن العشرين فربّما كانت صرخة الحرب التي سيطلقها هذه المرّة: «التقنية هي العدو! السافلة امحقوها!».

أرنولد ج. توينبي Arnold J. Toynbee

لقد عُثر على كلمة مهندس لأوّل مرّة -إن صدق المؤرخون- في وثيقة كتلانية[1] تعود إلى منتصف القرن الحادي عشر، كان ذلك النص مكتوبا باللاتينية وقد أشير فيه مرّتين إلى مهندسي ذلك العصر و(خاصة منهم التقنيون الذين يهتمون بآلات الحرب).

لقد بلغ إلى علمنا أيضا أسماء تسعة مهندسين فرنسيين عاشوا بين ١١٢٩ و١٢٠٠ كان معظمهم مختصين في صنع الآلات الحربية والتحصينات الدفاعية، وكان في أوروبا وخارجها منذ زمن بعيد تقنيون تتفاوت درجات اختصاصهم بطبيعة الحال، فكانت تستخدم عند اليونان والرومان -مثلا- كلمات كثيرة يُشار بها إلى مهندسين متمرّسين-عسكريين كانوا أم مدنيين-، منهم من كان يصنع الآلات والسفن، ومنهم من اهتمّ بالطرقات والمناجم إلخ، لم يحسنوا البناء فقط وإنّما أحسنوا كذلك صنع آلات متنوّعة جدّا، كالساعات المائية والمنجنيق والروافع ومضخّات الماء، والثابت أن كلمة مهندس (*ingeniator*) لم تظهر في الغرب إلا نحو سنة ١٠٠٠، وقد بدا لنا هذا تاريخًا مهمًّا في رمزيّته، فمن كان إذن هؤلاء "المهندسون" الأُوَل الذين تبوّأ خلَفُهم مكانةً كبرى في الغرب الحديث؟ لقد تكاثرت داخل تكنوقراطيات أواخر القرن العشرين اختصاصات المهندسين كلّها كما سنرى، وكانوا في الغالب الأعمّ يشغلون وظائف عليا لا تمتّ في البداية بأيّ صلة إلى التدريب الذي يتلقّونه في "مدارس المهندسين"، لذا أثارت هذه الشخصية الثقافية اهتمام فريق بحثنا، ولقد فتح الأستاذ دوبان الطريق أمامنا حين

---

(١) نسبة إلى مقاطعة في إسبانيا (المترجمان)

قال: "على الرغم من توقير الغربيين البالغ **للطبيب وللعالم** فإنّ أصل الحداثة عندهم هو **المهندس** ومعه **التاجر**، ولن نتمكّن من فهم كيفية استغلال خيرات الطبيعة في تصوّرهم ولا كيفية بناء المجتمع في حدّ ذاته من غير بحث عن أصول المهندس ".

كان ينبغي علينا أن نعود إلى حدود **العصر الوسيط** مرّة أخرى، وأن نلاحظ أنّ هذه الفترة كانت مهْد العقل التقني، مثلما كانت كذلك بالنسبة إلى الفكر التجاري، و كانت "الثورة الزراعية" ثورة تقنية في حدّ ذاتها، غير أنّ ارتقاء المهندسين بأتمّ معنى الكلمة قد حدث في ميادين أخرى، وخير مثال على ذلك ناعورة الماء، لقد كتب برتران جيل Bertrand Gille قائلا: "يمثّل استخدام الطاقة المائية على نطاق واسع أعظم ابتكار في العصر الوسيط بلا شكّ".

ولكن حذارِ فكما لم يخترع أهل العصر الوسيط جلّ تقنياتهم الزراعية، فإنّهم لم يبتكروا ناعورة الماء، لقد عرفت عند **الرومان**، واستعملت ما بين القرن الأوّل والخامس للميلاد، أمّا المائدة المائية في منطقة البحر المتوسّط فلم تشجّع طبيعتها على استخدامها، وربّما عرف الصينيون هذه التقنية في فترة مبكّرة جدّا، إذ تعود أوّل ناعورة للمياه من صنع صيني إلى سنة ٣٠ قبل ميلاد المسيح، ولكن يفترض أنّ المدعو تسوي لينغ Tsoui Leang قد ركّب نواعير الماء قبل ذلك بثلاثة قرون، والثابت أنّ اتّساع رقعة استعمالها في **الغرب** كان مذهلًا، فقبل سنة ١٠٠٠ صنعت نواعير في مناطق متفرّقة من **أوروبا**، ففي إنكلترا وحدها كانت هناك ٥٦٢٤ ناعورة أواخر القرن الحادي عشر، موزّعةً على نحو ٣٠٠٠ قرية، وفي القرن الثالث عشر كانت هنالك أكثر من ٢٠٠ ناعورة ماء تستخدم في محيط نهر اللوب.[1] لقد

---

(١) هو نهر يبلغ طوله ٢٤٨ كم ينبع من سهل لنجر بفرنسا. (المترجمان)

أظهـرت أوروبـا بعدُ ميْـلا إلى الآلات وبراعة كبيرة في اسـتخدامها، وفي المناطق التي كان من اليسـير فيها حصر مياه البحر عن طريق بناء السـدود، صنع مهندسـو العصـر الوسـيط طواحين تشـتغل بوسـاطة المدّ والجـزر، فمحطات توليـد الطاقة باسـتغلال المـدّ في منطقة دوفـر Douvres[١] تعود إلى القرن الحادي عشـر، وقد ذُكِرَ مصبّ أدور Adour[٢] منذ القرن الثاني عشـر، أمّا الطاقة الهوائية فسـرعان ما وُضعت هي أيضًا حيّز الاستخدام، ولقد ثبت وجود نواعير هوائية في **بلاد فارس**، ولكن **الغرب** عرف كيف يملك ناصية تلك التقنية ويطوّرها، وكانت نواعير **الشرق الأوسـط** مركّبة وفق محور عمودي، ولقد اسـتخدم ذلك المحور أفقيًا منذ البداية في أوروبا لضمان مردود أكبر، وانتشـرت منذ بداية القرن العاشـر تلك الأنواع في **إسـبانيا**، ثـمّ فـي المناطق الشـمالية مـن أوروبا حتّى صرنـا نرى "منـذ مطلع القرن الثالث عشر في أوروبا الغربية النواعير الهوائية منتشرة في كلّ مكان تقريبا".

وفـي الفتـرة التـي كانـت خلالهـا تتعاظم المـدن، أعـدّت أوروبا جهـاز طاقة مدهشًـا، ثـمّ كان عليها بعد ذلك أن تقوم بما هو أفضـل بكثير، فماذا تكون ناعورة مـاء إذا قورنـت بـالآلات البخاريـة التـي اسـتحدثت فيمـا بعـد، أو بالمحـرّكات الكهربائيـة والمحـرّكات الانفجاريـة، أو المفاعـلات النوويـة؟ فقـوّة عـدّة نواعير مجتمعة لا يمكنها أن تبلغ حسب رأي الخبراء أكثر من حصانين بخاريين أو ثلاثة، ولكن هناك خطوة مصيرية تمّ تجاوزها، وهي التي أشار إليها برتران جيل بقوله: " إنّ مؤهّلات العصر الوسـيط الأوروبي في مجال الطاقة كانت أكبر بكثير من تلك التي عرفتها العصور القديمة".

---

(١) ميناء بريطانيا العظمى. (المترجمان)

(٢) نهر ينبع من جبال البيريني في فرنسا ويصبّ في المحيط الأطلسي. (المترجمان)

عنـد ذلـك أتيح للآلية أن تـرى النور، فلم يعد بالإمكان اسـتعمال عدد متزايد من الآلات فقط، وإنّما برزت أهمّية الطاقة في حدّ ذاتها للعيان، بفضل تطوير تلك الآلات، وكانـت الطواحين لا تصلـح إلا لطحن القمح والحبوب الأخرى، ولكن سـرعان ما تنوّعـت وظائفها، فأصبح هنـاك رحى لعصر الزيـت والخردل، ورحى للشـحذ، ورحـى للخلط، وأخـرى لطحن التبـغ، ورحى للدعك، ورحـى للقنّب، ورحـى للقـصّ وغيـر ذلك، وأخـذت القائمة تطـول عبر القـرون، ولكن أصبحت ضخمة منذ سنة ١٣٠٠.

وقد تطوّرت قطاعات أخرى مثل صناعة الحديد مثلا، فصارت بعض الأفران منذ القرن الثاني عشـر تسـمح بإنتاج مكثّف نسـبيًا. فأصبحت الإنتاجية أعلى ممّا كانـت عليه بواسـطة الحِـدادة اليدوية، وبفضل رحى الحديد (التي تعمل بوسـاطة عجلات حديدية صغيرة)، "ولقد مررنا إذن في منتصف القرن الثاني عشر من إنتاج بدائي إلى بداية إنتاج صناعي". إنّنا لا نروم هنا استعراض ابتكارات العصر الوسيط كلهـان وإنمـا بيـان مـا تحقق من "تقـدم" في مجالات كثيـرة جـدّا، وإن كان ثمة لا محالـة بعـض نقاط الضعف، فالتقنيات المنجمية لم تتطوّر قطّ، بل ربما تراجعت، أمّـا صناعة النسـيج فقـد قفزت إلى الأمام قفزة مدهشـة (الندافة، الغزل، النسـج)، ولقد صمّمت البحرية الشـمالية -شـأنها في ذلك شـأن بحرية المتوسـط- بواخر تسـتجيب أكثـر فأكثـر لحاجـات تجّـار هانـسHanse والبندقيـة Venise وجنـوة Gênes.

وقد بدا العصر الوسيط مبدعا في المجال العسكري، وعلينا أن نسلّم أنّ أوّل اختـراع كبيـر كان فـي خدمـة جيوش العصر الوسـيط، لـم يكن يتطلّب مهندسـين بالمعنى الحديث للكلمة، ونعني بذلك رِكاب السّرج، وهو أداة بسيطة في ظاهرها،

وقد كان مع ذلك بداية انطلاق ثورة -إذا صحّ القول- جعلت من النشاط "التقني" للغربيين موضوعًا يطول الخوض فيه، ولا شكّ في أنّ الرّكاب قد عُرف في آسيا الوسطى منذ قرون مضت، وقد استعمله المسلمون والبيزنطيون بعد ذلك، ولم يتوارثه الفِرنجة إلا بحلول القرن الثامن، وتمثّلت عبقريتهم في سرعة إدراكهم الآثار العسكرية المترتبة على استخدامه، فمن دون رِكاب لا يكون الفارس ثابتًا متوازنًا، ولا يستطيع الإمساك بسيفه بصورة ناجعة، وفي مقابل ذلك كان استعمال الركاب استعمالا مناسبًا يتيح له استعمالا أمثل للسلاح الذي بحوزته، وتحوّل الفرسان الفرنجة إلى مقاتلين أشاوِس بالقبض على الرمح قبضًا محكمًا، واغتنام قوّة الدفع التي تمتلكها خيولهم، فسجّلوا تفوّقا ساحقا في ساحة الوغى، وكان ينبغي على جميع أعدائهم محاكاتهم حتى يكون لهم حظّ في الثبات أمامهم، ومن هذا المنطلق شهدت أوّل حرب صليبية عروضًا مقنع. لقد كتبت الأميرة البيزنطية آن كومنار Anne Comnère في القرن الثاني عشر تقول: "الفرنجي على ظهر جواده فارس لا يُقهر".

لقد ساهمت هذه التقنية عامّة في تشكيل المجتمع الإقطاعي، فركوب المرء جوادَه باقتدار يجعله مؤهّلا لحمل لقب «فارس»، وينبغي أن يكون له معلّم فروسية وجواد أو جياد كثيرة، وأن يكون ثريّا لكي يطعمها، ولكي يقتني ما يحتاج إليه من معدّات باهظة الثمن. وينبغي على المقاتلين المبتدئين أن يتلقّوا تدريبًا طويلا حتّى يصبحوا «محترفين». وسرعان ما شكّل هؤلاء المقاتلون طبقة على حِدة، لها نفوذ سياسي مهمّ، فازدهرت الفروسية، وتتالت انتصارات الفرسان، وتتابع تنظيم المنافسات، وظهرت خاصةً بُعَيْد ذلك ابتكارات جديدة، نذكر منها على سبيل المثال القوس والنُّشّاب، وهو سلاح عرف عند الصينيين منذ القدم، ولكن طوّره الغربيون خلال نهاية القرن الحادي عشر، وكان مُرعبًا في شكله الجديد، إلى الحدّ

الذي جعل البابا إنّوسون الثاني Innocent II في مجمع لاتران Latran سنة ١١٣٩ يحرّم استعماله (إلا ضدّ غير المؤمنين). غير أنه يبدو أنّ تلك الفتوى لم تجد لها آذانا صاغية، فلقد طوّر المهندسون العسكريون في العصر الوسيط القاذفات أيضا، وذلك بصنع نوعين مختلفين من المنجنيق الذي يبدو أنّ الصينيين والمسلمين قد عرفوا مبدأ صناعته، وهو عبارة عن حبال عملاقة تشدّها رافعة كبيرة تحرّكها ثقالة ضخمة، ولقد أبدع التقنيون الغربيون مرّة أخرى: لقد كانت آلاتهم أكثر نجاحًا من المنجنيقات القديمة، وكانت متفوّقة على تلك التي بدؤوا بتقليدها، وكان المسلمون في القرن الثالث عشر يشيرون إلى المنجنيق العملاق باعتباره آلة حربية "فرنجية" خالصة، وكانت له القدرة -إذا ضبطت أحجام كُراته الحجرية بعناية- على بلوغ درجة عالية من الدقة في الرمي. لقد مكّن منجنيق عملاق أسقف ألبي Albi سنة ١٢٤٤ من أن يقود حصارا مظفّرا ضدّ الكاثار[1] في مونتسيغور Montségur.

ويكون الرمي إمّا مستقيمًا مباشرا، وإمّا أن يُمطرَ على العدوّ إمطارا، ولا شكّ في أنّ المهندسين قد عمدوا إلى تجسيم بعض القواعد الرياضية التي ساهمت في تحسين أداء عمل هذه القاذفة، حيث سيظهر بُعيْدَ ذلك (في سنة ١٣٢٩ بفلورنسا) المدفع؛ لتبدأ مرحلة "أحدث في مجال الفنون العسكرية الغربية، إذ بدأ التعاون بين الجندي والتقني في وقت مبكّر جدّا كما أكّد ذلك لويس مومفورد Lewis Mumford.

---

(١) الكاثار: هي حركة دينية لها جذور غنوصية بدأت في متنصف القرن الثاني عشر، وقد اعتبرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية آنذاك أنها طائفة خارجة من الدين المسيحي. كانت الكاثارية موجودة في معظم مناطق أوروبا الغربية، لكنها من أصل فرنسي جنوبي. الاسم الكاثار Cathars يأتي من اللغة اليونانية καθαροί والتي تعني الطاهر. (المترجمان)

إن الظاهرة الكبرى التي أثارت دهشة فريق بحثنا تتمثّل في أنّ **الغرب** تشكّلت قريحته التقنية بسرعة فائقة وقوّة كبيرة، فقد بلغ بل تجاوز المستوى الذي بلغته الشعوب الأكثر "تطورا" في **الشرق الأدنى** والشرق **الأوسط** منذ **العصر الوسيط**، -وهو ما سبق أن ذكرناه- فلقد أكّد المؤرخ الأمريكي لين وايت Lynn White ذلك مرارًا حين قال: إنّ التفوّق التقني **للغرب** لم يكن سمة يتفرّد بها العصر الحديث، بل لقد ذهب أكثر من ذلك حين أضاف بأنّ المفهوم "الحديث" للتكنولوجيا التي تعرّف بكونها فن الابتكار قد ظهر مبكّرا جدّا، وبعبارة أخرى، لم يكتف أهل العصر الوسيط باستنباط وسائل خاصة ابتغاء حلّ هذا المشكل بعينه أو ذاك، مثلما فعل **اليونانيون** القدامى، وإنّما استبصروا -بل شكّلوا- فكرة "تقدّم تقني" مُمنهج موجّه توجيها واعيًا نحو المستقبل، وكان ذلك من منظور ثقافي أمرا في غاية الأهمية.

لقد وُجد في كلّ الأزمان مخترعون، (أي أناس يطوّرون التقنيات المستعملة، ويتصوّرون تقنيات أخرى جديدة)، لكن تمثّلت طرافة أهل العصر الوسيط في تجرّئهم على تصوّر مشروع متكامل، فبفضل الحيل التقنية أنشأ الناس عالمًا جديدًا، ولم يَعُد الاختراع ظاهرة عرضيّة، وإنما نتيجة بحث دؤوب.

يعود ذلك البرنامج في أبلغ صورة له وأشهرها إلى الراهب الفرنشيسكي روجيه باكون Roger Bacon الإنكليزي الأصل، والذي عاش في القرن الثالث عشر، إذ يقول: "نستطيع أن ننجز للملاحة آلات تغني عن المجدّفين، فيمكن لرجل واحد أن يقود بواخر كبرى في الأنهار أو البحار، بسرعة تفوق سرعتها وهي تعجّ بالملاّحين، ونستطيع أيضا أن نصنع سيارات في غنى عن الدوابّ تسير بسرعة لا تصدّق (...) نستطيع كذلك صنع آلات طائرة بحيث يدير رجل يجلس

بداخلها محرّكا يشغّل أجنحة اصطناعية ترفرف في الهواء، مثل طائر يحلّق عاليا، يمكننا أن نصنع أيضا آلات ذات أبعاد صغيرة لكي نرفع أو نخفض أثقالا كبيرة جدا، نكون في حاجة ماسة إليها زمن الطوارئ (...)، يمكننا أن ننجز بكل يسر آلة تجعل الإنسان قادرا على أن يجلب أناسا كثيرين قسرا دون رغبة منهم، وعلى أن يجلب أشياء أخرى بالطريقة نفسها، ونستطيع كذلك أن نصنع آلات للتنقّل في البحر وفي مجاري الماء، وحتى في الأعماق دون مخاطر.(...) نستطيع أن نحقّق مثل تلك الأشياء إلى ما لا نهاية تقريبا، كالقناطر الموضوعة على مجاري المياه دون حبال أو محامل وآليات وأدوات ضخمة لا يصدّقها العقل".

فالبواخر ذات المحرّكات والسيارات والطائرات والغوّاصات لم يساور روجيه باكون (معاصر القديس لويس) يومًا الشكّ في إمكان إيجادها بالفعل. وهل كان من داع إلى الشكّ؟ فبفضل الناعورة والمنجنيق العملاق كان الماء والهواء والجاذبية في خدمة الإنسان، ولِمَ نذهب إلى أبعد من ذلك؟ لقد برزت هنا وهناك أفكار طموحة، ألا نستطيع مثلا أن نصنع عجلة عجيبة تدور بمفردها ودون انقطاع؟ لقد علمنا بفضل فيّار دي هنّوكور Villard de Honnecourt (في مطلع القرن الثالث عشر) أنّ عديد الخبراء في مجال الآلة كانوا يحلمون ببناء حركة دائمة، ولقد اقترح فيّار نفسه نظامين لذلك، يستخدم في أحدهما "مطارق غير متساوية (أي أوزان متأرجحة) ويستعمل في الثاني الزئبق، وبُعَيْد ذلك، أي في سنة ١٢٦٩، قدّم المهندس العسكري بيار دي ميريكور تصميما لآلة ذات حركة دائمة تشتغل بالطاقة المغناطيسية.

يمكن أن تبدو فكرة الحركة المستمرّة نفسها فكرة ساذجة في عيون علماء "الحداثة"؛ لأنه كان من المستحيل إنجاز مثل تلك الآلة، وكان ليوناردو دافنشي يعلم ذلك. ولكن من زاوية النظر الثقافية لم تكن قصة الحركة المستمرّة غير مفيدة،

وبالفعـل لقد أُخذ هذا المفهوم عن الهنـود، ولكن تُؤُوّل في إطار ديني، وكان يحيل إلـى دَوْرة الزمـن، وإلـى دوام بعث كلّ شـيء، ثمّ جاء دور المسـلمين الذين اهتمّوا بالآلة ذات الحركة المستمرّة، ولكن كما لاحظ لين وايت لـم يتجاوز ذلك الاهتمام كثيرا مجرّد حبّ الاطلاع، وعلى العكس من ذلك لقد اجتهد الغرب في الإفادة منها عندما أمدّه المسلمون بتلك الفكرة.

لقد فسّر بيار دي ماريكور أن قطعة ممغنطة دائرية ركّبت على محور (يفترض أن يكون الاحتكاك به يعادل الصفر) تقوم بدورة كاملة حول نفسـها في زمن قدره يـوم واحـد، يمكن أن يجسّـد ذلك سـاعة حائطيـة نموذجية، أو بالأحـرى نموذجا مغناطيسـيا لحركة الأجرام السـماوية، فإذا أضفنا هذا المعطـى إلى خارطة فلكية، يصبح من الممكن صناعة آلة تفيد الفلكيين.

إنّ مفهـوم "الحركـة الدائمة" يعمّق إيمان الغربيين بفكرة مفادها أنّ الكون (حسـب تعبير لين وايت) "يعجّ بقوى يمكن أن تستغلّ ميكانيكيا من قبل الإنسان".

إنّ تلك الآلات تدلّ -حتى وإن كانت غير قابلة للاسـتخدام- على ثقة كبيرة جدا في قدرات الإنسـان التقنية، ويبدو أنّ الغرب كان قد اختار بعْدُ المسـار الذي ينبغي أن يقوده إلى استغلال جامح للطبيعة، وإلى مكْنَنة النشاط الإنساني، ومكْننة الإنسان نفسه.

من البديهي أن لا يستطيع مهندس من مهندسي تلك الحقبة تخيّل النتائج التي تنجرّ عن عبادة الآلة، لم يكن يستطيع أن يتنبّأ بأنّ الأمر يتعلّق بقنبلة موقوتة حقيقية، لقـد اندفـع الغـرب في أواخـر العصر الوسـيط -علـى أيّة حـال- إلـى الميكانيك اندفاعًا، إذ لم تعرف البشرية قطّ حضارة تضاهي شغفه بالآلات، وما يُسْبِغُه عليها من فضائل، ولكن كيف أتيح لهذه المعجزة أن تتحقّق في مجتمع سِمته البارزة أنّه ريفي مسيحي؟

يبدو أنّ هذا السؤال لم يكن حقيقة في مدار اهتمام رواد الحداثة، فالآلة بالنسبة إليهم أمر بديهي، فلقد جسّدت بداهةً فكرة التقدّم، ولقد بلغ بهم الأمر إلى الاعتقاد بأنّ كلّ "شيء" هو في جوهره ماديّ، يحكمه نظام ميكانيكي داخلي، وسنعود فيما سيأتي إلى هذه الفكرة التي تقتضي أن الكائن الحيّ نفسه في نظرهم ما هو إلا آلة من الآلات، واليوم في سنة ٢٠٨١ تبدو لنا هذه المعتقدات باعثة على الحيرة، لكنّ الغربيين الأكثر حداثةً كانوا يرون أنّها ثابتة "موضوعيا"، وهو ما يجعلنا نفهم إذن أنهم لم يتساءلوا ولو قليلا عن أصولها التاريخية، وعلى العكس من ذلك، فالرأي عندنا أن من واجبنا الاطّلاع على تلك الأصول. أليس من المفارقات أن يُنتج مجتمع تهيمن عليه الكنيسة (وقد كان الخلاص شغلها الشاغل) مثلَ ذلك العدد من الآلات والمهندسين؟ وبعبارة إدغار كيني Edgar Quinet ألا يكون ملائما القيام بقراءة دينية لهذا التحوّل الغريب؟

ولا مبالغة في كلمة غريب، لأنّ قصة حبّ بين الغرب والآلة نشأت في وقت مبكّر جدّا، ليس من السهل أن نأتي على أطوارها كلّها، ويرى لين وايت -وهو بلا شكّ من أكبر العارفين بالتاريخ الثقافي للتقنيات- أنّه من الضروري إثارة الظواهر اللاواعية، فلقد كتب يقول إنّ العلاقات بين الدين والاقتصاد والتقنية كثيرا ما كانت معقودة في أعماق الضمير الجمعي، فكان الوجدان ذا حضور مؤثّر، من غير أن نتمكّن من العثور على ما يؤكّده بصريح العبارة لدى من يهمّه ذلك، وفي القرن العشرين، كان على بعض الكتّاب أن يصفوا بإعجاب ذلك الضرب من المتعة التي يتيحها أحيانا ضجيج محرّك من المحرّكات. لكن هل كنّا نتوقّع أن يعبّر بالوضوح نفسه كاهن أو تقني عايش لويس الكسول[1] أو لويس البدين[2] عمّا يدور بخاطره حول هذه النقطة؟ غالبا ما كانت

---

(١) لقب يطلق على أواخر الملوك المرفنجيين الذين جرّدوا من مهامّهم من قبل مديري قصورهم. (المترجمان)

(٢) هو لويس السادس (١ ديسمبر ١١٠٨ - ١ أغسطس١١٣٧)، ملك فرنسا من عام =

الأحاسيس ومشاعر الإعجاب التي تثيرها المكْننة "إراديّة" أو تكاد، ومع ذلك كانت بعض الصور بليغة الدلالة على طريقتها.

ففي مكتبة جامعة أترخت Utrecht يوجد مخطوط يعود إلى بداية القرن التاسع يحتوي على خط مزخرف مدهش حقًا، ينسب النص دون ريب إلى راهب بندكتي[1] من منطقة رايم Reims وفيه تعليق على مُزمور يميّز بين الأخيار والأشرار، حيث كان هناك فريقان: ضحايا الشيطان على اليسار، والمسيحيون الحقيقيون على اليمين، والعنصر الذي له دلالة هو وجود شخص في موقع كلّ فريق يشحذ سيفا.

كان التباين بين المشهدين كبيرا، فسيف الأشرار كان يُشحذ بالطريقة القديمة، أي على حجر سنّ خشن، أما سيف الأخيار فكان يسنّ على رحى شدّت إلى مقبض يديره أحد الصنّاع، ولا يحتاج المشهد إلى توضيح بأنّ الرحى كانت تمثّل تقنيًا الحداثة والتقدّم.

كانت تلك الوثيقة ذات أهمية مضاعفة؛ لأنّها تقدّم أوّل صورة غير صينية لمقبض آلة، وتسجّل من أجل ذلك "لحظة حاسمة في تاريخ التقنيات"، وانطلاقا من مقبض الآلة أنجز فعلا تبعا لذلك نظام المقبض والساعد وهو عنصر أساسي

= ١١٠٨ حتى وفاته (١١٣٧). (المترجمان)

مذهب مسيحي يقوم على إجهاد النفس. (المترجمان)

(١) البندكتية رهبنة كاثوليكية أسسها القديس بندكت (Saint Benoit) حوالي سنة ٥٢٩ أظهرت انسجامًا قويًا مع مبادئ الرب. ولكنها أيضًا امتلكت روحًا فريدة من التوازن، والاعتدال، والعقلانية، وهذا ما جعل معظم الطوائف المسيحية التي تأسست طوال العصور الوسطى يعتنقونها. ونتيجةً لذلك، أصبحت مبادئها واحدة من الرهبنة الأكثر تأثيرًا في العالم المسيحي الغربي. ولهذا السبب، يُعد غالبًا بيندكت مؤسس الرهبنة الغربية.

في الآلية الحديثة (قضيب من فولاذ يسمح بتحويل حركة خطية متناوبة إلى حركة دائرية أو العكس)، لكن الرسالة الثقافية [لهذه الابتكارات] -كما ذكر ذلك لين وايت- لم تكن أقلّ أهمية، علما بأنّ بعض رجال الدين -بعد موت شارلمان Charlemagne بقليل- اعتبروا " التقدّم التقني تعبيرا عن مشيئة الربّ"، فالمسيحي الصالح كان ذلك المسيحي المتحفّز إلى العمل على تطوير الآلات.

هل كانت المسيحية في الغرب إذن "المحرّك" الرئيسي للازدهار التقني؟ لا شكّ في أنّ الإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر الهيّن، لقد عرضنا من قبل لهذه المشكلة، ويبدو من الصعب على وجه العموم العثور على "سبب" وحيد لظاهرة من هذا القبيل، ومع ذلك لم يتردّد بعض المؤرّخين في الحديث عن "الأسس المسيحية للتقنية الغربية"، فقد كان لمذهب الكنيسة حسب رأيهم دور أساسي في تطوير الآلات.

ألم يصوّر الربّ في سفر التكوين إلى حدّ ما وكأنّه "مهنس معماري" عظيم؟

ألا نستطيع -بشيء من حسن النية- أن نؤوّل فعله الخلاق باعتباره عملَ حِرَفيّ فائق القوة عظيم الذكاء؟

من ذلك المنطق كان من السهل التشريع دينيًا للموهبة التقنية للإنسان، فإنّه كان "ابن الربّ" فعلا، وهو يملك خلافًا للكائنات الأخرى روحًا سرمدية، وهو مؤهّل لأن ينعم يوما **بالسعادة الأبدية**، وصفوة القول أنّ الربّ كرّم ابن آدم وجعله خليفةً في الأرض، ومن أجل ذلك كانت عليه واجبات وله حقوق مخصوصة. حقّا لقد كانت الطبيعة أيضا مخلوقة، ومن ثمّ مسؤولة ("فالسماوات تسبّح بحمد ربّها")، لكن العالم لا بدّ له من نهاية حسب الإنجيل، فكلّ شيء في هذه الحياة الدنيا يؤكّد أنّه يحقّ لعباد الربّ ممارسة سلطتهم على الطبيعة لا سيّما سلطتهم التقنية. ألم يتأسّوا بالمثال الإلهي عندما تصرّفوا باعتبارهم مهندسين؟

منذ ذلك الحين أصبح دور الإنسان التقني جليّا، إذ كان الإنسان يساهم في ضمان عيش أناس آخرين، بتطوير المحاريث، وبتطبيق الزراعة الموزّعة على سنوات ثلاث، وبصنع النواعير، ويعمل باعتباره المتصرّف الحكيم في الخلائق.

كان لهذا التأويل الفضل في تفسير النشاط الغربي، على الأقل في بعض أبعاده، وفي إبراز ما يفصِل بين التقاليد اليونانية الرومانية، والتقاليد اليهودية المسيحية. كانت نخب العالم القديم تزدري عموما العمل اليدوي (حتى وإن كانت تروقها روعة الأعمال في الحقول والأعمال الحرفية)، وكانت أحكام اليهود والمسيحيين في المقابل تميل إلى احترام الأعمال اليدوية، وهي الأعمال التي كان العصر الوسيط يطلق عليها اسم "الفنون الميكانيكية".

إنّ الحكم الإلهي الذي مفاده: "عليك أن تحصل على خبزك [اليومي] بعرق جبينك"، يؤسّس للعمل باعتباره عقابًا، ولكنّه يضفي عليه في الوقت نفسه دلالةً روحيّة، ولقد صرّح القديس بول Saint Paul فعلا بأنّ " الذي لا يعمل ينبغي عليه أن لا يأكل"، وعلى هذا الأساس كان من السهل إسباغ الفضائل على الأعمال التقنية، فصار العمل شكلا من أشكال العبادة.

وعندما استشعرت الكنيسة ضرورة العودة إلى نقاوتها المفقودة، أصبحنا نرى رهبانا وجماعات كنسية تفرض على أعضائها تخصيص جزء من نهارهم للعمل اليدوي، ولقد أسس قديس نورسي بَنْوَا Nursie Benoît **جماعة البندكتيين** وهي جماعة كادحة كان من المفترض أن يكون لها دور حاسم في تطوير عدّة مناطق من **أوروبا** (وخاصة من بلاد الغال la Gaule)،[1] فمن الناحية الثقافية كان

---

(١) **الغال** (بالفرنسية: Gaule غال، باللاتينية :Gallia غاليا) هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهم شعوب كلتية. كانت تمتد على شمال إيطاليا وفرنسا. وبلجيكا (المترجمان)

التجديد مهمّا للغاية؛ لأنّ الكهّان البندكتيين كانوا في الوقت نفسه الأوسع علما في زمنهم والأعظم نشاطًا في الأعمال اليدوية.

لقد أوشكت الأديرة -كما لاحظ ذلك لين وايت- على أن تصبح مراكز "للتجارة الهندسية" وللإشعاع الديني في آن، فكان من ثمار ذلك الرفع من القيمة الاجتماعية والثقافية "للفنون الميكانيكية" (الفلاحة وفنّ الحدادة والناعورة والنسيج ...) ولم تزد حركة إصلاح سيتو Cîteaux[1] حوالي سنة ١١٠٠ إلا تأكيدا لهذا المسار، لقد كتب برتراند جيل Gille bertrand في القرن الثاني عشر يقول: " كان السيستيرون رهبانا وهم الذين رأيناهم قد أعادوا الحياة إلى فنّ الحدادة، وطوّروا استخدام الطاقة المائية، وابتكروا وسائل جديدة للبناء".

وممّا يأسف له المؤرّخون كثيرا ندرة الشهادات المكتوبة التي تركها الرهبان الكادحون بخصوص نشاطهم التقني، إذن لأمكننا فعلا استجلاء الجدل الكبير الذي كان قائما بين المدارس الدينية في **العصر الوسيط**، لكن ليس لدينا معلومات تذكر حول "الفنون الميكانيكية"، وحول المهارات والبحوث التي توفرت للغرب الحديث، فما سبب ذلك؟

كان ذلك بلا شكّ نتاج حظر ثقافي توارثته الأجيال القديمة مفاده أنْ لا جدوى من الكتابة عن أنشطة عرفت بقلّة نبلها أو بخساستها بعبارة أوضح.

لقد ترك لنا راهب من سنس Sens[2] ويُدعى أودورانوس Odorannus عاش في بداية القرن الحادي عشر مؤلفات في القانون الكنسي وفي اللاهوت والطقوس

(١) هو دير أنشأه روبار ملاسم سنة ١٠٩٨ في La cote d'or ليصلح به قاعدة البدائية التي وضعها القديس بانوا ويسمى المنتسبون إليه Les cisterciens (المترجمان)

(٢) محافظة تقع على نهر يون في فرنسا. (المترجمان)

الكنسية وتفسير الكتاب المقدّس وسيرة ملكة إفرنجية وأخبار حول الكابيتيون Capétiens[١] الأُوَل، ولكنّه اشتهر في زمنه بخصال الحِرفيّ، حيث صنع من بين ما صنع لديره صليبا من ذهب مرصّعًا بالأحجار الكريمة، وصنع بطلب من روبار التقيّ Robert le Pieux [٢] وعاءً للذخائر المقدّسة غايةً في الرشاقة، خُصّص لرفات القدّيس سفنيان Savinien أوّل مطران لمحافظة سانس الذي مات شهيدا، ولم يُتلف هذا الأثر الذي اشتهر كثيرًا إلا عند اندلاع **الثورة** البورجوازية سنة ١٧٨٩. لقد تحدّث أودورانوس عن ملابسات ذلك الطلب وأعطى بدقّة وزن كلّ معدن كريم قد استُعمل، وروى بعض المعجزات التي ظهرت عندما وضعت عظام القديس في وعاء الذخائر المقدّسة، ولكنّه - وهو صانع تلك التحفة- لم يقل شيئا عن التقنيات التي استخدمها. ينبغي إذن أن نلاحظ "سنّة السكوت" الضاربة في القدم والراسخة في ميدان العمل اليدوي، ولكن هنالك مع ذلك بعض الحالات الشاذة التي تشدّ الانتباه ينبغي أن نذكر في مقدّمتها البندكتي الألماني تيوفيل Théophile ورسالته حول مختلف الفنون الميكانيكية.

---

(١) **الكابيتيون** سلالة تضم كل من ينسب إلى أوغو كابيه ملك فرنسا. ملك إسبانيا خوان كارلوس، ودوق لوكسمبورغ الأكبر هم أعضاء من هذه العائلة وكلاهما من خلال فرع سلالة بوربون. انتهى حكم سلالة الكارولينجيون (Carolingiens) لمملكة الفرنجة سنة ٩٨٧ م. وفي هذه السنة تُوّج الدوق أوغو كابيه (*Hugues Capet*) ملكاً للبلاد وبذلك حلت سلالة جديدة هي الكابيتيون (Capétiens). قام أحفاد كابيه بتوسيع رقعة الأراضي الملكية (le domaine royal)، وأحكموا دعائم الدولة الجديدة منذ القرن الثاني عشر. حكمت السلالة الكابيتية وفروعها فرنسا حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م. (المترجمان)

(٢) هو الملك الثاني من السلالة الكابيتونية الحاكمة في مملكة الفرنجة دام ملكه من سنة ٩٩٦ إلى سنة ١٠٣١. (المترجمان)

يبيّن هذا الكتاب الذي يعود إلى السنوات الأولى من القرن الثاني عشر إلى أيّ مدى كان الرهبان منشغلين بآخر ما يُبتكر في زمانهم من تقنيات، ومن بين الميادين التي خبرها تيوفيل نذكر علم المعادن، وكان أوّل من وصف التقنية التي تسمح بصنع خيط معدني، وهو أيضا أوّل من شرح كيفية قصْدَرَة الحديد بتقنية التغطيس، وتحدّث عن صناعة النواقيس الضخمة وفنّ تلميع الكؤوس، ولقد وصف كذلك طريقة جديدة قليلة التكلفة في صناعة البلّور، وثمّة إسهام آخر يعدّ مهمّا من وجهة نظر تاريخ الآلية، يتمثّل في كونه أوّل من اعتبر العجلة ذات الزعانف كفيلة وحدها بتعديل الحركة والالتجاء إلى المقبض كلّما دعت الحاجة، كان البندكتيون إذن بطريقتهم في ذروة "التقدّم"، وكانوا لا يتأخرون إذا لزم الأمر في إنجاز "المشاريع الكبرى"، فكانوا ينشئون القنوات ويجفّفون السِّباخ.

إنّ مؤرّخي القرن العشرين الذين نسبوا إلى **الكنيسة** دورًا حاسمًا في ازدهار التقنيات لم تكن تعوزهم الأدلة على ذلك إذن، فلقد أبرزوا كذلك أنّ العلوم الدينية حدّدت مفهومًا للطبيعة يتماشى تمامًا مع طموحات التقنيين، وبالفعل كان يُنظر إلى عناصر الطبيعة في الديانات الوثنية على أنها كائنات حية تسكنها "أرواح" و"أشباح" و"جنّة"؛ فعين الماء (أو الشجرة) لا تختزل في بعدها الفيزيائي أي المادي، هي أكبر من ذلك، إنّها كائن له حياة خاصة به، ومن ثمّ يصبح من الطبيعي جدّا احترام عين ماء بل عبادتها إذ من خلالها يُرى تجلٍّ **للطبيعة** عجيب، وكانت تُعدّ مُفعمة بالحياة هي أيضا. يُذكَرُ أنّ **الأرض** كانت تُعَدّ جهازا عضويا ضخما، (كان اليونان يسمّونها **الأرض- الأمّ**)، حتّى المعادن بدت متضمّنة نوعًا من الحياة، وجميع الموجودات الفردية تأتلف بصورة عجيبة داخل **الكلّ** الذي لا تمثّل البشرية نفسها إلا جزءًا منه.

لقد أضحت هذه النظرة حول الطبيعة في المسيحية (وهي دين يزعم التفوّق على ما سواه من الأديان) محلّ ازدراء، من ذلك أنّه حرّم عبادة منابع الماء كما لو كان لها حرمة خاصة بها، وينبغي أن تتّجه عبادة الناس كلّها إلى **الإله** المسيحي وإليه وحده، ولقد قاوم الوثنيون طويلا، وحتّى في بلد مثل فرنسا كانت الكنيسة بعد نهاية **العصر الوسيط** تذكّر المتخلّفين الذين يأبون التخلّي عن عباداتهم القديمة بواجب الالتحاق بالركب. صحيح أنّ الطبيعة التي خلقها الربّ تمتلك إلى حدّ ما قيمة روحية، غير أنّ تحوّلًا جذريا قد حدث، فلم يعد التراب والهواء والماء والنار التي فقدت روحها إلاّ أشياء يقلّبها الإنسان التقني كيف شاء، لقد عنّف الوثنيون أنفسهم الطبيعة بلا ريب (ولا أدلّ على ذلك من تخريب الغابات)، ولكنّ التقاليد اليهودية المسيحية بدافع من عقائدها كانت تشرّع رسميًا لشكل من المشاريع التقنية الأشدّ جرأة. فهل يفسّر هذا الشرح حقيقة الأسباب التي جعلت أوروبا المسيحية تنشغل مبكّرا جدّا بالتكنولوجيا؟ كانت لدى بعض المؤرّخين - وهم كُثْر- شكوك في ذلك، لقد كانوا مستعدّين للقبول بفكرة أنّ الكنيسة نهضت بدور مهمّ، ومن البديهي أنّ المسيحية كانت أكثر ملاءمة لتطوّر النشاط التقني من الروحانيات الكبرى في آسيا؛ ولكي نقيس الفارق الذي يفصل الصين عن أوروبا، فإنّ الشرح الذي سبق تقديمه يعتبر مفيدا إذن.

لكن هل كان كافيا؟ لقد طرح لين وايت بذكاء سؤالا مفاده " لماذا لم تُبْدِ **الكنيسة** المسيحية في الشرق الحماسة التقنية نفسها التي أظهرتها **الكنيسة** المسيحية في الغرب؟

لقد انفصلت **الكنيسة** البيزنطية عن الكنيسة الرومانية خلال القرون الأولى **للعصر الوسيط** -كما نعلم- (وهو ما سمّي بالخلاف المشرقي).

كانت هناك إذن في العصر الذي نتحدّث عنه ساحتان ثقافيتان كبريان تنتسبان إلى المسيحية، وهما الكنيسة الأرثوذكسية (الشرقية) التي كانت تتكلّم باليونانية، والكنيسة الرومانية التي كانت تتكلّم باللاتينية، ولكن هذه وتلك كانت لهما المعتقدات نفسها والمبادئ الأساسية نفسها -رغم اختلافهما حول بعض النقاط الدقيقة-، فإذا كانت العلوم الدينية الحافز الحاسم على الابتكار التقني، فقد كان ينبغي على البيزنطيين اتّباع طريق مماثلة لطريق المسيحية اللاتينية. كيف نفهم إذن أنّ المسيحيين الأورثوذكس كانوا منذ البداية أقلّ جرأة بكثير وأقلّ "تقدّمية" من إخوانهم في الغرب؟

إذا أردنا أن نفهم طرافة الثقافة الغربية الحديثة، فينبغي علينا إذن أن نجد تأويلاً أدقّ، فما الذي ميّز بين **الشرقيين والغربيين**؟ ولمّا كانت المبادئ هي نفسها تقريبا علينا أن نسلّم بأنّ الكنيستين كانتا لا تؤوّلانها بالطريقة نفسها في المستوى الروحي، وباختصار كان اليونانيون يميلون إلى التأمّل وفي المقابل كان اللاتينيون ينزعون إلى الفعل بوضوح، وكان الأمر يتعلّق بعبارة لين وايت "بفارق في النبرة"، فبينما كان اليونانيون يعتبرون أنّ سبب الخطيئة هو الجهل بها، وأنّ "الخلاص يأتي بفضل الإشراق" كان اللاتينيون يرون في الخطيئة فسادًا أصليًا، ولكي يسعف المرء نفسه ويولد من جديد عليه إذن أن "يربّي إرادته" ويعمل الصالحات.

ومن البديهي أنّ وراء التعارض بين النظرة التأمّلية والنظرة النشطة تختفي سلسلة من المجادلات المذهبية الخالصة، لقد احتدم ذلك الجدل في العصر الوسيط مثل معرفة ما إذا كانت مريم التي تمثّل الحياة التأمّلية متفوقة فعلا على مرثا Marthe[1] التي كانت رمزا للحياة العملية، ومن البديهي أيضا أنّ هيمنة

---

(١) شخصية وصفها في الكتاب المقدس الإنجيل لوقا ويوحنا. جنبا إلى جنب مع أشقائها لعازر ومريم، وصفت أنها تعيش في قرية العيزرية قرب القدس. وكانت مرثا مشغولة =

أسلوب مخصوص عند كلّ فريق لا تمنع ظهورا للأسلوب الآخر، فكثير من المسيحيين لا وعي لديهم فعلا بأنّهم على هذا المذهب أو ذاك، ومع ذلك كانت الفوارق مذهلة، ينوء المستقبل تحت ثقلها، وكان لطريقة تصوّر الإله الخالق نفسها نتائج ثقافية، وكان لكيفية تصوّر الإله الخالق نفسها انعكاسات ثقافية مؤثّرة على نطاق واسع.

كان التصوّر التأمّلي لله مقبولا لدى المسيحيين الغربيين والشرقيين على حدّ سواء على مدى قرون عديدة، إذ كان الربّ يوصف في عليائه بأنّه القوي الهادئ في حاكميّته، إذ بقوة الفكر فقط أنشأ الكون من عدم؛ ومن أجل ذلك عُدّ الخلق عملية روحيةً أساسًا تضفي على كلّ شيء وعلى كلّ كائن دلالة روحية أيضا، ومن أجل ذلك كان المسيحيون في الغرب نفسه يتصوّرون العالم باعتباره شبكة من الرموز والعلامات التي يتعيّن فكّ أسرارها، فهذا العالم "عالم محسوسات" قطعا، ولكن كان من الأجدر اكتشاف دلالاته عوضًا عن تحليله بمصطلحات علمي الفيزياء والكيمياء.

ولكن شهدنا حوالي سنة ١٠٠٠ طريقة جديدة للغاية لتمثّل **الخالق**، تظهر لنا زخارفُ تنسب إلى راهبة بندكتية بونشستر Winchester الإلهَ وقد أمسك بسلّم ومثلّث وفرجار (بركار)، وهي أدوات لمهندسين "معماريين" ومهندسين آخرين، ولسنا في حاجة إلى تأكيد الأهمية الثقافية لهذه المبادرة، إنّها تعني أنّ الإله نفسه في الغرب كان مؤهّلا لأن يكون مهندسًا.

= بخدمة السيد المسيح، وهي التي قال لها السيد المسيح: «أنا هو القيامة والحياة»، مثيرًا اعترافها بالإيمان: «أنا أؤمن أنك أنت المسيح ابن الربّ». وتُعتبَر القديسة مرثا شفيعة المهتمين بخدمة المحتاجين، وتُعيِّد لها الكنيسة الغربية في التاسع والعشرين من شهر يوليو. (المترجمان)

كانت بعض نصوص الإنجيل تشرّع لهذه الجرأة، إذ يمكننا أن نقرأ في سفر **الحكمة** مثلا ما يلي: " لقد نَظَّمْتَ كلّ شيء وفق العدد والوزن"، فبالنسبة إلى رجل دين اعتاد على العمل اليدوي تثير هذه الكلمات لديه مباشرة النشاط "العقلاني" للمعماريين والتقنيين، ولقد شاع هذا النمط من التمثّل وصار مبسّطًا (فالإله لم يمسك بيده سوى الفرجار (البركار))، ومع ذلك لم يتبنّه المسيحيون الشرقيون قطّ، فجعْلُ الإله تقنيّا كان في رأيهم تصورًا لا يليق به.

بهذه البدعة انفصل **الغرب** اللاتيني عن المسيحيين اليونان، وأكّد مذهبه في الإرادة الفاعلة، وربما وجد **الخالق** في تلك البدعة مراده وكذلك التقنيون، فإذا كان الإله مهندسا كبيرا ألا يحقّ من ثمّ اعتبار مهندسي الأرض آلهة صغارا؟ يوجد مثال آخر يؤكّد تواطؤ المسيحية مع التقنية، وقد بلغنا بأنّ الراهب الذي يعود إليه الفضل في إبداع الأيقونة الآتي ذكرها كان من ونشستر، وقد ثبت أنّ البندكتيين قد صنعوا أوّل أرغن[١] عملاق في الغرب ووضعوه في كاتدرائية تلك المدينة، وكان يحتوي على ٤٠٠ أنبوب، وعلى ٢٦ منفاخًا يحرّكها ٧٠ رجلا، ويعود تاريخ صنع هذه التحفة إلى القرن العاشر، كان الأرغن في ذلك الزمان يمثل الآلة الأكثر تعقيدا

---

(١) في الموسيقى **الأرغن** organ من اليونانية *ὄργανον organon* بمعنى آلة أو أداة، هي آلة موسيقية هوائية ذات لوحة مفاتيح تشبه لوحة البيانو تعمل بوساطة سريان الهواء في أنابيبها المصوّتة، ويتمّ بالضغط على المَلامِس بعث الهواء المضغوط المخزون في جسم الأرغن وتوزيعه على أنابيبه، وهنا تكمن وصعوبة التقنية فيه. والأرغن من أكثر الآلات الموسيقية تعقيداً وما نشاهده في شكله الخارجي إنما هو جزء قليل منه، وأما ما يرى مباشرة من تركيبه الداخلي فيؤلف الجزء الأكبر. وتعود شدّة تعقيده إلى أجهزته الداخلية ودقّة تنظيمها البنائي والآلي إضافة إلى ضخامة الهيكل الخارجي. فلا عجب لذلك أن يطلق عليه لقب «ملك الآلات الموسيقية» لأنّه أضخمها حجماً وأوسعها مدًى صوتياً وأغناها مميزات في الطابع الصوتي. (المترجمان).

التي أمكن لفنّ الهندسة أن ينتجها، وها هو ذاك العملاق يزيّن بيت **الرب**... يبرهن هذا الحدث وحده على المدى الذي بلغه **الغرب** في الابتداع؛ ذاك أنّ **آباء الكنيسة** سواء أكانوا يونانيين أم لاتينيين قد عارضوا بشدّة استخدام الآلات الموسيقية في الطقوس الدينية، وكانوا يعتقدون أنّ الصوت الآدمي غير المصحوب بالآلات الموسيقية هو القادر وحده على تمجيد الربّ، وهو وحده القادر على أن ينافس أصوات الملائكة، وكانت **كنيسة الشرق** وفيّة لهذا المبدأ (وينبغي أن تبقى كذلك)، وبإدخال الأرغن إلى الكنائس أخذ **الغرب** قرارًا ذا رمزية بالغة الأهمّية، إذ لم يتمّ تأهيل المهندس فحسب، بل تأهيل الآلة في حدّ ذاتها. إنّ المقارنة مع كنيسة الشرق قد بدت لنا إذن مثمرة جدّا، فلا يكفي أن يكون المرء مسيحيا حتّى يكون شغوفا بالتقنية.

كان الكتاب المقدّس يحتمل -كما رأينا- تأويلات يمكن لـ "الفنون الميكانيكية" أن تستفيد منها، ولكن ذلك لا يفسّر الخيار الذي اتخذه **الغرب**، كلّ ما نستطيع قوله هو أنّ المسيحية لم تكن حجر عثرةٍ أمام تقدّم التقنيات، وأنّ الرهبان أنفسهم قد ساهموا على وجه العموم في ذلك بحماس، وإنْ شذّ عن هذا التوجّه كثير منهم، ففي إيرلندا مثلا أنشأ القدّيس كولوبان Colomban مذهبًا كنسيًا يعتبر العمل كفّارة عن الذنوب، ونشاطا منفصلا عن الصلاة تماما، ولقد كرّس مارتن دي لاون Martin de Laon -وهو إرلندي الأصل- ديمومة هذا التقليد، فلقد أخذ على عاتقه في القرن التاسع التنديد بفنّ الآلات؛ لأنّه يستهدف ببراعةٍ تضليل الناس (عن طريق التسيير الآلي مثلا)، ولا ننسى أنّ الكلمة التي تطلق على الآلة في اللغة اليونانية تعني كذلك الحيلة[1] ولقد ذهب مارتن لاون أبعد من ذلك

---

(١) ومنها كان «علم الحِيَل» عند المسلمين (المترجمان)

حين اشتقّ لفظ " ميكانيكا" "(الآلية") من كلمة إغريقية تطلق على الزنا، وكان هذا الاشتقاق خاطئا، ولكنّه كان يترجم عن استهجان واضح للتقنيات...

لم تكن العلاقات إذن بين المسيحية وعبادة الآلة بسيطة، ولقد اصطدم فريق بحثنا مرّة أخرى بلُغْز، إذا كان من المستحيل عمليا الرجوع إلى "لحظة أوّلية" رسمت بداية الخلاف بين **كنيسة الشرق وكنيسة الغرب**، كان ينبغي علينا التخلّي عن البحث في الدافع الذي جعل كنيسة الغرب تظهر مبكّرا مثل ذلك الإعجاب الشديد بـ" الفنون الميكانيكية".

والحقّ أن التطوّر التقني كان مسألة دينية في الأصل، كما أكّد ذلك الأستاذ دوبان؛ ذلك أنّ موضوع التقدّم لم يكن من إبداعات الكنيسة، ولكنّها سرعان ما تبنّته، وأسّست له بكلّ حماس وبراعة. ولو لم تضع طاقاتها الروحية والعقلية الهائلة في خدمة الآلية لبقيت الطاحونة وكور الحدادة ودولاب الغزْل كما كانت، أي مجرّد أدوات مادية، ووسائط سهلة الاستعمال، ولكنّها دخلت المعترك، وبتشجيع منها لم تتطوّر التقنيات فقط، بل لقد أسّست لنمط عيش جديد ولتصوّر للعالم عظيم. لم يترك الأستاذ دوبان مناسبة إلاّ ذكر عبارة سائرة في القرن العشرين هي: " إذا كانت الحضارات الأخرى قد ابتكرت آلات، فالغرب المسيحي وحده هو من ابتكر **الآلة**".

كنّا قد لاحظنا منذ القرن التاسع قبولا ضمنيّا بفكرة مفادها أنّ المسيحي الصالح هو ذاك الذي يهتمّ بالميكانيك، ومنذ السنوات الأولى من القرن التاسع علّق الإله شارات المهندس، وهي لعمري بدايات واعدة، ولكن إذا أردنا أن نقيس مدى عشق التقنية في العصر الوسيط فينبغي أن نولّي وجوهنا شطْر الساعة الحائطية.

لم تكن الساعات المائية دقيقة قطّ، ففيها مساوئ كثيرة، إذْ سرعان ما تتوقّف عـن العمل بمجرّد تجمّد مفاجئ، فكيف السـبيل إلـى تحقيق الأفضل؟ لقد انكبّ الخبراء أواخر القرن الثالث عشر في مناطق مختلفة من أوروبا على المشكلة بجدّ، وتصوّروا حلولا متنوّعة، وفي حدود سنة ١٣٣٠ وقع في النهاية تعميم آلة متميّزة، سرعان ما وجدت طريقها إلى النجاح، وهي الساعة الميكانيكية ذات الأثقال، كان الابتـكار الأطْـرف يتعلّق بتعديـل الحركة بفضل "المنفذ"، وهو آلية بسـيطة وذكية، تسـنّى من خلالها الحصول على حركة موحّـدة وقياس للزمن بطريقة دقيقة، ومنذ ذلـك الحيـن لـم يعـد "مرور الأيام" كمـا كان من قبـل، لا لأنّ طريقـة إدراك الزمن سـتتغيّر جذريا فحسـب، ولكن لأنّ الأنشـطة البشـرية سـتكون خاضعة أكثر فأكثر لمقتضيات الآلة الجديدة.

لقد سجّلت الساعة من الناحية الثقافية -كما فسّر ذلك جاك لوغوف- قطيعة كبـرى، ففي السـابق كان الزمن "نوعيـا"، وخاضعا لإيقاع أجـراس الكنائس، فدقّة صـلاة التبشـير التـي كانت دينيـة وريفية خالصة، كانـت في الوقت نفسـه زمنا مرِنا مفعمًـا بالحيـاة، إن صحّ القـول. كان مرِنا لأنّ دقّته ليسـت متناهيـة (إذا ما قورنت بمعايير الضبط "الحديثة")، وحيّا أيضا لأنّ الأجراس تتغيّر بتغيّر الفصول، وبعبارة أخرى كان الزمن البشـري موافقا للزمن الكوني، فناقوس صلاة التبشـير الصباحية كان يـرنّ باكـرا في الصيـف، وفي سـاعة متأخّرة أثناء الشـتاء، ومع ابتكار السـاعة فُرض إطار زمني آخر أشـدّ صرامة بلا شـكّ، ولكنّه موغل في التجريد، فالساعات ذاتها تغيّر حالها. قديما كانت الساعات تتغيّر اثنتي عشرة ساعة لليل واثنتي عشرة سـاعة للنهار، ومن ثمّ كانت سـاعة النهار في الشـتاء أقصر منها في فصل الصيف، وبمجـيء آلة قياس الزمن، أصبح ذلك المتنفّس الذي يميّز السـاعات قد عفا عليه الزمـن، وفـي سـنة ١٤٠٠ تقريبـا وضـع حيّـز التطبيق النظـام الحديث "للسـاعات

المتساوية"، ومنذ ذلك الحين صار الزمن كمّا خالصًا، وصار بذلك ملائما للتاجر كلّ الملاءمة.

لقد قدّر -وهو الإنسان الكمّي بامتياز- أنّ الساعة ستعينه على القيام بأعماله على نحو أنجع، وعلى الاستعمال الأمثل لوقته ولوقت الآخرين، وفيما يتعلّق بعقود العمل أصبح المتعاقد يعلم جيّدا عمّا يتحدّث، فلقد بادر البورجوازيون إذن بتنظيم عبادة الزمن الميكانيكين، ولم تكن الساعة الكبرى لبرج قصر البلدية تمثّل رمزا للترف فقط، وإنّما كانت عاملًا قويًا من عوامل النجاح الاقتصادي، ومنذ القرن الرابع عشر نهضت تلك الساعات الحائطية بالفعل بدور ضوابط الوقت، وبالمناسبة كان العمّال الغاضبون يجتهدون في إعطابها، وكان ج. لوغوف يتحدّث عن زمن الكنيسة وعن زمن التجار، في إشارة منه إلى هذين النظامين في تقسيم الزمن.

ولكنّ التاريخ لم يتوقّف عند ذلك الحدّ، فقد انبهرت الكنيسة نفسها بالساعات الحائطية، وما إن دخلت حيّز الاستعمال في الحياة اليومية حتّى سارع رجال الدين إلى تزويد الكنائس بها، فلم يضعوها في الأبراج فحسب، وإنّما وضعوها داخل دور العبادة أيضا، وكان ذلك بمثابة إصابة هدفين برمية واحدة، فالساعة تتيح بالفعل معرفة التوقيت، ولكنّها تتيح أيضا إبراز النظام الإلهي في الكون إبرازا تامًا (على حدّ قول لين وايت)، وكانت هذه الآلة متعدّدة الوظائف حتمًا تلبّي أدنى الرغبات للبعض، وأرقى الطموحات للبعض الآخر. إنّ التقنية تؤدّي إلى كلّ شيء، فالبورجوازي يمكنه بعد استعماله ساعةَ برج الكنيسة طيلة أيام الأسبوع أن يتزوّد روحيّا يوم الأحد بتأمّله الحركة الدقيقة لعجلات الساعة.

ذلك أنّ الكنيسة كانت تفكّر كالآتي: لمّا أعادت الساعة بطريقتها دورة الشمس

اليومية، فإنّها كانت تدعو المؤمن إلى التفكّر في النظام الذي أودعه الربّ في الكون، لقد ورد في الكتاب المقدّس (ولقد عرَضنا لذلك) أنّ **الخالق** قد اتّبع في خلقه "القياس والعدد والوزن"، وكانت الساعة ذات الأثقال تجسّد ذلك النظام المثالي بدقّة، كانت تذكّر الناس **بذكاء** الإله القويّ المُتَعال، وينبغي أن نعترف بأنّ هذا الأسلوب الإرشادي الذي يستخدم الصورة منسجم مع ذاته فالميكانيكا المُتَرَوْحِنة صارت تنهض بدور الوساطة بين الإنسان والإله.

هكذا تبرز طرافة **الغرب** مرّة أخرى، إذ كانت الكنيسة الشرقية لا تسمح فعلا بوضع الساعات داخل الكنائس، وكان وضعها في الخارج مباحًا، ولكن في مبنى على حِدَة؛ فالكنائس لم تُبن لتستقبل الزمن الميكانيكي، ولكن لكي تُشعر الناس بالسرمدية الإلهية، لقد كتب لين وايت يقول: "إنّ حضور الساعة كان يمكن أن يدنّس الأبدية بالزمن"، ذلك لأنّ الأبدية ليست مدّة غير محدّدة فحسب، بل لأنّها توجد خارج الزمن.

لم يكن لرجال الكنيسة الغربيين إحساس بهذه الحقيقة، حيث كان تأثّرهم بالتقدّمية النشطة قد جعلهم يبدون فضوليين بصورة لافتة للنظر، إذ ماذا فعل **المهندس الكبير** لكي يصنع الكون؟ لقد وفّرت الساعة إجابة عن هذا السؤال، لقد استعمل الربّ موارد الميكانيك، والدليل على ذلك أنّ الإنسان عندما رتّب عددا من العجلات ترتيبا مدروسا استطاع أن يحاكي حركة الكواكب بطريقة تكاد تكون مثالية. فكيف نشكّ في أنّ الإله نفسه قد تخيّل وضع ساعة سماوية ضخمة جدّا؟

كان هذا التأويل من البداهة بحيث جعل التقنيين الغربيين يصنعون ساعات خارقة أكثر فأكثر، وإثر ما يزيد عن الخمسة عشر عاما من العمل تمكّن جيوفاني دي دوندي Giovanni de Dondi سنة ١٣٦٤ من تشغيل آلة لا ترسم حركة

الشمس فقط، ولكن ترسم مسار القمر ومسار خمسة كواكب أخرى كذلك، بل وأكثر من ذلك، كانت تقدّم روزنامة دائمة وتضبط الأعياد الدينية كلّها (سواء أكانت تلك الأعياد ثابتة مثل عيد الميلاد أم متغيّرة كعيد الفصح)، ولم يكتف جيوفاني دي دوندي بصنع العجلات السبع بعد المئة وعرضها بنفسه، وإنّما قدّم وصفا كتابيا شاملا لها، مرفقا برسوم بيانية عديدة، وهو ما أتاح لبعض التقنيين المحدثين في القرن العشرين التوصّل إلى صنع نموذج من تلك الساعة يشتغل بصورة مثالية، (وقد أقيمت بمؤسسة ثميسونيون Smithsonia بمدينة واشنطن)، وينبغي أن نشير إلى أنّ جيوفاني هذا كان أستاذا في الطب والتنجيم في مدينة بادو Padoueثمّ في مدينة بافي Pavie.

وإذا كان قد صنع ساعته الكبيرة، فلحاجته إليها في مهنته، فلكي يعالج الطبيب مرضاه كان عليه أن يستخرج أبراجهم الفلكية حتّى يتسنّى له أن يعرف متى يعالجهم بالحجامة أو بالفصد، وحتّى الفلكيون قد استفادوا إذن من تلك الآلة العجيبة.

لقد تطوّر فنّ صنع الإنسان الآلي بالتوازي مع فنّ الساعات الحائطية؟ إذْ يكفي الجمع بينهما للحصول على مشاهد فاتنة، ففي القرن الرابع عشر وضعت "ساعة حائطية فلكية" داخل كاتدرائية ستارسبورغ احتفاء بسلطان الآلة، وكانت هناك شخوص شبه مقدّسة تنشط على مرّ الساعات وفق كتاب طقوس محدّدة بعناية، وكان ذلك بمثابة احتفال حقيقي بالنسبة إلى أهل تلك المدينة، وكانت مثل تلك التحف الفنية باهظة الثمن، ولكنّ رجال الدين والبورجوازيين كانوا ينفقون الأموال فيها عن طيب خاطر.

تبقى نقطة تفصيلية لابدّ من ذكرها، فعلى عكس ما كان يحدث في أواخر

العصور القديمة كانت تلك الإنجازات تقدّم على الملأ كما هي، ولم يكن الأمر يتعلّق بمخادعة العامة بحملهم على الاعتقاد بأنّ الساعات الحائطية والإنسان الآلي كانت تتحرّك بمعجزة من **الرب** أو من **روح القدس**. كان فنّ المهندسين يحظى بإعجاب الناس لذاته، هكذا كانت تُربّى جموع الناس "المتمدنة" شيئًا فشيئًا وبخطى ثابتة؛ فبفضل **الكنيسة** كانت عبادة الإله يصاحبها بأسلوب نفسي ناجح جدّا تمجيد الآلة، ولا ريب في أنّ تعليق الأستاذ دوبان كان مبالغا فيه، ولكنّه كان لا يخلو من وجاهة " كان لدعوة الناس إلى الإقبال على الآلة في الغرب حظّ عظيم منذ وقت مبكّر".

ولكن كان ينبغي على الكنيسة أن تبذل جهدا أكبر حتى تتمكّن من إدماج التقنية في منظومة القيم المسيحية، وكما سنلاحظ ذلك بخصوص قيمة **التزهد**، فقد ذهبت السلطات الدينية مذهبًا جعلها تعدّل بعضًا من عقائدها الأساسية لتتلاءم مع مقتضيات الآلة، ويمكن تلخيص المشكل كالآتي: ما هي الفضيلة الأسمى؟ كان للمسيحي في **العصر الوسيط** الخيار من بين سبع فضائل إذا أمكن القول، كانت ثلاثة منها توصف باللاهوتية، وتنضوي تحت التقليد المسيحي الكبير ألا وهي **الإيمان والرجاء والإحسان**، وحسب القديس بولس وكثير من مراجع الدين الآخرين **فالإحسان** (ويعني به **الحبّ**) هو أوّل الفضائل وأعلاها على الإطلاق، وبداية من عهد الكارولنجيين[1] أضيفت إليها سلسلة من أربع فضائل أخرى (تدعى بالكردينالية) ألا وهي **التحوّط والقوة والتزهّد والعدل**.

---

(١) هم سلالة من ملوك الفرنجة حكمت أوروبا من عام ٧٥٠م حتى القرن العاشر. يُسمّون أيضاً البيبنيون نسبة إلى بيبين الأول والأرنولفينجيون نسبة إلى القديس أرنولف متز. سمّيت السلالة بالكارولنجيين نسبة إلى كارل مارتل، وتعزز هذا الاسم بسيرة شارلمان مؤسس إمبراطورية الفرنجة والذي كان يحكم حتى ٨٤١م. وكانت له علاقات ودية ومراسلات مع أمير المؤمنين هارون الرشيد في بغداد وكانا يتبادلان الهدايا. (المترجمان)

لـم تكـن تلك الفضائـل التي أخذت عـن الوثنيين تتبوّأ سـوى مكانـة ثانوية، وكانت مفيدة خاصة في تسـيير أمور الناس، حيث كانت فضيلة التزهّد -كما أشـار إلى ذلك لين وايت- واهيةً على نحو لافت للنظر، خاصة في زمن كان الكهان فيه لا يعوزهـم الحمـاس ولا الاندفاع؛ فأن تكون زاهدا هو أن تُظهِر قدرتك على كبح جمـاح الشـهوات والأهواء، وأن تكـون رصينًا وتتجنّب الغلوّ، وهو فضيلة سـلبية إلى حدٍّ ما.

لكن العالم الجديد سيُغيّر الوضع رأسا على عقب، فلقد كتب راهب دومينيكي كان يلقّـب بسـوزو Suso سـنة ١٣٣٤ أثرًا لقـي نجاحًا كبيرا في **أوروبا الشـمالية**، وكان يحمـل عنوان سـاعة الحكمـة. لماذا هذا الجمع بين السـاعة والحكمة؟ لقد فسّر سوزو في مقدّمة كتابه أنّه كان يريد إيقاظ المسيحيين من سباتهم؛ كي يقودهم إلـى حيـاة فاضلة، وكانت سـاعته إذن بمثابة منبّه صباحـي روحي، ولقد أوضح أنّ تلك الآلة المجهّزة بآليات دقيقة ينبغي أن "تسـتهوي قلوب الناس جميعا بجمالها المركّـب"، أمّـا **الحكمة** فلم يكن سـوزو يُمَاهِـي بينها وبين حديث المسـيح فقط، ولكنـه كان يماهـي بينهـا وبين التزهد أيضـا، وهو ترميق[1] روحـي ومجازي يبدو مباركًا في ظاهره، ولكنه سيفضي إلى مسار مهمّ.

كانت فكرة **الحكمة** الإلهية فعلا مرتبطة أكثر فأكثر بالساعة، ففي زخرفة تعود إلى القرن الخامس عشـر حفظت في **المكتبة الوطنية** يمكننا رؤية الملك **سـليمان** وهـو بصدد إصلاح سـاعة حائطية ضخمـة، والحال أنّ سـليمان -كما نعلم- كان أعظم ممثّل **للحكمة** الإلهية، فها هو من الآن فصاعدا يصلح ساعة حائطية تشتغل

(١) الترميق هو التَّلْفيق من قول العرب: رَمَّق الكلام لفّقه شيئا فشيئا، ورمّق في الشيء بالغ في عمله ولم يُحْسِنْهُ. (المترجمان)

بالكتـل الحديديـة، مصحوبًا بأدواته الظاهـرة عند قدميه. لقد تغيّـر مجال الحكمة -بلا شك- من صفة إلهية تختصّ بها الذات العلية إلى ضرب من ضروب الكفاءة التقنية، وتبعا لذلك، أصبح **ضبط النفس** فضيلة بارزة أكثر فأكثر بالرجوع دائما إلى نمـوذج السـاعة، وبالفعـل لقد كان **ضبـط النفس** في القرن الخامس عشـر يُجسَّـد مجازا في كثير من المخطوطات بامرأة تحمل فوق رأسها ساعة عوضا عن مظلّتها، ولقد قرأنا ذلك بوضوح فما يميّز **ضبط النفس** في الرسوم الأيقونية كان هو الساعة التي تعلو رأسها دائما، كانت الرسالة واضحة: فالإنسان الرصين هو من كان يعدّل حياته ونشـاطه بحسـب الزمن الآلي، ولـم تكن السـاعة آلة مفيدة فقط، وإنّما كانت تجسّـد قيمًا أخلاقية أيضا، وكانت تكتسـي صبغة سـيّدة أصيلة ترمز إلى الانضباط والعقلانيـة والنجاعـة، وفي زمن مازال فيه للكنيسـة نفوذ واسـع كان مجرّد تقديم نمـط الحيـاة الجديد علـى أنّه فضيلة بمثابـة اعتراف به من قِبَلهـا، ولقد أخذ **ضبط النفس** في عديد من الزخارف أبعادًا أخرى لا تقلّ أهمية.

لقد كانت تُجسّد في البدء بشكيمة في الفم (ومعها العنان)، وكان ذلك يعني أنّ على الرجل الرصين أن يضبط نفسه، وأن لا يتحدّث كثيرا، أو على الأقل أن لا يتحـدّث بالفاحـش من القـول، وكانـت تحمل أيضا بيديهـا نظّارة، وهـي تفاصيل تبعـث على الاسـتغراب، ولكن كان لها معنى دقيق للغايـة، فالنظارات كانت ترمز في المستوى الأخلاقي إلى التبصّر، ولكن كانت تشير في الوقت نفسه إلى إحدى أكبر ابتكارات **العصر الوسيط**، وبالفعل فقد ظهرت النظارات الأولى أواخر القرن الثالث عشر في منطقتي بيز Pise ولوك Lucques. فبفضلها صارت القراءة ممكنة إلى سـنّ متقدّمة، وهو الأمر الذي حدا بأحد الدومينيكان إلى تحرير موعظة رائعة حـول التقـدّم التقني (" لن نـرى لهذا التقدّم نهاية، وكلّ يوم يمكننا أن نخترع شـيئا آخر جديدا ")

لقد طُوِّع ضبط النفس بداهة ليصبح فضيلة تلائم الحسّ "الحداثي" كلّ الملاءمة، فلقد كانت تجسّم إضافة إلى ذلك واقفة على ناعورة من النواعير الهوائية (وحتّى على ناعورة متطوّرة جدّا كانت قد صنعت أخيرا: إذ بُني برجها من الحجارة، وصُمّم أعلاها بطريقة تجعلها تدور على محور، يمكّن من توجيه أجنحتها الوجهة المناسبة)، ومرّة أخرى تلتقي الأخلاق بالتقدّم. كانت الناعورة آلة مفيدة تذكّرنا بضرورة الثبات والنجاعة في بذل الجهد.

لقد خلص لين وايت إلى القول بأنّ جميع المبادئ العامة التي يمكن أن تقود حياة البورجوازي قد اجتمعت، فأن يكون معتدلا في شهواته، مقتصدا حكيما منضبطا حسّابا وناجعا كالنملة، فذلك ما يتيح للإنسان "الرصين" أن يجمع ثروة ويسيطر على العالم.

ولم يُدمج المهندسون المهيّؤون للابتكار إدماجًا تامًا في عالم المدن التجارية فحسب، وإنّما كانت وظيفتهم محمودة من الناحية الروحية، ولقد أصبحت آلية الساعة الحائطية بفضل مباركة الكنيسة مثالا مطلقا تقريبا، ففيها تجتمع مُثُلُ التقدّم التقني والنجاعة الاقتصادية والسلوك "الفاضل".

لقد كان ذلك انتصارا للبورجوازيين تحقّق بلا عنف، ولكنّه كان حاسما من الناحية الثقافية، فقبل ذلك ببضعة قرون كان الإحسان هو القيمة الأسمى في الغرب، وكان يقصد به حبّ الربّ وحبّ الناس، ولكنّ هذه القيمة لم تكن لتصمد أمام هجمات الإنسان الاقتصادي والإنسان التقني، وفي هذا السياق عثر المؤرخون على شهادة مذهلة، ففي ١٤٥٢ اتّخذت السلط بمدينة روون Rouen قرارًا بتمجيد ذكرى نيكولاس أورازم Nicolas Oresme. وكان أحد أكبر العقول في القرن الرابع عشر، حيث كان عميدا لكاتدرائية تلك المدينة قبل أن يصبح كاهن الملك،

ثمّ أسقف مدينة ليزيو Lisieux، ولقد كتب فضلا عن ذلك رسالة النقود دافع فيها عن مصالح التجّار دفاعا مستميتًا، وأُحضرت في تلك المناسبة نسخة ضخمة من نصوصٍ كان أورازم ترجمها لأرسطو، وقد أُمِرَ الرسام أن يمثّل في مستوى واحد الفضائل السبع (وهي الثلاث اللاهوتية والأربع الكردينالية)، و قد حدث ما كان يجب أن يحدث: إذ توسّط **ضبط النفس** هذه الفضائل كلّها في تلك الزخرفة.

كانت الساعة تعلو رأسها والناعورة عند ساقَيْها، وقد أصبحت أولى الفضائل في تلك الصورة دون منازع، ولم يحدث ذلك الإعلاء وفق نص رسمي، وإنما كان يترجم عن روح العصر، كانت تلك"الثورة" الصامتة قد أخذت طريقها بصورة طبيعية في أواخر **العصر الوسيط**. لقد انحنى **الإحسان** وهو أوّل الفضائل اللاهوتية أمام **ضبط النفس**[1]، وكان ذلك تعبيرا عن الواقعية البورجوازية وتمجيدا حيّا " لتكنولوجيات العصر المتطوّرة"، ولْنُشِرْ -ولو بصورة عابرة- إلى أن المقاولين بادروا بالتفكير في تحويل الساعة ذات الوزن إلى محرّك، إذ كانت في مدينة ميلانو طاحونة تعمل وفق مبدأ الساعة، وتستخدم في طحن الحبوب، وتعمل بوساطة أثقال (شأنها في ذلك شأن الساعة)، وتذكر الوثائق أنّ بإمكان طفل واحد "إعادة تركيبها". كانت الساعة دون شكّ حدثا "اجتماعيا شاملا"، من خلالها وقعت عَلْمْنة المُثل القديمة، فقد كان الرهبان قديما يؤدّون التحية داخل أماكن العبادة، ثمّ أصبح التجار والصيارفة والمهندسون يؤدّونها في عالم المدن والدكاكين والآلات، فقد سبق لنا ذكر كالفان فيما يتعلّق بالربا، وعلينا الرجوع إليه ومن جديد لكي نفهم ما يعنيه إعلاء فضيلة **ضبط النفس**، لقد طوّرت البروتستنتية أخلاق التجار، وجعلوا

---

(١) في ذلك إشارة إلى تحول في منظومة القيم الأخلاقية فصار البورجوازي يحرص على جمع المال ولا يرغب في إنفاقه في وجوه البرّ. (المترجمان)

منها منطلقًا حقيقيًا للرأسمالية الناشئة -كما ذكر ذلك عديد المؤرّخين وفي مقدّمتهم ماكس فيبر- ويجدر التذكير بأنّ الحرص على إدخال قليل من المال كان في نظر اللاهوتيين تعبيرًا عن فراغ روحي كبير، ولكن ذلك كلّه تغيّر بإعلاء فضيلة **ضبط النفس**، لقد أوشك كالفان الذي كان في انسجام تام مع عادات بورجوازيي جينيف، لا على الإشادة بالعمل المنظّم فقط، وإنّما بالتقتير أيضا، فكان ذلك من باب الترقّي الروحي دون شكّ، ولكنه كان أيضا من باب التعليم الاقتصادي، فإنّ عبادة العمل والتقشف - مجتمعيْن- كانا يشكّلان طاقة ادّخار مهّدت الطريق لتراكم رؤوس الأموال، مثلما ذكر أحد الخبراء.

لقد وجدت الرأسمالية لها أسسا روحية أخيرا، إذ كانت الرغبة في الإثراء الفاحش من المحرّمات بداهة، ولكنّ الثراء كان متعدّدا، خذ مثلا ما كتبه ريشار بكستر Richard Baxter وهو من شيعة كالفان في مؤلّفه الدليل المسيحي حيث يقول: " العمل من أجل أن يكون الإنسان ثريا حلال، ولكن ليس بنيّة حبّ الشهوات وارتكاب الخطايا، وإنّما بنيّة تجسيم إرادة الربّ".

أليس الربّ نفسه -في حقيقة الأمر- هو من يقدّر الفرص المربحة لمن كان من التجار على استقامة؟ علينا أيها الإخوة أن لا نستهزئ **بالعناية الإلهية إذ** " يجوز لك أن تعمل بالطريقة التي تضمن لك أعلى الأرباح المشروعة الممكنة".

لقد لخّص إسحاق برّو Isaac Barrow -وهو رياضي ولاهوتي من أسلاف إسحاق نيوتن في جامعة كمبردج- الأخلاق الجديدة بعبارات تذكّرنا مباشرة بـ**ضبط النفس** "علينا أن نخضع ملكات روحنا كلّها وجميع ما يعتمل في داخلنا لقواعد سلوكية صارمة، علينا أن نكبح جماح أطماعنا، ونسيطر على شهواتنا، وعلينا أن نُعرض عن اللغو الذي لا فائدة فيه".

ولقد كتب مؤسس حركة الميتودية[1] جون ويزلي John Wesley في القرن الثامن عشر يقول: "فالتدينّ يثمر بالضرورة النشاط في العمل والتقشّف، وهي فضائل لا تؤدّي إلا إلى الثراء"، ومن البديهي أن يكون مثل هذا الخطاب مرآة يرى من خلالها عبّاد الساعة ذواتهم بكلّ وضوح، لقد صرّح ويلي أيضا "أنه من واجبنا حثّ المسيحيين على أن يجنوا الأرباح ويدّخروا ما شاؤوا، ونحثّهم على الإثراء".

واليوم أي في سنة ٢٠٨١ أصبحنا نرى من المحيّر، بل من المُقرف ذلك المزج بين **الإنجيل** والواقعية البورجوازية المقيتة، إنّها مجرّد امتداد لمبادرات مسيحيي العصر الوسيط. كانت نوايا هؤلاء المؤمنين " الحداثيين" حسنة بلا ريب، فكلّ ما في الأمر أنّ تيار "روح العصر" قد جرفهم.

إنّ "النزعة التجارية" قد قامت بثورتها الخفية منذ **العصر الوسيط** -كما كتب ذلك المؤرّخ المختصّ في العصر الوسيط كلود دابي -Claude Dupuy- ولو افترضنا الكلام بلسان فلاسفة القرن التاسع عشر لقلنا إنّ "المبادئ العلمية والتقنية" عوّضت "المبادئ الإقطاعية واللاهوتية"، وعلى أيّة حال لقد حُصّل ما في الصدور روحيا على الأقلّ، وهو أكثر الأبعاد الإنسانية أهمية، فالكنيسة التي لم تصمد أمام عبادة **المال** سرعان ما انهارت أمام **الآلة**، لقد أكّد الأستاذ دوبان أنّ " الكنيسة أصبحت منذ سنة ١٥٠٠ دون أن تعلم وعاء فارغا، وفي هذا الفراغ تمكّن منها بكلّ يسر سادة جُدُد قرّروا الذهاب إلى أقصى حدود إمكانياتهم، وكانت مدّة خمسة قرون كافية لأن يبلغوا منتهى غاياتهم ثمّ يلقوا حتفهم".

وخلال بضعة قرون أُتيح **للغرب** أن يحياها كان يتصرّف وكأنّه مكلّف بهذه

---

(١) هي نظرية كنيسة الميتوديين أو تعاليمها وهي حركة دينية إصلاحية قادها في أكسفورد سنة ١٧٢٩ تشارلز ودجون وزلي محاولين إحياء كنيسة إنكلترا. (المترجمان)

المهمّة، وهي أن يجعل هيمنة الآلة شأنا كونيّا، وكلّ ما فعله الإنسان وما كان يستطيع فعله، ينبغي أن تكون الآلة قادرة على فعله مستقبلا، في حدود هذه العلاقة سنهتمّ أساسًا بمعالجة الجوانب الروحية لذلك المشروع، وسنحاول جاهدين عدم التخلي عن سؤالنا الرئيسي: وهو كيف يعقل أن لا يفهم الغربيون مجتمعين هول ما كان ينتظرهم؟

لقد أطلق بعض المفكرين الأحرار منذ القرن التاسع عشر صيحة فزع، وفي القرن العشرين أصبح ذلك الغرض نوعًا من الأنواع الأدبية تقريبا، إذ وجدنا العشرات (بل المئات) من المؤلّفات كانت تناقش "محاسن" الفعالية التكنولوجية و"مساوئها"، فالسيطرة على التقنيات وتسخير التكنولوجيا لخدمة الإنسان، واجتناب "الإفراط"، وإضفاء طابع إنساني على المكْننة، كانت تلك المواضيع كلّها وغيرها من المواضيع تنتج أنواعًا من الخطاب لم يكن يُعْوِزه بُعد النظر في كثير من الأحيان.

ومع ذلك لم تُجْدِ تلك المحاذير نفعًا من الناحية العمليّة، وكان الناس لا ينصتون إلا إلى الخطابات "الإيجابية" والتصريحات "التقدّمية"، وفي مقابل كلّ مؤلَّف يدعو إلى قليل من التبصّر، كان هنالك عشرون مؤلّفًا تسبّح بحَمْد الآلة. ومن المفارقات أنّ عديد المحاولات التي أرادت أن تكون نقدية انتهت بدعم عبادة التقدّم التقني؛ لأنّ أصحابها كانوا يتحاشون الذهاب بعيدا في تحاليلهم؛ خشية أن يُرْمَوْا بالظلامية، وكانوا بتوخّيهم الحذر وبتبنّيهم "اللغة الخشبية" التي تعزّ كثيرا على نخب القرن العشرين، يسلّمون بأنّ التقنية في حدّ ذاتها ليست نعمة ولا نقمة، فتغيُّرُ موقفهم من السهل معاينته، إذ بعد أن أشاروا إلى المخاطر الناجمة عن المكْننة المفرطة، بيّنوا أن التقنية ليست قوّة مستقلّة، فالإنسان هو من كان يقود

ومـن كان يقـرّر، وكان مـن المنطقـيّ إذن الكـفّ عـن اتّهـام التقنية في حـدّ ذاتها، فالمشـكل الوحيـد يتعلّق مـن الناحية الإنسـانية والاجتماعية بالاسـتعمالات التي كانت قد خصّصت لها.

لقد أصاب الحداثيون في بعض الأمر، إذ لم تكن **التقنية** وحدة ثقافية مستقلّة عن الإنسـان تتصرّف تبعا لأهواء غير معلومة، ومن البديهي جدّا أنّ عبادة الآلة قد وضـع أسسـه **الغربيـون** فـي ظروف محـدّدة، لكـنّ ذلك لم يكـن يعنـي أنّ ازدهار التقنيات كان أمرا محايدا، بل على العكس من ذلك، لقد كان تعبيرا عن "مشروع" (يشـير المُزدَوَجان في كلمة "مشـروع" إلى أنّ أصحاب ذلك المشـروع لم يكونوا يعلمون بلا شكّ إلى أين كانوا يسيرون بالأجيال المقبلة). وإذا صدّقنا ما لدينا من وثائـق فـإن الحداثيين قد أصرّوا على تجاهـل القيمة الثقافية لهذا الحدث، أو على الاسـتخفاف بهـا، كان ثمّة -بعبارة نخب القرن العشـرين- انسـداد، فبقدر ما كان **الغـرب** يعتبـر عبادة الاقتصاد أمـرا طبيعيا، كان يعتبر الشـغف بالتقنية أمرا واقعًا لا يقبل الطعن.

ورغـم ذلك كان بعض المؤرّخين قد أدركوا حجم ابتكارات العصر الوسـيط وأهميتها، ولقد أشـار لويس مومفورد Lewis Mumford إلى صناعة السـاعات، وإلى الانتظام الكنسي، وإلى النظام البورجوازي، وإلى النجاحات التقنية وغيرها، وصـاغ الملاحظـة التاليـة: "كلّ تلك الأنشـطة المختلفة التي لم تكن ربما تكتسـي أهمية في ذاتها شـكّلت في النهاية مركّبا اجتماعيا وشـبكة إيديولوجية تتحمّل ثقل الآلة الهائل وتمتدّ عملياتها على نطاق واسـع"، وما من شـكّ في أنّ تلك العبارات ("مركّـب اجتماعي" "شـبكة إيديولوجية") كانت أقرب إلى عقلية القرن العشـرين. ولكن كانت فكرة الأسطورة مثلما نفهمها نحن حاضرة بوضوح -كما تشهد بذلك

صفحات كثيرة للكاتب نفسه- أيُعقل أن لا يروم الغرب البحث في العواقب التي تقود إليها تلك الأسطورة وهو الذي كان يدّعي الفضول؟

لقد قدّم أحد علماء الاجتماع المتميّزين السبب العملي وراء ذلك الرفض كالآتي: كانت التقنية وسيلة لخدمة الفكر والفعل، لقد أصبح كلّ شيء واضحا إذن، فلم تكن التقنية سوى وسيلة، إذ لا يمكنها، ولا ينبغي لها، أن تحدّد غاية الحياة الإنسانية، ويكفي إبقاؤها عند منزلتها لكي تسوّى المشكلات كلها.

واليوم يبعث فينا هذا الكلام الاندهاش فيما بين عامي ١٠٠٠ و١٥٠٠ انكبّ المجتمع المسيحي على إعلاء كلمة التقنيات بحماسة منقطعة النظير، ولقد سخّرت لها أقوى وسائل الدعاية في ذلك العصر، ومن خلالها فتح الباب على مصراعيه لحركة لا تُقاوَم، كانت تعظّم "فضائل الساعة" والسيطرة التقنية على الطبيعة، ولكن كانت النصائح سنة ١٩٩٣ توجّه إلى النخب بوضع التقنية بحكمة في مكانها الصحيح، أي بعد قرنين أو ثلاثة من "الهوَس التكنولوجي" (كما سمّاه الأستاذ دوبان).

لكن كيف يمكن إنجاح مثل ذلك الإنجاز؟ وكيف السبيل إلى تعيين "المكان الصحيح" لسيرورة بارزة مفعمة بالحيوية إن صحّ هذا التكرار؟ كانت العملية ممكنة لو كان الأمر يتعلّق بكرسي أو بباقة ورد، ولكن لكي نصل إلى الاعتقاد أنّ التطوّر التقني -وهو مبلغ علم الغربيين ومنتهى مرغوبهم- يمكن أن يلزَم "مكانه الصحيح" بمجرّد طلب بسيط، ينبغي أن يكون خيالنا الرمزي والتاريخي مبتورا.

لقد بدا لنا ذلك المثال الذي قدّمه عالم الاجتماع مهمّا، وأنّ مقاله لم تكن تنقصه الصرامة، فلقد أبرز الكاتب الإفقار الناجم عن العقلانية التقنية واعترف (خلافا لبعض الخبراء) بأنّ التقنيات الحديثة قد زادت من حدّة البطالة، ولكنّ

العوائـق المتكرّرة أمام هـذا التحليل قد فعلت فعلها من جديد. فقد اقتضى الذوق السليم أن يوجّه النقد إلى الاستعمال المفرط للآلة.

ولـم ينتج عن ذلك فقط خطابٌ أجوف (كأن تطلب مثلا من مدمن خمر أن لا يفرط في الشـراب)، وإنما أهملت بعض المشـكلات الأساسية أيضا. أيُعقل أن لا يـدرك عدد من الخبراء ذوي بـراءات الاختراع الرهانات الروحية على نحو أفضل من ذلك؟ لمَ لم يُنصتوا إلى الشعراء؟

لقد أكّد ميشلي في الصفحات التي خصّصها للآلة على سبيل المثال أنّ أتعس التعاسة كانت "تعاسة الفكر"، ثمّ عاد دفعة واحدة إلى النقطة السوداء الكبرى التي عَمِدت خطابات عديدة بعد ذلك إلى إخفائها، علينا أن نبادر إلى القول بأنّ ميشلي لم ينكر يومًا أنّ الآلات قدّمت للإنسـانية خدمات جليلة، إذ تسـاءل " من ذا الذي يريد أن يعود إلى عصور الضعف والهوان حين لم يكن للإنسان آلة؟ "، ولكنّه كان مثل باسكال يميّز بين المستويات، ولـم يخلط بين ما هو من قبيل القوّة المادية وما ينتمي إلى دائرة الفكر، ولقد كتب يقول: إنّ للآلات "ملكة ضارّة تتمثّل في قدرتها علـى جمـع القوى من غيـر حاجة إلى جمع القلـوب، وعلى التعـاون بلا تحابُب، وعلى الفعل وعلى الحياة المشتركة بلا تعارف، لقد خسرت قوّة التنظيم الأخلاقي كلّ ما ربحه التمركز الآلي الصناعي"، فالمجتمع الذي كان يؤلّه **الآلة** لم يكن فقط مجتمعـا يـزرع المحـرّك والإنسـان الآلـي فـي كلّ مـكان، لقد تعـوّد علـى التفكير بأسـاليب ميكانيكية، وأصبح شـيئا فشـيئا غير قـادر على معاملة النـاس باعتبارهم أشـخاصا؛ ومـن أجـل ذلـك تحـدّث ميشـلي عن "بـؤس الفكـر"، "ومـا أكثر طرق التصـرّف الميكانيكيـة التـي لا روح فيها، التي تحرمنا من أن نعرف الإنسـان، وأن نرى فيه شيئا آخر غير القوّة وغير الأرقام... إنّنا نحسّ كلّ يوم بأننا نحن أيضا أرقام

وأشياء مجرّدة، سُلبت الفعل الحي بارتمائها في أحضان المكْننة فعادت إلى مستوى الصفر".

لم يكن ميشلي قادرا على مزيد توضيح الأمور، لقد كان يرى أنّ تجاهل النظام الاقتصادي والتقني للإنسان باعتباره إنسانا ينذر بأزمة خطيرة، إنّ تنظيم الحياة الاجتماعية وفق الإنتاج والاستهلاك -كما كانت تفعل الحكومات في أغلب الأحيان- كان لا يكفي (كانت تلك الفلسفة الرديئة تنتهي في أقصى الحالات إلى أفكار مثل "ضرورة رفع الأجور لإنعاش السوق")، إذ كانت متابعة العمل على تحقيق حلم إنساني أحْرى.

لم يتوصّل الغرب إلى ذلك قطّ كما أثبت ذلك **الانفجار الأكبر**؛ ولكي يكون بالإمكان معالجة الأمر كان ينبغي على المسؤولين والمواطنين العاديين أن يترفّعوا قليلا، وأن يبدؤوا بتنفيذ البرنامج الثقافي-الاجتماعي المدرج في النظام التقني ذاته، وربّما كان من الممكن في مرحلة ثانية بعث مشروع جديد، ومن المؤسف أن كثرة كاثرة من الحداثيين قد رسّخوا فكرة حياد التقنيات، "فالمأساة تتمثّل في أنّ الغرب المسمّى بالحديث قد سخّر كلّ طاقاته لتحقيق برنامج لم يعد يفقه دلالته ذاتها"، كما قال الأستاذ دوبان.

إنّه استنتاج ينمّ عن نظر ثاقب حقا؛ ذلك أنّ رجال الدين في العصر الوسيط عندما أسندوا إلى الإله شهادة مهندس كانوا يدركون (إلى حدّ ما) معنى ما كانوا يفعلون، لقد حوّلوا الكون إلى آلة كبيرة، وحفظوا له شيئا من كرامته في الوقت نفسه، وكذلك عندما أشادوا بفضائل الإنسان التقني، وعندما جعلوا من الساعة رمزا لنمط حياة معيّن كان حرصهم شديدًا على إضفاء معنى (وإن كان هزيلا) على مفهوم الحياة الروحية، ولكن ماذا حصل (بعد ذلك)؟ لقد اتّبع أهل الحداثة

الاتجاه الذي حُدّد لهم، ولكن عن طريق العادة إن صحّ القول. بذلك يتّضح أن تاريخهم الروحي كان في حالة فقر مُدْقِع، وأنه لم يكن لهم مفرّ من **الانفجار الأكبر**.

لقد أصبحت الآلية منذ بداية الأزمنة الحديثة مسألة اقتصادية، و"قد عرفت التقنيات تطوّرا باهرا" بدافع الربح التجاري" -كما كتب لويس مومفورد -(وبتأثير العسكر أيضا، ولكن لنترك هذا إلى حينه)، " لم تستخدم الرأسمالية الآلات بغرض تحسن أوضاع اجتماعية، وإنّما لزيادة فوائد المال الخاص، سخّرت الأدوات الميكانيكية لإثراء الطبقات الحاكمة، ولقد سحقت بكلّ تهوّر الصناعات الحِرَفية في أوروبا وخارجها بما تنتجه الآلة، وإن كان أقلّ جودة، وكانت هيبة التقدّم والنجاح والقوّة متّجهة نحو الآلة وإن لم تحسّن شيئا، وإن أخفقت تقنيّا. لقد وقع تضخيم مكانة الآلة لما تتيحه من إمكانيات في زيادة الأرباح، وأُقْحمت الآلة على نحو يفوق الحاجة إلى تحقيق الانسجام والنجاعة"، ويكفي الاطلاع على بعض الكتابات المؤسّسة للاقتصاد الغربي لشرح ذلك، فقد كانت المشكلات الإنسانية المتعلّقة بالعمّال في التقاليد الصناعية تُهمَل عمدا، وسنسهب في الحديث عن ذلك عندما نتناول موضوع البطالة، ولكن علينا أن نتوقّف قليلا عند المسألة التالية: كيف يُعقل أن يسيء الغربيون عموما فهم فكرة النمط الثقافي؟ لماذا لم يدركوا مثلا أنّ كلّ خيار تقني أو اقتصادي له انعكاسات في ميادين الوجدان والخيال والحياة الروحية؟ لو كانوا ألطف إحساسا وأشدّ تيقّظا ما ندّت هذه الحقيقة البديهية عنهم، لقد صاروا معرّضين في أيّ لحظة إلى أن يتحوّلوا هم أنفسهم في نهاية المطاف إلى آلة بأتمّ معنى الكلمة، عندما مكّنوا الميكانيكي من سلطة عظمى. والحقّ أنّ النخب لم تكن -بحكم تكوينها- مهيّأة للخوض في مثل تلك المسائل، وهو -لعمري- أمر مؤسف، لا سيّما أنّ شاعرا وأنتروبولوجيا يدعى

أندري-جورج هودريكور André-Georges Haudricourt قد أرشدهم إلى جادّة الطريق.

فقد أشار هذا الشاعر- في حكاية كان يمكن أن يكون عنوانها -البستاني والراعي- إلى الأهمية الثقافية التي تكتسيها الأنشطة التي تبدو بسيطة في الظاهر، مثل زراعة البطاطس الحلوة وتربية الخرفان، (وللتذكير فإنّ البطاطس الحلوة نبتة متسلّقة ذات دَرْنات[١] تصبح صالحة للأكل إذا طُهيت)، لقد كانت تقود تأمّلات شاعرنا الفكرية هذه الأسئلة: ألم يكن نشاط البستنة الذي تستوجبه زراعة البطاطس ينسجم مع مفهوم مميّز للعلاقات الإنسانية؟ ألا يختلف هذا المفهوم اختلافا واضحًا جدّا عمّا كنّا نجده في مجتمعات الرّعاة؟ لقد كان الميلانيزيون[٢] Mélanésiens في كلدونيا الجديدة Nouvelle-Calédonie يزرعون الدرنات بعناية " لم يكن هناك قطّ اتصال عنيف، إن صحّ القول (...) مع الكائن الذي يراد ترويضه، كانوا يشكّلون بعناية خطوطا من التربة الناعمة، ويضعون داخلها بذور البطاطس الحلوة، ثمّ تستنبت الحُزم الكبيرة على مسافة من الدرنات حتّى لا تُعيق نموّها، ثمّ تثبّت بعد ذلك عُصيات منحنية تمكّن الساق الملتفّة التي تخرج من الدرنات من بلوغ الحزمة، وكان الجني يتمّ بإزاحة التراب بعناية عن الدرنة ثمّ لفّها في الأوراق"، لقد كان هؤلاء البستانيون بما يظهرونه من رقّة ومصابرة يقيمون مع

(١) جمع دَرْنة وهي عبارة عن ساق نباتيّة متحوّرة تحمل البراعم التي ستنمو لتعطي نباتات جديدة. تستخدم الدرنات في النبات كجهاز تخزين للمغذيات، حيث تتيح للنبات البقاء خلال فترة البيات الشتوي أو أشهر الجفاف، فتستخدم لتوفير الطاقة والمغذيات لإعادة النمو خلال موسم النمو القادم. (المترجمان).

(٢) الميلانيزيون: مجموعة عِرْقية تمثّل مجمل سكّان منطقة ميلانيزيا، وهي منطقة واسعة من غينيا الجديدة إلى أقصى شرق جزر فانواتو وفيجي. (المترجمان)

النباتـات التـي يزرعونهـا علاقة "صداقـة قوامها الاحتـرام "، لقد كانوا يسـتعملون المـوارد الطبيعيـة حقّا، ولكن دون عنـف، كانوا يكتفون بتوفيـر الظروف الملائمة لنموّ البطاطس الحلوة، وكانوا يتجنّبون زراعتها في غير وقتها. هكذا تشـكّل نمط من الفعل الإنساني (سمّاه هودريكور الحركة السلبية غير المباشرة).

وعندما عاين الطريقة التقليدية المتّبعة لتربية الخرفان في المنطقة المتوسّطية، أكّـد هودريكـور الفرق (بينها وبين زراعة البطاطـس الحلوة)، فكان الاحتكاك بين المدجِّـن وغيـر المدجَّـن متواصلا، هـذه المـرّة: "كان الراعي يرافـق قطيعه صباحَ مسـاء، ويقـوده بعصـاه، وكان يختـار المرعـى، ويتتبّـع مسـاقط الغيـث، ويحمـل الحِمْلان في المسـالك الوعرة، ويحميها من خطر الذئاب، كان عمله مباشـرًا، أي لمسا باليد أو العصا أو الحجارة التي يلقيها بطرف عصاه".

فبينمـا كان البسـتاني يتـرك البطاطـس تنمو مسـتقلّة عنه، كان الراعـي يتدخّل ويقـود " لقـد كان يختـار المسـار الذي يفرضه علـى قطيعه كلّ حيـن"، كان ذلك " نموذج الفعل المباشر والإيجابي".

لقـد أراد أندري-جـورج هوديكور أن يفسّـر إذن أنّ كلّ مجتمع يحدّد علاقته بالطبيعة من خلال تجارب أساسـية، مثل تجارب البسـتاني أو الراعي، وهي تحدّد في الوقت نفسـه نمط العلائق التي تربط الناس بعضهم ببعض على نطاق واسـع، وهكذا يمضي البستاني في بناء مجتمع يعامل فيه الناس كما كانت تعامل النباتات؟ أي بطريقة رفيقة غير مباشرة، يخالطها الصبر والاحترام، ومن المنتظر في المقابل أن يكون لمجتمع الرعاة أسلوب أشدّ بأسا وأكثر تسلّطا.

ولقد استعمل هودريكور ذلك النوع من التأويل المتعلّق بالتقابل بين "البستان الصيني والحظيرة المتوسّـطية"، ليصف التباين العميق بين **الشرق والغرب**، كذلك

أكّد عديد المؤرّخين "أنّ التعامل البستاني سمة من سمات الحضارة الصينية وخاصة إيديولوجيتها السائدة ألا وهي الكونفشيوسية"، ويعني ذلك بدءا أنّ الماشية في الشرق الأدنى لم تحْظ بالمكانة التي حظيت بها في الحضارة الغربية، حيث كانت مقتصرة على الخنازير والحيوانات الصالحة للحراثة.

لقد كتب أ. لاتيمور O. Lattimore يقول: "بلغ الإنتاج ذروته في الصين وفي باقي السهول المجاورة للأنهار الكبرى مع الاستعمال الأقصى للعمالة وقلة استخدام حيوانات الجرّ والحراثة حتى لا يكون طعام الحيوانات على أرض يمكن للإنسان أن يخدمها بنفسه، لقد كان الاستغناء عن الحيوانات في أوج ازدهار الصين أمرًا مذهلا".

ولكنّ ذلك كان يعني أنّ العلاقات بين الناس على الأقل تدرك بالمثل وفق نموذج البستاني، فمثلما يهيّئ البستاني الظروف الجيّدة لنموّ النباتات، فإنّ القائد الجيّد ينبغي عليه أن يعزّز تطوّر الناس وسعادتهم، فاللجوء إلى القوّة أو العنف كان غير لائق ولا طائل من ورائه، ومثال ذلك أن الكونفوشيوسي منغ تسو روى حكاية ذلك المزارع الذي "لاحظ أنّ محصوله لا ينمو"، فقرّر أن يجذب سيقان نباتاته ليمطّطها، فكانت النتيجة أن اقتلع هذا المجنون محصوله كلّه، وكان هذا المثال يكرّر باستمرار في الفكر الصيني القديم، فالقائد السياسي المحنّك ليس ذاك الذي يتدخّل ويعاقب باستمرار، وإنّما هو القادر على أن يجعل من تفتّق مواهب اتّباعه أمرا ممكنا، كان ذلك ما يريده النموذج البستاني.

أما إذا توجّهنا في المقابل تلقاء الغرب فإنّنا نلاحظ حضور النموذج الرعوي، فالقائد كان يبدو نشيطا وخلاّقا، كان يقود بتسلّط من كان دونه كالراعي الذي يقود قطيعه، لقد عرّف أفلاطون الملك في كتاب السياسة بأنّه راع للناس، ولقد تابع

أرسطو في كتابه الأخلاق إلى نيقوماخوس[1] بكلام ليس هناك أبلغ منه فقال: "إنّ الملك يحبّ رعيته بحكم تفوّقه الذي يجعله يرفق بهم؛ وبفضل ما يتميّز به من حسن خلق، فإنّه يحرص على جلب السعادة لهم كحرص الراعي على غنمه، وبهذا المعنى كان هوميروس يطلق على أجاممنون[2] *Agamemnon* اسم راعي الشعوب"، لقد كانت علاقة القائد برعيته إذن علاقة هيمنة، وربما أحبّ الملك أفراد رعيته حقّا، لكن ذلك "الحبّ" كان مختلفا اختلافا بيّنا عن "صداقة" الاحترام التي تربط البستاني بالبطاطس الحلوة.

من ثمّ تتجلّى القيمة الاجتماعية الخالصة للعلاقات التي تربط الإنسان بالطبيعة، فالنمط التقني والنمط البيئي والنمط الاجتماعي السياسي، كلّ ذلك يبدو متناسقا؛ ونتيجة لذلك أمكن أن يتمخّض عن التحوّلات التي تصيب التقنيات الزراعية تدهور في العلاقات الاجتماعية، وفي علاقة الإنسان بالطبيعة في الآن نفسه، فكلام أندري -جورج هودريكور إذن يسلّط الضوء على كثير من الأوضاع التاريخية. لقد كتب جاك برّو يقول سنة ١٩٩٠: " كم تكبّدت الأراضي الزراعية

---

(١) أحد تصانيف أرسطو أهداه إلى ابنه نيقوماخس. وفيه يدرس الأخلاق والفضائل. وقد ترجم الكتاب إلى العربية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وشرحه الفلاسفة المسلمون ومنهم ابن رشد المتوفى ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨م. نقله أحمد لطفي السيد إلى العربية بعنوان **علم الأخلاق إلى نيقوماخوس** لكنه لم ينقله عن اليونانية مباشرة بل نقله عن ترجمة فرنسية للمستشرق جول بارتلمي سانتهلير **Jules Barthélemy-Saint-Hilaire**، وصدرت النسخة العربية سنة ١٩١٩م. (المترجمان)

(٢) **أجاممنون** في الأسطورة الإغريقية هو شقيق الملك مينلاوس (Menelaus) ملك أسبرطة، وهو الذي قاد الحملة التي ذهبت إلى طروادة لاستعادة هيلين زوجة الملك مينلاوس التي هربت إلى طروادة مع بارس. هذه إحدى قصص إلياذة هوميروس، والتي اشتهر فيها الحصان الخشبي المعروف بحصان طروادة. (المترجمان)

المستعمرة من الخسائر بسبب المحاريث والمواشي"، ولقد شهد هودريكور على ذلك فيما يختصّ بالبطاطس الحلوة حين قال: " كان إدخال المستعمر المواشي في كاليدونيا الجديدة بمثابة الكارثة بالنسبة إلى الزراعة المحلية، لا لأنّ النبات يموت عندما يداس فقط، ولكنّه يتعفّن وتمرّ عدواه إلى نباتات البطاطس التي تقع على الخطّ نفسه أيضا"، ثمّ إنّ تلك الخسائر لم تكن ماديّة فحسب، وإنّما كانت روحية وسياسية أيضا، ومن البديهي أن نسوق ملاحظات مشابهة حول "موت المزارع" التي سبق لنا أن ذكرناها آنفا.

إنّ الرسم الأساسي المتعلّق بالغنم والراعي يمكن إغناؤه بألوان كثيرة، لقد أشار هودريكور نفسه إلى أنّ اليهومسيحية قد استعملت في قاموسها الخاص الشخصية الرمزية للراعي، والدليل على ذلك "الدور الرائع لهابيل الراعي، الذي يقابله دور قابيل الفلاح"، والمسيح نفسه الذي لقّب بالراعي الصالح، والنعجة الضالة في الأناجيل، ولقد نهضت أنشطة أخرى بدور في تطوير العلاقات الإنسانية، ونجمت عنها صور لا تُنسى، مثل صورة التجّار التي ارتبطت بصفة خاصة بتقنيات الإبحار بوساطة المجداف، التي ازدهرت في حوض المتوسّط قديما، " فعلاقة قائد السفينة بالجدّافين تشبه تلك التي تربط علاقة الراعي بكلابه وبخرفانه"، ففعل "حكم" يعني في اللغة اللاتينية مسك دفة القيادة في السفينة، وهو ما جعل هودريكور يلاحظ أنه " ليس من المصادفة أن يكون فعل حكم مقتبسا من المعجم البحري".

هكذا نميط اللثام مرّة أخرى عن قيمة تقنية رمزية قديمة، تتمثل في أنموذج السفينة الحربية: إنهم يمسكون بدفة السفينة ونحن نجدّف، لقد كان إذن من السهل تلقّي رسالة الشاعر هذه، ومفادها أنه لا يمكن للاختيارات التقنية الكبرى التي

تتخذها المجتمعات أن تكون محايدة، إنّها تدفع الناس بطريقة أو بأخرى إلى ما يتجاوز النجاعة المادية.

من البديهي أنّ الفلاح أو مربّي الماشية لا يكون لديه بالضرورة وعي بأنّه بصدد صياغة حسّ خاص، أو مخيّلة بعينها عندما يخدم أرضه أو يرعى غنمه، لقد انخرط في حوار مع الطبيعة، و كان هناك موقف معيّن من الأشياء والكائنات قد تشكّل وتنظّم من خلال ذلك الحوار، "فكلّ تقنية تؤسّس تعليما خاصا بها وهذا التعليم يُوجّه إلى الإنسان بأسره" كما قال الأستاذ دوبان.

واليوم أي في سنة ٢٠٨١ صارت هذه الفكرة مألوفة لدينا، ولكن يبدو أنّ العقلانيين الغربيين لم يكونوا على أيّ دراية بمدلولاتها، وقُصارى ما قد أدركوه أنّ للابتكارات التقنية تأثيرًا في تقسيم العمل وفي نظام المجتمع، وأهمّية ذلك -كما كتب كارل ماركس- تكمن في أنّ الناس كلّما بدّلوا وسائل إنتاجهم أحدثوا تحوّلا في العلاقات الاجتماعية، " فالطاحونة اليدوية تنتج مجتمعا يحكمه (السيد) الإقطاعي، والطاحونة البخارية تنتج المجتمع الرأسمالي الصناعي". ولكن لقد بدا لنا أنّ هذه الطريقة في بسط المشكلة غير كافية؛ لأنّ ذلك يؤدي عمليا إلى إيلاء اهتمام شبه حصري تقريبا للحلول الاقتصادية والسياسية الضيقة. إنّ مسألة المكْننة والفعالية التكنولوجية كانت أعمق من ذلك بكثير، فهي لا تتعلّق "بالديمقراطية " و"بالرأسمالية" فقط، وإنّما " بالأسس الثقافية للغرب في مجمله"، مثلما أظهرت الأحداث ذلك.

وخير دليل على ذلك هو الشغف الأعمى **بالآلة** في البلدان "الرأسمالية" والبلدان "الشيوعية" على حدّ سواء.

ولقد أصاب الشعراء كبد الحقيقة كالعادة، فحتّى يتسنّى لنا تكوين فكرة عن

الدمـار الـذي أحدثه عشـق الآلـة، علينا أن نقرأ لشـعراء مثل ميشـلي وهودريكور، معنى ذلك أنّ محاولة معرفة الأسباب التي أدّت إلى عبادة الآلة، تغيّر جذريا صورة العالم وصورة الحياة وصورة الإنسان في حدّ ذاته، وتفرغها من محتواها. فلم يعد للغـرب الحديـث ثقافـة البسـتاني أو الراعـي ولكن ثقافـة الميكانيكي فمـاذا يعني ذلك؟

بدا لنا اليوم من بين مذاهب الغرب القديمة مذهب محيّر جدّا ألا وهو مذهب الآليّـة، ويتلخّـص في فلسـفة تـرى أنّ الكون آلـة، ولا يمكن أن يكـون إلا كذلك، وخلافـا لمـا يمكن أن نفهمه، فإنّ أشـهر "العقلانيين" لم يتوانـوا في الانضمام إلى هذا المذهب، بل لقد نهض هذا المعتقد بدور حاسـم في نشـأة "العلم الحديث"، وما من شك في أن فريق بحثنا تكفّل بالبحث في أصول هذا المذهب.

والحـقّ أنّ هـذه الفكـرة قديمة، وكان الشـاعر المادي لوكـراس Lucrèce قد أشار في القرن الأوّل قبل الميلاد إلى "آلة الكون"، ولكن بقي ذلك المعجم هامشيا إذ لـم يكـن يعني ضـرورة اختزال الكون فـي جملة من العجـلات الصغيرة، وكان لوكراس نفسه مثلا -رغم نزعته المادية- قد كتب ابتهالا توجّه به إلى آلهة الجمال فينوس، وكان يعدّ **الطبيعة** تجلّيا لطاقة حيّة خفيّة، وكان لا بدّ أن يهيمن الميكانيكيون أنفسـهم أوّلا وقبـل كلّ شـيء على مناحي الحيـاة الاجتماعيـة والثقافية باعتبارهم أشـخاصا مهمّين، لكي تصبح صورة **الآلة الكبرى** هي الأقوى على الإطلاق. كان ينبغي أن يُعترف بهم، بل يُعلى من شأنهم على الصعيد الروحي، ولقد تخطّى أهل العصر الوسيط الأول هذه المرحلة بنجاح، وعرف التقدّم التقني في القرن الثالث عشـر نجاحـات جديـدة سـاعدت علـى إبـراز صـورة الآلـة، واسـتخدم المثقفون البـارزون مـن أمثـال جـان دي ساكروبوسـكو Jean De Sacrobosco وروبـار

غروستاست Robert Grosseteste في عدّة مواطن عبارة "آلة الكون" وأسبغوا عليها معنى أقوى أكثر فأكثر، بحيث أصبح ذلك المعجم لا يفهم منه مجرّد تشبيه جميل، وإنّما رؤية "آلية" واضحة، ونعني بذلك الاستخدام المنتظم لنماذج مقتبسة من الميكانيكا.

ولم يتردّد جان بوريدان في القرن الرابع عشر في المقارنة بين حركة "الأجرام السماوية" التي تحمل الكواكب، وبين حركة حجَر الرحى، فقد لاحظ أنّ حجَر الرحى لا يتوقف عن الدوران إلا في حالة تعطيل حركته بفعل الاحتكاك، وقدّم بذلك فرضية مفادها أنّ الأفلاك السماوية ربّما لم تكن في حاجة إلى الاستعانة ببعض الملائكة حتّى تستمرّ في دورانها؛ فبفضل قوّة الدفع الأوّل الذي تلقّته (والذي أطلق عليه اسم الاندفاع) فإنها تستمرّ في الدوران بنفسها بصورة جيدة، إذا سلّمنا خاصة بانعدام الاحتكاك.

لقد نهضت مثل تلك التأمّلات بدور محوري كبير في تاريخ مفهوم العطالة، ولكن من وجهة النظر الثقافية التي هي محطّ اهتمامنا هنا، لم تكن تلك التأمّلات أقلّ أهمية. لقد كان يُنظر إلى الكون على أنّه آلة تشتغل تماما مثل الآلات التي صنعها الإنسان، ولقد خطا نيكولاس أوراسم Nicolas Oresm خطوة أخرى إلى الأمام حين أشار بصورة واضحة إلى وجود **الإله** الساعاتي، فمثلما "يترك" الإنسان ساعة حائطية تعمل بعد أن يتمّ صنعها، فإنّ الإله " ترك السماوات في حالة حركة مستمرّة "، ولقد ذهب هذا اللاهوتي إلى حدّ بسط مشكلة تعديل الساعة الكونية، ومن أجل أن يحفظ الإله للأجرام السماوية سرعة ثابتة جعل لها "متنفّسا"...

وللتذكير فإنّ ثقافة ذلك العصر مازالت رغم تطوّر التقنيات ريفيّة في جوهرها، وتحكمها معتقدات إحيائية. حقّا لقد كانت الكنيسة تقاوم بقايا الوثنية، ولكن تبقى

الطبيعة بالنسبة إلى المزارع حيّة بالمعنى الحرْفي لهذه الكلمة، كانت مكْننة العالم في ذلك السياق تمثّل إذنْ انقلابًا جذريا إلى حدّ بعيد، وكان الناس في التصوّرات القديمة في تناغم مع محيطهم العام، ثمّ حدثت قطيعة بينهم وبين بقية أجزاء الطبيعة، بعد تحوّل العالم إلى آلة.

ويعتبر نجاح صورة الآلية بمثابة الصدمة الثقافية من زاوية النظر هذه، فقبل ذلك كان يتاح للناس ربط علاقات عاطفية مع الطبيعة، إذ كان لديهم إحساس بأنّهم يعيشون فيها وبها، ولكن علينا أن نعترف بأنّ ذلك الحوار مع **الطبيعة الأم** كان صعبًا أحيانا؛ لأنّها وإن كانت كريمة معطاء، فقد كانت ذات نزَوات وغضبات، ولم يكن الناس على الأقلّ منبتّين عن الحياة الكونية، ولكن جاءت لتغيّر فلسفة الساعة الكونية كلّ شيء، إذ أصبح الإنسان ذاتا "عقلانية" تجد نفسها أمام طبيعة حُوِّلت إلى شيء لا روح فيه.

وكان أمثال غاليلي وديكارت وبويل Boyle وغيرهم هم من صاغوا مذهبيا الأرثوذكسية الجديدة في القرن السابع عشر، لقد استخدموا صورة "الآلة الكونية" بلا قيود، وانتهى بهم المطاف إلى اختزال العالم فى لعبة ميكانيكية كبرى، ولم يكن الفلاسفة "الآليين" متّفقين في كلّ شيء، ولكنّهم كانوا مقتنعين بأنّ كلّ ظاهرة طبيعية يمكن ردّها إلى جملة من "النتائج" و"الأسباب" مرتبطة بـ" قوانين" مضبوطة.

يقرّ هذا المذهب في نسخته الهزيلة بأنّه لا يوجد في الكون سوى جزيئات صغيرة من المادة في حالة حركة، والظواهر الطبيعية كلّها نتاج للتصادم بين تلك الأجسام المتناهية الصغر التي لا ترى بالعين المجرّدة، وما يشاهده الإنسان ليس إلا حصيلة نهائية لجملة من العمليات الميكانيكية الصغيرة الجزئية، وليس من المجدي القول بأنّ تلك الأفكار الجميلة لم يكن باستطاعتها تفسير كلّ شيء،

ووجب القيام ببحث منهجي واختبار لازم لمعرفة ما يجري في كلّ حالة على حِدة، ولكن المبدأ العام بدا مقبولا بصورة نهائية، ومفاده أنّ الطبيعة في جوهرها تعمل آليا وفق قواعد ميكانيكية.

كان ينبغي إغناء ذلك الجدول إثر ذلك، فقد اكتشف نيوتن أنّ أيّ كتلتين تتجاذبان وفق قانون يمكن صياغته رياضيا، حيث أثارت هذه النظرية ضجّة في البداية، إذ كان تلاميذ ديكارت لا يؤمنون بالتجاذب إلا فيما بين الأجسام المتماسّة، وكانوا يرفضون التسليم بوجود "حركات عن بعد" ففي نظرهم من شأن تأمّلات مثل هذه إعادة إدراج معتقدات "سحرية" قديمة في حوزة العلم، ولكنّهم رضخوا في النهاية، وذلك يعني أنّ الطبيعة كانت آلة أكثر تعقيدا ممّا كان يعتقد هؤلاء، وكان من الواجب -إثر ذلك- الأخذ بعين الاعتبار قوى أخرى أساسية تعدّ نسبيًا أشدّ غموضا (مثل القوة المغناطيسية)، ومن الواضح أنّ العلم الجديد بقي آليا في جوهره، فلكي ندرك كلّ ما يجري في الطبيعة يكفي التسليم بوجود حُبيبات صغيرة من المادة وبعض القوى المحدّدة [التي تحرّكها].

إنّ النقطة الحاسمة إذن هي أن: "الطبيعة" قد تخلّصت من هنا فصاعدا من كلّ "الأرواح" و"المبادئ الحيوية" التي أودعها **القدامى** فيها، فالقوانين التي حدّدها **الإله المهندس** بصورة لا رجعة فيها هي وحدها التي تسود الكون، لقد حُقّ للميكانيكيين أن يرضوا ويبتهجوا، لأنّه لا مجال للمغالطة: إنّ نجاعة آلاتهم ونجاح مناهجهم هي التي قادت الغرب إلى تصوّر للطبيعة يقوم على أساس " قابليتها للمكْننة".

كان الفرنسي رينيه ديكارت أكبر المؤسسين لهذه الفلسفة، وكان يعتقد أنّه بفضلها يمكن بناء علم جديد للفيزياء، أي علم كوني تنبثق منه "جميع العلوم

الأخـرى كالطب والميكانيك والأخلاق"، وكما تـدلّ على ذلك تلك القائمة، كان ذلـك المشـروع عمليّا فـي جوهره، وفي مؤلّفه الذي كان محـلّ إعجاب كبير لدى الغربيين ألا وهو خطاب في المنهج (١٦٣٧) كتب ديكارت يقول بكلّ صرامة إنّ "الأفكار العامة" التي بسـطها من شـأنها أن تساهم "في جلب الخير العميم للناس"، وتتطلّـب الفقـرة التالية من نصه -وهي أشـهر من نار علـى علَم- أن نتوقّف عندها بعنايـة: "ذلـك أنّ [تلك المفاهيم] جعلتني أدرك أنه بالإمكان الوصول إلى معارف تفيد الحياة إفادة عظمى، وعوضا عن تلك الفلسفة التأمّلية التي نلقّنها في المدارس يمكـن لنـا أن نجـد ممارسـة مـن خلالهـا نتعـرّف على قـوة النـار والمـاء والهواء والكواكـب والسـماوات وجميـع الأجسـام الأخرى التـي تحيط بنـا، وعلى فعلها بالوضـوح نفسـه الـذي نعرف بـه مختلف المهـن التي يزاولهـا حِرَفِيُّونـا، ويمكننا استخدامها بالطريقة نفسها في جميع المجالات الخاصة بها، ومن ثمّ نصبح سادة الطبيعة الماسكين بزمامها".

تلخّص هذه الكلمات الأخيرة ما يمكننا أن نعتبره المشروع الأعظم للغربيين مـن أهل الحداثة: وهو أن يصيروا سـادة يملكـون الطبيعة، لقد كان أكبر همّهم في المسـتقبل امتـلاك الطبيعـة واسـتغلالها بـلا هـوادة؛ بفضـل وسـائل أنْجَـع، وكان ديـكارت يؤمـن جازما بالاختراع، وكما بيّن كاتب سـيرته، فقد كان يتوق حتى إلى إنشـاء مدرسـة للفنـون والمهن تخصـص لممثلي "الفنـون الآلية" وهـم كُثْر، وكان ينبغي أن تتألّف من "قاعات كبرى عديدة"، تكون لكلّ مهنة قاعة، ويضاف إلى كلّ قاعـة "غرفـة مليئة تحتـوي علـى الأدوات الميكانيكية الضرورية كلّهـا، أو المفيدة للفنـون التي تدرس داخلهـا"، وكان ينبغي أن تخصص اعتمادات مالية للغرض "لا لتمويل ما تستوجبه التجارب المخبرية فقط، وإنّما لدفع أجور المعلّمين والأساتذة" أيضـا، "وينبغـي أن يكـون هؤلاء الأسـاتذة بارعين فـي الرياضيـات والفيزياء حتّى

يتسنّى لهم الإجابة عن تساؤلات **الحرفيين** كلّها وتفسير الأشياء جميعها، وحتّى ينيروا لهم سبيل اكتشافات جديدة في **الفنون**". وقد مرّت عشرات السنين قبل أن تنشأ مثل هذه المؤسسات، وعلى أية حال لقد حدّد ديكارت أُسُسها بوضوح، فقد كانت في جوهرها ميكانيكية نفعيّة.

وخلافا لما كان يروّجه بعض المؤرّخين كان ديكارت مسيحيا صادقًا، فقد اعتمد على حجة تعود إلى لاهوتيّ عاش في القرن الحادي عشر؛ ليزعم إقامة دليل منطقي ونهائي على وجود الربّ، وفي هذا المعنى يمكن أن نرى فيه أحد أكبر ورثة **العصر الوسيط**، والمنظّر المثالي لما سمّاه الأستاذ دوبان الفعالية المسيحية المركنتيلية. لقد مجّد الآلة، شأنه في ذلك شأن من سبقه من اللاهوتيين، وذلك بمكْننة **الخلق** ولقد أدرك الفوائد الأرضية التي تتيحها تلك الآلة، مثله في ذلك مثل بورجوازيي العصر الوسيط.

ومن أجل ذلك خصّ **الغرب** ديكارت بمثل تلك العبادة منذ ذلك الحين إلى أن وقع **الانفجار الأكبر**، وكان يبدو جديرا "بالاحترام" بالنظر إلى أصله المسيحي، فقد جلب الاحترام للعقلانية والفعالية الحداثية أيضا. لقد توفّر كلّ شيء: أي مشروع امتلاك زمام الطبيعة، ودعوى الإيمان **بالربّ**.

لقد كان ديكارت في النهاية كاهنا علمانيا إلى حدّ بعيد، في تناغم رائع مع مقتضيات الثقافة البورجوازية، إذ لم يكن المقاولون والتكنوقراط في واقع الأمر يقرؤون له إلاّ نادرا، ولكنّهم كانوا يعلمون أنّ ذلك العبقري الغربي قد شرّع لهم بصورة نهائية جميع الممارسات التي تجعل من **العقل** سندا لها، وفعلا فقد واصلت ثلّة من الطلبة الأرستقراطيين في المعاهد والكليات الخوض في التأمّلات لاستنباط دروس ممتعة في الماورائيات: "سأغمض الآن عينيّ وسأسدّ أذنيّ

سَأُلغي حواسي كلها وسأمحو من فكري جميع الصور المتعلّقة بالأشياء المجسمة أو سأعتبرها صورا خاطئة لا قيمة لها على الأقلّ، لأنّ ذلك من الصعب حدوثه"، وماذا يمكن أن نقول في أشهر عبارة " أنا أفكّر إذن أنا موجود"، ففي تلك الفترة كانت بقية المجتمع تمارس مذهبًا آخر قوامه " أنا أنتج وأبيع وأشتري إذن فأنا موجود".

ما كان لفريق بحثنا مرّة أخرى إلاّ أن يلاحظ خَوَر العادات الغربية وتناقضها، وإذا كانت المجتمعات الصناعية قد جعلت من ديكارت رمزًا عظيما، وهذا أمر لا يحتمل الشكّ، فذلك لأسباب "واقعية جدّا"، لقد كان قبل كلّ شيء أحد الآباء المؤسّسين للعلم، ثمّ إنّ صورة الكون الذي يشبه لديه في "بساطته قطعة في مصنع للساعات" كانت تبشّر باختراعات مفيدة. إنّ مساهمة ذلك الرجل العظيم ينبغي البحث عنها في مجالات العلوم والتقنيات: " إنّ النظرية الفيزيائية الكيميائية للحياة والنظرية الفيزيولوجية في المشاعر والانعكاسات الشرطية والنظرية السلوكية والسيبرينية يمكن أن تعدّه رائدا لها"، كما كتب لويس روجييه Louis Rougier.

كان ينبغي أن يقال شكرا لديكارت رسول الحداثة لكنّ للواقع وجها آخر، لقد لاحظنا بصورة عابرة أن الديكارتية كانت تؤسس بلا شكّ لقطيعة حتمية بين الإنسان **والكون**، وفي التاريخ الشعري **للغرب** كان ذلك حدثا حاسمًا، إذ وقع صَدْع رمزي لم ينجح في محو آثاره. ومنذ ذلك الحين عُدّت **الأرض** والسماوات أشياء مادّية خالصة، وعلينا التسليم بأنّه لم يعد لمفهوم الطبيعة دلالة، وقد تحدّث ماكس فيبر في وصفه لتلك الطفرة الثقافية عن "خيبة الأمل في العالم".

من ذلك الحين سيقيم الناس مثلما كان يتصوّرهم في كون ميّت، ويمكننا أن نتنبّأ بما سيترتّب على ذلك: سيموتون هم بدورهم في ذلك العالم الميّت. لمَ لمْ

يُنْصت **الغربيون** إلى ثلّة من المفكّرين المستنيرين الذين حاولوا تحذيره؟ لماذا تجاهلوا مثلا التشخيص الذي قام به سنة ١٩٣٥ الألماني إدموند هوسرل Edmund Husserl؟ لقد رأى في الانحرافات المتسلّطة للعلم الحديث "مصدر مآسينا كلّها"، ولم يستعمل هوسرل مثل هذه الكلمة الشديدة الوقع عن غير قصد، ذلك أنّه حينما أصرّ على القول بـ "أنّ مشكلة أزمتنا تقودنا إلى بيان السبب الذي جعل عصرنا الحديث الذي تباهى لعدّة قرون بنجاحاته العملية والنظرية قد دخل أخيرا نفق الضيق المتزايد، وأصبح يستشعر أنّ وضعه وضع محنة أيضا"، حملت المحاضرة التي تحدّث فيها هوسرل بهذه الطريقة عنوان أزمة الإنسانية الأوروبية، ماذا كان عساه يقول لو تسنّى له أن يلاحظ الهذيان خلال عقد ١٩٩٠ و٢٠٠٠؟

وإلى جانب عبارة "خيبة أمل العالم" نجِد عبارات أخرى مرادفة تقريبا مثل " خلع القداسة عن العالم"، ولقد جرى الحديث حول " الكفّ عن وضع العالم في سياقات أعمّ"، لم تكن هذه العبارة أنيقة، ولكنّها كانت تعني أمرا مهمّا: فقد تبخّرت كلّ فكرة مفادها الانسجام الشامل بين الأشياء، بعد اعتماد الفلسفة الآلية، ولم يعد ثمّة سوى عناصر خالية من أيّ دلالة روحية تتفاعل فيما بينها ميكانيكيا، ولم يعد الإنسان نفسه منضويا داخل "سياق" معيّن، أي داخل سيناريو شامل يؤثّر في خياله وحسّه.

ورغم ذلك، قدّرنا -بعد تفكير عميق- أنّه من الأفضل الحديث عن "خيبة أمل" كان سببها الفكر الديكارتي، ومنذ ذلك الحين لم يعد اللامعقول ممكنا، ولم يعد هناك مكان للسّواحر في العالم الآلي، بل: لم يتمكّن أهل الحداثة من مكْنَنة العالم إلا بالقضاء عليهنّ. وسنعود -فيما سيأتي- إلى هذا الموضوع الذي تحاشاه "العقلانيون" في معظم الأحيان، ولكن لنؤكّد أوّلا أن الإحيائية كلّها كانت مهدّدة،

ولا نعني بذلك أساطير **الغرب** فقط، وإنما أساطير الحضارات الأخرى أيضا.

لقد أدرك الصينيون مثلا تفاعل مبدأين في الكون اليِنْ (المؤنث) واليونغ (المذكّر)؛ لذلك أقيمت بين الإنسان والأشياء (وفيما بين الأشياء نفسها) جملة من التناغمات والتوافقات والمماثلات والتقابلات بينها الكثير من الفروق الدقيقة، ولم يكن الأمر في الصين يتعلّق بإقامة علم"موضوعي" يسمح بالتحكّم في الطبيعة بخشونة، كما ذكر ذلك المختصّ في الحضارة الصينية مارسيل غراني Marcel Granet، بل على العكس من ذلك، "فبفضل المساهمة الناجعة لبني البشر، ونتيجة للانضباط الحضاري يتحقّق النظام الكوني"، ولقد كتب مارسيل غراني يقول: في الصين أيضا " لا يشكّل الإنسان والطبيعة مملكتين منفصلتين، بل مجتمعا واحدا".

كان الكون عبارة عن شبكة واسعة من الرموز يتعيّن فكّ شفرتها، إثر ذلك يمكن تأسيس جملة من التقاليد والممارسات من شأنها أن تدمج الأنشطة الإنسانية داخل حياة **الكلّ**، ولقد قيل في اليي كنغ Yi-King (كتاب التحوّلات): " إنّ الامتزاج المتواصل بين **الأرض والسماء** يهَب جميع الأشياء أشكالها، والالتحام الجنسي بين الرجل والمرأة يهَب الأشياء كلهاّ حياتها"، لقد كان الفكر الصيني فعلا "خاضعا للسيطرة التامة لعنصر الجنس".

ولقد صادق على هذا القول مختصّ آخر في الحضارة الصينية يدعى روبار فان غوليك Robert Van Gulik حيث كتب يقول: " إنّ العلاقة الجنسية (في الصين) هي أساس الحياة الكونية"، فعندما تنزل الأمطار الرعدية تباشر **السماء الأرض**، ولا يتعلّق الأمر هنالك بمجرّد استعارة يراد بها " بديع القول"، لقد كان في كلّ الثقافات التي تُنعت بـ"البدائية" معتقدات من هذا القبيل، شأنها في ذلك شأن عالم اللامعقول المليء بالألغاز والأرواح والرسائل، حتى الحجارة كانت

تشارك في الحياة الكونية، فقد ذكر إيريك غونتيي أنه كان يعتقد قديما " أنّ النيازك كانـت تأتي من السـماء محمّلة برسـالة مـن الآلهة وكانت محـلّ تقديس حقيقي"، وكانت المغارات تمثّل رحم الأرض الأمّ " وكانت أنهار بلاد الرافدين ذاتها تنحدر من من رحم آلهة كبرى"، والكلمة نفسها أيضا تطلق على النهر وعلى فرْج المرأة، ومـع ديـكارت وضـع ذاك كلّـه في سـلّة الشـعوذة الدنيئة، لقـد صودر إذن الشّـعر الحقيقـي، أمـا السـبيل الوحيدة غير "المشـعوذة" فـي النظر في الطبيعـة فقد كانت تتمثّـل فـي اعتبارها فضـاء كبيرا تملؤه الآلات الصغيرة، حيث سـيجرّد الكون في المستقبل من فضائله المثيرة كلّها، ولن يكون للبشرية المفكّرة معه إلا علاقة السيد بعبده، فإزالة اللامعقول كانت إزالة للإثارة من العالم أيضا.

مـن المؤكّـد أنّ رينيـه ديكارت قـد رفع إشـارة النهاية فقط، فلقـد فُرضت في القرن السـادس عشـر -على حدّ قول إيوان كوليانو Ion Couliano- رقابةٌ مشدّدة على الخيال الرمزي، لقد كان لكثير من كبار العقول في عصر النهضة رؤى خارقة للعـادة حقّـا، إذ صوّر جيوردانو برونوGiordano bruno الكون جسـمًا حيّا كبيرا، قبل أن ينتهي به المطاف إلى المحرقة سـنة ١٦٠٠، ولم يتردّد في اسـتخدام صور تشـبه تلـك التي صادفناها عنـد الصينيين، من قبيـل أنّ الكائنـات الحيّة ولدت من تـزاوج بيـن **الشـمس والأرض**، ولكن كانـت البروتسـتنتية هناك بالمرصـاد، نعني بذلـك نزعـة **الإصلاح**، وهـو ما دفـع بالكنيسـة الكاثوليكية إلى **الإصـلاح المضادّ** (مجمـع تريتنـو ١٥٤٥-١٥٦٣) Concile de Trente. لـم يكـن الوصـل الوثيـق الـذي أقامه برونو بين الشـهوة والخيـال والإيمان قادرا علـى الصمود طويلا، فقد وضع ديكارت أقسـاما، فخصّص للإله مكانا صغيرا عند بدء الخليقة، ولكنّ حياة الروح سيكون لها شأن، وسيكون لعبادة العلم شأن آخر، فأنْ نؤمن وأن نحلُم وأن نحسّ وأن نحبّ وأن نعرف أعمال أصيلة ستتبعثر، ولا أمل في أن تعود، ولقد قال

الأستاذ دوبان " إننا نعلم نتيجة ذلك، فالفنّ يهتمّ بالجمال، والدين يدعو إلى الخير، والأخلاق تُعنى بالمفيد، والعلم يرنو إلى الحقّ، والإنسان الغربي الحديث سيكون دوما محروما ممزّقا".

ولا توجد في لغة البراهمة[1] المقدّسة كلمتان مختلفتان تشيران إلى الفلسفة وإلى الدين كما ذكر ريمون شواب Raymond Schwab. وخلافا لذلك ذهب الغرب بعيدًا جدّا في تفكيك الروح الإنسانية، لقد رسَخ لدى فريق بحثنا يقينٌ بأنّ سبب هذا التشتّت الروحي هو القطيعة بين الإنسان والعالم، ولكن لم يكن لدى **الغربيين** زمن السقوط فكرة -ولو بسيطة- عمّا كان يعنيه هذا الاستئصال الجراحي تقريبا، لقد تعوّدوا على النظر إلى الطبيعة بطريقة فاترة مائعة، إذا صحّ القول، ولقد كانت بالنسبة إليهم مصدرا لمشاهد خلابة، وفضاء يجب استغلاله بأنجع طريقة ممكنة، ومن بين رجال العلم الأشدّ توغلا في الآليّة، ومن بين أبناء ديكارت الحقيقيين، كان هنالك البعض ممن قيّموا الأمور بكلّ وضوح، فلم يكن لفظ حياة يعني سوى جملة الظواهر الحيوية بالمعنى المادي الضيّق للعبارة، ولم يكن غير وعاء جامد، يطلق فيه أهل الحداثة العنان لنشاطهم، لقد كتب بيولوجي مشهور جدّا يدعى فرانسوا يعقوب François Jacob يقول بكلّ جرأة: "لن يعرف طموح علم البيولوجيا الحدود في كون جُرّد من الخلق فأصبح متاحا"، وأضاف مشيرا إلى المشروع الديكارتي للسيطرة على الطبيعة فقال: "إذا كان عالم الأحياء يتجه إلى المغامرة، دون غاية، فقد وجب على الإنسان أن يسيطر على الطبيعة"، وهذا يعني بحسب ما فهمناه أنّ الإنسان الذي فقد المُثل كلّها، ستكون في حوزته التكنولوجيا الحيوية التي ستزداد قوّة يوما بعد يوم. وهل في ذلك مواساة للإنسان

---

(١) البراهمة اسم يُطلق على أفراد الطبقة العليا، وهي طبقة الكهنوت أو رجال الدين عند الهندوس. (المترجمان)

حقا؟ وما عسى أن تفيدنا "السيطرة على الطبيعة" إذا كنا نعيش حالة من التذبذب الروحي ؟

وقد أكّد بيولوجي آخر شهير أيضا، يدعى جاك مونود Jacques Monod بطريقة أشدّ مأسوية، لكنها لا تخلو من تفاخر، أنّ على الإنسان " أن يكتشف عزلته الشاملة وغربته العميقة"، لأنّه " كالغَجَري يوجد على هامش العالم الذي هو مطالب بالعيش فيه، وهو عالم سدّ آذانه عن سماع موسيقاه، لا يبالي بآماله وآلامه، ولا حتّى بجرائمه"، لقد اعترف الكاتب نفسه بكلّ صراحة بأنّ العلم يمتلك " قدرة رهيبة لا على تحطيم الأجسام فقط، وإنّما على تحطيم الأرواح نفسها". إنّ هذا الضّرب من العدَمية المادية ليس بالجديد في حدّ ذاته، ولكنّه كان يستهوي كثيرا من البورجوازيين الذين يقال إنّهم مثقّفون، وإذا كان بيولوجيون كبار يفلسفون الأمور بتلك الطريقة؛ فلأنّ لديهم بالضرورة أسبابهم الوجيهة.

ولكن هل كان رجال العلم مؤهّلين أكثر من غيرهم؛ كي يُدْلوا بآرائهم حول معنى الحياة الإنسانية أو خلوّها من المعنى؟ لماذا كانت تعتبر خطاباتهم أصدق في المستوى الروحي من أحاديث المتنبّئين والشعراء؟ إنه لأمر غريب، خصوصًا إذا علمنا أنّ جاك مونو قد أسس فلسفته على مسلّمة بسيطة (هي "مسلمة الموضوعية"). إنّ تلك الأمثلة تتيح لنا -على أية حال- أن نرى لماذا عبّر المذهب الديكارتي عن المرحلة النهائية، وكيف أعلن عنها إذ يكون الغربيون خلالها أثرياء ولكن في حالة بؤس روحي؟

لقد عاين المؤرّخ والأنثروبولوجي ميرسيا إلياد Mircea Eliade أواسط القرن العشرين الأمور فقال: " إن التجربة المتعلّقة بطبيعة نُزعت عنها صفة القداسة أصلا، تعدّ اكتشافا جديدا لم تقبله إلاّ قلّة قليلة من المجتمعات الحديثة في

مقدّمتها العلماء، وبالنسبة إلى البقية **فالطبيعة** مازالت تمثّل "السحر" و "السرّ" و"الجلال"، حيث يمكن فكّ رموز الآثار التي خلّفتها المعتقدات الدينية القديمة (...) إذ لا يتعلّق الأمر بالقيم الجمالية والرياضية والصحية التي تنسب إلى **الطبيعة** فقط، ولكنه يتّصل أيضا بشعور غامض يصعب تحديده، يمكننا أن نطلّ دائما من خلاله على ذكرى تجربة دينية متخلفة"، وحتّى لدى المتحضّرين كان هناك دائما إذن قاع لمعتقدات "بدائية"، أمّا النخب الصناعية والتقنية والتكنوقراطية فكانت تعامل الطبيعة وكأنّها ميكانيكية خالصة، وربّما كان لديها ما هو أشدّ خطورة من ذلك: إذا لم تكن واعية بالآثار الثقافية التي تنجرّ عن سلب الطبيعة سحرها، وكما لم تدرك "موت المزارع"، لم تكن لديها فكرة عما كان يعنيه القضاء على اللامعقول، ومن البديهي أنْ كان ذلك بالنسبة إلى فريق بحثنا سببًا إضافيا لمزيد الاطّلاع.

ففي الأوساط التي يقال إنها مثقّفة كما لدى عامة الناس، كان الاعتقاد السائد أنّ كنيسة العصر الوسيط كانت المسؤولة الوحيدة عن اضطهاد السواحر، وكان من البديهيات الاعتقاد بأنّ كهّانا جهلاء ساديّين[1] تمكّنوا بمفردهم من إرسال بضع عشرات الآلاف من أولئك التعيسات إلى الجحيم، لقد وضّح كثير من المؤرّخين خطأ هذا الرأي المتداول، لكنه استمرّ طويلا، وكانت له مزيّة كبرى تتمثّل في أنّه قد أخرج العقلانية البورجوازية من دائرة الاتهام، ولقد رأينا من المهمّ إثارة هذه المسألة، فإذا كانت الكنيسة قد أوقدت المحارق فهل ينبغي مع ذلك أن نبرّئ **العقل**؟

لقد وجدنا بادئ ذي بدء أوامر عديدة في الإنجيل ومن بينها هذا الأمر الذي أخذ من سفر"**الخروج** وهو:" لا تترك أيّ منجّمة على قيد الحياة"، ولكن الكنيسة

---

(١) السّادي هو الذي يتلذّذ بتعذيب غيره. (المترجمان)

منذ زمن بعيد امتنعت عن تطبيقها بحذافيرها، ومن المدهش أيضا أنّ المنجّمات رغم العديد من الأحكام المبدئية كنّ يتمتّعن لعدّة عهود بشيء من الراحة، وينبغي أن ننتظر القرنين الثالث عشر والرابع عشر وخاصة القرن الخامس عشر كي تتعفّن الأوضاع فعلا، وتُقدّم سنة ١٤٨٦ إشارة ذات دلالة، ففي ذلك التاريخ صدر كتاب مطرقة الساحرات، وهو المؤلّف الذي كان "الدليل المُعتمد لمطاردة الساحرات"، فلم تكن الفترة الأولى من **العصر الوسيط** هي التي قد مورست خلالها تلك المطاردة إذن، وإنّما أواخر **العصر الوسيط** والقرون التي تلته، فلقد امتدّ "عصر الحرب الكبرى ضدّ اللامعقول" بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر، كما أشار إلى ذلك جاك لوغوف Jacques Le Goff. وكان **للكنيسة** وللسلطة الزمنية دور في ذلك لا شكّ فيه، (وخير مثال على ذلك فيليب الرابع الملقّب بالجميل Philippe le Bel وهو أحد أكبر الرواد المؤسسين **للدولة** الحديثة).

لقد بدت لنا المصادفة مثيرة للاهتمام، إذ بقدر ما تعزّزت سلطة التجار والمهندسين الثقافية، صارت مطاردة الساحرات مُمنهجة شرسة، فلم يكن الحداثيون إذن (ومن بينهم رجال القانون والسلط السياسية) أقلّ نشاطا في هذا المجال ممّن كانوا يمثلون "الظلامية"، ولقد أكّد ذلك بوضوح أستاذ جامعة هارفارد ويدعى ستانلي جاياراجا تامبياه Stanley Jeyaraja Tambiah بقوله: " لقد بلغ عدد ضحايا ذلك الاضطهاد ذروته فجر عصر العقلانية والحضارة الحديثة"، ولقد استشهد بالمؤرّخ هوغ فريفور-روبر Hugh Trevor-Roper إذ ذكر " أنّ سنوات ١٥٠٠ و١٥٥٠ كانت أشدّ وطأة، وفي الجملة كانت المحاكم المدنيّة تتابع ذلك بشكل أشدّ شراسة من المحاكم الكنسيّة.

مع التذكير بأن عادة إيقاد المحارق حدثت قبل تلك الفترة بكثير، فقد روى

ميشلي في كتابه الساحرة حيث يتحدّث عن القرنين الخامس عشر والسادس عشر أنّ "الأسقفية الخفية لمدينة بامبرغ Bamberg قد أحرقت ستّمئة شخص في وقت قصير، وألقت أسقفية وورتزبورغ Wurtzbourg بتسعمئة نفر طُعْمة للنار"، وذكر الكاتب نفسه أنّ القضاة كانوا مع ذلك "كهانا أشدّ بأسا من الكهان أنفسهم"، وفي السياق نفسه ألقت محكمة تولوز *Toulouse* العليا لوحدها في المحرقة أربعمئة جسد بشري دفعة واحدة"، وقد شهد زمن ما سمّي **بالثورة** العلمية تراجعا، وقد صدر الكتاب الشهير لغاليلي حوار حول النظامين الكبيرين للعالم (١٦٣٢) خلال العشرية الأشدّ دموية، مثلما أشار إلى ذلك بريان إيزلي Brian Easlea في مؤلّفه حول العلم والاضطهاد الجنسي، وتنطبق الملاحظة نفسها على كتاب خطاب في المنهج لديكارت. أليس لتلك التضحيات المذهلة التي كانت تستهدف **الغريزة والمرأة والطبيعة** دلالة روحية عميقة؟ لقد أكّد المؤرّخ ج. زيلبورغ G. Zilboorg هذا الأمر حيث قال: " لم يشهد تاريخ البشرية قطّ إهانة منظّمة للمرأة تضاهي تلك الإهانة".

ذلك أنّ العرافة كانت في الأصل شأنا من شؤون النساء بداهةً، فمن خلال الساحرة كانت "الأنوثة" ذاتها (بما تحمله من معان) ترزح تحت الاضطهاد العنيف إذن، ولقد وُجدت بعض المنجمات حقّا، ولكنهن كنّ أقلية، ولدينا في ذلك شهادات عديدة، مثال ذلك تلك التي أدلى بها الفرنسي جون بودان Jean Bodin (١٥٣٠-١٥٩٥)، ولن نجد خبيرا في ذلك أفضل منه، إنه هو من أنعش حقّا حملة مطاردة المنجّمات أواخر القرن السادس عشر، لقد كان -وهو أحد فقهاء الاقتصاد والحكم الملكي- يقدّس النظام: "لا شيء في العالم يسرّ العين أو يدخل البهجة على العقل أو يخدم مصالحنا كالنظام"، فكان أن قاده تصوّره للنظام البورجوازي إلى مقت المنجّمات، وبما أنّهنّ قد اخترن طريق **الشيطان**، فقد كان لا بدّ من

معاقبتهـنّ، أو بعبـارة أخرى حرقهنّ. لقد كتب هـذا المفكّر الحداثي الكبير، وكيل الملك وصديق الإله، في كتابه شـيطنة المنجّمين "مهما عظم العقاب الذي نأمر به في حقّ السـاحرات كأن نشـويهنّ شـيئا فشـيئا أو أن نرمي بهنّ في النار، فإنّ ذلك العذاب ليس إلا قليلا من كثير إذا ما قورن بما ينتظرهنّ في (نار جهنّم) من عذاب دائم؛ لأنّ النار في هذه الدنيا لا تدوم أكثر من سـاعة قبل أن يهلكن"، لقد كان هذا الرجل ذو المعرفة الدقيقة بتلك الأمور واضحا :"كان هناك ساحر على كلّ خمسين ساحرة"، ومن السهل تفسير الظاهرة، فحسب بودان ومنظّرين آخرين كانت المرأة تتّصف "بجشع حيواني" أوَلَمْ يضع أفلاطون المرأة في منزلة بين الإنسان والبهيمة؟

لقد ذكّرنا ميشـلي بعبارة كانت تردّد في القرن السـابع عشـر:"لكلّ ساحر ألف ساحرة"، فإذا تجاوزنا تأكيد الدلالة الرمزية لتلك المحارق الكارثية، خطر ببالنا ما ذكـره الأسـتاذ دوبـان مـن أنّ الكثير من النسـوة في القرن العشـرين قد نسـين تلك الأحـداث الاسـتثنائية أصـلا، فبقدر ما كـنّ "مثقفات" كـنّ على ما يبـدو فخورات بالتشـبّه بالرجال، خاصة منهم الذين يمثّلون النخبة، وما يثير الاسـتغراب أن الأمر قد آل ببعضهنّ في ذلك الإطار "الحداثي" إلى حدّ الفخر بتقلّد منصب رئيس مدير عام، أو بتولّي إدارة مخبر علمي، ولا شـيء يبعث فيهنّ المتعة أكثر من أن يسـمعن مـن ينادـين بألقاب مثل السـيدة الرئيسـة أو السـيدة المديرة، ولكن نسـاء أخريات قليـلات حافظـن علـى الذاكرة، بل لقد أنشـأن مجلة عنوانها سـاحرات، وشـرحْن وجهـة نظرهـنّ بألفـاظ لاذعـة، فـ"لمـاذا منجّمـات تحديـدا؟ لأنّهنّ كـنّ يرقصن، ولأنّهنّ كنّ يغنّين، ولأنهنّ كنّ على اتّصال مباشـر بالحياة، وكانت أجسـادهنّ في ارتباط مباشـر بحياة الطبيعة، وبحياة أجسـاد الآخرين، ولأنّهـنّ يتمتّعن، لقد أردن إقناعنا بأنّ النساء كنّ يعانين البرود الجنسي بتصنّعهنّ الحياء والعفّة".

ينبغي القول بأنّ مثل ذلك الكلام كان يعدّ من قبل "العقلاء" تعبيرا عن نسوية مغالية مَهُوسة تقريبا، لمَ نسوا أنّ تصفية الساحرات كانت أكثر هوَسا، إذ لم تكن المرأة وحدها قد وضعت تحت الرقابة المشدّدة، وإنّما الحياة الجنسية نفسها أيضا، لقد كتب أيضا أحد مشاهير الأطباء أواخر القرن التاسع عشر، وأحد أخصّائيي الاضطرابات الإنجابية، يُدعى ويليام أكتون William Acton يقول: "عادة ما تتناسب القدرات الفكرية عكسيا مع الشهوات الجنسية"، وفي الميدان الشعري لم تكن الخسائر أقلّ، حيث كان لتصفية الساحرات دلالة ثقافية واضحة، إذ لا مشروعية إلاّ مشروعية الرؤية الميكانيكية للطبيعة، والخبراء "الجدّيون" الوحيدون من الآن فصاعدا، هم المهندسون ورجال العلم، فقد كانوا هم القادرين وحدهم على معرفة الواقع، أما الآخرون فحسبهم العيش في غمار المظاهر الخارجية الخادعة.

ويكفي إلقاء نظرة على الماضي لكي نتأكّد من ذلك، لقد تعرّض حسّ الغربيين إلى تمزّق حقيقي، وحتّى أولئك الذين كانوا ممثّلين بارزين للفكر الجديد في عصر **النهضة** وفي القرن السابع عشر، بقوا متمسّكين بـ"الإحيائية"[١] أي بفلسفة المنجّمات، وكان ينبغي عليهم بذل جهد كبير للتخلّص منها، ولم ينجح بعضهم في ذلك.

---

(١) الإحيائية (Animism) بمعنى «الروح والحياة» هي الاعتقاد بوجود الأرواح، وأن أي نظام حي أو كائن أو نبات أو جماد يمتلك نوعاً من الروح مثل الحجارة والنباتات، وكذا الظواهر الطبيعية مثل الرعد، وحتى التضاريس الجغرافية كالجبال والهضاب والسهول والأنهار. مع الإشارة إلى أن المؤلف سبق أن استعمل مصطلح الأرواحية (Spiritisme) بالمعنى نفسه فوجب التنويه إلى أن تعدّد الاصطلاح في الأصل الفرنسي وليس من شأن المترجمين. (المترجمان)

ففـي عصـر النهضة - كما سـبق أن ذكرنـا ذلك بعجالة- بقي يُنظـر إلى الكون علـى أنّـه كائن حيّ، ولقد لقي كتاب عنوانه: غاية الحكيم، يتناول مناجاة الأرواح، نجاحًا باهرا، ومن خلاله نتعلّم ما يلي: "يمكننا أن نتحدّث مع أرواح الكواكب".

ولقد أمكن لأحد كبار الفلاسفة الإنسانيين في القرن الخامس عشر، ألا وهو مارسـيليو فيسـينو Marsile Ficin أن يؤكّـد بكلّ ثقة أنـه: "لا يوجد في هذا العالم الحيّ مـن كائن مشـوّه إلا وله روح"، أو قولـه: " إنّ حياة الكـون الحاضرة في كلّ مـكان، تنسـاب في الأشـجار، وهـي بمثابة الشـعر بالنسـبة إلى بدنه ورأسـه، وفي الحجر والمعادن التي تمثّل أسنانه وعظامه".

لقد كتب المؤرّخ أندري شاسـتيل André Chastel حول رؤية فيسينو للعالم مـا يلـي: "يبـدو الكون في صورة جسـد عمـلاق في حالة اهتـزاز دائـم، باعتبار أنّ الكواكـب هي منبع القوى الحية في المـادّة الجامدة وفي النباتات وفي الحيوانات نفسها".

ومـن اليسير إذن -إذا ألقينـا نظرة إلـى الماضي- أن نفهم المشـكلة التي كان يواجههـا **الغـرب**. فهـل كان من الممكن أن يبقى على قيد الحياة ذلك الشـكل من الإحسـاس فـي عالم المهندسـين؟ وإذا لم يكن العالم سـوى عجلات ومسـنّنات وتُروس، فأنّى للإنسان أن يرى فيه الهزّة الروحية؟ والحقّ أنّ فيسينو نفسه قد لحقه إلـى حـدّ بعيد بعضٌ من عدوى الاسـتيهام[١] الجديد. وإليك نصّـا غاية في الغرابة حـاول مـن خلاله تحديـد حالة الإنسـان، حيث يقـول: " إنّنا مشـدودون إلى الآلة بثلاثة حبال معدنية، مثلنا في ذلك مثل الجنين الذي يُشَدّ في بداية نشأته إلى جسم أمّه بأربطة وثيقة"، وتظهر لنا بوضوح طريقتان في "الإحسـاس" بالعالم، تتمازجان

(١) التصور التخيُّلي الخادع كالحلم والوهم والهلوسة. (المترجمان)

هنا بأسلوب لا يخلو من براعة، فمن جهة وصَفَ العالَـمَ باعتباره آلة وقُمْرة قيادة يُشَـدُّ الإنسـان إليها بأسـلاك معدنية، ثمّ شبّهه من جهة أخرى برحم الأمّ حيث كان الإنسان جنينا في قرار مكين ينبض حياةً. ولم يكن مارسيليو فيسينو بداهةً فيلسوفا آليـا رغـم استعارته صورةَ الآلـة، لقـد كان يعني بالأسـلاك الثلاثة البـدن والروح والعقل، ويعدّ هذا النصّ على أية حال شهادة قيّمة يتسنّى لنا من خلالها إعادة بناء تاريخ الإحسـاس في **الغرب**. إنّ المأزق الأكبر -كما قال الأسـتاذ دوبان- كان قد أُعلِـن عنـه ضمنيّا، إذ سيأتي على الغرب يوم يكون فيه مُجْبَـرا على الاختيار: فإمّا الآلـة وإمـا الحيـاة، وربمـا كانت حـال ليونـاردو دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩) تشدّ الاهتمـام أكثـر من غيرها، فقد عاش التحوّل الحاسـم، مثله في ذلك مثل فيسـينو، لكنّـه كان مهندسًـا، بـل مهندسـا حربيّـا، ولم تكـن ازدواجية شـخصيته أقـلّ إثارة للدهشـة، ولا أحد يشـكّ فـي أنّ ليونـاردو كان من رواد الحداثـة، ألم يكن يصف نفسـه بأنّـه " ليوناردو دافنشـي تلميذ التجربـة"، إذ لم يكن مبتكرا عظيما فحسـب، وإنّما كان يتمنّى بكلّ جوارحه ظهور علم حقيقي نافع. لقد صرّح بأنّ "الميكانيك هـو جنّة العلوم الرياضيـة"، وهكذا كتب عنه لويس روجييه Louis Rougier فقال إنّه لم يكن تقنيّا لامعا فحسب، وإنّما كان تكنولوجيا، أي رجلا " ينشئ العلم الذي يبنـي عليـه تقنيتـه"، ولكن هذا الرجـل الميكانيكي والمهنـدس المعماري في الآن نفسـه كان يعبّر عن نفسـه في أغلب الأوقات بلغة الإحيائي، بل قل بلغة السـاحر، فمثـلا كان يتحـدّث عـن الحيوانات مرارا عديـدة مثلما تحدّث مـن كتبوا عنها في عمـق **العصر الوسـيط**، وبعبـارة أخرى كان يروق له أن يجد لديهم وسـائل روحية فالقُمْريـة[1] مثـلا "لا تخون رفيق دربهـا أبدا، فإذا مات أحدهما ألْـزَم القرين العفّة مـدى الحيـاة، فلا يحطّ بعـد غياب قرينه على غصن أخضر أبدا، ولا يستحمّ بماء

---

(١) هي طير من جنس الحمام وهي من القواطع. (المترجمان)

نَمِير"، وبعض الحيوانات الأخرى كانت تبدو أكثر إثارة لعدم الارتياح، "بسبب شهواتها التي لا حدّ لها، فالخفّاش لا يتبع قانون الطبيعة عند التزاوج، فيقترن الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى، كلما التقيا صدفة"، والحيوانات الأروع بالنسبة إلى هذا المهندس الذي عاش في القرن الخامس عشر، كانت الحيوانات الحقيقية: "فالبازيليك *Le basilic* [1] قاسية إلى حدّ أنّها إذا فشلت في قتل الحيوانات بسُمّ عينيها التفتت إلى الأعشاب والنباتات فجعلتها حطاما بمجرّد النظر إليها بعينها السامة"، ولقد أظهر ليوناردو العظيم ما هو أفضل من ذلك، ألا وهو حسّه "البدائي" المحض.

وفي تعبيره عن أقوى الأحاسيس التي كانت تخالج كلّ إنسان ما قبل حداثي، ولا ريب في أن ليوناردو أثار مفهوم **الكلّي** فقال: " كلّ جزء يحاول بلوغ الكلّي حتّى يتخلّص من نقائصه الخاصة"، لقد كان باستطاعته اعتبار **الأرض** كائنًا حيّا، مثله في ذلك مثل **الهنود** الذين سبق ذكرهم في تأمّلاتنا الأوّلية، حين قال: "كثيرون هم أولئك الذين يسلخون أمّهم ثمّ يعيدون إليها جلدها، ونعني بهم من يحرثون الأرض"، وإليك أيضا هذا التحليل الجيولوجي " إنّ الماء الذي يسري داخل الجبل هو الدم الذي يبقيه على قيد الحياة، وإذا حدث أن انفجر أحد عروقه، سواء داخله أو في جانب من جوانبه، هبّت له الطبيعة تحدوها الرغبة في مدّ يد العون إلى أعضائها، وتعويضها عمّا تكبّدته من خسائر في الماء، مثلها في ذلك مثل الموضع الذي تلقّى فيه الإنسان إصابة، فكلّما جاءت الإسعافات رأيت الدم يتدفّق تحت الجلد ويشكّل تورّما غايته فقع الموضع المتعفّن"، فإذا كان ماء الجبل قد تحوّل إلى دم، فذلك ليس مجرّد

---

(١) حيوان أسطوري يشبه الحيّة ويعرف بسطوته الخارقة. (المترجمان)

استعارة "شعرية"، مثل التي كان ديكارت نفسه يستخدمها كما يستخدمها غيره من أدعياء الشعر، إنّها إحيائية عميقة تَعمل الفلسفة الآلية على إسكاتها، أو على إضعافها على الأقل.

لم يكن ليوناردو دافنشي شاعرا فقط، بل لقد كان متنبّئًا؛ خذ لذلك مثلا هذه اللوحة القاتمة التي رسمها تحت عنوان: من قسوة الإنسان، حيث يقول: "سوف نرى على هذه الأرض مخلوقات تتقاتل دون هوادة، وستكون الخسائر فادحةً جدّا في الأنفس والأموال في صفوف الجانبين، والمكر عندهم لن تكون له حدود، وسيقطع بعض المتوحّشين منهم أشجارا كثيرة من جذوعها، حتى إذا ما قضوا أرَبَهم اتجهوا إلى إشباع رغباتهم في القتل والإيلام والتعذيب والترهيب والقضاء على كلّ شيء حيّ (...) لن يبقى شيء فوق الأرض أو تحتها أو في الماء إلا تتبّعوا أثره، فاعتدوا عليه أو حطّموه، وما كان في بلد فسينتقل إلى بلد آخر، وستصبح أجسادهم نفسها قبورا وسراديب لكلّ الأجسام الحيّة التي قتّلوها، أيّتها الأرض ماذا تنتظرين لتنشقّي فتبتلعهم شقوقك السحيقة وكهوفك، فلا يظهر بعدها وحش بمثل تلك الهمجية والشراسة". وبعد ذلك تجاهل الغرب هذا الكلام بتعلّة ما فيه من فظاظة، فلم يكن مقبولا نصّا وأسلوبا، لا فقط لأنّ بإمكانه أن يؤلم التفاؤل التقدّمي، ولكن لأنّ المجتمع الصناعي لا يمكنه أن يسمع النفس "البيئي" المبكّر الذي تضمّنه.

فغاليلي العظيم نفسه لم يتوصّل دفعة واحدة إلى أن يرى الكون في صورة آلة همجيّة، فقد بقي محتفظا هو نفسه بمعتقدات "قديمة"، لقد تعلّم شأنه في ذلك شأن العديد من علماء عصره التنجيم عند دراسته للطبّ في مدينة بيزا Pise. وقد بقيت على حالها كثير من خرائط الأبراج التي رسمها، وخاصة منها المتعلّقة

بِنْتَيْـه[1]. ولكـن الفكـر التنجيمي ينطوي علـى الاعتقاد فـي أن الكواكب تؤثر في الأرض، وفـي الكائنات كلّها، تأثيرا يصعب شـرحه، وكانـت لغاليلي أحيانا أفكار شـائنة أكثـر مـن التي ذكرنـا بكثير، فعندما بلغ الحادية والخمسـين مـن عمره صار يداعب فكرة تقول بوجود روح ذات "قدرة حرارية ولاّدة" قبل أن تخلق الشمس.

انظر كيف شـرح من سـيصبح يوما رمزا من رموز العلم الحديث هذه الفكرة فـي رسـالة بعث بها إلى الأسـقف بياترو دينـي Pietro Dini في ٢٣/ ٠٣/ ١٦١٥ يقـول فيهـا: "ومن ثـمّ يمكننا القول بكثير مـن المعقولية بأنّ تلـك الروح الخصبة، وذلك النور المترامي في أرجاء العالم كلّه، يعملان معا من أجل أن يكونا متّحدين قويين، الجسم الشمسي الذي توسّط الكون، سينتشر من جديد بعد أن أصبح أشدّ تألّقـا وأعظـم قوّة". لقد علّـق المؤرّخ أوجينيو غاريـن Eugenio Garin على تلك النظـرة إلـى الكـون بقوله: "بعبـارة أخرى فإنّ الشـمس في نظر غاليلي تعدّ وسـيط النـور الأوّل وهـو مصدر الحياة والعالـم الحيّ"، ومن البديهي أنّ هذا الوجه الآخر من شخصية غاليلي بقيت الشعوب الغربية الحديثة تجهله جهلا تاما، ولقد تساءل الأستاذ دوبان: " فالإنسان العادي ماذا عساه يقول لو كان قد علم أنّ غاليليو غاليلي هو أيضا كان يعتقد في أسوأ هُراء تبيح كنائس العقلانية التشهير به؟"

مـن الواضـح أن غاليلـي عندما أثار مسـألة معجـزات النور لـم يكـن يفكّر في نظرية الانفجار الكوني، أو نظريات أخرى من ذاك القبيل، والحقّ أنّ ذلك النور لا يمـتّ بـأيّ صلة إلى وحـدات الكم الضوئي فـي العلم الحديث بكلّ بسـاطة. كان غاليلـي يكـرّر تعاليم القبالة[2] المتمثّلة تحديدا في "موضوع تركيز الضوء في نقطة

---

(١) وضع خريطة لبُرْجَي بِنْتَيْهِ فيرجينيا وليفيا. (المترجمان)

(٢) هو علم تنجيم في التقاليد اليهودية يقوم على التواصل مع عالم الأرواح. (المترجمان)

مـن النقاط وإمكان إشـعاعه على نحـو انفجاري"، كما كتب ذلـك أوجينيو غارين Eugenio Garin.(كانت القبالة تقليدا ذا أصول يهودية نشرها المنجمون، وكانت تفضي دوما إلى حسـابات فلكية دقيقة تتعلق بوضع شخص من الأشخاص، وإلى فظاعـات أخـرى يستشـنعها أنصـار العقلانية)، ويضيـف غاليلي قائلا إنّ **الشـمس** كانت موقد الحياة الكونية دائما، مثلها مثل القلب النابض بالحياة في الحيوان، لقد آمـن غاليلي إذن شـأنه شـأن فيسـينو وليونـاردو دافنشـي (أو قل حـاول أن يؤمن) **بالحياة** الكونية وبوحدة **الكلّ** التي هي غاية في التجذّر؛ تلك هي الخلفية التاريخية العجيبـة للثـورة الديكارتيـة، ولقـد اعتبـر فريق بحثنـا أنّ لهذا الاسـتنتاج تداعيات مهمّة.

لقـد عبّـر بالخصـوص عـن أنّ الديكارتية كانـت ضربًا من ضروب التعسّـف الثقافـي العنيف، بل المزلزل. وحول هـذه النقطة (تحديدا) كان العالم البيولوجي جـاك مونـود قد أصاب حين قال: "لم يشـهد أيّ مجتمع مـن المجتمعات مثل هذا التمزّق من قبل"، ولقد اعترف هذا المدافع المسـتميت عن الهباءة[1] بكلّ صراحة بمـا كان يخفيـه كثير من العقلانيين الأوفياء وراء خطابات إنسـانية ناعمة، فإذا كان القضاء على السـاحرات همجيا، فإنّ "التصفية" التي قام بها تلاميذ ديكارت داخل العقول لم تكن أقلّ همجية منه.

وهذا مثال أخير يبيّن أنّ دائرة تفكير الديكارتيين نفسها كانت تتضمّن مفكّرين قد عارضوا عبادة الآلة بشدّة، من ذلك الألماني من أصل سلافي غوتفريد ويلهلم لايبنيتـز Gottfried Wilhelm Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦)، إذ تكشـف تأملاتـه

---

(١) الهباءة هي أصغر جزء ينتج عن تجزئة المادّة ويبقى محافظا على صفاتها وخصائصها كافّة. وهو جزء لا يرى إلا بالمجهر. (المترجمان)

بوضوح صراع الاستيهامات الذي عَرَضْنا له عند أمثال فيسينو أوليوناردو دافنشي، فهل الطبيعة حيّة كما كان ينادي بذلك البستانيون؟ أم لا بدّ لنا من تبنّي التصوّر الميكانيكي؟ لقد وجد لايبنيتز نفسه بين أمرين أحلاهما مرّ، وكان في جانب من شخصيته حداثيّا مثل ديكارت، يعتقد أنّ الطبيعة يمكن أن تخضع للتحليل بصورة آلية رياضية، ولقد كان يعلم ذلك علم اليقين فهو من اخترع آلة حاسبة وهو من ابتكر (بالاشتراك مع إسحاق نيوتن) حساب التفاضل والتكامل (في الرياضيات)، وهو المنظّر للميكانيك بفكر ثاقب، وهو من فهم فهمًا عميقًا ماهية العلم السائد، ولكن كان في داخله شيء يدفعه إلى أن يقاوم، وهو شيء من المزارع ومن الإحيائي ومن القديم المهجور، لقد كان هذا الرجل مثالاً حيّا على أزمة الإحساس، ففي مؤلّفه المونادولوجيا[1] وجدناه بالفعل يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى.

ففي مرحلة أولى كتب ليبنتز متأثرا بالديكارتية يقول: "كلّ جسم عضوي لكائن حيّ هو نوع من الآلة الإلهية، أو هو إنسان آلي طبيعي، يفوق إلى أبعد حدّ كلّ إنسان آلي اصطناعي"

ولماذا يتجاوز الجسم الحيّ كلّ آلة صنعها الإنسان؟ لأنّ "آلات الطبيعة" كانت في أحسن تقويم، حتّى في أدقّ جزئياتها، فالطبيعة بهذا المعنى ليست سوى عجلات، تتركّب مادّة كلّ عجلةٍ منها من عجلات أصغر، وهكذا إلى ما لا نهاية".

لكنّ لايبنيتز لم يكتف بذلك، فبعد أن خبِر الأسس التي تقوم عليها الفلسفة الديكارتية، قرّر أن يضيف إليها دون أن يحيد عنها تصوّرا آخر يقوم على فكرتي **الروح والحياة.**

---

(١) هي نظرية ليبنتز الفلسفية المؤمن بأنّ الكون مؤلّف من عناصر أوّلية. (المترجمان)

وقد طَفَت للتّوّ الأسـاطير الضاربة في القدم، لقد أعلن لايبنيتز أنّ الكون يعجّ بـأرواح لا تحصـى كثـرةً، ويخفي فـي طياته بـذورا للحياة لا تُـدرك بالحسّ، وفي السـياق ذاتـه تنـدرج هـذه الفقـرة الغريبـة التـي وردت تحـت عـدد ٦٧ مـن كتابه المونادولوجيـا، يقول فيها: "كلّ جزء من المادة يمكن تصوّره على شـاكلة بسـتان يعجّ بالنباتات، أو بركة ماء مليئة بالأسـماك، ولكن كلّ فرع من النبات وكلّ عضو مـن الحيـوان وكلّ قطـرة نـدى هي أيضـا بسـتان مماثل وبِركـة ماء مماثلـة"، ولقد وسّـعت الفقـرة ٦٨ دائرة هذه النظرة حيث يقول: "ومـع أنّ التراب والهواء اللذين يفصـلان بيـن نباتـات الحديقة، والمـاء الذي يفصل بين سـمك البركة ليسـت من النبات في شـيء، فإنها تحتوي على قدر منها، ولكن على نحو لطيف لا نشـعر به فـي معظـم الأحيان"، والنـاس -لقِصر نظرهـم- عاجزون إذن عـن الإدراك الكامل لهـذه الوفـرة في الحدائق والبِـرك المجهرية. وفي رأي لايبنيتـز ينبغي -مع ذلك- افتـراض وجودها، تقريبـا كالمراقب الذي يلاحظ عن بُعـد "حركة غامضة وقرقرة بركـة تعـجّ بالأسـماك، إن صـحّ القـول دون أن يرى الأسـماك ذاتهـا"، وهكذا فاز البستانيون ومربّو الأسماك هذه المرّة (ولو بصورة مؤقّتة) على الميكانيكيين.

إنّ للنظرة الليبنتزية إلى الطبيعة (والتي يمكن وصفها بالنظرة الطبيعية العضوية) -كمـا لاحظ ذلك المؤرّخون- أصولا متنوّعـةً جدًّا، لقد كانت ترتكز على تأمّلات بعض الفلاسـفة (والمقصود أفلاطونيـو كامبريدج Cambridge)، وفي الآن نفسـه علـى أعمـال بعض الطبيعييـن من أمثـال لوينهـوك Leeuwenhoek وسـواماردام Swammerdam، ولكـن ليبنتـز كان أيضا علـى دراية كبيرة بالفكـر الصيني، ومن المحتمـل أن يكـون قد أخـذ عن بعض المفكّريـن الكونفوشيوسـيين الجُدُد، ففي نظرته التي مفادها أنّ في كلّ شـيء حيّ بعضٌ من "بدائية" الشـرق؛ ومهما يكن من أمرٍ فـإنّ ثنائيـة الصور التي اسـتخدمها لايبنيتز كانـت تنمّ عن أزمـة ثقافية محقّقة،

ولكن لم تكن لتلك المعارضة -إن صحّ القول- نتائج تذكر، وهي النقطة التي استرعت اهتمام فريق بحثنا، فقد بقي الغربيون الأكثر نفوذًا حتى أواخر القرن العشرين، خاضعين خضوعًا تامًا لمنهج الفكر الديكارتي، (حتى وإن بدت لهم نقائصه). فلم يعد يرى علماء البيولوجيا الهبائية[1] والفيزيائيون والفلكيون وعلماء الإعلامية حدائق لايبنيتز وبِرَكَهُ، ولم يكن في جعبتهم سوى الحديث عن سلسلة الهباءات، وعن الجينات، وعن الجُزيئات الأوّلية، وعن الشبكات الإلكترونية، فلم يُظهروا للناس بالتعاون مع مبسّطي تلك العلوم فظاعة مشهد يجعل الكون آلة، ولقد كانوا يلحّون أحيانا على الوضع المعقّد، وحتّى "الكارثي" لبعض الظواهر. ويعني ذلك عمليا أنّ التحليل الميكانيكي قد وجد صعوبة في بلوغ أهدافه، وأنّ سيرورة بعض الظواهر الطبيعية كانت غير مُتوقّعة، ولكنّ ذلك لم يدفعهم إلى إعادة النظر في علاقتهم بالكون، وكانت الظاهرة "الفوضوية" -ويقصد بها تلك التي لا يمكن السيطرة عليها حسابيا- في نظرهم دوْما ظواهر ميكانيكية بالكلية، وكان لا بدّ أن تبلغ بهم الجرأة حدّ الصّلَف، كي يستطيعوا القول للدنيويين بأن العلم الحديث قد "تجاوز" فلسفة المنبّه الصباحي (كما فعل بعضهم).

من وجهة النظر الرمزية كانت الأمور واضحةً وضوح الشمس، فلقد استمرّ الفرنسيون قبيل **الانفجار الأكبر** (بسنوات) في عبادة ديكارت عبادة عمياء، ولم يتردّدوا في بناء مدينة ديكارت غير بعيد عن العاصمة باريس ما بين نوازي-لي غران Noisy-le-Grand وشان -سير-مارن Champs-sur-Marne وبذلك يتأكّد الدور الثقافي الكُلّياني -إن صحّ القول- للعقائد الميكانيكية، فقد جمع فعلا ذلك

(١) نسبة إلى الهباءة وهي أصغر جزء ينتج عن تجزئة المادّة ويبقى محافظا على صفاتها وخصائصها كافّة. وهو جزء لا يرى إلا بالمجهر. (المترجمان)

العلـم المقـدّس مؤسّسـات علمية وتقنيـة وتكنوقراطيـة مختلفة، مـن بينها جامعة مارن-لافالـي Marne-la-Vallée، والمعهـد العالـي للتكنولوجيـا التابـع لهـا، والمدرسـة العليا للمهندسـين فـي التقنيـة الإلكترونية والإلكترونيـات، ومركز بلّ Bull للتدريب، والمعهد الفرنسي لتنظيم المدن، وانضمّت إليها المدرسة الوطنية للعلـوم الجغرافية والمدرسـة الوطنية للإحصـاء وإدارة الاقتصاد، ولفرط إعجاب أحـد الصحفييـن بـ"مدينـة ديكارت" هذه، رفـع صوته قائلا -في انتشـاء- إنّ ذلك المكان لم يكن من قبل سـوى "حقل للِّفْت السُّكري"![1] ومنذ ذلك الحين استعاد اللّفت السكري سطوته.

لقد تقبّل الغربيون بقبول حسـن فكرة عالم تخلّص من ضروب السـحر كلّها، وأشـكال اللذّة كلّها. لماذا افتقدوا غريزة الشـعر إلى ذلك الحدّ؟ أمّا نوفاليس فقد فهم أنّ المفكّر الديكارتي النزعة قد تنكّر للحياة، فوصفه بهذه الكلمات: " إنّه يبني عالمه بذرّات منطقية، فيقتل بذلك كلّ طبيعة حيّة ليستبدل بها بناء فكريا اصطناعيا، فهدفه بناء إنسان آلي لامُتناه".

وفي القرن التاسع عشر دقّ بعض المفكرين المستنيرين ناقوس الخطر أيضا، لقد استنكر أميال: "هذه الديكارتية التي لا تُمْحى"، تلك التي يعاني منها الفرنسيون علـى وجـه الخصـوص، فقد كتب يقول: إنّ " الفكر والطبيعـة لا يتماهيان أبدا" في

---

(١) اللفت السكّري أوالشمندر السكري أو الشوندر السكري أو بنجر السكر، اسمه العلمي (Beta vulgaris Beta) نبات ذو شكل مخروطي من فصيلة السبانخ والسلق وهو أبيض اللون. يستخدم جذر الشمندر لاستخلاص السكر حيث تحتوي جذوره على نسبة من مادة السكروز. ويحتوي على مواد غير سكرية وأملاح معدنية وألياف. ومنه يُصنع ٢٥ ٪ من إنتاج السكر في العالم. وهو ثاني أهمّ مصدر لإنتاجه بعد قصب السكر توجد زراعة الشمندر في أوروبا وأمريكا الشمالية وآسيا بالخصوص. (المترجمان)

ذلك المذهب، وإذا ما ألقينا نظرة على الماضي بدا لنا التشخيص مؤكّدا: "إنّ الفلاسفة الفرنسيين، بلاغيين كانوا أم مهندسين، لم يحرّكوا فينا السواكن، لأنّهم لا يحملون في ذواتهم مجمل الحياة الكونية، ولا يسيطرون على الحقيقة الكاملة، ولا يوحون بأيّ شيء، ولا يفتحون آفاق الوجود، ولأنّهم يقيّدون حرّيّتنا، ويجفّفون منابعنا، ويضعوننا في ريبة من أمرنا. إنّ ما يعوز الفرنسيين دائما هو الإحساس باللامتناهي، والحدس بوحدة الحياة، وإدراك المقدّس، وتعلّم الغوص في أسرار الذات. إنّهم مَهَرَة ودنيويون، لأنّهم سطحيون، ولا يحسنون غير الحسابات (...) فالمقولة الآلية وميتافيزيقا الثنائية هي قمّة ما توصّل إليه فكرهم"، ويعني أميال بالثنائية هنا الفصل الجذري بين الذات والموضوع، وهو أن تنأى الذات بطريقة واضحة عن الكائنات والأشياء.

كان عوَز الفكر والحسّ - في رأي أميال- يَسِمُ اللاتينيين منهم خاصة، فكان محكومًا على "العالم اللاتيني- بحكم تشكّله الذهني- بأن يجْمد على مجرّداته، وبأن لا يدخل أبدا محراب الحياة المفعم بالحميمية في البؤرة المركزية، حيث الأفكار في حدّ ذاتها بعْدُ لم تنقسم ولم تتحددّ ولم تتشكّل. إنّ الفكر اللاتيني يجعل كلّ شيء موضوعيا، لأنّه يضع نفسه خارج دائرة الأشياء، وخارج دائرة ذاته نفسها"، ولكنّ العقل الجرماني (الذي يتخذه أميال ضديدا للعقل اللاتيني)، وصلت إليه العدوى في النهاية هو أيضا، ففي أواخر القرن العشرين وجدت المجتمعات التي توصف بالمتقدّمة كلّها على حال واحدة من الفقر الروحي، ومن أجل أن يفهم فريق بحثنا أبعاد هذا الحرص على "موضعة" كلّ شيء فهمًا تامّا، اهتمّ عن قرب بطريقة تمثّل الغربيين للكائنات الحيّة وللحيوانات على وجه الخصوص.

واليوم أي في سنة ٢٠٨١ لا تتردّد العقول الأعمق ثقافة والأوسع علما في اعتبار النباتات والحيوانات كائنات حيوية، تملك حياة لا تتوفر في الآلات، فالآلة بحكم تعريفها اصطناعيّةٌ بطبيعتها، باعتبارها من صنع البشر، أمّا النبات والطير والقردة سرعان ما نظر إليها -على العكس من ذلك- باعتبارها "طبيعية" "حيّة"، قد تشتبه الأمور في بعض الحالات فعلا، إذ يمكن أن نتخيّل مثلا اختلاط الأمر على أحد الملاحظين إزاء إنسان آلي يحاكي كائنًا حيّا على نحو مثالي، ولكن ذلك لا يزحزحنا عن الحقيقة قيد أنملة: فنحن نميّز تلقائيا تمييزًا جليًا بين الكائنات الحيّة والأدوات الميكانيكية أو الاصطناعية، فالذي يحبّ الطبيعة يتفطّن إلى الزهرة الاصطناعية في طرفة عين، والطفل مهما صغر سنّه لا يتأخّر كثيرا في التمييز بين أرنب ميكانيكي وأرنب حقيقي، ولكن يبدو أنّ الوضع في **الغرب** المصنّع كان مختلفا منذ القرن السابع عشر إلى أواخر القرن العشرين. لقد كان من المعتاد قبول فكرة أنّ الكائن الحي "مصنع هبائي معقّد"، لا يمكن الكشف عن بنيته واشتغاله إلاّ بتحاليل فيزيائية كيميائية.

هل كان أجدادنا يعتقدون فعلا أنّ اليعاسيب والفئران وأُسود البحر وأسماك السلَمون المرقّط والفيلة كانت آلات؟ لقد كان المشكل على درجة من الخطورة؛ لأنّ التصوّر الآلي للحياة قد عُرض على الشعوب الغربية وكأنّه معرفة موثوق بها.

لقد قال العالم البيولوجي جاك مونود مثلا وكرّر مرارًا بأنّ الحياة ظاهرة ميكانيكية خالصة، وكان ذلك الاستنتاج بالنسبة إليه "موضوعيا" للغاية، به انتفت ما سمّاها بـ"الأساطير الإحيائية الظريفة أو المخيفة"، لقد كان يدعو إلى بيولوجيا جيّدة تكون " آلية صرفا"، ولابدّ أن يكون حديثنا باستعمال مفاهيم كالجينات والكروموزومات والخلايا والأنزيمات وغيرها؛ لكي نتّسق مع مقتضيات

الحقيقة..؛ لأنّ سرّ الحياة يكمن في "المصنع الكيميائي"، وقد تحدّث هذا العالم نفسه في تناوله موضوع التفاعل بين الهباءات البيولوجية عن " المصنع المجهري للساعات"، وختم بكلّ نخوة بعد أن أحال على ديكارت بقوله: "الخلية هي آلة حقا"، وكان بإمكان تصريحات أخرى أن تحدث صدْعًا في مخيّلة عامّة الناس، كقوله بأنّ الكائنات الحية "آلات تكوّن نفسها بنفسها وهي تتكاثر".

لذلك تشكّل تصوّر اصطناعي للحياة إلى حدّ بعيد، ولقد توصّل بيولوجي فرنسي آخر يدعى فرانسوا يعقوب François Jacob إلى نتائج مشابهة "فما أثبتته البيولوجيا هو عدم وجود قوّة ميتافيزيقة تختبئ وراء ما يسمّى الحياة، وكانت هذه الألفاظ -كما نرى- شديدة الوقع، (فالأمر كان يتعلّق بالبرهنة)، والحديث كان فلسفيّا صريحا، وكان يترتّب على ذلك -إن كان فهمنا جيّدا- أنّ كلّ إنسان متحضّر حقّا، مطالب بضرورة اعتناق الفلسفة الآلية.

وكان هذا التمثّل قد عُمّم على نطاق واسع، ففي أحد الحوارات التلفزيونية أجراه أحد الصحفيين الفرنسيين سنة ١٩٩٢، كان البروفيسور هنري أتلان Henri Atlan واضحًا جدّا حين قال: "نحن نعلم الآن أنّ الكائنات الحية هي كائنات فيزيائية كيمائية، وأنّ علم البيولوجيا لا يخبرنا عن الحياة"، إنّ مثل هذه التصريحات تثير فضولنا، فإذا كانت البيولوجيا لا تخبرنا عن الحياة، فعمَّ تخبرنا إذن؟ إنها تخبرنا "عن اشتغال تلك الآلات التي تسمّى الكائنات الحية، التي لا تمثّل شيئا آخر في نظر العلوم غير كائنات فيزيائية كيميائية ذات خصوصية"، لقد تعوّد الغربيون إذن شيئا فشيئا على اعتبار الحيوان مجرّد آلة حيّة.

كانت نجاحات البيولوجيين في المستوى العملي قد عزّزت كثيرا مصداقية هذا التمثّل للحياة، فبفضل البيولوجيا الهبائية، وبفضل علم الجينات، وبعض

الاختصاصات المرتبطة بها، ضاعف الحداثيون إنجازاتهم في مجال تطويع الجينات والخلايا والأجسام والأنواع، فكلّما نجحوا في إبراز نبات جديد، أو حيوان جديد، (كانوا يتحدّثون عن نباتات وحيوانات محوّلة جينيا)، أُستُقبل الخبر بحفاوة، حتّى إنّ بعض الأطباء كانوا يحلمون بالقضاء على "الجينات البشرية الرديئة التي كانت سببًا مباشرًا أو غير مباشر فيما نعانيه من نقائص وأمراض، وفي سنة ١٩٨٩ تحدّث فرانسوا غروFrançois Gros، وكان خبيرا نافذا في الثورة الاجتماعية التي شرع في إنجازها، عمّا كان يسمّى العبقرية الجينية فقال: " إنّ عالم أصحاب القرار وعالم رجال السياسة والصناعيين يتفهّمون ميلاد تكنولوجيا حديثة تمثّل محرّكًا للعلوم البيولوجية، ونتاجا لها في الآن نفسه، ويمكن لنا أن ننتظر نتائجها العملية المهمّة، بل الثورية في مجال تربية الماشية وتوليد الطاقة والكيمياء والبيئة".

ولكن هل كانت النجاعة في نهاية الأمر كافية لإثبات أنّ الأحياء والآلات كانوا متماثلين تمام التماثل؟ فمن بين الحجج الأساسية التي قدّمها جاك مونو حجّة ذات طابع نفسي، تتعلّق بما كان يسمّيه الإسقاط الإحيائي، وباختصار شديد، كان الجاهلون والأغبياء الذين يؤمنون بخصوصية الحياة، ضحايا لوهم مفاده أنّهم كانوا يسقطون على الطبيعة عن غير وعي منهم نفسياتهم الخاصة ووعيهم الذاتي، لقد تخيّلوا تلقائيا- تعوزهم في ذلك الصرامة والموضوعية- أنّ الحيوانات التي تتمتّع بطاقة حيوية متميّزة كانت قادرة على امتلاك مشاعر أو مقاصد. والأدهى من ذلك أنّ الصخور والأنهار والجبال والأجرام السماوية كانت تجسّد كما يبدو لهم "قوى متعاطفة أو معادية"، والرأي عند جاك مونو أنّ تلك الأساطير خاطئة تبعث على السخرية، وقد ثبت عدم نجاعتها في مستوى التقنيات.

وإنّنا اليوم لنجد صعوبة في أن نفهم كيف بدت مثل تلك الخطابات مقنعة بالنسبة إلى الغربيين، وبالفعل ما هي الرهانات التي كانت مطروحة على الصعيد الثقافي؟ فالإحيائية -إن صدق الآليّون- كانت خطأ علميا، ولكن هل كان ينبغي بسط المشكل في دائرة العلم؟ "فالإحيائيون" قدّموا فعلا إجابة عن سؤال شعري عاطفي، ولم يتساءلوا كيف ينبغي تصوّر الحيوانات لكي يتمّ التلاعب بها بنجاح؟ ولكن قبل ذلك، أيّ رؤية نريد تجاه الطبيعة؟ وأيّ نوع من العلاقات نريد أن نقيمها معها؟ لقد عبّر الأستاذ دوبان عن ذلك بصراحته المعهودة فقال: "إنّ الحديث عن الإحيائية يقتضي منّا أن نتحدّث أوّلا وقبل كلّ شيء عن قصّة حبّ، وكما في كلّ قصّة حبّ لا يقبل اختيار المتحابّين الخضوع لموافقة أو رقابة البيولوجيين؛ حتى وإن كانوا هبائيين".

ويبدو أنّ هؤلاء وجدوا صعوبة في فهم فكرة بسيطة للغاية، وكانوا يَعْجَبون لعدم اعتناق كثير من مواطنيهم الفلسفة الآلية اعتناقا تامّا، لقد ثبت أنّ الرجال والنساء أواخر القرن العشرين كانوا بعدُ يحدّثون كلابهم، ويداعبون قططهم بكلّ ودّ، كما لو كانوا يداعبون أصدقاءهم، وكانوا يسندون إلى خيولهم وأسودهم وخرفانهم وخنازيرهم صفات نفسيّة محضًا.

كان أكثرهم تعلّما يحاول تصوّر عالم الحيوان وفق ما يمليه "العلم"، فكانوا يبذلون قصارى جهدهم لإبراء ذمّتهم بتمثّل ميدور Médor أو ميي Miet على طراز صرح هبائي معقّد، ولكن ذلك كان مهمّة صعبة، ولقد أدرك ذلك جاك مونو نفسه، وهو ما جعله يشعر ببعض الحزن، ففي كتابه الصدفة والضرورة بسط السؤال التالي: "هل يمكن الاعتقاد بأنّ الثقافة الحديثة قد تنكّرت نهائيًا للتأويل الذاتي للطبيعة؟"

ومـع ذلـك يمكن اعتبار أنّ الصورة الآلية في ما يسـمّى الثقافة المهيمنة كانت واقعا، فقد لاحظ علماء اللغة عندنا أنّ معنى كلمة حياة قد تغيّر فعلا، فلم يعد ذلك الراعـي الـذي يعيش مع غنمه، وقـد خبر عاداتها وحاجاتها يعـرف "الحياة"، وإنّما يعرفهـا إنسـان يرتـدي ميدعة بيضاء، يكشـف لعامّة النـاس المعجبين رشـاقة لعبة الهبـاءات البيولوجيـة. كيف أمكن لأهل الحداثة أن يقبلوا نـزع الحياة عن الطبيعة بمثـل تلـك البسـاطة؟ ولـم يدركـوا أنّ حجّة "الإسـقاط الإحيائي" يمكـن دحضها بسـهولة؟ لأنّ الآليين أنفسهم قاموا بالإسـقاط عندما ماثلوا بين الأحياء والآلات، فقد استخدم الخيال في كلتا الحالتين. فلماذا إذن يُوثَق فيمن يفضّلون منوال الآلة ثقة عمياء؟

مـا الذي حصل داخل المخيّلة الغربية كي يكتب الانتصار للعقيدة الآلية بكلّ يُسـر؟ لقـد قيل المهـمّ بصورة أو بأخـرى، فلفرط مـا صنع **الغربيون** مـن طواحين وسـاعات، ولفـرط مـا صنعـوا من عجلات مسـنّنة، ولفـرط ما حسـبوا من تروس القطـارات، تعـوّدوا على التفكير بطريقة ميكانيكية أكثـر، ولا طائل من التذكير بأنّ الإله نفسه كان في نظرهم ميكانيكيا، ومنذ ذلك الحين أصبحت الآلة أنموذج كلّ شيء.

كان العمل الفذّ الذي لا نظير له الذي قام به ديكارت وفعله المؤسّـس يتمثّل فـي تحويلـه ذلك الحدس إلى نسـق مذهبـي جامد، اتّخذه الغـرب مرجعا إلى يوم **الانفجار الأكبر**، لقد كان الاستنتاج فوريًا، فمادام الواقع آليا فالحياة نفسها كذلك، ولقـد حـاول ديكارت تأسـيس هـذه الأطروحة في كثير مـن مؤلّفاتـه، ومفادها أنّ الحيـوان مركّب كما تركّب السـاعة، ويمكن اختصـاره في مجموعة من العجلات المنظّمة بإحكام واللوالب والقصب والكتل الموازنة، وهو ما اصطلح على تسميته بالحيوان الآلة.

والفقرة التاليـة مـن خطـاب فـي المنهج تبيّـن جيّدا كيـف تجذّرت أسـطورة الحيوان-الآلة "العلمية" في الممارسات التقنية، وفي علم اللاهوت في الآن نفسه، فـ" ليس عجيبا بالنسـبة إلـى الذين علموا كم هي أصناف الإنسـان الآلي والآلات المتحرّكة التي تسنّى للصناعة أن تحقّقها بأقلّ عدد ممكن من القطع، مقارنة بالعدد الهائـل من العظـام والعضلات والأعصاب والشـرايين والأوردة وسـائر الأعضاء الأخـرى في جسـم كلّ حيوان، أن يعتبروا هـذا البدن آلة صنعتها يد الرّب، ورتّبتها على نحو لا يقارن، فأضحت لها حركات أروع من حركات أيّ آلة أمكن للإنسان أن يبتكرها"، ورغم متانة هذه البلاغة فقد كانت تعوزها الصرامة غالبًا، ولقد شـهد بهذه الحقيقية حتى المؤرّخون "العقلانيون"، إذ عبّر ديكارت رغم "منهجه" الشهير عـن أفكاره في مناسـبات كثيرة، كما تعبّر الأذهان المشوّشـة والسـطحية التي كان يمقتها.

فلكـي يـدرس عمـل القلب مثلا، رجـع إلى الاكتشـافات التي قام بهـا ويليام هارفـي William Harvey حـول الـدورة الدمويـة، ثـمّ حوّرها بطريقتـه الخاصة، فخَلُص بها إلى اسـتنتاجات خيالية، وكان هارفي-كما ذكر بعد ذلك مؤرّخ العلوم ميركو غرمك Mirko Grmek يعتبر القلب مضخّة، وهو "بالنسبة إلى ديكارت آلة بخاريـة بل أفضل من ذلك، إنّـه بمثابة نوع من أنواع المحرّكات الانفجارية"، ومن زاويـة النظـر العلمية، لم يكن ذلك صحيحًـا، ولكن لا يهمّ! المهمّ هو أنّ ديكارت كان يقدّم إلى أهل الحداثة حكايات موحية، وتأويلا للطبيعة يستجيب لطموحات مجتمع "واقعي" أكثر فأكثر؛ وبفضلها يتاح في يوم من الأيّام لرجال العلم أن يثبتوا -كما لو كانوا مهندسين حقيقيين- أنّ الحيوان كان مجرّد إنسان آلي.

والتجربة الحاسـمة فعلا، كما تخيّلها ديكارت، يمكن أن تلخّص كالآتي: إذا

توصّل التقنيون إلى "صنع مثل تلك الآلات التي يكون لها أعضاء القرد ووجهه الظاهر أو لأيّ حيوان آخر بلا عقل" فإنّ المذهب الآلي يكون قد تأسس نهائيا، وعندئذ " لن نجد أيّ وسيلة تثبت أنّها ليست من جنس تلك الحيوانات"، فالأمر أبسط ممّا نتصوّر إذ يكفي أن يصمّم الإنسان قردًا اصطناعيا مطابقًا تمامًا للقرد الطبيعي محاكيًا الإله المهندس.

وفي رسالة بعث بها سنة ١٦٤٩ إلى الفيلسوف والشاعر هنري مور Henry More، بيّن ديكارت أنّه من المستحيل إثبات وجود نفس مفكّرة عند الحيوانات، ولقد صرّح ساخرًا بأنّ هناك احتمال ضئيل جدًا بأن يكون "لكلّ الديدان وصغار الذباب واليرقات وبقية الحيوانات الأخرى أرواح خالدة"، ومن البديهي بالنسبة إليه أن يكون الناس العاديون ضحية "فكرة مسبّقة"، إنّهم يعتقدون أنّ الكلاب والقطط -شأنها شأن الحمام والنمور تمتلك -على الأقلّ- نفسًا من نوع أدنى، هي عبارة عن شيء يقرّبهم قليلا من البشر، أمّا ديكارت فكان مؤمنا عقلانيا بعكس ذلك.

وفي إشارة إلى رشاقة الكلاب والثعالب وذكائها، صرّح دون تلكّؤ قائلا: "يمكن أن أشرح - بكلّ ثقة في النفس وبكلّ سهولة- ذلك كلّه بأنّه نتاج لتشكّل الأعضاء"، ومرّة أخرى تُعاود حجّة الإنسان الآلي الظهور، فبما أنّ بني البشر ينجحون في صنع ضروب من الإنسان الآلي، "فيبدو من المعقول أن تصنع الطبيعة هي أيضا روبوتات" أي بهائم " ليس لها أيّ فكر".

هكذا كان يتحدث من كان يُعَدّ إلى غاية **الانفجار الأكبر** أروع الفلاسفة الفرنسيين، فحتّى " النسوة أنفسهنّ نزلْن إلى حدّ صرن فيه ديكارتيات"، مثلما لاحظ الأستاذ دوبان ذلك بمرارة، وكان ذلك شأن السيدة دي غرينيانMadame de

Grignan، ابنة السيدة دي سيفينيي Madame de Sévigné، فقد اقترح عليها أحدهم ذات يوم من سنة ١٦٩٠، أن يرافق أحد الكلاب ابنتها بولين Pauline. فكانت إجابتها قاطعة: "لا نريد أن نحبّ هنا إلا الكائنات العاقلة - بحكم الطائفة التي ننتمي إليها- لا نريد أن نحرج أنفسنا بالتعامل مع ذلك النوع من الآلات، وإذا كانت قد ركّبت لأداء مهام ضرورية في الوقت المناسب، فإنّ ما يمكن أن نعانيه منها يجعلها بالنسبة إلينا لا تطاق".

واليوم صرنا نعتقد أنّ ردود فعل من ذلك القبيل دليل على ضعف في الإحساس، أمّا الحداثيون الحقيقيون فكانوا يرون فيها تقدّما عظيما، وكان اتّباع ديكارت يعني التوجّه نحو تصوّر للبيولوجيا أوغل في "العلمية"؛ لذلك كان المنظّرون الكبار للبيولوجيا يستغلون دائما، بطريقة جذرية، الأفكار الدغمائية الديكارتية، فقد أكّد رودولف فيرشو Rudolf Virchow، في القرن التاسع عشر، أنّ الحياة يمكن اختزالها في جملة من المسارات الفيزيائية والكيميائية، ودافع جاك لوب Jaques Lœb في بداية القرن العشرين بضراوة عن تمثّل آليّ للحياة فقال: "في الدروس القادمة سنعتبر الكائنات الحيّة آلات كيميائية"، وعبّر عن تفاؤل ديكارت نفسه بقوله: "لاشيء يمنع من افتراض إمكان نجاح العلوم التجريبية في أن تنتج آلات حية بطريقة اصطناعية".

وقد أدلى الفرنسي فيليكس لي دانتاك Félix Le Dantec في الفترة نفسها تقريبا بتصريحات مذهلة هي أيضا، (لنذكّر بأنّ دانتاك قد انتدب مساعدا بجامعة باستور من قبل باستور Pasteur نفسه، ثمّ تحصّل على كرسيّ في قسم البيولوجيا العامّة بجامعة السوربون la Sorbonne). كان آليا شرسا، إذ كان يعتبر البيولوجيا علما موحّدا من شأنه أن يرجع تنوّع الكائنات الحية إلى مبادئ آليّة "أعمق"، ولقد كتب يقول سنة ١٩٠٤ إنّ هذه البيولوجيا "من العموم بحيث تجعلنا قادرين على

القيام بها كاملة دون حاجة إلى أن نرى أيّ كائن حيّ، ودونما حاجة إلى دراسة حالة خاصّة واحدة بعينها"، ومعنى ذلك أنّ العلوم الطبيعية الكلاسيكية (كعلم النبات وعلم الحيوان) أصبحت شيئا من الماضي، أمّا البيولوجيون الجدُد فيمكنهم الحديث عن الحياة "دون أن يروا في حياتهم كائنا حيّا"! ولقد لخّص بامتياز روح العلم الغربي الأكثر حداثة في هذه العبارة (التي استعمل فيها حروف التاج للتأكيد): "إنّ منزلة البيولوجي في العلوم الطبيعية تضاهي منزلة **الميكانيكا العامة** في العلوم الفيزيائية"، فلْنُقرّ بأنّ نجاح البيولوجيا الهبائية قد عزّز كثيرا موقف لي دانتاك وجاك لوب، اللذان كانا يتوقان إلى إنشاء هندسة بيولوجية حقيقية. ولكن بأيّ ثمن؟

بسطت المشكلة الأساسية من قبل هنري مور Henry More بكامل الوضوح منذ القرن السابع عشر، فالديكارتية في نظره مذهب جذّاب، ولكنّه كان قلقًا، وهو ما أبلغه ديكارت ذاته بقوله: "إنّ عقلي فيما تبقّى لا يحيد -دون شكّ- عن أيّ فكرة من أفكارك، نظرا إلى إحساسي بك وتعاطفي معك، بقدر ما يحيد بكلّ اشمئزاز عن ذلك الشعور الميّت المميت؟ الذي تدعو إليه في كتابك **خطاب في المنهج** بخصوص الحيوانات التي حُلْت بينها وبين حقّها في الحياة والإحساس (...) هنالك أثار حدّ شفرة عبقريتك اللامع شعورا لا بالريبة فقط، بل بالرعب أيضا، فحرصا منّي على مستقبل المخلوقات الحية استشفَّيتُ أنّ لديك ليس فقط نظرًا ثاقبًا، ولكن أيضا- كما يبدو- شفرة حادّة قاسية، تجرّأت بضربة واحدة -إن صحّ القول-على أن تنزع كلّ حياة وكلّ إحساس عن جنس الحيوان كلّه، وأن تحوّله عمليا إلى تماثيل من رخام وإلى آلات".

إنّ إنسانا في قلبه شيء من الإحساس، كان يرى في ديكارت ما يشبه القاتل،

ولقد رأى بريان إيسلي Brian Easlea في تعليق له على هذا النصّ، أنّ مور كان يعبّر عن الفطرة السليمة! إنّ" الحيوانات كائنات حية، فالكلاب تعرف كيف تستجدي الخروج إلى النزهة، والثعالب تتمكن من تسطير خطط دقيقة" وما إلى ذلك، لكنّ ديكارت كان يؤمن بأنّ "بديهياته" التأمّلية الخاصة أعظم قيمة، وأنّ التجارب الأكثر جرأة (كتشريح الحيوانات الحية مثلا) يمكن إجراؤها دون أيّ شعور بالذنب، وليس هناك أيّ مشكل من الناحية المنطقية، فكما لا يعدّ تفكيك ساعة جُرمًا، فلا جُرْمَ إذا قمنا بـ"تفكيك" حيوان-آلة، وديكارت نفسه كان في ذلك مثالا يُحتذى، فقد ذكر بريان إيسلي أنّ الديكارتيين "عند اتهامهم بالقسوة فيما يقومون به من تشريح تخريبي لحيوانات حيّة كانوا يجيبون بأنّ على خصومهم أن يخرجوا من بوتقة الأفكار المسبقة، التي تعود إلى الطفولة وإلى عهود الشعوذة الطويلة".

لم يكن هنري ألمور الفيلسوف الوحيد الذي أحسّ بالنفور إزاء فلسفة ديكارت، فقد اعتبر الإنكليزي جون راي John Ray (١٦٢٨-١٧٠٤) وهو عالم طبيعة بارز أنّ تسويغ القسوة ضدّ الحيوان باسم العلم أمر لا يطاق، ومن الواضح -في رأيه- أنّ الحيوانات تتألّم عندما تُخضَع للتعذيب، لقد أجاب باعتماده على القلب، رغم إمكان اتّهامه بالخبَل فقال: " إذا اعترضوا بقولهم إنّ كلامنا لا يعدو أن يكون أحكاما مسبقة مبتذلة لا تليق بفيلسوف، فإنّي أفضّل الاستغناء بهذه الأحكام المسبقة، ولْتضيفوه إلى حساب غبائي أو إلى ضعف حججي كما يحلو لكم، فتعذيب الحيوان لا علاقة له بالفلسفة"، لكنّ تلاميذ ديكارت كانوا متمسّكين بموقفهم: لقد جزم نيكولا مالبرانش Nicolas Malebranche (١٦٣٨-١٧١٥) -وهو كاهن الكنيسة- بأن ليس للحيوانات إحساس ولا شعور ولا ذكاء، " إنّها تأكل دون متعة، وتصيح دون ألم، وتكبر دون أن تشعر بذلك، إنها لا ترغب في أيّ شيء، ولا تخشى أيّ شيء، ولا تعرف أيّ شيء".

لقد أثارت هذه الدغمائية القاسية سخط الشعراء، فكتب جاك هنري برناردان دي سان-بيار Jaques Henry Bernardin de Saint-Pierre في مؤلّفه تناغمات الطبيعة (١٧٩٦) منتقدًا بضراوة ديكارت ومالبرانش: " لقد زعموا أنّ الحيوانات ليست إلاّ مجرّد آلات عديمة الإحساس، وهو قول من العبث تطبيقه حتى على مجرّد النباتات التي وُهبت حياة حقيقية بما أنها تنتشر عن طريق اللقاح، فإذا خالفنا مالبرانش الرأي حول عواء كلب متألّم مضروب، بادر إلى مقارنته في نفس تلك الحالة برنّات جرس كنيسة من الكنائس، ولكي يثبت ذلك -حينما احتدم النقاش- عمد إلى قتل كلبته ذات الجراء الصغار برفسة من ساقه"، ولقد استشهد هذا الشاعر نفسه بفكرة لـ"جون جاك الطيب القلب"، ويعني بذلك روسو الذي قال: "عندما نشرع في التفكير فإنّنا نتوقّف عن الإحساس".

طبعا كان الناس الذين يسمّونهم مثقّفين في القرن العشرين يسخرون من برناردان دي سان بيار، أمّا التحذير الذي أطلقه هنري مور (ومفاده أنّ الأسطورة الآلية مآلها الزوال) فقد صار نسيًا منسيًّا، ومع ذلك كان الأمر بديهيا: إذا كنا قد اعتبرنا الحيوانات مجرّد آلات فقد خفضنا من منزلتها في التراتيبة الكونية، فلم تكن مجرّد "كائنات ذات مرتبة دنيا"، وإنّما أشياء لا تستحقّ أيّ احترام. كانت هناك إذن كارثة تلوح في الآفاق على المدى البعيد والمتوسّط، فمن البديهي القول بأنّ عقلانية مثل تلك التي كان ديكارت يدعو إليها، لم تنشأ علنًا لقتل أكبر عدد ممكن من الأجناس الحيوانية أو إبادتها عمدا، ولكن يمكن استنتاج ذلك؛ لقد أذن الخطاب الآلي بالدمار الشامل الذي مارسه أهل الحداثة بتطرّف، وأسبغوا عليه الشرعية ضمنيّا، وعلى أيّة حال لقد جعلتها أقلّ عارًا وأكثر قبولا (لدى الناس).

لقد عاضد كثير من أصحاب النفوذ في الغرب تنصّل الإنسان من واجباته تجاه الحيوانات، الأمر الذي جعل الاشتراكي بيار يوسف برودون Pierre Joseph

Proudhon يتهكّم في القرن التاسع عشر من الذين يريدون إعادة الكرامة إلى تلك الكائنات بقوله: " لقد طالعنا بعض الوعّاظ بالحديث عن واجباتنا تجاه الحيوانات، أعلنوا لنا عودة التحالف الكبير والتحالف القديم والإحسان الكوني باعتباره سمة من سمات العهد الجديد، ولا يمكن أن أرى في ذلك سوى ثرثرة حلولية، وعلامة من علامات تخلّفنا الأخلاقي والفكري الأشدّ بؤسا. إنّ التآلف الضارب في القدم الذي احتفظ به الهنود والعرب والأتراك، ليس إلا حالة بدائية وبهيميّة مرّت بها البشرية. وبقدر ما يترقّى الإنسان فإنّه يبتعد عن البهائم، ولئن فقد ميول الصياد والجلاّد فذلك لكي يستبدلها بعادات المستغل الأشدّ صلابة وبأسا". إنّه لنصّ شديد الوقع، جدير بأن يصف جيّدا الصورة الغربية للتقدّم، ففي رأي برودون وحدهم الهنود وغيرهم من الأتراك، وبعبارة أخرى البدائيون والمزارعون هم الذين يمكنهم أن يحسّوا بقربهم من عالم الحيوان (حتى وإن تعاطوا الصيد)، أمّا الإنسان المتحضّر فقد كان المستغلّ الأشدّ صلابة، كانت تلك ديكارتية خالصة طبعا، ونحن نعلم جيّدا نتائجها على الصعيد البيئي.

لقد رسم رايمون بوجول Raymond Pujol وجونوفياف كاربونGeneviève Carbone سنة ١٩٩٠ موازنة أوّلية، فقالا: "في تقديرنا أنّ ما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر كانت تنقرض فصيلة من الفصائل الحيوانية كلّ أربع سنوات، ثمّ صارت تنقرض فصيلة واحدة كلّ عام ما بين ١٩٠٠ و١٩٧٥، ومنذ ذلك الحين صارت تنقرض ما بين فصيلة إلى ثلاث فصائل في كلّ يوم! ولقد قدّر الاتحاد العالمي لحماية الطبيعة أنّ حوالي ألف من الفقريات وثلاثمائة من اللافقريات هو عدد الفصائل الحيوانية المهدّدة بالانقراض على المدى القصير في العالم"، والإنسان حسب هذين المؤلّفين يتحمّل المسؤولية الأكبر في هذه المجزرة الواسعة: "فاستغلال الأوساط البيئية وجداول الاصطياد والممارسات

الغذائيـة وإقامة مشـاريع اقتصادية، ثمّ إلغاؤها بطريقة مفاجئـة كارثية تمثّل عوامل كافية تجعل البعض يستخدمون وسائل يفوق تدميرها نسبة تكاثر الأنواع الحيوانية المعنية وتتلاعب بجميع محاولات المحافظة عليها".

إنهـا قصّـة طويلة مُضنيةٌ محفوفةٌ بالقتل والإبادة على اختلاف أشـكالها، "لقد قُضـي علـى طائر الدود في جـزر الموريس *Maurice* وجـزر الريونيون *Réunion* لأنّ السفن التي كانت تتّخذ من تلك المرافئ نقاط استراحة كانت تتزوّد من لحومه الطازجة"

والحيـوان البحـري الثديـي الـذي يطلـق عليـه اسـم ريتيـن دي سـتالّر rhytine de Steller أو بقـرة البحـر وقع اكتشـافه سـنة ١٧٤١ وأُبيد سـنة ١٧٦٨، وفي القرن التاسـع عشـر عرف الفرس الأزرق والحمار الوحشـي كواجا والحمار الوحشـي لبورشـال Burchell المصيـر ذاتـه، وعندمـا كان الغربيـون يهاجمـون الحيوانـات-الآلات كانـوا يضربـون بقـوّة، وكان الخطـاب الرسـمي يتحـدّث عن "الصيـد"، ولكـن تلـك الكلمـة ضعيفـة الدلالة ولا تفـي بالحاجة فـي وصف تلك الممارسـات المجنونة، " كان عدد الحمائم الأمريكية المهاجرة يناهز ١٣٦ مليونًا وقع إحصاؤها في ولاية ويسكنسن *Wisconsin* وحدها سنة ١٨٧١، مات آخر طير منها في قفصه سنة ١٩١٤ ".

لـم تكـن الأوسـاط البيئية تتعـرّض للاضطرابـات والتلوّث بعدّة طـرق فقط، وإنّمـا كان الاقتصـاد الحديـث يُفـرط فـي الاسـتغلال المنظّم والهمجـي للأماكن الطبيعية، ولن نستطيع إحصاء الأساليب التي ابتكرها **الغربيون** ليحقّقوا أرباحًا ممّا كانـوا يسـمّونها المـوارد الطبيعيـة. أيُعقل أن يكونـوا غير مكترثين إلـى ذلك الحدّ بالخسائر التي كانوا يسبّبونها؟

لنضف مثالا آخر قدّمه رايمون بوجول Raymond Pujol et وجونيفياف كاربون Geneviève Carbonne قبل **الانفجار الأكبر** بقليل: " لقد نزل مخزون بحر الشمال من سمك الرنكة في عشر سنوات من ٧ ملايين طن سنويا إلى ٢٥٠٠٠٠ طن في السنة"، ولقد أصبح الوضع حرجًا جدّا حوالي سنة ٢٠٠٠ في كلّ مكان من العالم، ولقد أصاب المؤلّفان حينما استشهدا بما قاله الشاعر إرنست هيمينغواي Hemingway Ernest: "سرعان ما تشيخ قارّة من القارات بمجرّد وصولنا إليها". حقّا إنّ هناك بعض الأنواع الحيوانية قد استفادت من الظروف الخاصّة التي تسبّب الإنسان في إيجادها فتكاثرت (كالجرذان مثلا)، لكن نجم عن ذلك ضروب جديدة من انخرام التوازن، وفي المستوى الروحي لم تكن العواقب أقلّ كارثية، فقد أنشأ مهندسون مختصّون مصانع حقيقية لكي يكون لإنتاج اللحوم مردود اقتصادي مربح، ففي مساحات صغيرة (اقتضتها ضرورة الإنتاج) كانت تربّي آلاف الدواجن، ولم يكن المشهد -إذا صحّ ما قاله رايمون بوجول وجونوفياف كاربون- رائقا قطّ، فـ" كانت الدجاجة تعيش ثمانية عشر شهرا دون أن يتسنّى لها أن تمشي أو أن تُحرّك جناحيها"، ويبدو أنّ ممثّلي الحضارة قد رأوا كلّ ذلك أمرًا مقبولا تمامًا، ومن الوجهة القانونية يكفي تلك الحيوانات توفير الماء والغذاء والضوء والمراقبة البيطرية، فقد كتب بوجول وكاربون يقولان بكلّ وضوح: " كان الألم الأخلاقي غير معترف به، أمّا الآلام الجسدية فقد بلغت حدود الحساسية الزائفة والشّطَط".

كانت تلك "روح" مجتمع يعبّر عن نفسه من خلال تلك المعاملات الصناعية، وذلك الفقر في الإحساس، ووثائقنا توحي بأنّ معظم الغربيين باعتبارهم أشخاصًا فُرادى كانوا يعتقدون أنّهم يحبّون الحيوانات، ولكن حتى لا نتكلّم لغة برودون، فلقد انقطع حبل التحالف القديم بطريقة غامضة نسبيًا، إذْ كانوا يحسّون أنّ عبادة

التقدّم و"عولمة الاقتصاد" تتعارض مع احترام الحيوانات. فهل كان ينبغي حماية هذا النوع أو ذاك أم لا ينبغي؟

كانت الحجج التي لها وزنها في أعين أصحاب القرار تلك التي تتعلّق بالجوانب التقنية والاقتصادية دون سواها، من قبيل "حذارِ.. إنّكم توشكون على إبادة فصائل وأنواع حيوانية سنكون في يوم من الأيّام في أشدّ الحاجة إليها"، وكان ينبغي أن يكون هذا الكلام مؤيّدًا بمعطيات محّصتها الأرقام، ولكن عادة ما تكون الإحصائيات غائبة، وإذا صادف أن قدّم "أصدقاء البيئة" تقويمات لا تقبل النقاش، فإنّ الخبراء "الجدّيين" يتوجّهون إليهم بالنقد ويتّهمونهم بالمبالغة وبخلق أزمات مفتعلة.

وفي الجملة ينبغي أن تكون حماية الحيوانات مسألة عقلانية صرفًا، وأن لا تضرّ الإجراءات المتّخذة بأيّ حال مصالح الفاعلين الاقتصاديين المعنيين، كان "الإحساس بالمسؤولية" الذي كان يثار عادة محدودًا جدًا، فكان يتلخّص في أقصى الحالات في نفعية محدودة الأفق، وطبعا كانت هناك تحذيرات كالتي أطلقها بوجول وكربون بقولهما: "لا ينبغي أن تكون المشاريع الاقتصادية هي المحدّد الوحيد للأنواع الحيوانية التي يجب حمايتها"، ولكن دون جدوى.

كانت الدوافع "العاطفية" تعتبر مشبوهةً وباعثةً على الضحك باسم الواقعية، فلك أن تحسب، ولكن أن تتعامل مع الطبيعة بمحبّة فلا، فقد ناضلت امرأة تدعى بريجيت باردو Brigitte Bardot – بعد أن عملت في مجال التمثيل– من أجل حماية بعض الحيوانات المهدّدة بالانقراض، وهو ما أثار حفيظة بعض المتصرّفين "العقلانيين". وكانوا لا يعبؤون بالشتائم؛ لأنّهم يرون من العار أن تتحدّى امرأة الإحصائيات، ولقد حصل – كما بيّنت ذلك صحف تلك الفترة – أن اتُّهمت

المسمّاة ب.ب. بـ"الدعوة إلى الفاشية"، وذلك لمجرّد أنّها كانت تحلم بإنقاذ صغار الفقمة، وسرعان ما استوعب الدرسَ معظمُ المناصرين للبيئة، والذين احترفوا السياسة، إذ كان عليهم أن يتصرّفوا باعتبارهم تكنوقراطيين حكماء قادرين على تطويع الإحصائيات والتراتيب الجاري بها العمل، وكانت النخب بصفة عامة تطرب للنفعية: لقد فضّلوا عدم مواجهة "التقدّم" والاكتفاء بممارسة ما كان بعض النقاد يسمونه بالترقيع البيئي.

وقد كان على الغربيين أن يتساءلوا حول "تطهير العالم من السحر" وحول أسبابه ونتائجه؛ لكي تتاح لهم فرصة إدراك المشكلات الثقافية التي تنجم عن إبادة الحيوانات، ولكنّ جهلهم بتلك الأمور كان مُطْبَقًا، ولم يتعلّموا من التقاليد "العقلانية" نفسها سوى المذاهب والمبادئ الضيّقة للغاية، إذ لم يستطيعوا إدراك نقائص ديكارتيتهم الأوّليّة كما فعل ذلك فولتير؛ لأنّه وإن كان حداثيًا فقد احتجّ في قاموسه الفلسفي ضدّ الطغيان الآلي قائلا: "إنّه لِممّا يبعث على الحزن والتعاسة القول بأنّ الحيوانات آلات مجرّدة من الإحساس تقوم بأفعالها بالطريقة نفسها، وبأنّها لا تتعلّم أيّ شيء، ولا تطوّر أيّ شيء وما إلى ذلك"! لقد أدرك أن نظرية الحيوان-الآلة تتلاءم مع استخدام العنف: " فتجد هؤلاء المتوحّشين يمسكون ذلك الكلب الذي تفوّق على الإنسان في وفائه لمن يصادق فيثبّتونه بمسامير على طاولة ثمّ يشرّحونه حيّا ليظهروا لك الأمعاء الدقيقة، فتكتشف أنّ بداخله كلّ أعضاء الشعور التي لديك. أجبني أيّها الآلي هل أودعت الطبيعة في ذلك الحيوان كلّ أدوات الإحساس لكي لا يحسّ؟ هل لديه أعصاب لكي يكون منعدم الحواسّ"؟

نعم لم يضع فولتير نفسه في معسكر جاك مونو والآليين ومشرّحي الأحياء،

لقد ذهب إلى حدّ وصفهم بالمتوحّشين، وكان موقفه لصالح بريجيت باردو[1](إن صحّ القول).

علينا أن نسلّم بأنّ النخب الغربية لم يقرؤوا لفولتير بحماس، لاسيما أنّ الخيال الرمزي -كما ذكرنا- كان يعوزهم، فلم يفهموا قطّ أنّ "المآسي البيئية" لا تتعلّق بالطبيعة فقط، وإنّما تعبّر عن أزمة في الثقافة، بمعنى أنّها أزمة تسبّب خسائر في الأنفس بقدر ما تسبّب خسائر في البحار والغابات وفي طبقة الأوزون، كان ينبغي أن تكون حقيقةُ أنّ الحلول المقترحة لم تخرج يومًا عن نطاق لجان الخبراء، ولجان التكنوقراط بديهيةً يدركها أيّ مواطن بالحدس.

إنّ المشروع الشامل للمجتمع هو الذي كان في الميزان، وإنّ الرهانات كانت كبيرة اعتمادا على ما قدّمه بعض باحثينا، وهو ما يفسّر عجز المسؤولين وأصحاب القرار عن تصوّر تحوّل حقيقي، وإذا ما بلغ الغرب حدًّا معيّنا، فربّما أضحى مُجبَرًا على أن ينغلق على نفسه أكثر فأكثر، ولكن في نهاية المطاف لماذا لم توقظ تلك الأعراض الخطيرة كلّها العقول المفكّرة لأهل الحداثة؟ لماذا استهزؤوا بنداءات الشعراء؟ إنّ أهمّ ما في الأمر قد قيل في كتاب زراعة صيني (نونغ شو Nong chou): " إنّ الثور حيوان يمتلك النفَس ذاته والدم ذاته و الطبيعة ذاتها و المشاعر ذاتها التي لدى الإنسان"، ولقد أكّد ميشلي في القرن العشرين هذا التصوّر تأكيدا،

---

(١) **بريجيت باردو** Brigitte Bardot ولدت في ٢٨ سبتمبر ١٩٣٤ في باريس. ممثلة ومغنية فرنسية تعدّ من أكثر الممثّلات شهرة. تولّت المطالبة بالدفاع عن حقوق الحيوانات. وفي عام ١٩٨٧ انخرطت في جمعية عالمية تدافع عن الحيونات. أثارت الجدل خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين لانتقادها الهجرة والإسلام في فرنسا، وتمّ تغريمها خمس مرات بسبب التحريض على الكراهية العنصرية. اشتهرت بانتقادها شعيرة ذبح الأغنام في عيد الأضحى. (المترجمان)

واستنكر ما بلغه الإنسان المسمّى متحضّرا من جرأة في تحويل الحيوانات إلى روبوتات، فقال: "لِتَمِدْ بكم الأرض أيها القاسيةُ قلوبُهم، يا من سوّلت لهم أنفسهم الإثْم، يا من امتدّت أيديهم بالعقوبة إلى كثير من النفوس البريئة المعذّبة".

لكنّ أهل الحداثة صمّوا آذانهم! لقد كانت لديهم العقلانية، ولكن من المؤكّد أنّ الحكمة كانت تعوزهم، ومع ذلك لاحظ بيار لويس مورو دي موبرتوي Pierre Louis Moreau de Maupertuis منذ القرن الثامن عشر في مؤلّفه بعض الواجبات تجاه الحيوانات أنّ الإنسان نفسه يعيش تحت طائلة التهديد.

ألا يعني اعتبارُ الحيواناتِ آلاتٍ المضيَّ في منحدر خطير، فقد بسط موبرتوي سؤالا مصيريا حين قال: " ألن يبلغ الغيّ بمرور الزمن بهؤلاء الذين يفكّرون بتلك الطريقة إلى قتل كلّ من ليسوا من أقاربهم أو أصدقائهم دون شفقة أو تعذيبهم؟" وقد كتب أحد المحرّرين في القاموس العالمي الكبير في مادّة "حيوان" -بنباهة لا تقلّ عما سبق- ما يلي: "يحقّ لنا أن نشكّ فيمن كان يعنّف الحيوانات ويقسو عليها بلا شفقة، هل كان يتذكّر دائما الفرق بين الإنسان والجماد"، لقد أثارت هذه الملاحظات فضولنا: إذا استحال الحيوان آلة فكيف سيكون مصير الإنسان؟

ولقد أمكن لنا ملاحظة أنّ الغربيين لم يدركوا دائما الفرق بين الإنسان والآلة، ولكن ما خفي كان أعظم، فقد كان بعض الخبراء المتمرّسين يبذلون في أواخر القرن العشرين قصارى جهودهم لمحو الحدود الفاصلة بين عالم الإنسان وعالم الآلة، وكانت خطّتهم ثُنائية: كانوا يحلّلون الإنسان ومناشطه وفق مقاربات آلية من جهة، وكانوا يجتهدون لتصميم آلات وأنواع من الإنسان الآلي قادرة على محاكاة الإنسان في مجالات تتزايد يوما بعد يوم، من جهة ثانية. إنّهم -كما قال الأستاذ دوبان-" في حقيقة الأمر يتّبعون طريقة تشبه حفر النفق تحت بحر المانش وذلك

بالشروع في العمل من الجهتين في آن، في الوقت الذي كان فيه البعض يختزلون الإنسان إلى مرتبة الآلة كان البعض الآخر يطوّرون الآلة حتّى لا نتمكّن من تمييزها من البشر"، ولولا **الانفجار الأكبر** الذي أوقف ذلك الجهد الكبير لتحوّل الغرب كلّه إلى ربوتات.

واليوم في سنة ٢٠٨١ تبدو لنا كثير من وجوه هذا المشروع غريبة، فقد قرّر -على سبيل المثال- مختصّون ينتمون إلى مجالات متنوّعة جدّا، إنشاء علم أرقى يتيح في الوقت نفسه تحليل ميكانيكا للدماغ، وابتكار آلات أنجع من الإنسان. إنه من البديهي لديهم ليس فقط إضفاء ملكة "الذكاء" على الحاسوب، وإنّما كانوا يستخدمون المعجم ذاته لوصف "عناصر" في الدماغ البشري، و"عناصر" في آلاتهم الإلكترونية، فكانوا يتحدّثون في كلتا الحالتين عن خلايا عصبية (وشبكات عصبية)، ولقد تبيّن لنا بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ أنصار التقدّم ومريديه كانوا يعتقدون جازمين في إمكانية تعويض الذكاء البشري بـ"الذكاء الاصطناعي"، وضرورته في عدد متزايد من الأنشطة (بما في ذلك النشاط السياسي).

كانت هناك مشكلة كبرى تتعلّق باللغة، فكيف السبيل إلى جعل الآلة قادرة على "فهم" الإنسان؟ لقد بدت الإجابة بديهية لأوّل وهلة على الأقلّ، إذ كان من المطلوب بكلّ بساطة أن يتعلّم الكائن البشري "لغة" الحواسيب الجامدة الفقيرة، فلقد بيّن أحد الفنّيين التكنوقراط سنة ١٩٩٤ أنّه من الأفضل أن نقول لإنسان آلي "اغسل الأرضية" عوضا عن أن نقول له: "هلا تفضّلتم بغسل الأرضية"، إنّ أهمّ ما يمكن أن يفيدنا من زاوية النظر الثقافية هو الاستنتاج الذي أوصل إليه قوله: " كلّ من الإنسان والروبوت مطالب باختصار بأن يبذل جهدا يقرّب أحدهما من الآخر"، ونلاحظ أنّ الإنسان والروبوت قد وضعا في مستوى واحد، وأنه ينبغي عليهما بعد

أن حصل التجانس بينهما أن يتبنّيا القيم نفسها، ويعني ذلك القيام بالجهود نفسها ليتعايشا في جنّة التقنيات.

لقد تبيّن في الحقيقة أنّ تحقيق بعض المشاريع المتعلّقة بصنع روبوتات أصعب ممّا كان يتخيّله في البداية باعثوها، والحقّ أن العلوم والتقنيات الضرورية لتقدّم الأتْمَتَة قد تطوّرت كثيرا، فالإعلامية ونظرية المعلومات وعلم التوجيه الآلي والذكاء الاصطناعي والتحكّم عن بعد والتحكّم الذاتي والتحليل الحسي ومعالجة الصور والروبوتية وأنظمة الخبراء والعلوم العرفانية، هذه الميادين كلّها وغيرها، استخدمها العسكريون والمدنيون بحماس على حدّ سواء، ولكن الخبراء الأكثر كفاءة اعترفوا -رغم النتائج المذهلة التي توصّلوا إليها- بأنّ الآلة لم تعادل الإنسان بعدُ، أو تتجاوزه في الميادين كلّها.

أن تبرمج حاسوبا بطريقة تجعله يتغلّب على أعتى أبطال لعبة الشطرنج فذلك شيء، وأن تقلّد بصورة كاملة الذكاء البشري في أدقّ خصائصه فذاك شيء آخر، ومع ذلك فلا تهمّنا الإنجازات التقنية للغرب في حدّ ذاتها، وإنّما تعنينا خلفيتها الثقافية ومفهوم الإنسان الذي تقتضيه.

لقد بدا لنا من البديهي أن ينخرط أهل القرن العشرين في التقاليد الآلية الكبرى، وهم الذين سعوا مكابرين إلى مماثلة الإنسان بالآلة دائما، ولقد استكشفوا بطريقتهم الخاصة الطريق الذي فتحه ديكارت، ومن ثمّ علينا أن نعود مرّة أخرى إلى المنبع: فأيّ تصوّر للإنسان اتّخذه الأب المؤسس؟

يبدو السؤال بسيطا. فإذا سلّمنا بأنّ الحيوانات كانت آلات وأنّ الإنسان كائن بيولوجي يشبه الحيوان ألا ينبغي أن نخلص إلى اعتباره هو أيضا إنسانا آليا؟ ولكنّ ديكارت باعتباره مسيحيًا صالحًا لم تطاوعه نفسه بخفض الإنسان كلّيًا إلى مرتبة

الآلـة، إذ كان ذلك سيؤدّي إلى نفي الروح السـرمدية التـي أودعها الربّ في أبنائه كما تقول الكنيسة، وسرعان ما وجد فيلسوفنا حلّا لهذه المشكلة، ففي رأيه يكفي التسليم بأنّ الإنسان ثنائي، أي مكوّن من روح وجسد، أمّا الجسد فهو آلة، والبشر إذن يشـبهون الحيوانـات بالكلّية من الناحيـة البيولوجية، وأمّا الـروح فكائن يمثّل الجانـب العلـوي للإنسـان، و"الأنـا" الحقيقـي لـه. وفـي رأي ديكارت يمتـاز هذا التصوّر بتفسـير الفرق بين الإنسـان والحيوان؛ ذلك أنّ البهائم- كما قال- لا تقدِر علـى التفكيـر ولا علـى الكلام، وإذا كان البشـر (والبشـر فقط) قادريـن على ذلك فلأنّهم يملكون روحًا، وبقي عليه أن يفسّـر كيفية ارتباط الروح بالبدن، ولقد أجاد ديـكارت مـرّة أخرى الإجابة، حيث صرّح بـأنّ الروح تتواصل مع البدن من خلال غدّة تقع في الدماغ (الغدّة الصنوبرية).

وإذا قرأنـا الفلسـفة الديكارتيـة حرفيا أمكن لنا القـول إذن إنّ الغرب في تلك المرحلة من تاريخه، لم يتصوّر بعدُ البشـر باعتبارهم روبوتات، فلقد بقي الإنسـان - نظريـا علـى الأقـلّ- كائنا ذا روح، ومع ذلك ينبغي علينـا أن لا نجانب الحقيقة، وهي أنّ ديكارت كان بعدُ قد أقام صورة ميكانيكية لجسـم الإنسـان، كان لها بالغ الأثر في الغرب، وكان عنوان مؤلّفه الذي فيه تناول هذه النقطة: رسـالة الإنسـان، وهو نصّ بدا لنا ذا أهمية استثنائية.

لقـد ترك ديـكارت الروح جانبا وشـرح بـأدقّ التفاصيل فكـرة أنّ الربّ صنع الإنسـان كما تصنع الآلة تماما، فالمشـي والأكل والتنفّس وحتّى الحُلم، كلّ ذلك كان يتمّ وكأنّ جسـم الإنسـان ليس سـوى قصبات ولوالب وعجلات وصمّامات، فـكان الكتـاب مـن ألفه إلى يائـه (وهو في بضع عشـرات من الصفحـات) ترجمةً لهَـوَسٍ آلـيٍّ حقيقي، لقد اسـتعار ديكارت ألفاظه كلّها من المهندسـين، وقد أحال

بإصرار إلى الرحى والساعات والأراغن وإلى الروبوتات، أي إلى تلك الأدوات العجيبة العزيزة على قلوب أهل القرون الوسطى، ولقد بيّن أنّ مختلف وظائف المعمل البشري هي ثمرة " لعمل أعضائه فحسب، لا أكثر ممّا تقوم به الساعة ولا أقلّ، أو أيّ روبوت آخر من حركات، وثمرة لعمل كتلها المضادة وعجلاتها".

لا شكّ في أنّ جرأة ديكارت، وكذا ردود الفعل التي كانت ستثيرها، قد أرعبته، لأنّه امتنع عن نشر ذلك البيان في حياته، ولقد صدرت منه نسخة لاتينية سنة ١٦٦٢ بعد وفاته بـاثنتي عشرة سنة، وصدر النصّ الفرنسي سنة ١٦٦٤ فقط، ولم يكن ذلك المؤلّف سوى تأمّلات ذات نزعة مادية لا غير، ولقد أظهرت الأسطورة الآلية قدرتها الفائقة: فالإنسان في النهاية لم يكن إلاّ دمية متحرّكة. والحقّ أنّ ديكارت خصّص بحذر حيّزا صغيرا للروح، ومع ذلك لم يخطئ جهابذة "العلم" عمليّا في الرجوع إليه، وما يزال في القرن العشرين علماء البيولوجيا الأكثر حداثة يدينون لرسالة الإنسان بالعرفان باعتبارها كتابًا مؤسّسا.

ولكن ماذا عن الجانب الثقافي؟ لقد تساءل الأستاذ دوبان بالخصوص عن دلالة ذلك النوع من التقسيم الذي قام به ديكارت: كان هناك الجسد الآلة من جهة، والروح الخالدة تفكّر دون انقطاع، من جهة أخرى. هل كان من اليسير أن نفهم كيف الْتحم كلّ "جزء" بالآخر ليكوّنا الكلّ؟ لقد حرص ديكارت طبعا على القول بأنّ الروح لا تستقرّ في البدن كما يستقرّ الربّان في سفينته، ولكن في النهاية لم تكن الفكرة واضحة لدينا. إذ كيف لذلك التصوّر الغريب أن يفسّر سائر التجارب المعيشة التي كان خلالها الجسد والروح وجهين لعملة واحدة؟ إنّنا لنجد اليوم صعوبة كبيرة في اعتبار الحيوان مجرّد آلة، ولكن لم نتوصّل بعد إلى تخيّل الإنسان في شكل آلة تعزّزت بعنصر ذي طبيعة غير مادية يسمّى "الروح".

كيف أمكن للغربيين أن يروا أنفسهم في مرآة الصورة المركّبة التي عرضها عليهم ديكارت؟

إنّ السؤال على درجة من الأهمّية التي تتجاوز ظاهرهُ؛ لأنّ ذلك المفكّر تحدّث في أغلب الأحيان وكأنّه غريب عن جسده. ألم يكن يحقّ لنا أن نرى في ذلك أعراضا محيّرة؟ يكفي أن نفتح كتاب تأمّلات ماورائية وهو أحد آثاره الأَشْهَر حتّى نلاحظ خطورة المرض، تراه يطالعنا بجمل عجيبة مثل: "أنا لست مجمل الأعضاء التي نسمّيها الجسم البشري". لقد وجد فريق بحثنا صعوبة في استيعاب ذلك: فإذا لم يكن ديكارت جسده، فهل كان يجب أن نفهم إذن أنّه كان منفصلا عن جسده، وأنه كان يعيش حياته الحقيقية خارج آلته الجسدية؟ ولكن في بعض الأحيان يطالعنا هذا الفيلسوف بوصف آخر مختلف للعلاقات التي يقيمها مع جسده الخاص، ففي كتاب التأمّلات دائمًا يمكنك أن تقرأ ما يلي: "أنا أؤمن بأنّ لي وجها ويدين وذراعين وكلّ هذه الآلة المكوّنة من عظام ولحم تظهر في أيّ جثّة أطلق عليها اسم الجسد"، لقد وجد الأستاذ دوبان في هذه الجملة ضربًا من ضروب الهذيان، فديكارت حريص إذن على أن يكون له جسد، ولكنّ ذلك الجسد كان آلة، والأفضل من ذلك كلّه أنّ تلك الآلة كانت تشبه ما يمكن أن نلاحظه في جثّة من الجثث، وباختصار فالجسد البشري والآلة مكوّنة من عظام ولحم والجثة كلّها مترادفات. إنّه لمشهد مميّز قد يكون ديكارت يصف نفسه هنا باعتباره روحا تزُور جثّتها، وكأنّه في منزلة بين الموت والحياة، وكما نعلم كان هذا العقلاني العظيم تلميذا لليسوعيين في مدرسة لافلاش La Flèche، فربّما كان في جملته تلك شيء من إينياس لويولا Ignace Loyola الذي كان يقول بأنّ على اليسوعي أن يكون في الطاعة كالجثة، ومهما يكن من أمر، فإنّ تلك التفاصيل -في رأي الأستاذ دوبان- كافية في الإبانة عن الدلالات الثقافية للفلسفة الآلية:

لقد صنع ديكارت للغربيين بحكم المماثلة التي أقامها بين الجسد البشري والإنسان الآلي استيهام جماع الأموات. كيف خطر ببال هذا المفكّر مكْنَنة الإنسان؟ لم يكن من اليسير الإجابة عن هذا السؤال بدقة، ولكن بعض مؤرّخي القرن العشرين فتحوا لنا آفاقا مهمّة، ففي سنة ١٦١٤ حين كان ديكارت في الثامنة عشرة من عمره اعتزل الناس لمدّة سنتين في سان جارمان Sain-Germain في لاي Laye حيث كان يوجد قصر رائع، كان بمثابة إقامة ملكية تحيط بها حدائق غناء، ولم تكن لهذه الحدائق ستّ شرفات تطلّ على نهر السان la Seine ينساب من خلالها شلال ماء فقط، وإنّما عديد الكهوف التي هيّأها الأخوان فرانسيني Francini. لقد استُقدما من فلورانسا Florence خصّيصا للعناية بالمياه والنافورات، ولكن ما ابتكروه في سان جرمان كان بالفعل جنّة حقيقية للميكانيك، ففي تلك الكهوف المضاءة بمشاعل كانت عصافير آلية تزقزق، "وتماثيل تشتغل بالدفع المائي"، تتحرّك وترقص وتتكلّم. كان ديكارت في تلك الفترة -كما روى ذلك أدريان بايي Adrien Baillet كاتب سيرته- يحرص على اعتزال أصدقائه وعائلته، وكان يروق له التجوال في الحدائق الملكية حيث لا مكان للقاء من لا يرغب في لقائه، وَكانت الروبوتات تثير فضوله على وجه الخصوص وفي مؤلّفه كتاب الإنسان ترك لنا بالفعل وصفا استوحاه من كهوف سان جرمان، فعند زيارتها يدوس الزائر دون أن يدري "بعض مربّعات البلاط" التي تجعل وفق آليات خفية ديانا[1] Diane تختفي بين القصب أو

(١) ديانا باللاتينية (Diana) هي آلهة الصيد والقمر والولادة في الأساطير الرومانية، وهي مرتبطة بالحيوانات والنباتات البرية ولديها القوة للتكلم معها والتحكم فيها، ديانا تعادل الإلهة أرتميس في الأسطورة الاغريقية. كانت تُعْبَد في الديانة الرومانية القديمة وتُعبد اليوم أيضاً من قبل أتباع الويكا الدايانية باعتبارها رمزا للأنثوية، ديانا حسب المعتقد الروماني هي الإلهة العذراء للولادة والمرأة. ديانا هي إلهة عذراء حامية للنساء أثناء الولادة. شكّلت ديانا ثالوثًا مع إلهين رومانيين آخرين: إجيريا حورية الماء وخادمتها ومساعدتها القابلة وفيربيوس إله الغابة. (المترجمان)

يطلّ عليك نبتون[1] Neptune أيضا شاهرا شوكته الثلاثية وغير بعيد عنها يتقيّأ وحش مائي الماء في وجوه الزائرين.

لقد أكّد ديكارت أنّ تلك المظاهر الرائعة لا تتوقّف إلا على "رغبة المهندسين" ولم يكن يخفي أنّ تصاميم صانعي النوافير قد أوحت إليه تفسيره الآلي للسلوك البشري، ومع ذلك فقد ذهب به إعجابه بالإخوة فرانسيني بعيدا جدّا، ففي سنة ١٦٣٥ عندما رزق بنْتا "غير شرعية" من امرأة غريبة الأطوار تدعى هيلين hélène اختار لها اسم فرانسين Francine... كان من الصعب جدّا أن نرى ذلك ثمرة للصدفة، ولم يخطئ الغربيون كلّيا إذ تكوّنت منذ القرن السابع عشر كما تدلّ على ذلك نصوص عديدة خرافة عجيبة حول ابنة ديكارت، واستمرّت في العيش إلى حدود القرن التاسع عشر. خذ مثلا ما يمكن أن نقرأه في القاموس الكوني الكبير لبيار لاروس Pierre Larousse في مادة الروبوت: " لقد أراد ديكارت أن يبرهن على أنّ الحيوانات ليس لها روح فصنع روبوتا له وجه فتاة في مقتبل العمر، أسند إليها مازحًا اسم ابنته فرانسين، وفي إحدى سفرات ديكارت البحرية دفع الفضول الربان إلى فتح الصندوق الذي كانت تقبع فيه فرانسين، ولكن عندما فوجئ بحركات تلك الآلة التي كانت تتمايل كما لو كانت حية رمى بها في البحر معتقدا أنها إحدى أدوات السحر".

كانت هذه القصة قاسية، لأنّ فرانسين قد وُجدت فعلا، وتوفّيت للأسف في

---

(١) نبتون باللاتينية (Neptūnus) هو إله الماء والبحر في الأساطير الرومانية. وهو يقابل بوسيدون Poseidon في الأساطير اليونانية. هو شقيق جيوبيتر وبلوتو. والإخوة الثلاثة هم المسؤولون عن الجنة والأرض والعالم السفلي. وزوجة نبتون هي سالاقيا. كانت صور نيبتون تملأ الفسيفساء الرومانية الموجودة في شمال أفريقيا بالخصوص. (المترجمان)

سنّ الخامسة، ولقد أحسّ ديكارت بحزن شديد لفراقها، وعلى أية حال فالخرافة تكشف لنا بطريقة ساذجة جانبًا من أوهام ديكارت، وأقلّ ما يمكن أن يقال فيه أنه مضطرب. لقد كانت الرسالة واضحة المعالم: فتبنّي التصوّرات الآلية كان يعني التهيّؤ لصنع بشر لا أرواح لهم في يوم من الأيّام، أي روبوتات ليس لها من الإنسان سوى مظهره، ومع ذلك لم تكن لدى العقلانيين كالتجار والمهندسين رغبة في معرفة أيّ شيء.

لقد استمرّت المكْننة من ديكارت إلى **الانفجار الأكبر** إذن دون هوادة، ولا بدّ أن نعرّج بصورة خاصة في مجال التأمّلات الفلسفية على الطبيب والفيلسوف الفرنسي لامتري La Mettrie. ففي كتاب له يحمل عنوان الإنسان الآلة -ظهر في القرن الثامن عشر- دفعٌ للخطط التي رسمها ديكارت نحو تحقيق أفضل النتائج الممكنة، والحقّ أنه لم يكن أوّل من شبّه الإنسان بحيوان-آلة، ولكن خطابه كان مباشرا عنيفا، فما الإنسان -في نظره- سوى آلة، وهي آلة مفكرة حتما، ولكن لامتري قد اكتفى بالقول بأنّ المادّة المنظّمة بإمكانها أن تفكّر، فقد أصاب ديكارت إذن عندما ماثل بين الإنسان والساعة، ولكنّه أخطأ لأنّه نسب إليه روحا. لقد اكتفى لامتري بآلية صارمة، إذ اعتبر " أنّ الإنسان بالنسبة إلى الحيوان بمثابة ساعة هويغنس[1] *Huygens* الكونية بالنسبة إلى ساعة عادية"، كما ذكر ذلك المؤرّخ الألماني فريدريك ألبرت لانغ Friedich Albert Lange. لقد كان قول البارون دولباخ D'Holbach في مؤلّفه نسق الطبيعة (١٧٧٠) واضحا شأنه شأن هويغنس حين قال: " إذا كان الإنسان -وهو ذلك الكائن المادي- يفكّر حقّا، فذلك يعني أنّ المادة تمتلك القدرة على التفكير".

---

(١) قسطنطين هيوغنس Constantijn Huygens (١٥٩٦-١٦٨٧) رجل دولة وشاعر وموسيقي هولندي. (المترجمان)

ومن ثمّ أُرسيت قواعد فلسفة المستقبل، وهي فلسفة إلكتروني-روبوتيي القرن العشرين. لقد تحوّلت فلسفة ديكارت الآلية-كما كان متوقّعا- إلى ماديّة متحجّرة جدّا، لقد كانت الروح -كما قال الأستاذ دوبان- كيانا ثقافيا غير واضح المعالم، سرعان ما تبخّرت في مجتمع مهوس بالأرباح والنجاعة، وبذلك فقَد هذا الإنسان الذي استحال رمزيّا وفيزيائيًا إلى روبوت، حياته الروحية وحياته الشعرية، وكثير هم المؤرّخون الذين أدركوا فعلا أنّ تفوّق المهندسين الثقافي قد جعل ذلك التدهور أمرًا لا مفرّ منه، لقد كتب لانغ في كتابه تاريخ المادية يقول: " الجدير بالملاحظة أنّ الماديين في القرن الثامن عشر، قبل أن تطلق هذه الصفة، كان يشار إليهم باعتبارهم ميكانيكيين، بمعنى أنهم أناس يتمثّلون الطبيعة من وجهة نظر آلية".

أما الصعيد النفسي فقد عاثت فيه أسطورة الآلة فسادا، ولقد ذكرنا ذلك في تأمّلاتنا الأوّلية، إذ انتهى الغربيون إلى إقامة علوم نفسية لا مكان فيها لفكرة الروح، ولا وجود إلا "لأجهزة نفسية" أو لكيانات أخرى مماثلة. لقد استعملت كلمة "روح" في الخطاب اليومي لا محالة، ومن البديهي أن الأخصائيين النفسانيين حتى نهاية القرن العشرين، لم يتملّكوا المفاهيم النظرية نفسها ولا الطرائق نفسها. فلم يكن أخصائيو "علم نفس الجرذان" يستخدمون المعجم نفسه، ولا التقنيات ذاتها التي كان يستعملها نظراؤهم في التحليل النفسي، ولكن إيحاءات الديكارتيين ومن تبعهم كانت حاضرةً في كلّ مكان بصورة واضحة نسبيًا وبطرائق متنوّعة، فحتى فرويد نفسه استعار لوصف الجهاز النفسي "نماذج" من اختصاصات مثل الآلية والحركة الناجمة عن الطاقة الحرارية. وقد أثبت المحلّل النفسي جاك لاكون Jaques Lacan ذلك في قوله: "إنّ موقف الطبيب من الجسد هو ذاته ما نجده عند ذلك الشخص الذي يفكّك آلة من الآلات، وكنّا نودّ أن ندلي بتصريحات

مبدئيـة، ولكنّ هـذا الموقف كان جذريًّا، ومن ثمّ انطلـق فرويد"، وأضاف الكاتب نفسـه معترفًا بالدور الحاسـم الذي نهض به ديكارت: " إنّ الآلة التي أتحدّث عنها هي الساعة".

ومـن وجهـة النظـر المعرفية التـي توصـف بـ"الموضوعية"، فإنّ تلـك الخطة الميكانيكيـة لـم يكن يعوزهـا التجانس؛ ذلك أنّ الكون بأسـره -كمـا أكّدت ذلك التقاليد "العقلانية"- كان يخضع لـ" قوانين عامة"، ويترتّب على ذلك -إذا استعملنا عبـارة كوندورسـي- أنّ "الملـكات الذهنية والأخلاقية" للإنسـان ينبغـي أن تحلّل باعتبارها ظواهر طبيعية كسائر الظواهر الأخرى، ولقد أضاف قائلا بأنّه من الواجب إخضاع الكائنات البشرية للملاحظة شأنها شأن القنادس والنحل. وقد أنشأ العلماء المحدثـون -انطلاقـا من هـذه المقدّمات- نظريـات كان من المفتـرض أن تكون "علمية"، مفيدة جدّا لمن كان يروم التأثير في أبناء جلدته على أيّة حال.

لقـد بـدا لنا مثـال علم النفـس المسـمّى بالسـلوكيّ نموذجيا، فكانـت الفكرة الأساسـية العظمى لمؤسسـه الأمريكي جون بروادوس واطسـن John Broadus Watson (١٨٧٨-١٩٥٨) هـي تحويـل علـم النفـس إلـى علـم صـارم، صالـح للحيوانـات وللبشـر علـى حدّ سـواء، ومـن أجل ذلـك كان لا بدّ مـن التخلي عن الحـالات النفسـية وعـن الأفكار والأحاسـيس والتصوّرات، أي عـن كلّ ما يكوّن "الحياة الباطنية" للكائنات الإنسـانية، فكيف لنا أن نثق حقّا بالاسـتبطان[1]؟ وكيف

(١) الاستبطان معرفة الباطن أو تعرف الباطن Introspection هو معاينة الفرد لعملياته العقلية أو هو المُعاينة الذاتية. وهو ملاحظة الشخص المنظّمة لما يجري في شعوره من خِبْرات حسّية أو عقليّة أو انفعالية تَصِفُ هذه الحالة وتُحَلِّلُها وتُؤوّلها أحياناً، سواء أكانت حاضرة كحالة الحزن أو الغضب أم ماضية كأحلام النوم. ويوضح التعريفان السابقان أن الاستبطان فردي. وأنّ الفرد في الاستبطان يعكس شعوره على =

يمكن أن نحلّل بجدّية المكوّن "الشعوري" للأحاسيس والعواطف والنوايا؟ فكلّ ما يمكن ملاحظته بصورة "علمية" هي التصرّفات، وفي الجملة ينبغي دراسة الإنسان كما لو كان روبوتا أشدّ تعقيدا.

و قد أضحى ممكنا في مجال السلوكية (أو "علم النفس السلوكي") اتّباع منهج الفيزيائيين، ويعني ذلك القيام بملاحظات دقيقة، واستعمال القياسات وغيرها، إذ كان الهدف الأسمى هو محاولة بناء نسق تفسيري يعتمد على مفهومي المثير والاستجابة له، (المثير هو حدث يقع في العالم المحسوس ينبّه جسما حيّا، فيحدث إجابة أي ردّة فعل)، وانطلاقا من هذه الخطاطة القابلة للتطوير إلى ما لا نهاية صار بالإمكان معاينة "أسباب" عدّة تصرّفات، والنتائج التي تنجرّ عنها والتنبّؤ بها، أو حتّى بإنتاجها. إنّ الاستفادة العلمية لمثل هذا العلم النفسي تبدو ماثلة للعيان، فأخصّائيو الإعلان مثلا يمكنهم أن يفتحوا الباب أمام تصرّفات استهلاكية باستخدامهم بعض المثيرات استخدامًا ذكيّا، وكان ذلك هدفهم الأوحد، فكلّ ما كان يفكّر فيه الذين أُخضعوا للتجربة، وما كانوا يحسّونه، يُعدّ أمرا ثانويا.

كان بعض علماء النفس المحدثين يسلّمون لا محالة بوجود عمليات ذهنية وتصوّرات ذهنية، وعوضا عن اتّباع مقاربة سلوكية محض، فقد اختاروا سبيل استعارة صورةٍ آليةٍ أخرى، هي تلك التي تتعلّق بالحاسوب، فالدماغ كان يعدّ إجمالا آلة "عصبية" تستطيع تخزين المعلومات ومعالجتها، وكانت تلك فعلا

= ذاته، حيث تنقسم الحياة النفسية إلى مُتأمِّل و متأمَّلٍ. ويمكن النظر إلى الاستبطان على أنه منهج من مناهج مقاربة الظواهر النفسية لمعرفتها وتحليلها وتأويلها والبحث عمّا هو مشترك فيها بُغية الوصول إلى قواعد عامة. ومع تشابه الاستبطان والتحليل النفسي من حيث اعتماد آلية كلٍ منهما على التقرير الذاتي، فإن التحليل النفسي يتّخذ اللاشعور موضوعاً له في حين يكون الشعور موضوع الاستبطان. (المترجمان)

إحدى آخر النسخ للإنسان الآلة، ألا وهو الإنسان العصبي، ولن نخوض في الحديث عن مختلف المناهج التي اعتمدها الباحثون في هذا السياق، ولو على نحو مقتضب، والجدير بالملاحظة هو أنّ تلك الأعمال التي اشتهرت بجدّيتها على الصعيد الثقافي، قد انبنت كلّها على المادية المختصرة، وإذا صادف أن تحدّث أحد النفسانيين عن الروح أو العقل أو الضمير، أُتُّهِم باستسلامه للانحرافات الروحية (والإحيائية)، ولقد أكّد الأستاذ دوبان أنّ النتائج كانت كارثية من الناحية الروحية والشعرية.

ولتوضيح هذا القول حصلنا على أثر مميّز جدّا، لعالم النفس الأمريكي بارهوس فريدريك سكينر، صدر سنة ١٩٧١، عنوانه: ما وراء الحرية والكرامة، حيث سخّر سكينر -وهو أحد الممثلين البارزين للمدرسة السلوكية- جهده في ذلك الكتاب للدفاع بحماسة عن تنظيم جديد للمجتمع قوامه العلم، إذ ظلّت الإنسانية في رأيه متشبّثة بأوهام مثالية أكل الدهر عليها وشرب". فما يلزمنا بصورة عاجلة هو العلم التطبيقي وتكنولوجيا السلوك".

ينبغي إذن على الحداثي الحقّ أن يُعرِض عن كلّ ثرثرة لا تجدي نفعا حول الحكمة، وحول الأحاسيس نفسها، ولقد أكّد سكينر بأنّه لا يكفي " استخدام التكنولوجيا بحسّ أعمق في الشؤون الإنسانية"، ولا حتّى " تسخير التقنية لخدمة الحاجات الروحية للإنسانية"، كلاّ بل ينبغي تنظيم "الخطط الثقافية" تنظيمًا علميا، ذلك أن هندسةً اجتماعيةً بارعةً قوامها تقنيةٌ نفسية تُدعى "التعزيز" تُتيح ضمان النظام والسعادة في آن، ويتلخّص "التعزيز" المذكور في وضْع أُطُر تَنْبُذ تحكيم القيم والعقوبات القاسية في الآن نفسه.

لقد كتب هذا التقني النفسي يقول: " إننا نحاول جاهدين بناء عالم مثل الذي

ذكرت بالنسبة إلى الذين لا يستطيعون حلّ مشكلة العقوبة بوسائلهم الخاصة، ونقصد بهم الرضّع والمتخلّفين ذهنيا والذُهانيين، ولو فعلنا ذلك مع كلّ الناس لادّخرنا كثيرا من الوقت والجهد"، لكن ذلك النجاح لا يمكن تحقيقه إلا بتحقيق شرط أساسي: وهو تنكّر الناس لعقائد التقليديين، وتخلّصهم من المنظومات الأخلاقية التي تعتمد مفهومي الحرية والكرامة.

ثمّ أضاف بكلّ بساطة: "إنّنا أولينا كلمة "إنسان" احتراما مزيفا"، لقد تخيّل هاملت أنّ الإنسان يشبه الإله، لكن بافلوف كان أصْوب حُكمًا، فالإنسان أشبه ما يكون بالكلب، لقد تدارك عالمنا السلوكي بقوله: " إنّ الإنسان أكبر من أن يكون كلبًا، ولكن يمكن إخضاعه للتحليل العلمي مثل الكلب"، ومن ثمّ أصبحت المقولات الاختزالية ممكنة كلّها، فماذا عن الأنا؟ يجيبنا سكينر بأنّ " الأنا سلسلة من أنماط السلوك المتناسبة مع مجموعة معيّنة من الظروف"، والمجتمع من هذا المنظور ليس إلا مجموعة من الـ"أنا" يمكن -بل ينبغي- أن يتحكّم في أنماط سلوكها خبراء أكفاء، فالعلم والتقدّم والتصرّف، ثلاث كلمات أساسية في الغرب ارتبطت فيما بينها ارتباطا وثيقًا. وبديهي أنّ العالَم الذي كان ينشده سكينر لم يكن ذاك الذي يشدّ إليه العقول التي تتّسم بشيء من الرومنسية، ولا حتى العقول ذات النزعة الإنسانية الأكثر اعتدالا، بل لقد ظهرت بعض ردود الفعل: ألن يتحوّل المجتمع الإنساني إلى ما يشبه قرية نمل ضخمة إذا سلك ذلك الطريق؟ لقد تساءل أحدهم ويدعى يوسف وود كروتش: ألن يضمحلّ الإنسان "بالمعنى الذي أسبغه إنسانيو الأجيال السابقة على هذه الكلمة"؟ لقد أجاب سكينر بطريقة أو بأخرى حين صرّح بأنّ "الإنسان باعتباره إنسانا" و"الإنسان باعتباره شخصا" سوف يضمحلّ، ولكن لا خطر في ذلك في نظره؛ لأنّ تلك التعبيرات لا تحيل إلا على أوهام. لقد كان يدّعي إذن شرف المساهمة في ذلك الموت الثقافي بعبارات قوية

جدّا عندما قال: ما نروم إبادته هو الإنسان المستقلّ، الإنسان الباطن الذي دافع عنه أدب الحرية والكرامة، فالإنسان باعتباره إنسانا نقول دون تردّد (نريد الانعتاق).

"لا يمكننا الالتفات إلى القضايا الحقيقية للسلوك الإنساني دون تجريد الإنسان من كلّ ذلك، عندها فقط يمكننا العبور من المفترض إلى الملحوظ، ومن المُعجز إلى الطبيعي، ومن المجرّد إلى المحسوس"، ينبغي تصنيف هذا النص من بين النصوص الأوضح والأروع على مدى القرن العشرين، فكلّ كلمة جديرة بالتأمّل، فقد كان سكينر يحتاج إلى شجاعة أكبر حتّى يسمّي الأشياء بأسمائها، كان ينبغي أن يقول بأنّ الإنسان لن يكون ذا روح، ولن يكون حرّا، وسيُطوّعُ لما أُريدَ له أن يكون.

لقد نُزع في الآن نفسه عن مجال العواطف ما له من أهمية " فما يحسّه الناس تجاه الأحداث أمر ثانوي، والمهمّ ما يفعلونه لا ما يحسّونه "، لقد أخطأ التقليديون حسب سكينر مرّتين: كانوا يعتقدون أنّ الإنسان حرّ في اختياراته، وكانوا يتحدّثون "بلسان العواطف " دوْما.

لقد ابتدع الغرب عالم الآلة، والحيوان الآلة، والإنسان الآلة، فمن المنطقي إذن أن تكون الأخلاق آلية بدورها، وعلينا أن نفهم العبارة في معناها الحرفي، لقد ذكر سكينر بإعجاب هذا التفكير للطبيعي توماس هنري هكسلي Tomas Henry Huxley (١٨٢٥-١٨٩٥) الذي لقّب بكلب حراسة داروين عندما قال: "لو عرضت عليّ قوة عليا خارقة بأن تجعلني أفكّر دائما بطريقة صحيحة، وأن أقوم بأعمال خيّرة، شريطة أن أعيد تدوير لوْلب كلّ صباح عندما أستيقظ من النوم، كما لو كنتُ ساعة لقبلت العرض دون أن أتردّد لحظة واحدة"، وهكذا يفرض منوال الساعة نفسه على المشهد مرة أخرى، فالمواطن المثالي كان إنسانا آليا قد عُدّل

بدقّة، وهو كائن غير محتاج إلى التفكير ولا إلى الإحساس. ينبغي إذن أن يعوّض المهندسُ النبيَّ والشاعرَ. لقد تحمّل سكينر مسؤولية كاملة في هذا المشروع عندما قال: "ليس هناك سبب يحول دون تقدّمنا نحو عالم يكون الناس فيه خيّرين بالضرورة".

لم يتجرّأ معظم علماء النفس والخبراء في العلوم الإنسانية على التعبير بمثل تلك الصراحة، كانوا يتكتّمون، حتّى وإن اعتمدوا على مبادئ ماديّة صرف، لقد استمدّت تصريحات سكينر أهمّيتها من كشفها عن الدلالة الروحية لكلّ المشاريع ذات المرجعية الآلية، لقد ذكر الأستاذ دوبان أنّ عالم النفس ذاك قد جاهر في كتاب ما وراء الحرية بما كان يقوم به آلاف الخبراء في صمت حذِر.

ذلك أنّ فرصا عديدة أتيحت لفريق بحثنا كي يثبت بأنّ الغرب الحديث كان يستنجد -دون انقطاع- بنظريات وممارسات تدمّر الحرية والكرامة الإنسانية. كان ذلك جليّا في الإعلان والدعاية، وفي قياس نسبة الاستماع إلى وسائل الإعلام السمعية والبصرية وغيرها، ولكن أيضا في مجال تنظيم العمل، وهو مجال يستحقّ الذكر، لا لأنّه يظهر المغالاة في عبادة الآلة فقط، وإنّما لأنه يكشف عن مدى تطوّر النفوذ الثقافي للمهندسين أيضا.

كان تحسين المردود الصناعي أمرًا ثابتًا في الاقتصاد الحديث، ومن بين الوسائل الموصلة إلى ذلك، تطوير قدرة العمال فيما ينجزونه من أعمال متنوّعة. هكذا تشكّل اختصاص نظري تطبيقي في الوقت نفسه، ألا وهو بيئة العمل، وموضوعها حسب القواميس يتمثّل في "التنظيم العقلاني للعمل"، حيث كان كثير من الخبراء في أواخر القرن العشرين يعتبرونها فرعًا من فروع علم النفس التطبيقي، خذ مثلا كيف استخرج مؤرّخ التقنيات جون-كلود بون Jean-Claude Beaune

دلالاتها في قوله: "ينبغي أن يكون العامل بدينًا نشيطًا وحيوانًا- آلة أي حيوانًا وآلة متلازمين أبدا"، ويمكن أن تكون لهذه الفكرة أبعاد إضافية، إذا ما أردنا العودة إلى التاريخ العملي لذلك "العلم".

كانت صدمة الأستاذ دوبان كبيرة عندما علم أنّ أحد المؤسسين لعقْلنة شغل العمال، وهو مهندس عسكري يدعى شارل أوغسطين كولومب Charles Augustin Coulomb (١٧٣٦-١٨٠٦)، عمل في البداية ضابطًا في قطاع الهندسة، وكانت له مسيرة علمية رائعة، بعد أن تخصص في مجال الآلية (درجة مقاومة الموادّ، قانون الاحتكاك، إلخ)، كان يستقرئ الإنسان كما يستقرئ الآلة تمامًا، وقد أجرى تجاربه بعناية، ثمّ دوّن اكتشافاته سنة ١٧٩٩ في رسالة بحث كانت بمثابة " نتاج لعدّة تجارب تهدف إلى نوعية الفعل الذي يمكن للبشر توفيره بوساطة العمل اليومي وفق مختلف الطرق التي بها يستخدمون طاقاتهم"، فلاحظ مثلا أنّ المردود الأمثل بالنسبة إلى الأعمال المضنية يتحقّق عندما يعمل الكائن البشري بين ٧ و٨ ساعات في اليوم، فلا فائدة إذن من أن يفرض المزيد من الوقت على العمال: فما زاد على ذلك يضعف المردودية، وخلافًا لذلك عندما تكون المهام غير متعبة أثبت كولومب أننا يمكن أن نمدّد يوم العمل إلى حدود ١٠ ساعات دون أن نخشى من تناقص المردود خلالها، ومن بين الاكتشافات المهمّة أنّ من مصلحة أرباب العمل مضاعفة أوقات الراحة في بعض الحالات، فقد بيّنت التجربة فعلا أنّ نجاعة اليد العاملة قد تحسّنت في الجملة. يمكن إذن إقامة علم نفس ناجع بفضل الآلية، ولقد برز هذا الموضوع وحظي باهتمام متزايد لدى الحداثيين الحقيقيين: (ففي نظرهم) من المناسب جدًّا تعزيز الهندسة الميكانيكية التقليدية بهندسة تختصّ صراحة بالآلة البشرية وبتنظيم العمل.

ولقد انكبّ مهندسون آخرون على القيام بهذه المهمّة، وكان أشهرهم بالتأكيد الأمريكي فريدريك وينسلو تايلور Fredrick Winslow Taylor (١٨٥٦-١٩١٥)، فقد طوّر الآلات والتقنيات في حدّ ذاتها (باستحداث فولاذ القطع السريع) من ناحية، وجعل نظام العمل المتسلسل أنجع من ناحية أخرى، واقترح مناهج جديدة في "إدارة الأعمال". كان تايلور إنسانًا واقعيًا، وكان يصنّف العمال ويقارنهم بالخيول، كما ذكّر بذلك جون كلود بون، وكان يقول: " سأتحدّث عن الخيول؛ لأنّ الجميع يستحسن خصال الحصان، والحال أن قليلا منهم درسوا البشر بالشكل الكافي ليتمكّنوا من معرفتهم بالقدر الذي نعرف نحن الخيول".

لقد صار العامل من الصنف الأوّل إذن "إنسانا حصانًا للحراثة قويا صلبا"، بخلاف البشر-الخيول من الصنف الثاني الذين هم دونهم نجاعة، ولكن ينبغي أن لا نيأس، "فكلّ نوع من أنواع البشر ميسّر لأن يكون من الصنف الأوّل في نوع محدّد من الأعمال".

ولم يتوقّف تايلور عند ذلك الحدّ: لقد وضع اختبارا ليطمئنّ بأنّ عمّاله ليسوا على درجة عالية من الذكاء، كان ذلك منطقيا في إطار بيئة العمل "العقلانية"، فعندما يكون العمل آليا سرعان ما يُضْحي الذكاء عائقًا، وكان إذن من المفيد إقصاء كلّ مترشّح للعمل إذا توفّر على نصيب وافر من الذكاء، فالمصنع أساسًا "نظام بشر- آلات" فيه ينبغي أن يكون كلّ شيء آليا إلى أقصى الحدود، لقد كان للمهندس في الحقيقة أوجه نظر متباينة أحيانا، فكان بعضهم يفضّل تطوير الآلات أوّلا، وكان آخرون يعيرون أهمية أكبر لحركات العمال وسلوكهم، وهو ما يفسّر بعض المفارقات التي تبدو لنا اليوم غريبة مضحكة؛ ذلك أنّ إيميل بيلو Émile Bélot -وهو مهندس متخصّص في التقنيات المتعدّدة- قد عاتب سنة ١٩١٨

تايلور على إظهار رأفة مبالغ فيها؛ لأنّه لم يهتمّ بما فيه الكفاية بتطوير الآلات، وبالغ في الاهتمام بالبشر-الخيول! كما ذكّر بذلك جون كلود بون.

كان هؤلاء الخبراء جميعا يعتمدون على التقاليد الآلية فعلا، وربما لم يكونوا واعين بذلك، ولكن إلى ذلك أدّى مسار جهودهم، لقد أعادوا تشكيل الممارسات الاجتماعية وفقا لأسطورة الآلة (أو الأسطورة الخفية للآلة)، ويستحق الألماني فرانز رولو Franz Reuleaux (١٨٢٩-١٩٠٥) في هذا السياق أن نتوقّف عنده بصورة خاصة. لقد كان منظّرا عظيما في التقنيات ومصمّما كبيرا للآلات، وقد أنجز الكثير من أجل أن تكون الآلة والإنسان في مرتبة واحدة. كتب يقول لقد بلغت الآلة أحيانا "درجة من الروبوتية تدفعنا إلى القول بإمكان تمتّعها بالإدراك"، وتبعًا لذلك تقهقر الإنسان الذي كلّف بمراقبتها تدريجيًا إلى درَك الإنسان الآلي.

لم يكن الأستاذ دوبان مخطئًا إذن، إذ أصبح -في رأيه- العامل في العالم الجديد الذي ينظّمه المهندسون، التجسيد الحيّ لحقيقة الأطروحات الآلية، ففي البداية لم تكن صورة الإنسان-الآلة إلا استيهامًا أوحى به تطوّر التقنيات، ولكن بتعزيز المهندسين سلطتهم في المجتمع الصناعي، قد أسّسوا لممارسات جعلت الواقع مطابقًا أكثر فأكثر لتلك الصورة. كانت الضحية الأولى -كما كنّا نرى- هي العامل البسيط، ولكن لمَ لمْ يدرك الغربيون أنّ مكْننة العامل لم تكن سوى مرحلة في مسار متصاعد اجتاح المجتمع كلّه؟ لم تتوقف التحذيرات، وهو ما جعل ميشلي يعبّر عن مخاوفه فيقول: " تدور الآلة ضخمة وقورة لا مبالية دون أن تعلم أن من تدْعَكُهم عجلاتها الصغيرة بصلابة هم بشر على قيد الحياة"، ولقد توقّع بفضل نظره الثاقب أنّ الغرب سيعرف يوما من الأيام لا " آلات صناعية فقط، ولكن "آلات إدارية "و"آلات سياسية" أيضًا، وبشّر " بالآلة المفكّرة" أيضًا تلك التي تتمفصل مع الآلة السياسية وتسمّى "فلسفة الدولة".

ستتاح لنا الفرصة فيما سيأتي لنتبيّن أنّ تخوّف ميشلي كان له ما يبرّره ويزيد، ولكن لم تكن لدى أصحاب القرار والمسؤولين رغبة في الإنصات إلى أيّ شيء مرّة أخرى، ورغم ذلك احتجّ الشعراء والثوريون، من ذلك أنّ الأمريكي رالف والدو إميرسون Ralf Waldo Emerson (١٨٠٣-١٨٨٢) قد أشار إلى أنّ العامل الملازم لآلته أضحى هو ذاته آلة، وأكّد -على وجه الخصوص- أنّ تقسيم العمل يحوّل الإنسان إلى "شيء"، وكتب الألماني ماركس مئات الصفحات في مواضيع مماثلة.

لقد صرّح بأنّ العمال صاروا عبيدًا للطبقة البورجوازية وللآلة في آن واحد، وقال: " لقد أصبح العامل مجرّد أداة للآلة، فلا يطلب منه سوى أبسط العمليات وأكثرها رتابة وأيسرها تعلّما"، فينتهي الأمر بالعامل إلى " أن يعيش حياة الآلة"، وحتّى الاشتراكي البورجوازي الصغير جون شارل ليونار Jean Charles Léonard تحدّث عن " التأثيرات المميتة للمكننة وتقسيم العمل"، وقد لاحظ ماركس أنّ ذلك النقد لا ينطبق على المصانع فقط، ولكن على كلّ مناحي الثقافة أيضا: " أي تمركز رؤوس الأموال والملكية العقارية، وفرط الإنتاج، والأزمات، وتقهقر البورجوازي الصغير والمزارع تقهقرًا حتميًا، وبؤس البروليتاريا[1]، وفوضى الإنتاج، والغياب الصارخ للعدالة في اقتسام الثروات وحرب الإبادة الصناعية فيما بين الأمم وانحلال القيم القديمة والعلاقات الأسرية القديمة والجنسيات القديمة"،

(١) البروليتاريا باللاتينية Proletarius مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر ضمن كتاب بيان **الحزب الشيوعي** لكارل ماركس وفريدريك أنجلز يشير فيه إلى الطبقة التي ستتولد بعد تحوّل اقتصاد العالم من اقتصاد تنافسي إلى اقتصاد احتكاري، وعني بها الطبقة التي لا تملك وسائل الإنتاج وتعيش من بيع مجهودها البدني أو الفكري. ويعتبرها ماركس الطبقة التي ستحرّر المجتمع وتبني الاشتراكية على نحو أُمَمي. (المترجمان)

فمن خلال مسألة المكْننة تتوالد إذن مسائل أساسية كثيرة. ولقد سجّل أدولف كيتلي Adolphe Quételet نفسه - وهو الذي كان يُفترض أن تصلح مقاربته الإحصائية أداة فعّالة من أدوات التطبيع الاجتماعي - اعتراضًا خطيرا ضدّ مقاربته، إذ تساءل معارضوه: أليس ثمّة خشية "من اختزال نوعنا البشري في الاشتغال مثل مجموعة من الآلات؟" لقد أوحى جون كلود بون من خلال موازنة قام بها أواخر القرن العشرين بالكارثة النهائية، فقال بأنّ تايلور وآليون آخرون قد هيّؤوا منذ البداية " لاستخدام أنماط العقلنة وتطبيع السلوك الإنساني استخداما نفسيا واجتماعيا وسياسيا"، ورغم أن هذه الصياغة كانت ركيكة، فقد أمكن للمقاولين ورجال السياسة والتكنوقراط فهمها وتدبّرها. بأيّ لغة إذن وجب مخاطبة "المتحضّرين" حتى لا يهتمّوا بالإنتاج واستهلاك البضائع فحسب؟

مازال الكثير يتذكّرون تزايد عدد العاطلين عن العمل (وخاصة في صفوف الشباب) في عدد من الدول الغربية على نحو يبعث على القلق، ففي فرنسا مثلا كان هناك حوالي ثلاثة ملايين معطّل عن العمل سنة ١٩٩٥، وكان الأمر يتعلّق -على حدّ قول خبراء كثيرين- بظاهرة محزنة، لكنّها عادية، كان هناك خطاب كامل قد أنشئ خصّيصا لتوفير "تفسيرات" فضفاضة. فالمنافسة والقدرة على التنافس والإنتاجية والمردودية وعولمة الاقتصاد، كلّها مفاهيم كانت تبرّر "الأزمة" في نهاية المطاف، فالمواطنون الحكماء عليهم تصوّر البطالة باعتبارها مشكلة تقنية، وفي يوم من الأيام ستوجد لها حلول تقنية أيضا.

كان من المفهوم ضمنيا أنّ قواعد اللعبة الاقتصادية الكبرى لم تكن محلّ إعادة نظر، وأنه ينبغي أن تضاف إلى ذلك النظام بعض التعديلات الهامشية، وبعض الآليات "للتعويض" في أقصى الحالات. وذلك بتقليص ساعات العمل

وبإيجـاد وظائف شـاغرة في قطـاع الخدمات، وباتخـاذ إجراءات جبائيـة متنوّعة، وبتطويـر توزيـع منـح البطالة وغيرها، وفـي نهاية المطاف ينصهر الـكل في النظام القائـم. كانـت الخطابات الانتخابية تجترّ تلك المحاور بـلا انقطاع، ولكن النتائج تكاد لا تذكر من الناحية العملية.

لقـد تجنّب فريـق بحثنا لضعف درايتـه بحيثيات الاقتصـاد "الحديث" الحكم علـى النجاعـة الاقتصاديـة المحـض لتلـك الإجراءات، ولكـن في تناولـه لظاهرة البطالـة مـن زاوية النظر الثقافية غاص مرّة أخرى في حيرة سـحيقة. كيف اسـتطاع الغربيون أمام هول تلك الخسائر التصديق بأنّ التلفيق والترقيع المتزايد هنا وهناك كان كافيا؟ كيف أمكن التشبّث بتجاهل تلك التناقضات التي تبدو لنا اليوم واضحة جليـة؟ لقـد غمرهم النموّ الاقتصادي، فلم يفكّروا إلا في إنتاج سـلع أكثر بسـرعة أكبـر، وجني أربـاح أفضل. ووفاء منهم لـروح كولومب وتايلـور وأمثاله، كانوا لا يعقلون الإنتاج إلى أقصى حدّ فقط، وإنّما يعقلون كلّ ما يتعلّق بالتصرّف والتوزيع أيضا. وكان المختصّون والصحفيون يُشيدون بالنجاحات التي تحقّقت في ميدان الآليـة والروبوتيـة، فتشـغيل آلة قادرة علـى تعويض فرد أو أكثـر، كان يوصف بأنّه انتصار للتقدّم، وكانت المحاسن تطغى على المساوئ، كما يقول الحداثيون، ولـم تكـن البطالـة فـي نهاية الأمر سـوى ضرر مـن أضرار النمـوّ؛ ونتيجة لذلـك ينبغي القبول بالمكْننة، أو حتّى تطويرها.

وعندما كان المواطنون يظهرون امتعاضهم أو انتقادهم، كان هناك دائما بعض الاقتصاديين (أو بعض علماء الاجتماع) الذين يهدونهم سـبيل الرشاد، ولقد سبق أن ذكرنا هذه الفكرة المتكررة: " كلاّ إنّ الآلية لا تقلّص عدد الوظائف الشـاغرة"، وكان هناك خطأ في مكان ما، مثلما أظهرت ذلك بقية الأحداث من بعدُ.

والواقـع يبيّـن أنّ البطالة بلغت حدّا مأسـويًا خلال سـنوات ١٩٩٧ و١٩٩٩، وممّـا جعـل هذا العناد الجماعي أمرا لا يصدّقه عقـل أنّ إعلان الكارثة حدث منذ ما لا يقلّ عن قرنين أو ثلاثة، وقد أشار الأستاذ دوبان إلى " أنّ الأدهى من كلّ ذلك أنّ معضلـة البطالـة قد وقعت برمجتها والتمهيد لهـا بصورة معلنة، ولـم تكن حادثًا عرضيا ولا انقلابًا طارئا بل على العكس من ذلك، كانت ثمرة مشروع حُدّد وأُعلن عنه بوضوح". لقد كان من اليسير علينا العثور على نصوص واضحة جدّا، من ذلك أنّ البشـر باعتبارهم عناصر من جهاز الإنتاج ينبغي اسـتعمالهم اسـتعمالا منهجيا يتيح للأرباح أن تكون في أعلى مستوياتها.

ومثلما توجد موارد طبيعية (أي موادّ أوّليّة)، توجد موارد بشرية أيضا، وبوسع أصحاب المشـاريع اسـتخدامها بكلّ حرية، وهنا ينبغي أن تأخذ العبارات بمعانيها الحرفيـة. ومثْل منجـم الحديد وحجـر الجيـر، يُعتبر عامّـة الناس في نظـر النخبة البورجوازية مادّة، وتُعامل تبَعا لذلك. لقد قال ذلك منذ القرن السابع عشر الخبير الاقتصادي الإنكليزي ويليام بيتي William Petty بكلمات سـاطعة: "إنّ الشـعب هو المادّة الأوّلية الأهمّ والأنفس التي منها نستمدّ أصناف الإنتاج كلّها، من تجارة بحرية وثروات وغزوات وإمبراطوريات اسـتعمارية، وتسـلّم هذه المادّة الأساسية الخـام الخشـنة إلى أيادي السـلطة العليا إلى أهـل الحكمة الذين يُعْنَـوْن بتطويرها وتوجيهها وتطويعها لتحقيق أرباح قد تقلّ وقد تكثر".

ورغم ذلك كانت هناك مشكلة -كما أشار إلى ذلك بريان إيسلا Brian Easla فـي تعليقـه على هـذا النص المؤسـس: فالمادّة البشـريّة خلافًا للمـوارد الأخرى، تتطلّـب حاجيـات ينبغي مراعاتها، ولكن مـن وجهة النظر الاقتصاديـة كان الخيار بديهيـا: لا ينبغـي الأخـذ بعين الاعتبار تلك الحاجـات إلا إذا كانت تتضمّن خدمة

الحاجات الخاصة للمديرين". لقد ظهرت نتائج تلك القاعدة الجميلة بكلّ تألّق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، زمن ازدهار الصناعات الكبرى، ولكن عندما أصبحت المنافسة على أشدّها بين المنتجين، أصبح من الضروري اللجوء إلى الآلة. كان الدمار في صناعة النسيج مرعبًا، ففي سنة ١٨٣٥ ألقى كاتب اقتصادي يُدعى جون بورينغ John Bowring أمام مجلس العموم البريطاني خطابًا مفيدًا جدًا: كان في لندن ٥٠٠٠٠ نسّاج يعيشون في فقر مدقع، لقد كانوا في حالة موت اجتماعي وبدني بطيء، وفي سنة ١٨٤٨ عرّج ماركس مطوّلا في كتابه خطاب حول التبادل الحرّ على بورينغ فقال: " كان النساجون اليدويون قد وجدوا أنفسهم على حافة الوجود الإنساني، تكفي خطوة أخرى حتّى تكون حياتهم مستحيلة، فمجرّد صدمة صغيرة كفيلة بتعريضهم للهلاك. إنّ تقدّم الآلية الذي يرافقه تخلّ تدريجي عن العمل اليدوي يؤدّي بالضرورة في المرحلة الانتقالية إلى آلام وقتية كثيرة". وكان بإمكان السيرجون بورينغ أن يضيف: وآلام روحية كثيرة، لقد اقتضت الواقعية الصناعية التسليم بالأمر الواقع، ولقد صمّم هذا الاقتصادي عبارات جميلة في ذلك، حيث كان يقول: " إنّ رخاء الوطن لا يمكن الحصول عليه إلا مقابل بعض الأضرار الفردية، ولا نتقدّم في الصناعة إلا على حساب الكُسالى"، ولقد اعترف جون بورينغ في الكتاب نفسه بأنّ الإنجليز قد أدخلوا إلى الهند الشرقية بفضل استعمال "الصناعة البخارية" منتجات أثمانها زهيدة لقيت رواجا كبيرا، ولكنّها أودت بالحرفيين المحلّيين إلى الإفلاس: " لقد انقرض نسّاجون كثيرون من جرّاء التعطّل، أمّا البقية فقد انصرفوا إلى أعمال أخرى، نخصّ بالذكر منها الأعمال الزراعية (...) إنّه من الصعب العثور عبر تاريخ التجارة (الطويل) آلامًا تضاهي تلك التي تحمّلتها طبقات بأسرها في الهند الشرقية"، مثل تلك النصوص يمكن جمعها، وهي تكتسي بالنسبة إلى فريق بحثنا أهمية بالغة، إنّها تبيّن أنّ تحالف المهندسين والتجّار كان له منذ القدم نتائج مخيفة.

ولكن الفترات التالية حملت في طياتها -إن صحّ القول- أفضل تلك النتائج، فإثر ذلك بسنوات وتحديدا في سنة ١٨٣٥ أنشا أحد الكيميائيين البريطانيين فعلا نظرية نموّ اقتصادي أكثر تشدّدا، فاعتبار العمال دون مرتبة البشر وحذف أقصى عدد ممكن من مواطن الشغل لم يكن ضرورة قصوى فقط، وإنما كان إلى حدّ ما واجبًا وهدفًا ذا أولوية أيضا، وأخيرا كان بحوزة الغرب مذهب صارم. كان ذلك الكيميائي عضوا في شركة لندن الملكية ويدعى أندرو أرو Andrew Ure، وكان عنوان مؤلّفه الضخم فلسفة المصانع، ويحمل عنوانا فرعيا طويلا ولكنّه مفيد، إذ ينبئ القارئ بما سيجده في الكتاب من مبادئ علمية وأخلاقية وتجارية ينبغي على الصناعيين البريطانيين اتّباعها.

كان ما سمّي بـ"الأخلاق" بسيطا جدّا، ملخّصه أنّ الوسائل كلّها مشروعة لتحسين المردود، وفي رأي أرو ليست أصعب الأمور تلك المتعلّقة بابتكار آلات ذات حركة ذاتية متطوّرة، إذ يكفي في هذا المجال توفّر مهندسين وتقنيين أكْفاء مهَرة، وإنما المشكل الحقيقي يتعلّق بالعمّال، إذ كيف السبيل إلى فرض "الانضباط المطلوب"؟ وكيف "نخلّصهم من عاداتهم السيّئة في العمل ونفرض عليهم الانتظام الدقيق الذي يتميّز به الإنسان الآلي؟" من أجل ذلك أثنى أندرو كثيرا على الميكانيكي الإنجليزي ريتشارد أركورايت Richard Arkwright (١٧٣٢-١٧٩٢)؛ لأنّه قد طوّر في البدء الآلات التي تغزل القطن، ولأنّه نجح كذلك في مكْننة البشر: "لعمري إنّ صياغة تراتيب للانضباط داخل المصانع وتطبيقها بنجاح وعلى نحو ملائم لحاجات النظام الآلي لَإنجاز عظيم كان الفضل فيه لأركورايت، وأضاف أندرو أرو أنّ النظام حاجة ملحّة في المصانع "وأركورايت هو من ابتدع النظام".

وقد عمق فيلسوفنا الكيميائي تحليله فبيّن بوضوح الأسباب التي أدّت إلى انخفاض مستوى العمالة داخل الشركات قائلا: "من نقائص الطبيعة الإنسانية أنّ العامل بقدر ما يكون كفئًا يكون عنيدا، صعب المِراس، وأقلّ استعدادا للاندماج في النظام الآلي بطبيعة الحال، ويمكن أن تسبّب غياباته الطارئة خسائر على وجه العموم، فينبغي أن يكون الهدف الأكبر لصاحب المصنع الحديث، هو جعل مهمّة العمّال -بتضافر المال والعلم- تؤول إلى مراقبة الآلة، وإلى أعمال أخرى خفيفة".

نلاحظ أنّ أرو نهض هنا بدور عالم النفس وعالم الاجتماع و"مدير الأعمال". كان أصحاب المشاريع يعمدون إلى تشغيل عمّال لا اختصاص لهم، ومن السهل الاستبدال بهم، حتّى يتجنّبوا الإضرابات والمطالب المجحفة، وكانت العبارة التي يوصف بها العامل الحديث دقيقة بليغة الدلالة: إنّه عجلة في آلة لا أكثر وعنصر في نظام آلي، ويحسن أن نشير إلى أنّ هذا التقليص المعمّم لمستوى العمالة يتطلّب اللجوء إلى العلم، إذ بقدر تطوير الطابع الآلي للآلات، تكون سرعة الاستغناء عن اليد العاملة المتخصّصة. قل: يحيا العلم! ولقد كتب أرو يقول: "عندما يسخّر رأس المال العلم لخدمته، تلين في النهاية دائما كلّ يد عاملة صعبة المراس".

كان وجوب " إسقاط عنصر الإنتاج الأكثر تكلفة [ويقصد به العمالة المختصّة] شيئا فشيئا، وتعويضه في النهاية بمجرّد مراقبين للآلات مبْلَغَ علم أرو وغاية مناه "، كما لاحظ ذلك كلّ من بريان إيسلي وكارل ماركس، عندها يمكن تعويض العمال الأكثر براعة بنساءٍ لا خبرة لهنّ وبالأطفال أيضا، فَلْنُورِد على سبيل المثال النص التالي، من بين نصوص عديدة أخرى: " إنّ هدف كلّ تطوير في مجال الآلية فعلا هو الاستغناء الكامل عن عمل الرجل أو تخفيض تكلفته، وذلك باستبدال

صناعة النساء والأطفال بصناعة العامل الكهل أو بعمل الحرفيين المهرة عمل من لا مهارة لهم".

إنّ تخفيض مستوى العمالة والبطالة عبارتان كفيلتان باختصار البرنامج العريض لفلسفة المصانع، وهو برنامج لا تختصّ به بريطانيا دون سواها؛ إنه برنامج الغرب الحديث كلّه، لقد أصاب الأستاذ دوبان عندما أكّد أنّ موجة البطالة التي اجتاحت المجتمعات الصناعية أواخر القرن العشرين لم تكن مجرّد حادثٍ عابر، ولكنّها كانت ثمرةً متوقّعة لاختيارٍ ثقافيٍّ دقيق، وقد وضع أصحاب المشاريع و"مديرو الأعمال" بكلّ عناية حيّز التطبيق توجيهات أرو، إلى حدود **الانفجار الأكبر**، لقد لجؤوا إلى العلم وإلى التقنية لطرد أكبر عدد ممكن من العمّال والموظفين من المصانع، ومن أماكن عملٍ أخرى، ثمّ رفضوا تحمّل مسؤولية ذلك المشروع وتبِعاته. كانوا يتحدّثون في معظم الأحيان عن ضرب من ضروب الحتمية الاقتصادية، وإذا اعتبرنا ما يقولون، فإنّهم في غربة تامّة عن التقاليد الكبرى التي أرسى قواعدها أمثال بيتيلا وأرو بكلّ ما أوتوا من جهد، فقد كانوا يجنحون أحيانا إلى الاعتراف بأنّ **الغرب** مارس في القرون الماضية الرأسمالية والليبرالية بصورة بربرية قاسية، لكنّهم يزعمون أنّ تلك الحقبة قد ولّت وانقضت. كانت نواياهم حسنة على ما يبدو، وإذا كانوا قد تصرّفوا على ذلك النحو فلأنّ الواقعية والعقلانية الاقتصادية كانت تقتضيه.

كان النموّ التجاري والصناعي إذن يوصف بـ"الحتميّ" أو "العقلاني" بحسب الظروف، وفي هذه الحالة أو تلك النتيجة واحدة: ينبغي اتّباع هذا الأسلوب؛ لأنه لا يثير غيظ الشعوب المعنية [بتلك المشكلات].

ومرّة أخرى لاحظنا ضعفا فادحًا في الذاكرة الثقافية والذكاء الرمزي. فهل

يعقـل أن تكـون النخبة على ذلك القـدر من الضّلال؟ كانت هناك أسـاليب أخرى ممكنـة للإنتـاج وللعيش، ولكـنّ الغرب البورجـوازي رأى من الأفضـل الاهتمام بالمال والآلة، وإلا فلماذا رفض إذن زعماء الغرب الحديث صغارًا وكبارًا التساؤل عـن نتائـج ذلك الحدث التاريخي في بعدها الإنسـاني؟ لقد أدرك ميشـلي بسـرعة فائقة دلالات "المثال الصناعي" لـ أندرو أرو ومن لفّ لفّه، ألا وهو "للآلة الواحدة رجـل واحـد يعيد تركيبها"، وكان ذلك هو الحلم الأكبر " فروْعة المكْننة تكمن في الاستغناء عن البشر؛ للبحث عن قوى كلّما حرّكناها تمكّنت من أن تواصل الحركة من دوننا، مثل عقارب الساعة".

يكمن التباين الكبير بين الآباء المؤسسين وآليي القرن العشرين في أنّ أولئك كانـوا يعبّـرون عـن نواياهـم بـكلّ جرأة، في حيـن كان هـؤلاء يتصرّفـون بالطريقة نفسها، ومع ذلك كانوا يبحثون لأنفسهم عن ذرائع واهية، فالبطالة تتفاقم على قدر نموّ أرباح الشركات الكبرى، ولكن المديرين يشتكون قائلين: " الخطأ ليس خطأنا، فـإذا كان هناك أزمة، فذلك سـببه القوانيـن المتعلّقة بالاقتصاد، فأنتـم أيّها الصغار اقبلـوا نتائـج التبـادل الحرّ والمنافسـة العلنية، أمّـا نحن فلا قدرة لنـا على فعل أيّ شـيء"، ولـم يتغيّر شـيء في مسـتوى المضمون منـذ ١٨٤٨، حين كتـب ماركس خطابـه حـول التبادل الحـرّ، فقـد كان أصحاب الشـركات والمضاربـون يكرّرون بأشـكال جديدة المناورات نفسـها بكلّ جرأة، أمّا الأحزاب السياسـية الأشدّ تأثيرا فقـد اندمجت كلّيا في ذلك الجهاز الاقتصادي والاجتماعي العريض، (ولا حاجة إلى الإسهاب في ذلك بعد كلّ ما قلناه في موضوع الفساد). لقد انتهى فريق بحثنا إلى الاعتقاد بأنّ الغرب الصناعي قد سِيقَ بكلّ بساطة تحت وطأة موجةٍ بدأت منذ زمن بعيد، ولقد استوقفتنا كالعادة بعض التساؤلات.

وبمـا أنّ مخاطر الانفجـار الداخلي صارت يوما بعد يوم أكثر بداهة، لماذا لم يكـن الغربيـون أكثـر يقظـة؟ لقـد أدركـت بعـض الشـخصيات الخطـر، وأطلقت صيحـات فـزع حقيقية، واكتشـف فريقنا مثـالا عميق التأثيـر، إنّه ذاك الـذي يتعلّق بالأمريكـي نوربرت وينـر Norbert Wiener (١٨٩٤-١٩٦٤)، فقد كان رياضيا، واشتغل طويلا في بحوثه بمسائل الأتْمتة، وكان من بين أبرز مؤسسي علم التوجيه الآلي (السيبرينيطيقا Cybernetics) ويبدو لنا أنّه كان بإمكان الحداثيين الإنصات إليه فيما يتعلّق بمكْننة الأنشطة الإنسانية على وجه الخصوص.

كان استدلاله بسيطا حيث يقول: « أدّت الثورة الصناعية الأولى إلى تضاؤل قيمة العمل اليدوي»، وقد ضرب لذلك مثلا المِجْرَفة البخارية[1]، إذ لا يمكن لأيّ حفّـار منافسـة نجاعـة تلـك الآلـة، ثـمّ حـدث انقـلاب آخـر، فبظهور الحاسـوب والإعلامية وعلم التوجيه الآلي، تضاءل العمل الذهني بدوره، وصار غير مرغوب فيه، وأضحى كلّ شـيء ينبئ بتدنّي منزلته أكثر فأكثر. وتلك كانت الثورة الصناعية الثانيـة، لقـد كتب وينر سـنة ١٩٤٩ يقول: «لن تتوانى الثـورة الصناعية الحديثة في تخفيـض قيمـة الدماغ البشـري بالطريقة نفسـها فيمـا يتعلّق على الأقـلّ بالقرارات الأشدّ بساطة والأكثر رتابة»، ويضيف وينر قائلا إنّ الآثار الاجتماعية لهذا التحوّل لـن تظهـر كلّها دفعـة واحدة: «طبيعـيّ أنّ صاحـب الاختصاص سـواء كان بنّاءً أو ميكانيكيـا أو خياطًـا قد عاش إلى حـدّ ما الثورة الصناعية الأولـى، وكذلك يمكن

(١) المجرفة البخارية عبارة عن آلة حفْر كبيرة تعمل بالبخار مُصَمّمة لرفع المواد وتحريكها مثل الصخور والتربة. وهي أقدم من المجرفة كهربائية أو الحفارة. نهضت المجارف البخارية بدور أساسي في الأشغال العامة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث كانت مفتاحًا لبناء السكك الحديدية وقناة بنما. أدّى تطوير مجارف أبسط وأرخص تعمل بالديزل إلى فقدان المجارف البخارية في الثلاثينات من القرن العشرين.(المترجمان)

للعالم أو الإداري أن يعيش الثورة الثانية، ولكن لو فرضنا أن الثورة الثانية اكتملت، فلن يجد الإنسان المتوسّط الذي لا يملك إلا معارف هزيلة شيئا يستحقّ أن يُشتَرى كي يبيعه»، لذا كان ينبغي إذن انتظار اضطرابات كبرى في سوق العمل.

فما العمل؟ لم يتوقّع وينر الذي كان معجبًا بالتقدّم أيما إعجاب إمكان إيقاف المكْننة حين قال: « لا خيار لنا في إلغاء هذه التطوّرات التقنية الجديدة أو الإبقاء عليها»، ومع ذلك يدعو مؤلّفنا إلى الحذر؛ وذلك لأسباب عديدة؛ ذلك أنّ من شأن هذه الثورة الصناعية الثانية -من بين عدّة ظواهر أخرى- أن تعزّز انحصار السلطة « في أيدي أكثر الناس تجرّدا من ضمائرهم»، وكان وينر صريحًا دقيقا، ففي رأيه ينبغي « أن لا يُوكَل تطوير مثل تلك التقنيات إلى المهندسين الأشدّ استهتارا والأشدّ فسادا»، قيل هذا الكلام سنة ١٩٤٧، ويبدو أنّ وينر كان يشير إلى القنبلة الذرية، ولكن يظهر أنّ مشكل التخفيض من قيمة العمل، ومشكل البطالة كانا أيضا يكتسيان أهمّية بالغة لديه.

لقد بيّن بدقّة أنّ العديد من العمال سيجدون أنفسهم أمام الاستحداثات الإعلامية والأوتوماتيكية في منزلة العبيد إذ « تعادل الآلة الأوتوماتيكية (...) اقتصاديًا عمل العبيد تحديدًا، وينبغي على كلّ عمل ينافس عمل العبيد أن يقبل الظروف الاقتصادية لعمل العبيد»؛ وبذلك تنبّأ بتفاقم البطالة على نطاق واسع حين أعلن قائلا: «وتترتّب على هذا بداهةً حالة بطالة تبدو الصعوبات الحالية أو حتى الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم سنوات ١٩٣٠-١٩٣٦ إذا ما قورنت بها مجرّد دعابة، وستبيد تلك الأزمة صناعات عديدة، من بينها تلك التي استفادت من الطاقات الجديدة». لقد أُخذت هذه السطور من كتاب السبرينيتيقا والمجتمع الذي صدر لأوّل مرّة سنة ١٩٥٠ ونُقّح سنة ١٩٥٤، وهو ما يفيد بأنّ الأزمة الخانقة التي حدثت في التسعينات كانت متوقّعة منذ منتصف القرن.

لـم يقتصـر وينـر على نقـد «التقنية» نقـدا مجرّدا، بـل لقد أدرك أنهـا عند أهل الحداثة على غاية من الوثاقة بالأنشـطة الاقتصادية، وعلى حدّ تعبيره الخاص فإنّ كثيرا من الغربيين «لا يعملون إلا من أجل الربح فقط، ويعبدون الآلة باعتبارها ثور الحراثـة الجديـد»، وكانت تنبّؤاته مثيرة حين كتب يقول: «إذا تصرّفنا طِبقًا لمناهج سـلوكنا التقليـدي، وإذا بقينـا أوفياء لعبادة التقـدّم وعبادة الحرية الخامسـة (وهي حرية اسـتغلال الغير)، فينبغي علينـا عمليًا المرور بفترة إفلاس ويأس، تدوم ما لا يقـلّ عن عشـر سـنوات وهذا لعمـري أمر مؤكّـد»، ولْنَطَّلِعْ على الباب التاسـع من كتابـه السـبرينيتيقا والمجتمع. لقد قيل فيه كلّ ما يمكـن أن يقال، ومفاده أنّ الثورة الصناعية الجديدة توشك « أن تدمّر الإنسانية».

ومـع ذلـك فضّلـت الهيئات المُديـرة التعويـل علـى التكنوقـراط وعلـى الاقتصاديـن المتميّزين، والأغرب من ذلك موقف العمال المعنيين بالمشـكل مباشـرة، إذ لـم يحرّكوا سـاكنًا عندما حاول وينـر تنبيههم بالفعل إلى مسـؤولي اتحـاد المنظمـات الصناعيـة، وكان فـي تلـك الفتـرة بمثابـة أعتـى المنظّمـات النقابية في الولايات المتّحدة وأكثرها ميلًا إلى «اليسـار»، ولكن دون جدوى، فقـد قيّـم محصـول ذلـك المجهود بنفسـه، فقـال: لقد أنصـت إلـيّ النقابيون « بـذكاء وتعاطـف كبيرين»، ولكـن لم تكن هناك متابعـة لتلك اللقاءات وأضاف قائـلا: إنّ « النقابـات والحركـة العماليـة هي بأيـدي عدد قليل من المسـؤولين مؤهّليـن بامتيـاز لحلّ مشـاكل خصوصية فـي المنظومة المهنية وللمشـاركة في المفاوضـات المتعلّقـة بالأسـعار وظـروف العمـل، ولـم يكونـوا أبـدا مهيّئيـن للخـوض فـي مسـائل سياسـية وتقنيـة واجتماعيـة واقتصاديـة أرحـب، تتعلّـق بماهيـة العمل في حدّ ذاته».

ولْنُشِرْ عَرَضًا إلى هذه المفارقة: لقد شارك وينر نفسه - بفضل ما صدر له من أعمال متنوّعة- مشاركة فعّالة في إبراز صورة «الثورة الصناعية» التي حذّر من مخاطرها، لقد كان في جوانب عديدة «حداثيا» بامتياز، ومن البديهي أن يكون فكره كلّه على وجه الخصوص ذا مرجعية آلية، لقد كان بداخله شيء من الدكتور جيكيل Jekyll وشيء من ميستر هايد Mister Hyde[1] كما ذكر الأستاذ دوبان.

والثابت هو إدراكه -وهو أمر رائع حقّا- إلى أيّ حدّ كان **الغرب** هشّا، إذ كتب يقول في منتصف القرن العشرين: «نحن معرّضون إلى المجاعة وإلى الآفات أكثر ممّا نتصوّر»، ثمّ أضاف قائلا: «حقّا إنّنا نعيش في رخاء أكثر من ذي قبل، وأتوقّع ببساطة أن تكون الأخطار المحدقة بتلك النعم كثيرة، وأنّ زوالها وارد جدّا»، من المفترض أن يكون هذا الخطاب عادة خطاب «الرجعيين» والإنسانيين الجهلاء، ولكنّه صدر هذه المرّة عن ممثّل بارز لعلوم التقنيات حيث يقول: «نحن عبيد لأدواتنا التقنية»، وأيضا قوله: «إنّ العصر الحديث هو عصر الاستغلال الحر المنظّم للموارد الطبيعية، وهو عصر استغلال الشعوب التي توصف بـ»البدائيّة» المستعمَرة، وهو أخيرا عصر الاستغلال المنظّم للإنسان المتوسّط ».

---

(١) قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة بالإنجليزية *Strange Case of Dr Jekyll and Mr Hyde* هي إحدى الروايات القصيرة القوطية للمؤلف الإسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون نشرت عام ١٨٨٦. عُرف اسم العمل بـ قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة أو»**جيكل وهايد**». تدور حول رجل قانون من لندن اسمه جابريل جون إترسون يحقّق في واقعة غريبة بين صديقه القديم الدكتور هنري جيكل والشرير إدوارد هايد. طابع الرواية وطرافتها جعلاها تصبح جزءا من اللغة فصارت جملة «جيكل وهايد» في اللغة العامية تشير إلى الأشخاص ذوي الطبيعة المزدوجة أو ذوي الوجهين، يبدون تارة طيّبين جدّا وشريرين لدرجة صادمة في بعض الأحيان. (المترجمان)

لقد خلُص فريق بحثنا إلى الاعتقاد بأنّ وينر نفسه لم يخطر بباله قطّ أنّ الغرب كان يمكن أن يسلك مسارا آخر، فهو يرى أنه لم يكن بوسعه إلا المضيّ دائما على طريـق «التقـدّم»، وللتعبيـر عن ذلك وجد وينر في لغة الإنجيـل ما يدعم رأيه، فقد كتـب يقول: « لقد أكل أبوانا من ثمار شـجرة الحكمة، ولئـن بدت لنا ثمارها مُرَّةً، فـإنّ الملَـك خلفنا يُشِـهر سـيفه المهنّـد الملتهب وهو لنـا بالمرصـاد". إنّ من كان يتحـدّث بهذا الأسـلوب لَهُو إنسـان ممـزّق، يتألّم وعيه لتناقضـات "حضارته". إن كتـاب السـيبرينيتيقا والمجتمـع- فـي رأي الأسـتاذ دوبـان- أثر متـأزّم يتناقض مع التفـاؤل السـطحي الذي نشـهده لـدى "العقلانيين" [ألَمْ يقل مؤلّفـه]: " في يوم من الأيام ينبغي أن ندفع ما علينا من ديون"؟

فبعد أن اخترع الغربيون الحيوان-الآلة والإنسان-الآلة، كيف لهم أن يتحاشوا خلق المجتمع-الآلة؟ لقد رفض القائمون رسـميًا على الشـؤون العامة الاعتراف بذلـك إلـى النهايـة، كانوا يعبّرون بكلّ صدق عن إنسـانيتهم، وعـن إيمانهم بالقيم الأخلاقيـة، لكـنّ الوثائـق لا تـدع مجـالا للشـكّ، ففـي الوقـت ذاته كانـت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تُمَكْنَنُ أكثر فأكثر.

لقد تحوّلت الدولة إلى آلة "ديكارتية"، كما لاحظ ذلك بيار جيراردين Pierre Girardin وذلك يعني أنّ مسائل كثيرة كانت تعتبر من قبلُ سياسية خالصة أضحت تصوغهـا مـن الآن فصاعـدا نخبـة مـن المسـؤولين؛ باعتبارهم أهـل الاختصاص المؤهليـن وحدهـم للنظر فيها؛ فأن تكون حداثيا في السياسـة -كمـا في أيّ قطاع آخر- يكمن في مدى تأمينك "لتصرّف عقلاني" يعتمد التقنيات المتاحة. لقد كتب جاك ألّول Jacques Ellul سنة ١٩٥٤، مكرّرا عبارة لميشلي على نحو يكاد يكون حرفيـا، قائـلا: " لم تكن الإدارة بأسـرها سـوى آلة نحرص على جعلها دائما أشـدّ

صرامة"، ولقد أتيح للمؤسّسات أن تكون في ظاهر الأمر "ديمقراطية"، فالمواطنون كانوا يُدعَون إلى الاقتراع من حين إلى آخر، ولكنّ السلطة الحقيقية أفلتت تدريجيا من بين أيديهم. لقد تحدّث بيار جيراردين في وصفه لتلك الحالة عن "ديمقراطية آلية"، إنّ هذه العبارة تترجِم جيّدا ما حدث في فرنسا قبل **الانفجار الأكبر**، فقد أُقصِي الشعب إقصاءً عن الحوارات التي تبسط الرهانات الحقيقية من جهة، وكان ينحني يوما بعد آخر لقرارات التكنوقراط من جهة أخرى، ولقد دوّن الكاتب نفسُه بلهجة ساخرة ما مفاده أنّ الشعب لم يكن سيّدا إلا من وراء حجاب "العلوم والتقنيات"، وحتّى نفوذ البرلمانيين صار يتضاءل يوما بعد يوم لصالح "سلطة تنفيذية متضخّمة"، ولصالح "سلسلة من دواوين المراقبة والهيئات واللجان والمنظّمات الحكومية بجميع أصنافها، "فإذا تبجّح نظام بـ"الليبرالية"، فذلك لا يمنعه من الانخراط في هذه الحركة القوية. كانت عبارات عديدة تُستخدم بتفاؤل نسبي يُهلّل بها في الحديث عن تصاعد نفوذ الخبراء، من مثل: البيروقراطية التقنية والبنى التقنية والتكنوقراطية المديرة الدولة- الميجا آلة[1] وغيرها

لقد نجم عن ذلك -كما يعلم المؤرّخون- ظواهر مشوّهة ساهمت بقوّة في انفجار الغرب من الداخل، وإذا كان ذلك قد تطلّب زمنًا طويلًا كي تردّ الشعوب الفعل؛ فذلك لأنّ التكنوقراطيين كانوا بارعين إلى حدّ كبير، لقد نجحوا في الظهور بمظهر المديرين الجديرين بالاحترام بإبراز شهاداتهم العلمية وكفاءاتهم، وبتحرير قراراتهم بناء على حجج تقنيّة غير مفهومة، والانتفاع بالجمع بين الإجراءات القسرية والأساليب التواصلية، وكان معظمهم على الأرجح يكتفي فعلا بأداء وظيفة يطبّق خلالها بنيّة حسنة ما تلقاه أثناء تكوينه، يمكننا القول -إذا أردنا أن

---

(١) يعني بالدولة الميجا-آلة الدولة التي تُدار باعتبارها آلة ضخمة.

نقيّـم الأمـور قدر الإمكان- إنّ الذين كانـوا واعين تمام الوعي بالدلالة الثقافية لما يفعلونـه قلّـة قليلـة، كانـوا لا يَكرهـون أن يوصفـوا بالتكنوقراط فقـط، وإنّما كانوا يعتقدون صادقين بأنّهم ليسـوا كذلك، ولـم يكونوا في مرآة ذواتهـم إلا «متصرّفين» أكفاء، وكان الشعب يؤمن بذلك هو أيضا لعقود كثيرة، وكان لابدّ أن تتراكم العلل والتوتّـرات و»الأزمـات» وتتعاظـم؛ لكي يغيّر رأيه. لقد اكتشـف المواطنون شـيئا فشيئا في البداية وبسرعة أكبر منذ سنة ١٩٩٧ أنّ «المكْننة التنظيمية» التي وضعت الدولة أسسها أفضت إلى نوع من الشمولية المميّزة وأثمرت عنفًا متجذّرا.

كانت أحداث السـنوات ١٩٩٩-٢٠٠٢ -إذا ما اسـتعدنا النظـر إليها- نتيجة مباشرة (عنيفة أيضا) لهذا الوعي المتأخّر، ولكن لمَ وقع التكنوقراطيون في الفخّ؟ ولماذا لم يتسـاءلوا عن المبادئ التأسيسـية «لفلسـفتهم السياسـية قطّ»؟ فليس من الصدفـة أن تصير الدولة إلى ما يشـبه الوحش، فقد لجأ الغرب البورجوازي -كما ذكّر بذلك الأستاذ دوبان- إلى رموز مخيفة في تصوّره لتنظيم المجتمع، وكان أثر الفيلسـوف الإنكليزي توماس هوبـز Thomas Hobbes وعنوانه الوحش البحري Léviathan (١٦٥١) أسـاس الدولـة الحديثـة حقّـا، ففـي ذلـك المؤلّف الضخم نشأت نظرية السلطة المطلقة، ولقد حرص الكاتب نفسه -بوقاحة أو بتهكّم- على توفير أسّ لها، والوحش البحري هو اسم لغول ذُكر في الإنجيل، وكان في صورة تنّين، أو تمسـاح عملاق، قيل في سِـفر أيّوب " إنّه كان يفتح شـدقيه فتزرع أسـنانه الرعـب (فيمـن حولـه)، وكان ظهره كومـة دروع، ومن فمه تنبعث النيران فترسـل ألسـنتها الملتهبة، ومن منخريه يتصاعد دخان كبخار قِدْر تغلي على تنّور، كان إذا تنفّـس أحـرق كالجمـر [مـا حولـه] من هـول ما ينهمـر من فمـه، وكان قلبه قاسـيًا كالصخر وصلبا كرحى طاحونة ثبتت بإحكام".

ليس ثمّة ما هو أوضح ممّا قيل، لقد ظهرت الدولة الحديثة منذ البداية في صورة دولة -ليفياتان[1] أي دولة–وحش، وكان هوبز يعني ما يقول: "كانت تلك الدولة هي الوحيدة المهابة بما يكفي، الصلبة بما يكفي، القوية بما فيه الكفاية لتتغلّب على البشر؛ لِنَعُدْ فنقرأ الإنجيل: "ليس للفياتون مثيل فوق البسيطة، لأنّه خلق لئلا يخشى أيّ شيء، وليهيمن على كلّ مُهَيْمِن فهو ربّ الأَنَفَة والكبرياء"، ويمكن لأيّ شاعر أن يترجم هذه الرسالة: إنّ سياسة الليفياتون لا تَعِدُ إلا بالألم والاستعباد.

ومن بين الأسس النظرية لهوبز مقولةُ: "الإنسان ذئب للإنسان (*homo homini lupus*). ولكن سرعان ما تركت تلك الحيوانات السياسية مكانها للميكانيك ولفن صناعة الإنسان الآلي على وجه الخصوص، فتمكّنت البشرية بفضل التقنية من صنع حيوانات اصطناعية، و بشر آليين كذلك. والسياسة بالنسبة إلى هوبز يمكن اختصارها في مشروع من ذلك القبيل، والغول الخرافي (أي الدولة) لم يكن بالفعل "سوى إنسان اصطناعي، وإذا كانت بنيته وقوّته أشدّ صلابة ممّا لدى الإنسان الطبيعي، فمن أجله خلق ليدافع عنه ويحميه". يحتلّ هذا النصّ في تاريخ الفكر الرمزي الغربي كما بدا لنا مكانةً مركزية، فالسياسة قد صيغت من خلاله بوضوح؛ باعتبارها مجالا من مجالات التقنيين، وطبعًا يحيلنا هوبز عمدًا إلى الفكر الديكارتي فيقول: "ما القلب إلا لولب، وما الأعصاب سوى حبال صغيرة كثيرة، وما المفاصل إلا عجلات، فالكلّ يهب الحركة للجسم بأسره،

---

(١) **اللوياثان** لوياتان، ليفياتان **Léviathan** وحش بحري توراتي أشير إليه في العهد القديم .أصبحت كلمة لوياثان مرادفاً لأي وحش بحري هائل. وباتت تُستخدم منذ أوائل القرن السابع عشر أيضًا للإشارة إلى الأشياء أو الأشخاص ذوي القوة الساحقة وأثرت أيضًا في هوبز (تـ١٦٥١). (المترجمان)

انسجامًا مع إرادة الحِرَفيّ المبدع"، وعندما وصف هوبز الدولة استخدم صورا من الجنس نفسه عن قصد، لقد كتب مثلا " إنّ القضاة والموظفين الآخرين الذين أُوكِلت إليهم وظائف قضائية وتنفيذية، هم بمثابة المفاصل الاصطناعية"، ولْنشِر إلى أنّ هذه النصوص الجميلة تندرج ضمن مقدّمة اللفيانون وتعكس الفكر الخالص لكاتبها، لقد أراد هوبز أن يبيّن أنّ الحاكم المطلق هو القادر وحده على فرض النظام بين الناس، إذ يُروِّضُ البشرُ- الذئابَ بفضل الدولة-الآلة.

ولكنّ أشدّ الآذان شراسة هي تلك التي لا تريد أن تسمع، ولقد كان بورجوازيو القرن السابع عشر -مثلما كتب عنهم جون سارفييه Jean Servier- يرون في الآلية "العلم بامتياز"، فأصبح من العسير جدّا بل من المستحيل التراجع عندما يعرض عليهم مشروع من مشاريع المكْننة، ولاحظ المؤرّخ نفسه أنّ العقول المستنيرة بعد هوبز كانت ترى من الطبيعي جدّا اختزال السياسة في "نمط من أنماط الآلية"، كانوا يريدون أن "يحكموا وفق قوانين الطبيعة الواضحة، وأن يصبحوا ساعاتيي الدولة-الآلة، أو القائمين على الدولة-الشركة"، ومن المؤكّد أنّهم كانوا لا يرون في ذلك أي ضرر، وكان الفيلسوف موريلّي Le philosophe Morelly يتحدّث سنة ١٧٥٥ بكلّ عفوية عن "رجل المدينة الآلي الرائع".

ولكي تظهر جميع نتائج ذلك المخطط التأسيسي، كان ينبغي الانتظار إلى حدود سنة ١٨٠٠ لكي تنضج الفكرة، ويظهر المتنبئون العِظام، الذين سيؤكّدون علنا الدور المتميّز المنوط بالعلماء والمهندسين في المجتمع الصناعي، لقد رفع كلود هنريدي روفروا Claude Henri de Rouvroy، وهو كُونْتْ[١] منطقة سان

---

(١) لقب يطلق على النبلاء أو الشخصيات ذات الثراء والمركز الاجتماعي المرموق في البلدان الأوروبية في العصور الوسطى، حيث استعمل هذا اللقب منذ أواخر عصر=

سيمون Saint-Simon، صوته عاليا وهو يقول: "الحكم أمر جيّد، ولكن الإدارة أفضل"، ولقد صرّح بـ" أن الشعب ليس في حاجة إلى أن يُساس، أي يتلقّى الأوامر، يكفي للحفاظ على النظام إدارة ترعى المصلحة العامة".

ورجل السياسة الحقيقي في قادم الأيام هو ذاك الذي يحسن دفع الإنتاج وتنظيمه، فقد قيل بيت القصيد، وسيتكرر مرارا في خطابات السانسيمونيين: ينبغي أن ننتج أكثر وأن ننتج دائما، لقد كان الغرب قديمًا إقطاعيًا لاهوتيًا، وسيكون صناعيًا علميًا يوما بعد يوم، فالمسائل الأساسية التي من شأن النخب الحاكمة كانت "وضعية بطبيعتها"، على حدّ قول سان سيمون نفسه، فمثلا: "ماهي الشركات التي تمكّن المجتمع من تنمية ازدهاره الحالي بوساطة المعارف المتوفرة لديه في العلوم والفنون الجميلة وفي الفنون والحرف؟" لقد كان ذلك السؤال دقيقا ومفيدا من منظور علمي، وفي النهاية ستتمكّن السياسة من التخلّص من القرارات "الاعتباطية" كلّها، وذلك بفضل العلم. كتب سان سيمون سنة ١٨٢٠ في كتابه المنظِّم: "لا تكون القرارات إلا نتاجًا لبراهين علمية مستقلة عن كلّ إرادة بشرية استقلالا تامًا، وقابلة لأن تناقش من قبل الذين هم على درجة كافية من الكفاءة تجعلهم قادرين على فهمها".

يعني ذلك عمليا أنّ أقلّية من الخبراء المتمرّسين هم الذين يحدّدون معالم الطريق الواجب اتّباعه بكلّ "موضوعية"، وبذلك يكون قد أعلن عن هيمنة طبقة التكنوقراط، لقد كتب سان سيمون يقول: "إنّ فرنسا أصبحت مصنعا كبيرا، وصارت الأمة الفرنسية ورشة ضخمة، فينبغي أن يدار المصنع العام كسائر

= الإمبراطورية الرومانية باشتقاقه من مصطلح *Comes* أو باللاتينية *comitis* ويعني «الرفقة الإمبراطورية» أو «الحاشية". (المترجمان)

المعامل الخاصة"، وأضاف قائلا بأنّ الأمة " ليست إلا شركة صناعية كبرى"، فإذا تُلُقّيَ ذلك بالقَبول، فما تبقّى سيكون في غاية الوضوح، أي إنّ " الإدارة ستكون بالضرورة اقتصادية"، ومن المنطقي أن يخامر استيهام الآلة ذهن سان سيمون، فالجسم الاجتماعي الذي وصفه لم يكن فعلا سوى استنساخ للإنسان الآلي الضخم المُحبّب إلى هوبز. لقد تخلّص الإنسان الحديث الذي أصبح مجرّد أداة وظيفية من الحاجة إلى التفكير، ذلك "أنّ المواطنين الذين يشغلون وظائف اجتماعية مختلفة وحتى الراقية منها، لا يقومون إلا بأدوار ثانوية، باعتبار أنّ وظائفهم -مهما علت مرتبتها- أصبحت تقتصر على المضي في اتجاه لا يعود اختياره إليهم".

لقد شدّت انتباهنا هذه الكلمات الأخيرة، فإذا لم تكن "الإدارة" الموكولة إلى المجتمع محض اختيار المواطنين، فمن الذي يختارها إذن؟ فهمنا أخيرا بصريح العبارة أنّ النخب الحاكمة نفسها لم يكن بمقدورها أن تختار، إذ كانت تكتفي بفضل مناهجها العلمية باكتشاف الأساليب والخطط "الموضوعية" التي تتطلّبها المرحلة التاريخية.

كلّ ذلك يتناغم جيّدا مع ما رواه سان سيمون في تاريخ الغرب، فمنذ القرن الحادي عشر تحرّك البورجوازيون عن غير وعي كما لو كان هدفهم الأسمى " تطوير القدرات الصناعية والقدرة العلمية"، وكانت الإضافة الكبرى للقرن التاسع عشر تتمثّل أساسًا في الوعي بذلك المسار التاريخي، وإرساء قواعد هيمنة المقاولين والتجار والصيارفة والمهندسين ورجال العلم على نحو منهجي، وفي رأي سان سيمون، كانت تلك المبادرة عقلانية بامتياز، لقد أملاها التطوّر التاريخي، ولم تكن ذاتية قطّ، وبهذا المعنى يمكن القول فعلا بغياب أيّ اختيار، (بكلّ ما

تحمله تلك الكلمة من اعتباطية وتوهّم)، لقد كان سان سيمون يؤمن بحقيقة بسيطة مفادها أنّ " الطبقة الصناعية هي الطبقة الأساسية، وهي التي تطعم المجتمع، وفي غيابها لا يمكن لأيّ طبقة أخرى أن تحلّ محلّها"، ينبغي أن نعتبرها " القطب الحقيقي ومركز الحضارة ".

إنّ ذلك الصعود جدير بأن يُحتذى؛ لذلك طلب سان سيمون من روجي دي ليسل Rouget de Lisle الذي كتب النشيد الوطني الفرنسي سنة ١٧٩٢ أن يعيد الكرّة بكتابة "نشيد للصناعيين"، وقد اكتمل هذا العمل سنة ١٨٢١. لقد بدت هذه الجزئية ذات أهمية رمزية بالغة، فالرجل الذي تغنّى بحبّ الثوار للوطن، يؤكّد بنفسه في آخر المطاف انتصار المقاولين البورجوازيين في أبيات رديئة، نسوق منها المقطع واللازمة الآتيين:

" تفتح الصناعة بأياديها العديدة

أجنحتها الذهبية

وتجوب أجواءنا بفرحتها البهية

ونبعث الروح في أمصارنا الخصيبة

تعمر الصحاري بأصواتها

وتنبت الأرض القاحلة

يعمّ العالم خيراتها

وعلى العالم تملي القوانين

فالشرف لنا نحن أطفال الصناعة!

والشرف الشرف لأعمالنا السعيدة!

في كلّ الفنون انتصاراتنا عتيدة

لنكن نحن الأمل والفخر للوطن! "

لقد فهم روجي دي ليسل ما طلب منه جيّدا، فمنذ ذلك الحين أصبحت الصناعة والوطن كلمتين مجتمعتين تحت إيقاع قافية واحدة، وصار الصناعيون، أولئك السادة الجُدُد، يفرضون "قانونهم" في كلّ مكان، (وكان طبعا قانون العرض والطلب).

كان للمواطنين الذين يمتلكون المعارف الوضعية دور بالغ الأهمّية، فمن الذي سيدير عمليا الآلة الاقتصادية والاجتماعية؟ إنّهم المهندسون، ومن المستحسن أن يكونوا أولئك الذين تشبّعوا بالفكر العلمي الخالص، ولقد كتب سان سيمون يقول: " إنّ مدرسة التقنيات المتعدّدة هي مؤسسة تعلّم أرقى أشكال النظام الذي لم تعرف البشرية مثيلا له من قبل".

كان لهذا الموقف أبعاد حاسمة في المستقبل، ولا ننسى أنّ سان سيمون كان تلميذا لكوندورسي وبعض شيوخ الحداثة الآخرين، إذ كان يريد أن يجد في "العلم" حلاًّ للمشكلات الاجتماعية، والملاحظ إذن أنّه كان يتردّد على مدرسة التقنيات المتعدّدة باستمرار، ويخالط أهلها من أساتذة وتلاميذ، ومن المفترض أن يكون قد استمدّ منهم قسطا واسعا من استلهامه. لقد كانت المشكلات المتعلّقة بالحياة الاجتماعية تطرح عن قصد من قبل نخب تلك الطائفة بمصطلحات آلية، ولدينا شهادة بخصوص هذه النقطة وهي لفرانسوا أراغو François Arago حيث يقول: كان لازار كارنو Lazare Carnot، أحد مؤسسي المدرسة متعدّدة التقنيات، يتحدّث عن التنظيم السياسي للمجتمع كما لو كان يتحدّث عن آلة، وكان مَعِين

مدائح بروسبر بارتالمي أونفونتين Prosper Barthélemy Enfantin[1]، وأحد المروّجين للسانسيمونية، لا ينضب. لقد وصف تلك المدرسة بـ" العين النفيسة التي تستقي منها عائلتنا الجديدة حياتها وهي بذرة الإنسانية القادمة". ومُجمل القول أنّ تطوير العلوم السياسية كان يمرّ عبر استخدام مناهج التقنيات المتعدّدة ونشرها.

كان ذلك الأمل مشروعًا من وجهة النظر الحداثية، من ذلك أنّ أدولف كاتلي Adolphe Quételet مؤسس علم الإحصاء الاجتماعي الذي سبق لنا ذكره، كان متأثرا بتلك المدرسة، وكان يعمل بإيعاز منها، ولكن لماذا كان **الغربيون** يتجاهلون الأخطار المحدقة بهم في المستوى الروحي؟ في رأي سان سيمون ينبغي أن توكل مهمّة إدارة المجتمع إلى خبراء لا توجّههم إلا مصالح الصناعة والعقل فحسب، فإِلامَ سيقود مثل ذلك الفكر إن لم يؤدّ إلى مخطط واسع النطاق، وإلى مكْننة شاملة **للغرب** في نهاية المطاف؟ كانت هناك مخاوف من عودة الاستبداد (حتى وإن كان من الصنف "المستنير") واليوم يظهر الغلوّ في تبني المصادرات السانسيمونية بشكل فاضح، ولكن ألم يكن قد أصاب العقول الحرّة في القرن التاسع عشر أيضا؟

المصادرة الأولى: يجب تسيير المجتمع كما تسيّر الشركة.

---

(١) الأب أنفونتين من مواليد يوم ٨ فبراير ١٧٩٦ فى باريس. مات فى ٣١ اغسطس ١٨٦٤. هو مصلح اجتماعي فرنسي وأحد أبرز قادة الحركة السان سيمونية (حركة سياسية اجتماعية فرنسية بدأت مع بداية النصف الأول من القرن التاسع عشر، استلهمت أفكار الفيلسوف السياسي الفرنسي هينري سان سيمون). وهو كاتب ورجل أعمال. ويعدّ من أوائل الذين فكّروا في حفر قناة السويس وساهم في تطوير السّكك الحديدية الفرنسية. (المترجمان)

المصادرة الثانية: من الممكن تشكيل (أو إعادة تشكيل) النظام الاجتماعي في مجمله بصورة اصطناعية.

المصادرة الثالثة: إنّ الشرط الضروري لتحقيق ذلك هو إنشاء علم تطبيقي من نوع جديد.

كيف كُتب لمثل هذه الأفكار غير المعقولة القبولُ فتحوّلت إلى عقيدة؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال بديهية: لقد كانت البورجوازية متيّمة بكلّ ما يمتّ بصلة من قريب أو بعيد إلى **العقل** وإلى **التقدّم**، ولقد أدرك سان سيمون ذلك بذكاء، لأنّ أمثال ديكارت وباكون وكوندورسي قد صقلوا تلك المواضيع بنجاح، فلِمَ لا نذهب إلى أبعد من ذلك؟

مع ذلك حريٌّ بنا هنا أن نشير إلى فرق بسيط: ففي فكر سان سيمون لا توجد بالفعل عبادة مطلقة للعلم ولا للتقدّم، كان حقّا يمجّد الصناعة دون انقطاع، وكان يؤكّد الدور البارز المنوط بالعلماء والمهندسين في المشروع المجتمعي المستقبلي، ولكنّه كان يعترف بأهمّية المشاعر، ويؤمن بأنّ قيام دين جديد حاجة ملحّة.

كان يرغب – وإن في شيء من الغموض– في بروز "مسيحية جديدة"، وكان يريد التأسي بأخلاق تقوم على مبدأ " أنّ الناس مدعوون إلى التعامل باعتبارهم إخوة بعضهم لبعض"، ولكنّ أتباعه في الجملة كانوا أكثر تشدّدا، لقد اكتفوا من السانسيمونية أساسا: بتشبيه المجتمع بالشركة يجب تنظيمه بطريقة علمية.

كتب الألماني أوغست بابال August Bebel سنة ١٨٧٩ على سبيل المثال ما يلي: "الاشتراكية علم نطبّقه بفكر جليّ وبفهم تامّ على مناحي النشاط الإنساني كلّها"، وفي كتابه الدولة والثورة أعاد لينين سنة ١٩١٧ بطريقته الخاصة صياغة

استعارة "المصنع الكبير"إذ قال: " لن يكون المجتمع كلّه إلا مكتبا ضخما وورشة كبرى، فيه تتساوى الأعمال وتتساوى الأجور"، فكلمة "الاشتراكية" ذاتها تعود إلى أصول سانسيمونية، وقد استعملت في مناسبات نادرة جدّا، ولكنّها لم تأخذ مدلولها الحديث -كما أشار إلى ذلك هاياك Hayek- إلا بعد أن ظهرت في جريدة العالم الصادرة في ٠٢/ ٠٢/ ١٨٣٢، وهي صحيفة أنشأها وسهر على تنشيطها بعض تلاميذ سان سيمون.

لقد استنتج فريق بحثنا إثر استنتاجات عديد المؤرّخين الآخرين أنّ هذا المتنبّئ المتحمّس كان يتلقى وحيه من مصادر مختلفة جدّا، لقد سخّر كثيرٌ من أتباعه أنفسَهم بالفعل لخدمة "التصنيعيّة" قبل أيّ شيء آخر، وكان همّهم كلّه تحسين نظام الإنتاج والشروع في الأشغال الجديدة، وتطوير الأنشطة المصرفيّة، طبعا بقي حلم الأخوّة الكونية الغامضة حاضرا ولكن خُفية وعن بعد، ولقد رامَ آخرون بعث كنيسة سانسيمونية أصيلة، كان ذلك شأن "الأب" أنفنتين Enfantin، لكنّه سجن سنة ١٨٣٢ بتهمة انتهاك الأخلاق العامة فوُئِد المشروع، ومن بين تلاميذه أيضا من أرادوا إعادة قراءة فكره من منظور ثوري إلى حدّ ما، فأسّسوا الاشتراكية والشيوعية الحديثة. كلّ ذلك يعني أن العقلنة والمكْننة عند أولئك الذين آمنوا بالإنجيل الجديد، كانت أهمّ بكثير من دفق المشاعر وحماسة الشعر، ففي المستقبل ستكون السياسة لدى "اليمين" كما لدى"اليسار" سياسة باردة، أي مبنية -في اعتقادهم- على معارف موضوعية وعلى خطط ممنهجة مدروسة.

يجدر بنا أن نؤكّد أمرا: كان أتباع سان سيمون الصناعيون منهم والاحتجاجيون يعتمدون فكرا واحدا رغم بعض الاختلافات، فقد كانوا يرون من المفيد التخلّص من القيم القديمة، ومن التقاليد التي ينزّلونها منزلة "الشعوذة" من جهة، وكانوا

يعتقدون -اعتمادا على ثقة كبيرة في ما لهم من قدرات ذهنية- أن باستطاعتهم إدارة الأنشطة الاجتماعية ومراقبتها عن وعي تامّ من جهة أخرى. كانوا إذن تطوّعيين، أي مقبلين على التضحية بالنفس والنفيس لضمان نجاح قرارات يرون أنّها مطابقة للعقل.

واليوم نرى مدى ما ينطوي عليه ذلك الموقف من غرور وخطورة، أمّا أنصار التقدّم فلم يرغبوا، أو لم يقدروا على فهم ما يعنيه ذلك الانحراف، لقد كان كلّ تحذير مردودا، من مثل ذاك الذي أطلقه ألبرت كامو Albert Camus في منتصف القرن العشرين حيث يقول: "بينما كان اليونانيون يحدّون العقل بالإرادة، وضعنا نحن الإرادة لنحدّ من حماستها داخل دائرة العقل، فكان التحوّل قاتلا".

ويبدو أنّ مثل ذلك الكلام كان مبهما، فنقد "العقلانية" والتنديد بعواقبها لم يكن "لأهل الحداثة" به طاقة، وكانوا في مناقشاتهم يرضون بتمييز يبعث الطمأنينة في نفوسهم بين الرأسمالية والاشتراكية، وبين الرأسمالية والاقتصاد الموجّه وغيره، ثمّ يمتنعون عن مزيد التعمّق. وبعبارة أخرى كانوا يريدون الخوض في المسائل الاقتصادية أو السياسية، ولكنّهم كانوا يرون أن لا فائدة، أو لا مصلحة، في الغوص على الأسس الثقافية لفكرهم الاجتماعي. كانت الدول التي تسمّى "ليبرالية" تعتقد أنّها تملك مقوّمات التفوّق وتتصرّف وكأنّ "تحرّرها" في منأى عن أخطار التكنوقراطية، وقد تبيّن بعد ذلك أنهم كانوا واهمين.

كان الشعراء هم الذين فهموا إلى أيّ حدّ كانت الاستعارات الآلية لأمثال ديكارت، وأمثال سان سيمون ذات سطوة. لقد أشار بول فاليري إلى أنّ "الحياة الحديثة قد مُكْننت"، وكان ينوي سنة ١٩٤١ تأليف كتاب توحّش النوع البشري عبر الصناعة، ولكنّه عدل عنه؛ لأنّ هذا المصنّف سيكون ضخما دون شكّ، ومع

ذلك فقط حدّد بعض معالمه الكبرى، أي "عبادة الإنتاج - الدولة الصناعية المثلى - الإنسان في السلسلة". هل كان من الممكن إيقاف تلك المسارات المدمّرة؟ لم يكن فاليري واهما حين قال: "إنّ مسار التحوّلات الاجتماعية هو مسار نحو الآلية"، كان استنتاجه واضحا عندما صرّح قائلا: "لقد أفضت الديمقراطية إلى آلة بيروقراطية وإلى آلة أخرى تسحق الإرادات الفردية وتفرزها وتزنها على حدة، فتُلقي الصغيرة إلى الهوان وتهب القوّة للأخرى، لكنها قوّة عمياء مع أنّ عناصرها هي العقول". إنّ التقدّم التقني بالنسبة إليه قدر محتوم، فقد قال: "المكننة حتميّة".

من ذلك المنظور بدا لنا وضع " الديمقراطيات الشعبية" معبّرا؛ لأنّها اتخذت روبوت هوبز العملاق نموذجا لها، ولقد ذكّر بذلك سنة ١٩٩٤ ميشال هلّر Michel Heller، الذي ولد في الاتّحاد السوفييتي الأسبق، في كتاب خصّصه للحديث عن "الظاهرة السوفياتية"، فكتابة تاريخ الاتحاد السوفياتي تعني " كتابة تاريخ آلة ابتُكِرت خصّيصا لتصنع "عجلات"، من أجل ذلك عنون كتابه: الآلة والعجلات، وفي استشهاد مثلا بستالين: " أنا أشرب على نخب هؤلاء الناس البسطاء العاديين المتواضعين، هؤلاء "العجلات" الذين يعملون كي لا تتوقف الآلة الكبرى للدولة"، أو كذلك خروتشاف الذي قال: "لابدّ للعجلات من يراقبها.."، أمّا نهاية تلك الآلة فقد كانت أليمة كما نعلم. ألم ينذر ذلك الغربيين الذين كانوا في المعسكر المقابل؟ من المؤكّد أنّ **الانفجار الداخلي** للاتحاد السوفييتي كان ظاهرة "اشتراكية"، ولكنّها كانت ظاهرة تكنوقراطية تندرج ضمن تاريخ الآلة الطويل أيضا، ولو كانت النخب "الليبرالية" فَطِنة لأدركت أنها معنيّة بما حدث هي أيضا.

لم تكن قادرة حتى على الاستماع إلى المحتجّين الأبلغ بيانا، هكذا صاغ

الشـاعر يوكيو ميشيما تشخيصه سنة ١٩٦٧ ليابانٍ تواجه الحداثة بشراسة متزايدة، فقال: "إنّ عصرنا هو عصر التكنوقراطية التي يقودها التقنيون"، وسـرعان ما تفطّن إلـى أنّ التكنوقـراط الليبراليين والتكنوقراط الاشـتراكيين يسـيرون بالإنسـانية إلى التقهقـر الروحـي نفسـه، فقال: "اقترح بعضهـم - في حوارهم حـول التوجّه الذي ينبغـي على المجتمع الحديـث اتخاذه- أنموذجَ الاشـتراكية، وفضّل آخرون دولة الرفاه، ولكن النموذجين وجهان لعملة واحدة في الحقيقة"، وقد انتحر ميشيما بعد كتابـة تلك السـطور بثلاث سـنوات، وربمـا كان ذلك اعترافًا منه باسـتحالة إخماد نيران الليفياتون المتغوّل، أمّا أنصار التقدّم فلم يحرّكوا ساكنا بطبيعة الحال.

والأدهـى من ذلـك عدم اكتراثهم لصيحات التحذير التـي أطلقها نوربار وينر Norbert Wiener، (وهـو ذات الرجـل الـذي أعلن عن إمـكان تفاقم البطالة على نحـو مأْسَـوي)، على بسـاطة عبارتـه التي كانت في متنـاول الحداثيّ الأقـلّ فهمًا، ولقـد رأينـا أنّـه كان يمثّل أحد رموز "التقدّم"، وأنّه بذلـك كان مؤهّلا للحديث عن الخطر التكنوقراطين حيث أعلن منذ ١٩٥٠ أن التكنوقراطية السبرينيتيقية ستفضي سريعا إلى تلاعبٍ، تلاعبٍ لا يطاق، وربّما أدّت إلى الفاشية أيضا.

وينبغـي أن نذكّر -قبل أن نسـهب في الحديـث حول هذا الموضوع- أنّ وينر كان الباعـث المتحمّـس ليوتوبيـا المعلومـات والاتصال، وقد اعتمـد لإنجاز هذا المشروع على مُصادرةٍ لخّصها فيليب بروتون Philippe Breton كالآتي: "يمكن للواقع بأسـره أن يؤَوّل وفق مقاربة المعلومـات والاتصال"، ويعني ذلك باختصار أنّ العالـم والبشـر أنفسـهم ينبغـي اعتبارهـم آلات من نوع خاصّ، أي إنّهم ليسـوا مجرّد عقـاربِ سـاعة، وإنّمـا هـم آلات مؤهّلة لأن تتلقّـى "معلومات" و"رسـائل" وترسـلها، وتعـدّ تلك الفلسـفة امتـدادا للحدس العظيم المؤسـس لـدى ديكارت

وتطويرا له، فالجسم الحيّ ليس سوى آلة من جنس خاص، يدلّ على ذلك عنوان أكبر كتاب لوينر وقد صدر سنة ١٩٤٩ السبرنيطيقا أو المراقبة والتواصل في الحيوان والآلة.

لقد وُضعت الأجسام الحية والآلات على قدم المساواة، ووُصفت وحُلّلت باعتبارها روبوتات معلوماتية، يخضع سلوكها للقوانين العامة نفسها، فكانت مهمّة عالم التوجيه الآلي أو السيبرنيطيقي Cybernitic تتمثّل إذن في اكتشاف كيفية مرور الرسائل، والتأثيرات التي تحدثها، وينبغي أن يكون الجسم الحي أو الآلة قادرا على التكيّف مع محيطه، لكي يعمل بطريقة عادية، وذلك بأن يتبادل معه "الرسائل" المناسبة، وقد أصبح الضبط والمراقبة من المفاهيم المركزية في المجال السبرنيطيقي Cybernitic بصورة طبيعية.

بعد سرد تلك المقدّمات يصبح الاستنتاج التالي من البديهيات: فالمهندسون الخبراء في مجال الضبط الآلي كانوا أكثر الناس أهلية لضمان الضبط الاجتماعي، لقد أشار إلى ذلك دون مجاملة أحد المعجبين بوينر ويدعى جاك غيومو Jaques Guillaumaud سنة ١٩٧١ عندما قال: " إنّ حلّ مشكلة التواصل على اختلافها ميكانيكية كانت أم فيزيولوجية أم اجتماعية تندرج ضمن طريقة التفكير نفسها"، وكان ديكارت يحلم بأن يصبح البشر "سادة الطبيعة ومالكيها"، وبفضل السبرنيطيقيين Cybernitics تحقّق الحلم تقريبا، فالمعلومة والإعلامية والمراقبة والضبط الذاتي والتطويع والعلامة والارتداد retroaction، تلك المفاهيم كلّها تعمل على تحقيق الطموحات القديمة للغرب، ويُشارُ في هذا السياق إلى أن الفيزيائي أندري ماري أمبار André-Marie Ampère قد ابتدع كلمة سبرنيطيقا Cybernitics منذ سنة ١٨٣٤، وكان يعني بها "علم التوجيه"، لم تكن السبرنيطيقا

Cybernitics الحديثة علما سياسيًا فقط، وإنّما كانت علما كونيًا، إذ شملت الكائنات والظواهر الطبيعية كلها. لقد فهم وينر نفسه - في وقت مبكّر جدّا- أنّ ذلك الاختصاص الجديد سيقتحم علم الاجتماع والاقتصاد والإعلان والسياسة بالخصوص. هل كان من الممكن أن تأخذ الأمور منحى مخالفا؟

إنّ الجسد الاجتماعي - في رأي وينر- هو أسّ نظامٍ معلوماتي كبير، فكتب يقول: "إنّ المجتمع لا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة الرسائل، وسهولة الإرسال التي تميّزه"، "فأن تعيش فعلا هو أن تعيش بالمعلومة المناسبة"، فالسياسة السبرنيطيقية Cybernitic تكمن إذن في تنظيم مجتمع وظيفي، أي نظام يُمَكِّنُ فيه التداولُ الحرّ للمعلومات من الضبط الذاتي الشامل، وهو -لعمري- ليس بالأمر العسير، إذ يكفي تنظيم اتّصالات جيّدة. فيتمّ- نظريا- في كلّ لحظة إخبار كلّ فرد بمواقف الآخرين، وبحالة النظام كلّه، وبالتغييرات الطارئة على الظروف الخارجية وغيرها، فتتمكّن المجموعة المكوّنة من الأفراد -المواطنين بفضل ردود الفعل العديدة- من اكتشاف "التوازنات" الملائمة والقرارات المناسبة التي ينبغي اتّخاذها، بصورة آلية. تكمن المسألة - في مجملها- في إيجاد التعديلات المناسبة، وهي ما سمّاه فيليب بروتون يوتوبيا الاتصال، وهي ليست "عقلانية" فقط، وإنّما يمكن أن تكون "إنسانية". فأنّى لنا أن نعترض على محاسن الحوار؟ سيكون الإنسان السبرنيطيقي Cybernitic إنسانا عقلانيا، وإنسانا تواصليا، في الآن نفسه. فهل نريد المزيد؟

وإذا عدنا إلى ما سبق، ظهرت لنا جليّا عيوب تلك اليوتوبيا، ألم يكن التعويلُ على التواصل وعلى الضبط السبرنيطيقي Cybernitic تفاؤلا مبالغا فيه؟ وكيف انطلى نجاح ذلك المجتمع-الآلة وقد كان يقتضي بتر الكائنات البشرية وتشويهها؟ لقد انتهى بعض الملاحظين قبيل **الانفجار الأكبر** إلى إدراك ذلك.

مثال ذلك أنّ فيليب بروتون بين سنة ١٩٩٢ أنّ الشفافية التي تتطلّبها اليوتوبيا الجديدة لا يمكن تحصيلها إلّا على حساب الأشخاص (أي على حساب حياتهم الخاصة وأفكارهم الشخصية). إنّه الشرط الوحيد الذي به يصبح هذا الضبط الجماعي العجيب أمرا ممكنا، فقال: "ستنقصنا سمة أساسية في نسيج تصوّرنا الجديد إن لم ندرك أنّ الرابط الاجتماعي الذي يعتمد الاتصال لن يُبقي للفرد في النهاية سوى فسحة صغيرة جدّا، لن تتيح له أن يكون فاعلا، بل متفاعلا"، والمتفاعل يراد به كائن تشبه مكانته مكانة نقطة في شبكة مترامية من التفاعلات التواصلية، وقصارى ما يطلب منه هو "التفاعل" -دون مقاومة- في خضمّ دفْق المعلومات الذي لا ينضب.

كانت تلك فعلا إحدى المصادرات الخفية لتلك اليوتوبيا، أي إنّ كلّ نزاع - مهما اشتدّ- يمكن فضّه بمعجزة "التواصل" وهي المعجزة الوحيدة، كما يمكن في كلّ زمان ومكان الوصول إلى تحقيق التوافق بفضل "المفاوضات"، وهو ما أطلق عليه فيليب بروتون النفي الآلي للصراع، ألا نرى في ذلك مشروع تطبيع شامل تحت غطاء "عقلاني" أخّاذ؟ لو كتب للسبرنيطيقية Cybernitic (أو التوجيه الآلَوي باعتباره مذهبًا وفكرًا، لا باعتباره علما) أن تبلغ أقصى مدى لها في تكريس ذلك المنطق، لأضحت في النهاية آلة ضخمة تعمل بيسر، ولأضحى المواطنون - بمساعدة المختصين في مجال التواصل- يعيشون في هدوء وسكينة، تحت رحمة مقتضيات الضبط الذاتي الشامل، عندها يُشكّل الشخص الأصيل (أي الثائر على التطبيع) في مثل ذلك النظام -للأسف الشديد- حالة غامضة لا تطاق.

كان فيليب بروتون -عندما أراد أن يصف التأثيرات الروحية للسبرينيطيقا Cybernetics - يتحدّث عن ظهور"الإنسان الذي لا باطن له"، وأضاف يقول:

"يمكن صياغة البند الأوّل من مبادئ التواصل إذن كالآتي: باطن الإنسان لا وجود له، وأمّا الباطنية فهي أسطورة، أي حكاية ميتافيزيقية في أحسن الأحوال، أمّا في أسوأ أشكالها فلا تعدو أن تكون وهما"، ولم يكن المعنيون بذلك يشعرون أنّ مسخًا خبيثًا قد تشكّل شيئا فشيئًا، فـ "لم يعد الأمر في نظرية التواصل يتعلّق بـ"كائن بشري بوجه من الوجوه"، وإنّما بـ"كائنات اجتماعية"، تتحدّد ملامحهمُ كليًّا بقدراتهم على التواصل اجتماعيا"، ولا حاجة بنا إذن إلى تأكيد أنّ ذلك الفقر الروحي كان يتلاءم مع المجتمعات الحديثة؛ لذلك إذا قدّمت شركة من الشركات طلبا في دراسة السوق، لم تُعِر اهتمامًا للأشخاص، وإنّما تتوقّع مدّها بإحصائيات تتعلّق بسلوك أصناف المستهلكين المختلفة، ومن الناحية السياسية جُرِّد مفهومُ الدولة (بمدلوله القديم) من محتواه، فلم يبق سوى آلة اجتماعية ضخمة، لها قدرة نسبية على ضبط نفسها ولا روح فيها شأنُها شأنُ الجرّاف والحاسوب.

يتّضح لنا -بعد أن فهمنا تلك الأفكار الأوّلية- كثير من تصرّفات أهل الحداثة، كنّا نعتبرها محيّرة، منها مثلا الوَلع باستطلاع الآراء وبالبحوث الإحصائية، إذْ كان الغربيون يحسّون بحاجة مستمرّة إلى أن يروا أنفسهم في مرآة الأرقام بشتّى أنواعها، اعتقادًا منهم أنه ليس بإمكانهم أن يدركوا هويتهم الخاصة إلاّ عبر نِسَب مئوية تتعلّق بالمواطن "المتوسط" أو بـ"الشباب" أو بـ"الشيوخ" أو بـ"الموظّفين" و"المديرين" وغيرهم.

إن لدينا مثلا جداول إحصائية غريبةً جدّا حول عدد الفرنسيين الذين ينامون ببدلة نوم، وعدد الفرنسيات اللاتي جُنّ أزواجهنّ (أين كان ذلك؟ ومتى؟ وكيف؟) في بعض الأوقات تسقط تلك الإحصائيات في تفاهة مقيتة من مثل: "من عمّر ٧٠ سنة يكون قد قضى ٩٢ يوما في فرك أسنانه"، وعلى أية حال يبدو أنّ تلك

المعلومات المزعومة كانت لها تأثيرات ثقافية مدمّرة، ولقد حدّث الأستاذ دوبان فقال: " لقد ذاب الغربيون في الإحصائيات واستطلاع الآراء ".

من المؤكّد أن بعض الشعراء قد تفطّن إلى فضائح السبرنيطيقية Cybernetics العقلانية، حيث كتب رايمون بورد Raymnd Borde سنة ١٩٧٠ يقول: "إنّ الرّوائز[١] والاستمارات واستطلاع الآراء تنخر الكائن البشري دون أن تغضبه أو تثير حقده، وذلك بفضل الحياد السلبي للتقنية الحسابية، فلا لوم عليك، والأدهى أنّك تُسَجّلُ فلا أحد يتجرّأ على اتّهامك، ولا أنّك أخطأت عندما كنت أنت. فأنت وحدة، وستحسب داخل مجموع سيعود بالضرر على الوحدة (...) ثم تُجدْوَل وتُدرَج فيُرسَل عنوان إقامتك إلى قطاع الإنتاج الذي سينتزع منك أقصى مردود يمكنك تقديمه"، تلك الملاحظات التي تنمّ عن تبصّر وبعد نظر لا طائل من ورائها، فمازال الفرنسيون والفرنسيات في سنة ١٩٩٥ يقبلون إجابة مستطلعي الآراء ومحققين آخرين، لقد عبّر رايمون بورد مع ذلك عن تلك الظواهر بكلمات لاذعة فقال: "يحتلّ الأخصائي النفساني في سلّم المنبوذين اجتماعيا منزلةً بين القسّ وضابط الشرطة. إنّ الأمر يتعلّق بمشروع تقزيم البشر ذاته، وبالتدخّل السافر

---

(١) جمع الرائز psychological test وهو اختبار يسمح بأن نقيس بطرائق علمية مختلف أوجه العملية الذهنية والانفعالية ولاسيما تلك المتعلقة بسمات الشخصية والسلوك والذكاء. والرائز test في مجال دراسة السلوك الإنساني يشير إلى طريقة منظمة موضوعية في إعداد مجموعة من الأسئلة وتطويرها واستخدامها في الكشف عن جانب محدّد من جوانب الشخصية. وتسمح في الوقت ذاته بمقارنة الأفراد فيما بينهم في هذا الجانب حصراً. فثمة رائز للذكاء ورائز للقدرات وآخر للتحصيل ورابع للشخصية... وهكذا.. فالرائز هو: مقياس موضوعي يتألف من مجموعة من الأسئلة التي تكشف سلوكاً ما. (المترجمان)

ذاته في دائرة اللذّة"، ولقد حدّد ذلك الشاعر نفسه معالم فكره في حوار مع جريدة ليبيراسيون الفرنسية سنة ١٩٩٥ على النحو التالي: " ليسقط استطلاع الآراء، لتسقط الإحصائيات، دعوا الناس وشأنهم، إنّهم يرفضون أن يكونوا لقمة لمن يحلّلهم، ويحقّ لهم أن يتكتّموا على أسرارهم".

لقد تسارع تطوّر تطبيقات السبرنيطيقا Cybernetics، وطبعا انتهت المغامرة بفشل ذريع، وكان أحد الذين توقّعوا تلك النهاية وينر نفسه، -كما شرح ذلك في كتابه السبرنيطيقا Cybernetics والمجتمع- فقد بدأ يفكّر في المسألة بسبب إحدى المقالات التي صدرت في جريدة لوموند الفرنسية بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ١٩٤٨ بقلم أحد الدومينكيين الفرنسيين، يدعى الأب دوبارل Dubarle، علّق فيه على الأعمال الأخيرة لوينر وأجاب عن تساؤل: ألا يستطيع البشر يوما باستخدامهم الموارد التي تتيحها السبرنيطيقية Cybernetics إنشاء آلة حكم حقيقية؟ إنّها مهمّة صعبة معقّدة بلا شكّ، لقد كان الأب دوبارل واعيا بذلك، فلن يتحقّق - في رأيه- ذلك الإنجاز التقني في المستقبل القريب، ولكنّ المهمّة ليست مستحيلة بالنسبة إلى الإنسان، فقد كتب يقول: "من يدري؟ لعلّنا نستطيع أن نحلم بزمن تعوّض فيه آلة الحكم بخيرها وشرّها القصورَ الفادح في أجهزة الدولة التقليدية اليوم، وفي عقول ساستها"، لقد ذكّرنا الأب دوبارل أن وينر قد اشتغل بمكْننة أنظمة الدفاع الجوي فصُمّمت " آلةُ تَوقُّع" أظهرت نجاعتها، وأتاحت آلة أخرى من النوع نفسه عقلنة القرارات في ميادين تمتلك فيها الأنشطة الإنسانية الحدّ الأدنى من الانتظام الإحصائي (في الأرقام)، والحقّ أنه لا يمكن تحديد الحلّ الأمثل بصرامة لا متناهية، ولكن يمكن أن ننجح في الاقتراب "على الأقلّ إلى حدّ ما من القرار الأكثر صوابا"، كما قال الأب دوبارل؛ لذلك كان يكفي تمثّل الأنشطة الإنسانية في صورة ألعاب بالمعنى الخاص للكلمة في نظرية الألعاب التي وضع قواعدها

نومان Neumann ومورغانسترن Morgenstern. ولكن التفاصيل التقنية لا تهمّنا كثيرا، فالأمور بمبادئها: "تُعرف آلة الحكم إذن باعتبارها القائد الأدرى بكلّ مخطّط على حِدَة، والمنسّق الأعلى الوحيد بين جميع القرارات الفرعية. إنّها امتيازات عظيمة تهب الدولة -إذا لقّنت بمنهج علمي صحيح- القدرة على جعل كلّ مشارك آخر في "لعبة الإنسان" ينحصر في جميع الحالات، ليقبل بأحد أمرين: إمّا الإفلاس شبه الفوري، وإما التعاون وفق المخطّط، ولا يتطلّب ذلك منك سوى أن تنخرط في اللعبة دون عنف خارج عن قواعدها". لقد اعتبر الأستاذ دوبان هذا النصّ أحد المعالم الرمزية والاستشرافية الكبرى في القرن العشرين، فكلّ عنف خارج عن قوانين اللعبة ممنوع، **فلعبة الإنسان** باردة متسلّطة على طريقتها، ولكنّها "عقلانية" (وبذلك تبدو مشروعة إذن).

لقد رفع الأب دوبارل بصره إلى أبعد من ذلك، فقد اعتمد على معطيات رياضية دقيقة ليبيّن أنّ النظام الاجتماعي الذي ستفرزه تلك المنظومة، لن يستقرّ على حال إلا إذا توفّر أحد الشرطين التاليين: فإما أن يكون المواطنون اللاعبون على قدر كبير من عدم الوعي يجعلهم مِطواعين بما يكفي، وبعبارة أخرى ينبغي " إنشاء جهاز توكل إليه مهمّة تغييب الوعي لدى الجماهير"، وإمّا أن تنصاع الجماهير من تلقاء نفسها لمن يمسك بخيوط اللعبة بهدف الحفاظ على استقرار جولة اللعب واستمرارها ".

لقد دفع الأب دوبارل بتحليله إلى أقصى ما يمكن أن يفضي إليه من نتائج، وتحدّث بكلّ جرأة عن الشبح الآلي للفياتون فقال: "إنه درس صعب نتلقاه من الرياضيات الصامتة، ولكنه درس يضيء على نحو ما درب المغامرة التي نخوضها في عصرنا هذا، والتي تتأرجح بين اضطرابات شؤون بني البشر التي لا حدود لها،

وظهـور ليفياتـون سياسـي عملاق، إذا وقف أمامه ليفياتون هوبـز لم يكد يراه"، ثمّ تأتي هذه الجملة الحاسمة التي ينبغي أن تدوّي مثل الصاعقة في آذان أهل الحداثة: "إننـا مقبلـون اليـوم علـى خطر العيش فـي قرية عالميـة ضخمة، يكـون فيها الظلم المتوحّـش المعلـن الواعـي بذاتـه هـو السـبيل الوحيـد الممكـن لتحقيـق سـعادةٍ للجماهير مُحَدَّدة حسابيا، وهو عالم أشدّ من الجحيم على كلّ نفس متبصّرة".

لقـد تجلّـى لنا الأمر اليوم، فكتابة تاريخ العشـريات الأخيرة للغرب يمكن أن يتلخّص إلى حدّ ما في التعليق على كلام الأب دوبارل، ولكنّ المديرين التكنوقراط وأصحاب المشاريع والسّاسة ورجال التقدّم الآخرين لم يسمعوا أيّ شيء، ورغم ذلك فقد حرص نوبرت وينر على تدقيق المدلول العملي لتلك الرسالة، ولن ترى آلـة الحكـم النـور فـي نسـختها المثالية دون شـكّ. فمن وجهـة النظـر التقنية تبدو المكْننة الكاملة لكلّ أنشـطة الإنسـان حلما بعيد المنال. ولكن الخطر قائم فبفضل السـبرنيطيقية Cybernetics والإعلامية ونظرية الألعاب، وسـيظلّ الغرب يُمكْنن الحيـاة الجماعيـة دائما على نحو أشـدّ شراسـة، فليسـت الخشـية كلّ الخشـية من ظهـور الآلـة الواحـدة، وإنّمـا مـن تطويـر جملة مـن "الآليـات السياسـية" "الضيّقة اللامبالية بالآفاق الإنسانية، كما لو كانت قد شكّلت على منوال الآلة"، إذ يكفي أن يكون للمرء بعض اطّلاع حتى يلاحظ أنّ ذلك الاتّجاه الذي ظهر قبيل سنة ١٩٥٠، قد عَمّ بعد ذلك، وانتشر انتشار النار في الهشيم، ولقد أشار وينر إلى أنّ "المفاهيم الجديدة" المقتبسة من السبرنيطيقية Cybernetics ونظرية الألعاب، قد استخدمت بنجـاح في الحـروب الحقيقيـة وفي الصراعات الاقتصادية. فقـال: "إنّ تلك اللعبة الكبرى كانت قد دارت رحاها بَعْدُ بصورة ميكانيكية واسعة النطاق".

يمكن القول بهذا المعنى أنّ آلة الحكـم كانت واقعا ملموسـا، وكان الإنسـان

دائما هو السيّد في ظاهر الأمر، ولكنّه كان معرّضا إلى خطر " نقل مسؤولياته إلى الآلة"، وعندها صاح وينر قائلا: "تعْسا لنا!" ولكن لا شكّ في أنّ الوقت قد فات، لقد تحوّل الناس بعْدُ إلى "كثير من العجلات الآلية المسنّنة، وآلات التحكّم، والسواعد الآليّة..". لقد تضاعفت آلات أخذ القرار وانتشرت في كلّ مكان، كما أشار إلى ذلك وينر، ولا نقصد بها فقط " الآلات الميكانيكية "، وإنّما كذلك "تلك الآلات الحية الضخمة المتمثلة في المكاتب والمختبرات الفسيحة والجيوش والهيئات المكوّنة".

ولكن لا حياة لمن تُنادي، فقد اتجه الحداثيون إلى تسريع الحركة بدلا من التريّث ويمكننا -اعتمادا على ما خلّفوه- أن نلاحظ مع فيليب بروتون "أنّهم كانوا غير مدركين بالضرورة لعواقب تصرّفاتهم"، من أجل ذلك لم يتردّد الخبير الأمريكي ج. و. فورستر J.W. Forrester في القول سنة ١٩٧٠: " إنّ المجتمعات الإنسانية باتت على درجة عالية من التعقيد يتجاوز تسييرها طاقة الإنسان، فهل كان يدرك حقيقة ما يعنيه مثل هذا الكلام؟ إنّه إعلان استقالة، وإعلان انتصار لليفياتون الجديد، الذي اعتبره الأب دوبارل أشدّ قسوة من ذلك الذي تحدّث عنه هوبز، ومن المفترض أن يكون فريق بحثنا قد أدرك بأنّ كلّ شيء قد حدث كما لو كانت الخيارات التأسيسية لأمثال ديكارت، وأمثال هوبز وكوندورسي وسان سيمون، قد قادت الغرب إلى نهاية المطاف، ومن ثمّ كان المُمكْنِنون والسيرنيطيقيون Cybernetics الأشدّ حماسة هم "الطبيعيون"، ولا يمكن أن يبدو نوربرت وينر بتساؤلاته النقدية وعظاته الأخلاقية إلا على ضلالة. إننا ندرك جيّدا أنّ وينر كان يخيفهم؛ لأنّه يعرف كيف يكون شرسا إن أراد ذلك، إنه أول من شجب خواء عبادة التواصل وانحرافاتها، وهو ذاك الذي استوحاها. لقد كتب يقول إنّ كثيرا من "شيوخ التواصل" لم يكونوا سوى أبواق خاوية، وأنّ الذين اختاروا العمل في

مجال التواصل لم يكن لديهم ما به يتواصلون"، وما كان لمثل تلك التصريحات بمعانيها الحرفية أن تسمع، وأمّا التنبّؤات المتعلّقة بالبطالة وآلة الحكم فحدّث ولا حرج، فلقد ذهب وينر إلى حدّ الاعتراف بأنّه من النافع اجتماعيا قيام معارضة ضدّ المكْننة، فقال: "ينبغي -في العديد من الجوانب- أن تواجَه صدمة عصر الآلة مقاومة ذكية ونشيطة"، والمؤسف أنّ المتآمرين كانوا كُثْرا، خلافا لمقاوميها.

كان المهندسون -عند قيام ساعة **الانفجار الأكبر**- يسيطرون على سائر الفضاءات الاجتماعية والثقافية التي كان يمكن أن تكون في صفوف المقاومة، حيث أحدثت مدرسة التقنيات المتعدّدة، تلك "العين النفيسة" للحداثة، -كما وصفها الأب أنفنتان- تقهقرا مشهودًا.

لقد اكتشفنا أنّ الغرب قد أنشأ متفاخرا جميع أصناف المهندسين والهندسات والتكنولوجيات، ومنذ القرن التاسع عشر ظهرت الهندسة الاجتماعية، وأطلق لينين على الفنانين صفة "مهندسي الروح"، وبرز في فرنسا التسعينات مهندسون ثقافيون. كان المهندس حاضرا في كلّ مكان؛ لذلك كان معظم الإينارك[1] Énarques، أي التكنوقراط الفرنسيين المتخرّجين في المدرسة الوطنية للإدارة مهندسين، وبطبيعة الحال لم يكونوا جميعًا مدرّبين على حساب التكامل والآلية العقلانية وعلى مقاومة الموادّ، ولكن كان أنموذج الهندسة هو ما يحرّكهم من الناحية الروحية، ومقرّرات دراستهم كلّها موجّه إلى تكوين إداريين "عقلانيين" يصلون إلى أقصى حدود النجاعة، وأصحاب خطط إدارية منهجية مبنية على حسابات آلية، ولم تكن المعلومات الأوّلية التي تُلقى إليهم في مجال "الثقافة العامة" و"العلوم الإنسانية" لتغيير الأوضاع.

---

(١) **énarque** هو أحد قدماء تلامذة المدرسة الوطنية للإدارة l'École Nationale d'Administration (ENA). (المترجمان)

لقد تنبّأ أرنست رينان في خطاب انتخابي ألقاه سنة ١٨٦٩ بحدوث تلك النقلة، بل لقد كان يتمناها إذ قال: "أرجو أن تُخْلِص الديمقراطية المستقبلية لروح العلم ومقاصده بصفة طبيعية، دون أن تخوض في تفاصيله"، فمن وجهة النظر الثقافية يعتبر رينان بالفعل أحد الذين بشّروا بميلاد المدرسة الوطنية للإدارة ومؤسسات مشابهة لها، كما أشار إلى ذلك الأستاذ دوبان، لقد خطب فقال: "غاية الكمال في حكومة من الحكومات أن تكون حكومة علمية، يعالج فيها رجال مختصّون أكفاء المسائل الحكومية باعتبارها مسائل علمية، ويبحثون عن حلّها بطريقة عقلانية".

لو بعث رينان قبيل **الانفجار الأكبر** بسنوات لكان من المدلَّلين؛ لا لأنّ طبقة التكنوقراط قد بلغت قممًا لا تُضاهى فقط؛ بل لأنّ أهل الحداثة لم يفوّتوا فرصة واحدة لإظهار أنّهم علميّون في جميع مجالات النشاط، أي باللجوء إلى الحاسوب.

وإليك مثالا معبّرا، اخترناه من بين أمثلة لا تحصى كثرةً: فقد تقدّم طبيب إنكليزي يدعى دافيد بيهاري David Bihari في سنة ١٩٩٤ باقتراح طريف، مفاده أن المريض عندما يصل إلى حالة ميؤوس منها، أليس من الأفضل أن نترك المجال لحاسوب يحدّد متى ينتهي تقديم العلاج له ويتركه يموت؟ ولقد أنجز بعض الباحثين برنامجا إعلاميا يتيح تقدير "مدّة الحياة الممكنة لمريض في الإنعاش"، ولقد روى أحد الصحفيين فقال: "يَظهر لك على الشاشة نعش أسود عليه صليب أبيض إذا قدّر الحاسوب أن تلك المدّة لا تزيد عن ٩٠ يوما، ولا يتعدّى هامش الخطأ نسبة ٥% "، ولكي نتحدّث بلسان أتباع سان سيمون، كانت تلك مناسبة جيّدة لتوسيع مجال "العلم التطبيقي"، لقد رأى الدكتور بيهاري في ذلك فائدة

مضاعفة: أولا: "الحاسوب لا يجامل"، بل يتفوّق في ذلك على الإنسان، لأنّ أخذ القرار بترك شخص فريسة للموت هو طبعا شأن عقلاني خالص، وثانيا: آفاق المشروع واعدة من حيث التكلفة، إذ يمكن - في رأي ذلك الطبيب- ربْحُ "يومين أو ثلاثة من أيام العلاج المركّز"، مقابل كلّ تدخّل للحاسوب، ومن المعلوم أنّ كلفة يوم من العناية المركّزة تصل إلى ١٠٠٠ جنيه استرليني؟ وفي الجملة كانت الحسابات مقنعة جدّا، إذ يمكن تخفيض نسبة ١٠%، فما الداعي إلى رفض مثل ذلك المشروع؟

لم يكن الدكتور بيهاري مصنّفا من بين "المهندسين" المُعَقلَنين الذين يدلّلهم الغرب، ولكن كان ذلك هو الدور الذي يقوم به فعلا، وهو في ذلك شبيه بعشرات الآلاف من التقنيين التكنوقراط الذين يعيثون فسادا في القطاعات الأخرى". لا للعواطف"،" المردودية"، هما كلمتا السرّ اللتان كانتا بمثابة المبدأ العملي الذي يفرض نفسه على كلّ عمل، وكانت قرارات تسريح العمال تتخذ أيضا بطريقة "عقلانية"، أي بطريقة "علمية" "هادئة"، فأيّ معجزة جعلت ذلك الوضع يدوم تلك المدّة كلّها؟ وكيف أمكن للديمقراطيين الذين يبدون صادقين الاقتناع بأنّ تلك الأنماط المتعلّقة بالهندسة الاجتماعية كانت محايدة (فعلا) من منظور إنساني؟

كان من السهل من الناحية النظرية المجرّدة -كما سبق أن ذكرنا- اعتبار الآلات والتقنيات مجرّد وسائل، وللإنسان حرية اختيار الغايات، وقصارى ما كان يوفّره له التقدّم وسائل جديدة، وآفاق عمل جديدة. كان أبرز ممثلي الثقافة البورجوازية (ومن بينهم الحائزون على جائزة نوبل) يذكرون في كلّ مناسبة: بأن الأداة التقنية في حدّ ذاتها لا تفرض استخداما بعينه، وكان مثال السكين يتردّد ذكره كثيرا، فنستطيع أن نقشّر بها البطاطس، كما يمكننا أن نرتكب بها جريمة، شأنها

شأن السلاح الرشاش، إذ يمكن أن يستعمل في الحرب مثلما يستعمل لإحداث ثقوب في ألواح من خشب، ومن ذلك تلك اللازمة المفعمة بالحكمة التي تردّد بأنّ الابتكارات التقنية محايدة، ومن العبث وبلادة الذهن الوقوف ضدّها.

إننا نجد صعوبة في سنة ٢٠٨١ في فهم الأسباب التي جعلت الشعوب تمنح مثقال ذرة من ثقة لمثل ذلك القول، حقّا كان بعض الاختراعات مفيدًا، ولا يؤثّر في أنماط العيش والإحساس والتفكير بصورة ملموسة، ولكن كيف لنا أن نطلق تلك الصفة على الآلة البخارية وعلى تحرير الطاقة الذرية وعلى الحاسوب؟

حدّث الأستاذ دوبان قال: "كلّ تقنية جديدة حقّا من شأنها أن تغيّر علاقة الإنسان بمحيطه"، فبوساطة السيارة والطائرة لم تتغيّر "وسائل النقل" فحسب، وإنما تغيّر أيضا فنّ السفر، وطريقة اكتشاف المناظر الطبيعية، والتعرف على أناس جُدُد. إنّ "الاختراعات الكبرى" التي يفخر بها الغربيون لم تبدّل العالم الذي يصفونه بالمادي فحسب، بل بدّلت أسلوب حياتهم وإحساسهم وتجاربهم اليومية، وصرنا نرى العميل أو المستعمل مجبرا أكثر فأكثر، على أن "يتحاور" مع آلات لا مع كائنات بشرية. فهل نحن إزاء أداة محايدة؟ كلّا، بلا ريب! ثمّة شيء قد تغيّر من زاوية النظر الإنسانية، بغضّ النظر عن محاسنه ومساوئه. أوَيُعقل أنّ معظم المواطنين لم يقدّروا إلى أيّ مدى غيّرت "الوسائط" الجديدة أخلاقهم، وحتى الهوية الإنسانية التي تميّزهم؟ حتى هذه البديهة أخطؤوها، ومفادها أنّ الحاسوب أصبح الأداة المميّزة لطغيان جديد.

لقد قرع بعض المفكّرين المستنيرين ناقوس الخطر، فـ "وينر" الذي نعود إليه من جديد، كان قد أكّد أنّ الإعلامية والسيبرنيطيقا Cybernetics قد أُنشئتا بغرض الهيمنة، وكان الناس يتّجهون إلى الكارثة عندما عُمّم الالتجاء إلى تلك التقنيات،

فـأن يترك المرء المجال للآلات كي "تقرّر" عوضا عنه، يعني أن يُلقي بمسـؤولياته عرض الهواء، ثمّ يراها تعود إليه عبر العاصفة. لقد أشار كتاب آخرون مثل لوسيان سـفاز Lucien Sfez وبيار جيراردين Pierre Girardin بعد ذلك بقليل إلى هول البلاء، ففي رأيهم أنّ أهل الحداثة اعتقدوا أنّ الحاسوب مجرّد آلة ركّبها الإنسان، ثم استسلموا في النهاية لعبادة الحاسوب الإله.

فلنفهم جيّدا ما يعني ذلك: لمّا كان الحاسوب تحفة تقنية رائعة، أتاح له ذلك أن "يشرّع في صمت على وجه الخصوص، قيَما مزيّفة لمجتمع بلا روح"، لم يعلن أيّ شيء، لـم يكشـف عن أيّ "قيـم أخلاقية"، ولا عـن أيّ "سياسـة"، وصار هناك ببسـاطة حاسـوب وقـور، دائم الحضـور، متعـدّد الوظائـف، والبقية تأتـي بصورة بديهية.

من البديهي مثلا أن تصاغ المشكلات الصعبة كلّها باللغة الجافة للحاسوبيين، وينبغـي أن تتخلّـص الأسـئلة المطروحـة من الشـوائب العاطفية كلّهـا، وأن تكون المعطيـات التـي يمكـن تحويلهـا بدقّة إلى أرقام هـي وحدها المعطيات المناسـبة وهكذا دواليك.

من خلال الآلة إذن كان هناك تصوّر شـامل للإنسـان والفعل الإنسـاني الذي يعبّر عن نفسه بـ"موضوعية"، وينبغي أن يؤخذ اللفظ بمعناه الحرفي أي " في شكل جمـاد"، به تحقّقت نبوءة فرانسـيس بيكـون Francis Bacon في كتابه "الأرغانون الجديـد" (١٦٢٠) حيث أشـار إلى أنّ العقل الإنسـاني عندمـا يتخلّص من أوهامه ونوازعـه الشـخصية سـيعمل يوما "كما لـو كان ميكانيكيا"، ومـن منظور بعض من التقاليد "الاشتراكية" كان ذلك النجاح أمرا طبيعيا.

لنقرأ مثلا كتاب "رحلة إلى إكاريا" لـإيتيان كابي (١٨٤٢) حيث يقول: "ما هي

الأسس التي تقوم عليها الآلات؟ لا يمكننا أن نطوّعها أكثر ممّا يجب، إننا نقوم بوساطتها بكلّ ما أمكن أن نستخدمها فيه". لقد صار الحاسوب بالنسبة إلى الغربيين آلة عجيبة يمكن أن نصادق على اختياراتها، فبعد المعالجة الإعلامية يكتسب القرار صفة "البداهة"، وإن كان أكثر القرارات عبثا، في انتظار أن يصوغ أحد الخبراء بحاسوب آخر "بديهة" جديدة على الأقلّ. كان يعدّ ذلك كلّه أمرا عاديا، ومن الناحيتين الثقافية والروحية استمرّ " الوهم التكنوقراطي" الذي استنكره بيار جيراردين وبعض المفكّرين الآخرين على أشدّه.

كان المهندسون التكنوقراط هم الذين يراقبون فعلا الوضع عن كثب في جميع الحالات، ذاك كان انتصارهم: فبعد أن فرضوا لغتهم تحمّلوا عبء هيمنة لا قبل للإنسان العادي بها، وحتى الخلافات التي تنشب بين الخبراء، تبدو في نهاية الأمر مفيدة؛ لأنّها تجعل السذّج يصدّقون بأنّ هناك "سياسات" عديدة. كان الاستلاب في الواقع تاما: فليست السيادة للشعب، وإنما لمن يتحكّمون في ناصية اللغة الجديدة (وهي لغة الإعلامية والأنماط الاستشرافية والتقريرية والإحصائيات والخطط التنظيمية، وغيرها)، لقد فهم الكَنَدي ماك كوهن ذلك وعبّر عنه بوضوح حين قال: "الوسيط هو الرسالة"، وبعبارة أخرى إنّ الهيمنة التي تفرضها اللغة التكنوقراطية تشكّل بمفردها سلطة حقيقية، ولقد قلنا ذلك وكرّرناه مرارًا، كان الغربيون زمن الانحطاط مجرّدين من الذكاء الرمزي، وكان القادة والمواطنون القاعديون المتورّطون في وحَل المادية نفسها، قد فقدوا الوعي بالخسائر التي يتكبّدونها من جرّاء الآلة.

ثمّة أمر استرعى اهتمام الأستاذ دوبان بصورة خاصة، وذلك في قوله: "لماذا لم يفصح الغربيون عن كرههم للطبيعة؟" لقد اعتقدنا طويلا أن ذلك كان مجرّد

مزحة، ولكن انتهى إلى فهمنا أن الأستاذ قد أشار إلى أمر مهمّ، فالغرب لم "يجرّد الطبيعة من سحرها" فحسب، ولكنّه كان ينوي إعادة تشكيلها وفق مقاييسه الخاصة، كان يتصرّف بعزم وثبات كما لو كان هاجسه الخفي هو أن يستبدل بالعالم الطبيعي "عالما مصطنعًا أكثر فأكثر".

من الطبيعي أن لا يُعلن قطّ عن ذلك الطموح على الملإ على نحو واضح؛ لأنّ اعتداد الإنسان التقني بنفسه وإن كان مذهلا له حدود، ولكن أثبتت ممارسات كثيرة أنّ مثل ذلك المشروع الواعي نسبيًا كان يراود المجتمعات الصناعية.

فقد تسبّبت -على نحو مباشر أو غير مباشر- في انقراض أجناس حيوانية كثيرة كما رأينا ذلك، وحتى أواخر القرن العشرين بقيت هذه العادات المدمّرة سائدة، رغم تعالي أصوات بعض "المدافعين عن البيئة"، وفي الوقت نفسه شرع بيولوجيون وتقنيون في عالم الأحياء في تخليق أنواع أو أجناس جديدة عبر التلاعب بالجينات، فقد وقع الجمع بين اتجاهين: فاستُنزف (شيئا فشيئا) عالم الحيوان "الطبيعي" من جهة، وتزايد عدد الحيوانات "الاصطناعية" من جهة أخرى، كما لاحظ ذلك الأستاذ دوبان، ولقد طرأ **الانفجار الأكبر** بطبيعة الحال باكرا أي قبل أن يصل مشروع الهندسة الحيوانية ذاك إلى مبتغاه، لكن الاتجاه العام كان واضحًا، وقد تجلّت مظاهره في عالم النبات أيضا، ولقد كان مثال الزراعة معبّرا، فلم يتعوّد أهل الحداثة على ابتداع بذور جديدة وأشجار مثمرة جديدة اصطناعية؛ بفضل تقنيات بيولوجية أكثر قوة وفاعلية فقط، بل كانوا مولعين بابتكار مناهج زراعية جديدة ذات طاقة إنتاجية أعلى أيضا، وكلّما زادت "زراعة الباكورات[١]

(١) جمع باكورة وهي أوّل ما يُدرك من الثّمر، والمقصود بزراعة الباكورات هو زراعة بعض الخضر والفواكه في غير مواعيدها الفصلية كإنتاج الطماطم والبطيخ في فصل الشتاء. (المترجمان)

كانوا أشدّ اغتباطا، فكانت الزراعة "دون أرض" - مثلا- إنجازا عظيما في نظرهم.

وهنا يجدر بنا أن نتذكر كلمة السر التي صاغها ديكارت: ينبغي أن يصير الغربيون "أسيادا للطبيعة، مالكين بزمامها"، وكانت التكنولوجيا هي الطريق إلى السيادة، وقد لجأ عالم الاجتماع الأمريكي بجامعة هارفارد، المسمّى دانيال بال Daniel Bell -في تعريفها- إلى استعمال عبارة جريئة، فقال: " التكنولوجيا هي نمط لا يتيح تشكيل الأشياء فقط، وإنّما يمكّن من إعادة تشكيلها أيضا"، ولا مكان للخطأ هنا، فقد كان هذا الكاتب في الحقيقة بصدد بيان الغاية الكبرى ممّا سمّاه "العصر المحوري الثاني": فقد يختلق الغربيون حالة مضادّة للطبيعة، وذلك بتعمّدهم مكْننة بيئتهم، ومكْننة الإنسانية نفسها بالتدريج.

ربما لم يقوموا بذلك العمل عن وعي تام، وربما دخلت أصوله البعيدة طيّ النسيان، ولكن كان ذاك هو مشروع الغرب (أو قل مشروعه الزائف)، وكان بعض الحداثيين يملكون فعلا شيئًا من الحكمة، فيجهرون برهانات المرحلة، فقد صرّح -مثلا- مارسولين بارتولو Marcelin Berthelot، وهو كيميائي، وأحد كبار المتحمّسين للتقدّم: " لقد شهد أبناء جيلي إلى جانب الطبيعة التي ألفناها منذ العصر القديم عكس الطبيعة كما يسمّونها أحيانًا، إن لم نقل طبيعة لا فيزيائية، وهي عبارة عن طبيعة عليا متعالية، إن صحّ القول، تتضاعف فيها قوّة الفرد عشرات المرّات، بفضل تحوّل بعض القوى المجهولة أو المبهمة، التي تُستوحى من الضوء ومن الطاقة المغناطيسية والكهرباء"، يمكننا أن نلاحظ أنّ بارتولو لم يكن يؤمن بفكرة الطبيعة المضادة، ولكنّه أثبت وجودها بطريقة ما على غير ما كان يريد، وبدا بذلك متنبّئا جيّدا؛ فبفضل العلوم والتقنيات بات أهل القرن العشرين يضاعفون من "قوّتهم" بلا حدود، ولم تكن الطبيعة المضادة طبيعة ينبغي اكتشافها،

وإنمـا هـي طبيعة يجـب بناؤها، واليوم من اليسـير فكّ رموز الرسـالة، ومفادها أنّ "طبيعة" جديدة ستظهر يوما ما، إذا جرى كلّ شيء على ما يرام، وسيكون للإنسان التقنـي الفضـل في إعادة بنائها، كانت عبارة ضدّ الطبيعة تسـتعمل عوضًا عن كلمة الطبيعـة المضـادة، ولكـن لا عبرة بعموم اللفـظ، وإنما العبرة بالفلسـفة الآلية التي جعلت من الكون آلة، ولم تستطع عمليًا إيقاف تحويل الطبيعة إلى شيء اصطناعي، فـ" لم تكن ثمّة حاجة إلى إرادة (مسبقة) لتخريب "الطبيعة الطبيعية" فقد كان ذلك يجري بتلقائية.."،، كما قال الأسـتاذ دوبان، ولو أحسن **الغربيون** فهم ذلك المسار الخبيث، لأمكن لهم أن يواجهوا المشكلات "المتعلّقة بالبيئة" بحكمة أكبر.

لم تخضع "الطبيعة" وحدها دوما أكثر فأكثر لعملية "إعادة تشكيل" آليّة، وإنّما خضـع النـاس لهـا أيضا، فـكان دور الأطباء يتماهـى باطّراد مع أدوار المهندسـين البيولوجييـن، ولـم يفوّتـوا أيّ فرصة لنشـر مواهبهـم في خلق كائنـات اصطناعية، بدافعٍ من ولعهم بمعاداة الطبيعة، فأيّ حدّ من الحدود لم يكونوا بالغيه؟ فمن بين أحلامهم الأشـدّ جرأة، ذاك الذي يتعلّق بالنسـل البشـري. لقد انكبّ طبيب شـهير مؤثّـر يدعى البروفيسـور جـون بارنار Jean Bernard سـنة ١٩٨٢ على تمرين في مجـال الخيـال العلمـي، قد بـدا لنا ذا دلالـة رمزية عميقـة، وعندما سـألته صحفية فرنسـية عـن وضـع النسـاء بعد قـرن، أجابها قائـلا: "بدايـة من سـنة ٢٠٥٠ يمكن للبويضة البشـرية أن تكبر وأن تنمو نموّا كاملا في مراكز مختصّة خارج رحم الأم (...)، كانت امرأة القرن الواحد والعشرين، حتى المرأة الأمّية التي لا تعرف العدّ، على دراية كاملة بالإنجاب (...) فلفظ (الحمل) لم يعد له معنى تقريبا والصغريات من السـيدات سنة ٢٠٨٢ -وهن ينعمن بالحرية- لا يعرفن شيئا عن قيود العبودية التي كبّلت أخواتهنّ الكبريات طيلة آلاف السنين ".

يـا لها من رؤية خارقة للعادة: فبفضل رحم اصطناعي صمّمه خبراء للغرض، سيكون باستطاعة أهل الحداثة الاستغناء عن بطن المرأة، لم يكن ذلك النجاح -على حدّ قول الكاتب نفسه- تقنيا فحسب، بل أخلاقيًا وسياسيًا إلى حدّ كبير، فستتحرّر النسوة من تلك الضرورة الطبيعية والبدائية، ألا وهي الحمل من جهة، وسيؤمّنُ الالتجاء إلى تلك التقنيات المتقدّمة توازنا جليّا بين الوالد والوالدة من جهة أخرى، فمثلا: "لقد ترقّى الحب بين الوالدين وتحرّر من الضرورات المادية التي كانت تضعفه، وأصبح متساويًا بفضل المساواة بين الأب والأمّ "، أليس في ذلك فوائد جمّة؟

إنّ إعفاء رحم المرأة من تلك المهمّة إعفاء واضحا يمثّل " تقدّما"، والجدير بالملاحظة أنّ ذلك الطبيب المتبصّر لم يكن نكِرة، لقد عُيّن بعد بضعة أشهر سنة ١٩٨٣، رئيسًا للجنة الوطنية لعلم الأخلاق والآداب، من قبل رئيس دولة يُعدّ هو نفسه من أنصار التقدّم.

في سنة ١٩٨٥ أثار أستاذ مبرّز في الطب ويدعى جون لوي توران بدوره تلك المسألة، وهو يرى أنّه مع الحمل في وسط اصطناعي (أي داخل المِحضن أو الأنبوب) سيعرف الجنس الآخر مستقبَلا أفضل، " فسيكون ذلك بالنسبة إلى المرأة بمثابة خطوة جديدة على طريق نضالها من أجل حرية مشروعة، إضافة إلى طاقة عمل، ووقت فراغ، يعادلان ما ينعم به الرجال". وباسم العقل كانت الاعتراضات "ذات الصبغة النفسية" مرفوضة، إذ كانت الأمهات بدافع من "مشاعرهنّ الرومنسية أو الحنين إلى الماضي يجرؤن دون غيرهنّ على المقاومة، وكان يحكم ذلك كلّه منطق طبي حيويّ غاية في الامتياز، " فقد أصبح العمر الذي تصير فيه المضغة قابلة للحياة خارج رحم الأمّ يتناقص كلّ عام (...) وسيأتي يوم

تلتقي فيه المرحلتان: أي بين البداية داخل الأنبوب والنهاية وسط الحاضن، ولن تكون المضغة في حاجة إلى المرور برحم المرأة"، ومن المدهش أيضا أنّ الرحم الاصطناعي يمثّل إحدى قمم التاريخ الثقافي الغربي، لقد فسّر سياسيّ يدعى هنري كايافي henri Caillavet ذلك بصورة شعرية فقال: "لقد دجّن الإنسان قديما النار، وبعد بضع آلاف السنين دجّن المادّة، وها هو اليوم يدجّن الحياة. إن تلك السلطة التي اكتسبها وهي سلطة السلطات كلّها، تفتح له باب ملحمة رائعة ".

ولسنا في حاجة إلى القول بأنّ كلّ ذلك الكلام وجد القبول الحسن، حتى إنّ بعض الفلاسفة البارزين قد أعلنوا مساندتَهم تلك المشاريعَ الجميلة، مثل جون فرانسوا ليوتار jean François Lyotard وميشال سار Michel Serres، خذ مثلا كيف تحدّث هذا الأخير في ملتقى حول "علم الجينات والإنجاب والحقوق": " إنّنا نتقدّم نحو إقامة زفافين دفعة واحدة: زفاف الاصطناعي والطبيعة، وهما غير متوقّعين وغير منتظرين، ونعني بذلك زفاف الذكر الذي جعلته الطبيعة مقتصرا على الإنجاب الثقافي، وزفاف المرأة التي حكمت عليها طويلا بعض الثقافات بالاقتصار على العمل المسمّى طبيعيًا، إنّنا نتقدّم نحو إقامة المساواة بينهما بمسارات في طريقها إلى التوحّد".

كانت بعض النساء اللواتي لديهنّ حنين إلى الماضي على حدّ تعبير جون لويس توران Jean-Louis Touraine يعبّرن وحدهنّ عن احتجاجهن علانية، أو كذلك أحد علماء الأحياء وهو جاك تستار Jacques Testart الذي تحمّل تبعات موقف أوشك أن يجلب له تهميشًا مهنيّا محقّقًا. إنّ المسائل الجديرة بالطرح كثيرة حقّا، من بينها هذا التساؤل: هل يحرّر الرحم الاصطناعي المرأة بالضرورة؟ لقد بدا لنا أن اعتراض بعض النسويين على تفرّد العلماء بالقرار في هذا الشأن أمرٌ ذو دلالة.

لقد سخرت الكندية لويز فانديلاك Louise Vandelac من "الآفاق الواعدة للثورة الإنجابية"، وشجبت بشدّة دافعه الذكوري الخفيّ، "كما لو كان تحرّر النساء من الروابط الاجتماعية التي قوامها هيمنة الرجال عليهنّ واستغلالهم لهنّ لا يمكن أن يتحقق في رأيهم إلا بتحويل أجسادهنّ والتنكر لقدرتهنّ على الإنجاب..".

ولقد تساءلت الفرنسية لورانس غافاريني Laurence Gavarini من جهتها حول ذلك الهاجس الحداثي المتمثّل في " إعادة الطبيعة إلى الصواب"، لماذا إذن اعتبر البيولوجيون والأطباء تلك الخطة التقنية الفظّة وسيلة مميّزة لتحرير النساء؟ تثير هذه المسألة في واقع الأمر خلافًا قديمًا، مفاده أنّ الرجال كانوا يغارون من الخصوبة عند الإناث، ولقد وجد العلم الحديث الحلّ تحت غطاء تحقيق المساواة بين الجنسين: "ينبغي تشويه النساء خياليًا وواقعيا من خلال إلغاء قدرتهنّ على الإنجاب". لقد كان للغرب الرجالي تسلسل في الأفكار، فبعد أن نزع القداسة عن الأرض الأمّ وانتزع منها الحياة، وبعد أن عاملها باعتبارها آلة مبتذلة، صار يتوق إلى معاملة مشابهة لأمّهات الإنسان.

لقد ركّزت لورانس غافاريني أفكارها بطريقة موحية تحت هذا العنوان: من الرحم الخاضع إلى الأم الآلة، فبطن المرأة في العالم الذي نعرفه، والذي لا روح فيه ولا شِعر، صار عاهةً بشكل واضح، فكيف لعقلاني أصيل أن يعترف صراحة بالرحم، " ذلك العضو المخبّأ المعتم الغامض الذي يعدّه أطباء الأمراض العقلية موطن الأعراض المنبئة بالهستيريا عند النساء"؟

فلا غرابة إذن أن يروم شعب من المقاولين والمهندسين إخضاع الرحم للنظام الاصطناعي، لقد كتبت لورانس غافاريني تقول: "لقد صار بطن الأمّ شيئا فشيئا مصنعًا، فيه يتمّ الإنتاج العقلاني لشيء موحّد، ينشد الاكتمال يوما بعد يوم، ألا

وهو الطفل؛ تلك هي الطبيعة المضادّة " طبيعة لا إنسانية بوجه من الوجوه"، ولكنّها تتناسب مع الحداثة.

من المحزن أنّ ذلك لم يبلغ المسامع، بل لقد تأكّد لدينا أنّ صدّاه في الحصص الموجّهة إلى الرأي العام كان استثناء، وعليه فإنه من النادر جدّا أن يتعامل معه أرباب الإعلام والسياسة والقائمون على تبسيط العلوم ونشرها بين العامة بغير اللامبالاة، فأما تمجيد المكاسب البيوتقنية والتهليل للإنجازات التي يحقّقها الأطباء المهندسون فنِعِمّا هو، وأما استخلاص الدلالة الثقافية منه فهو أمر "غير معقول"، كان الموظفون الكبار أصحاب الجمّازات البيضاء يتحدّثون بنفور عن ظلامية المناهضين للإنجازات العلمية أنصار اللّاعلم، وكان الجميع يفرح بذلك، لأنّ الحداثيين كانوا هنالك.. فتأمُّلُ الأنشطة العلمية والتقنية عن بعد يعدّ بالنسبة إليهم "ممارسة للّاعلم"... كانت الملاحظات اللطيفة والتعاليق الممجّدة هي التي يسمح بها، وكان فتح حوار حقيقي حول تجلّيات الأمبريالية البيولوجية يهدّد مصالح كثيرة. وقد أتيحت له بعض الفرص رغم ذلك.

لقد تقدّم السيد فرانسيس كريك الحائز على جائزة نوبل لسنة ١٩٦٢ بهذا الاقتراح المثالي: " لا ينبغي اعتبار أيّ طفل ولد للتوّ إنسانًا قبل أن يجتاز جملة من الاختبارات تتعلّق بخصائصه الجينية، فإنْ لم ينجح في تلك الاختبارات، فقَدَ حقه في الحياة"، ولنا عبرة في كلام لينوس بولينغ Linus Pauling الحائز على جائزة نوبل لسنة ١٩٥٤، فقد اقترح وشم جباه الشبان والفتيات بعلامات تعبّر عن خصوصياتهم الجينية فقال: "إذا قمنا بذلك كان بإمكان الشخصين اللذين يحملان الجين القاصر نفسه، إدراك الحالة منذ الوهلة الأولى، فلا يقع أحدهما في حبّ الآخر"، وقد راق للأسترالي مكفرلان بورني Macfarlane Burnet –وهو من

الفائزين بجائزة نوبل- أن يلهو هو أيضا بالفكرة التالية: "من الممكن نظريًا تطوير النوع البشري بتقسيمه إلى "مجموعتين للتزاوج" إحداهما تشتمل على الأفراد الأقلّ ذكاء والأقل مواهب، والأخرى تشتمل على النخب، أو"الأفراد الذين يمتلكون قدرات جينية تجعلهم متفوّقين في الذكاء أو لديهم مؤهلات تشدّ الانتباه"، وتكفي مراقبة الإنجاب (أي التزاوج) اجتماعيًا لكي تتشكّل فئتان إحداهما دنيا والأخرى عليا، وإذا كتب لهذه التفرقة أن تتواصل "طيلة مئات الآلاف من السنوات" إذن ستنقسم البشرية عمليا إلى نوعين.

كان مكفرلان بورني باعتباره عالم إحياء يدرك جيّدا العقبة الكبرى أمام تحقيق مثل ذلك المشروع، إذ كيف نصدّق بأنّ المجتمع يبقى مستقرّا طيلة تلك السنين كلّها؟ وسينزع فعلا كلٌّ من فريقي التزاوج إلى الامتزاج بالآخر، لقد اعترف إذن صاحبنا الفائز بجائزة نوبل باستحالة إنجاز ذلك المشروع، عندما أحالنا في حديثه على آلة استكشاف الزمن التي صنعها ويلز. ولقد صرّح بأنه من المستحيل أن تنقسم البشرية إلى مورلوكس Morlocks (كائنات بشرية منحطة) وإلى ألويس Éloïs (كائنات بشرية راقية)، لكن أحلامه تعبّر جيّدا عن ذلك الطموح الغربي الخالص، ألا وهو إعادة تشكيل العالم في اتجاه التقدّم المزعوم بفضل التقنيات. لماذا لم يدرك الغربيون أنّ إجراءات نحو "التطبيع" مع التقنيات تتأسس في كلّ مكان بآلاف الأشكال المتنوّعة؟

كانت النتائج مع ذلك واضحة: فبقدر ما تتقدّم الآلة تصبح الأسئلة المتعلّقة بمعنى الأشياء لا قيمة لها، " فالتكنولوجيا لا يمكن أن ترمز إلى غير ذاتها، وذلك بإبادة الرموز الضاربة في القدم،" كما كتب بيار جيراردين.

لقد رسمت الحداثة لنفسها "هدفا أسمى" يثير الرعب لا مفرّ منه، إنه نظام

منغلق على نفسه فيه تنهض التقنيات بدور الرقابة الاجتماعية فعلا، ولا مكان فيه للقيم بالمعنى الدقيق، تحكمه -من ثمّ- آلة ضخمة جدّا، بُرمجت لكي تؤمّن بصورة عقلانية النظام والمنفعة والمردود والنجاعة وغيرها، ولقد لجأ الشعراء قبل **الانفجار الأكبر** إلى الخيال العلمي ليبيّنوا أن في ثنايا الحداثة تختبئ أسطورة خفية وهي ما سميناه التشفير الأسطوري cryptomythe، وتقديمُ مثالٍ مفضّل لديها، كفيل بأن يجلّيَها، فتصبح واقعا ملموسًا، ونعني بذلك المركبة الفضائية. ألم تكن مثل تلك المركبة فعلا سوى بيت اصطناعي صرف، بناه مهندسون من أوّله إلى آخره؟

لم تكن المرْكبات الفضائية التي أطلقت في الفضاء وكانت أقلّ حجما مأهولة بثلة من بني البشر، ألا ينبغي أن نرى من خلالها "نموذجا سماويا" مصغّرا يهتدي به عشاق التقنية الأرضيون؟ أيمكن لورثة ديكارت أن يجدوا أفضل من ذالك المثال على الطبيعة المضادّة؟ موادّ مؤلّفة، وبُنى ميكانيكية خالصة، وأتمتة دائمة، وتخلّص تام من الحيوانات كلّها، ومن النباتات "الطبيعية" كلّها، في مثل ذلك العالم الصغير، كلّ ذلك يسبّح بحمد القوة الخلّاقة للعلوم والتقنيات، وسرعان ما فهم الشعراء ذلك، إذ إنّ البشر سيتحوّلون هم أنفسهم إلى روبوتات بعد أن يصبح محيطهم "اصطناعيا".

لقد استشعر بعض أهل الحداثة وجود فخّ. فقد سلّموا بأنّ مكْننة العالم لا تخلو من أخطار على الإنسانية، ولكن بعدما وزّعوا على الناس جملة من النصائح المبهمة لتوخي الحذر والتحلّي بالحكمة، واستمرّوا في التهليل للأتمتة وهو ما أطلق عليه الأستاذ دوبان قوله شديد الاختصار: استمرّوا في اللعب بالنار ولكن بنباهة وحذر...

ولك على سبيل المثال هذا النص الأصلي لخاتمة دراسة قام بها سنة ١٩٧٣ لويس لوبرانس رنغي Louis Leprince-Ringuet وهو فيزيائي وأكاديمي: " لا تتنكّروا لعالمنا الحديث رغم حالة التيه والحيرة التي يمكن أن يوحي بها، إنّ هذه الآلة في أيدينا، والمسؤولية في جعلها غير ضارة، وفي تجنّب حدوث الكارثة أو السقوط في رتابة وجمود حياة مبرمجة بإفراط، ومعقّمة أكثر ممّا ينبغي، إنّما تعود إلينا. فنحن من يصنع الحياة، من أجل ذلك نحن في حاجة إلى حضور ذهني كبير، كي تدور الآلة كما ينبغي، وإلى قدرة كبيرة على التجاوز والتحابب حتّى تصير إنسانية، فبين السجن والجنة يوجد الحبّ الذي لا نهاية له"، فأنّى لنا أن نعتقد أن الحديث المتكرّر عن "اللانهاية في الحبّ " من شأنه أن يغيّر شيئا من عادات أهل الحداثة؟ والحال أنّ هذا الكلام يتضمّن اعترافًا مهمّا، فضرورة إضفاء صفة الإنسانية على الآلة، يعني أنّها لم تكن كذلك، أو كانت كذلك ولكن بصورة محتشمة جدّا، هكذا تجلّى السؤال الكبير وطرح في الآن نفسه: كيف توصّل الغرب إلى عالم آلي غير إنساني تتهدّده "الرتابة" أو قل "الكارثة"؟

لقد كان لـ "لويس لوبرانس رنغي" القدرة على الإحاطة ببعض المخاطر، ولكن معظم شيوخ الحداثة الغربيين كانوا يعارضون بشدّة جميع المحاولات النقدية، فالرأي عند الأمريكي دانيال بال Daniel Bell أنّ الشعراء الجاهلين المتمرّدين هم الذين يتخيّلون "التكنولوجيا ماحقة للثقافة"، لقد كتب يقول: "طبعا ذلك كذب وافتراء ومعاداة رومنسية ولا حداثية للرأسمالية". نبّه الأستاذ دوبان في تعليقه على مثل هذا الأدب إلى أنّ الغرب القديم لم يكن يدرك أبدا أنه يلعب الفصل الأخير من مأساة روحية شاملة، لقد كتب غوته Goetheمؤلفه فاوست *Faust* في مجلّدين، وتساءل كيني Quinet عن مستقبل حضارة "معجبة بعلمها"، ولكن النخبة في حدود سنة ١٩٩٥ خمدت خمودا تامّا تقريبا.

حتى الكلام "العقلاني" للألماني لودويغ فيورباخ Ludwig Feuerbach (١٨٠٤/ ١٨٧٢) دخل طيّ النسيان، لقد كان ذلك الفيلسوف يدعو -رغم ذلك- إلى أفكار مثيرة، إذ كانت الإنسانية قديما تعبد الإله كما لو كانت قوّة عليا تمتلك وجودا مستقلا، والحال -في رأي فيورباخ- أن ذلك كان خطأ، لم يكن الكائن المطلق سوى الإنسان ذاته، كان الغرب إذن على أبواب عهد جديد، لن تتمحور الفلسفة فيه حول الربّ (أي فلسفة لاهوتية)، وإنما حول الإنسان (أي فلسفة إناسية).

لقد تسنى لنا أن نقرأ في كتابه "ماهية المسيحية" (١٨٤١) الجملة التالية "الإنسان إله للإنسان، هو ذا المبدأ العملي الأوّل، هو ذا المنعرج في تاريخ العالم".

لقد اتّضحت لنا الرؤية فجأة: كان الغرب -بفضل معارفه وتقنياته الرائعة- قد تسلّم (أو كان بصدد تسلّم) جميع السلطات التي كانت خاصة بالإله سابقًا، فكلّ ما صنعه الإله صار الإنسان قادرًا على صنعه أو إعادة صنعه.

فمن سيجسّم في العهود الجديدة -على نحو أفضل- صورة الإنسان الإله إذن؟ يكفي أن نقرأ ما كتبه الشعراء لنجيب عن هذا السؤال، لقد وصف هونوري دي بلزاك Honoré de Balzac منذ ١٨٩٤ في مؤلّفه "البحث عن المطلق"، كيميائيا يدعى بلتزار كلايس Balthazar Claës، كان يعتقد أن باستطاعته أن ينافس الإله، وليس الكائن البشري - في رأيه- سوى آلة ينبغي تحليلها إلى فوسفات وسلفات وكربونات وإلى سوائل كهربائية، فما هو الحبّ؟ إنه بكلّ بساطة "مادة أثيرية تنبعث في الهواء"، وعندما تناهى إلى سمع زوجته ذلك الكلام ارتاعت، وقالت: "كفى يا بلتزار أنت ترعبني، أنت تدنّس المقدّسات"، لقد فهم بلتزار بالفطرة أنّ العالِم كان إلى حدّ ما ضحيّة ضرب من الجنون، ولكي يبيّن ذلك

فتح حوارا بين كلايس وزوجته، فيه صاح بلتزار قائلا: " إني لأصنع المعادن، وإني لأصنع الألماس، وأعيد ما تصنعه الطبيعة".

- فردّت زوجته وهي تصيح، وقد تملّكها شعور باليأس: "هل ستكون أسعد عندما تفعل ذلك؟ لعن الربّ العلم، ولعن الربّ الشيطان! أنت تنسى يا كلايس أنك ترتكب كبيرة العُجْب التي كان ارتكبها إبليس، إنّك تتعدّى حدود الربّ.
- آه! آه !الربّ!
- فصاحت وهي تعقد يدها: أتكفر به! الربّ يمتلك قوّة لن تبلغها أبدا.

لقد وجد الحداثيون صعوبة في فهم معنى مثل هذا النصّ بالطبع، كانوا يرون فيه مجرّد تعبير عن تديّن مضحك، بينما تكمن المسألة الحقيقية في الإفراط، فهل يحقّ للإنسان أن يشْرَع في إعادة تشكيل عناصر الطبيعة، أي في تقليد مكوّناتها على هواه من غير شعور بالمسؤولية؟

كلّ إعمال للفكر في ذلك الموضوع بالنسبة إليهم -وهم أصحاب الفكر القويّ- لا فائدة منه، وكلّما دُعُوا إلى التساؤل حول دلالات "السيطرة على الطبيعة"، كانوا يتلمّسون الأعذار ليزورّوا عنها، وعندما قام المؤرّخ الإنكليزي أرنولد توينبي Arnold Toynbee بدراسة للتكنولوجيا الغربية من وجهة نظر دينية مثلا، أعلنوا أنّ مواقفه كانت مشوبة "بالروحانية"، فكانت غير جديرة بالاهتمام، واليوم يبدو لنا أنّ ذلك المؤرّخ قد أصاب، لقد "أُلّهت" التقنية، وأُلّه التقنيون فعلا في القرن السابع عشر، ولقد كتب يقول: " لقد أخذت التقنية -وذلك قبل نهاية القرن السابع عشر- مكان الدين باعتبارها الاهتمام الأوّل والهدف الذي تتوق إليه أكبر العقول في المجتمع الغربي".

لـم يكـن ذلك ناجمًا عن "اختيار متعمّد" على حدّ قول توينبي، لقد اسـتعاض أهـل الحداثـة قبل ذلـك بكثير بصورة عفوية عن السـلطة الدينية المتهاوية بسـلطة تعدهم السـعادة والازدهار". لقد كانت المنفعة غاية في حدّ ذاتها"، وكلّ شـيء كان ملائمًـا "لتبجيـل التقنيين إلـى درجة العبادة"، لقد هيّأت المسـيحيةُ نفسـها العقولَ لذلك الانتقال في السلطة منذ بضعة قرون، فإذا كان الإله التقليدي قد اختفى فمن سيخلفه إذن؟ "بعد أن نزعت عن الطبيعة منذ عهود طويلة قدسيتها التقليدية باتت قابعة تترقّب، منزوعة السـلاح، فريسـة سهلة للإله زيوس[١] *Zeus*، الذي نجح في الاستيلاء على عرش كرونوس *Cronos* الشاعر، ثمّ أصبحت الطبيعة فريسة لتأليه إنسان القرن السابع عشر لنفسه، وكان فرض هيمنته الفعلية على الطبيعة دليلا على تحوّلـه إلـى إله حقيقي، ولقد أقام الحجّـةَ على صحّة ألوهيته المزعومة نجاحُه في أن يصبح سيد التكنولوجيا الأعظم، ولكن هل كانت النتائج في مستوى التطلّعات؟ "لـم تكـن التكنولوجيا دواءً ناجعًا للجرح النازف الذي أحدثه في جسـد الحضارة الغربيـة أبـرز عقولها الذين فارقوا في القرن السـابع عشـر أجدادهـم، ولقد اعترف الرجـل الحداثـي في الغرب بكلّ مرارة في نهاية المطـاف، أنّ ذلك العقار لم يكن دواء لجميـع أمراضـه الاجتماعيـة والروحية"، لقد أخطأ توينبـي عندما تفاءل وهو يخطّ تلك الأسـطر في الخمسـينات من القرن العشـرين قائلا: الحق أنّ الغرب لم يعترف قطّ أنه كان يسـير في طريق مسـدود، وكلّما تسـرّبت الشكوك هنا أو هناك، تدخّلت دوما شـخصية "محترمة" لتهدئة الخواطر. إنّ فكرة الثورة المضادّة للتقنية

---

(١) **زيوس** (باليونانية القديمة Ζεύς) زيوس هو إله السماء والصاعقة في الأساطير الإغريقية. نظيره الروماني هو جوبتير، ونظيره في الميثولوجيا الهندوسية هو إندرا. تكمن قوة زيوس في حكمه لقوى الطبيعة الرهيبة التي كان الإغريق يخشونها كالبرق والرعد والسماء الواسعة. (المترجمان)

عنـد الجمهور نفسـه لم تكن لديها أيّ حظـوظ للنجاح، ورغم ذلك بذل توينبي ما فـي وسـعه لينبّـه الحداثيين، فقد كتب يقـول: "لو كُتب لفولتيـر أن يبعث في القرن العشـرين فسـتكون صرخة الحرب التي سـيطلقها هـذه المرّة "التقنية هـي العدوّ"! اسحقوا تلك السافلة![1] لم تكن تلك الكلمات تبدو جديرة بالردّ عليها، ولمّا كان **الغربيون** غير واعين بأنّهم قد حوّلوا التكنولوجيا إلى دين، فأنّى لهم أن يدركوا أنّ ثمّة مشكلا روحيًا ينبغي حلّه؟

ولقد حاول فرويد أن يوقظ ضمائرهم هو أيضا، فقد لاحظ أن الإنسان أصبح "إلهًـا متنبّئًـا" إلـى حـدّ مـا، ولكن إلى أيـن كان ذلك سـيقودنا وأيّ مسـتقبل لذلك الوهم؟ كان واثقا حين قال: "لن تكون لنا سيادة كاملة على الطبيعة ما حيينا".

لم يكن أهل الحداثة يدركون الخبَل الذي أصابهم عندما ادّعوا القوّة المطلقة فقط، بل عندما تنكّروا أيضا لأمرٍ أساسي: فبقدر ما اجتهد المهندسون والتكنوقراط وغيرهم في فرض النظام والتقدّم، أصبح عالم الإنسان عصيّا على السيطرة عموما، وكانـت الأحـداث تتجـاوز الخبراء دائمـا. كان الاقتصاديون مثلا أبعـد الناس عن الفهم الدقيق لحقيقة "الأزمات الاقتصادية"، ولم يكن باستطاعة أهل الاختصاص في مجال الطاقة النووية رغم تصريحاتهم الجريئة، حلّ مشـكلات "النفايات" حلًا مُرضيًـا علـى ما يبـدو، ولقد عاينّا ذلك، إذ كان ذلك العجز نفسـه عامـا تقريبا إزاء ظواهـر مثـل المخدّرات وانحراف الشـباب وجرائم الأحياء السـكنية وغيرها، أما المواطنـون العاديـون فقد تضاءلت قدرتهم على فهم السير المـادّي والاقتصادي والاجتماعي لواقعهم اليومي.

أنتـج مثل ذلك الوضع إحساسـا بالاغتراب والخشـية، وحتّى القلق الشـديد،

---

(١) قال في القرن ١٨ التعصب هو العدو اسحقوا ذلك السافل. (المترجمان)

فكيف لمواهبنا أن تتفتّق عندما نكون فعلا غرباء في بيئتنا؟ والغريب أنّ ذلك الشكل من الإقصاء كان من النادر الإحساس به كما هو، ورغم ذلك كان ماكس فيبر قد أعدّ منذ سنة ١٩١٣ تشخيصا مفاده أنّ " الأفراد [في الغرب] ينفرون أكثر فأكثر من معرفة القواعد التي تحكم الوسائل التقنية التي يستخدمونها يوميا"، وبعبارة أخرى، كانوا كثيرا ما يلجؤون إلى المختصين بمجرّد أن تتعطّل آلاتهم عن العمل، أو عندما تكون لديهم حاجة إلى تسوية مشكل قانوني أو جبائي أو إداري وما إلى ذلك، وفي المستوى الثقافي كانت النتيجة مؤسفة، كان الإنسان "المتوحّش" -كما ذكر ذلك ماكس فيبر- أقدر على فهم أساليب السّحَرة، من الإنسان الحديث في فهمه لوسائل الخبراء والتكنوقراط، فقد كتب يقول: " كان " للمتوحّش" فكرة أدقّ حول الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تحفّ بوجوده ممّا يعرفه "المتحضّر" -بالمعنى الشائع للكلمة- حول ظروفه".

كان ذلك التحليل -على عمقه- أبعد من أن يكشف عن الآثار السلبية الشاملة "للتقدّم"، ولمزيد من الفهم ولّينا وجوهنا صوب الشعراء، فقد حاولت ماري شالّي Mary Shelly مثلا أن تنبّه الغربيين في رواية عنوانها فرانكشتاين *Frankenstein* (١٨١٨) إلى أنّهم بادعائهم القدرة على الخلق (أي أن يكونوا آلهة صغارا خالقين) أظهروا للعالم إنسانية جديدة معرّضة لأبشع أشكال الحرمان الروحي والعاطفي، ولنذكّر فقط بأنّ فيكتور فرانكشتاينVictor Frankenstein، عَمد إلى جمع قطع من جثث استخرجها من المدافن ثمّ ركّبها بمهارة، وبعث فيها داخل مُختبره "شرارة من حياة"، قصد خلق " نوع [بشري] جديد"، فصنع بذلك وحْشًا، وهو لا يجسّم صورة كاريكاتورية للكائن البشري بالمعنى الجسدي للكلمة فقط، وإنّما يمثّل كائنا إذا أخذنا التّوق إلى التشبّه به، فقدنا إلى الأبد قدرتَنا على أن نحبّ، وتلك هي الوحشية الحقيقية. إنّه ذلك الكائن الاصطناعي الذي ينحدر من الهندسة

البيولوجية لا من بطن الأم، لقد كان سقَطًا روحيا وآلة في شكل إنسان محكومًا عليها بأن تعيش وحيدة، تثير الشفقة والرعب معًا، وقد انتهى به الانتقام إلى قتل جميع الذين كانوا يعزّ على صانعه فراقهم، بل إنه قتل حبيبته خاصّة ليلة زفافهما.

إن الأمر الذي دفع العالم الشابّ إلى اللعب بالحياة بهذه الصورة، كان حماس أستاذ في الكيمياء ويدعى م. فالدمان M. Waldmann، فقد كان يرى أنّ العلم " قد حقّق المعجزات"، وسيواصل تحقيق معجزات جديدة، لقد اتخذ فرانكشتاين قراره، وذلك في قوله: "سأعبّد طريقا جديدة، باحتذاء خطى قد رُسمت من قبل، وسأكتشف قوى مجهولة وسأظهر للعالم أسرار الخلق الأشدّ خفاء"، لقد وصفت ماري شالّي بطلها بمثابةِ من تَمَلّكَهُ " مسّ أو دافع شبه جنوني لا قبل له بردّه"؛ ولكي نسبر أغوار الطبيعة ونكتشف "أسرار الحياة" كان لابدّ من القيام ببحوث مقرفة: "من يتصوّر بشاعة ما قمت به من عمل سرّي، عندما كنت أتلمّس رطوبة القبور، أمتهن قداستها، أو أخضع الحيوان الحيّ إلى ألوان من العذاب، حتّى أبعث الروح في الطين الهامد؟ إن فرائصي لترتعد اليوم لتلك الذكرى، وتضطرب لها عيناي (...) كنت أبحث عن الرّفات في المدافن، وكانت أصابعي المدنّسة تعكّر صفو أسرار الصرح البشري".

كان فكتور فرانكشتاين الضحية الأولى لطموحه، لقد فقد بصرُه " الإحساسَ بجمال الطبيعة" ولكن كان ينبغي أن تدفع نهاية الرواية خاصّة، الغربيين إلى التفكير.

وقد رأينا فرانكشتاين وقد اندفع يبحث عن الوحش إلى حدود المحيط المتجمّد، حيث لقي حتفه، وكان الوحش أيضا يروم التخلّص من حياته، إذ يقول: " لقد تلطّخت يداي بدماء قتلاي، وأصبحت فريسة لندم أمرّ من العلقم، فأنّى لي

أن أجد الراحة في غير الموت؟ (...) سألقي بنفسي في مِحرقتي الحزينة وسأكون في غاية الابتهاج أَصْلى نارا حامية".

لقد انتهت رواية ماري شالّي بمشاهد تتحدّث عن البرود والظلمة، بعد أن اقترحت في النهاية مخرج التطهير بوساطة النار، حيث تقول: "وبعد أن نطق بتلك الكلمات ألقى بنفسه من الشباك على الغطاء الجليدي المحاذي للسفينة، وبعد هُنيهة أخذته الأمواج فغار بعيدا في الظلمات".

لِمَ لَمْ يحمل الغربيون كلام ماري شالّي على محمل الجدّ؟ فتقليد الطبيعة مشروع قاتل انتحاري واحد، لقد اعتقد فيكتور فرانكشتاين الذي كان يجسّد الآلية التقنية العلمية أنّ باستطاعته أن يكون أبًا حقيقيّا، فينجب أطفالا، إذ يقول: " إنهم جنس جديد سيُسبّحون بحمدي؛ لأني خالقهم ومصدر وجودهم، وسيَدينون لي بطبيعتهم السعيدة الراقية، ولن يكون في الوجود أب أجدر منّي باعتراف ولده له بالجميل"، والحقّ أنّه لم يتوصّل من الناحية الفعلية إلاّ إلى تخليق كائن دون البشر، مشوّه جسمًا وروحًا.

إنّ ما كان ينطبق على الوحش بصورة فردية، صار ينسحب على المجتمع بأسره، أدانت ماري شالّي -من خلال إخفاقات المهندس البيولوجي- غرورَ مشاريع الهندسة الاجتماعية كلّها، لقد كانت تدعو إلى التفكّر، وإلى اختيار طريق آخر قبل فوات الأوان، والمؤسف أنّ قادة المجتمع الصناعي لم يكونوا قادرين على التراجع عن منهج فرانكشتاين، فقصارى ما أمكن لهم فعله هو إنشاء "مدينة جديدة" يُستطاب فيها العيش، وكانوا يعتقدون -مع ذلك- أنّهم قادرون على "تصريف" شؤون ملايين البشر بطريقة عقلانية.

لقد لاحظ فريق بحثنا -مع ذلك- أنّ رسالة كاري شالي تلقّفتها أصوات

قوية، وعملت على نشرها، فقد بيّن الأمريكي هارمان مالفيل Herman Melville (١٨١٩-١٨٩١) صاحب كتاب موبي ديك Moby Dick [1] بامتياز أنّ الفعالية الحديثة بأشكالها المتنوّعة تعود إلى الإبادة الذاتيّة، وكتب أيضا متوجّهًا إلى القرّاء المستعجلين، أقصوصة صغيرة عنوانها "البرج الصغير"، تجسّد بصورة ملموسة جنون الآليين. لقد حسب الإنسان التقني أنه "إله حقيقي"، ومات ضحية الأجهزة الأوتوماتيكية التي صنعها بنفسه، لقد عَمد في توطئة الكتاب إلى استعمال حِكَم وأمثال واضحة الدلالة مثل هذه: " إن العالم مصاب بسكتة دماغية لفرط ما له من طموحات لا حدود لها، وهو مرضٌ أليمةٌ نهايتُه". أو هذه: "عندما يذهب الإنسان بعيدا في البحث عن حرية أكبر، لا يقوم إلا بتوسعة مملكة الحاجة".

وقد بذل الشاعر الإنجليزي دافيد هربرت لورانس David Herbert Lawrence (١٨٨٥-١٩٣٠) كلّ ما في وسعه ليوقظ الغرب من سُباته، كانت هناك صورة عزيزة عليه تذكّرنا بنهاية فرانكشتاين، ومفادها أنّ عصرا جليديّا قاتلا يتربّص بـ"المتحضّرين"، فالتجريد والعقلنة والتأليه، تلك الشياطين المثلّجة كانت قاتلة كلّها، لقد لجأ لورانس مرارا عديدة إلى مفاهيم الوحش والوحشية ليتحدّث

---

(١) هي رواية من تأليف الروائي الأمريكي هيرمان ملفيل صدرت في ١٨ أكتوبر ١٨٥١، وتدور حول صراع تراجيدي بين حوت وإنسان تتخذ من هذا الصراع الحضاري وسيلة لتأمّل الوضع البشري وعلاقته بالوجود. وتحوّله إلى كيان رمزي معقّد وحكاية عن كيفية العيش وعن المشروع الأمريكي الذي وجد في عمل ملفيل شكلاً من أشكال التعبير عن نفسه في منتصف القرن التاسع عشر أي حين كانت أمريكا تكتشف ذاتها باعتبارها قوة عالمية وإمبراطورية إمبريالية أمريكية بقوّتها وإمكاناتها المادية. فكانت رواية موبي ديك وروايات ملفيل الأخرى بمثابة نبوءة لما ستصير اليه هذه القوة الكامنة. (المترجمان)

عن العالم الحديث، كما لاحظ ذلك المؤرّخ كريس بالديك Chris Baldick فلم يتـردّد مثلا في الحديث عن " الوحشـية الميكانيكية **للغرب**"، فالديمقراطية نفسـها باتـت آليّـة، ولقد وصف بنياميـن فرانكليـن Benjamin Franklin وهو الأنموذج المثالـي للفضائل البورجوازية- بأنّه "ذلك الإنسـان الآلـي الصغير الذي لم يعرف العالـم أجمـل منه قـطّ". كان رجل أعمـال خارقا للعادة، وأما باعتباره إنسـانا، فلم تكن "وحشـيته أقلّ تميّزا، وذلك لأنه كان ببسـاطة نتاجًا خالصًا للإرادة الإنسـانية، وأكّد لورانس أنّ فرانكلين -من هذا المنظور- يشـبه فيكتور فرانكشـتاين، وشـأنه شـأنُ ذلك الوحش، فقد كان شـيئا مصطَنعًا، رُكّب بطريقة عقلانية، ولكنّه كان في النهاية ناقصًا مقطوعًا عن الحياة الحقيقية.

ليسـمح لنـا القارئ تأكيدنا هذه المسـألة اللفظية: فقد اعتـاد الغربيون على مرّ السـنين علـى التطبيـع مع الآلة، إلـى درجة أنهم لم يعد باسـتطاعتهم فهـم ما تعنيه كلمة "متوحّش" لدى لورانس، فعندما أضافوا إلى الطبيعة، أو اسـتبدلوا بها ضديد الطبيعـة، كانت لديهم نيّـة تخليصها ممّا علق بها من نقائص، وجعْلها أكْمل، اذ لم يدركـوا انّ حرصهـم علـى بناء عالـم اصطناعي، يمكـن أن يفضي إلـى" فظاعات" حقيقية، وقد كانت رسالة ماري شالّي ود. ه. لورانس بسيطة مع ذلك، فالمختصون في الهندسـة البيولوجية والهندسـة الاجتماعية لن يخلقوا إنسانًا أرقى أو سوبرمان تكنولوجي، وإنّما سيخلقون "الوحش الأرقى"، نعني بذلك "إنسانا متوسّطا" نُزعت منه روحـه، وخضع للضبط السـيبرنيطيقي Cybernetic وللنزوات الدنيا لمجتمع الاستهلاك.

الحقّ أن المشروع قد فشل، ويبدو أن أنصار التقدّم قد أخطؤوا تقدير قواهم، وهو ما جعل الضغوط وألوان الحرمان تصل إلى حدود لم تعرفها قطّ قبلَ ما كانوا

يسمّونه "الجسم الاجتماعي" عشية **الانفجار الأكبر**، فالغرب بين أمرين لا ثالث لهما: فإمّا أن يعترف بأنّه قد ضلّ وأضلّ، فيبتكر نمطًا آخر للحياة، وتصوّرا آخر للإنسان، وإمّا أن يتعنّت ويحكم على نفسه بالموت ثقافيّا، ونحن نعرف بقية الحكاية. ولمّا كان أهل الحداثة يرفضون كلّ استحالة، ولمّا صمّوا آذانهم عن سماع كلّ مطالبة روحية، كان السقوط أمرا لا مفرّ منه، ولقد صاغ الأستاذ دوبان هذه المصادرة البعدية قائلا: "وكان العنف هو المخرج الوحيد".

V - الإنسان العالم

«لا يمكن أن نتخيّل كلّ ما في العلوم من موت ومن قتلة».

غوتة Goethe

«علينا أن لا نتّخذ العلم لهْوا؛ لأنّ العلم مناسبة تقال فيها عادة أكبر الحماقات دون أن يدرك جمهور الناس ذلك».

كلود برنار Claude Bernard

«إنّ الشعوذة العلمية تجلب معها من الأوهام المضحكة ومن التصوّرات الطفوليّة ما يجعل الشعوذة الدينية نفسها -إذا ما قورنت بها- تخرج منتصرة عليها».

أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci

«إن عصر انتصار العلم هو أيضا عصر الخطر المطلق وعصر اللامعنى وعصر التفاهة: لقد تُوّج الجري وراء العقلانية (صفة ما هو عقلاني) بتصاعد فوضويّ للمعرفة بمفهومها الأداتي الضيّق».

جون جاك سلامون Jean-Jackes Salomon

هل ينبغي الذهاب إلى أبعد من ذلك؟ لقد حاول فريق بحثنا الاكتفاء بما وصل إليه، ولقد لاحظ أن الغرب قد فوّض أمره بصورة نهائية إلى التجّار والمقاولين والصيارفة والمهندسين والخبراء والتكنوقراط، وهي لعمري موازنة مخيبة للآمال، فقد استحال تاريخ الحداثة في النهاية إلى تاريخ عناد جماعي إلى حدّ ما، ولم يكن ثمّة ما يستحقّ الفهم. وهل كان بإمكاننا أن نقول المزيد حول تلك الثقافة المزيّفة؟

لقد تذكّرنا عندئذ كلمة قالها الأستاذ دوبان: " كان من أكثر الشخوص إثارة للاستغراب في **الغرب** العالِم أو رجل العلم؛ لنقلها بصراحة لقد لعب على جميع الجبهات وقد انخرط من جهة في الثقافة البورجوازية، وعلى وجه التحديد في المركب العسكري-الصناعي وقد اختار أن يجسّد برغبة منها **العقل الخالص**، بل الفكر المعلِّم في العصر الحديث من جهة أخرى. كان ينبغي أن يأتي يوم يراجع فيه السبب وراء ما كان رجال العلم يتمتّعون به من وقار يبدو لنا اليوم مبالغًا فيه؟ ماذا كان يعني العلم في مجتمع الاستهلاك؟"

لم يكن الأستاذ يستنكف من الاستدراك انسجاما مع ذاته، لقد لفتت ملاحظته نظرنا إلى مسألة قد أهملناها من قبل، ولقد سجّلنا في مرات عديدة -كما تشهد على ذلك الفصول السابقة من هذا المؤلَّف- دور العلم والمؤسسات العلمية، ولقد اخترنا أن نعتبر الفكر العلمي -على سبيل المثال ووفق تقاليد الغربيين أنفسهم- أفضلَ تعبير عن "العقلانية"، بل لقد تحدّثنا حتى عن الروابط الوثيقة بين البحث العلمي والتطوير الصناعي، ولكنّنا أبقينا على عدّة مسائل مهمة بعيدا عن

دائـرة الضـوء، فقد أهملنا على وجـه الخصوص الاسـتخدامات المتنوّعة لمفهوم "العلم" عند **الغربيين**.

فـي بعـض الحالات كان للكلمة معنى جليّ (مثلا عندما تسـتعمل لتشـير إلى التقدّم الذي أحرزته المعارف المتعلّقة بالظواهر الكهربائية أو البيولوجية)، ولكن فـي حـالات أخـرى، كان من الصعب جدّا معرفـة العلم المـراد الحديث عنه. لقد كتـب مارسـولان بارتلـو Marcelin Bertelot يقـول مثـلا متحدّثـا عـن "المزاعم المشـروعة" لـ"العلـم": " إنّـه يريد اليوم في آن واحد أن تكون له إدارة المال ونشـر المعرفـة وتوجيـه أخـلاق المجتمعـات"، ولا يتعلّـق الأمـر بداهةً في هذا السـياق بمجرّد علم كالفيزياء والكيمياء، وإنما يتعلق بعلم شـامل متعدّد الوظائف، شـديد القوة (حتى لا نقول متسـلّط)، " إن العلم يهيمن على كلّ شـيء، وهو وحده الذي يقدّم خدمات نهائية".

كان لذلـك التحـوّل فـي المجـال الثقافي نتائج عديـدة، فالعالِم لـم يعد ذلك الباحـث المتواضـع الصبـور المنكبّ علـى مِجهره، لقـد أخذ أبعاد **القائـد العظيم والمنسّـق الكبير** والحَبْر الأصيل. لقد فهـم مارسولان بارتلو Marclin Berthelot العلم على ذلك النحو، وأسند إليه وظيفة تاريخية حاسمة، فقال: "صارت الحضارة الحديثة بباعث من العلم تسـير بخطى أسـرع فأسرع"، وغامر إلى حدّ أن بلغ تُخوم ضـرب مـن ضروب الهذيـان الطوباوي، فقال: "مـن أجل ذلك سـيتواصل التفوّق الكوني للعلم إلى تأمين أكبر قدر ممكن من السعادة والصلاح للناس".

لقد استخدم هذا العالم في بعض نصوصه معجمًا من النوع الديني، ففي رأيه ينبغـي أن تكـون الكليـات بمثابة معاهـد إكليركية للتعليـم الثانوي يديرها أسـاتذة علمانيون»، وبفضل العلم تكون السياسة -في رأيه- «تجريبية». علينا أن نشير إلى

أنّ هـذا الداعيـة البـارز كان لـه عظيـم الأثـر بفضل مـا كان له من وضـع اجتماعي مرمـوق، فلـم يكتـف بالحصـول على مقعـد فـي الكوليـج دي فرانـس[1] بل كان سـيناتورا قـارّا ووزيرا في فترتيـن وعضوا فـي الأكاديمية الطبيـة وأكاديمية العلوم والأكاديمية الفرنسية أيضا.

ولكي تَفهم وضعا مثل وضع بارتلو حسْبُك إعادة قراءة كلود هنري Claude-henri لسـان سـيمون، لقـد كان يتمنّـى أن يعـوّض العلمـاء إكليـروس[2] العهـد الإقطاعي، وينبغي على العلم -في رأيه- أن يمثّل "سلطة روحية" جديدة، إذ بدا له أنّ المسـار قـد انطلق من القرن التاسـع عشـر بصـورة جلية، حيث يقـول: " توجد شـواهد بـارزة لا يرقـى إليها الشـكّ، تبرهن على أنّ الشـعب يولي للـرأي الجامع للعلماء درجة الثقة التي كان يودعها في **العصر الوسيط** لقرارات السلطة الروحية". لقـد بـدت لنا مثل تلك الإشـارات مجديـة جدّا، إذ أكّـدت أنّ الثقافـة الغربية التي كانت تتشدّق بالعقلانية قد أسّست لدين (أو شبه دين) العلم.

---

(١) **الكوليج دي فرانس** (بالفرنسية Collège de France) هي مؤسسة فرنسية تختص بالبحث العلمي والتعليم العالي مقرّها في المنطقة الخامسة بالحي اللاتيني بباريس. وتهتم الكوليج دي فرانس بالبحث العلمي أساسا. وتنهض بالتدريس أيضا ولكن في مستوى الباحثين وطلبة الدراسات العليا. (المترجمان)

(٢) **لإكليروس** هو النظام الكهنوتي الخاص بالكنائس المسيحية. ولم يظهر هذا النظام إلا في القرن الثالث الميلادي وتتّفق الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مع الكنائس الأرثوذكسية في درجات النظام الكهنوتي، غير أنّ البابا في الكنيسة الكاثوليكية يتمتع بسلطات أعلي من نظيره في الكنيسة الأرثوذكسية. أما البروتستانت فلا يعترفون إلا بدرجتين فقط من درجات هذا النظام وهما (القس والشمّاس) في الكنيسة البروتستانتية حيث يمتنع رجال الإكليروس في الكاثوليكية عن الحقوق الزوجية التي يترتب علي مخالفتها العقوبات الصارمة، بينما لا تعترف الكنيسة البروتستانتية بذلك أما في الكنيسة الأرثوذكسية القبطية فيحظر الزواج على البطريرك والراهب فقط. (المترجمان)

واليوم طبعا فاجأتنا عبارة سان سيمون بعض الشيء، ذلك أن الغرب الحديث قد أظهر -كما تسنى لنا أن نلاحظه في غير مناسبة- رداءة لا تغتفر في ما يتعلّق بالحياة الروحية، إذ لم تعد كلمة "الروحانيات" نفسها مفهومة، وكان إذن من المضحك (المبكي) تحويل العلم إلى سلطة روحية، ولكن الغربيين تمادوا في غيّهم إلى أن حدث **الانفجار الأكبر**، فكانوا يتوجّهون إلى رجال العلم دائما ليلتمسوا منهم دروسا في الميتافيزيقا وفي السياسة وفي الأخلاق، وسنقدّم فيما سيأتي أمثلة على ذلك، ولكن قبل ذلك، ولمزيد البيان، علينا أن نُنْعِم النظر في الظروف الواقعية التي حفّت بتشكّل العلم الحديث، ونعني بذلك **العلوم التجريبية**.

الحقّ أنّ العلوم الأنجع والألصق بالعالم الغربي، (مثل الميكانيكا والفيزياء والكيمياء وبعد ذلك علم الأحياء) لم تنزل من السماء، لقد تكوّنت في دوائر المهندسين والتقنيين الذين أفضنا في الحديث عنهم في الصفحات السابقة، وهو جانب لا يمكن تخيّل مدى أهميته الثقافية؛ ذلك أن الغربيين كانوا يثيرون مسألة "الثورة العلمية" في القرن السابع عشر (ديكارت، غاليلي)، وكان يروق لهم تأكيد طابعها "العقلاني" الفلسفي، وكانوا ينزعون إلى التصوّر بأنّ العلم الحديث جاء ليستجيب لحاجة وحيدة، ألا وهي اكتشاف الحقيقة.

ولقد قال ذلك ألكسندر كويري Alexandre Koyré أحد المختصين في تاريخ العلوم الذين استجابوا دون قيد لذوق العصر بلسان لاتيني: " العلم هو قبل كلّ شيء توجّه للفكر نحو الحقيقة، ويعني ذلك وجوب اعتباره مستقلا (أو شبه مستقلّ) عن الأنشطة العملية عامة، وعن التقنيات على وجه الخصوص، ثمّ أضاف: أمّا إذا ما أردنا التفكير بصورة معاكسة، فإننا سنسقط في " الأحكام المسبقة الباكونية أو الماركسية"؛ لذلك كان تاريخ العلوم يُمجّد ويُتغنّى به: "إنه يكشف لنا

عن العقل الإنساني في أبهى تجلّياته، في بحث مستمرّ متجدّد أبدًا، لا يرضى بما يحققه عن هدف كلّما دنا منه أفلت ألا وهو بلوغ الحقيقة". إنّ مثل ذلك التصوّر يقودنا مباشرة إلى فكرة مفادها أنّ العالم أضحى كاهنًا بوجه من الوجوه، وإلى إعلاء العلم بطريقة غير مباشرة إلى مرتبة السلطة الروحية، لقد أتيح للبورجوازيين أن يفخروا على أيّة حال، فقد ساعفهم الحظ والمجد -تجارًا ومهندسين- باكتشاف الطريقة المثلى الوحيدة الصحيحة، وهي تلك التي ستكشف لهم عن أسرار الطبيعة؛ من أجل ذلك كان يروق لهم وصف علمهم بالعلم الخالص. لقد خلُص فريق بحثنا إلى استنتاج مختلف تماما، فلكي نفهم أبعاد "العلم"، كان حريّا بنا أن نؤوّله باعتباره نجاحًا محمودا لعبادة الآلة، وهوَسا بالنجاعة على وجه العموم.

كان العلم القديم (عند اليونانيين مثلا) تأمّلا في الأصل، وفي اللغة اليونانية كانت كلمة "نظرية" تعني التأمّل تحديدا، فالمعرفة تكمن في اكتشاف نظام العالم والتمتّع بتلك النظرة. لماذا كانت الآلهة سعيدة؟ لأنّها كانت تغرق في تأمّلات لا نهاية لها؛ ولكي يبلغ البشر قِمَم السعادة، كانوا مطالبين بالاجتهاد في اتّباع ذلك المثال، وبحسب أرسطو كانت السعادة والتأمّل كلمتين مترادفتين، فقد كتب يقول: "بقدر ما نمتلك القدرة على التأمّل نكون سعداء، لا بموجب حادث عرضي، وإنّما بمقتضى التأمّل ذاته؛ لأنّ التأمل في حدّ ذاته أمر مهمّ للغاية، ونتيجة ذلك أنّ السعادة لا تعدو أن تكون ضربًا من ضروب التأمّل".

إنّ ما كان يميّز العلم التجريبي على وجه التدقيق هو رفضه تلك الفلسفة التأمّلية، وكلمة السرّ هي الفعل، ونحن نعلم أنّ ديكارت كان يُعَدّ العقل المدبّر لتلك "الثورة" (عرضنا فيما سبق بعضا من نصوصه التي تفتّقت قريحته فيها عن

المعرفة الناجعة)، لقد تحدّدت معالم التوجّه العلمي البورجوازي بكلّ دقّة: فبينما كان القدامى يهيمون في تأمّلات لا فائدة منها، كان أهل الحداثة حريصين على إقامة معارف تطبيقية تمكّن من تطوير التقنيات وتعزيز سلطة الإنسان بصورة متواصلة، فقد صيغ المشروع "العلمي" -من وجهة النظر الثقافية- وفق مقاربة أبعد ما تكون عن الأرسطية وعن الشعر، وكأنّ ديكارت يقول بأنّ من واجب البشر الاجتهاد قصد الوصول " إلى معارف تكون مفيدة جدّا لهم في حياتهم"، بفضلها يكونون "بمثابة سادة للطبيعة مالكين لزمامها"، ولقد تحدّث الإنكليزي فرانسيس باكون Francis Bacon قبيل ديكارت بما يشبه ذلك كثيرا، فكان هو أيضًا يأمل في تطوّر علمي يؤدي إلى بلوغ الحقيقة، ومن ذا الذي لا يتمنى الحقيقة إذن؟ ولكن ذلك لم يحُلْ دون تأكيدهم وإعادة تأكيدهم بأشكال مختلفة الفكرة الأساسية التالية: " إنّ الهدف الحقيقي والمشروع للعلوم لا يعدو أن يكون تزويد الحياة الإنسانية باختراعات وصور جديدة".

ولقد سلك الغرب فعلا تلك السبيل، فأنشأ علوما غايةً في الواقعية، كانت تتجسّم في شكل نظريات، وتتحوّل أيضا إلى وسائل عملية، بذلك يكون حلم المهندس ليونار ديفنشي قد تحقّق: فبفضل دراسة ذكية للطبيعة يصبح الاستعمال الأمثل للقوى الطبيعية أمرًا ممكِنا، وكما كتب ذلك ليونار حين قال: "العلم هو القائد والتطبيقات هي جنوده"، ولكنّ الجنود لم يكونوا إلا المهندسين الغربيين، وينبغي على العلم الذي هو في حاجة ماسّة أن يتحدّث إذن ذات اللغة التي يتحدّثون، وهذا هو الشرط الوحيد الذي تتحقق به تلك الاختراعات الشهيرة التي شغلت نُخَب الغرب فعلا منذ بضعة قرون، فما الحقيقة والمنفعة سوى شيء واحد، ومن المؤكّد أنّ العلم لا يكون نافعا إلا إذا كان حقيقيّا، والعكس صحيح بالضرورة، فما يؤسس لحقيقة علم من العلوم هو مدى انتفاع الناس به، ولنا في

ذلك شهادة لأحد أكبر عقول القرن السابع عشر، هو لايبنيتز Leibniz، إذ قال: "إنّ أهمية العلم الحقيقي والعلامة الدالة عليه تكمن -في رأيي- في الاختراعات المفيدة التي يفضي إليها"، فـ"العلم الخالص" الذي كان يُمَجَّد يبدو -إذا ما نظرنا إليه عن قرب- أقلّ نقاوة وأقلّ حيادًا ممّا كان يزعم بعْدُ أواخر القرن العشرين كثيرٌ من العلماء والفلاسفة.

كان الغربيون يتحدّثون عن "العلم" في إشارة منهم إلى العلم الحديث(أو العلم التجريبي) بفخر، وكانوا يحتقرون في الآن نفسه بطريقة واعية أو غير واعية، العلومَ التي أقامتها الحضارات الأخرى، وواقع الحال أنّ علمهم كان علمًا من بين علوم أخرى، أي مؤسسة نشأت تاريخيًا، وصُمّمت استجابة لأهداف نوعٍ من أنواع المجتمعات وحاجاتها. فهل نسوا على وجه الخصوص إلى أيّ حدّ كانت مناهجهم وخططهم المعرفية متجذّرة في الممارسات التقنية والصناعية؟ بهذا السؤال لمسنا نقطة حساسة من الثقافة الغربية: وهي أن المؤرّخين عندما تناولوا مسألة نشوء العلم الحديث كانوا يمتنعون عن تأكيد الدور الحاسم الذي نهض به المهندسون. ولكن الى جانب المؤرّخين وُجِد بعض الخبراء الذين حاولوا أن يبلّغوا أصواتهم التي مفادها أنّ التقنيين هم الذين أنضجوا الفكر التجريبي. وسواء أكان ذلك في مجال الميكانيك أم علم المعادن أم الطاقة المائية أم علم القذائف، فقد ابتكروا وقارنوا وحسبوا، ولا شكّ في أنّ الطريق كان طويلا، فما بين "المهندسين" الأُوَل الذين سطّرنا تاريخهم فيما سبق، والبدايات الحقيقية للعلم التجريبي، مضت قرون عديدة، ولكن -كما قال بارتراند جيل Bertrand Gille- إن فهم الثورة العلمية يكاد يكون مستحيلًا إن نحن فصلنا تاريخ العلوم عن ذلك الذي يتعلّق بالتقنيات، وفي المستوى الثقافي كان المنظرون والتطبيقيون يحملون المشروع نفسه، ألا وهو فهم الطبيعة بطريقة أحسن حتى يتسنّى لنا السيطرة عليها

بطريقة أفضل واستغلالها بكيفية أنجع، وكان الأشخاص أنفسهم هم الذين يمارسون عادة التطبيق والتنظير". كان معظم العلماء من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر وحتى القرن التاسع عشر تقنيين". لماذا إذن أصرّ أهل الحداثة على عبادة علومهم كما لو كانت منفصلة انفصالا جذريًا عن التقنيات وأرقى منها من حيث جوهرها.

ولْنُسلّم أنّ النظرة التي يلقيها بعض العلماء على العالم تبدو محايدة تمامًا، إذ كان عالم النبات وصياد الفراشات على سبيل المثال يُعَدّون لدى أهل الحداثة من الوجوه الثقافية القديمة إلى حدّ ما، ولكنّها محبّبة لديهم، ومتحلّلة من كلّ علاقة مباشرة بالعالم التقني والصناعي. ألم تكن رغبتهم الوحيدة إظهار روائع الطبيعة للناس، ويعتبر علم الفلك مثال أعمق دلالة، إذ يعتبر فعلا هذا الاختصاص امتدادا لتقاليد تعود على الأقل إلى الكلدانيين، أَوَلَمْ يرتبط في الأذهان بشيء من القداسة؟ ألا نلتمس في خطاب أصحاب المناظير (الفلكيين) معارف عن أسرار الكون تقشعرّ لها الأبدان إيمانا؟ لم تخْلُ تلك الاعتبارات من كلّ دلالة، فذلك يحمل على الاعتراف بالتواصل بين اهتمامات الفلاسفة التأمّليين القدامى، وتلك التي تحرّك رجال العلم الجدد. إن الفروق بصورة عامة ليست ذات بال، ولمّا نُزعت القداسة عن **العالم** الذي طالما تحدّثنا عنه، حدث زلزال ثقافي هزّ أركان **الغرب**، وبعبارة سان سيمون إن الثورات السياسية تصاحبها عادة ثورات علمية، بذلك رافق ظهور المجتمع الصناعي تنقيح عميق للمعارف، فقد عرفت فكرة العلم في حدّ ذاتها تطوّرا عميقًا، ثمّ صار ذلك كلّه اليوم عندنا أمرا بديهيًا، فأن تُمارِس نشاطًا علميًا في **الغرب** الحديث يعني أن تُمارِس الآليّة أساسًا.

وبقدر ما يكون الاختصاص العلمي حديثا يكون آليّا، أكان يمكن أن يكون

الأمر على خلاف ذلك في مجتمع يتبنى صورة الآلة بمعناها الحرْفي؟ ولْنتذكّر أنّ الإله نفسه تحوّل إلى مهندس عظيم، وما العالم الذي أبدعه إلّا ساعة كبيرة، فالمهمّة المثالية للعلماء قد تحدّدت بصورة كاملة، إذ ينبغي عليهم اكتشاف كيفية اشتغال تلك الآلة الرائعة، ومن ذلك المنظار لم يكن الإنسان العالم سوى نسخة راقية من الإنسان التقني.

وسرعان ما أضحت فكرة الإله المهندس بدورها فكرة مهجورة فعلا، فلماذا اللجوء إلى تلك الصورة الخيالية؟ إذ لم يكن متاحًا ملاحظة وجود مثل ذلك الإله بصورة مؤكّدة فعلا؛ لذلك بيّن عالم بارز جدا يدعى بيار سيمون دي لابلاس Pierre Simon de Laplace (١٧٤٩-١٨٢٧) لنابليون أن فرضيّة الإله الخالق لا يرجى منها أيّ فائدة.

ويرى بعض المؤرّخين أن تلك القصة مطعون في صحّتها، غير أنّ الفكرة في حدّ ذاتها كانت صحيحة، فالعلماء الحداثيّون في غنى عن التأمّلات الشعرية والدينية.

كانت عقيدتهم الوحيدة التي بها يحيون تقول إنّ الكون آلة، وكان لمؤلَّف لابلاس المكوّن من ثلاثة مجلّدات الصادر بين سنتي ١٧٩٩-١٨٢٥ عنوان في غاية الوضوح هو: كتاب ميكانيكا السماء، فالسماوات لم تعد تحكي قصصا تمجّد الإله، وإنّما تلك التي كان أبطالها مهندسين، وبعد أن مكْننوا الأجسام اللامتناهية في الكبر، يتوجه الخبراء إلى مكْننة اللامتناهي في الصغر أيضا، في مرحلة متأخرة بفضل الميكانيكا الكمية.

كان الغربيون - مع ذلك- يرفضون الاعتراف بأنّ «علومهم» تؤكّد بطبيعتها تفوّق التقنيين؛ لذلك كانوا على وجه العموم يقدّمون نشأة العلوم التجريبية بطريقة

ماكرة تجانب حقيقتها، فعِوَضا عن التطرّق للروابط الوثيقة التي جمعت منذ البداية تلك العلوم والأنشطة التقنية، كانوا يحجبونها(و يخفونها إخفاء تامّا أحيانا)؛ لذلك كانت كتب عديدة تتحدّث عن غاليلي ولا تشير حتى مجرّد الإشارة إلى أنشطته باعتباره مهندسًا، وكان من غير اللائق التذكير بأنّ لذلك الأب المؤسّس والممجّد كتابا في الهندسة المعمارية العسكرية، وكتاب الميكانيكاالذي خصص فيه نصيبًا وافرا لـ»منافع الآلة»، ولم يكن غاليلي أستاذا فحسب، بل كان مهندسا بل مخترعا أيضًا، ويعود إليه الفضل خاصة في صنع آلة تستخدم في رفع الماء وفي صنع «فرجار (بركار) هندسي عسكري» يتيح للقاذفين ولبعض الخبراء الآخرين القيام ببعض الحسابات بسهولة.

إنّ تلك الآلة (الفرجار (البركار)) «عملية جدّا إلى حدّ أنّ استعمالها قد انتشر وعمّ حتى شُرع في استخدام الجداول اللوغراتمية التي تأسست على مبدأ مختلف تماما»، كما بيّن ذلك المؤرّخ الإيطالي لودوفيكو جايمونا Geymonat Ludovico. ولكن هناك ما هو أهمّ من ذلك، نعني أنشطة الميكانيكيين والمتمرّسين الآخرين، تلك التي أوحت إلى غاليلي بابتكاراته العلمية الأكثر "حداثة". فأن تطبّق علمًا تجريبيا (باختصار شديد)، يعني أن تخلق وضعيات "اصطناعية" (وتسمى وضعيات تقنية)، فيها تُتاح دراسة الظواهر الفيزيائية بدقّة صارمة.

كان ذلك يقتضي حقّا إمعان الفكر وتبنّي أفكار نظرية وصياغة فرضيات، ولكن كانت الإضافة الكبيرة تكمن في المنهج المتوخّى لاختبار تلك الفرضيات، وكانت رسالة غاليلي في هذا الجانب بالذات تتلخّص فيما يلي: ينبغي استخدام الموارد التقنية للقيام بتجارب آلية دقيقة بوساطة الأجهزة المعدّة لذلك سلفا، فإذا أردنا مثلا دراسة "الحركة في الفراغ"، فإن غاليلي قد وصف لنا إذن جهازا تجريبيا،

ويعني ذلك آلة تتكوّن من اسطوانة ومِكبس وبعض الأدوات الأخرى، وبيّن كيف يمكننا استعمالها للوصول إلى "نتائج علمية".

يجدر بنا أن نشير بسرعة (دون خوض في التفاصيل) إلى أنّ مشكلة "الحركة داخل الفراغ" تمتدّ جذورها هي ذاتها إلى أعمال التقنيين: لماذا لا تستطيع المضخّة أن ترفع الماء إلى ما يفوق الثمانية عشر ذراعا؟ من المؤكّد أنّ ذلك العلم لا يمكن فصله عن التكنولوجيا؛ لأنّه ولد في حضرة المهندسين، واستعمل موارد الهندسة، وكان مؤهّلا لتحسين التقنيات الموجودة.

ولقد انكبّ غاليلي على القيام بأعمال عديدة في علم الفلك من جهة أخرى، وكان مجال عمله مرتبطا هذه المرّة بالتقاليد التأمّلية، (أي بيان أسرار التناغم الذي يميّز الطبيعة)، ولكن إضافته الأساسية كانت من صنف مختلف تماما، كما أشار إلى ذلك بإصرار الأستاذ دوبان، إذ كتب يقول: " إنّ مهمّة غاليلي الحقيقية تتمثّل في إنشائه العلومَ التقنية التي كان الغربيون يحلمون بها وينتظرونها منذ زمن بعيد، ونعني بذلك علمًا تجريبيًا محضًا منفصلا عن كلّ أفق روحي، يلائم بذكاء بين العوائد الذهنية والحاجات المادية للبورجوازيين المحدثين".

ويكفي للتأكّد من ذلك أن نفتح أكبر مؤلّف لغاليلي صدر في يوليو من سنة ١٦٣٨ وفيه خطاب يتعلّق بعلمين جديدين، كان ذلك الكتاب يتضمّن حوارا بين ثلاثة متحاورين يسمّى أحدهم سالفياتي Salviati ويمثّل غاليلي نفسه. وانظر كيف تحدّثت تلك الشخصية في بداية الكتاب "يا لها من فسحة كبرى للتفكير يمكن أن تتيح للعقول المتأمّلة التردّد الدائم على مصانع أسلحتكم أيها الفينيسيون الأفاضل، واذكر على وجه الخصوص جناح"الأعمال الميكانيكية، ففيه يشغّل عدد كبير من الحِرفيين أنواعًا عديدة من الأدوات والآلات على نحو مستمرّ، سواء

انطلاقًا ممّا ورثوه عن أسلافهم، أو من تلك التي كانوا يصنعونها هم أنفسهم باستمرار، والذين قد جمعوا أساسًا بين أعلى درجات المهارة وأعلى مراتب النباهة"، لقد أعلى غاليلي منذ البدء المسار الذي اختاره لنفسه، فهو أيضا سيحرص على أن يكون فكره "نافذا"، وأن يستخدم بطريقة أفضل مواهب الميكانيكي الملاحظ لديه، والأفضل من ذلك كلّه أنّ أوّل العلمين الجديدين اللذين أخرجهما للعموم كان مثالا نموذجيا لعلوم المهندسين، ألا وهو صلابة الموادّ، ولقد ذكر موريس كلافلين Maurice Clavelin، وهو مؤرّخ للعلوم في تعليقه على هذا النصّ -وكان محقّا- أنّ " التقنية حاضرة في بداية البحث، وتمثّل أيضا نهايته الطبيعية"، وبعبارة أخرى لو كُتب لغاليلي أن يعيش في القرن العشرين لكان قام ببحوثه تلك في إحدى مراكز شركة كبرى، أو في مكتب دراسات إحدى الورشات البحرية، فلقد حَرَص بالفعل على إيضاح الفائدة العملية من عمله بالاشتغال بصلابة العوارض (في مجال البناء) فكتب يقول: "نرى إذن هنا كيف يمكننا تقليص كتلة العوارض بأكثر من الثلث (٣٣%) دون أن ننقص من صلابتها وهو أمر لا يُستهان بفائدته بالنسبة إلى السفن ذات الحجم الكبير، وخاصة منها تلك التي تخصّص لحمل الجسور، فالخفة في مثل تلك البناءات لها أهمية قصوى".

كانت المؤلّفات الموجّهة إلى الجمهور العريض تتعمّد إثارة ذلك الجانب واستخلاص دلالاته في الأحوال كلّها، وكان أوّلُ "علم جديد" **للغرب** علمًا للمهندسين، أي علما تطبيقيا، أو علما تقنيا. وكان من الأفضل إظهار غاليلي في هيئة **العالم الكبير** والمنظّر النبيل. انصبّ الاهتمام إذن على العلم الثاني، ذلك الذي يتعلّق بمسار القذائف، وبذلك كان من اليسير -لأوّل وهلة على الأقلّ- التغني بعلم خالص، فأن تَدْرُس جسمًا متحرّكًا في الفضاء، هو أن تدرس علم الحركة أو "الميكانيكا العقلانية"، لقد صار متاحا دغدغة الأماكن الأكثر تأثرا في

الفكر البورجوازي بفضل تناول مثل ذلك المبحث، ولكن العلم الثاني كان -رغم تألّقه- يُقَدَّم هو ذاته في علاقة وثيقة بالمجال التطبيقي وبالمدفعية على وجه الخصوص، ولقد أدرك غاليلي مثلا أن المدى الأقصى لمدفع أو لقذيفة، قد تمّ التوصّل إليه بارتفاعٍ قدره ٤٥ درجة.

وحتى نتفادى كلّ الْتباس، كان غاليلي منظّرا بارزا، ولكن كان المنحى التقني ملموسًا في تفكيره كلّه، بما في ذلك علم الفلك، كما ذكر لودوفيكو جيمونا Ludovico Geymonat. وكانت أكثر اكتشافاته شهرة في ذلك المجال تلك التي تتعلّق بكوكب المشتري، وهو اكتشاف محض في ظاهره. ولكن إن كان غاليلي قد حاول أن يقيس بدقّة زمن كلّ كوكب، فإنّ ذلك لم يكن بدوافع نظرية خالصة، بل كان يعتقد أنّ تلك المعطيات تتيح لكلّ مُلاحظ تمرْكَزَ في أيّ نقطة من الكرة الأرضية تحديد خطّ طول موقعه عليها أيضا، وكان لذلك المنهج فوائد جمّة لمن يبتغي ركوب البحر، من أجل ذلك توجّه غاليلي برسائل إلى حكّام كثيرين (إلى ملك إسبانيا على وجه الخصوص) يحثّهم فيها على الاهتمام بذلك المشروع "العلمي التطبيقي"، ولكن دون جدوى؛ لأنّ تلك الطريقة بَدَتْ لهم غاية في التعقيد ولا يرجى تطبيقها. كان غاليلي لا يفوّت فرصة دون أن يحاول إيجاد تطبيقات عملية لأعماله، وهو لعمري أمرٌ ذو دلالة.

من المؤكّد أنّ مصلحة **الغرب** كانت تقتضي التفكير في ذلك واستخلاص العبرة منه، ففي إطار العلم الجديد، يُنظر إلى كلّ اكتشاف (حتى وإن كان ذا بعد علمي خالص) باعتباره مصدرا من مصادر التجديد التقني، ينبغي استغلاله في ابتكار تقنيات جديدة، وخير مثال على تلك الظاهرة الثقافية يعود إلى النصف الثاني من القرن العشرين، فقد مكّن اكتشافُ بعض مصادر الإشعاع السماوية

(النجوم النابضة) العسكريين الأمريكيين من تحسين توجيه صواريخهم النووية بصورة ملحوظة، ولقد أعلنت ذلك سنة ١٩٧١ مجلة بحوث القوات الجوّية بوضوح: "عندما استخدمنا إشعاع النجوم النابضة أتيح لنا تحديد مسافة ٥٢٠٠ كلم مع احتمال خطأ لا يزيد على المئة متر"، وحتّى علم فلك الأستاذ نمبوس Nimbus، قد ارتبط إلى حدّ ما بالعلوم التقنية بطريقة أو بأخرى، ورغم ذلك لم يدرك معظم **الغربيين** مدى اندماج الفيزياء الكلاسيكية في مجال الصناعة الحربية (على حدّ عبارة الرئيس أيزنهاور Eisenhower). وكيف يمكن لهم أن يدركوا حقّا أنّ العلم المتعلّق بالكواكب، شأنه شأن علوم الأرض وكثير من الاختصاصات الأخرى التي بدت علمية "محضا"، كانت تستهوي العسكريين بصورة مباشرة. كانت معظم البحوث المتعلّقة بعلوم البحار يموّلها الجيش. لماذا؟ لأنه كان ينبغي -بكلّ بساطة- حلّ المشكلات التقنية العديدة التي كان يطرحها استخدام الغوّاصات وأنظمة الأسلحة الأخرى، فقد كان على العسكريين لكي يتسنّى لهم -على سبيل المثال- استعمال أشعّة سونارSonar [1] بطريقة فعالة، أن يعرفوا بدقّة جميع الأصوات التي تميّز عالم البحار، ومن دون تلك المعرفة يوشك أن تختلط تنبيهات مهمّة مع التشويش الذي تحدثه بعض الثدييات البحرية أو الحيتان أو القشريات...

كان بعض علماء الطبيعة البارزين من "المدنيين" يتلقّون دعمًا ماليًا معتبرًا من قبل **الجيش**؛ بغية دراسة أنواع الصفير والفرقعة والقرقرة التي تصدرها حيوانات كثيرة تعيش في أعماق البحار، وكانت نتائج البعض من تلك البحوث تعرض في التلفزيون تحت مسمّيات عدّة، من قبيل أسرار الحياة البحرية، وتكون صورها

---

(١) أجهزة لاكتشاف وجود أشياء تحت الماء بوساطة موجات صوتية. (المترجمان)

جميلة، تصاحبها تعليقات فيها كثير من "الشاعرية"، ولم تكن الأغراض العسكرية من تلك الأعمال مُعلَنة بكلّ تأكيد؛ كي تبقى في الأذهان الصورة المثالية المُطَمْئِنة، التـي مفادهـا أنّ التقدّم العلمي يجري على أيدي علماء أفاضل، لا علاقة لهم البتّة بعالـم المصالـح التقنية المدنّـس. كانت هيبة العلم مصونـة! وكان بعض من أوتي حظـا من الشـجاعة والجرأة يجتهد في وصف واقـع الحال (مثل الإنكليزي روبان كلارك Robin Clarke والفرنسـي جورج ماناهام Georges Menahem)، ولكن لم يكن بإمكانهم الوقوف ضدّ التيّار السائد.

كانـت لأسـطورة العلم الخالص عواقـب أخرى كثيرة علـى الصعيد الثقافي، فقـد أنكـر الغربيـون بصـورة عامّـة مثـلا أنّ "منهجهم التجريبـي" الشـهير، كان في جوهـره منهـج مهندسـين، أيْ إنْ كان مـن المفتـرض تحليـل كلّ "شـيء"، أو كلّ "ظاهـرة" باعتبارهـا آلة، فالعالـم مطالب بإثبات صحّة نظريته بنفسـه، وذلك بإنتاج آلـي لـ"شـيء" أو لـ"ظاهـرة" مشـابهة، لنأخـذ مثالا على ذلك شـهيرا بسـيطا في آن واحـد: فنجـاح تركيب اليوريـا[1] كان بمثابة إقامة الدليل على فهـم طبيعة اليوريا، ولقـد بيّن مؤرّخ العلوم روبـار لينوبل Robert Lenoble فعلا أنّ العلم الجديد قد أسّـس منذ القرن السـابع عشر على هذا المبدأ: "أن نفهـم يعني أن نصنع"، فلم يكن التمثّل والفهم بمعزل عن النشاط التقني، ولم يكن ثمّة فصل بين الإنسان الفكري المفكّـر والإنسـان الصانـع، لقد صار العلم نفسـه يتطلّب الجمع التامّ بين النشـاط الذهني والنشاط المادي المتمثّل في الإنتاج.

ومن ثمّ تتأتّى أهمّية مفهوم العِلم الصانع، وهو مفهوم يذكّر (دائما) بأنّ "العلم الحديـث" كان يجسّـم في جوهـره الفعالية المميّـزة للمجتمع الصناعـي، فلم يعد

---

(١) مادة متبلّرة توجد في البَوْل. (المترجمان)

الأمر يتعلّق باكتشـاف نواميس الطبيعة وملاحظتها بدقة ونباهة، وإنّما بـ"تفكيكها" و"إعـادة تركيبهـا" بفضل عمليـات تحليلية تأليفيـة متتابعـة، وكان المختبر إذن هو المكان المفضّل الذي فيه يتمكّن الإنسـان الغربي من إعادة تشـكيل الظواهر بقواه الذاتيـة بعـد الملاحظـة والـدرس والتمحيـص، من أجل ذلـك لجأ إلى اسـتعمال الوسائل التقنية كما تشهد على ذلك جملة من الأجهزة والأدوات والآلات، آلات القيـاس و التعديـل الكهربائي (وهي أجهزة لتنظيم التيار الكهربائي تقوم على مبدأ المقاومـة المتغيّـرة) وشـعلات البنزيـن، وآلات آتـوود[1] ومقاييـس المقاومـة الكهربائيـة والمجاهـر وأجهـزة الطـرد المركـزي وآلات رسـم الطيـف وتسـريع الجزئيات وغيرها، فكلّ تجريب كُلّل بالنجاح -إذا ما أردنا له ذلك- يكون محسوبا على العلم، ولكنه يُعدّ نجاحا تقنيًا في الوقت نفسه وفق معنيين اثنين: فهو الشاهد على نجاعة المناهج والممارسـات المقتبسـة عن المهندسـين من ناحية، (ذلك أنّ التجريـب ليس إلا مسـاءلة للطبيعة بلغة المهندسـين)، والضامن لتقـدّم المجتمع الصناعـي أمـلا فـي "تنميقات" ماديـة عديدة من ناحيـة ثانيـة، (أي مُنتَجات جديدة ومـردود أفضـل ومـا إلى ذلـك). إنّ لمفهـوم العلم الصانـع الفضل فـي العَوْد إلى مشـروع ديكارت المؤسّـس أيضًا، ذاك الذي أوجب على العلم أن يجعل الانسـان "سـيّد الطبيعة بيده الماسـك بزمامها"، أن يمكّن الإنسان من أن يكون "سـيّد الطبيعة والمتصـرّف فيهـا" وأن يتيـح لـه إنجـاز اختراعـات نافعـة، وقـد كانـت نتائج ذلك ملموسة في مجالات الثقافة كلّها.

---

(١) اختـرع القس جورج آتـوود George Atwood ١٧٤٥-١٨٠٧) **آلـة آتوود** أو **جهاز آتوود** في عام ٤٨٧١ باعتباره تجربة معملية من أجل إثبات قوانين الحركة الميكانيكية من خلال التسـارع الثابت. وتُعد آلة أتوود وسـيلةً تعليميةً شـائعة في الفصول الدراسـية وتُسـتخدم لشرح مبادئ الميكانيكا الكلاسيكية. (المترجمان).

ومن بين تلك النتائج نذكر -على سبيل المثال- أنّ الشركات التكنولوجية الكبرى نفسها قد انخرطت في ذلك المسار المعرفي، فكانت بمثابة تجارب على نطاق واسع كما أشار إلى ذلك الأستاذ دوبان. لقد كانت الأقمار الصناعية مثلا دليلا ساطعا على صحّة النظريات المعتمدة في مجال ميكانيكا الفضاء، ولمّا كان فهم الأشياء يعني القدرة على صنع مثيل لها، فإنّني إذا صنعت قمرا صناعيا والدافعة التي تقذف به إلى الفضاء، وإذا نجحت في وضعه في مداره، أتيت بما يشهد لي دون منازع أنّ علمي المتعلّق بالأجسام الفضائية علم صحيح.

كان **الغربيون** كلّما أطلقوا في الفضاء جهازا جديدا، انتابهم إحساس بأنّهم أشدّ قوّة وأوسع علما في الوقت نفسه، وكان ذلك شأنهم في علم البيولوجيا، إذ يعتبر استحداث نوع جديد من أنواع الطماطم، أو فصيل جديد من الذباب، تقدّمًا نحو العلم التجريبي الكامل، والعلم التقني المطلق". كان هناك مهندس دفين في كلّ رجُلِ علم ناشئ"، كما ذكر الأستاذ دوبان، وبعبارة أخرى كان أصحاب الميدعات[1] البيضاء شخصيات ذات ازدواجية قصوى، ففي مستوى التمثّلات يقدّمون أنفسهم باعتبارهم **جهابذةً كبارًا** في العلم الخالص، ولكن سرعان ما تطفو مواهبهم الصناعية على السطح، بطريقة أو بأخرى كلّما تهيّأت الظروف لذلك.

ورغم ذلك لم يعترف **الغربيون** يوما بذلك الالتباس اعترافا تامّا، كانوا لا يهتمّون حتى بالوقائع الصارخة التي يرونها رأي العين، لقد وضع فيليب بروتون Philippe Breton النقاط على الحروف فيما يتعلّق بالقنبلة الذرية مثلا حيث قال: "خلافا لما كانت تعتقده العامّة، لم يكن رجال السياسة هم الذين "طلبوا" القنبلة

---

(١) جمع ميدعة وهي ثوب يُلبس فَوق الثِّيَاب وقاية لَهَا من وسخ الْعَمَل، يلبسه الأطباء والممرّضون والمدرّسون وغيرهم. (المترجمان)

من العلماء، بل حدث العكس، على وجه التحديد، كان الفيزيائيان ليو زيلار *Leo Szilard* وأنريكـو فرمـي *Enrico Fermi* همـا اللـذان أظهرا حماسًـا كبيرا لإقناع سـلطات التحالف بالقدرة التدميرية للذرّة "المحرّرة" من جهة، ولتقدّم الفيزيائيين الألمان في ذلك المجال حقيقة أو افتراضا من جهة أخرى. ولقد أصبح المشروع الذي يسـمّى بـ"منهاتـن" *Manhattan* محلّ اهتمام الجميـع بعد أن حظي بموافقة الحكومـة الأمريكيـة فتجنّد له آلاف العلماء والتقنيين في سـرّية تامة (قدّر عددهم بـ ١٠٠ ألف شـخص) جمعوا في مختبر معملي ضخـم؛ بغاية صنع القنبلة الذرية في أقرب آجال ممكنة".

كان مـن السـهل علـى مـن كانت لديـه أدنى رغبة فـي فكّ رموز الرسـالة التي مفادهـا أنّ "المختبـر المعملي" لمشـروع منهاتن كان رمزًا نموذجيًـا لمفهوم العلم التقنـي، وقد طرح إذن بحدّة مسـألة مسـؤولية العلماء، ولكـنّ الحداثيين جميعهم وجـدوا طريقـة للتهـرّب منهـا. كانـوا -دون شـكّ- يشـعرون بشـيء مـن الحرَج، ويطرحـون جملة من التسـاؤلات ولكنّهم اسـتمرّوا في الحديـث الواهم عن العلم النظري المحض بلا تعثّر.

كانـت نخـب المجتمع الصناعي تشـعر بأنّه من المسـموح لهـا -كلّما اقتضى الأمر تمجيد **العلم**- أن تقول ما تشاء. لقد وفّرت لنا الخُطب التي أُلقيت في **فرنسا** زمن **الجمهورية الثالثة** بمناسـبة "توزيع الجوائز" أمثلة عديدة على ذلك، لن يتسنّى لنا الوقوف عندها مليّا. كانت جميع "الوسائل" مشروعة، وأكثرها شيوعا تلك التي تقوم على مرحلتين: الأولى أن يقال: العلم يا أبنائي نشاط نبيل غايته في ذاته، وقد نشأ لخدمة أرقى طموحات الإنسان، ثمّ تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة الواقعية البورجوازية، فإضافة إلى ذلك كان يقال: العلم يا أبنائي يجلب لنا العزّة، ويجعلنا

أثرياء، إذ يطوّر صناعتنا... ما الذي جعل أجيالا متعاقبةً تسمع تلك المواعظ دون أن تسخر منها؟ في نهاية القرن العشرين أصبح الخطاب أكثر رصانة وصار يشتغل بالمقابلة بين العلم والتقنية. إليك مثلا كيف تناول الفيزيائي إفري شاتزمان Evry Schatzman سنة ١٩٩٠ ذلك الموضوع. فالرأي عنده أن ثمّة أخطارا محدقة بالعلم، ولابدّ إذن من "رفع الالتباس بين العلم والتقنية""فالعلم معرفة حول الطبيعة، أمّا التكنولوجيا فهي أداة وآلة يمكن أن تستخدم المعارف العلمية، ولكن التكنولوجيا تختلف عن العلم".

ينبغي أن لا ننخدع لذلك الخطاب، لقد كان بارعًا على طريقته، كانت الفكرة تنطوي على قسط وافر من الحكمة تبَعًا لتقسيم العمل الذي كان معمولا به، إذ ينبغي التمييز بعناية بين السيد الباحث فُلان، والسيد علّان مهندس التصاميم أو التصنيع، ولكن من وجهة النظر الثقافية يبقى المشكل الأساسي قائما: فقد كان المبحث الأساسي والمبحث التطبيقي ومبحث التطوير في ترابط وتلازم، وكانت [هذه المباحث] وحدة متكاملة من الناحية العمليّة. كان بعض الخبراء منظّرين في الأصل، وكان البعض الآخر على العكس من ذلك مؤهّلا أكثر من غيره لتصميم محرّك جديد، وصاروخ جديد ونوع جديد من المفاعلات النووية، وطبعا لا يقوى أحدهم على الاختراع بمفرده، ولكن في المختبرات العلمية -شأنها شأن المراكز الاستشفائية الجامعية- كان من المستحيل علينا أن نرسم حدّا فاصلا بين ما هو نقيّ خالص، وما تشوبه شائبة، وبين ما هو "علمي"، وما هو " تكنولوجيا مجرّدة".

في كثير من المؤسسات (بدءًا بمعهد باستور[1]) نجد في الآن نفسه ما يسمّى

---

(١) لويس باستور Louis Pasteur هو عالم كيميائي فرنسي وأحد أهمّ مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب، ويُعرف بدوره المميّز في بحث أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها.

بالعلم "النظري"، وما يسمّى بالعلم "التطبيقي". أوَينبغي [بعد ذلك] الإشارة إلى أنّ العديد من الأساتذة من الباحثين المتميّزين كانوا يُسدون خدماتهم للصناعيين باعتبارهم مستشارين؟

لم يكن ثمة من الناحية التاريخية مجال للتشكيك في أنّ كبار مبدعي العلم الحديث لم يفصلوا العلوم عن التقنيات، فعندما أنشأ الإنجليز في لندن مؤسّستهم الملكية الوقورة *Royal Society* حرَصوا على أن يبينوا في قوانينها الأساسية أن "مهمتها والهدف منها تطوير المعرفة بعناصر الطبيعة، وسائر الفنون المفيدة، والصناعات والأنشطة الميكانيكية والآلات والابتكارات وذلك بوساطة التجارب"، وبعد مدّة أي سنة ١٦٦٦ أنشأ كولبير Colbert وهو المسؤول الأوّل عن الإصلاح الاقتصادي والسياسي في عهد لويس الرابع عشر في باريس الأكاديمية الملكية للعلوم التي كانت تهفو إلى تحقيق المطامح نفسها، وعِوَض أن تقتصر اهتمامات الأكاديميين على العلوم "النظرية"، أُوكِلت إليهم مسؤوليات عملية بأتمّ معنى الكلمة، وذلك بإسناد براءات اختراع إلى المخترعين. هكذا كان تاريخ العلم التجريبي منذ البدء متّصلا بتاريخ التجّار والمقاولين، ولقد تساءل لويس ممفور Lewis Mumford بسذاجة خادعة: "أكان من الصدفة أنّهم من أنشأ المؤسسة الملكية في لندن ودافع عنها، ثم كانوا فعلا من بين المجرّبين الأُوَل في علم الفيزياء؟" لقد اعترف كثير من رجال العلم في القرن التاسع عشر كذلك بمحض إرادتهم بأنّ معارفهم كانت تستخدم لقضاء "مآرب مادية".

ساهمت اكتشافاته الطبية في تخفيض معدّل وفيات حمّى النفاس وإعداد لقاحات مضادة لداء الكَلَب والجمرة الخبيثة. يقع جثمانه في معهد باستور في باريس في قبو مذهل يصور إنجازاته في شكل فسيفساء بيزنطية. (المترجمان)

ولقد أيّد فرانسوا أرغو François Argo -على سبيل المثال- "فكر باكون الرائع [القائل] بأن المعرفة هي القوّة والاقتدار". لقد بدت لنا شهادة كلود برنار Claude Bernard مقنعة جدّا، كان اسم هذا العالم الشهير مقترنا بمفهوم "المنهج التجريبي" نفسه، وكان الأمر بالنسبة إليه واضحًا وضوحًا تاما: " إنّ منْشَأَ العلوم الحديثة هو غزو الطبيعة وانتزاع أسرارها واستخدامها في صالح الإنسانية. لقد أمّنت الكيمياء والفيزياء للإنسان سيطرته على الطبيعة الخام، أمّا الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) فقد أتاحت له السيطرة على الطبيعة الحيّة". لقد أخطأ القدامى عندما أغرقوا في السلبية، فقد كانوا متأمّلين أكثر ممّا ينبغي، " لقد دار بخَلَدهم أنّ دور الإنسان المشاهدة دون فعل"، ومن المؤسف حقّا أن المتعصّبين في القرن العشرين لم يطّلعوا جيّدا على كلود برنار، لقد أدرك -هو على الأقلّ- أنّ حدوث تحوّل روحي هو وحده الكفيل بنجاح العلم التجريبي، فهدفه الحقيقي يتلخّص في كلمتين اثنتين هما التوقّع والفعل. لم يكن المشروع العلمي من الناحية الثقافية محايدا إذن، بل كان جزءًا لا يتجزّأ من مشروع شامل. لقد تمثَّلَ كلود برنار بالطبع "ممارسة السيطرة على الطبيعة" باعتبارها عقلانية، ولكن الفعل هو الذي أضفى على ذلك المشروع معنى؛ "لذلك انكبّ الإنسان في النهاية على البحث المضني عن الحقائق العلمية".

وبدل التحليق بعيدا عن التاريخ غاص العلماء فيه غوصا، فلم يكتشفوا العلم كما كان يحلو لبعض المدرّسين تلقينه للناس، بل أسّسوا علمًا دقيقًا ذا نجاعة مذهلة، ولكنّ مسلّماته الأوّلية لم تكن يوما مطلقة، فقد كان الولع الغربي بالقوّة بارزًا من خلال المنهجية العلمية ذاتها.

أما الشعراء فقد أدركوا ذلك، فكلّ صورة عن الكون هي -كما بيّن أميال

Amiel - "أوهـام نشـكّلها دون أن يتسـرّب إلينـا الشـكّ فيهـا"، ولا شـكّ فـي أنّ "الأوهـام" التـي بناها رجال العلـم بكثير من المصابرة قد لقيـت ارتياحا كبيرا لدى أهـل الحداثـة، ولا غرابـة في ذلـك؛ لأنّها قد تشـكّلت منذ البداية في انسـجام مع طباعهـم، ووفق انتظاراتهـم، ومع ذلك كانت هناك تصوّرات أخرى للعالـم ممكنة، هـي أيضـا تعتمد على مبـادئ أخرى وعلى مقاييـس مغايرة، لقد كتـب أميال على سبيل المثال: " إنّ العلم لا يهب الحبّ، إنّه لا يفي بالحاجة"، وهل ينبغي أن نشير إلى أنّ أيّ إنسـان غربي سـويّ يعتبر كلّ حديث من هذا القبيل عارضًا من أعراض اضطـراب العقـل، ولقـد كرّر بـول فاليـري -مع ذلك- تلكـم العبارات المسـتفزّة عندمـا تنـاول " أسـطورة المعرفـة" فقـال: "العلم ليس معرفـة، إنما هو سـلطة"، ثمّ أضاف قائلا: " إنّا نطلق دائما اسـم العلم على جميع الوصفات الناجحة، وما عدا ذلك فهو أدب".

ولكـنّ أصحـاب النفـوذ -على وجـه الخصـوص- لا يرغبون فـي معرفة أيّ شيء، إذ كانوا يفضّلون الفصل بين "العلماء الحقيقيين"، وهم الذين كانوا يمتازون بنظافـة اليـد، والتطبيقيين الذين يخضعون للسـلطة الزمنية، وهم إذن المسـؤولون وحدهم عمّا ينتج من حوادث أو كوارث، فعلينا إذن أن لا نخلط الأمور، إذ ينبغي أن نميز في **العلم** الخبيثَ من الطيّب!

يبـدو لنـا اليـوم من الأمور التـي لا تصدّق أنّ رجـل علمٍ بارزٍ مثـل فريديريك جوليـو كوري Frédéric Juliot-Curie كان يجترّ الحديث حول ذلك الفصل بعد **الحـرب العالميـة** الثانيـة إذ كتـب يقول: "يبـدو لي أنـه بالإمـكان (...) التمييز بين المعرفـة النظريـة الخالصة واسـتخداماتها، والتمييز في العلم باختصار شـديد بين الفكـر والعمـل"، لقـد بدت لنـا تلك الأقوال مرعبـة، خاصّة إذا مـا اعتبرنا أن ذلك

العالـم قـد قام سـنة ١٩٣٩ ببحـوث بالغة الأهمّية حـول انفـلاق ذرّات اليورانيوم، وكان مـن الأوائـل الذين بيّنوا إمكانية التحطّم المتتابـع للذرّة (إن لـم يكن الأوّل)، وهـو ما يعنـي إمكانية تفاعل قادرٍ على تحرير كمّ هائل مـن الطاقة، وبذلك ما كان لكوري أن يمثل تمثيلا فاعلا العلم التقني فحسب، بل كان له أن عيّن بعد الحرب **مفوّضـا أعلـى للطاقة** الذرية ذاتها. أليس من الغريب أن يفصل مثل هذا الرجل بين النظـري والتطبيقـي فصلا؟ قد نهضت بحوثه النظرية بدور حاسـم في صنع القنبلة الذرية (أراد ذلك أم لـم يرد)، فقد توقّع الاستعمال الصناعي للطاقة الذرية وأراده، وكان يدير مؤسّسة في **الدولة** هي ذروة ما وصلت إليه التكنولوجيا، ومع ذلك كان يميّز بعناية بين الفكر والعمل.

كيف يمكننا فهم ذلك؟ علينا أن نؤكّد أنّ ذلك الرجل لم يكن حالة شاذة. فقد كان معظـم زملائه يبسـطون قضية مسـؤولية العلمـاء بالمقاربة نفسـها، ولم يعرف ذلـك الحـال تبدّلا حتى في سـنوات التسـعينات، ولكن كانت - فـي الوقت ذاته- بعض الدراسـات التاريخية النقدية قد نُشـرت وحذّرت المواطنين والباحثين على حدّ سواء، ولقد شرع جاك ألّول Jacques Ellul منذ سنة ١٩٥٤ في بيان التفاعلات المتعدّدة بين النشـاط التقني والنشـاط العلمي، ولقد لاحظ فـي الغالـب أنّ كلمتي علـم وتقنيـة كانتـا متعاوضتيـن، أو قـل كانـت كلٌّ مـن كلمة "علـم" وكلمـة "تقنية" تستخدم بدلا من الأخرى، وكانتا متلازمتين دائما، وكان العلماء والمهندسون في المجتمـع الصناعـي يـدورون فـي فلـك حركية ثقافيـة واحـدة. ولو دقّقنـا البحث لوجدنا بعض الاستثناءات، أي بعض النسّاك في محراب **المعرفة**، غير أنّ أسطورة "العلـم الخالـص" كانت خديعة، ولقد استشـهد جاك ألّول لتعزيز حجّته بمارسـيل مـوس Marcel Mauss الـذي كتـب يقـول: "حتى العلـم وخاصة علـم أيّامنا هذه الرائع قد أضحى جزءا من التقنية لا ينفصل عنها ووسيلة من وسائلها"؛ ومن أجل

ذلـك كان العالم الحديث يتخبّط بين أمرين"إمّا القبول بالتطبيقات التقنية للبحوث التي يجريها، وإما وجوب التوقّف عن مواصلتها".

كان من المفترض -مثلما ذكر الأستاذ دوبان- أن يشعر كثير من رجال العلم أنّهـم كانوا مسـتهدفين، والحال أنّ شـيئا من ذلك لم يكـن. لقد وصف جون جاك سـلامون Jean-jacques Salamon فـي كتابـه العلم والسياسـة (الذي صدر سـنة ١٩٧٠) -عن صواب- الوضع الذي كان يعيشه الباحثون، كانوا يشعرون بأنّهم في خدمة العلم وأنّ أعمالهم تجري بعيدا عن السياسـة، ولقد تربّوا على ذلك بالرغم من أنهم كانوا في "خضمّ السياسة" لمّا تخَطَّفتْهُم التقنية.

ماذا كان باسـتطاعتهم فعله لو كانو على وعي بوضعيتهم؟ لم يكن لديهم في النظام الغربي الحديث خيار، إذ وجب على رجل العلم أن يتخذ قرارا حاسما لكي يتخلّى عن أنشـطته. لقد شـهد التاريخ أمثلة على ذلك أبرزها حالة الأمريكي جيم شـابيرو Jim Shapiro الـذي كان ثالـث ثلاثة بيولوجيين فـي جامعة **هارفارد** ممّن نجحـوا لأوّل مـرّة في عزل جين خالص سـنة ١٩٦٩، وكان هؤلاء الباحثون -كما ذكّـر بذلـك جون-جـاك سـلامون- " قـد حـذّروا مـن خطـر التلاعب بالرأسـمال الجينـي"، وبعد فترة قصيرة أعلنوا ردّا علـى الاحتجاجات التي ثارت ضدّهم بكلّ ثقـة فـي النفس أنّـه " إذا كانت حجّتنـا تعني أن يتوقّـف التقدّم العلمـي ذاته، فتلك نتيجـة لا نـرى مانعا من القبول بهـا"، وقد أوصد جيم شـابيرو إذن أبواب مختبره، لكي يصدّق فعلُه قولَه. كان يعتقد أنّ عمله يوشك أن يكون " مطيّة في أيدي الذين يتحكّمون في العلم، أي الحكومة والشركات الخاصة الكبرى، شأنها شأن الطاقة النووية التي استخدمت استخدامًا شريرًا"

ولكـن هـل كان الغـرب الذي مضى أشـواطا علـى طريق التقـدّم يتيح لبعض

"العلمـاء" التفكيـر بجدّيـة حـول مجمـل أعمالهـم؟ كانـت بعـض الاحتجاجـات الهامشـية ممكنة، فقد عارض جاك تسـتار Jacques Testart بشراسة -وهو "الأب العلمي" الأوّل لطفل الأنبوب الفرنسي سنة (١٩٨٢)- بحوثا اعتبرها خطيرة.

ألـم يطبّـع المجرّبـون البيولوجيـون الطبّيـون العلاقـة مع بحث علمـي هدفه تحسين النسل لم يُفصح عن اسمه حينها، وذلك لفرط تلاعبهم بالجينات الإنسانية، ولفرط تقْنَنَة «technitiser» الإنجاب وتقَنّنَة الإنسـان نفسـه، فاقاموا علاقة عادية رهيبة بذلك المبحث هدفه تحسـين النسـل لم يُفصح عن اسـمه بعد؟ كان تسـتار يدرك ذلك جيّدا، إذ لـم يكن لدى هؤلاء الباحثين نوايا سيئة، وكان هدفهم الوحيد المعلن "تحسـين" الكائنات البشـرية، و" لكن كيف يمكن تحقيق ذلك الهدف دون الرجوع إلى معيار؟ وكيف يمكن ضبط مثل ذلك الطموح وفق ذلك المعيار؟ أيها الزملاء الأعزّاء يا مهندسي الأحياء، أنا لا أتّهمكم ما أنتم إلا يدٌ مسلّحةٌ أريد لها أن تبطش دون وعي".

ولكن إلى أيّ حدّ كان رجال العلم غير واعين بالمهمّة الاجتماعية التي كانوا يضطلعون بها؟ ولقد تحدّث جون جاك سلامون عن " النسيان أو التناسي" لكلّ ما يتعلّـق بالظـروف التاريخية للبحث العلمي أيضا. كانـت حجج الباحثين عن النوع الإنسـاني الأرقى لا ينقصها الانسـجام في البداية ذلك أنّهم كانوا يُجْرون بحوثهم بغـضّ النظر عن تداعياتهـا الاجتماعية، ودونما وضع مسـؤولياتهم على المحكّ، ولكـن أليـس في ذلـك الاحتجاج البريء بعـضٌ من دهاء؟ لقد لاحـظ جون جاك سـلامون أنّ " العلم النظري" "المحض" ليس من أهدافه الوصول إلى نتائج عملية بعينهـا"، ولكـن " لا يمكـن إنكار حقيقـة أنه يفضي إلى توفيـر معلومات ومنتجات تتلقّفها السلطة وتتّخذ منها وسائط "تحدّد" طبيعة قراراتها ومسارات تلك القرارات،

وتَبعًا لذلك لا يُعذر العلم النظري بجهله إن صحّ القول؛ لأنّ التطبيقات التي يعِد بها وإن بدت بعيدة المنال هي التي تشرّع في رأيه وصاية الدولة عليه".

وبعبارة أوضح كان **للعلم** أوراق عديدة يلعب بوساطتها، كما ذكر الأستاذ دوبان، فكان مَجْمَعُ العلماء لا يتردّد في إبراز منافع أعماله (القريبة منها والبعيدة)، كي يحصل على قروض، لذلك أشار جاك مونو - من بين نفر من العلماء الآخرين- بوضوح إلى أنّ" جميع أشكال النفوذ والإثراء" التي يدين بها **الغرب للعلم** (بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معان) مردُّها إلى التقدّم التقني والاجتماعي، ولكن عندما تدور الدوائر يتبرّأ العلم من المسؤوليات كلّها، ولقد رتّب جاك مونو القنبلة الذرية من بين " المنتجات التكنولوجية للعلم" (في مفهومه الضيّق)، ولقد عثرنا على تصريحات كثيرة جدّا تتبنى ذلك الخطاب المزدوج، فعندما يكون "تطبيق من التطبيقات" ناجحًا وجب على المواطنين أن يسبّحوا بحمد العلماء، وإذا ساء تطبيق آخر صبّوا جامّ غضبهم على رعاع المهندسين والفنّيين المتعجرفين، وعلى سماسرة الصناعات الحربية وغيرهم". إنهم ينشدون الربح في كلّ شيء،" كذلك علّق الأستاذ دوبان، أفلم يكن ذلك ربحا يسيرا؟

إنّنا لنستغرب اليوم من تلك الحصانة التي كان يتمتّع بها العلماء، لقد بيّن جون جاك سلامون وبعض العلماء الآخرين -مع ذلك- بصورة جلية انخراطهم الكامل في تلك المنظومة، إذ لا ينبغي اعتبارهم مختصّين خارج دائرة الممارسات الاجتماعية السائدة، وإنّما "عمّالا عُمْيا في منظومة بحثية ليست أقلّ خضوعًا لآلة الإنتاج من منظّمات أخرى". كان الباحثون يحكمهم الوسط الذي يعيشون فيه شأنهم شأن الكتّاب و"مبدعي" الأزياء الراقية، فلِمَ خُصّوا إذن بتلك الحصانة الدولية؟ لقد أدرك أهل العلم أنفسهم بفضل شيء من التبصّر ومن الثقافة التاريخية

بصـورة تلقائيـة أنّ " المعرفـة العلميـة فِعْلٌ لا يمكن فصْله عـن تطبيقاته، إنّها همزة وصل في كلّ مجال بين النظري والتطبيقي تستمدّ مشـروعيتها الاجتماعية في كلّ مكان من الأدلّة التي تقدّمها على ما لها من منافع"، ومن ذلك أنّ مسؤولية العلماء تبـدأ حيث يسـري العمل بنظرياتهم وبنتائج اختباراتهـم، ويبدو أنّ المعنيين بالأمر كانـوا -لسـوء الحظّ- أشـدّ الناس عنـاءً في فهم ذلك، ولقد بدت لنا هذه الأسـطر التي خطّها جون جاك سلامون أيضًا، بليغة جدّا حيث قال: "قليل هم رجال العلم الذين كان لديهم وعي بأنّهم يشوّهون بممارساتهم الحياد الأخلاقي للعلم، ولكنّ تجاهـل مشـكل من المشـاكل عن قصد أو عـن غير قصدلا يعني ألبتّـةَ عدم وجود ذلـك المشـكل"، إنّ غيـاب الوعي لـدى الباحثين ليس له مثيـل إلاّ ذاك الذي لدى رجال السياسـة والمدرّسـين ورجال الإعلام والمواطنين بصـورة عامّة، ولقد أكّد الأسـتاذ دوبان أنّ السـلط التي أقرّت رسـميًا بأن العلم تقنيّ في جوهره، وهو علم قد انخرط إذن انخراطًا كاملا في سـباق المرابيح، وسـباق التسلّح على حدّ سواء، وسـاهم -أحببنـا أم كرهنـا- مسـاهمةً فاعلة في هـوَس المكْننة والأتْمتَـة والتطبيع والتكنوقراطية. لقد بدا لفظ "العلم التقني" مبتذلا جدّا ولا يستعمل إلا نادرًا، وهو مـا دفع بعض أسـاتذة الفلسـفة إلـى تلميعه في أذهـان طلبتهم بطريقـة لا تخلو من تعسّـف.

ففي سنة ١٩٩٢ أجاب لوك فرّي Luc Ferry مثلا على سؤال طرحه في نصٍّ عنوانه: "هل يجب الخوف من العلم؟ يرى فرنكشتاين وتلميذ الساحر أنّه لا ينبغي أن نخشـى جانـب العلـم، فالخطـر الحقيقي - في رأيـه- لا يصدر مـن عُبّاد العلم وإنّما من أولئك الذين يُخضعونه للمراجعة النقدية. إنّهم فعلا على وشك "التشريع -إن لم نقل- لأساليب رقابية متسلّطة، فَلِرُؤية محافظة جديدة ولا عقلانية للحداثة علـى الأقـلّ"، فعلى الغربي الأصيل نظـرا إلى ما لديه من ثقة فـي العقل ولاعتقاده

الجازم في **التقدّم** أن لا يشمئزّ من العلم، ولقد بدأ لوك فرّي إحدى جُمَله على هذا النحو: "إنّ العلم التقني كما يقال اليوم على سبيل الاستهجان ..". هكذا إذن غُيِّبَ المشكل الجوهري عن دائرة الاهتمام بسهولة فائقة. ناموا في سلام أيها الإخوة! فإنّ الذين تجرّؤوا على الحديث عن العلم التقني لم يكونوا سوى متخلّفين ذهنيا، يحترفون العناد والمكر وسوء النية ولا همّ لهم سوى الاستهجان والتحقير.

لماذا كانت خطابات على هذا المنوال تحظى بالقبول؟ في الواقع يكفي أن نفتح أعيننا لكي نرى لافتات الحلف المقدّس بين العالِم والمهندس والمقاول ترفرف في كلّ مكان، لنأخذ على سبيل المثال مدينة العلوم والصناعة باهظة الثمن تلك التي حرص فرنسيو زمن الانحطاط على بنائها في ضاحية لافيلات La Villette بباريس، لقد رأى فيها جاك تستار "مَعْلمًا للتقدّم يباهي به رجالٌ يطمحون إلى أن يكونوا هم الإله"، حيث هناك يُرسل أطفال المدارس ليصبحوا "حداثيين" حقّا، وكان الاسم الذي اختير لهذه القبلة البورجوازية معبّرا على أيّة حال إنّه: مدينة العلوم والصناعة. فأنّى لنا أن نشير بأفضل من ذلك الاسم إلى الترابط الرمزي بين **المنهج التجريبي وعقلية البحث الدائم عن الربح**؟

وشهدنا - تبعًا لذلك- إنشاء وزارة للصناعة والبحث، ولكن بغضّ النظر عن التسميات كان هذان النشاطان متلازمين، وحسبنا إعادة قراءة تصريحات المسؤولين الكبار أواخر القرن العشرين للتّأكّد من ذلك، فقد افتتح وزير التعليم العالي والبحث في مارس ١٩٩٤ منتدى حول " البحوث الأساسية" بخطبة عصماء امتزجت فيها مرارا الإحالات الثقافية بالاعتبارات الاقتصادية، وكان التركيز عليها جليّا، وطبعا كان الأمر متعلّقا بـ"توسيع دائرة المعرفة وتعميقها"، ولكن علينا في واقع الحال أن نكون واقعيين: فلماذا التشجيع على البحث النظري؟ إنما كان

ذلك" استنادا إلى نتائجه، فيصبح من المتاح لمجتمعنا أن يُرضي رغبته في استكشاف المجهول وفي التأسيس لتطوير بُناه وممارساته وإطار عيشه، ويصبح من الممكن لشركاتنا أن تجتهد في ابتكار الوسائل التكنولوجية اللازمة للحفاظ على مواقعنا في المنافسة الاقتصادية العالمية لتعزيز تلك المواقع، كما يمكن تطوير أساليب تدريبية ذات جودة عالية"، ويتعلّق الأمر زيادة على ذلك "بقدرتنا على التجديد وعلى اعتماد مواقف وقواعد جديدة في العمل وصنع منتجات عالية الجودة تستجيب للحاجات الوطنية والعالمية" وغيرها، ولْنؤكّد أنّ هذا الحثّ كلّه الذي تركّز أساسا على "الاختراع والتجديد العلميين" في إطار التفكير حول البحث النظري، فكيف لنا أن نتخيّل الخطاب الذي كان سيثار لو تعلّق الأمر بالعلم التطبيقي أو بالتكنولوجيا.

هناك العديد من الوثائق التي تؤكّد ما ذكرناه آنفا، إذ بين عشية وضحاها أصبحت نظرة العلماء ثاقبة في مجال العلم التقني، لمّا طلبوا من الدولة أن تمنحهم أموالا ضخمة، فلقد برّر أحدهم علنًا سنة ١٩٩٣ طلب إنشاء نقابة من ذلك النوع بحجج ثلاثة: أولاها أنّ المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) قد أُنشئ "حول مشروع نووي عسكري ثمّ أصبح ذا صبغة مدنية بعد ذلك"، وثانيتها أنّ بحوث فترة ما بعد الحرب مباشرة تمحورت حول "السيطرة على الفضاء"، وثالثتها أنّ "الناس قد أظهروا منذ الثمانينات ولعًا شديدا بالتكنولوجيا البيولوجية والبحوث الطبية. إنّ الميادين الثلاثة مردّها إلى العلم التقني، وتجدر الإشارة في هذا الخصوص إلى أنّ الباحث المذكور كان بدوره عضوًا في المركز الوطني للبحث العلمي، أي إلى مؤسّسةٍ يعتبرها العلمانيون معقِلا من معاقل العلم "النظري" الخالص.

لماذا إذن لم يُتح للغربيين قطّ أن يبسطوا قضية مسؤولية العلماء على نطاق

واسع؟ من المرجّح أنّ العائق الأكبر كان ثقافيًا، إذ لم يدركوا أنّ أيّ علم تجريبي يفضي من حيث طبيعته ذاتها إلى "تطبيقات"؛ لأنّ التجريب يعني القيام بصورة مصغّرة داخل مختبر ما يمكن القيام به على نطاق أوسع في ورشة من الورشات، أو مصنع من المصانع، والعكس صحيح أيضا، إذ كانت عمليات تقنية عديدة أنجزها المهندسون بمثابة اختبارات في "القياس الطبيعي" تؤكّد إلى حدّ ما استنتاجات رجال العلم كما رأينا، وكانت تلك هي النقطة التي لم يُرد أنصار العلم رؤيتها وما استطاعوا. كانت أعمال العلماء تتمخّض عن نتائج قابلة للتطبيق، حتّى وإن لم يعبّر هؤلاء صراحة عن نيّتهم في الوصول إلى نتائج تطبّق، ولقد بيّن ذلك الملاحظون المتبصّرون.

من أجل ذلك أبْرزَ جورج سوريل Georges Sorel بوضوح في بداية القرن العشرين العلاقةَ الوثيقة بين المهندس والعالم الحديث، فقال: " لقد أضحى جليّا يوما بعد يوم، أنّ العلم يحرص على إضافة ورشة نموذجية إلى الطبيعة، تتألّف من آلات تشتغل بدقّة رياضية وتهدف إلى محاكاة التغييرات التي تحدث في الجسد الطبيعي بأقرب ما يكون"، وأضاف سوريل يقول إنّه قد أُعيد تنظيم الطبيعة باعتبارها طبيعة اصطناعية، ويعني ذلك جعلها قابلة أكثر للفهم وللاستغلال معًا من قبل جمْع من الميكانيكيين، لقد كتب يقول: "ينبغي علينا أن نرى في الميكانيكا الصناعية فرعًا من فروع الطبيعة، وهو فرع ترتقي علميّته يوما بعد يوم، فيمكن اعتبار الورشات مختبرات أرْحَب، وإذا كانت لتلك الورشات منافع اقتصادية يوفّرها عمّال مَهَرَة، فإنّ هذه المختبرات تظهر نواميس لمن يحسن البحث عنها، ولكنّ مثل هذا الفرق في مستوى الاستخدام الاجتماعي لا يحجب عنا التماثل الكامل بين ذيْنِك الأسلوبين في العمل".

ولقد كان شارل بيغي Charle Péguy وفيّا لفكر سوريل في ذلك عندما تحدّث كذلك عن اللعبة الثلاثية التي جرت في **الغرب** بين الورشة والطبيعة والمختبر فقال:" لم تَعُد الطبيعة -ونقصد بها على وجه الخصوص تلك الطبيعةَ الأخرى أي الطبيعة الثانية وهي الورشة أو المصنع- امتدادا مخزيا للمختبر، وإنّما استعاد المختبر خلافا لذلك ما كان عليه تقريبا، أي ذاك الاختزال الصناعي للطبيعة (...) عندئذ انطلقت الورشةُ بل استبقت الطبيعةَ ومصنعها".

كان من المفترض أن تبعث مثل هذه النصوص على التفكير، فمن الناحية الاجتماعية كانت "نقاوة" العلم أمرا وهميا، وكانت عديد الآليات الثقافية تصْرِفُنا(بأتمّ ما للكلمة من معنى) عن التفكير بأنّ للعلماء مسؤوليات سياسية كانوا يضطلعون بها، وكانت القواميس الأكثر استعمالا تقدّم جوهان فون نومان Johannes von Neumann (١٩٠٣-١٩٥٧) باعتباره عالم رياضيات كبير، وكانت في أقصى الحالات تشير إلى أنه مخترع الحاسوب، وما لا يشار إليه هو أنّ هذا العالم كان في خدمة **الجيش** لسنين طويلة، ولم يقدّم نموذجا رياضيا لانفجار القنبلة الذرية فقط، وإنّما أجرى حسابا للعسكر حول أفضل الارتفاعات التي تجعل الانفجار يُحدث أكبر خسائر ممكنة. هذه المعطيات كلّها لا يمكن أن نحصل عليها إلا بالرجوع إلى كتب مختصّة (مثل ذلك الذي كتبه فيليب بروطون Philippe Breton)، ومن الصعب على عامة الناس تكوين فكرة حول ما يخفيه مفهوم "العلم" في مثل تلك الظروف، بل إنّ بعض العلماء الذين سطع نجمهم بصورة لافتة للنظر لم يدركوا بالتحديد الدور الذي أوكله إليهم المجتمع الصناعي، وألبرت أينشتاين يمثل خير مثال على ذلك.

كان أينشتاين باحثًا يعتبر نفسه خادمًا لمَثل أعلى يضاهي العقيدة في الدين، ولقد كتب يقول سنة ١٩٢٢: " ثمّة عقيدة تشبه الشعور الديني، في قاعدة كلّ عمل

علمـي علـى قدر مـن الأهمية، ذلك أنّ فيها تسـليما بعالم شـيّده العقـل، أي عالم يمكن إدراكه عقليا".

كانـت لطريقـة التفكير تلك مـا يبرّرها تاريخيا، ذلك أنّ أحد الروافد الأساسـية للعلم الحديث كانت تسـتمدّ فعلا من القيم اليهودية المسـيحية التي مفادها أن الإله **الخالق** وهو عقلانيّ بالدرجة الأولى، قد أخرج إلى الوجود عالمًا عقلانيًا أيضا، فمن ذلك المنظور كان رجل العلم مقترنا برجل الدين، وبقي أينشتاين سنة ١٩٥٠ أي بعد حادثتي **هيروشـيما وناكازاكي** على موقفه دائما، إذ كان يقول: " إنّ موقف الإنسـان الذي يسـخّر نفسـه للبحث العلمي لا يختلف كثيرا في النهاية عن موقف المتديّن"، عندئذ تكشّف لنا المشكل الذي واجهه عالِمُنا الشهير، إذ كيف لعِلْم بمثل ذلك النبل أن يكون سببا في مجزرتين فظيعتين[١] خلال شهر أغسطس سنة ١٩٤٥؟

---

(١) هيروشيما وناكازاكي مدينتان يابانيتان كانتا ضحية هجوم نووي شنته الولايات المتحدة ضد الإمبراطورية اليابانية في نهاية الحرب العالمية الثانية في أغسطس ١٩٤٥. قامت الولايات المتحدة بقصفهما باستخدام قنابل ذرية بسبب رفض تنفيذ إعلان مؤتمر بوتسدام وكان نصه أن تستسلم اليابان استسلاما كاملا بدون شروط، ولكن رئيس الوزراء الياباني سوزوكي رفض هذا التقرير وتجاهل المهلة التي حدَّدها إعلان بوتسدام. وبموجب الأمر التنفيذي الذي أصدره الرئيس هاري ترومان، قامت الولايات المتحدة بإطلاق السلاح الذري الولد الصغير على مدينة هيروشيما يوم الاثنين ٢٧ شعبان عام ١٣٦٤هـ/ الموافق ٦ أغسطس عام ١٩٤٥ م. ثم تلاها إطلاق قنبلة الرجل البدين على مدينة ناجازاكي في التاسع من شهر أغسطس. وكانت هذه الهجمات هي الوحيدة التي تمت باستخدام الأسلحة الذرية في تاريخ الحرب.

قتلت القنابل ما يصل إلى ١٤٠,٠٠٠ شخص في هيروشيما، و٨٠,٠٠٠ في ناغازاكي بحلول نهاية سنة ١٩٤٥، حيث مات ما يقرب من نصف هذا الرقم في اليوم نفس الذي تمت فيه التفجيرات. ومن بين هؤلاء مات ١٥-٢٠ ٪ متأثرين بالجروح أو بسبب آثار=

لقد شارك أينشتاين مرّتين في حادثة القنبلة الذرية، فقد فتح الباب باعتباره منظّرا لأبحاث حاسمة حول العلائق التي تربط المادة بالطاقة، ثمّ قام بصفته مواطنا ألمانيا بمبادرات مصيرية أيضا، فقد أرسل إلى رئيس **الولايات المتحدة** فرنكلين روزفلت Roosevelt Franklin في ٢ أغسطس ١٩٣٩ بالفعل ينصحه بتيسير وحتّى تشجيع البحوث المتعلّقة بالتفاعل النووي المتتابع الذي بدا متاحًا "عند توفّر كمّية هائلة من اليورانيوم". إنّ تفاعلات من ذلك القبيل بإمكانها " تحرير كمّيات هائلة من الطاقة" ويمكن التفكير إذن في إنجاز قنابل قوية جدّا تصمّم كليا لأوّل مرّة". وكان أينشتاين واعيا بالدّمار الشامل الذي سينتج عنها، إذ كتب يقول: " إنّ انفجار واحدة من تلك القنابل التي تحملها سفينة إلى وسط ميناء من الموانئ، كفيلة لوحدها بتدمير الميناء كلّه والأراضي المحيطة به"، وما كان يشرّع لتلك الخطوة هو بطبيعة الحال اهتمام **ألمانيا النازية** هي أيضا بهذا المبحث.

وفي ٧ مارس من سنة ١٩٤٠ وجّه أينشتاين فعلا رسالة ثانية حول الموضوع نفسه إلى روزفلت، والبقية الباقية يعرفها الجميع، فقد بعثت الولايات المتحدة "مشروع منهاتن" وأوكلت إدارته إلى الفيزيائي يعقوب روبارت أوبنهيمر Jacob Robert oppenheimer، وحدث أوّل اختبار نووي في ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ في صحراء **المكسيك الجديدة**، وبعد ثلاثة أسابيع في السادس من أغسطس ألقيت قنبلة من الأورانيوم، سُمّيت بالطفل الصغير على **هيروشيما**، ويوم ٩ أغسطس انفجرت قنبلة أخرى من البلوتونيوم فوق ناكازاكي، وكانت تحمل اسم الرجل السمين.

= الحروق والصدمات والحروق الإشعاعية والتسمم الإشعاعي. ومنذ ذلك الحين، توفي عدد كبير بسبب مرض السرطان. (المترجان)

كانت الحادثتان صدمة حقيقية بالنسبة إلى آينشتاين الذي أحسّ بثقل المسؤولية، ولقد كتب يقول: " لقد ارتكبت أكبر خطأ في حياتي عندما أرسلت إلى الرئيس روزفلت اطلب منه إنجاز القنبلة الذرية (...) حتى وإن كانت هناك بعض المبرّرات لذلك والمتمثّلة في أنّ الألمان كانوا سيبادرون إلى صنعها"، وكما أشار إلى ذلك الياباني كنجي سوجيموتو Kenji Sugimoto الذي كتب سنة ١٩٨٧ يقول: " لقد آلَمَته أيضا فكرة مساهمته العلمية في القنبلة، حينما اكتشف العلاقة بين الكتلة والطاقة". كان آينشتاين لا يفوّت مناسبة بعد ذلك دون أن يدافع عن قضية السلام، وكان دائما يتساءل في يأس حول الدلالة التاريخية للعلم التي دفع ثمنها باهظا. لقد توصّل في إحدى "رسائله إلى المثقفين" سنة ١٩٤٨ إلى إقرار حزين يقول فيه: "إنّ قدرنا المأسوي -نحن الباحثين- هو المشاركة في خلق وسائل أنجع لإبادة الشعوب".

واليوم في سنة ٢٠٨١ تذهلنا مثل تلك النصوص، إنّنا لا نشكّ البتة في حسن نوايا آينشتاين، ولا في صدق أقواله، لقد تصرّف على أية حال بما يراه ملائما، لكن حالته بدت لنا معبّرة عن الإفلاس الثقافي الذي تحدّثنا عنه غير مرّة.

كيف عمِيَت بصيرة رجل بمثل ذلك الإحساس أمام تطوّر العلم التقني الغربي؟ لقد كان آينشتاين يتحدّث في بعض الأحيان عن العلم كما لو كان الواجب الوحيد للباحث هو تطوير المعارف "النظرية الخالصة"، ومن ثمّ لم يكن العالِم بصفته العلمية تلك مسؤولا عن "التطبيقات السيئة"، وكان على المواطنين (وهم وحدهم المسؤولون) مراقبة تلك التطبيقات، لقد كانت إجابة آينشتاين واضحة سنة ١٩٥٢ حول هذه النقطة حين قال: " لم يكن اختراع التفاعلات الذرية المتابعة يمثّل بالنسبة إلى الإنسانية خطرا أشدّ سوءا من اكتشاف أعواد الكبريت، ولكن

يجب علينا أن نعيد النظر في كلّ شيء، حتّى نتخلّص من الاستعمال السّيّء للوسائل"، هل نفهم من ذلك أن لا لوم على آينشتاين المنظّر، وأنّ آينشتاين المواطن وحده الخطّاء. بعبارة أخرى لقد استطاع ذلك الرجل العظيم أن يتبنّى أبشع القوالب الجاهزة، فوجب علينا تبرئة الباحثين ولو أدّت البحوث العلمية إلى نتائج كارثية، أمّا إذا كانت "التطبيقات" جيّدة، فقد وجب علينا الثناء عليهم. لقد كتب آينشتاين يقول في ذلك: "ينبغي أن نعرف كيف نبارك التقدّم العلمي الذي أنجز خلال هذا القرن لا لشيء إلا لتلك التطبيقات العملية والصناعية التي نتجت عنه".

لابدّ أن آينشتاين كان يدرك إدراكا يصعب تفسيره أن تلك الاعتبارات تبقى دائما سطحية، ولقد حدث أنّ اعترف -بشيء من التحفّظ- أنّه ربما كان للعلماء قسط من المسؤولية في تطوير الأسلحة، وعلى ذلك ينبغي الإقرار بحقيقة أن آينشتاين لم يتوصّل قطّ إلى إدراك أنّ العلم الغربي باعتباره مؤسّسة كان دائما في ارتباط عضوي مع العسكريين، ولم يفهم قطّ أنّ العلم الغربي في جوهره يملك القدرة على إنتاج أسلحة أشدّ فتْكًا.

كان إذا أثار قضيّة مسؤولية الباحثين عامّة بسطها في نطاق أخلاقيات المواطنة الفردية، أي إنّه لا ينبغي لرجل العلم أن يسخّر نفسه لخدمة السلطات السياسية. لقد اقترح سنة ١٩٤٧ مثلا في رسالة بعث بها إلى نوربار وينر Norbert Wiener " أن يلتزم كلّ عالم التزاما مبدئيا بعدم توريط نفسه في المجال العسكري"، واحتجّ بقوله: " إنّني لم أشارك قطّ في بحث ذي غايات عسكرية، أيّا كان نوعه، ولم أشارك قطّ في أعمال ذات صلة بصنع القنبلة الذرية، قُصارى مساهمتي في ذلك المجال هو بياني سنة ١٩٠٥ لعلاقة قائمة بين الكتلة والطاقة، وهي لعمري حقيقة فيزيائية عامة جدّا لا علم لي بتطبيقاتها العسكرية الممكنة".

كانـت تلك الحجج أَوْهَـن من بيت العنكبوت حملت آينشـتاين على الإدلاء بتصريحات يصعب قبولها كما ارتأى ذلك بجلاء الأسـتاذ دوبان، فَلْنُلْقِ نظرة مثلا على هذه الأسـطر التي خطها سـنة ١٩٤٩ ليرسـل بها إلى هربرت جيهل Herbert Jehle، وهو فيزيائي ألماني المنشأ: " لم يعمل معظم العلماء الأمريكيين الكبار قطّ لصالح الأبحاث العسـكرية، ولم يكن ذلك شـأن العلماء الألمان، ومع ذلك كان واقـع الأمـر أن عـددا مـن الباحثين الشـبان الذين لم يـذع صيتهم بعـدُ قد رضخوا للضغط الاجتماعي والسياسي الذي لم تتسنّ مقاومته".

هـل كان آينشـتاين يعتقـد فعـلا أن تلـك الاعتبـارات سـتفضي بنـا إلـى لـب الموضوع؟ أكان العِلم "الأمريكي" الذي طبّق مشـروع منهاتن أنْقى فعلا من العِلم "الألماني" الذي اسـتخدم في صنع فاو ٢[1] وأدوات أخرى للتدمير؟ والأدهى من ذلـك أن آينشـتاين يغالط التاريخ عندمـا يتهم "الباحثين الصغـار" دون من يكبرهم سنّا، فلقد تضافرت للقنبلة الذرية جهود العديد من الفيزيائيين الذين لم يكونوا من "الشـباب" ولا من "المبتدئين"، لقد ولد فرمي Fermi سـنة ١٩٠١ ووينر Wigner سـنة ١٩٠٢ وتالـر teller سـنة ١٩٠٨ وزيـلارد Szilard سـنة ١٨٩٨ وأوبنهايمـر Oppenheimerسنة ١٩٠٤.

ويبدو أنّ آينشتاين لم يفهم قطّ حقيقة ما حصل له، إذ لم يستطع خلافا لـلويس

(١) فاو-٢ (بالألمانية: Vergeltungswaffe 2 وتعني «سلاح الانتقام»)، عرف اختصاراً باسم **V-2** هو أول صاروخ باليستي وأول جهاز من صنع بشري يصل إلى مدار كوكب الأرض. يعد فاو-٢ الأساس الذي بنيت عليه كل الصواريخ الحديثة بما فيها الصاروخ القمري ساتورن ٥. أطلق الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية أكثر من ٣,٠٠٠ صاروخ فاو-٢ على قوات الحلفاء تسببت في مقتل أكثر من ٧,٢٥٠ شخص ما بين مدني وعسكري. (المترجم)

مومفورد Lewis Mumford استحضار تاريخ الغرب ليدرك هذه الظاهرة الكبرى، التي مفادها أن الجندي والفنّي والعالم كان يجمعهم حِلف وثيق، فلم تكن القنبلة الذرية من زاوية النظر هذه أمرا عرَضيا، إنها تندرج ضمن سلسلة ممتدّة من "التطوّرات"، كانت تُسمّى المنجنيق والمدفع والزورق القاذف واللغم والسفينة الحربية الحرّاقة والسفينة المهاجمة والقنبلة الحارقة والغاز الخانق وما إلى ذلك، ومن البديهيّ عدم توقّع زمن ظهور مثل تلك الاختراعات وكيفيتها بكلّ دقّة، ولكنّ المنظومة الغربية كلّها هُيِّأت بعْدُ لتجعلها تظهر وتتكاثر إلى ما لا نهاية. فلْنَترُك الكلمة لمومفورد إذ يقول: " إنّ اعتبار فظائع الحرب الحديثة نتاجا عرضيا لتطوّر تقني بريء وهادئ، يعني بالضرورة تناسي الأحداث الأوّلية لتاريخ الآلة"، ولقد كان العلم الحديث باعتباره علما تقنيّا متورّطا مباشرة هو ذاته، في ذلك المسار التاريخي العام، ولو انفتح آينشتاين على أفكار بسيطة مثل هذه، لتمكّن -على الأقلّ- من فهم الدلالة الثقافية " للقدر المأسوي" الذي كان كثيرا ما يشير إليه.

كان بالفعل يصف معاناة العلماء في نصوصه المختلفة بالتركيز على موضوع نتائج بحوثهم التي " التفّ عليها أرباب السلطة، وهم أناس لا أخلاق لهم". كان الساسة هم الأشرار إذن، وأحيانا كان يستهدف آخرين إلى جانب هؤلاء، إذ يعزو أصل الداء إلى "السلطة الاقتصادية والسياسية، ومن ثمّ إلى السلطة العسكرية"، وهو ما يفسّر فضائح من قبيل أنّ العالم الذي لا همّ له سوى البحث عن الحقيقة كان "مهانا" و "مكمّما" و"مستعبدا".

كيف أمكن لآينشتاين أن يتغافل إلى ذلك الحدّ عن ثقل التاريخ، وأن ينسى الأصول البعيدة للمشروع العلمي؟ كان يعلم جيّدا – في المقابل- أنّ الحضارة

الغربية مصيرها إلى الهلاك لا محالة، ولقد كتب يقول: " إنّ تلك المنظومة تقود كلّها إلى الدمار الكوني لا محالة". لماذا لم يدرك إذن أنّ العلم نفسه يمثّل جزءًا لا يتجزّأ من ذلك النظام القاتل؟

كان رجال العلم يتصرّفون جماعيا إلى حدود **الانفجار الأكبر** كما لو كانوا غير واعين بغموض وضعيتهم، وكانوا يتلاءمون بكثير من المرونة مع جميع الظروف، وحتى إذا انخرطوا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في أحد المشاريع التكنولوجية المشبوهة، كانوا ينسون في النهاية مسؤولياتهم في ذلك، (ويُحملون على نسيانها)، وكما قال جون جاك سلامون كان عليهم الاقتناع "ببراءة العلم" الذي يقابله في أذهانهم " توجيه الاتّهام إلى التكنولوجيا"، ولم يكن النقد المعمّق سواء صيغ داخل المؤسسة أو خارجها موضع تجاهل فحسب، وإنما كان العديد من العلماء يتذمّرون من "نقمة الناس" عليهم، فقد كان ذلك يؤلمهم كثيرا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بعض العلماء، كانوا أقلّ اندماجا في المجتمع الصناعي من غيرهم، لقد كان للعديد من علماء الطبيعة مثلا ميول "بيئية" متفاوتة، ولم تكن الوضعية في الجملة أقل إنذارا بالخطر، ولقد تساءل الأستاذ دوبان عن سبب عزوف تلك النخبة المفكّرة التي من المفترض أن تكون متألّقة، عن معرفة ماضيها الثقافي والآليات الاجتماعية الذاتية التي كانت تحكمها، فقد أظهرت لنا بعض الوثائق إلى أيّ حدّ كان الحاجز عميقا.

لقد وصف أحد البيولوجيين البارزين، سبق أن ذكرناه، ويدعى فرانسوا يعقوب الحالة بقوله سنة ١٩٨١: "منذ سنوات قليلة كان كثيرا ما يُلقى باللائمة على العلماء، فكانوا متّهمين بقسوة القلب، وغياب الضمير، وعدم الاهتمام ببقية الناس، وبأنّهم أناس خَطِرُون، لا يتوانون في استنباط وسائل مروّعة للدمار والقهر، ثمّ لا يتردّدون في استخدامها".

لا شـكّ أنّ فـي ذلك القول شـيء من المبالغة، إذ لا يـكاد يُذْكَر لذلك "اللوم" الشـديد أثرٌ في الجمهور العريض عموما، ورغم ما بذلناه من جهود، فإننا لم نعثر علـى نصوص تتّهم العلماء بـ" اسـتخدام" الأسـلحة التي كانـوا وراء ابتكارها، لقد سـعى أوبنهيمـر وفرمـي وآخرون معهـم بحماس إلى المشـاركة في صنـع القنابل الذرية لكنّهم تركوا مهمّة إسقاطها من الارتفاع الذي حدّده فون نيومان John Von Neumann [1] إلـى عسـكريين همجييـن أجـلاف وحتّـى في سـنة ١٩٩٢، عندما تدهورت الأمور أكثر فأكثر، بقي العلماء متمسّكين بموقفهم، وظلّوا يتمتّعون بهالة مـن الوقـار والاحتـرام. كان المواطنون لا يبدون أيّ معارضة حقيقية رغم مشـاعر الريبة التي كانت تعتريهم، وكان ذلك رأي جون جاك سلامون على الأقلّ: فـ" كلّ اسـتطلاعات الـرأي تظهر -خلافًا لذلك- أن الصـورة النمطية للعلم (خاصة تلك التي يظهر العالم من خلالها خادمًا وفيا لمصالح البشـر) بقيت ماثلة في التمثّلات الاجتماعية دائما".

ولكـن مختلـف تلـك النقـاط تعـدّ ثانويـة جدّا، فمـا اسـترعى اهتمامنـا وأثار مخاوفنا في آن هو تلك الحجّة التي لجأ إليها فرانسوا يعقوب لتبرئة العلماء حيث يقول: " إنّ وجود عدد من الحمقى والأشرار في أيّ شريحة من شرائح الشعب أمر طبيعـي ثابـت لـدى العلمـاء، كما لـدى أعـوان التأمين، ولـدى الكتـاب كما لدى

---

(١) **جون ڤون نويمان** John von Neumann (٢٨ ديسمبر ١٩٠٣ - ٨ فبراير ١٩٥٧) هو عالم رياضيات أمريكي مَجَري المولد، له إسهامات مهمة في علم الحاسوب والفيزياء الكمية والاقتصاد. وضع هندسة للحساب بالحواسب الرقمية. وقوامها خمسة عناصر أساسية تؤمّن له أداء متعدّد الأغراض، هذه العناصر هي وحدة الحساب ووحدة المنطق ووحدة التحكم ووحدة الذاكرة ووحدة الإدخال ووحدة الإخراج. وجميع الحواسيب المستخدمة حاليا تعمل وفق هذا التصميم. (المترجمان)

المزارعين، ولدى رجال الدين كما لدى الساسة، ورغم وجود أمثال د. فراكنشتاين *Dr Frankenstein* ود. سترانغلوف *Dr Strangelove* فإنّ كوارث التاريخ تسبّب فيها رجال الدين والساسة أكثر من العلماء".

لقد وضّح هذا النصّ أخيرا الأسباب التي جعلت الغربيين يجدون صعوبة في إدراك دلالة علومهم، فقد طرح المشكل وهو - لعمري- أمر عجيب لا من حيث هـو تاريـخ ومؤسسـة وثقافة فقـط، وإنّما من خلال مجـرّد انطباعـات تحوم حول خصال الأفراد المعنيين وعيوبهم.

لقد امتنع الأستاذ يعقوب عن طرح هذا السؤال: هل كان **العلم والجيش** منذ قرون في علاقة حميمة؟ نعم أم لا؟ كان لا يتساءل أيضا عمّا إذا كان الباحثون -في الوقت الذي كان يخطّ فيه تلك السطور- يتسلّمون أموالا من مصادر عسكرية أم لا. لطالمـا كانت المسـائل التي تبدو لنا اليوم أساسية توضـع جانبا، فلماذا وكيف أنشأ البورجوازيون "العلم"؟ وهل يمكن اعتباره محايدا من الناحية الفلسفية؟ ألم يكن العلم بطريقته الخاصة تعبيرا عن مشروع اجتماعي ثقافي؟ لقد أُخْتزلت بكثير من السهولة قضية مسؤولية رجال العلم في السؤال التالي: "أكان الحمقى والأشرار عنـد العلمـاء أكثر عـددًا منهم لدى أعـوان التأميـن والكتّـاب والمزارعين ورجال الدين والسياسة؟

من البديهي أن يكون الجواب عن مثل هذا السؤال بالنفي، فليطمئنّ الجميع، إنّ نسبة الحمقـى والأشـرار ليسـت أعلى فـي المختبـرات منها في غيرهـا، بل إنّ الأستاذ يعقوب أطلق هجومًا مضادًا عندما صرّح بأنّ الكوارث التي حصلت عبر التاريـخ كان رجـال الديـن والساسـة هـم المتسـبّبون فـي حدوثها أساسـا، أينبغي الاعتقـاد إذن أنّ عـدد الأشـرار الـذي مـن المفترض أن يكـون ثابتـا، كان أكبر في

الكنائس والحكومات؟ أكان من الممكن اعتبار تعداد الحمقى والأشرار أداة فاعلة في دراسة تاريخ الثقافات بصورة عامّة؟

لقد أمضى فريق بحثنا وقتا طويلا في تأمّل هذا النص دون الوصول إلى سبر أغواره الفكرية والرمزية، وقد بدا لنا أنّ باب التفكير العلمي عند الغربيين لم يكن مسدودًا فحسب، وإنّما كان مُرْتَجًا بإحكام، لقد أصدر بعض الحائزين على جائزة نوبل وآخرون أقلّ شهرة رسائل مشابهة لتلك التي بعث بها فرانسوا يعقوب، ونفهم من ذلك أن عموم الباحثين لم يشعروا بضرورة التفكير الجدّي والجماعي حول أنشطتهم، فقد حُسِمَ الأمر بسرعة بيْن آراء أمثال شابيرو وتستار من المتمرّدين و"التفسيرات" المطمْئِنة التي كان يقدّمها كبار الموظفين.

أما عامة الناس فكانوا يفتقرون إلى وسائل للتدخّل في حوار لم يطّلعوا جيّدا على رهاناته، كان أقصى ما يمكنهم فعله هو أن يتبنّوا موقفًا يقوم على الحذر والريبة، ولم يكن باستطاعة صُحفيي العلوم أن يأخذوا بأيديهم نحو نقدٍ فيه شيء من القوّة والحماس، أمّا رجال السياسة فكيف كان بإمكانهم التخلّص من الخطابات المصطنعة حول ضرورة تشجيع العلماء والثقة فيهم؟

لقد أصاب الأستاذ دوبان عندما أكّد أنّ في الغرب بعض العلماء الذين جمعوا بين الشهرة والحصافة، ولكن كانت كتاباتهم النقدية (اللاذعة أحيانا) إذا خرجت من أوراقهم الخاصة قوبلت بتجاهل تامّ، وكان علينا - مثلا- أن ننتظر إلى حدود سنة ١٩٣٧ حتى تنشر هذه الفكرة لكلود برنار (الذي توفي سنة ١٨٧٨) إذ يقول: "يمثل العلم أحيانا مناسبة تقال فيها أكبر الحماقات، دون أن ينتبه الناس إلى ذلك"، وأقلّ ما يمكن قوله هو أن **الغرب** لم يراعِ ذلك التحذير قطّ، ولا حتى لذاك الذي صدر عن الشاعر بول فاليري عندما قال: "إنّ العلم ليفضي -وهو الذي نسج من خيوط الشك والريبة- إلى اعتقاد ساذج في ذاته".

وسنرى أنّ كثيرا من العلماء انتهوا إلى عدم تبيّن حدود مهاراتهم، لقد اعتقدوا -شأنهم شأن مارسلان برتلو Marcelin Berthelot- أنّ العلم مؤهّل لأن يأخذ على عاتقه " قيادة المجتمعات فكريا وأخلاقيا"؛ ذلك أنّ سان سيمون لم يجانب الصواب حين رأى في "العلم" السلطة الروحية المستقبلية القادمة. ينبغي أن نتّفق على أن العلماء لم يشكّلوا كنيسة حقيقية قطّ، ولم ينصّبوا قطّ أنفسهم زعماء في عالمي الفكر والقداسة بصورة رسمية كاملة، ومع ذلك كان لهم أثر بالغ في الثقافة البورجوازية استمرّ إلى يوم الطامّة الأخيرة، ولا شكّ في أن ذلك لم يكن ناجمًا عن حسابات مقصودة، ولكن الإصرار على الدفاع عن "فكرة العلم الخالص" كان بمثابة استيلاء خفي على السلطة، فبقدر ما قدّم العلماء أنفسهم باعتبارهم منظّرين نزهاء، وأثبتوا "عُلويتهم" على المهندسين، عزّزوا المكانة شِبه الكنسيّة لمهنتهم، لقد أشار عديد من أعضاء فريق بحثنا فعلا إلى أنّ تلك القداسة التي لا يمكن إنكارها إلى حدّ بعيد كانت أمرا لا مفرّ منه، ففي كلّ مجتمع يبرز التقابل بصورة أو بأخرى بين المقدّس والدنيوي، ولقد ابتدع مجتمع الاستهلاك إذن هو أيضا الإكليروس المناسب له (أو إذا شئنا إكليروسا مزيّفا).

خذ لك مثلا الكيفية التي وصف بها سنة ١٩٣٠ بيار ترميي Pierre Termier وهو جيولوجي وعضو في المعهد المذكور مكانة الباحث "الخارقة" فقال: " إن الولع الذي هو أساس الموهبة العلمية، ذلك الولع العجيب الخارق تطلّ به على قلب العالِم إشراقة تُسْتَكْشَف، وجمال يُتَوقّع، وبصيص نور بسيط، هلَّ من مكانٍ بعيد إثْر رحلةٍ مضنيةٍ في ظلمات سحيقة، انبثق من الحقيقة التي هي بداهةً مُنتهى أحلامنا ومبتغى عقولنا، إنها ذلك القطب الذي ينبغي أن ترنو إليه حياتنا". كان الكاتب كاثوليكيًا متحمّسا، وكانت لهجة خطابه مختلفة عمّا عهدناه لدى أتباع رينان وبارتلو إذن، ولكنّ الفيض "الصوفي" بقي على حاله عندما كان الأمر متعلّقا

باستمالة عقول عامة الناس، فكان يقال: "إنّ الحياة خلقت للعلم ولولا العلم لما كانت جديرة بأن تعاش"، وقيل أيضا: "تبدو البهجة التي ترافق المعرفة مضنيةً جدّا إلى حدّ أنّ الخوف من أن نهْلك بسببها يتملّكنا، شأنها شأن **النظر** إلى الرب".

لقد أكّد كثير من العلماء أواخر القرن العشرين، أنّ "العلم" لم يعد إلهًا يُعبد، وكان بعضهم يردّ الفعل بشراسة كلّما وضعت المسألة على بساط البحث، علينا أن لا نشكّك في صدق نواياهم، ولكن بدا لنا أنهم كانوا يُقلّلون كثيرًا من أهمية الآثار الثقافية لتقاليد عريقة في الغرب أساسها عبادة العلم، فمنذ كوندورسي تحديدا، كانت جميع الشخصيات النافذة -على اختلافها- تغالي في تمجيد **العلم**، ودرَجَت العامة شيئًا فشيئًا على تشريفه والاعتراف بفضائله الكثيرة، والتصريحات الرنّانة مثل هذه التي أدلى بها بيار جوزاف برودون **Pierre Joseph** Proudhon تكاد لا تنتهي: "فمثلما يوجد علم متعلّق بالظواهر الفيزيائية لا يعتمد إلا على معاينة الأشياء (معاينة مباشرة) ينبغي أن ننشئ علما للمجتمع يكون مطلقًا صارمًا، عماده طبيعة الإنسان وملَكاته وعلاقة الإنسان بتلك المَلكات، وهو علم لا ينبغي اختراعه وإنما يجب اكتشافه".

كان بعض علماء الاجتماع يتبنّون خطابًا من ذلك القبيل، حتى في القرن العشرين، وكان هناك على ما يبدو من ينصت إليهم. إنّ التفسير الوحيد الممكن الذي يلوح لنا، هو امتلاك العلم لنوع من السلطة الدينية بعد أن أصبح -في رأي الأستاذ دوبان- أفيون الشعوب، إنّ من شأن هذا التأويل أن يفسّر لنا الأسباب التي جعلت أهل الحداثة سُذّجا في مجالٍ ما كانوا يسمّونه العلوم الاجتماعية، إنّهم لم يستطيعوا حتى الإصغاء إلى نداء ماكس فيبر الملحّ، وفحواه أنْ " لا وجود مطلقا لتحليل علمي "موضوعي" للحياة الثقافية (...) (لأنّ) مفهوم الثقافة مفهوم قيمي".

كان الإطراء المغالي للمعرفة العلمية أمرا شائعًا في ميدان العلوم الأكثر تأليها، إنّنا نتذكّر جميعا جاك مونو الذي قال: إنّ العلم هو " المصدر الوحيد للحقيقة الأصلية"، وإذن فقد سلّم عامّة الناس في النهاية بأنّ رجل العلم خلق من معدنٍ راقٍ، وينبغي الإنصات إليه باحترام، حتى وإن كان حديثه مُبهَمًا مُضطربًا. لقد أكّدت لنا عديد القرائن رأي الأستاذ دوبان عندما قال: "نهض رجل العلم عند المتحضّرين - في حالات عديدة- بالدور نفسه الذي كان ينهض به الشاعر عند الشعوب التي تسمّى بدائية".

لقد لاحظنا على سبيل المثال هذه الظاهرة الغريبة جدّا، إذ يمكن لعالم من العلماء أن يروّج على مرأى ومسمع من الجميع لفكر اجتماعي يبدو غير مقبول، (أو حتى محرّمًا) لدى رجال السياسة العاديين. كان علم تحسين النسل مرفوضا عند عدد كبير من مواطني أهل الحداثة، وحسب هذا المذهب، ينبغي فعلا التسليم بأنّ هناك "بشرا دونيين" وحتى "أجناسا بشرية دُنيا"، يحسن التخلّص منها؛ لكي يصبح بالإمكان تحسين النسل، فباسم علم تحسين النسل أباد هتلر بضعة ملايين من البشر من اليهود والغَجَر على وجه الخصوص، فمن حيث المبدأ كان إذن كلّ سياسيّ يعتزم تعقيم الرجال والنساء أو إبادتهم، مدّعيا "دونيتهم" المزعومة محلّ إدانة شديدة، وفي سنة ١٩٤٦ أُنشِئت بالفعل منظمةٌ عالمية تدعى **اليونسكو** (المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم) تهدف أساسًا إلى تفادي ظهور فكرة " الأجناس الدونية" مرّة أخرى بشكل أو بآخر.

لذلك كم كانت دهشة فريق بحثنا كبيرة، عندما اكتشفنا أنّ أوّل مدير عام لليونسكو كان بيولوجيا يعتنق علم تحسين النسل، ويدعى جوليان هكسلي Julian Huxley وكان يُعدّ من كبار المختصين في التطوّرية وعلم الجينات، ولا مجال

للشك في أنّه كان مناضلا بارزا في العمل على "التحسين العلمي" المزعوم للجنس البشري، وباعتباره عضوا في جمعية علم تحسين النسل Eugenics Society، فقد نشر سنة ١٩٢٠ مقالا نطالع فيه: "إنّ الفارق الذهني بين فصيلة البشر الدونيين والعباقرة من البشر شاسع، بحيث يشبه ذاك الذي يفصل الإنسان عن القرد (...)، فعندما يصبح علم تحسين النسل ممارسة مألوفة، ستكون مهمته في البداية - بحسب ما أمكن لنا توقّعه- هي الانكباب الكامل على بلوغ المعدّل، وذلك بتغيير نسب الأنساب الرديئة مقارنة بالأنساب الجيّدة، وبإزالة أسفل الطبقات في المجموعات المختلطة جينيا".

إنّ نصا مثل هذا الذي قرأنا يثير مسائل على غاية من الأهمّية، إذ كيف سنعيّن "الأنواع البشرية الدونية" وكيف يمكننا التمييز بين النسل "الجيّد" والنسل "الرديء"؟ وكيف نتخلّص من أسفل الطبقات في شعب مختلط جينيا؟ يبدو أن السلطات التي عيّنت جوليان هكسلي لم تُعِر اهتماما لتلك التفاهات. ينبغي أن نؤكّد أنّ السيد جوليان هكسلي قد واصل أنشطته في مجال علم تحسين النسل طويلا بعد تسميته على رأس اليونسكو، حتّى إنّه أصبح رئيسا لجمعية علم تحسن النسل بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٦٢. وكان قد قدّم سنة ١٩٦٢ المحاضرة السنوية الكبرى لهذه الجمعية قراءة غالتون *Galton Lecture*[١] فمنذ سنة ١٩٣٦ كان له شرف تناول موضوع علم تحسين النسل والمجتمع.

---

(١) **فرانسيس غالتون** (١٨٢٢-١٩١١)، عالم إنجليزي رياضي في العصر الفيكتوري. أصبح مشهورا بفضل أبحاثه في علم الأرصاد الجوية والوراثة وعلم الإنسان. زعم غالتون أن النبات والحيوان يتنوعان حسب أنماط معينة. واستنبط طرقاً إحصائية جديدة وطبقّها في دراسة الوراثة. وكان أول من أطلق اسم Eugenics الإنجليزي على علم تحسين النسل. دعا غالتون إلى التحسين المنظم للجنس البشري باختيار من سماهم بالوالدين المتفوقين. وترك في وصيته بعض المال لتأسيس قسم تحسين النسل في جامعة لندن. (المترجمان)

ينبغي أن نمحّص النظر من النقطة التي تهمّنا بالدرجة الأولى، ففي الدول "الديمقراطية" لو جاز لنائب من النواب أو لرئيس حزب أن يخوض فيما تحدّث فيه جوليان هكسلي لوُوجِه بانتقادات لاذعة، فلماذا ارتضى الديمقراطيون إذن لمنظمة اليونسكو ما لم يرتضوه باعتبارهم مواطنين في أمة من الأمم؟ لا ريب في أنّ ذلك يعود إلى ذاك السحر الذي يختصّ به العلم، والذي بفضله أصبحت تلك المعجزة ممكنة، لم يكن جوليان هكسلي حفيد العالم البارز توماس هكسلي فحسب، وإنّما كان هو نفسه بيولوجيا لامعا، وكان ذلك كافيا كي يضمحلّ الحسّ النقدي **للأمم المتحدة**، وكي تعلن كلّ شعوب العالم، "سفلية" كانت أم غير سفلية، عن رضاها بل عن غبطتها. تلك هي السلطة الروحية بعبارة سان سيمون.

ولمّا كان مجرّد النطق بلفظ "العلم" يستهوي قلوب العامّة تجرّأ العديد من المختصّين على تجاوز حدود اختصاصاتهم، وحلّوا محلّ الفلاسفة الفاشلين، ولقد حدّث الأستاذ دوبان فقال: "بمجرّد ما يَذيع صيت عالم من العلماء بفضل بحوثه العلمية على وجه التخصيص، يصبح قادرا على أن يقول ما يشاء، ربما لا يصدّقه الناس دائما، ولكن أقلّ ما يقال إنّه يحظى بسمعة جيّدة لديهم، وبقدر ما يوغل في الإبهام تكون فرص تفادي الصدود عنه ممكنة". كان بعض المختصّين في العلوم الكونية من بين العلماء الذين لا يتردّدون في إثارة مواضيع لاهوتية، كان ذلك شأن ستيفن هاوكينغ Stephen Hawking الذي كان يشغل كرسي الرياضيات في جامعة كمبريدج المرموقة، ثمّ ذاع صيته بفضل الأبحاث التي كان يقوم بها حول نشأة الكون.

ففي مؤلّفه حكاية الزمن القصيرة التي أصدرها لتبسيط أحدث النظريات لخّص فرضية من بنات أفكاره تقول بـ" إمكانية أن يكون الحيّز الزمني متناهيا

ولكـن دون أن تكـون لـه حدود" وأضاف أنّ معنى ذلك هـو " انتفاء البداية وانعدام لحظـة خلـق"، وإذا صحّـت هذه النظريـة فملخّصهـا: أنّ الربّ لم يسـتطع حقاً أن يخلـق الكـون، ولقد تلاعب هاوكينـغ غيرَ مرّة بهذه الفكرة حيـث قال: " إذا كانت قَضِيَّـةُ جُملـةٍ مثـل: " ليس هناك حـدٌّ" قضيّةً صحيحة، فلا حريـة [للإله] في اختيار ظروف الخلق الأوّلية".

كان ذلـك العالـم الكوني يقوم صراحة بوظيفة اللاهوتيين على النمط القديم، ويـرى من الطبيعي جدّا (حسـب قوله هو) التفكير حـول موضوع "الفكر الإلهي"، والأدهى من ذلك أن كثيرا من أهل الحداثة يرون في ذلك تطوّرا حقيقيا في التأمّل الميتافيزيقـي والديني، فقد طُرحت المشـكلات القديمـة المتعلّقة بالعقيدة بطريقة "موضوعيـة"! أخيرا. كانت مثل تلك المواقف تضحك الأسـتاذ دوبان كثيرا، كلّما أعاد استحضارها.

ولكـن هـل كان للقـرّاء العاديـين القـدرة علـى إدراك حجج سـتيفن هاوكينغ المعقّدة؟ في الواقع كان الخبراء وحدهم القادرين على إدراك معنى الحيّز الزمني "المتناهـي ولكـن دون حـدود"، لنذكـر أنّ "المتناهـي" صفـة تنطبـق مفهوميـا على الأشـياء التـي لها حدود وحـوافّ، فإذا كان الكون متناهيا فلـم لا تكون له حدود؟ يجد العامّة أنفسهم خارج دائرة التفكير الحقيقي والنقاش الجادّ، بسبب نقص في الثقافـة الرياضيـة والفيزيائية اللازمة. كان من الممكن جـدّا أن يقال لهم بأنّ الحيّز الزمنـي كان لا متناهيـا ولكن له حدود، وما كانوا ليعترضوا على ذلك. لقد وجدوا أنفسهم علميا في حالة إيمانية لـم يطرح فيها المشكل الحقيقي أصلا.

لقـد صرّح سـتيفن هاوكينغ بالفعـل أنّه من المحتمل اكتشـاف العلماء لنظرية جديـدة تكـون "كاملـة" ومفهومـة من قبـل الجميع فـي آن واحد، فبيـت القصيد لا

يتعلّق بالنظريات العلمية في حدّ ذاتها وإنّما في الاستخدامات اللاهوتية التي وظّفتها. إنّنا نأسف لعدم اطلاع هاوكينغ على بيغي Péguy الذي كتب يقول: "إن مصير عالم ما وراء المادّة لا علاقة له بمصير عالم المادّة"، كيف أمكن **للغربيين** أن يتخيّلوا أنّ النماذج الكونية تمكّن (بطريقة أو بأخرى) من حلّ مختلف المعضلات التي يتضمّنها لفظ "الإله"؟

فالحديث عن الربّ يعني بالدرجة الأولى التساؤل عن معنى العالم والحياة والتاريخ (أو عدم معناه) وما إلى ذلك، وكان مجال الحرية مفتوحًا إذن أمام رجال العلم ليستنبطوا "النماذج" و"الفرضيات" التي تروق لهم، وكلّ ما أمكن لهم اكتشافه في أحسن الأحوال هو فكرة الإله المهندس، ولكن هل أنارت الهندسة التي تعاطاها الإله ذو اللحية البيضاء سبيل البحث عن المعنى؟ كانت كبيرةً جدّا تعاسةُ ذلك العصر التي تدفع الجمهور العريض إلى إنجاح تلك التّخاليط اللاهوتية العلمية.

لم يكتف رجال العلم بالتأمّل في **الإله**، لقد كان لكثير منهم طموحات وآفاق أوسع. كانوا يرومون صراحة استيلاء **العلم** مستقبلا على الميادين التي كانت تنتمي قديما إلى الفلسفة، فما هو الإنسان؟ وكيف ينظّم المجتمع؟ وجميع تلك المسائل، ومسائل أخرى، هي -في رأيهم- من مشمولات الكفاءات العلمية، ولقد وُجد على مدى القرن العشرين مختصّون بارزون وخاصة منهم البيولوجيون أخذوا على عاتقهم تلك الأوهام "التقدّمية"؛ لذلك كتب ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء والطبّ سنة ١٩٣٥ يقول: " إن قوانين العلم سارية على كلّ ما يمكن ملاحظته سواء أكان روحانيا أم ذهنيا أم فيزيولوجيا، فالإنسان بأبعاده كلّها، يمكن إخضاعه للمنهج العلمي"، و ينطبق ذلك على حياة

الفرد وعلى حياة الجماعة، وأضاف كاريل يقول: "ينبغي إذن أن نتخلّى عن الأنساق الفلسفية وأن نمنح ثقتنا كلّها للمفاهيم العلمية". وقد اندفع ذلك الكاتب نفسه نحو تحاليل مثيرة جدّا حتّى لا يبقى محلّقا بعيدا عن الواقع فقال: " إن تقسيم بلد من البلدان إلى طبقات مختلفة (...) له أساس بيولوجي عميق، فاليوم ينبغي أن ترتقي الطبقات الاجتماعية طبقات بيولوجية"، من أجل ذلك بُعِث مشروع البيولوجيا السياسية ذلك المشروع الحيوي فـ"إنشاء أرستقراطية بيولوجية وراثية بفضل علم تحسين النسل، سيكون بمثابة الخطوة الأولى المهمّة على درب حلّ مشكلات العصر الكبرى".

كان عنوان المؤلّف الذي تضمّن هذه الأفكار الإنسان ذلك المجهول، وبعد أن ترجم إلى أكثر من تسع عشرة لغة، وطبع بمئات الآلاف من النسخ عُدّ من الكتب الكلاسيكية، وكان للغربيين -بلا شكّ- ميلٌ واضحٌ إلى ذلك النوع من الأدبيات، ولا ريب في أنّهم كانوا يشعرون بالطمأنينة عندما يستميلهم إرساء أخلاق ترتكز على العلم، وقد كانوا في غاية الابتهاج بما حدّثهم به سنة ١٩٦٣ أحد المختصّين في السلوك الحيواني، يدعى كونراد لورانز Konrad Lorenz، فقال: "إنّ التعليم الجيّد للبيولوجيا هو الأساس الوحيد الذي نستطيع أن نبني عليه مواقف صحيحة حول الإنسانية وحول علاقتها بالكون (...) ومعرفة كافية بالإنسان وبمكانته في الكون، وأن يحدّد بصورة آلية المُثُل التي يجب أن نكافح من أجلها"، وبعد ذلك بقليل، أي سنة ١٩٧٣، حاز ذلك العالم جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء والطبّ. فلماذا لم يتحمّس الناس لسماع بعض العلماء الآخرين الذين كانوا على خلاف مع أمثال كاريل ولورانز؟

لقد حدث كلّ شيء كما لو كان للشخصيات المرموقة الحق في كلّ شيء، أو

قل في كلّ شيء تقريبا، ولقد أمكن لأحد السوسيولوجيين في جامعة هارفارد ويدعى إدوارد أ. ويلسن Edward O. Wilson أن يقول بهدوء أنْ ليس للأخلاق "وظيفة نهائية ملحوظة" سوى الحفاظ على الأدوات الجينية الإنسانية، وأكّد هيمنة الاختصاص الذي ينتمي إليه بقوله: " إنّ البيولوجيا هي مفتاح الطبيعة الإنسانية"، وتبعا لذلك "لا ينبغي أن تترك فلسفة الأخلاق بين يدي من يتحدّثون باسم الحكمة دون سواهم"، ولقد كانت بعض التحفّظات، أو حتّى المواقف النقدية، تطفو على السطح هنا وهناك بطبيعة الحال، ولكن في النهاية كانت تُهَمّش مثلُ تلك الأطروحات، ومن النادر جدّا أن تنظم حوارات حقيقية في ذلك الشأن.

وفي أواخر القرن العشرين حُلّت المسألة من الداخل، دون أيّ دافع خارجي، إن صحّ القول، فطبقا لاتّفاق ضمني صار رجال العلم هم المؤهّلين -وحدهم- بصورة كاملة للحديث عن الأخلاق، وكانت تصريحاتٌ مثلُ تلك التي تعود إلى سنة ١٩٨٩، وتنسب إلى جون بيار شنجو Jean- Pierre Changeux طبيبُ بيولوجيا الأعصاب والأستاذ بالكولاج دي فرانسCollège de France تبعث على الارتياح في قلوب الغربيين: "إن الجانب الكوني في الأخلاق التي يمكن أن تقود إلى تحديد مفهوم حقوق الجنس البشري ينبغي البحث عن أصولها في تعبيرات التراث الجيني الذي تشترك فيه الإنسانية جمعاء".

أكّد الأستاذ شنجو من جانب آخر أنّ لديه "موقفا نقديًا قويًا تجاه الأطروحات التي تبسّط إلى حدّ السذاجة العلاقة القائمة بين الجينات وأنماط السلوك الاجتماعي"، وذلك لكي يأخذ المسافة اللازمة بينه وبين سوسيولوجيين بيولوجيين من أمثال ويلسون، وهكذا حصل المقصود، ولكن ألم تكن لديه هو أيضا النية لإرساء أخلاق على أسس علمية على طريقته؟

وباعتباره مختصًا في بيولوجيا الأعصاب ربما كان ألطف فهمًا لبعض المشكلات من نظرائه المختصين في علم الجينات السلوكي، ولكن إذا نظرنا إلى مشروعه من الجانب الروحي وجدناه لا يختلف كثيرا عن مشاريع الآخرين، لقد كان يصبو إلى " إرساء أخلاق حركية، أي "أخلاق متفتّحة"، وذلك على قواعد "عصبية عرفانية" طبيعية، دون اللجوء إلى أيّ من الاعتبارات الميتافيزيقية"، كما كان يذكر هو نفسه. كان يمكن أن يكون هذا العرض مغريًا، فكيف لا نقدّر "الأخلاق المتفتّحة" حقّ قدرها؟ ولكن الاختيار الأساسي لم يكن أقلّ تطرّفا: إنّها بيولوجيا متحلّلة من الماورائيات كلّها، تلك التي كان لها شرف تأمين التقدّم الأخلاقي. إنّ ذلك العالم الفرنسي وضع جانبا -هو أيضا- التقاليد الدينية والفلسفية.

كان جون بيار شنجو يؤكّد أنّ مفهوم الأخلاق عنده يلتزم الحياد في جانبه الفلسفي، ولقد أكّد مرّات عديدة نيّته "رفض كلّ إحالة على الميتافيزيقا" والقضاء على " كلّ استعانة بأي شكل من أشكال الميتافيزيقا". إنه يفكّر - إن صدق- باعتباره مجرّد "عالم طبيعة"، أي باعتباره باحثًا متواضعًا، هدفه الأوحد إرساء " القواعد الطبيعية للأخلاق". من هذا المنظور البلاغي نرى جيّدا كيف روّج لتلك الأخلاق كما لو كانت قائمة بذاتها: فبينما اعتمد أصحاب العقائد الدينية على الأساطير والشعوذة، كان ينبغي القبول بأخلاق الخلايا العصبية خلافا لذلك، باعتبارها بديهة من البديهيات الجيّدة القوية، ولكن كيف لنا أن نتجاهل أنّ كلّ أخلاق -حتى وإن كانت طبيعية- لا بدّ لها من أن تؤسّس على اعتبارات ميتافيزيقية، ومن ثمّ على "عقائد"؟ فلنتخيّل أنّ العلم قد أسّس نظام قيم أليس ذلك اختيارا متميّزا جدّا؟ وهو اختيار ليس على درجة كافية من البداهة قد لا تُثْني رجلا كآنشتاين مثلا عن رفضها رفضًا قاطعًا... كلاّ لقد أكّد أنّ الاقتناع بأخلاق ما "لا

يمكن أن يتأتّى بأي حال من الأحوال من ذلك المدخل العلمي الوحيد الثابت".

ربما أخطأ آينشتاين، ولكنّ رفضه الأخلاق الطبيعية، أبان -على الأقلّ- عن أنّ هناك مشكلا جوهريًا، وهو ميتافيزيقي أساسًا، فما تبنّاه جون بيار شونجو هو اختيار من بين اختيارات كثيرة، يهدف إلى إرضاء بعض الطموحات "العقلانية"، وكان منسجما من الداخل، ولكنّه ليس محايدًا ولا بديهيا.

لم يكن العلم الحديث في حدّ ذاته محايدًا وينبغي أن نعترف بأن بيولوجيا الأعصاب التي هي ميدان اختصاص الأستاذ شنجو ترتكز على فلسفة آلية مدقّقة، لا تخلو من طابع ميتافيزيقي، ولقد كان الأمر واضحا وضوح الشمس عند جميع الذين تناولوا المسألة. كان نيتشه يبدئ القول ويعيد: ليس هناك علم من غير ميتافيزيقا، ولكن نيتشه لم يكن إلا شاعرا، فلنستشهد بكلود برنار إذ قال: " إن النظريات العلمية كلّها تجريدات ميتافيزيقة"، وذهب هذا البيولوجي ذو النظر الثاقب إلى أبعد من ذلك، عندما صرّح بأنّنا إنّما "نتكلّم دائما بطريقة ميتافيزيقية، واللغة في جوهرها ميتافيزيقية". لقد لاحظنا أنّ تلك الجمل البسيطة قد استوعبها جيّدا بعض الحداثيين في مطلع القرن العشرين، فقد كتب عالم الاقتصاد الأمريكي ثورستاين فبلن Thorstein Veblen على سبيل المثال سنة ١٩٠٠: "كلّ معرفة يخالطها شيء من الميتافيزيقا سواء أكان ذلك في مستوى أسسها أم في خواتيمها".

ومرّة أخرى لم تكن التحذيرات شحيحة إذن، فلنعلم -ولْنكن واضحين- أن تبنّي بعض الخيارات أمر لا مفرّ منه، وأنّ كلّ تأويل للعالم لم يستدْعِ فينا التزام الشعراء. لماذا كان الأستاذ شنجو يعتقد أنه قد تخلّص من الماورائيات كلّها؟ لماذا فكّر في إرساء أخلاق "علمية"، وإن كان ذلك على المدى البعيد، لقد بدا لنا شأن هذا الرجل غريبًا حين أعلن قرابةً فكرية مع مفكرين من أمثال ديمقريطس Démocrite وأبيقور Epicure ولوكراس Lucrèce، والحال أن هؤلاء الفلاسفة

يعدّون في الثقافة الغربية من أبرز أنصار الفلسفة المادية، وهي ميتافيزيقا عرّفتها قواميس القرن العشرين بـ"أنها مذهب يختزل الواقع كلّه في المادة التي يراها كافية لإدراك الظواهر الحية والنفسية"، ولم يكتف الأستاذ شنجو بذلك فقد كان باعتباره رجل علم من طراز رفيع يدافع بحماس فياض عن **العقل**، ومن ثمّ كان ترابط ما يقول بالخيالات القديمة التي ذكرنا من قبل، لقد بدا أنّ "من مهمة العلم الأساسية مطاردة اللامعقول مطاردة متواصلة بغية الوصول إلى المعرفة الموضوعية"، فالغالب على الظنّ أنّ العدوّ كان اللامعقول بأشكاله كلّها، فينبغي إذن أن يُعقلن كلّ شيء بطريقة أو بأخرى، وينبغي ملاحقة كلّ ما ليس بعقلاني ومحاصرته بلا هوادة، هل كان قرّاء الأستاذ يدركون ما تعنيه تلك الجملة التي تبدو مثيرة جدّا. أليس ثمّة دائما شيء من اللاّمقول في حياة الإنسان وفي المشاعر وفي الخيارات الوجودية كلّها؟ الثابت أنّ الأستاذ شنجو كان يتمنّى في مستوى المثال على الأقلّ "أخلاقا تتخلّص من شوائب اللاعقلانية"، فما دلالة ذلك؟ لقد تساءل الأستاذ دوبان عمّا إذا كان الغربيون قد أدركوا أهمّية السؤال التالي: إذا كانت مهمة العلم محاصرة "اللامعقول" محاصرة دائمة فأيّ تصوّر للحياة الإنسانية يمكن لذلك العلم ذاته أن ينتجه؟

لقد تحدّثنا في الباب السابق عن **آلة الحكم** التي أفزعت الأب دوبرال ونوربرت وينر. ألم تظهر آلة مماثلة في مجال الأخلاق؟ ليس من المستبعد الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب إذا ما صدّقنا الأستاذ شنجو الذي كتب يقول: "إنّ إنشاء قواعد محدّدة للسلوك يقودنا إلى حقل من المعارف والتأمّلات تزداد صعوبة التحكّم فيه يوما بعد يوم، فهل سيساعدنا تطبيق الرياضيات الذي تمثّله الإعلامية بفضل مالها من ذاكرة هائلة في هذا المسعى؟ أينبغي أن نلتمس من الحاسوب تحديد الأحكام الأخلاقية إن عاجلا أم آجلا ؟"

لقد حدث **الانفجار الأكبر** - كما نعلم- قبل أن يستكشف **الغرب** ذلك المسلك كلّيًا. أليس من البديهي سواء أكان ذلك بوجود الحاسوب الأخلاقي أم بعدمه أنّ ذلك الكفاح العقلاني لم يثمر أيّ شيء في المستوى الروحي؟

كان ذلك التيار الفكري محلّ إعجاب لدى كثير من السّاسَة، فقد عيّن جون بيار شنجو رئيسا للجنة الوطنية للأخلاق خلفا للأستاذ جون برنار. فهل كان يمكن أن نتصوّر إرساخا رسميا للمادية "العلمية" أعظم من ذلك؟

لقد حدد شارل بيغي في مطلع القرن العشرين بأسلوب فذّ الرهانات حين قال: " لقد عملنا علميًا بعزم وصراحة وتبصّر وعن معرفة وبحقّ وأكاد أقول أيضا بنزاهة على تدمير كلّ ما يمتّ إلى الثقافة بصلة". لقد قام بعْدُ بتشخيص الحالة: فإذا كان الشعب ساذجا؛ فذلك لأنّهم "أنشؤوا له دين العلم وشعوذة العلم الحديث"، وماذا كان سيقول ذلك الشاعر لو أنّه عاش انحرافات التسعينات من القرن العشرين؟ لقد اتّفق العلماء والخبراء بأصنافهم كلّها على دحر "اللاّمعقول"، لِنُشِرْ مثلا إلى نداء أطلقه هايدلبرغ Heidelberg الذي سبق ذكره عندما حاول سنة ١٩٩٢ مئات من العلماء باسم **العقل** إعادة "أنصار البيئة" إلى الصواب، كان بعض الساسة قد سخّر نفسه لدعاية لم تتوقّف لفائدة " العلم"، وسنحاول -على سبيل المثال- الشروع في تحليل نص حرّره سنة ١٩٩٠ هوبار كوريان Hubert Curien عندما كان وزيرا للبحث العلمي والتكنولوجيا، متوجّها به إلى قراء صحيفة يومية كبرى تدعى (لوفيغارو *Le Figaro*)، كان السؤال بسيطًا، كيف ستكون الحياة بعد سنة ٢٠٠٠؟ لقد قدّمت الإجابة المفعمة بالحماسة تحت عنوان فتّان هو: نحو جنة المعرفة، وبطبيعة الحال تضمّن المقال سلسلة من "الانتصارات التي حقّقها العلم"، سيكون جردها الشامل طويلا جدّا، ولكن كلّ شيء كان مسخّرا أو يكاد

لمعرفة أفضل لآليات كيمياء الكائنات الحية، والمكوّنات النهائية للمادة، ولتحسين المردود الزراعي، وإنتاج الطاقة والأدوية، والاتصالات عن بعد، والإعلامية ووسائل النقل وغيرها. وسيتواصل استكشاف الكون، وربّما عرف القرن الحادي والعشرون "إقامة مستوطنات دائمة للإنسان على القمر أو كوكب المريخ"، ولكن من الناحية الفلسفية سنحرز تقدّما دون شكّ في "الإجابة عن السؤال: لماذا كان العالم متنوّعا جدّا؟ أهي الصدفة أم الظرف أم الضرورة؟ وانطلاقا من العناصر ذاتها والقوانين نفسها، أكان من الممكن أن يكون العالم مختلفا؟ بل الأفضل من ذلك ما نستشفّه من خلال هذا السؤال: " أيّ فائدة ترجى إذن ممّا يبدو لنا بَعْدُ غيرَ مفيد؟" يؤكّد ذلك كلّه أنّ المنطق الحداثي لم يتغيّر أواخر القرن العشرين، أمّا هوبار كوريان فقد دخل بعد تلك الوعود الجميلة حقلا آخر يتّصل بالتربية، هنالك فجأةً عرفت خطته الثقافية تحسّنًا ملحوظًا.

لقد صرّح الوزير بضرورة القيام "بمجهود جبّار في التربية" لمواجهة تحدّيات المستقبل، وأكّد "أنّ التربية هي أيضا علم وتقنية"، وبقية النص جديرة بأن تذكر كاملة وهي: "لماذا لا نعمل على أن ندخل في أنظمة التعليم من الحداثة ما يحرص كلّ واحد منّا على إدراجه في مطبخه وفي سيارته وفي ورشته؟ إننا لخجولون عادة في هذا المجال أكثر ممّا نكون في غيره: لا شكّ في أنّ ثقل التقاليد جاثم عليها أكثر من غيرها. ستنشأ أنماط جديدة للتدريب سواء أكان أساسيًا أم جامعيًا، أوّليًا أم مستمرّا، ومن المعقول أن نأمل في أن يجعل التقدّم العلمي خلال القرن القادم التعليم أنجع، وأكثر وعيا بما هو جوهريّ، وذلك بتنقيته من الشوائب التي علقت به"، فأيّ رسالة ثقافية أشاعها هذا النص النثري المُحَبَّر إذن؟ يلقي هذا التحليل منذ البدء بالقارئ في خضم واقعية العلم التقني، وفي عمق مجتمع الاستهلاك، فالعلم والتقنية والنسق والحداثة والمطبخ والسيارة والورشة، ألفاظ ترسم -في

عالم المعجم المصغر- الخطوط الأساسية للعالم الفردوسي الكبير الذي وُعِدت به جماهير المستقبل، ولم يكن ينقصه إلا التلفزيون لتكتمل القائمة، ولكن الرهان الأكبر كان تربية إنسانية المستقبل، ومن ثمّ كانت أهمية الملاحظة الموالية، كانت الملاحظة مهمّة حول التعليم الذي كان إلى ذلك الحين خاضعا لتقاليد بدت غير ملائمة؛ ومن أجل ذلك اقتُرحت - بلطف- ضرورة الانصياع لمقتضيات التقدّم العلمي التي تستوجب التنصّل من التقاليد الراسخة بشراسة إلى حدّ ما. كانت الرسالة مشفّرة، لكنّ رموزها كانت قابلة للفكّ: فلكي نكون أنجع، ولكي نذهب إلى ما هو أساسي ينبغي أن تكون التربية حديثة فعلا، أي أن ترتكز على العلوم، وأن تخفّف ممّا كان يدعى قديما الإنسانيات.

كان الوزير يروم "تنقية" التعليم، فماذا كانت تعني تلك العبارة غير تعزيز فروع المعرفة النفعية وإضعاف الثقافة الأدبية والتاريخية؟ لقد أكّد هوبار كوريان فيما بعد بالفعل الأهمية المتنامية للعلم والتقنية في ما سمّاه "المساومات السياسية"، وكان يتمنّى لو يُكرَّمُ العلماء والتقنيون أكثر فأكثر، وقد استخدم هذه العبارة الجميلة "تسرّب العلم من خلال الأنشطة الإنسانية كلّها"! لكي يعبّر عن حاجة العلم إلى الثقافة، ولا ريب في أنّ "جنة المعرفة" التي أخبر عنها الوزير ستكون خاضعة ماديا وسياسيا وروحيا للعلم التقني، وعلى حدّ علمنا، لِمَ لمْ يرَ أحد أنّه من المفيد إخضاع هذا البيان للنقد البنّاء؟ فكنْسُ التقاليد المزعجة لصالح النجاعة بدا مشروعا "عاديا".

لقد سبق أن رأينا ذلك لمّا هرول فيلسوف مثل لوك فرّي إلى الاستنجاد بالعلم، ولكن الحداثيين عوّلوا كثيرا على علماء الاجتماع أيضا، فقد تناول جون- نوال كابفيرار Jean-Noël Kapferer وبرنار دوبوا Bernard Dubois بإيعاز من المعهد الوطني للدراسات الكونية بطريقة علمية جدّا الإجابة عن سؤال: " كيف

أمكن لعقلية بدائية أن تستمرّ في العيش رغم تقدّم المعارف؟" نشرت استنتاجاتهم سنة ١٩٨١ دار المنشورات العقلانية الجديدة بعنوان: بقاء الأساطير عند الفرنسيين إخفاق للعلم، لقد استعنّا كثيرا بذلك التقرير المفصّل جدّا لنقيس امتداد النفوذ الروحي للعلم.

لقد طُرحت المسألة منذ البدء من منظور عرقي، ثمّ صرّح الكاتبان أنّه مازال يوجد في قلب غابة الأمازون وفي غينيا الجديدة أقوام يعتقدون أنّ الشمس تدور حول الأرض، "وهم يعتبرون القمر والنجوم آهلة بالسكان، ويزور أهلها الأرض من حين إلى آخر"، يمكن أن نتوقّع أنّ الغربيين قد تخلّصوا في مقابل ذلك كلّيا من تلك العقائد البالية، وواقع الحال ليس كذلك عندما يبدأ ما أسماه الأستاذ دوبان "كابوس العقلانين"، إذ " في الوقت ذاته كان في فرنسا ما يقارب ١٥ مليون كهلا كانوا يتصرّفون ويفكّرون كما لو كانت الأرض مركزا للكون، وأكثر من ثلث الفرنسيين أعلنوا بصدق وإخلاص أن الشمس هي التي تدور حول الأرض وليس العكس. وأكثر من ١٢ مليون شخص يؤمنون بالأطباق الطائرة وبأهل المرّيخ، بمعنى آخر فإنّ الأسطورة البدائية وبُنى التفكير ما قبل العقلاني توجد في الدائرة الخامسة عشرة بباريس وبرومورنتين *Romorantin*[١] أو في بيتون *Béthune*[٢] شأنها شأن غينيا الجديدة *Nouvelle Guiné* أو ما توغروسو *Mato Grosso*[٣]".

مثل تلك الموازنة كان من الصعب تحمّلها، فأن يغوص أتباع مندوغومور Mundugumor وأتباع Baruya في الشعوذة فذاك شيء، أمّا أن تكون الشعوب

---

(١) مدينة فرنسية توجد على بعد ١٩٠ كم جنوب العاصمة باريس. (المترجمان)

(٢) بلدة في محافظة بادكالي في الشمال الفرنسي على الحدود البلجيكية. (المترجمان)

(٣) ولاية برازيلية على الحدود مع بوليفيا والباراغواي. (المترجمان)

الحديثة بعْدُ في ذلك المستوى نفسه، فذاك كما قال المؤلّفان غير مرّة "يبدو شذوذا وانحرافا" لقد أنشأ الغربيون المدرسة متعدّدة الاختصاص، وهي معهد مسّاشوستس Massachusetts للتكنولوجيا ولكن في رومورنتين وحتى في قلب الدائرة الخامسة عشرة الباريسية كان يعيش أناس (هم البدائيون الجُدُد)، لا يولون العلم أيّ اهتمامن وحتى الحشود التي تتزاحم "في مختبرات علم الفلك" بمناسبة الأيام المفتوحة، لم يكن لديها - كما ذكر ذلك كابفيرار Kapferer ودوبوا Dubois- أي رغبة في معرفة "الحجم الحقيقي للكواكب ودرجة تركيزها وطبيعة طبقتها الجوية"، ولم يكونوا أكثر اهتماما بـ"إطلاق صاروخ من الصواريخ" و "بنوعية وقوده"، كلاّ إنّهم "يريدون فقط أن يشعروا بأنّهم يشاركون العالم (حركته)" إنّه لأمر مُريع، كان يجب أن نفعل أيّ شيء.

ولكن قبل تقديم الحلول ضاعف الكاتبان من ملاحظاتهما التحذيرية، وقد أتيح لنا استشعار أنّ الدين كان يمثّل عائقا أمام فضول رجال العلم الصانع، " فالناس الذين يتردّدون كلّ يوم أحد على الكنائس هم الذين يهتمّون بالفضاء أقلّ من غيرهم"، وفي فرنسا زمن رواد الفضاء كان ٣٠ % من الكهول متشبّثين بالاعتقاد بأن الفضاء "مقدّس"، ولا ينبغي استباحة حرمته، وكانت الصورة النمطية لتلك الشريحة من المتخلّفين توصف في "هيئة امرأة مؤمنة متديّنة تديّن العجائز، تقدّس الأصنام والذخائر القديمة وتؤمن بالشعوذة"، والظاهر أنّ مثل تلك "الصورة" لا تبتعد كثيرا عن صورة العرّافة. على أيّة حال من الصعب أن لا نرى في ذلك تراجعا محيّرا، وهو ما أكّده المؤلّفان حين كتبا يقولان: "إنّها هيئة أشخاص اعتدنا رسمها عندما كنا نتحدّث عن الكاثوليكية على الطريقة الإفريقية والأمريكية الجنوبية".

لم تكن تلك الإشارات خالية من دلالات سياسية، كانت تبيّن أنّ هناك

"معارضين" للبحث الفلكي، بمعنى أنّهم أناس يرون أنّ الأموال التي تنفق في ذلك المجال لا مبرّر لها إطلاقا. إن احتجاج تلك المجموعة -كما أكّد كابفيرار ودوبوا- ارتكز على "أساس غير عقلاني"، إنّها "مجموعة مثالية وبيئية ترى أنّ السماء محرّمة، وأنّه ينبغي عدم المساس بها؛ كي لا يخرّب الكون"، وينبغي أن نقول إنّ خبيريْنا لم يستثنيا أنصار البيئة، وفي معرض حديثهما عن الفرنسيين الذين ينتقدون "تصنيع الفضاء" لأسباب وجدانية أضافا قولهما: " إنّنا لنغالط أنفسنا حين نحصر ذلك الموقف عند أقلية من أنصار البيئة يريدون العودة إلى عصر الرعي، إنّه اتجاه أساسي يشمل واحدا من كلّ فرنسيّين اثنين تقريبا"، إنّ اللغة المستخدمة لا تدع مجالا للشكّ: فإذا أراد إنسان غربي أن يحصل على شهادة في التحضّر الأصيل، فعليه أن يدير ظهره لعصر الرعي، وأن يتفادى "المثالية"، وأن ينظّم رؤيته للحياة على أساس "عقلاني".

يمثّل ذلك كلّه -باختصار شديد- جانب التطبيع الذي اتصف به ذلك البحث "العلمي". ولكن في نهاية مؤلّفهما انكبّا على تأمّلات أقلّ تقليدا، وكانت في الآن نفسه أشدّ غموضًا وأكثر ثراء. ومن البديهي أنّ المركز الوطني للدراسات الفضائية كان ينتظر منهما جوابا عن سؤال: ماذا نفعل كي نعيد البدائيين الجدد إلى حظيرة التقدّم؟ لقد اجتهدا إلى حدّ كبير في الإجابة عندما كتبا يقولان: "يجب أن ينبني المخرج -إن كان علينا إيجاده، بل نتمنّى إيجاده- على نظام تربوي وإعلامي أساسا". إنّها لإجابة مألوفة، ولكن هل كان كابفيرار ودوبوا مؤمنين بها حقّا؟ لم يحصل لفريق بحثنا هذا الانطباع.

لقد بدا المؤلّفان متشائمين حيال سؤال مهمّ: "هل بإمكان تعميم العلم أن يحُدَّ من الإيمان بالعِرافة لدى الكهول؟"، ذلك أمر غير مؤكّد؛ إذْ أنّ معظم

الخطابات التي تتعلّق بما يسمّى تعميمًا كانت تجانب المشكلات الحقيقية، فلا حلّ للمشكل الثقافي الاجتماعي الأساسي بالإكثار من المقالات حول "آلات الرصد والتقريب المجهّزة برؤوس استشعارية متوازنة" أو حول "البيجلوترون[١] Biglotron" ذي البروتونات المفعّلة، إذ يكفي النظر بانتباه لكي نتأكّد أن الباحثين صاروا متخصّصين أكثر فأكثر، وأنّ أعمالهم أضحت أشدّ إبهاما، " إنّهم يتواصلون فيما بينهم بجهد جهيد. من جهة أخرى هناك جمهور الذين أذعنوا شيئا فشيئا -عن علم أو عن غير علم- في أبسط ماكانوا يقومون به من أعمال للتكنولوجيا الصاعدة التي تختزل وظيفتهم في ما يشبه الأزرار الكهربائية"، فلم تكن ثمّة جدوى إذن من تحكّم جماهير الناس في الوضع "فكريا" و"عقلانيا"، " لقد اعتاد الإنسان بصورة عامة استعمال أشياء مثل السيارة والتلفزيون والهاتف وهو لا يفقه كيفية اشتغالها، فإذا شغّل جهازه وابتلع حبّة دوائه وضغط على أزرار آلته الحاسبة كان قد أدّى فريضة من فرائض العلم الذي يؤمن به.

كان الاستلاب - باختصار شديد- يهدّد الجميع، لقد سُلب المواطنون العاديون حقّهم في المراقبة الحقيقية لتطوّر العلوم والتقنيات بصورة لم يُعرف لها مثيل، إذ "كان الدنيوي يضع مصيره أكثر فأكثر كلّ يوم بين يدي العالِم، بينما كانت الهوّة العلمية بينهما في اتّساع مطّرد". يمكن أن نفترض وجود "نخبة تستطيع التنبّؤ بالتطوّرات واقتراح التوجهات اللازمة" كما في المجتمعات كلّها، ولئن سلّمنا بتلك الفرضية المتفائلة كان بديهيا أن نتوقع الخطر السياسي الذي ينتظر التكنوقراطيات، فإن لانقطاع التواصل حدودا إذا ما تجاوزناها طغى على الديمقراطية الاستبدادُ المدعوم بالعلم، وحتّى ينخرط المواطنون فعلا في مسار

---

(١) آلة خارقة تستخدم في مجال الفيزياء النووية والفضاء. (المترجمان)

الحراك التقدّمي، وحتّى تتمّ تهيئتهم كما ينبغي "للعيش في المستقبل"، كان من اللائق إذن أن تكون لهم أساطيرهم.

لقد تحدّث كافيرار ودوبوا باللغة النفعية المتداولة في تلك الفترة عن الخبراء عندما دعوا إلى الأخذ على محمل الجدّ "وضع بعض المشكلات في إطار بعض الأساطير الفاعلة"، أو حين قالوا بأنّ: " التحكّم في الجماهير يمرّ في تلك الخطة بالتحكّم في الأسطورة"، ولقد اكتشفنا تغيّرا مفاجئا يحمل في طيّاته تناقضا صارخا: فبعد أن استاؤوا كثيرا لبقاء الأساطير على قيد الحياة في أحياء الدائرة الخامسة عشرة الباريسية وفي رومورانتين، انتهى علماء الاجتماع هؤلاء إلى تحميل مفهوم الأسطورة دلالة إيجابية...

لا شكّ في أنّهم لم يكونوا مخطئين من الناحية النظرية، ولكن لسوء الحظّ لا نستطيع أن "ندير الأسطورة كما تُدار الأعمال التجارية؟ فلكي تنشئ صورا ورموزا قادرة على إحياء ثقافة من الثقافات أو إعادة إحيائها ينبغي أن يكون لديك شعراء، ولكن في أواخر القرن العشرين لم تتألّق النخب بحسّها الشعري، فكيف تسنّى لها أن تتجاوز "التسلّط" الذي أشار إليه عالمانا في الاجتماع؟ ومن أين استقت الإلهام والطاقة الروحية الضروريين لابتكار أسلوب وخطاب أكثر إنسانية؟ لقد كشفت وثائقنا أن الوضع كان فعلا حرجا للغاية، ففي فرنسا سنة ١٩٩٥ كان رئيس الدولة إداريّا وكذلك كان وزيره الأوّل، وفي المحيط المباشر للوزير كان الإداريون يمثّلون الأغلبية الساحقة، فهل سيبقى بعد ذلك في تصوّرنا **للتكنوقراطية** ذرّة من روح؟ وكيف لنا أن نأمل في إمكانية انطلاقة شعرية؟ من المؤكّد أنّ الأمثلة التي ذُكرت لا تستوفي موضوع "السلطة الروحية"، فأقلّ ما يقال إنّ المؤلّفَيْن قد أكّدا لنا أنّ "العلم" كان يشغل وظيفتين مرتبطتين بالفعل ارتباطًا وثيقًا: أولا حلوله محلّ

"الديـن"، بالمعنى العام للكلمـة، وهو لعمري أمر منطقي جدّا فطبقا لما كان يتمنّاه "العقلانيون" الكبار، كان العلم يجسّـد في نظر المواطنين السـلطة العليا في مجال الفلسـفة والأخلاق والسياسـة، ولقد أبدى بودوين جوردان Baudouin Jurdant سنة ١٩٧٠ هذه الملاحظة المعبّرة حين قال إنّ المقالات العلمية التي تلقى القبول الحسـن لـدى الجمهـور العريض هي تلـك التي مدارهـا على التسـاؤلات الدينية والفلسـفية الأساسـية (من أين أتى الكون؟ وكيف ظهرت الحياة؟ وما هي أصول الإنسان؟ وغيرها). كان الجميع متّفقين إلى حدّ ما على أنّ سلطة قول **الحق** مردّها إلى العلماء.

فلـم يكـن الخطـر فـي أن يتحـدّث علمـاء الكونيـات وعلمـاء البيولوجيا في الميتافيزيقا أو حتى البتافيزيقا[1] Pataphysique وإنّما في استخدامهم هيبة **العلم** ليرسـخوا لـدى عامة الناس أسـوأ التفاهات الروحية، لم تكـن ثمّة إذن جدوى من نـداءات التحذيـر المكرّرة التي أطلقها شـارل بيغـي Charles Péguy حيث كتب سنة ١٩٠٦ يقول بأنّ «ميتافيزيقا السهل» لا يُخشى جانبها، ويعني بها « الميتافيزيقا المنفتحـة النزيهـة المعقلنـة»، أمّـا « الخطيـرة منهـا -خلافا لذلـك- هـي تلك التي تدّعي العلمانية، وتعتنق في الحقيقة مذهبًا من المذاهب وكانت -وهي المخزية- تقدّم نفسها منذ بداية العصر الحديث على أنّها طبيعة حسية».

أمـا الوظيفـة الثانية لطبقة العلماء وهي أقلّ بروزا وأشـدّ وطـأة على المجتمع

---

(١) هو علم الحلول الخيالية كما تحدّث عنه مخترعه ألفرد جرّي Alfred Jarry تعني ما قبل وما بعد الفيزياء. هدف الباتافيزيقا وصف ظواهر الكون من منظور خاص مختلف عن النظرة التقليدية. أسست مدرسة للباتافيزيقا سنة ١٩٤٨. وكان أحد أشهر المشاركين فيها بوريس فيان (١٩٢٠-١٩٥٩) Boris Vian وهو كاتب فرنسي وشاعر وموسيقي ومهندس وكاتب سيناريو ومترجم من الإنجليزية إلى الفرنسية. (المترجمان)

فتكمن في إضفاء شرعية -في أذهان الناس- على نفوذ الخبراء والإداريين الذين يتبنّون «العلم» بشكل من الأشكال، وفي هذا الاتجاه بالذات يؤسس **العلم** لعبادة الدولة، ولقد أكّد ذلك الأستاذ دوبان مرارا وتكرارا؛ فلكي يرضخ المواطنون ولكي يضعوا ثقتهم في التكنوقراطيين بأصنافهم المختلفة ويدينوا لهم بالولاء لم يكن المهم في ذلك أن يكونوا على معرفة جديدة بالعلم والتقنيات، وإنما أن يقدّسوهما تقديسا؛ ومن ذلك المنظور كانت الأولوية المطلقة التي حظيت بها العلوم في الثانويّات والزيارات الموجّهة إلى مدينة العلوم ذات صبغة سياسية واضحة؛ فبفضل مثل تلك الخطط «التربوية» ضمِن النظام لنفسه البقاء، ولقد حدّث الأستاذ دوبان قال: « كان العلم لاهوت التكنوقراطيين»، من ثمّ ندرك إذن لماذا كانت سائر الانتقادات الموجّهة إلى المناهج التي تسمّى «علمية» تُعدّ مرفوضة خطيرة في مجملها؟ إنها توشك أن تقوّض الإيمان في قلوب الناس الطيّبين، ومن ثمّ تؤلّبهم على النظام بصورة غير مباشرة. ماذا يحدث لو كفر فلان وعلان بالتقنيين المتعدّدي الاختصاصات، وبمهندسي المناجم وبالموظّفين السامين، وبرجال التخطيط والاقتصاد، وبمعاهد استطلاع الآراء وبالأطباء النفسانيين وغيرهم؟

أصبح حينئذ من السهل أن نستشفّ لماذا أنشئت مختبرات عديدة تبدو غير مفيدة ولكنّ مهمّتها الفعلية هي إبراز فضائل العلم الثقافية والاجتماعية، نذكر منها على سبيل المثال مركز البحوث التطبيقية لحلّ المشكلات الكبرى للحضارة بوساطة حساب التكامل الثلاثي، وتهدف أساسا هذه المؤسسة التي يديرها مهندس من الطراز الرفيع إلى ترويج فكرة مفادها أنّ المنظّرين وعلماء الرياضيات لهم القدرة على مراقبة التطوّر الشامل للمجتمع مراقبة «عقلانية»، وينبغي أن نذكّر بطبيعة النظام الذي كان قائما، فلم يكن هناك بدّ من تكاثر مثل تلك المؤسسات، ولكن كيف استمرّت تلك الخدعة تلك المدّة كلّها؟

لقد بيّن أوغست كونت منذ القديم إلى أيّ حدّ كان اللجوء إلى العلم وإلى الرياضيات على وجه الخصوص غير ذي جدوى، عندما يتعلّق الأمر بالشؤون الإنسانية، وأشار مرّات عديدة إلى أنّ من الغلوّ إسناد تلك المهمّة إلى المختصين في الهندسة، وهو «طريقة مغلوطة في تناول العلوم الاجتماعية (...)، إنها معارف وهمية وهي إذن مرذولة تماما»، ويرى في هذه الحال «أنّ كلّ إنسان عاقل غريب عن العلم ولكنّه أَلِفَ الشؤون العامة يمكنه أن يصل إلى خيارات أفضل»، وعند حديثه عن أكاديمية العلوم ومؤسسات علمية أخرى لم يتردّد في الحديث عن «اختصاصاتها المشتّتة»، وعن «رداءتها الحالمة» وعن «عقولها الهزيلة»، لقد تحدّث مثلا عن «القصور الذهني والاجتماعي لمؤسساتنا الأكاديمية الرسمية»، بل لقد أكّد -زيادة على ذلك- «الضعف السياسي لطبقة العلماء الحالية وانحطاطها الأخلاقي».

والرأي عنده أن انتقاء النخب بوساطة الرياضيات خطأ شنيع، ومن المؤكّد أنّ تعلّم الرياضيات -مقارنة بالدراسات ذات الصبغة الإنسانية- كان فيه شيء من اليُسر، ذلك «أنّ التفوّق الوهمي لمجال اختصاص المهندسين لا يتطلّب عناءً كبيرا، فهو لا يستوجب أدنى تحضير خارج عن نطاق الموادّ التي يدرسون، وإنّ تميّز تلك الموادّ بالبساطة يجعلها سهلة الاستيعاب لدى الكثير من العقول المتوسّطة في بضع سنوات متواصلة»، ولكنّ مثل ذلك التدريب لا ينتج إلا عقولًا جافّة فارغة اجتماعيًا وروحيًا، « وتعدّ الهيمنة العلمية للمختصين في الهندسة ظالمة إلى حدّ ما؛ لأنّها عمياء بطبيعتها، وبفضل استقلال أعمالهم عن المجالات الأخرى، واعتبارا لبساطة تلك الأعمال وإيغالها في التجريد، وعدم اقتضائها أيّ إعداد يحيل إلى معارف أخرى، فإنها تجعل من هؤلاء المختصّين غرباء تقريبا عن روح الدراسات الوضعية الأخرى كلّها وعن ظروفها»، ولقد بدا مدهشًا موقف

أوغست كونت Auguste comte فرغم تصريحاته الكثيرة العنيفة المعادية للتكنوقراطيين، كان بمثابة السند الثقافي لأنصار العلمويّة[1] الأشدّ تعصّبًا، وأنصار الهندسة الاجتماعية الأكثر تخلّفًا، ومرّة أخرى لم تُجْدِ تلك التحذيرات نفعًا، ولم يضع قطُّ "أهلُ الحداثة" موضعَ تساؤل مثلَ تلك السلطة الروحية التي أفلست إفلاسًا ليس له مثيل، لقد كان لحركات التمرّد ثمّ للانتفاضات سنوات ١٩٩٩ -٢٠٠٢ الفضل أوّلا وآخرا في القضاء عليها قضاءً مُبْرما.

ولكن كما قال الأستاذ دوبان لا يكفي تأكيد انسجام **العلم** مع باقي المؤسسات البورجوازية، إذ يجب الانكباب بعزم على مفهوم "العلم النظري الخالص"، وتبيان القيم (أو القيم المزيفة) التي كان يجسّدها، إنّ "العلم" بعبارة هوبار كوريان Hubert Curien لم يكن يتخلّل كلّ شيء فحسب، وإنّما كان يُؤلَّه تقريبا، كان

---

(١) **العلموية** Scientism مصطلح يستخدم عادة للإشارة إلى الاعتقاد في التطبيق الشامل للمنهج العلمي وللطريقة العلمية ووجهة النظر التي تقول بأن العلم التجريبي يشكّل الرؤية الكونية الأكثر موثوقية أو الجانب الأهمّ قيمة من تعلم الإنسان الذي يستبعد وجهات النظر الأخرى. يُعرف هذا المذهب بأنه «وجهة النظر التي ترى بأن الطرق الاستقرائية المميزة للعلوم الطبيعية هي المصدر الوحيد للمعرفة الواقعية الحقيقية، وأنها تستطيع وحدها أن تسفر عن المعرفة الحقيقية بالإنسان والمجتمع. وكثيرًا ما ينطوي المصطلح على أشدّ التعبيرات تطرّفًا للمدرسة الوضعية المنطقية. استخدمه علماء الاجتماع مثل فريدريك هايك، وفلاسفة العلم مثل كارل بوبر، وفلاسفة مثل هيلاري بوتمان وتزفيتان تودوروف لوصف التأييد الوثوقي للمنهج العلمي واقتصار جميع المعارف على تلك التي يمكن قياسها فقط. ويستخدم للإشارة إلى الاستخدام غير المناسب للعلم أو الادعاءات العلمية، أو الإشارة إلى أن «العلم فقط يستطيع وصف العالم كما هو». كذلك يستخدم المصطلح في تسليط الضوء على الأخطار المحتملة نتيجة التوجه نحو الاختزال المفرط لجميع مجالات المعرفة الإنسانية. (المترجمان)

يرمـز إلـى شـيء جوهري، ولكـن ما هو ذلـك الشـيء؟ لِنُلاحظْ مثلا هـذه الفكرة المهيمنـة فـي الغـرب، وفحواهـا أنّ "العلـم" موضوعي فـي جوهره، فقـد رأينا من وجهة النظر النقدية أنّ ذلك الادّعاء كان واهمًا فاسدًا إجمالا. فهل من الموضوعية تحليـل الواقـع باعتبـاره ميكانيكيـا جملةً وتفصيـلا؟ كلاّ بالتأكيد، ولكننـا تظاهرنا بالأخـذ علـى محمل الجدّ تقديـس الغـرب "للموضوعية"، كما أكّد ذلك الأسـتاذ دوبان، حتى نتمكن من بسط تساؤلنا الجوهري: ماذا كان يعني ذلك التقديس عند الناس؟

كان الجواب بديهيًا للغاية؛ إذ يترتّب على ذلك بصورة آلية وجوب نفي الذاتية نفيـا فعليّا، ويعني ذلـك كبْحُها وقمْعُها بلا هوادة؛ فأن تكون لك مكانة رجلُ علم، هـو أن تتحـوّل إلـى ملاحـظ أو إلى مخبري مجرّدٍ من الإحسـاس، ومن المشـاعر والرغبات، وقد أمكن أن نرى في ذلك -على رأي الأسـتاذ دوبان- انشـطارًا رمزيًا خطيـرا للـذات الإنسـانية، كانت تلـك متطلّبات الأنمـوذج "العقلانـي"، فينبغي أن يكـون المـرء مجرّدا من أنـاه، أي أن لا تكون لـه عقائـد، ولا أذواق ولا ميول ولا أولويـات ذاتيـة، ينبغي أن يكون كلُّ شـيءٍ في خدمة الموضوع، ولا شـيءَ لخدمة الذات. وبالطبع كان من المسـتحيل إنجاز ذلك "التطهير" الجذري للأنا في الواقع الملمـوس؛ إذ لا يمكن للبشـر أن يتجرّدوا كلّيا مـن حياتهم الخاصة ومن التاريخ، ولا يمكنهـم مطلقًا خلق "فـراغ ثقافي" تامّ يمكّنهم من التفكير بحياد، ولو كانوا قد نجحوا في ذلك بالفعل، فأنّى لهم أن يشتغلوا بالعلم؟ يمكننا القول -دون الرجوع إلى ما سبق ذكره، إذ لا طائل من وراء ذلك- إنّ كلّ مشروع لبناء المعرفة لا بدّ له مـن أن يرتكـز على بعض الخيارات الأوّليـة، أي على جملة من المقدّمات، ولكن لنتجاهـل مؤقّتـا تلك الصعوبات، ولْنفترض جدَلا بأنّ المسـلّمة العزيزة على جاك مونو حول الموضوعية ممكنة التحقّق (في الواقع) فعلا، فماذا سينجم عن ذلك؟

بكلّ بساطة سيتحوّل رجل العلم الذي تجرّد من ذاته وانسلخ من صفاته كلّها ومن أخلاقياته كلّها إلى كائن بلا عاطفة وبلا إحساس. إنّ ذلك "المنهج العلمي" الشهير أصبح - باختصار- يرمز بصورة جيّدة إلى أخصّ خصائص **الغرب**، ألا وهي قمعه للوجدان.

لقد أدرك بعض **الغربيين** حقيقة الأمر، ولم يكونوا أقلّ شهرة من سواهم، فقد كتب كلود برنار -وهو الفيزيولوجي المرموق- بوضوح تامّ أنّ العلم بتلك الصورة المثالية "يصادر الإحساس وحرية الإنسان"، ووضع أحد روّاد علم الجينات السكّاني وهو الإنكليزي رونالد أيلمر فيشر Roland Aylmer Fisher النقاط على الحروف حين صرّح سنة ١٩٥٠ بالقول: "إننا نجتهد في حدود الوسائل المتوفرة لدينا في فهم العالم، وذلك بإعمال الفكر والتجريب وبإعمال الفكر مجدّدا، ولا يوجد داخل هذا المسار أيّ مكان للاعتبارات الأخلاقية والعاطفية في تفضيل استنتاج على آخر"، ولم يكن ألبرت آينشتاين أقلّ وضوحًا عندما كتب يقول: "إنّ نمط التفكير العلمي بلغ حدًّا جعل من غير الممكن إقامة أيّ علاقة بين الحياة الوجدانية، والمفاهيم التي تحدّد نسقًا من الأنساق في مجمله (...) وإنّ الموقف المتزمّت إلى حدّ ما الذي يتّخذه من يبحث عن الحقيقة حيال كلّ ما يتعلّق بالمشاعر وبالإرادة هو في الواقع نتاج لمسار (تاريخي) ضارب في الزمن، وهو سمة اختصّ بها الفكر الغربي الحديث"، لقد عاين بول فاليري باعتباره شاعرًا أهمية الأبعاد الإنسانية لذلك قائلا: "كلّ المسألة تتلخّص فيما إذا كان من الواجب الإبقاء على ما توحي به الأحاسيس داخل منظومة المعرفة، أو التخلّص منه؛ إذ إنّ علاقته بها لا تعدو أن تكون عرَضية أو تاريخية"، وكانت إجابته صارمة حيث قال: "إنّ العلم هو تأسيس المعرفة بعيدا عن العواطف، بعد فصلها عمّا يخالج النفس من مشاعر"، وكان في ذلك خسران مبين بالنسبة إلى الشاعر وإلى كلّ من أراد أن يضفي على

الواقع مسحةً فيها إحساس، ولكنّ الشعور " هو تلك الصلة التي تربط ما بين الأشياء التي لا رابط بينها" كما ذكر بول فاليري. فأنّى لنا أن نأخذ الواقع إلى عالم الحلم بعد أن فعل العلم فعلته؟ لقد كان فاليري متشائمًا جدًّا حين قال: "إنما يحصل العلم بالنفي الدائم لكل ما يتّصل بالحلم ".

يمرّ رجال العلم فيتركون وراءهم عالما مجرّدا، قد حُلّل تحليلا جامدا ذابت منه الأحاسيس والعواطف تماما، فأنّى للغربيين أن لا يكونوا في انقطاع نفسي عن المحيط العام الذي يعيشون فيه؟ إنّ المبادئ التي تأسّس عليها علم الفيزياء -كما أكّد ذلك لويس ممفورد Lewis Mumford- أفضت إلى تفكّك فعلي داخل " التجربة الإنسانية اليومية".

كان الملاحظ "العقلاني" يختزل بصورة آلية إدراكنا للكون الذي يحيط بنا بألوانه وروائحه. لقد كان منكبّا على "تجريده من خصاله الحميدة"، وعلى اختزال الكلّ المركّب إلى عناصره البسيطة، وذلك بعدم الأخذ إلا بجوانب الواقع التي يمكن وزنها وقياسها وعدّها، وبالمقاطع الزمانية والمكانية التي بإمكانه مراقبتها وإعادة ترتيبها"، هكذا كان قرار أتباع ديكارت وأتباع غاليلي. لقد كتب قائلا بأنّ الأذواق والروائح والألوان "ليست سوى أسماء تسمّى"، وينبغي أن ننشد الواقع "الموضوعي" " في الحجم والشكل والميزة والحركة"، ولقد أضاف ممفورد أنّ نتيجة ذلك التوجيه كانت " تحييد ردود الفعل الحسية والشعورية عند الاختبار والتحليل".

يتلاءم ذلك كلّه -قطْعًا- مع **تطهير العالم من السحر**، والكفّ عن التغزّل به، ولكن ألم يكن قد قُضِيَ بذلك على إنسانية الإنسان في مفهومها الدقيق قضاءً مبرمًا؟

لقد أراد كثير من الكتاب تحذير **الغربيين** حينما أشاروا إلى حالة ذلك المشروع المرَضيّة نظرا إلى استحالة تجريد أيّ تصوّر من المكوّنات الوجدانية التي ترافقه.

فمعرفة الكائنات -أيّا كانت- لدى الإنسان السويّ المتكامل يرافقها إذن ذاك الإحساس والتأثر الوجداني الذي يتيح التفاعل معها تفاعلا حيّا في كلّ صوره "الإيجابية" أو "السلبية"، وليس للرجل أو المرأة إذا ما أراد أحدهما أن يكون لحياته معنىً أن يكتفي بتأمّل الكون "الموضوعي" تأمّلا دماغيّا، فمأساة أهل الحداثة تكمن في تحوّلهم إلى كائنات أحادية التفكير على حدّ قول إيريك فروم Erich Fromm.

لقد صاروا لا يميّزون بين المادة الحيّة والمادة الجامدة؛ لفرط النظر إلى الواقع كلّه بعين الميكانيكي والعالِم فقط، ولقد عَرَضنا لهذه الفكرة فيما سبق، ولكن كان للعلم دور كبير في تضخيمها إلى أبعد حدّ، فقد كان من جهةٍ يقدّم العالَم وكأنّه مجرّد "ركامٍ من الأشياء" التي يمكن تطويعها، وكان من جهةٍ أخرى يوجب دائمًا أكثر فأكثر اتّباع مقاربة عقلية وفكرية تنتقص الحياة الوجدانية، فتجعلها هباءً منثورا. إننا نستعيد صورة الاختناق: إذ في العالم الجديد الذي فرضه **التقدم والعقل** لم تعُد لِبَني الإنسان حقّا قدرةٌ على التنفس بما لهذه الكلمة من دلالة روحية وشعرية.

لا يسعنا إلا أن نذكّر بأنّ بدايات ذلك المسار كانت في عالم المدن الكبرى والتجار والمهندسين، ولكن إثر الغَلبة التي أحرزها **العلم** ثقافيا، باتت الكارثة شاملة تقريبا، إن العالِم قد وقع هو نفسه أمام كون "مأهول بالجماد"، وأضحت فيه كلّ تجربة شعورية مستحيلة، كما كتب ذلك ولفرد بيون wilfred Bion سنة

١٩٦٢. (وأضاف) قائلا إنّ "ذلك العجز كان مأسويا، فزيادة على المساوئ الآلية التي يسبّبها عدم الاستفادة ممّا تتيحه التجربة، فإنّ الوعي بالتجربة الوجدانية أمر ضروري وحيويّ، لا يقلّ أهمية عمّا يتوفّر من انطباعات ترتسم لدينا عن طريق الحواسّ (...) إنّ تأثير مثل ذلك الحرمان في الشخصية مماثل لذلك الذي يخلفه حرمان البدن من الغذاء"، ومعنى ذلك أنّ النجاح الروحي لـ"العلم" كان عرَضًا من أعراض مرضٍ قاتل.

وقد عمد ولفرد بيون Wilfred Bion إلى مقارنة "العالِم" ببعض "المرْضى" الذين كانوا يتلقّون العلاج لديه باعتباره مختصًّا في التحليل النفسي وذلك لكي يدقّق التشخيص. إنّ العالِم شأنُه شأنُ المصاب بالذُّهان، ينتهي إلى "فكر عقلاني ضيّق الأفق ذي خطاب بيِّنٍ محكم، ولكنّ دلالته أحادية، فلا تأصيل فيها ولا تأكيد. من استمع إليه خطر بباله تساؤل مفاده "ثمّ ماذا؟" إنّه خطاب لا يثير فينا أيّ تسلسل في الأفكار". لقد بدا بيون Bion في الحقيقة مُحْترسا فهو يعلم أنّه يُهاجِم أكبر مقدّسات "الحداثة" على الإطلاق. حقّا لقد كان رجل العلم يتحرّك في فضاء ميّت لا روح فيه، غير أنّه ما كان ينبغي القول على نحو مباشر (للغاية) بأن العلم يصنع أناسًا مصابين بانفصام في الشخصية، "وإن سلّمنا بأن المرض هو المتسبّب في الحدّ من قدرات المصاب بالذهان، فإن حدود العالِم في ذهنه لا تعود إلى السبب ذاته". لم يعُد لدينا اليوم نصيب من ذلك التعفّف في الخطاب، ففي التسعينات من القرن العشرين تجرّأ بعض الملاحظين القلائل على التخلّص نهائيا من الخطاب المتملّق. انظر كيف تحدّث جون سرفيي Jean Servier مثلا عن المسألة حين قال: "على الإنسان أن يكون على بيّنة من كينونته الشاملة، لكي يكون منسجما مع ذاته، من أجل ذلك وجب إيجاد حوار بين ما حكم عليه الغرب بأن لا يرى الشمس، وما بدا له طيلة عهود طويلة من الزمن أصل الأشياء وسبب وجودها،

فلدى الإنسان -بصورة عامة- حاجة إلى حياة شاملة تختلف تماماعمّا نسميه "العقلنة". إنّ غياب تلك الحياة الروحية أو نفيها طيلة حقبة زمنية طويلة نسبيا من تاريخ حضارة من الحضارات يمكن اعتبارها عرضا من أعراض الذّهان لدى الفرد وانتكاسة واسعة النطاق في حياة جماعة من الجماعات أو حضارة من الحضارات بأسرها".

لقد أصبح كلّ شيء جليا إذن: فالعلم ذُهان، وكان ذلك الذهان مرآة عاكسة لمرض ثقافي شامل، لقد أضحى المصطلح التقني لخبراء القرن العشرين غير مألوف لدينا في مجمله، ومع ذلك، بقي من السهل علينا فهم ما يريدون قوله عندما يتحدّثون عن الذهان، أو عن انفصام الشخصية؛ إذ يتعلّق الأمر -بحسب ج. لابلانش J. Laplanche وج.ب. بونتليس J.-B. Pontalis- "باختلال أوّلي في العلاقة الشبقية مع الواقع[1]"، في هذا السياق تحدّث سيغموند فرويد عن "غريزة الموت"، ولقد نوقشت هذه الفكرة، وأقلّ ما يمكن قوله إنّها تلخّص جيّدا مغامرة الغرب الحزينة، إذ حدث كلّ شيء كما لو كان مدفوعًا بتلك الغريزة، فقد قرّر أهل الحداثة " أن يحوّلوا كلّ من هبّ ودبّ إلى كائنات غير حيّة".

كانت تلك -إن أمكن القول- هي الميزة الكبرى للعلم الآلي، إذ بفضلها كان

---

(١) **الشبق** هو شدة الشهوة والرغبة في الجماع، وهذه الشدة تكون شدة مفرطة، أي أنها فوق الحد الطبيعي، وبهذا اعتبر الشبق مرضاً من الأمراض لأنه يخرج الإنسان عن الحد المعتدل إلى الحد المرَضي ويتأثر به. فالشبق إذن هو شدة الشهوة إلى الجماع وطلبها بكثرة بصورة كبيرة جداً ، و هذا الشبق يصاب به الرجال و النساء. ويعود ذلك إلى أسباب عضوية كالزيادة في إفراز الهرمونات، وإلى أسباب نفسية كأن يرسخ لدى المريض بالشبق شعور بأن الجماع هو السبب في الخروج من الهموم والأحزان والكآبة كأن يحاول الهروب من واقعه. (المترجمان)

يُنظر إلى العالَم باعتباره مجرّدا من كلّ دفْق حيوي، ومن كلّ روح، وقد بيّن جورج دوفيرو Georges Deveureux، هو أيضا، في تناوله لانفصام الشخصية الغربية أنّ ذلك المرض يكمُن في عدم الاهتمام بأيّ كائن إلاّ باعتباره "جمادا"، أي في صورة واقع مجرّد من كلّ قيمة ومن أيّ معنى، أما إيريك فروم Erich Fromm فقد تحدّث عن النكروفيليا[1] *nécrophélie* وتساءل قائلا: "هل كانت النكروفيليا سمة تميّز إنسان النصف الثاني من القرن العشرين في الولايات المتحدة، وفي غيرها من المجتمعات الرأسمالية أو التي تسود فيها رأسمالية الدولة وهي مجتمعات متطوّرة جدّا هي أيضا؟"

من الواضح أنّ الشعراء أطلقوا التحذيرات هم أيضا فقد تفطّن نيتشه منذ القرن التاسع عشر إلى أنّ العلم من خلال حرصه على تصنيف كلّ شيء وعلى إخضاعه لـ"قوانين" كان في واقع الحال يروم تحقيق رغبة **الغربيين** في "استعادة شعور بالأمان"، ظلّ مفقودا لديهم. ومن ثمّ كان تساؤله القيّم: "ألم تكن غريزة الخوف هي التي تقودنا إلى المعرفة؟" لقد أدرك بكلّ تبصّر أنّ " قوّةً هدّامةً معادية للحياة"، كانت في الحقيقة إحدى أسس المشروع العلمي، عندما قال: "إنّ الرغبة في الحقيقة يمكن أن تنطوي على رغبة في الموت"، ورغم ذلك، فإنّ من المفارقات أنّ التحذيرات الأشدّ إلحاحًا جاءت من كلود برنار، كانت عباراته قويّةً قاسية عنيفة أيضا بالنظر إلى التجربة الطويلة التي خاضها هذا العالِم في مجال تخصّصه، لقد كتب يقول: "إنّ العلم يطوّر عقل العالِم، ولكنه يُميت قلبه". فهل بعد هذا البيان من بيان؟ لم تكن تلك زلّة لسان؛ لأنه ألحّ على القول إنّ "سيادة العقلانية"مآلها "هيمنة العقل وموت القلب"، وكان من البديهي أن يقول في الختام: "إنّ بشرًا

---

(١) الميل إلى مضاجعة الموتى. (المترجمان)

صنعهم العلم بهذه الطريقة، هم وحوش لا أخلاق لهم"، لقد وعى أنّ الثقافة الذهنية الخالصة حدودها ضيّقةٌ جدّا حين قال: "يحتاج الإنسان حتما إلى شيء يخاطب إحساسه، فالإحساس غالب على العقل دائما، ولن تختفي الغيبيّات أبدًا"، ولنسجّل -عرَضًا- أنّ كلود برنار كان يقدّر الشعر حقّ قدره، وكان واعيا للمخاطر التي كانت تُحْدِق به، فقد كتب يقول: "إنّ المادّية تقتل الفنّ والشعر والإحساس".

لقد أكّد كلود برنار سلفا، بخصوص مسألة جوهرية، توقّعات نيتشه وأتباع فروم Fromm، التي مفادها أنّ "العلم" يؤدّي إلى الموت، ولئن لم يتوصّل إلى تلك النتيجة عبر المسلك نفسه، فإنّ موقفه لم يكن أقلّ صرامة، فقد صرّح بأن "الإنسان عندما يعلم كلّ شيء عندها يكون قد قضى على نفسه بالفناء"، أو عندما قال: "لو علمتُ كلّ شيء لما استطعت العيش أبدا"، وتلك النصوص كلّها لم تنشر إلا نحو سنة ١٩٤٠، ولكنْ علينا أن نؤمن بأنّها لم تكن تُقرأ إلى حدود **الانفجار الأكبر** إلاّ لِماما. لقد استمرّ العلم دون هوادة في "موْضَعَة"[١] الطبيعة وتحليلها كما لو لم تكن سوى جثة آليّة ضخمة، فأنّى لمجتمع رضي لنفسه مثل تلك السلطة الروحية (للعلم) أن يستعيد التسامي إلى الأعالي؟ لقد سبق لنا أن ذكرنا أنّ الأمر يتعلّق بـ"غريزة موت" حقيقية (بما هي نقيض الشهوة والحبّ)، كانت تتجلّى في العلم الآلي الذي سبق أن عرضنا تاريخه الطويل، لقد بدا فرويد متشائما فعلا عندما كان يتحدّث عن "أمراض المجتمعات المتحضّرة" ورغم التشخيص الجيّد للقلق العميق الذي يشكوه **الغرب**، فإنّ ذلك حتْمًا لن يجدي نفعا، قال فرويد: " لا أحد يملك السلطة اللازمة ليفرض على الأمة العلاج المنشود".

إننا لنعلم اليوم أن هؤلاء المتشائمين كانوا على حقّ، فلقد كان مصير المجتمعات الصناعية التي صارت خاضعة للمال والآلة أكثر فأكثر، والتي نخرتها

---

(١) جعلها موضوعية. (المترجمان)

الفردانية أكثر فأكثر، وانقطعت صلتها بالحياة الكونية أكثر فأكثر، هو مصير الحضارات الأخرى التي غرقت في العنف. لقد اكتشف فريقنا البحثي بشيء من المرارة مفارقة صارخة، فهذا ديكارت الذي نهض بدور كارثي في التاريخ الروحي **للغرب** كتب في أيلول/ سبتمبر ١٦٤٥ رسالة رائعة إلى الأميرة إليزابيت دي بوهيم[١] Elisabeth de Bohème لا مكان فيها للحيوان الآلة ولا للعقلانية الجافة، وإنما لشعر بليغ ولمعنى أصيل في العدل والجود، يقول: " فعلى الرغم من أنّ كلّ واحدٍ منا يمثل شخصًا منفصلا عن الآخرين وتختلف بصورة من الصور مصالحه تبعا لذلك عن مصالح بقية الناس، فإنه ينبغي علينا -مع ذلك- أن نؤمن بأنّه لا يمكننا أن نعيش في وحدةٍ فُرادى، وأنّنا بالفعل من عناصر هذا الكون، ومن عناصر هذه الأرض على وجه الخصوص، من عناصر هذه **الدولة** وهذا المجتمع وهذه العائلة التي تشدّنا إليها أواصر السُكنى، ووشائج العهد والولادة، وينبغي أن نُؤْثِر مصالح الجمْع الذي ننتمي إليه على تلك التي تتعلّق بكلّ شخص على حِدة (...) وإذا ما نسبنا كلّ شيء إلى ذواتنا لم نخْشَ إلحاق الضرر بالآخرين، وإذا ما فكّرنا في انتزاع بعضٍ من مصالحنا الهينة منهم، فعندئذ لن تكون هناك أيّ صداقة حقيقية ولا إخلاص، ولن يكون هناك عموما أيّ فضيلة، وأمّا إذا اعتبرنا أنفسنا جزءا من الجمهور، سننعم عندئذ بفعل الخير تجاه الناس جميعا، ولن نخشى التضحية بحياتنا لخدمة الآخرين عندما تكون الفرصة سانحة لذلك".

ولكن تلك الرسالة كانت شخصيّة في واقع الأمر، فهل كان يمكن أن تغيّر شيئا في مصير **الغرب** وإن قلّ، رغم ما حظيت به من إعلان؟ هل كان يمكن أن تحول دون وقوع الكارثة؟ الإجابة "حتما لا"، وكذلك أجاب الأستاذ دوبان.

---

(١) منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى، هي اليوم إحدى مكوّنات جمهورية التشيك. (المترجمان)

قائمة المراجع

إنّ تاريخ النشر المكتوب على كلّ مرجع من المراجع، هو تاريخ الطبعة التي استعملها فريقنا البحثي.

- ADAS Michael, *Machines as the measure of men. Science, technology and ideology of Western dominance*, Cornell University Press, 1989.
- AMIEL Henri-Frédéric, *Fragments d'un journal intime*, Stock, 1949.
- ARISTOTE, *Éthique à Nicomaque*, Vrin, 1959.
- ARSAC Jacques, *Les machines à penser. Des ordinateurs et des hommes*, Seuil, 1987.
- BAILLET Adrien, *Vie de Monsieur Descartes*, La Table ronde, 1946.
- BALDICK Chris, *In Frankenstein's shadow. Myth, monstrosity and nineteenth- century writing*, Clarendon Press (Oxford), 1987.
- BEAUNE Jean-Claude, *L'automate et ses mobiles*, Flammarion, 1980.
- BERNARD Claude, *Introduction à l'étude de la médecine expérimentale*, Bel- fond, 1966.
- BERNARD Claude, *Morceaux choisis* (choix et préface de J. Rostand), Gallimard, 1938.
- BERNARD Claude, *Cahier de notes, 1850-1860* (édition intégrale du «Cahier rouge » présentée et commentée par Mirko Grmek), Gallimard, 1965.
- BERNARD Jean, « La femme dans cent ans », *Le Monde*, 7-8 février 1982.

- BION Wilfred R., *Aux sources de l'expérience*, Presses Universitaires de France, 1991.
- BLOY Léon, *Exégèse des lieux communs*, Mercure de France, 1902.
- BORDE Raymond, *L'extricable*, Éric Losteld, 1970.
- BOUVERESSEE Jacques, *La parole malheureuse*, Éditions de Minuit, 1971.
- BOIVERESSE-QUILLOT Renée, QUILLOT Roland, *Les critiques de la psychanalyse*, Presses Universitaires de France, 1991.
- BRAUDEL Fernand, *Civilisation matérielle et capitalisme (XV^e^-XVIII^e^ siècle)*, Armand Colin, 1967.
- BRAUDEL Fernand, *Grammaire des civilisations*, Flammarion,1993.
- BREMOND Janine, GELEDAN Alain. *Dictionnaire économique et social*, Hatier, 1981.
- BRETON Philippe, PROULX Serge, *L'explosion de la communication. La naissance d'une nouvelle idéologie*, Le Découverte, 1989.
- BRETON Philippe, *L'utopie de la communication*, La Découverte, 1992.
- BURNET Macfarlane, *Le programme et l'erreur*, Albin MicheL, 1982.
- CAMUS Albert, *Essais*, Gallimard, 1965.
- CARREL Alexis, *L'homme, cet inconnu*, Plon, 1979.
- CASSIRER Ernst, *La philosophie des formes symboliques* (3 vol.), Éditions de Minuit, 1972.
- CASSIRER Ernst, *Individu et cosmos dans la philosophie de la Renaissance*, Éditions de Minuit, 1983.

- CASSIRER Ernst, *Logique des sciences de la culture*, Cerf, 1991.
- CAZENAVE Michel, *La science et l'âme du monde*, Éditions Séveyrat, 1990. CHANGEUX Jean-Pierre, CONNES Alain, *Matière à pensée*, Odile Jacob, 1989.
- CIPOLLA Carlo (ed.), *The Fontana economic history of Europe*. The Middle Ages, Collins-Fontana Books, 1972.
- CLARKE Robin, *La course à la mort, ou la technocratie de guerre*, Seuil, 1972.
- CLASTRES Pierre, *Chronique des Indiens Guayaki*, Plon, 1972.
- GLAVELIN Maurice, *La philosophie naturelle de Galilée*, Armand Colin, 1968.
- CLOSETS François de, *Toujours plus*, Grasset, 1984.
- COMTE Auguste, *Cours de philosophie positive* (6 vol.), 1830-1842 (reprint : Éditions Anthropos, 1968).
- COMTE Auguste, *Système de politique positive* (4 vol.), 1851-1854 (reprint : Éditions Anthropos, 1970).
- COMTE Auguste, *Synthèse subjective*, 1856 (reprint : Culture et civilisations, Bruxelles, 1969).
- CONDORCET, *Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain*, suivi de *Fragment sur l'Atlandide*, Flammarion, 1988.
- CORIAT Benjamin, *Science, technique et capital*, Seuil, 1976.
- COULIANO Ioan P., *Éros et magie à la Renaissance*, Flammarion, 1984.
- COULIANO Ioan P., *Expériences de l'extase*, Payot, 1984.

- CUES Nicolas de, *Œuvres choisies*, Aubier-Montaigne, 1942.
- CURIEN Hubert, « Vers le paradis de la connaissance », *Le Figaro*, 24 décembre 1990.
- DEBUS Allen G., *Man and nature in the Renaissance*, Cambridge University Press, 1978.
- DESCARTES, *Œuvres et lettres*, Gallimard, 1952.
- DEVEREUX Georges, *Essais d'ethnopsychiatrie générale*, Gallimard, 1977.
- DIJKSTERHUIS E.J., *The mechanization of the world picture*, Oxford University Press, 1969.
- DODDS E.R., *Les Grecs et l'irrationnel*, Flammarion, 1977.
- DORON Roland, PAROI Françoise, *Dictionnaire de psychologie*, Presses Universitaires de France, 1991.
- DOSTOÏEVSKIi Fedor, *Le bourgeois de Paris*, Simon Kra, 1926.
- DOSTOÏEVSKIi Fedor, *Notes d'un souterrain*, Flammarion, 1992.
- DRAKE Stillman, *Galileo at work. His scientific biography*, University of Chicago Press, 1978.
- DREYFUS Hubert, *Intelligence artificielle: mythes et limites*, Flammarion, 1984.
- DUBY Georges, *Le temps des cathédrales*, Gallimard, 1976.
- DuBy Georges (sous la direction de), *Histoire de la France urbaine*, vol. II: *La ville médiévale*, Seuil, 1980.
- DURBIN Paul (ed.), *Research in philosophy and technology*, Jai Press (Greenwich, Connecticut), 1978.

- DURKHEIM Émile, *Les formes élémentaires de la vie religieuse*, Félix Alcan, 1925.
- DUTHUIT Georges, *Le musée inimaginable* (3 vol.), José Corti, 1956.
- EASLEA Brian, *Science et philosophie. Une révolution, 1450-1750. La chasse aux sorcières. Descartes, Copernic, Kepler*, Ramsay, 1986.
- EASLEA Brian, *Science and sexual oppression: Patriarchy's confrontation with woman and nature*, Weidenfeld and Nicolson (London), 1981.
- EASLEA Brian, *Fathering the unthinkable. Masculinity, scientist and the nuclear arms race*, Pluto Press (London), 1983.
- EINSTEIN Albert, *Comment je vois le monde*, Flammarion, 1979.
- EINSTEIN Albert, *Le pouvoir nu. Propos sur la guerre et la paix*, 1914-1955, Hermann, 1991.
- EINSTEIN Albert, *Science, éthique et philosophie*, Seuil, 1991.
- ELLADE Mircea, *Le sacré et le profane*, Gallimard, 1965.
- ELLUL Jacques, *La technique au l'enjeu du siècle*, Armand Colin, 1954.
- ELLUL Jacques, *Exégèse des nouveaux lieux communs*, La Table ronde, 1994.
- EVANs-PRITCHARD Edward, *La religion des primitifs*, Payot 1971.
- EWALD François, *L'État-Providence*, Grasset 1986.
- FERRY Luc, «Faut-il avoir peur de la science? Frankenstein et l'apprenti sorcier» (propos recueillis par G. Pessis-Pasternak), *Libération*, 16 décembre 1992.

- FESTUGIERE A.J., *La révélation d'Hermès Trismégiste* (3 vol.), Les Belles Lettres, 1983-1986.
- FEYERABEND Paul, *Contre la méthode*, Seuil, 1979.
- FEYERABEND Paul, *Adieu la raison*, Seuil, 1992.
- FREUD Sigmund, *Essais de psychanalyse*, Payot, 1950.
- FREUD Sigmund, Malaise dans la civilisation, Presses Universitaires de France, 1971.
- FREUD Sigmund. *Nouvelles conférences sur la psychanalyse*, Gallimard, 1936.
- FREUD Sigmund, *Abrégé de psychanalyse*, Presses, Universitaires de France, 1964.
- FROMM Erich, *La passion de détruire*, Robert Laffont, 1975.
- FROMM Ench, *Grandeur et limites de la pensée freudienne*, Robert Laffont, 1980.
- [GALILÉE], *Les mécaniques de Galilée, mathématicien et ingénieur du duc de Florence*, résumées et traduites par le P. Marin Mersenne, Presses Universitaires de France, 1966.
- GALILÉE, *Dialogue sur les deux grands systèmes du monde*, Seuil, 1992.
- GALILÉE, *Discours et démonstrations mathématiques concernant deux sciences nouvelles*, Armand Colin, 1970.
- GARIN Eugenio, *Moyen Âge et Renaissance*, Gallimard, 1969.
- GARIN Eugenio, *Le Zodiaque de la vie*, Les Belles Lettres, 1991.

- GEORGE Henry, *Progrès et pauvreté*, Robert Schalkenbach Foundation (New York), 1968.
- GEYMONAT Ludovico, *Galilée*, Robert Laffont, 1968.
- GILLE Bertrand, *Les ingénieurs de la Renaissance*, Hermann, 1964.
- GILLE Bertrand, *Histoire des techniques*, Gallimard, 1978
- GIRARDIN Pierre, *L'automatisation de la société : danger?*, Édition Agence d'ARC (Ottawa), 1990.
- GOLDMANN Lucien, *Structures mentales et création culturelle*, Union Générale d'Editions, 1970.
- GOODY Jack, *La raison graphique. La domestication de la pensée sauvage*, Édition de Minuit, 1979.
- [GRAMSCI Antonio], *Gramsci dans le texte*, recueil réalisé par François Ricci, Éditions sociales, 1975.
- GRANET Marcel, *La pensée chinoise*, Albin Michel, 1968.
- GRANGE Dominique, *L'enfant derrière la vitre*, Encre, 1985.
- GRASSÉ Pierre Paul, *L'homme en accusation. De la biologie à la politique*, Albin Michel, 1980.
- GRMEK Mirko, *La première révolution biologique*, Payot, 1990.
- GROETHUYSEN Bernard, *Origines de l'esprit bourgeois en France*, Gallimard, 1927.
- GUEDENEY Colette, MENDEL Gérald, *L'angoisse atomique et les centrales nucléaires*, Payot, 1978.
- GUILLAUMAUD Jacques, *Norbert Wiener et la cybernétique*, Seghers, 1971.

- GUIZOT François, *Hiſtoire de la civilisation en Europe*, librairie académique Didier, 1828.
- GUSDORF Georges, *Fondements du savoir romantique*, Payot, 1982.
- GUSDORF Georges, *L'homme romantique*, Payot, 1984.
- GUSDORF Georges, Le savoir romantique de la nature, Payot, 1985.
- HARDING Sandra, O'BARR Jean F., *Sex and scientific inquiry*, The University of Chicago Press, 1987.
- HASKINS Charles H., *The Renaissance of the twelfth century*, Harvard University Press, 1928.
- HAUDRICOURT André-Georges, *La technologie science humaine. Recherches d'hiſtoire et d'ethnologie des techniques*, Éditions la Maison des sciences de l'homme, 1987.
- HAYEK Friedrich von. *The couter-revolution of science. Study on the abuse of reason*, The Free Press of Glencoe, Collier-Macmillan, 1964.
- HAYEK Friedrich von. *Scientisme et sciences sociales* (traduction partielle de l'ouvrage précédent), Plon, 1986.
- HAWKING Stephen. *Une brève hiſtoire du temps*, Flammarion, 1989.
- HEER Friedrich, *L'univers du Moyen Âge*, Fayard, 1970.
- HEERS Jacques, *Les temps dits de transition (1300-1520 environ)*, Mentha, 1992.
- HELLFR Michel, *La machine et les rouages*, Gallimard, 1994.
- HERDER Johann Gottfried, *Idées pour la philosophie de l'hiſtoire de l'humanité*, Aubier, 1962.

- HIGGINS Robert-William, « L'événement de la mort et «le» symbolique », *Psychanalystes* (Revue du Collège de psychanalystes), octobre 1988.
- HOBBES Thomas, *Léviathan*, Sirey, 1971.
- HUSSERL. Edmund, « La crise de l'humanité européenne et la philosophie », *Revue de métaphysique et de morale*, n° 3, 1950.
- HUXLEY Julian. *Essais d'un biologiste*, Stock, 1946.
- HUXLEY Thomas H., *Collected essays*, vol. I: M*ethods and results*, Macmillan, 1893.
- JACOB François, *La logique du vivant. Une histoire de l'hérédité*, Gallimard, 1970.
- JACOB François, *Le jeu des possibles. Essai sur la diversité du vivant*, Fayard, 1981.
- JAYNES Julian". The problem of animale motion in the seventeenth century », *Journal of the History of Ideas*. avril-juin 1970.
- JÜNGER Ernst, *Le mur du temps*, Gallimard, 1944.
- KROHN W., LAYTON E., WEINGART P. (eds), *The dynamics of science and technology*, Reidel, 1978.
- LAGADEC Patrick. États d'urgence. *Défaillances technologiques et désiabilisation sociale*, Seuil, 1988.
- LANDES David, *L'Europe technicienne. Révolution technique et libre essor industriel en Europe occidentale de 1750 à nos jours*, Gallimard, 1975.
- LEACH Gerald, *Les biocrates, manipulateurs de la vie*, Seuil, 1970.
- LEIBNIZ, *La monadologie*, Delagrave, 1956.

- LE GOFF Jacques, *La civilisation de l'Occident médiéval*, Arthaud, 1972.
- LE GOFF Jacques, *Pour un autre Moyen Âge. Temps, travail et culture en Occident*, Gallimard, 1978.
- LE GOFF Jacques, *La naissance du purgatoire*, Gallimard, 1981.
- LENOBLE Robert, *Mersenne ou la naissance du mécanisme*, Vrin, 1971.
- LÉONARD DE VINCI , *Carnets* (2 vol.), Gallimard, 1942.
- LEPRINCE-RINGUET Louis, *Science et bonheur des hommes*, Flammarion, 1973.
- LEROUX Pierre, *Aux philosophes, aux artistes, aux politiques. Trois discours et autres textes*, Payot, 1994.
- LÉVI-STRAUSS Claude, *Le regard éloigné*, Plon 1983.
- LÉVY-BRUHL Lucien, *Carnets*, Presses Universitaires de France, 1949.
- LOEB Jacques, *La dynamique des phénomènes de la vie*, Félix Alcan, 1908.
- LORENZ Konrad, *L'agression. Une histoire naturelle du mal*, Flammarion, 1969.
- MALRAUX André, *La tentation de l'Occident*, Grasset, 1926.
- MARX Karl, *Œuvres. Économie*, vol. I, Gallimard, 1951.
- MARx Karl, ENGEls Friedrich, *Lettres sur les sciences de la nature*, Éditions sociales, 1973.
- MAUSS Marcel (en collaboration avec H. Hubert), « Essai sur la nature et la fonction du sacrifice », *L'Année sociologique*, 2, 1899, In Œuvres, t. I, Éditions de Minuit, 1968.

- MAUSS Marcel, « Essai sur le don. Forme et raison de l'échange dans les sociétés archaïques », *L'Année sociologique*, nouvelle série, 1, 1925, *in Sociologie et anthropologie*, Presses Universitaires de France, 1950.
- MCLUHAN Marshall, FIORE Quentin, *The medium is the massage*, Penguin Books, 1967.
- MELVILLE Herman, *Benito Cereno et autres contes de la véranda*, Gallimard, 1951.
- MENAHEM Georges, *La science et le militaire*, Seuil, 1976.
- MERCHANT Carolyn, *The death of nature. Women, ecology and the Scientific Revolution*, Harper and Row (New York), 1983.
- MICHELET Jules, *Le peuple*, Calmann-Lévy, 1889.
- MICHELET Jules, *La sorcière*, Flammarion, 1966.
- MICHELET Jules, *La Bible de l'humanité*, Chamerot, 1864.
- MISHIMA Yukio, *Le Japon moderne et l'éthique samouraï*, Gallimard, 1985.
- MONOD Jacques, *Le hasard et la nécessité*, Seuil, 1970.
- MOSCOVICI Serge, *Essai sur l'histoire humaine de la nature*, Flammarion, 1968.
- MUCHEMBLED Robert (sous la direction de), *Magie et sorcellerie en Europe*, Armand Colin, 1994.
- MUMFORD Lewis, *Technique et civilisation*, Seuil, 1950.
- MUSSON A.E., ROBINSON Eric, *Science and technology in the Industrial Revolution*, Manchester University Press, 1969.

- NEEDHAM Joseph, *Science and civilization in China*, vol. II: *History of scientific thought*, Cambridge University Press, 1969.
- NEEDHAM Joseph, *La science chinoise et l'Occident*, Seuil, 1973.
- NEEDHAM Joseph, *La tradition scientifique chinoise*, Hermann, 1974.
- NIETZSCHE Friedrich, *La naissance de la tragédie*, Gonthier, 1964.
- NIETZSCHE Friedrich, *Le gai savoir*, Gallimard, 1950. ,
- NIETZSCHE Friedrich, *Le crépuscule des idoles*, Mercure de France, 1952.
- NOVALIS, *Œuvres complètes*, t. II : *Les fragments*, Gallimard, 1975.
- ORESME Nicolas, *Traité des monnaies* (suivi d'autres écrits monétaires du XIVe siècle), présentation de Claude Dupuy, La Manufacture, 1989.
- PARKER Geoffrey, *The military revolution. Military innovation and the rise of the West, 1500-1800*, Cambridge University Press, 1988.
- PASCAL Blaise, *Œuvres complètes*, Gallimard, 1954.
- PAULY Philip J., *Controlling life. Jacques Loeb and the engineering ideal in biology*, Oxford University Press, 1987.
- PAVESE Cesare; *La trilogie des machines*, Mille et une nuits, 1994.
- PÉGUY Charles, *La thèse*, Gallimard, 1955.
- PÉGUY Charles, *Œuvres en prose complètes*, Gallimard, vol. I,1987, vol. II, 1988.
- PERNOUD Régine, *Histoire de la bourgeoisie en France* (2 vol.), Seuil, 1960.

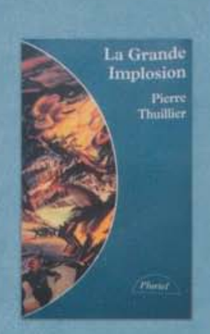
- POIRIER Jean (sous la direction de), *Histoire des mœurs* (3 vol.), Gallimard, 1991-1991. (Contient des articles de Jacques BARRAU, Raymond PUJOL et Geneviève CARBONE, Erik GONTHIER, Jean-William LAPIERRE, Philippe J. BERNARD, Olivier JUILLIARD, Louis-Vincent THOMAS, Jean SERVIER, André-Clément DÉCOUFLÉ, Georges-Henri RIVIÉRE et Jean-François LEROUX-DHUYS, Jacques LE GOFF et Michel LAUWERS, etc.).
- POPPER Karl, *Conjectures et réfutations*, Payot, 1985.
- QUENEAU Raymond (sous la direction de), *Histoire des littératures*, vol. I: *Littératures anciennes, orientales et orales*, Gallimard, 1955.
- QUINET Edgar, *Le génie des religions*, Pagnerre, 1857.
- RAPP Friedrich (ed.), *Contributions to a philosophy of technology*, Reidel, 1974.
- RAVETZ Jerome R., *Scientific knowledge and its social problems*, Clarendon Press, 1971.
- RENAN Ernest, *L'avenir de la science*. Pensées de 1848, Calmann-Lévy, 1890.
- RENOUARD Yves, Les hommes d'affaires italiens du Moyen Âge, Armand Colin, 1949.
- RIFKIN Jeremy, HOWARD Ted, *Les apprentis sorciers. Demain la biologie…*, Ramsay, 1979.
- ROQUEPLO Philippe, *Le partage du savoir*, Seuil, 1974.
- ROQUEPLO Philippe, *Penser la technique. Pour une démocratie concrète*, Seuil, 1983.

- ROSMORDUC Jean, l'ELCHAT Dominique, *25 mots clés de la culture scientifique*, Marabout. 1993.
- ROUGIER Louis, *Le génie de l'Occident*, Robert Laffont, 1966.
- SAHLINS Marshall, *Critique de la sociobiologie*, Gallimard, 1980.
- SAINT-SIMON Claude-Henri de, *Œuvres complètes* (6 vol.), Éditions Anthropos 1966.
- SALOMON Jean-Jacques, *Science et politique*, Economica, 1989.
- SALOMON Jean-Jacques, *Le destin technologique*, Gallimard, 1993.
- SCHUHL Pierre-Maxime *Machinisme et philosophie*, Presses Universitaires de France, 1938.
- *Science et conscience*. Les deux lectures de l'univers (Actes du colloque de Cordoue, octobre 1979), France-Culture, Stock, 1980.
- SFEZ Lucien, *Critique de la communication*, Seuil, 1988.
- SHELLEY Mary, *Frankenstein ou le Prométhée moderne*, Flammarion, 1979.
- SIMMEL Georg, *Philosophie de la modernité*, Payot, 1989.
- SKINNER Burrhus Frederic, *Par-delà la liberté et la dignité*, Robert Laffont et Éditions Hurtubise HMH, 1982.
- SOREL Georges, *Les illusion du progrès*, Marcel Rivière, 1910.
- SOREL Georges, De *l'utilité du pragmatisme*, Marcel Rivière, 1917.
- *Sortir la maternité du laboratoire* (Actes du Forum international sur les nouvelles technologies de reproduction, Montréal, octobre 1987), Gouvernement du Québec, Conseil du statut de la femme, 1988.

- SPENCER Herbert, *Essais sur le progrès*, Félix Alcan, 1986.
- SPENGLER Oswald, *Le déclin de l'Occident* (2 voL), Gallimard, 1948.
- SUGIMOTO Kenji, *Albert Einstein, biographie illustrée*, Belin, 1990.
- TAMBIAH Stanley J., *Magic, science, religion and the scope of rationality*, Cambridge University Press, 1990.
- TERMIER Pierre, *La joie de connaître*, Desclée de Brouwer, 1925.
- TERMIER Pierre, *La vocation de savant*, Desclée de Brouwer, 1929.
- TESTART Jacques, *L'oeuf transparent*, Flammarion, 1986.
- TESTART Jacques (en collaboration), *Le magasin des enfants*, François Bourin, 1992.
- TESTART Jacques, *Le désir du gène*, François Boufin, 1992.
- THOMAS Keith, *Religion and the decline of magic*, Peregrine Books, 1978.
- THOMAS Keith, *Man and the natural world*, Allen Lane, 1983.
- THUILLIER Pierre, *Le petit savant illustré*, Seuil, 1980.
- THUILLIER Pierre, *Les biologistes vont-ils prendre le pouvoir?*, Complexe, 1981.
- THUILLIER Pierre, *D'Archimède d Einstein*, Fayard, 1988.
- THUILLIER Pierre, *Les passions du savoir*, Fayard, 1988.
- TINCO Henri, « Paganisme, le retour », *Le monde*, 22 août 1992.
- TOCQUEVILLE Alexis de, *De la démocratie en Amérique* (2 vol.), Flammarion, 1981.

- TOMAN Rolf (sous la direction de), *Le haut Moyen Âge*, Taschm 1990.
- TOURAINE Jean-Louis, *L'enfant hors de la brulle*, Flammarion, 1985.
- TOYNBEE Arnold J., *La religion vue par un historien*, Gallimard, 1963.
- VALÉRY Paul, *Cahiers* (2 vol.), Gallimard, 1974.
- VAN GULIK Robert, *La vie sexuelle dans la Chine antique*, Gallimard, 197 1.
- VEBLEN Thorstein, *The place of science in modern civilization and other essays*, Russel and Russel, 1961.
- VIÉ LE SAGE Renaud, *La Terre en otage*, Seuil, 1989.
- VILLIERS DE L'ISLE-ADAM Auguste, *L'Ève future*, Gallimard, 1993.
- VILAINE Anne-Marie de, GAVARINI Laurence, Le COADIC Michèle (sous la direction de), Maternité en mouvement. Les femmes, la reproduction les hommes de science, Presses Universitaires de Grenoble, Éditions Saint-Martin de Montréal, 1986.
- WEBER Max, *L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme*, Plon, 1964.
- WEBER Max, *Essais sur la théorie de la science*, Plon, 1965.
- WEBER Max, *La ville*, Aubier, 1982.
- WFIL Dominique, *Une parole sans sujet. La psychologie et le langage*, 1880- 1980, Peter Lang (Berne), 1988.
- WELLS Herbert George, *La machine à explorer le temps. L'île du docteur Moreau*, Mercure de France, 1975.

- WHITE Jr Lynn, *Medieval technology and social change*, Oxford University Press, 1962.
- WHITE Jr Lynn, *Medieval religion and technology*, University of California Press, 1978.
- WHITEHEAD Alfred North, *Aventure d'idées*, Cerf, 1993.
- WIENER Norbert, *Cybernétique et société*, Union générale d'édition, 1971.
- WILSON Edward O., *Sociobiology. The new synthesis*, Belknap Press of Harvard University Press, 1975.
- WILSON Edward O., *L'humaine nature(essai de sociobiology)*, Stock, 1979.
- YATES Frances A., *Giordano Bruno et la tradition hermétique*, Dervy-Livres, 1988.
- YATES Frances A., *La philosophie élisabéthaine*, Dervy-Livres, 1987.
- ziegler Jean, *Les vivants et la mort*, Seuil, 1975.



الانفجار الأكبر

تقرير حول انهيار الغرب

2002-1999

نحن نتوق إلى فهم التاريخ الروحي للغرب. ما هي "الثقافة الغربية الحديثة"؟ متى نشأت وكيف نشأت؟ وعلى أيّ خيارات وأيّ مبادئ وأيّ عقائد كانت قد أسّست؟ لماذا آلت إلى الخراب رُويدا رويدا؟ لماذا لم يَسْتَبْصر الغربيون قُدومَ الكارثة؟ لماذا لم يتمكّنوا من اجتنابها بأيّ حال من الأحوال؟

سنتبيّن عند قراءة هذه الصفحات أنّ هذه المشكلة قد شغلت أذهاننا باستمرار، بل إنّها قد صارت هاجسا لدينا، إذ كيف يحدث أنّ الغرب الذي كانت نُخبه على غاية من الذّكاء والعقلانية والعِلْميّة قد استخفّ بتلك التحذيرات كلّها؟ هل كان من المحتوم إذن أن يسقط في مثل ذاك الخمود الروحي فينتهي إلى القضاء على نفسه بالهلاك؟

الرأي عندنا أنّه كان هناك ما يشبه السرّ، ذلك أنّنا إذا ما احتكمنا إلى الوثائق الكثيرة التي حصلنا عليها، ألْفَيْنَا أنّ الغرب كان يتوفّر عمليا على المعلومات كلّها والمعارف جميعها وسائر وسائل العمل التي كان يمكن (مبدئيا) أن تُتيح له اليقظة وضمان البقاء. فلماذا إذن أصرّ على اتّباع طريق يُفضي به -بداهةً- إلى الأسوأ ؟ فكلّما تقصّينا الثقافة الغربية وبحثنا عن خصائصها الجوهرية ونقاط قوّتها وضعفها أدركنا - قبل حدوث الانفجار الأكبر بزمن بعيد - أنّ كلّ ما ينبغي أن يُقال كان قد قيل.


ISBN 978-603-91618-0-6

